

ابراهيم الكوني

Twitter: @alqareah
12.4.2015

السحرة

رواية



الجزء الاول



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ابراهيم الكوني

البرستيج

رواية

الجزء الأول



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

إلى "آذجر" :
فردوس الأسلاف ،
ملائكة الجن ،
وطن الآلهة والرؤى السماوية .

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الحجاز، بناية
مبنى الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البريدي: موكباني، ٨٧٩٠٠/١
تلекс: ٤٠٦٧ LE / DIRKAY

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عَدَّمات
من.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٤٢٢، ٦٠٥٥٥٠١
٩١٤٩٧ - تلекс

الطبعة الأولى

١٩٩٤

« كل ظاهرة فوق الأرض رمز . وكل رمز هو بوابة تلجمها كل روح اكتسبت قابلية التسلل في أحشاء العالم ، حيث، أصبح أنا وأنت ، النهار والليل ، كلاً واحداً . يتصادف هنا أو هناك ، في طريق الحياة ، أن تتعثرض الإنسان بوابة مشرعة ، كما يحدث أن تراود الإنسان فكرة أن كل شئ جليٌّ هو رمز . وفي مكان ما وراء هذا الرمز تقوم الروح والحياة الأبدية . ولكن قليلاً جداً أولئك الذين يلجون هذه البوابة ليرفضوا الجلجلَيِّ الحميم في سبيل واقع الاحشاء الشفاف » .

هرمان هيسة

« زهرة السوسن »

• • •

« نحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى ، بل إلى التي لا تُرى . لأنَّ التي تُرى وقتنية ، وأما التي لا تُرى ، فآبديّة » .
رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس

القسم الأول

١- بورو

« .. وأما من كان معاشهم في الأبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا ، لأن مسارات التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الأبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحمة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوانه ، وطليبا لما خض التاج في رماله ، اذ الأبل اصعب الحيوان فصانا ومخاضا واحوجها في ذلك الى الدفء ، فاضطروا الى ابعاد النجعة ، وربما زادتهم الحامية عن التلول ايضا فأوغلووا في القفار نفرة عن الضعنة منهم ، فكأنوا بذلك أشد الناس توحشا » .

ابن خلدون

(المقدمة)

(١)

عندما لاح في الأفق ، يعتليُ السنّة السرّاب الزرقاء ، بدا عملاًقاً مثل مارد ينوي أن يشقُّ الفضاء ، أو جبل عمودي سقط من السماء وغاص في مياه تفيض بها الصحراء كلّما حلّت القيولة . استمات الشّبح . جاهد الغلالات الزرقاء . عاند لعبور المستنقع الفاجع . حاول التخلّص من فخّ لم يكتب لعاير أن ينجو منه يوماً . ولكن المسافر لا بد أن يمضي إذا أراد أن يعبر المتأهّة ، وما على الصحراء إلّا أن تتدفق بالاستهـا الناريـة الزرقاء ، وتدفع في وجهه بأمواج بحر كاذب ، فاجع ، هو أقسى وأقدر على الغدر من كل البحار العظيمة التي تناقلت سيرتها السنّة الرواة ، ورددـها أهل الصحراء في الأساطير .

أبتسـم وهو يقف تحت الطلحة ، ويراقب عراك الشـبح مع السـراب . تتدفع الأمواج اللثيمـة وتنترع ضحيتها من يد الصـحراء ، تعـثـبـ بها قليـلاً . تهدـدهـا بكـفـ شـيطـانـي ، انـثـوي ، لـعـوبـ ، فيـستـجـيبـ الجـسـدـ البـائـسـ بالـرـقصـ . تـرـفـعـهـ إلىـ أـعـلـىـ . تـلـقـيـ بهـ فيـ الـهـوـاءـ فيـتـلـوـيـ ويـسـطـيلـ فيـ قـامـةـ خـراـفـيـةـ ، كـأنـهـ يـنـوـيـ اـخـتـرـاقـ الفـضـاءـ . وـلـكـنـ الكـائـنـ اللـعـوبـ يـتـقـلـ إـلـىـ دـورـ جـديـدـ فـيـ لـعـبـهـ . يـقـصـمـ ظـهـرـ الشـبحـ نـصـفـينـ . يـلـوـحـ بـالـنـصـفـ الـعـلـوـيـ فـيـ الفـضـاءـ ، وـيـلـقـيـ بـالـنـصـفـ السـفـلـيـ إـلـىـ الـيـمـ . يـضـيـعـ النـصـفـ الـعـلـوـيـ فـيـ المـتـاهـةـ الـعـلـيـاـ ، وـيـفـرـقـ النـصـفـ السـفـلـيـ فـيـ فـيـضـ

الموح . يقهقِه الكائن اللعوب ، يستلقي الى الوراء متتشيا باللعب ، متباهيا باللَّعب ، يتوقف فجأة ، ويبدأ في لملمة الأسمال الشقية كأنه تلقى أمراً صارماً من السماء . يعيد تركيب الجسد . يبدأ الخلق بضجر . يعشِر الأعداء في الهواء . يأتي بالذراع اليمنى ويلصقها بالمنكب الأيسر ، ويضع الذراع اليسرى في المنكب الأيمن . يتسنم بدھاء قبل أن يعكس الخلقة : يتوج المنكبين بالرجلين ، ويأخذ الرأس ليضعه أسفل الجسد ، ليقوم بدور القدمين ، فيحصل الشقى على مخلوق مقلوب ! تنتهره السماء مرة أخرى فيكف . يكتسب قبل أن يعيد الأعضاء إلى الأصل . هنا ، فقط ، يستعيد المسافر البائس جسده ورأسه وروحه وخليقته البشرية .

فَكَرْ بورو ، وهو يرى المهاجر يستعيد ملامح المخلوقات الأرضية ، أن المسافر لم ينتصر في العراق فقط ، ولكن لا بد وأن يكون قد اقترب أيضاً .

قفز الى عرف الطلحة ، وفكَ الخيط الجلدي الذي يربطه بالقربة . تناول وعاء النحاسي الأثير ، المطلٰ من الدَّاخل بطبقة القصدير ، وترك فم القربة يدلق الماء في قعر الوعاء الساحر بلقلقة نبيلة ، غامضة ، ذكرتَه برقرفة مياه الينابيع في تاسيلي ، وهي تندفع من قسم خفيف في أعلى الجبال ، وتهوي بشقاوة عبر دروب حجرية صعبة . ولكن السائل العجيب يعرف دائماً كيف يتحايل ، ويتمايل ، ويدور ،

ليجد الطريق الى الأرض الظمائي . ويحدث أن يحفر جحوراً في الأرض الجبلية الأخرى ، ويتدلى ، من فوق ، في خيوط جذابة ، طويلة، تظل تلمع تحت أشعة الشمس ، وهي تلغو وتمر بلغتها المبهمة ، لتحاور الحجارة في رحلة العبور . الآن ينطلق الماء في فم القرية بنفس الرطانة الغامضة وهو يهوي في القصدير . الماء كائن عاشق ، يندفع شوقاً كي يقبل القصدير . القصدير قرين الماء في اللون . للماء لون القصدير ، وللقصدير لون الماء . لكليهما نفس اللون ، لأن لا لون لكليهما . لونهما هو لون الكائن اللعوب أيضاً . الكائن الذي يحوم حوله ، ويستبدل بالصحراء بمجرد أن تخل القيلولة . وهو لا يريد الآن أن يذكر اسمه حتى لا يفتك بالمسافر المسكين ! نعم . الكائن اللعوب أيضاً لا لون له . ولكنه يعرف أيضاً أنه يشارك الرفاق الثلاث هذا اللون العجيب . هو أيضاً لا لون له مثله مثل الماء الرقراق ، والقصدير الراقد في قعر الوعاء الأثير ، و... اللسان الشره الذي يستبدل بالخلق ولا يشبع من تمزيق أجساد العابرين . وبشرته التي تشبه بشرة القرناء الثلاث ، البشرة التي لا لون لها ، كثيراً ما أثارت ضحك الرعاعة وقرناء الإنس . بل أنها أثارت حتى أهل الخفاء . فقد نزل ضيفاً على نبع هائل مع الغسق . ونحرت له هذه القبيلة النبيلة الذبائح بسخاء لم يعرفه في أهل الصحراء . وتناول أطعمة لم يذق لشيela طعماً . ثم جاء الشیوخ ذوو البشرة القصديرية المجيدة وسامروه حتى اقترب الفجر . وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه

وحيداً في العراء . بحث عن القبيلة الهائلة ، السخية ، التي لرجالها لون القصدier ، فلم يجدها . تفقد الآثار ، بحث عن رماد نيران البارحة ، فلم يعثر على أثر مخلوق ، ولم يجد حفنة من رماد النار . قرأ تعويذة قديمة ، وقام بجهد بطولي كي يمنع جسده من الاستسلام للقشعريرة التي تستولى على أبدان الجنـاء . فهم بحدس مجھول أنه نزل ضيفاً على قبائل الجنـ ، وتذكر كيف تحدث معهم عن الأنساب والاعراق فتأمله شيخ وقرر قبل أن ينطق بقول غامض :

« كلنا أقرباء . كلنا أبناء طينة واحدة . أنظر إلى يدك ! أليس لون بشرتك دليلاً على انتمائـك إلى هذه الأرض ؟ لون البشرة من لون الأرض . أنت ابنـا ! ونحن أبناء هذه الأرض ! فما حاجتكم إلى الحاجـة والعـنـاد ؟ ». يستطيع أن يفهم أنه ابنـ الأرض ، ولكن هل هو ابنـ من سلالة الجنـ مثل بوشا ؟ أم أنـ الأمر هو مزحة من الشيخ الجليل ؟ ولكن .. متى كان شيوخ الجنـ يمزحون ؟ . وإذا كان الشيخ المجهول قد تكلـم بالحق فلماذا لم يحدـثـه أحد بهذا النـسب ؟ كـم سـره عمـلاً بـحكـمة سـمعـها من عـرـافـ تـقول : « اذا استـقـبـلـكـ الجنـ بـيـنـهـمـ فقدـ أـخـتـارـوكـ بـيـنـ آـلـافـ الـخـلـوقـاتـ . أـكـمـ السـرـ اذا شـفـتـ أـلـآـ يـصـبـيـوـكـ بـأـذـىـ» ولكنـهمـ كـافـأـوـهـ عـلـىـ السـكـوتـ ، فـجـاءـهـ اليـقـينـ عـلـىـ لـسانـ أـحـدـ الرـعـاةـ عـنـدـمـاـ قـالـ فيـ أحـدـيـ اـمـسـيـاتـ الصـيفـ أـنـ الجنـ هـمـ الشـعـبـ الصـحـراـويـ الـوحـيدـ الـذـيـ يـتـجـنـبـ اـضـافـةـ الـلـمـحـ فـيـ الطـعـامـ . فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ اـسـتـولـتـ عـلـيـهـ

تلك القشريرة التي نجح يوما في دفعها عن بدنـه بكفاح الأبطال . تذكر أنـهم أطعـموه أذـنـطـعام كـتبـ لهـ أنـ يـذـوقـهـ فيـ حـيـاتـهـ ، ولـكـنـهـ نـسـواـ المـلـحـ . لمـ يـضـيفـواـ لـلـطـعـامـ ذـرـةـ مـلـحـ وـاحـدـةـ . فـكـيفـ كـانـ الطـعـامـ لـذـيـذاـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ دونـ مـلـحـ ؟ أمـ أـنـ سـرـ اللـذـذـةـ فـيـ غـيـابـ المـلـحـ ؟ إـذـنـ انـقـطـعـ الشـكـ ، والـيـقـيـنـ أـنـهـ كـانـ فـيـ ضـيـافـةـ الجـنـ . وـإـذـاـ كـانـ هـذـاـ الشـعـبـ الـخـفـيـ هوـ الـوـحـيدـ الـذـيـ لـاـ يـكـذـبـ أـبـداـ ، فـلـاـ مـفـرـ منـ أـنـ يـصـدـقـ الشـيـخـ الـوـقـورـ الـذـيـ أـخـبـرـهـ بـنـبـوـةـ لـمـ يـكـنـ لـهـ أـنـ يـعـرـفـهـاـ أـلـآـمـ مـنـ قـبـائـلـ جـاءـتـ مـنـ وـطـنـ النـبـوـةـ . الجنـ اـذـنـ أـيـضاـ بـلـوـنـ الـقـصـدـيـرـ الرـأـقـدـ فـيـ قـعـرـ الـوـعـاءـ النـحـاسـيـ ، بـلـوـنـ المـاءـ الـثـرـاثـ الـمـتـدـفـقـ مـنـ الـقـمـ ، بـلـوـنـ كـائـنـ لـعـوبـ يـجـوسـ فـيـ الـآـفـاقـ وـيـغـوـيـ الـمـهـاجـرـيـنـ ، بـلـوـنـ بـدـنـ لـاـ لـوـنـ لـهـ أـلـآـ لـوـنـ الـأـرـضـ التـيـ أـنـجـبـتـ مـعـدـنـ الـقـصـدـيـرـ كـمـاـ أـنـجـبـتـ جـنـيـنـاـ يـحـمـلـ نـفـسـ الـمـلـامـحـ وـيـدـبـ عـلـىـ قـدـمـيـنـ . الـأـرـضـ التـيـ لـاـ لـوـنـ لـهـ ، لـأـنـهـ كـانـتـ أـمـاـ أـنـجـبـتـ كـلـ الـأـلـوـانـ . صـنـعـتـ المـاءـ الـثـرـاثـ مـنـ لـعـابـهـ ، وـنـسـجـتـ أـلـسـنـةـ الـكـائـنـ الـلـعـوبـ مـنـ أـنـفـاسـهـ ، وـصـهـرـتـ الـقـصـدـيـرـ فـيـ مـوـقـدـهـ ، وـطـهـتـ الـجـانـ وـالـإـنـسـانـ فـيـ قـدـرـ وـاحـدـةـ ، وـلـمـ تـخـرـجـهـمـاـ إـلـىـ التـورـ الـأـبـوـيـ الرـحـيمـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ حـشـرـتـ الـأـنـسـ فـيـ وـعـاءـ أـعـدـتـهـ مـنـ طـينـ ، وـحـرـرـتـ الـجـنـ مـنـ الـوـزـرـ ، فـطـارـ عـبـرـ الـصـحـراءـ ، يـرـىـ وـيـسـمـعـ ، يـرـقـصـ وـيـغـنـيـ ، يـحـيـاـ وـيـمـوتـ ، يـسـيـحـ فـيـ الـأـفـقـ ، وـيـسـتـعـيرـ وـعـاءـ الـإـنـسـانـ عـنـدـمـاـ يـرـيدـ أـنـ يـتـبـدـيـ لـيـرـهـ قـرـيـنـهـ الـإـنـسـانـ .

وضع الوعاء على صدر الأرض محاذراً أن يدلق قطرة واحدة ،
ثم أنهك يربط فم القربة بخيط الجلد بعناية . التفت نحو الأفق . فاز
المسافر بالنجاة . تحرّر من قبضة السّراب وتبدي بخلقه الصحراوية .
نعم . السّراب . الآن يستطيع أن يسميه باسمه الحقيقي .

الآن يستطيع أن يجسر ويفتني :

نك آمان

نك آلهين

نك تزويلت

نك آمضال

نك ، كيو نان ، ايلل *

انحنى وتناول الوعاء . كان مليئاً حتى حافته بماء لعوب أيضاً مثل
السّراب اللعين . رأى كم هو مستحيل السير بأناء مليء إلى هذا الحدّ .
لامس الوعاء بشفتين مرتجلتين ورشف من الماء جرعتين كبيرتين . وعندما
تحرّك وخرج من ظلّ الطلعحة أحسّ بخجل لم يعرف له سبباً . لم

* أنا الماء !

أنا الجان !

أنا المعدن !

أنا التّراب !

أنا ، أنت ، أيها السّراب ! (تماهق) .

يتجرّع من الماء خوفاً من اضياع السائل النفيس ، ولكن لأنّه لم يقدر أن يقاوم اغراء الماء . فلم يحدث أن رفع وعاء مليئاً بالماء دون أن يشعر برعشة خفية ، ورغبة جنونية في رشفة . وكان يفعل ذلك دائمًا برغم أنه يعرف أن ندماً غامضاً سوف يعقب شراهته .

سار في عراء يشتعل بنار القيلولة ، مغطى بحشائش شاحبة ، نهبت منها الشمس النضارة ، فاستجارت بالحجارة ، والارض الظماء ، والهواء المصهور بالقيظ ، وعندما يئست ، تراجعت ، وانكفت بفجيعة باحثة في نفسها ، في جوفها ، عن الخلاص .

مضى لاستقبال المهاجر ، يتعثر في خطوه ، يمسك الوعاء بحرص من يحمل كنزاً . يستجيب السائل اللّاعب لمداعبات شمس القيلولة بفتح ووميض وشقاوة . يرتجف قلبه مع رقص الماء في الوعاء ، ولكن الرجفة لا تعرف الطريق إلى اليدين .

(٢)

ترجل المسافر عن السرج بقفزة الفرسان . الظّمآن غالب فترنّح وركع . جاهد وعand بكميراء الأبطال . وقف على قدميه . انتصب بقامته . انتصر الإنسان ، ولكن بورو شاهد في عينيه انكساراً خفيّاً . ليس تعب المسافة ، وليس حزن التّيه ، وإنما شيء آخر أكبر من الاتّهاب ، وأعمق من الاحزان . فهل هو فجيعة الهزيمة ؟ يجمع حكماء الصّحراء

أن لا شيء يقهر الرجل النبيل مثل الهزيمة . فهل تكلمت عيناه بالشقاء لأنه لم ينجح في أن يعبر الصحراء دون أن يتذوق ذلّ الظماً ؟

شيئ الوعاء بخسوع ، فتألّأً الألق النبيل نكایة بالشمس .

ارتفعت بينهما بحيرة صامتة ، تتلاعب بالشعا布 برغم لونها الصارم ، الكثيب ، الذي يشبه لون القصدير . الطلاء الغامض الذي لا لون له . لأنّه من الأرض خرج مثل كلّ الكنوز الصحراوية . مثل الذهب والحديد والماء والترفاس . استخرجه الحدادون السّحرّة من نفس النّبع . من نفس المجهول ليطلّوا به أوعية النحاس كي يعطوا السائل النبيل لون المجهول الذي لا لون له ، لأنّ الحدادين سحرّة . والسّاحر لا بدّ أن يبحث عن المعدن في بطن الأرض . لأنّ السّاحر وحده يعرف أنّ الأرض لا بدّ أن تعطى لونها لكنوزها ، لأنّها تملك كلّ الألوان ولا لون واحد لها . فهي حمراء وصفراء وسوداء وشهباء وبضاء . وعندما تجتمع هذه الألوان في لون واحد فانّ البهاء يتضاعف ، والألوان تختفي ، تنكفي حول نفسها كالقنفذ ، تتراجع إلى مكان ما في الخفاء ، فيختلف المزيج المدهش لوناً جديداً لا لون له هو لون الماء والجبن والودآن والريح والسراب والقصدير الذي يطلّي به السّحرّة أواني يشتريها المهاجرون الأبديون . تعطى الأرض لأجنتها من لونها المعتم ، الغامض ، النّبيل ، الفاجع . نعم . لونها لا لون له لأنّ فيه كلّ الألوان التّبيلة ، ولكنه فاجع . فاجع . فاجع . وقد سمع هؤلاء السّحرّة يقولون أنّ لون الماء من لون الاناء حتى يغروا امثاله ،

الذين يغويهم لون الأرض الحزينة لأنهم يعرفون انه لونهم أيضا ، كي
يشتروا أوانيهم المطلية بلون الكنوز الخفية .

والآن ها هو الماء الذي نزل من اليابس الخفية ككنز آخر ، وجرى
بشقاوة عبر المنحدرات ، يحاور الحجارة ، يثرثر مع ارواح الأسلاف
المحفورة في الصخور ، يمسح عن وجوههم الغبار ، يغنى الموال الذي
لقنه لكل المخلوقات فأبدع الحياة . ها هو يحمل كلمة السر التي تلتفها
من مسكنه المجهول ، وجاء مرحاً يتباهى ليوح بها لأشعة الشمس . ها
هو توأمك الذي مرّ في مسيرته الطويلة واختباً داخل قربته يخرج له لسانه
اللامع مداعباً ليدخل في جوف آخر يعيد له الحياة . ها هو يودعه قائلاً :
« سأمضي عاجلاً كي أجعل لك من الخلاائق توائم . سأمضي أنا ليكون
لكل المسافر تواماً . كنت منذ قليل تواماً لي . والآن أنت توأم المسافر . أنا
هو المسافر ، والمسافر هو أنت ! ». تنهَّد بورو وابتسم بغموض . سحب
الوعاء بيده اليمنى ودفع المسافر عن الماء . تراجع الرجل وبرق في مقلتيه
شقاء الظمان . ولكن بورو حمل الوعاء ومضى إلى الطلحة ، يقود دابة
الضييف من رسن ناعم مفتول من شعر الماعز . احترق بدن الأرض ،
وتوجّع التراب . في العراء تسکع اللهب . اشتعل الأفق . خلفه توأمك
اللقيم وانتزع الطلحة من جذورها . رفعها في الفضاء بيد لا لون لها وبدأ
معها لعبته اللثيمة . يطروح بها في الهواء ، ثم يتلتفها مقلوبة . يشطرها
نصفين بلسان النار ، ويرمي بها في الهواء ، ثم يتلتفها مقلوبة . يشطرها
نصفين بلسان النار ، ويرمي بها في اللهب . يستعيدها من الجحيم

ليمزقها ويصنع منها حطبا . ثم يعود لتجمیع الأطراف والأعراف ليعيدها شجرة ، تنفيذا لأمر صارم من السماء . يثبت الجذع ، تنزل الجذور إلى المجهول ، ترتفع الهامة إلى أعلى . تستعيد الطلحة فروتها ، وتحمد السماء على النجاة .

راقب اللعبة دون أن تفارق الابتسامة شفتيه .

خلفه مشى المسافر حائرا ، ولكن الخوف من العار جعله لا يترنح .

(٣)

صنع له وسادة من التراب عند الجذع ، ولكن المسافر هجع في الظل ، بجوار الامتنعة ، متّخذـا من ذراعه اليمنى وسادة . تنفس الجنوب بنسمة قاسية منذرة بهبوب القبلى . في فروة الطلع دب القلق . هرعت الوريقات الخضراء لتحتمي بالأشواك الفضية ، فانتصبـت الأشواك بقساوة السكاـكين لتدافع عن الحياة في الوريقات الصغيرة الوديعة التي انهكـها ظمـاً الـازل ، ولكنـها مصمـمة على مقاومة المجدـب إلى الأـبد .

أنصـت بورو لـنـاورـاتـ القـبـلىـ في دـغلـ الفـروـةـ . أـبـتـسـمـ وـهـوـ يـسـمعـ مشـاورـاتـ الاـورـاقـ معـ الاـشـواـكـ الفـضـيـةـ فيـ شـأـنـ التـدـايـرـ ضـدـ الرـيـحـ .

هذه الحوار . فتذكّر صوصة فراخ الطير في العش عندما يحوم في الفضاء شبح صقر . تتنادى الأحراس كلها ، تنفع الأبواق ، تقرع طبول الخطر ، ويهرع كل طير إلى وكره ، لا رغبة من الطائر الأم أو الأب في أن يقاسم فراخه المصير ، أو يهلك دفاعاً عن الذريّة ، ولكن لأن الطائر الطليق ، العابر ، الذي لا يعرف له أرضاً أو مستقرًا ، كان قد اتخذ لنفسه وطناً منذ حكم عليه الاقتران أن يتّنى عشاً يضع فيه قلبه مع بيضه . تسافر الطيور من أبعد الأحراس ، وترمي بنفسها للهلاك بمجرد أن يظهر الخطر ، وتحلق في الفضاء ظلال الصقور . الطيور ، وقتها ، تتكلّم بلغة أوضح من لغة الجنّ في الكهوف . أوضح من الفاظ الرّعاعة المتعين

الذين قطعوا بقوافلهم متأهّة «تيبيري»^{*} ليُرطّروا كأنّهم نسوا لغة الانس من طول السّكوت . يتحول الحوار اليومي الحكيم إلى عويل . نواح . ضجيج غاضب ، واوامر صارمة . تتنازل أرق المخلوقات عن أرق الاصوات ل تستعير حناجر المردة ، ول هجة الجباررة الذين يهرونون بين النجوع ل تجمّع المقاتلين و تحريض الأبطال على التهوض ل مقاومة العدو .

تنقل العدو إلى الجمال فستجيّب الحيوانات للاستفار . تنتقل إليه العدو أيضاً ، فيرتجف القلب أولاً ، ثم يشعر بتلك القشعريرة التي تتنابه عندما ياغته فحيح الحياة فجأة . يأخذ عصاته ، أو يهرع إلى أقرب

* تيبيري : (حرفاً) الصحراء . وهي المتأهة الصحراوية العظيمة التي تفصل الصحراء الليبية عن صحراء آير في أقصى الجنوب .

شجرة ، ينتزع منها حطبة . يجري عبر الوادي . يلاحق العدو المعلق في السماء ، يرميه بالحطبة ، أو العصى ، أو الحجارة ، دون أن يصبه . وهو يعرف أنه لن يستطيع أن يصيب عدواً ملحاً على ذلك الارتفاع حتى لو وهبته الصحراء قامة الجنّ ، ولكن الوجه الغامض الذي يدفعه لهذا العمل الآخر لا يكف عن الاشتعال . بل يتضاعف وتزداد الجذوة اشتعالاً . ولا يتوقف عن المقاومة الا اذا اختفى الشّبح ، وعاد السلام الى الوادي . يهدأ تحرير الطيور ، تحنّى الابل على اعشابها ، وتستعيد الأرض سكونها الجليل . يستلقى تحت شجرة أو صخرة ويتابع لهاه الجنوني . يتسم ، وقد يضحك بصوت عال . يضحك دهشة من حماسه الطفولي . ويقول لنفسه أن الرعاة سيصفونه بالجنون اذا رأوه يقاتل صقرا معلقا في السماء . ولكن زفقة الطيور التي استعادت السكينة تعزيه وتغنى له مواويل شجانية تسمعها الجمال بخشوع وتطرب لها رؤوس الجبال . نعم . أغصان الطلع تدق طبول الخطر وتناديه كي ينصرها في حربها مع القبلي . يستطيع أن يهرع لمقاومة الصقور لأنه يقدر أن يرميها بحجر أو عصا ، أو حطبة ، ولكن كيف يحارب القبلي دون أن يعرف تعاوين السّحرة ؟

تقلب المسافر واستلقى على ظهره . اقترب منه خطوات ، وقف فوق رأسه . تفقد جسده النحيل الممدود على الأرض . نثر على وجهه قطرات من الماء . تبلل ثيame الرمادي وتفتحت العين عن مقلة جاحظة غاب فيها السّواد . وضع الاناء وعاد الى الدّابة . شدَّ الرّسن الناعم

فانهار الحيوان كأنه انتظر هذه الدعوة . أراح الأمتعة وحلّ عقدة السرج . تناول قرية بائسة ، تتدلى من السرج . تخسّسها فوجد انها ليست فارغة فقط ، ولكنها يابسة أيضا . حمل السرج والامتعة الى الظلّ وعاد لتحرير الجمل . فلَّ اللجام من الخطم وطبطب على الرقبة اشارة الخلاص . رفع الجمل نصفه الأمامي ، قبل أن يذل جهدا مهولا ليقف على قدميه من جديد . أفلت منه أين موجع ، وسمعه بورو يقول له أنه يفضل أن يرکن إلى الأرض ويستكين إلى الأبد على أن يدب في العراء الفاجع ليفتّش عن الكلأ الميت . في تلك الومضة اكتشف بورو الشئ الذي أثاره وأنساه الآهة الأليمة : فالجمل الرشيق ، المسرج بالسرج الأنique لم يكن جملا . لقد جاء الفارس التبّيل إلى آزر جرّ ممتطيا ظهر ناقه ! أفلتت منه ضحكة . حاول أن يكتم الضحك بلثامه ، ولكن صدره مضى يعلو بالهأهأه . ثم .. ثم سمع وراءه العبارة القاسية التي كتب له القدر ألا ينساها أبدا :

– لن أغفر لك ! لن أغفر !

بورو لم يجب . كأنه لم يسمع . كأنه سمع ثرثرات الجنّ التي تعلم ألا يغيرها اهتماما عملا بوصيّة عرّاف عجوز قال له أنهم لا يتمادون ألا اذا شدّوا الانتباه ، فإذا انتبهت رجموك بالحجارة ! تعمّد الآن أن يتجاهل الصوت حتى لا يشتّد الأمر . كوم الحطب ، جاء بالقش . وضع أعود القش في الأرة . ذهب إلى امتعته وعاد بقطعة الزند .

مزق خرقة من لثامه الأسود . وبدأ يقدح . قدح زنده طويلا ، ولكن السقط لم يستطعه الخرقة . رفع نظره الى ضيفه خلسة فوجده يرقد كالطفل : عيناه مغمضتان . يداه النحاسيتان النحيلتان تعلماسان على صدره . انفاسه منتظمة ، ونسيم القبلى يبعث بطرف لثامه . كأنه ليس هو من تكلم منذ قليل . كأنه لم يقل شيئا . لم يتكلم أبداً . على صدره نامت قلادة كبيرة من التمائم المحفوظة في حرز الجلد . كل قطعة تلقت وسما دقيقا من النقوش . رأى رموزا محفورة بالنار على قطع الجلد المربعة . وقف واقترب من الجسد المسجّي برشاقة مولا - مولا * .
 تفحص الرسوم فوجد خمس قطع مربعة حظت بالرموز واحتلت وسط القلادة ، وحولصر الحصن بقطعتين مثليتين ، آه . مثلث تانيت ** . يحمي الاسم من الجهتين . انحنى ليتفحص .قرأ من اليمين اولا . فوجد أن اللفظ بلا معنى : ٤-٥-٥-٣ *** أو هو اسم من أسماء الجن . قرأ تعويذة سرية ، وحاول أن يجرّب القراءة من الجهة اليسرى : ٣-٥-٤-١ ! جبرين ، أم

* مولا - مولا : طائر صحراوي أبقع صغير يتفاعل به ويرد كثيرا في أساطير الطوارق .

** تانيت : (أو « تيَّنَتْ » أو « تانس ») الله الحب والخصوصية عند قدماء الليبيين .

*** نيريج : تكتب أبجدية الطوارق من اليمين الى اليسار ، والعكس ، ومن فوق الى اسفل والعكس ، وحتى بشكل دائري .

جبارين * . نعم . لا بد أن يكون جبارين هو الذي يرقد الآن بين يدي الإلهة تائيت . هي - هي - هي ..

تململ النائم ورقد على جنبه الأيسر . أنهار الحصن المهيء
وتكونت القطع حتى لامست التراب .

عاد بورو الى الموقد وواصل معاندة الزند . يهوى بالقطعة
الحجيرية السحرية المعتمة فوق حافة قطعة معتمة أخرى تلبس ثياما معتما
أيضا استقطعه من عمامته السوداء . يردد مع كل ضربة رمزاً من الرموز
المحفورة في الحصن : ٤-٠-٥-٤-١ . أو يعكس
الحروف ويقرأها بالقلوب : ١-٤-٥-٠-٣ . وكان يروق
له أن يتمتم بالتعاويذ عندما يبدأ شعائر استدعاء النار . يرتل اسم غزال ،

أو ودان أو الأرنب المشؤوم ** مفتاح الاسم الى حروف . لأنه يعرف
أن الاسم لا يستغير القدرة الا اذا تشتت الى أجزاء صغيرة . والاجزاء
الصغيرة ت safر الى المجهول . تمضي الى الجهات الأربع ، وتتطير الى
السماءات . تتجسس على الآلهة في أوطنها وتسرق منها السر . تزور
القمر المطفأ . الغامض ، الحزين ، لتستعيir منه الشرارة . تخرق الأرض
المطفأة ، الغامضة ، الحزينة ، وتدفن فيها السر كي يتحول الى وهج ،

* تخلو ابجدية الطوارق - كالفرعونية وأكثر اللغات القديمة - من الحروف المتحركة

** تشاءم كل الشعوب القديمة من الأرنب ، وتحمّلها مسؤولية اخراج الانسان من الفردوس .
أما الطوارق فقد بلغ تشاءمهم حدّاً جعلهم يحرمون ذكرها بالاسم ، لأن النطق بالاسم
استدعاء . ويصرّون أن يذكروها بأسماء مستعارة ، وهي كثيرة .

جدوة ، شعلة . تخرج من الظلمات حاملة الوميض الذي يصنع السحر
ويشعل النار في طرف الخرقة .

خيط الدخان ينبثق من الخرقة . النار تستطيب خرقة القماش
المستقطعة من اللثام الأسود . الحروف الخمسة المحروسة بمثلثين من
مثلاط تائيت نجحت في استجلاب النار من قعر المجهول . جبارين حقاً
تحرسه تائيت بنفسها والا من أين جاءت النار ؟

وضع الخرقة في عش القش . تناول أعواد الحطب ، وشرع يبني
فوق الأرة كوخا . تصاعد الدخان . توّلى القبلي نفح الدخان . رتل
القبلي تيمية أخرى . تتمم بأسماء سحرية أخرى . تمادي الدخان
وتکائف . استمر القبلي يتلو تعاوينه الخفية القديمة . أقدم تعويذة عرفها
الصحراء . فهرعت اليه الآلهة بالسر . وتنادى لنجدته الجن . اتخد الجن
من الريح مطية ، وجاءوا بالوميض الالهي . رموه في الأرة فاشتعل
الكوح بلسان سري يستمد وميضه وغموضه واستبداده من موقد
الأسلاف المنسية في الكهوف . ارتفع اللسان الجليل ، اللسان المقدس ،
ليلتهم حطب الكوح . رقص في الفضاء . امتزج بقرينه اللعوب ليصبحا
كائنا واحدا ، يتسلّك في المدى ويغمر الأفق بالفيض المدهش الذي لم
يعرف له أحد لونا ، كما لم يفهم له أحد سراً . لأنه لون مأخوذ من لون
القمر المطفأ ، الغامض ، الحزين ، ولأنه لون معار من الأرض المطفأة ،
الغامضة ، الحزينة . وسره مأخوذ من القمر المطفأ ، الغامض ، الحزين ،

كما استعير من الأرض المطفأة ، الغامضة ، الحزينة . وإذا أعطى القمر شيئاً نفيساً أخذ اسمه ليصبح سراً . وإذا وهبت الأرض كنزاً حصنته بالطلسم ليصبح سراً جاء . الرعاة البلياء ليسوا الوهج المقدس : «تيمسي» ، ولعب الآلهة اللعوب : «إيلل» دون يعلموا أن التوأمين سر الآلة ، وروح الأسلاف ، وثمرة أنجبها تزاوج الأرض والقمر ليتدفقاً في الليالي الشتوية الباردة ، ونسوا أنها يمكن أن تحرق الصحراء في أيام الصيف . فهذا توأم آخر . توأم الحليل ، القديم الذي يسميه الرعاة «تيمسي» . وما الشرارة الحارّة المقدسة التي تخرج من صدره مع كل نفس الأقطعة من ذلك السرّ .

سيungen الدقيق من جسده ، ويدفعه في ملة خلفها الورج .
ستحتويه الأرض لينضج بحرارة الشعلة . وسيطعم المسافر من جسده خبزاً لأنه صمم أن يتمترج بالمسافر البائس منذ هرع اليه ، وسقاه من دمه ، من مائه ، من نفسه . سيقوم كوز الطين ويتبادل الوعاء مع المهاجر بعد أن يستأذن الأرض . والأرض ، أرض آزر ، لا بد أن تباركه . فهو لم يسمع أنها منعت بركتها عن مخلوق أراد أن يهرع ، مددود اليدين ، كي يرمي بنفسه في حضن مخلوق آخر ليبنيا ، معا ، كوزا واحداً من الطين . آه ، آه ، يا آزر ، ما أسعده الراعي اذا وجد عابر سبيل يتوقف ، مثله ، للارتماء في أحضان عابر آخر ، كي يصنعوا معا ، بالماء والطعام والكلام ، كائناً واحداً . وكان يقول لنفسه دائماً أن هذا كل ما يستطيع أن يعمله

كي يحاكي السّحرة العظام الذين لا يعجزون في أن يصنعوا بالأختلط الغرية حديداً ونحاساً وقصديراً، ويحوّلوا التّراب إلى كنوز من ذهب وفضة ونحاس . لا يستطيع أن ينافسهم في المواهب ، ولكن صنع كائن من كائنين ، ودمج مخلوق في مخلوقين أصعب من صنع كائن واحد ، مخلوق واحد. فقد لاحظ أن الخناكس تعرف كيف تصنع الكائن ، وتعرف الطريق إلى المجهول الذي تأتي منه بمحظوظ جدير بأن يثير اعجاب السّحرة ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل مخلوقها في مخلوق آخر لتبني بالاثنين مخلوقاً واحداً . ولكنه هو ، بورو ، استطاع ان يحاكي السّحرة الدهاء ، ويدمج وعاء الطين في وعاء الطين ، في وعاء آخر ، في وعاء المسافر ، ليخرج منها بمحظوظ جديد . استطاع أن يبني كائناً جديداً ليس لأنّه عرف كيف يجارى السّحرة الدهاء في عملهم ، ولكن لأنّه عرف سرّ الطين ، مرونة الطين الذي يفوق كلّ أختلط السّحرة سحراً ومرونة ، وعرف سرّ الوجه الذي جاء به الرّيح من الكهوف وتلقاه هبة من الأسلاف كي يدفعه به الكوز المارد ليسعى به ، ويدبّ ، ويتسكّع . عرف أيضاً أن الدّم الذي يجري في العروق هو نفسه الماء الثرثار ، المشاكس ، الذي لا يملّ محاورة المعجارة والشجيرات ببرطانة ، حاملاً إليها سرّ المنابع والآلهة . ولأنّه عرف أيضاً أن الجنّ قرناؤه ، ليس لأنّه سمع حكيمهم يلقنه الوصيّة عندما استضافته قبيلتهم في تلك الليلة ، وإنما عرف ذلك في اليوم الذي اعترف فيه لنفسه بكتفّاءات الأرض التي انجذب كل الألوان . صنعت الماء الثرثار

من لعابها . ونسجت الكائن اللعوب من انفاسها ، وصهرت القصدier في موقدها ، وطهت الجان والانسان في ماعون واحد ، ولم تخرجهما الى النور الأبوي الرحيم الا بعد أن حشرته هو في بدن أعدّته من طين وحرّرت قرينه الجنّ من الوزر ، فطار عبر الصحراء . ولا يستعيّر الوعاء القاسي ، الوزر الثقيل ، الاّ عندما يريد أن يتّشّبه بالانس . هذا هو سر العجنة الخفية :

نك آمان

نك الهين

نك تزوليت

نك أمصال

نك ، كيّ نان ، ايـلـلـا !

توجّع عود يابس وتشكّى بين فكّي وحش يملّك فكّين لامعين مصنوعين من وميض البروق ، ووهج التميمة المقدسة المستعارة من روح الأسلاف . بكى عرف آخر وشرع يتزف ويرتجف . سمع بورو الاستغاثة ففهم فورا . تفحص الموقد ، وراقب الكوخ الرشيق الذي أقامه منذ قليل ، فوجده ينهاي ويتأكل ويتحول طعاما معتما يختلط بلون الأرض المطفأ ، الغامض ، الحزين . جاءت الشرارة الخفية لتنحر قربانها وتقدم اضحيتها من عظام الأشجار . أخذت نصيبيها وتركت رمادا

معتمما ، غامضا ، حزينا ، تضييفه الى الارض ، تثري به الصحراء، ليقى اثرا من الآثار المهجورة التي يرود للجن أن يتذمّنها وطننا . استمرّ العرف ينزف ويترجف ويستغيث . وجده بورو يشن بين عودين كبيرين يابسين . مضى ينوح ويولول . ينزف الدم ويستتجد . دس يده بين الخطب المشتعل وأخرج العود الجريح . القى به جانبا وأهال عليه التراب . فاضت مقلاته بالدموع وهو يرى كيف أسود العود الأخضر الى منتصفه . مسح دمه بيده وتفقده بين اصابعه . كان دما أحمر ، متختر ، وساخن ، مثل دمه عندما يصيبه خدش وينزف . نعم . هذا دمه . دم العود الأخضر دمه . لقد حرق تواما آخر ، قرينا حيا ، فكيف سيكفر عن هذه الخطيبة ؟ هل يكفي أن يطعم المسافر من لحمه أيضا بعد أن سقاه من دمه ؟

ذهب الى امتعته في الطرف الآخر من الطلحة . أخرج جرابا جلديا مدسوسا في جراب جلدي أكبر منه حجما . القى في الوعاء المطلي بالقصدير بعض قبضات من الدقيق . الماء الذي خلفه الضيف في قعر الوعاء أحاط بكلوم الدقيق . أبتسם بورو وقال لنفسه أنه سيخبر للضيف لحمه ممزوجا بجرعة الدم التي تبقي من السائل الذي صنع منها كائنا واحدا ، ليثبتا معا بنوتهم للارض ، للصحراء ، للريح ، للسراب ، للشجر ، للحجر ، للطير ، للودان ، لكل الكائنات الأخرى . نعم . الذي سيعجنه لضيفه هو لحمه . رأه يخرج من جوف البعير مع

البعر منذ كان طفلا يرعى الجمال في الصحاري . تسقط عليه الأمطار فينبت وiyorق ويتطاول . يفتح عن سبلة تنوء بعبء حبات أخرى فيتسابق إليها الكبار ليحصدواها . في البداية لم يصدق ثم حل الجدب وسادت المجاعة ، فرأى كيف تجتمع النساء البعر وتكدس في أكواخ كبيرة ل تستخرج منه حباً تطحنه بين ضلفتي حجر لتصنع للأولاد الجياع خبزاً أو عصيدة أو فطائر . هو نفسه ذاق هذا الطعام كخبز وعصيدة وفطائر وأيقن أنه أذ طعاماً وامتع مذاقاً . ولم يكن صعباً عليه أن يدرك السبب . « لأنَّه خرج من جوف قريني البعير » . فهو ادرك سراً آخر برغم صغر سنّه . فهم دون أن يستعين بعقل الكبار أن العمل ، أو الحوار الصغير ، هو قرينته أيضاً . اكتشاف السرّ بدأ بكلام غامض سمعه من العقلاء عندما يتسامرون في الامسيات : « ماذا نساوي بدون ابننا ؟ الأبل هي الحياة : بها نعيش ، وهي نركب ، وبها نستعين » . وتلخص مرة ليستمع إلى حديث خطير في خباء الشيوخ . رأى الزعيم أن يخس في ثمن الدقيق الذي يقايسه برؤوس الأبل من تجار القوافل العابرة فرفع الأكابر الدهاء الذين يعرفون كيف يفاوضون التجار الخباء فسمعهم يقولون : « نحن مثل ابننا : نفكّر مثلها ، ولا نعرف أكثر مما نعرف » . ضحك يومها في زاوية الخباء . حاول أن يكتم ضحكته ، ولكنها غلبته فانكشف أمره . التفت إليه أقرب شيخ ورجمه بحجر . قفز إلى الخلاء وجرى وهو يكرّك . لم يندم على ضحكته لأنَّ الولد الذي فتح عينيه فوجد نفسه بين

الجمال وهو ما يزال يتسلّى برضع سبابته يعرف أنه لا يوجد في الصحراء كلها كائن واحد يستطيع أن يفوق الأيل في الذكاء والدهاء والخبث . وكان عليه أن يعاشرها زمناً آخر حتى يعرف أن كل الحيل التي يتباهى بها أمام القرآن مستعارة من الأيل . كرر لنفسه يومها بصوت مسموع : « الأكابر دهاء . الأكابر أدهى من التجار . اذا كنت أعرف طبع البعير فسوف يخسر التجار حتماً .. ». وكان أن انفضّ الاجتماع في آخر الليل ، فانتشر في الصباح الخبر : قيل أن الوجهاء الدهاء ربحوا الصفقة ، وخسر التجار ، فابتهدج بالبشرة ليس لأن القبيلة ربحت الصفقة ، ولكن لأن عقل البعير أنتصر .

في تلك السنوات تعلم أن يتسلّى بالغناء في المراعي ، لأنّه كان قد عشق الاشعار كما عشق الجمال . يجاهد طويلاً ، ويتلوي كالمجذوب قبل أن يصطاد اللفظ ويقوم الاوزان في نسق ألحان « هلى - هلى » . يروّض النغم ويرفع صوته :

بورو آغزّارام

بورو ايمستغ

بورو آغرارام

بورو آبسنخ

بورو آوارا

* بورو آوارا *

ويظل يعيد «بورو آوارا» بأعلى صوته ، يخرجها من نسق : «هلى - هلى» ليدخلها في لحن «اساهغ». يتمايل عيناً ويساراً فتدمع عيناه ، يستعر الوجه الغامض في صدره وتستولي عليه القشعريرة . يشتعل الجسد ويتنفس القلب . يتخلص من عمود الطين ويهرع الي الضياء . يتحول ضوءاً يدخل في الضياء . يتدفق في العراء . يسبح في السراب . يلعب ، يتلوى ، ينساب كالحية ، ويلتف حول سيقان الحوار . يتوقف الحوار حائراً ، ويستنجد بأمه الناقة . ولكن الناقة تلتهم العشب الوفير ولا تنتبه له «بورو» الذي انساب كالشعبان والتفت حول سيقان الحوار . يتسلق الحوار . يدخل في جوف الحوار ليصبحا كائناً واحداً . تنتقل الحمّى الي الحوار ، فيركض ، ويرقص ، ويجدب ، و .. يبكي ، رأى ، في هذا الحال ، الحوار المسكين يبكي مراراً . تشتعل عيناه باللوميض اولاً . يحترق فيه البدن . يغيب في المجهول . يخرج من الصحراء مثله . يمتزج بالسراب ، ويرقص فوق العراء مثله . يسمعه يعني

• بورو ضد

بورو ستونو

بورو عشبة

بورو طلحة

بورو حوار

بورو حوار

معه الموّال المدهش ، الأليم ، الذي يحرق النسوة ليتشر هباء المخلوق في
الصحراء :

بورو آغزaram

بورورايمستغ

بورو آغرارام

بورو آبسغ

بورو آوارا

بورو آوارا

يدوران معا . يشعر أنه يتلاشى في الحوار ، وال الحوار يصير بورو .
يشتد الایقاع . يتضاعد الموّال الخفي ، الفاجع . يهجر الوعاء الثاني ،
ويسافران معا في الضوء . يتواصلان في أشعة الشمس ، تغيب الصحراء
وتغيب . تحط نقطة الضوء فوق كواكب أخرى مهجورة ، وتنزل أخرى
مسكونة بالأّسلاف . يتلقى منهم السرّ قبل أن يهوي مع قطرة المطر ،
وينفصل عن قرينه الحوار ، ليعود كل منهما ليحشر نفسه في بدن الطين
المسجى فوق العراء . يستيقظ من الغيبة فينسى السر . يضيق عليه
البدن ، يخنقه الحشر ، فتخونه الذاكرة . وقد التقطه الوالد مرات كثيرة
وعاد به إلى المضارب . يبقى محموماً أياماً أخرى ، يزوره الأقران
ويرمقونه بعجب ، ولكنه لا يوح لهم بالرحلة ، ولا يحدّثهم بالسرّ الذي
تلقاءه من الأّسلاف ونسيه . « بورو محموم » ، يقول الوالد للأولاد .

يضيف : « هذا موسم الحمى ». ولكن الخروج بالغناء تواصل في فصل الشتاء ، فعاد به الوالد وخباء في الخباء . لم يجد ما يقوله للأولاد فطردهم ومنعهم من زيارته . ثم .. ثم سعى وراءه وتجسس عليه . في ذلك الاوان ابتدع لعبة أخرى مع الحوار الذي كبر وأصبح ثنياً مهيب القامة . يجلس اليه ويبدأ الموآل الخفي . يتمايل الثنّي . تلمع عيناه توقا للسفر . تدمع عيناه شجنا وحنينا للمجهول . تومض دموعه تحت ساعات الشمس . تتصبّح الاهداب قطرات فتلاًأ مثل حبات كبيرة من الندى . يشتعل جسم البعير وتضيق به الأرض . يركع على ركبتيه الاماميّتين ، ثم ينهض . يهوي بيده على الأرض ويرك فجأة . يزداد الحريق فيقفز واقفا . يشبع رجله الامامية ويستبدلها بالأخرى كمن يمشي على فراش من الجمر . هنا يسكت بورو . يتوقف عن الغناء متعمداً . لأنّه يريد أن يجرّب ما سيحدث عندما ينقطع الحبل بالمريد . ورأى مراراً أن المريد يهوى . يتلاشى . الأرض لا تسعه ، لأنّه خرج منها ، والسماء لا تقبله ، لأنّه لم يصلها . يبدأ عذاب الثنّي . يمشي وراءه وهو يحترق . يهرب منه عمداً . يرى في عينيه ضراعة فاجعة . ولكنّه لا يستجيب للرجاء . يتضاعف الشقاء في عينيه ، فيصرّ بورو أن يمضي إلى النهاية . يتذكر قلبه شفقة ، ولكنه يدوس على قلبه ليرى ، ليفهم ، ليعرف ... يترکه أياماً على هذا الحال ، ليشاهد كيف يتضاءل المخلوق ، ويتلاشى شيئاً . يكفي بدموع حقيقة ، ولا يكفي عن مطاردته حتى في الليل ، يقف فوق رأسه في مرقده ، يمد رقبته ، ويتحسّن

وجهه بخطمه . يلعقه بشفتيه المت Dellitiens ، الخشتين ، المديتين مثل اشواك الطلع . يكى قلبه دما ولا يستجيب . ثم .. ثم بدأ الحيوان يذوب حتى أتى عليه الحزن . نعم . مات الثني في اليوم التاسع من بداية الشجن . في نفس اليوم رأى انسانا آخر يحل في وعاء الوالد . هدد بسبابته في المرعى ثلاث مرات دون أن ينطق بكلمة . وصلا البيوت فقيد يديه ورجليه ورماه في العراء مشدودا إلى وتد . أخرج من كمه سوطا فظيعا . لوح به في الهواء وبدأ . استمر يلسنه بلسان النار حتى هذه التعب . لم يتدخل أحد . ربما لأنه لم يبك . كان مغسولا بالدم ، ولكنه لم يبك أبدا . النزيف في قلبه أقوى من نزيف البدن .اكتشف أن ثمن التجربة هو فقد وفارق الحبيب ، فعرف الحزن والفجيعة والضياع قبل أن يتركه الوالد ويموت بعد تلك الحادثة بستين .

(٤)

قبل أن يصير حوارا كان « تيرزازت » * .

كان أصغر سنًا ، ولكن أكبر خيالا . أكثر طفولة وأعظم أحلاما . يستمع إلى قصص جارتهم العجوز الحدباء عن الساحرة الشريرة فيشتعل رأسه بالرؤى ، ويضيق صدره بمخلوقات لا رؤوس لها ، وأخرى تمشي بالمقلوب حتى تدخل « آغرم نودادن » ** المكان المخيف الذي يتعجبه

* تيرزازت : أحد الأسماء المستعارة التي يطلقها الطوارق على الارنب .

** « آغرم نودادن » : مملكة الودان (تماهق) .

المسافرون ، ولا يقترب منه الرعاة . يجري وراءها حتى يقف على اعتاب الغابة الحجرية حيث تتكاثف الظلامات . يستيقظ قبل أن يتمكن من الدخول ، لأن امرأة أبيه تكون قد دلقت على رأسه وعاء الماء البارد ليجري وراء مخلوقات أخرى أقل بشاعة ، ولكنها أكثر شقاوة .

يطارد الجداء في المراعي مرددا تعويذة العجوز الحدباء : « من نطق باسم تيرزازت في الصباح أكلت الذئاب اغنامه ، واصاب ابله الجرب ». يعود متعبا في الليل ، ولكنه لا يذهب الى النوم الا اذا ذهب واستعطف العجوز الحدباء لتحديثه عما فعله أمغار * الحكيم بالساحرة الشقية تيرزازت . تدق العجوز قطعة النطرون بين حجرين . تهرس بين راحتي يديها ورقة تبغ . تلقى بها في فمها الحالى من الأسنان . تلحق بها مسحوق النطرون . تبصق اللعاب في أرة صغيرة . تهيل التراب . تتطلع الى البدر المطفأ ، الغامض ، الحزين . يعود البريق الى عينيها الكايتين . تخبره كيف حول آمغار الحكيم الساحرة الشريرة الى أرنب : « .. في ذلك الزمان ، عندما كانت الحجارة ما زالت طينا طريا ، وكان الناس يعيشون مع الجن ، ويتكلمون مع الودان والغزال ومولا - مولا ، كانت الساحرة تيرزازت هي الوحيدة التي تستطيع أن تزور « آغمرم نو دادن » وتعود من هناك دون أن تصاب بأذى . وفي أحد الأيام دعاها آمغار العظيم وطلب منها أن تبلغ بشاره الى أهل الصحراء تقول : « لقد كتب عليكم أن تعيشوا الى الأبد سعداء . واذا متم فستكون رحلتكم حلما »

*آمغار : الأب . الجد . الزعيم . الحكيم . الأب الروحي . كبير القبيلة . العجوز (تماهق) .

جميلا الي «آغرم نودادن» تعودون بعدها الى صحرائكم، ابشركم بأنكم ستعيشون خالدين مثلنا في «آغرم نودادن» ، فلا تخافوا الموت ». ولكن الساحرة الشريرة غلبتها الحقد ، واستيقظ في قلبها حسد الساحرات ، فنفلت الوصية مقلوبة . قالت لأهل الصحراء : «آمغار يبنّيكم أنكم لن تعيشوا الي الأبد أبها الاشقياء ، واذا متّ ، فسوف تدخلون «آغرم نودادن» ولن تخرجوا منه أبدا . فلا خلود لكم ولا نجاة من الموت ». أقام أهل الصحراء المناحات ، ونحرروا الذبائح قربانا للحكيم وطمعا في أن يلينوا قلبه الكبير . جاء الريح ورفع لأمغار في وطنه الخفي في «آغرم نودادن» الخبر . حمل له رائحة النيران المضمخة بروائح القرابين . وما أن اشتم آمغار الرائحة حتى فهم مكيدة تيرزازت . دمعت عيناه وبكي شفقة على أهل الصحراء ، وحزنا على المصير الذي ينتظرونهم . اشتعل بالغضب وأمر جنداله من الجن أن يأتوا له بالساحرة . جاء بها المردة في غمضة ، والقووا بها عند قدمي امغار . ضربها على وجهها فشق شفتتها ، ولعنها بأعلى صوته حتى تسمع لعنته كل الكائنات ، ثم مسخها الى أرنب ، وكتب عليها أن تكون أجبن المخلوقات». تبصق العجوز الحدباء لعب المضفة . تهيل عليه التراب ، تتطلع الى البدر المطفأ ، الغامض ، الحزين ، وتختم روایتها العجيبة : «... فأياكم أن تأتوا على سيرة تيرزازت الساحرة التي حرمتنا من دخول

«أغرم نودادن» والعودة منه . سموها «تيمرولت» * لأن أمغار نفسه هو الذي كتب لها الجبن . سموها : «تانتمزوجين» ** لأن من ذكرها بالاسم في الصباح أكلت الذئاب اغنامه ، وأصاب الجرب أبله » . أعطى العجوز صرّة من تبغ سرقه من زوجة أبيه ، وتسكع في العراء .
 سمع قمم الجبال وهي تتهامس مع البدر ، ورأى الجنّيات يتراءكن ويتراشقن بالحجارة .

اعترضه مارد ، ولكنه لم يمال لأن الحنين حرق قلبه فصمّم أن يسافر إلى «أغرم نودادن» كي يمثل بين يدي أمغار العظيم . لم يتم ليلتها ، وفي الفجر جلس في مواجهة زوجة الأب حول موقد النار ، وتفوه بنداء استنكرته الآلهة : «تيرزازت . تيرزازت . تيرزازت » . بهت زوجة الأب . سقطت من يدها شكوة الحليب . شاحت وهرب الدم من وجهها . ازدادت الغضون في جبينها عمقاً وقبحاً . في عينيها طاف مزيج من الغضب والدهشة والاستنكار . بدأ جسمها يرتجف . تحصّنت بالتعاويذ . ولكنه لم يرحمها . صرخ بنفس النبرة التي لن تحتملها الآلهة داعياً الساحرة الكريهة بالاسماء الملعونة : «تيرزازت . تيمرولت . تانتمزوجين ! » .

* تيمرولت : الجبانة (أحد اسماء الارنب) .

** تانتمزوجين : ذات الآذان (اسم آخر للأرنب) .

غطت وجهها براحتيها . نطقت بتعاويذ قديمة مبهمة . اعانتها التعاويذ فتحررت قليلا . عادت الحياة الى اطرافها المشلولة ففرحت في نية للخروج من الخباء . سمعها تنتخب في الخارج . خرج الى المرعى . في الطريق لم يتوقف عن ترديد الأسماء . لم يكف عن التمتمة : « أنا تيرزازت . أنا تيمرولت . أنا تانتمروجين » حتى وصل الوديان . جلس في كهف مهجور ، كثيب ، موسوم الجدران ببرجال يليسون جلد ودان ، وواصل القراءة : « أنا تيرزازت ، أنا تيمرولت . أنا تانتمروجين ». ازدادت العتمة كثافة ، بدا أن الشمس لا تنوي أن تطلع أبدا . استمرّ يعتم . تحولت العتمة الى ظلمة . عاد النهار على عقيبه فأعقبه الليل . ررف فرق رأسه طائر . تزلزلت اركان الكهف ، نزل من الجدران الرجال الذين استبدلوا رؤوسهم برؤوس الودان . خرج برفقتهم فرأى الذئاب وهي تفتكت بالجداe الشقية . نظر الى المذبح باستخفاف وهو رول . انظم الى قطيع الودان . انطلقت المسيرة الطويلة الى الارض التي يتحاشاها المسافرون ، ولا يقترب منها الرعاة لأن الساحرة تيرزازت حرمت على أهل الصحراء دخولها منذ نقلت وصية أمغار مقلوبة . ولم يكتب دخولها الا لمن آلى على نفسه الا يعود ، أو من وجد في نفسه الشجاعة كي يتحول الى الساحرة تيرزازت . فتح « آغرم نودادن » ببابا مزروعا بغابة من الحجارة . تكافف الضباب . دخل ادغالا اخرى تجري فيها انهار خرساء ، صوت الماء فيها لا يسمع ، ولا يروي من ظماً . من

الأشجار الحجرية تتدلى ثمار مدهشة ، ولكنها لا تطعم من جوع ، لأنها حجرية . استوقفه العسس فاستجدى المثول بين يدي أمغار العظيم . طافوا به عبر الظلمات طويلا قبل أن يجد نفسه يقف في فم مغارة ظلماء . أحس أنه يقف في المعبد . ركع وتوسل : «آمغار المجل العظيم ، انت القادر على كل شيء : أعد لي أمي » فسمع الصوت الجليل : «آليت على نفسي ألا أرأف بحال من ارتضى لنفسه ألا يتخفّي في جلد تيرزازت . يحيى الاوان ، وتبجي للاقامة في «آغرام نودادن » ، سأعيد لك أمك ، ولكن الاوان لم يحن بعد ، فأذهب وعد من حيث أتيت » . بكى وتضرع : « أقبلني يا مولاي للاقامة في وطنكم الحجري ، فأنا لا أريد أن أعود بدون أمي ! » ، ولكن آمغار تكلّم بلغة الحكماء والغموض والأكابر : « أماك طريق ستقطعه في غمضة عين بقياس الزمان ، وستجد نفسك عاجلا في مملكتنا . اذهب وأنس أنك وقفت بين يدي آمغار محشورا في جلد تيرزازت اذا شئت ألا أغضب . لأن عليّ أن أنسى مثلك بين يدي . فالنّاموس يقضي ألا يمثل بين يدي مخلوق مرتين . ومن دخل غابة الحجارة لم يجد ، الى الأبد ، طريقا يعود به الى الصحراء » .

عشروا عليه في كهف بعد بحث استمر ثلاثة أيام . وعندما أفاق من الغيبة وسأل عن حال القطبي الشقي أجابه أحد القرآن :

«فتكـتـ بـهـ الذـئـابـ ١ـ» . ثـمـ أـضـافـ آخـرـ : «ـ تـلـفـظـ باـسـمـاءـ الشـرـيرـةـ فـيـ الفـجـرـ وـ لـاـ تـدـريـ ماـ سـتـفـعـلـهـ الذـئـابـ بـالـجـدـيـانـ ؟ـ كـلـ العـقـلـاءـ قـالـواـ أـنـ الشـعـومـةـ أـخـذـتـكـ إـلـىـ «ـ آـغـرـمـ نـوـدـادـنـ»ـ وـ يـسـوـاـ مـنـ عـودـتـكـ»ـ .ـ لـاـ أـحـدـ يـدـرـيـ أـنـهـ تـمـنـىـ أـلـاـ يـعـودـ أـبـداـ إـذـاـ كـانـ ذـلـكـ سـيـعـيـدـهـ إـلـىـ أـمـهـ التـيـ فـقـدـهـ مـنـذـ زـمـنـ لـاـ يـكـادـ يـعـيـ مـنـهـ غـيـرـ مـشـاجـرـاتـهـ مـعـ أـبـيهـ .ـ وـ يـدـوـ أـنـ ثـلـاثـتـهـمـ عـاشـواـ مـنـتـقـلـينـ فـيـ عـزـلـةـ عـنـ قـبـائـلـ الرـحـلـ .ـ فـهـوـ لـاـ يـذـكـرـ أـنـ رـأـىـ مـخـلـوقـاـ مـنـ سـلـالـةـ الـأـنـسـ غـيـرـ الـأـمـ وـ الـأـبـ .ـ وـ لـكـنـ الـجـرـابـ الـعـجـيبـ الـذـيـ يـحـمـلـهـ فـوـقـ رـأـسـهـ لـمـ يـحـفـظـ لـهـ مـنـ حـيـاةـ الـوـالـدـيـنـ غـيـرـ الشـجـارـ .ـ يـقـاتـلـونـ فـيـ الصـبـاحـ ،ـ فـيـ الـقـيلـولـةـ ،ـ فـيـ الـعـشـيـةـ ،ـ وـ فـيـ آـخـرـ الـلـيـلـ قـبـيلـ النـوـمـ .ـ وـ كـانـتـ الـأـمـ تـبـكـيـ دـائـماـ إـلـىـ حـدـ أـنـهـ لـمـ يـحـفـظـ بـصـورـةـ لـوـجـهـهـاـ إـلـاـ وـهـيـ تـبـكـيـ .ـ تـبـكـيـ وـتـذـرـفـ الـدـمـوعـ حـتـىـ وـهـيـ تـبـتـسـمـ لـهـ ،ـ حـتـىـ وـهـيـ تـضـحـكـ .ـ يـضـحـكـ وـجـهـهـاـ وـتـنـفـرـجـ شـفـتـاهـاـ عـنـ بـسـمـةـ لـاـ تـنـسـىـ ،ـ وـلـكـنـ الـعـيـنـيـنـ لـاـ تـكـفـانـ عـنـ الـبـكـاءـ .ـ فـيـتـمـنـىـ إـنـ تـضـمـهـ إـلـيـهاـ وـتـأـخـذـهـ إـلـىـ حـضـنـهـاـ حـتـىـ لـاـ يـرـىـ دـمـوعـهـاـ وـعـيـنـيـهاـ الـبـاكـيـنـ ،ـ وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـحـقـقـ لـهـ هـذـاـ حـلـمـ الـحـمـيمـ .ـ سـافـرـتـ دـوـنـ أـنـ يـهـنـأـ بـهـذـاـ العـشـ الـذـيـ سـيـنـسـيـهـ الشـجـارـ وـ الـدـمـوعـ وـ أـهـوـالـ الـصـحـراءـ وـيـحـجـبـ عـنـهـ رـؤـيـةـ الـوـجـهـ الـبـاكـيـ .ـ نـهـضـ فـيـ يـوـمـ كـيـبـ تـنـفـسـ فـيـ القـبـلـيـ وـمـضـىـ عـبـرـ الـعـرـاءـ يـدـحـرـجـ كـرـاتـ صـنـعـهـاـ مـنـ الـاعـشـابـ الـيـابـسـةـ .ـ وـ جـدـ الـوـالـدـ يـجـلـسـ وـحـيدـاـ حـوـلـ موـقـدـ النـارـ ،ـ وـ الـأـمـ اـخـتـفـتـ مـنـ الـخـبـاءـ .ـ قـالـ لـهـ أـنـهـ خـرـجـتـ إـلـىـ الـكـهـوفـ وـرـاءـ الـقـطـيعـ ،ـ وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـعـدـ .ـ مـضـتـ أـيـامـ

أخرى قبل أن يعرف أنها لم تختلف من الخبراء وإنما اختفت من الصحراء كلها . اندھش كثیرا ، لانه لم يستطيع أن يتخيّل كيف تسافر أم في الصحراء دون أن تضم ولیدها الى صدرها ، دون أن تأخذه الى حضنها حتى لا يرى في عينيها الدموع . ولكنها مضت وتركت له وجهها يفيض بالدموع . اخذتها تيرزازت الى «آغرم نودادن» وحرمته من الاطمئنان في حضن ينسيه دموع العينين . وكان يحلم دائمًا باليوم الذي يعود فيه الى الام الضائعة كي يمحو فجيئتها عندما يغيب في حضنها . وحتى عندما تلفظ بالاسماء واستدعى تيرزازت لينفذ نيتها المبيتة لم يخطر بباله أن يعود خائبا مجرد أن النّاموس أقوى من نيتها ومن كل شيء . أقوى حتى من أمغار العظيم . وكان عليه أن يعرف أن تيرزازت التي دخلت به الى مملكة الظلمة هي التي حالت دون عودته الى أمّه يوم غلبها الغضب واستيقظ في نفسها حقد الساحرات لتنقل الوصيّة الى أهل الصحراء مقلوبة : «آمغار ينتظركم أنكم لن تعيشوا الى الأبد أيها الاشقياء ، واذا متم فسوف تدخلون «آغرم نودادن» ولن تخرجوا منه ابدا . فلا خلود ، ولا نجاة لكم من الموت » . فوضعت بكذبتها النّاموس الفاجع الذي قضى على الصحراويين ان يدخلوا المملكة ليمثلوا بين يدي أمغار مرّة واحدة وأخيرة .

ولا ينسى كيف تولّى الساحر أمره بعد مغامرته تلك . هرعت زوجة الأب وعادت بساحر القبيلة الأعمى . جلس فوق رأسه وقال بلغة أهل الخفاء : «اين الجنّي الصغير الذي يريد أن يعود الى أمّه قبل أن تأذن الصحراء؟» . تحسّسه بأصابع نحيلة ، قاسية ، كقطع الحطب ، ثم اضاف : «ستعود ، أيها الشقى ، الى أمّك . كلنا سنعود الى الأم يوماً . لا يأتي الإنسان الى الصحراء الاّ كي يعود الى جوفها . تلد الترتوت ثم تعيده الى بطنهما . تلد الترvas في بداية الربيع ، ثم تستعيده قبل حلول الصيف . انتظر حتى يأتي الصيف . صيفنا . الكائنات مثل النباتات تعود الى هناك ، تبتلعها الصحراء عندما يحل الصيف». حرق على رأسه خرقه سوداء . رشق حول رأسه سكيناً ومدية وقطعة من حديد . أذاب نطروناً ممزوجاً بحفنة من الملح في وعاء مليء بالماء . طرحة في الوعاء زماناً . وعندما تخلص من جلد الساحرة تيرزازت لفه الساحر في خرق كأنها قماط . أعاده الى الفراش المخصن بالمدية والسكين وقطعة الحديد ، وعاد ولیدا جديداً . وليد رضيع حقاً حتى أنه نسي . نسي تيرزازت ، وحنينه للاققاء الام ، ورحلته الخفية الى مملكة الودان ، ولكنه لم ينس ما قاله السّاحر عن التبدل عندما يحل الصيف . يتنفس الجنوب بالقبلي . تذبل نضارة الاعشاب وتشحب الاوراق في رؤوس الطلع . يختفي الفرح مع اختفاء الزهور وتبدأ الأغصان في الشحوب والتساقط . تتوقف الطيور عن الغناء وترتفع في السماء في أسراب مثلثة كأنها

تتضريّع لـ « تانيت » * أن تبارك مسيرتها قبل ان تهاجر . تصعد وراءها ذيول العجاج الذي يتناقل حبات البذار . التنقل بالبذور قدر الريح . الريح هو الكائن الوحيد الذي يعرف أن لا شيء يبقى من النبات الزائل غير البذور .

البذور هي آخر ما يمكن في الأرض عندما يحل الصيف .

(٥)

ولكن القبيلة سكتت على سرّ مخيف ، يهams به الكبار ، ويرميء في وجهه الأقران الاشقياء عند الشّجار . يتهمونه بأنه جنّي بسبعة ارواح . تşاجر مع اخ مزعوم فقتله ودفنه فاحتىه الأرض وخرج من القبر بعد موت دام أياماً . وكان يطيب للأشرار أن يقولوا أنه لم يولد من جوف أمه الانسية ، ولكن الأرض هي التي حملته في بطنه كما تحمل الأم الجنين ، وانجنته كما تنجب امثاله من أبناء أهل الخفاء . وعندما بدأ مغامرته مع ترزاوت وجدوا البرهان علي زعمهم فقالوا أن المخلوق لابد ان يأخذه الجنين ويعود يوما الى وطنه ، والساحرة تيرزاوت كانت رسول امغار كي يعيد بورو الضال الى أمه الاولى ، الى الارض السفلی في « آغرم نودادن » . وكثيرا ما عيره الاشقياء بنعوت لم تجرحه قسوتها

* المثلث هورمز الالهة تانيت وكذلك التفاطع .

مثل ما حيره غموضها مثل : «ابن الحفرة .. » أو « ربيب الجن وحبيب الأرض السفلى » واصفات أخرى لا يذكرها . وعندما اشتكتى للأم ، وسألتها عن معنى الآلغاز غزا وجهها الشحوب ، وتوقفت عن رتق الثوب المكون في حجرها ، وأجبت بأن كل الناس أبناء الأرض ، كل المخلوقات انجبتها الصحراء النبيلة ، وعليه أن يتباهى أمام الأقران الاشقياء بأمومة الأرض له وبنته لها ، لأن الأرض الصحراوية هي أم كل الصحراويين . وإذا انكر الأقران هذا الانتفاء فقد اعترفوا بالشر إلها ، وأصبحوا من أتباع وانتهيـط الـلـهـيم . لم يقتـنـعـ بالـجـوـابـ فـأـرـادـ أنـ يـعـرـفـ منـ هوـ وـانـتهـيـطـ الـذـيـ تـسـبـبـ العـجـائـزـ مـعـ مـطـلـعـ كـلـ صـبـاحـ ،ـ وـتـخـشـاهـ القـبـيلـةـ أكثرـ ماـ تـخـشـىـ السـاحـرـةـ تـيـرـزـاـتـ ،ـ فـرـآـهـاـ وـهـيـ تـنـكـفـعـ عـلـىـ الثـوبـ ،ـ تـرـنـمـ بـلـحـنـ شـجـنـيـ قـبـلـ انـ تـخـبـرـهـ بـسـرـ وـانـتهـيـطـ :ـ «ـ يـأـتـيـ إـلـىـ الصـحـراءـ مـمـطـلـيـاـ حـمـارـةـ بـيـضـاءـ .ـ يـلـوـحـ لـلـخـلـقـ بـالـمـقـتـيـاتـ الـلـمـاعـةـ التـيـ لـهـاـ بـرـيقـ التـبـرـ كـيـ يـسـحـرـ النـاسـ وـيـأـخـذـهـمـ بـالـبـرـيقـ فـيـتـدـافـعـ الـأـغـيـاءـ وـتـرـكـضـ وـرـاءـ الـأـجيـالـ .ـ تـبـرـيـ وـرـاءـ الـأـمـ وـتـبـعـهـ الـقـبـائـلـ مـاـخـوذـةـ بـالـبـرـيقـ ،ـ مـسـحـورـةـ بـالـبـرـ ،ـ إـلـىـ أـنـ يـرـمـيـهـمـ فـيـ الـهـاوـيـةـ .ـ عـنـدـهـاـ سـتـنـوـحـ الصـحـراءـ وـتـبـكـيـ ضـيـاعـ الـأـبـنـاءـ ..ـ ».ـ عـادـتـ إـلـىـ الـلـحـنـ الـحـزـينـ ،ـ وـتـرـنـمـ بـمـرـثـيـةـ الضـيـاعـ .ـ ضـيـاعـ الـأـبـنـاءـ وـفـنـاءـ الـأـجيـالـ مـنـ الصـحـراءـ .ـ تـغـنـتـ بـمـوـالـ الـفـجـيـعـهـ الـذـيـ سـتـرـئـيـ بـهـ الصـحـراءـ زـوـالـ الـأـبـنـاءـ .ـ وـلـكـنـهـ كـانـ شـقـيـاـ وـصـغـيـراـ وـلـمـ يـفـهـمـ حـرـارـةـ الـفـجـيـعـهـ فـيـ مـوـاـيـلـ الصـحـراءـ ،ـ لـأـنـهـ قـاطـعـ الـأـمـ لـيـعـرـفـ سـرـ

الأخ المزعوم الذي شجَّ رأسه ليدفع به الى الحفرة . توقفت عن الاغنية الشجنية القاسية فأحسَ بالفراغ ، بالعزلة ، بالضياع ، باغتراب خفي عرف فيما بعد أنه قدر مكتوب على جبين كل صحراوي . ادرك كم هو أحمق اذاً أوقف تدفق الموَال بالسؤال حول خرافات الاقران الاشقياء عن الأخ المزعوم . استعار النغم النبيل ، وايقظ في صدره الصغير الرؤى والاحلام والاعاجيب ، فأحسَ أن النغم لم يتوقف . مضى مع اللحن بعيدا فلم يستمع لرواية الأم حول آخرة الكائنات ووحدة كل الاشياء في الصحراء . مضى بعيدا . سافر الى أرض أعلى من مقام الزعيم في آجر ، وأبعد من ملكوت «آغرم نودادن» . اللحن اشعل فيه حريقاً لم ينطفئ منذ ذلك اليوم ، وأيقظ فيه حنيناً لم تسعه الصحراء الكبرى كلها . لقد تلقى الالهام الذي وهبه تلك العبرية الفريدة . عبرية الاختراق والاتحاد والتلاشي والميلاد . اختراق الاشياء ، الاتحاد بالكائنات ، التلاشي المدهش الذي يتبعه الميلاد في عرف السراب ، أو لسان السيل ، أو جلد تيرزازت ، أو بدن الحوار . استلقى على ظهره وتأمل السماء الزرقاء فوجد أنه ليس جزءاً من السماء ، ولكنه هو السماء . وجده أنه مسكون بالأرض التي يلتصق بها ، والأرض أيضاً تس肯ه . ادرك بحسن الطفولة المبهم كيف يسير الانسان الى الاشياء ، وكيف تسير اليه الاشياء . كيف يسرى في الاشياء وكيف تسرى فيه الاشياء . تابع كيف تحدث الاعجوبة . كيف يتشتت ويتبعد في الصحراء الكبرى التي لا

وجود لأرض ، ولا لوجود ، سواها . سافر الى الجھول مع اللحن ، وعندما عاد وجد نفسه يبكي . وي بكى . بكى طويلا في ذلك اليوم .

سبب الوجع للأم التي ظلت أنه تلقى صفة من جن ، فهرعت الى الخباء ، وحرقت حفنة الشیح ، وسقته ماء النطرون ، وقرأت على رأسه تعاوید الم Gors وتمائم السّحرة . أكتأب لأنّه افزعها ، ولكنه لم يبح لها بسرّ الرحلة . لم يقل لها أنه بكى فرحا ، ولم يطلب منها أن تعيد جوابها عن الأخ الذي حاول قتله ، لأن رغبته في سماع مرثية الصحراء عندما تفقد الابناء كانت أقوى الى حد تحول فيه كل شيء غير الغناء الى باطل : سرّ الكبار وهم يتهامسون ، تُهم الأقران الاشقياء عند الشجر ، النّعوت الغامضة عن الأصل السفلي . وسيرة الأخ الذي دفنه في الحفرة . الرغبة في العودة الى الملحة جَبَ كل هذه الاهوال وحوّلها الى اوهام وأضغاث احلام ، فوجد نفسه ينهض ، يستند برفقيه على الارض ، ليلقى نظرة على الصحراء البكر وهي تعم في أشعة الغسق كأنه يراها لأول مرة . لم لا ؟ ألم يولد من جديد ؟ ألم يطف الأكونان برقة النغم ؟ ألا يحق له الآن أن يترجّى الأم أن تسمعه سيرة الأم ؟ ألا يحق له أن يسمع من الأرض سرّ شقاء الأرض ؟

تابع الخلاء الموجع ، الغامض ، المغمور بأشعة الغروب ، وتتوسل الأم ان تسمعه مرة أخرى اغنية الصحراء عندما تتعى الذرية ، وترثي

أبناء فقدتهم لأنهم تنكروا لها واحتاروا أن يصيروا أتباعاً لـ «و انتهيط» .

(٦)

فرغ من عجن الدقيق ، صنع من العجنة قرصاً مدوراً ، سميكاً ،
نثر فوقه حفنة من الدقيق . كساه بطبيعة الدقيق بعناية ليمعن الجمر النهم
من نهش جلدة القرص . داعب العجين المنفوش بكلتا يديه . اختبر
سطح القرص فوجده صلباً تعلوه طبقة ناعمة مثل شرشف ليس . تناول
من كوم الحطب عوداً . أخرج من كُمَّةٍ مديةٍ نحاسية مدسosa في غمد
جلدي مطفأً بلون الأرض . شذّب العود وأعد منه مسْعراً . أزاح الجمر
المتوحش جانباً . خلَّفَ الجمر رماداً مطفأً ، غامضاً ، حزيناً ، مثل
الأرض ، مثل القمر ، مثل كل كائنات الصحراء . هرش الرماد بالمسعر
فاستعر الملال وتململ بمرونة تلك الأخلال العجيبة التي يصنعها
الحدداون السّحرة في الواحات عندما يحمون الأرض والأخلاط بالنار
فتتحول إلى نحاس وحديد وقصدير . حفر بالمسعر في الرماد المتململ ،
الرائب ، الرجراج ، مفسحا المجال للرغيف . أخرج كنزه من الوعاء .
داعبه بين يديه في الهواء . وضعه في مأواه الجديد . أهال عليه الرماد
المتململ ، الآسر ، الرجراج . تدفق فوق القرص الأبيض ، الحصى
داخل شرنقة رهيفة من هباء الشعير ، ماداً لساناً شرعاً كلسان ثعبان

غاضب . أبتلع الفم الشره بدن القرص . استسلم البدن النَّييل لويارات جهنَّم . أحسَّ بالرماد يحتويه . يسيل على بدنِه . يجاهد رذاذ الشعير ، تستيميت التسمية لحمايته ، ولكن المخلوق الذي جاد ببدنه لا بد أن يتحمل النار ، ويندوق طعم الجحيم ، اذا أراد ان يطعم مخلوقاً آخر ، ويصنع منه تواماً ، أخاً ، قريناً . أنحنى فوق التراب المعتم . تابع رجمة الرماد وتلذذ بدفء مجهول نفته ذرات الرمل وامتصَّه البدن المدفون في جوف الأرض . سرى الدفء في العروق ، ومضى يتسلل ليغمر الجسم كله . وكلما انتشر فيه الدفء تصاعد الانتشاء واقترب ميعاد الخروج . ذلك الخروج الخفي الذي أحسَّ به عندما تحول الى حوار ، وتنعم به وهو يطوف في الغابة الحجرية متخفياً في جلد تيرزازت ، وعرفه وهو يتتجول في « تانوت ملت » ليغيب في أعراف السراب حتى يتلاشى ، ثم يجد نفسه عائداً في هبة ريح ، و قطرة مطر سقطت في أعلى الجبال لتندفع الى الوديان في ألسنة شقية تثرثر وترطن وتعارك الحجارة . الخروج الذي تصنعه أغنية شجية . الخروج . الخروج . ماذا كان سيفعل لو حرم من نشوة الخروج ؟ كيف سيتحمل الشمس والظُّلماً وألسنة الرماد المشتعل ؟ ها هو شرر المرض يتراجع . ها هي جذوة الحنين تخبو ، ها هي نار العشق تهدأ وتنطفئ . ها هو بورو يولد ، ويولد ، من جديد .

أخرج ثمرة الأرض بحركة من المسعر . تناولها بين يديه .

هددها لينقض عنها حبات الرمل القاتمة . لوح بها في الهواء وتلقفها كأنه أم تداعب طفلها الوليد . فاح الرغيف بمزيج الروائح . رائحة الأرض الصحراوية وهي ترتوي بالمطر . رائحة النار وهي تتلذذ بأكل الحطب اليابس . شذى الزهور الأولى التي يوجد بها ربيع مبكر . رائحة الأخلاط في موقد الحدادين السحرية . رائحة الشمرة السرية التي تنجبها الحمادة من المجهول عندما تعقد السماء مع التربة الحمراء زواجا بأمطار سخية في فصل الخريف . و ... رائحة الجسم البشري المتعب ، جسمه هو ، عندما يركض خلف الإبل أياما ، ليهجع في القيلولة ، يتنفس ، فتفزّ منه خيوط العرق . ظل يقلب القطعة المطفأة ، بين يديه ، محاولا أن يستعيد الزّمن المفقود الذي ملأ فيه رئتيه بهذا العطر الأليف كأنه أغنية شجن .

أصحاب عراك الأفلاك الشمس في عرশها فكفت عن المقاومة وتنازلت عن الكبراء وعن العرش . انسحبت غربا في انكسار ، فابتهرت الطلحة بال بشارة . هلل الظل وخرج من كتلته . تمدد بارتياح واستطال . سعى في قامة رفيعة في الاتجاه المعاكس . تابع بورو فرحته وزحفه ، وفكّر كيف كان بائسا ، يائسا ، مكوّما حول نفسه مثل القنفذ منذ قليل ، يستجير من عذاب النار عندما كانت سلطانة السماء تستبد بالصحراء . ولكنه يطلع لها الآن لسانه ساخراً من هزيمتها . حتى الظلال تخرج من عزلتها ، وتمدد ، وتمتطي شماتة ، واستفزازا ، واحتفاء

بسقوط الطاغية . ها هو ظل الطلحة يتمرد ويتجاسر ويتحرّك مستمتعاً بتحرّره ، ليتركه في العراء لأشعة شمس العشية . تابع اللسان المطفأ ، الغامض ، وهو يتمدد ليزف بشارة الغروب لكتائب الصحراء . وكانت « مولا - مولا » أول من استجاب . رآها تقف فوق حجر مرفوع على مسافة بعض خطوات . ظهرت فجأة كأن الحجر المرفوع هو الذي أنجبها . ركعت مرتين فانحنى بورو إلى الأمام ردًا لتحية طائر البشرة . خاطبها بصوت مسموع :

- خبزنا هو دمنا ولحمنا وماؤنا . ولن ندخل بالماء والدم واللحم

على مولا - مولا كما فعلت أم ضرّة تانس الشقية* .

كسر قطعة من الرغيف فتمادي العطر وفاح بكل الروائح الشجّية التي تحود بها الصحراء . ألقى بالقطعة نحو الطائر فشكرته مولا - مولا بانحناءتين متاليتين قبل أن تتقدم نحو العطية في قفزتين جريئتين . رفعت اليه نظرة حذرة قبل أن تنحني فوق القطعة وتغرس منقارها الصغير في الشقّ بحثاً عن الجزء الراّطب في القطعة التي تخشّت جلدتها في التراب لأن الأرض جاهدت أن تردها إلى الأصل ، كما تفعل مع الكائنات الصحراوية ، فاختفت الرغيف في صدفة لها صلابة الحجر . تراجعت إلى الوراء وانحنت مرة أخرى . رأى بورو البقعة

* ضرّة تانس الشقية : رفضت أم الضرّة في اسطورة تانس الشهيرة أن تعطي قطعة اللحم لـ « مولا - مولا »، فبشرّها الطائر أن اللحم الذي أكلته إنما هو لحم أبنتها !

الناصعة التي تتوَّرُج رأسها وتتوسّط لباساً كثيفاً في سواد الفحم ، كأنه
 البدر يدّد ظلمة الليل . قال لنفسه أن هذه البقعة البيضاء سرّ تعلق
 الصحراوين بモلا - مولا وسبب تفاؤلهم بها . فبدن الطائر ليل كثيف ،
 والبقعة هي الضوء . ولكن في مولا - مولا سرّ آخر أكبر من سحر
 البقعة ، وأكثر غموضاً من الأشياء المطفأة . فتقول العجائز الحكيمات ،
 بلغتهن الغامضة ، أن البدن المظلم هو الدهلiz ، دهليز الحياة ، أم دهليز
 «ايدينان» * المجهول ، والناج الأبيض هو علامة الماتحة ، بقعة الضوء ،
 اشارة الأمل في العتمة . فلم تضع قافلة خرج في طريقها طائر العجب .
 لم تفتك ذئاب بقطيع نال ركعة من البدن الأبعع . لم تحمل مجاعة في نمح
 حامت فوقه مولا - مولا . ولم تعرف القبائل وباء ما استضافت الخلق
 الوديع في ربوعها . كما لم يحدث أن تاه رسول ، او عابر سبيل ، وقد
 الطريق الى الآبار اذا تلقى البشاره من دليل المسافرين . عكس الصرد
 المشئوم الذي لا يظهر في نمح الا وحلّ فيه الوباء ، ولا ينزل أرض الآ
 نالتها المجاعة ، ولا يوقق على مسمع قبيلة الا هاجمها الغزاة ، او مات
 فيها الزعماء والحكماء والأكابر . واذا مات الزعماء والحكماء والأكابر
 فذلك نذير الخراب والزوال ، وبداية انقطاع في نسل القبيلة . ولذلك
 يتشارع المسافرون الى آير من مفارقة «تبيري» ، لأنها أرض تستقطع فيها

* ايدينان : جبل خرافي يقع في قلب الصحراء الكبرى الوسطى وتقول أساطير الطوارق أنه وطن الجن (راجع رواية «المجوس»).

آبار المياه لمسافة تزيد على الشهر ، ولكن لأن مولا - مولا هجرتها في قديم الزمان ، بعد ان رفض أهلها البخلاء أن يقتسموا معها طعاماً أعطته لهم أمّهم ، وأمّها أيضا ، الأرض السخية، النبيلة التي اعطت الجميع ، ولم تدخل بخيراتها حتى على الأغراب ، بل منحت بسخاء حتى الغزاة الذين يبتوا لها الشر ، وجاءوا ليسببو لها الأذى، وهي التي علّمت مولا - مولا النّبل ، والتسامح ، والساخاء ، لتأخذ منها الوصيّة القديمة وتحصّن بها كتميّمة سرية ، تصنع منها بشاره للأشقياء . مولا - مولا ... أنت رسول الصحراء . روح الصحراء . سر الصحراء.

كان من حق بورو أن ينعم بالسعادة ، لأن الأرض التي هو جزء منها ، قد باركت خبزه ، فأرسلت روحها الذي يسكن طائر البشرة ، ليكون اول من يأخذ نصيبه من الثمرة المطفأة مثل الصحراء ، الغامضة مثل الصحراء ، الحزينة مثل الصحراء ، التي امترجت فيها روانة الأرض ، انفاس الأرض ، بألوان كائنات الأرض ، بشارة الأرض . الأرض قالت له بلسان مولا - مولا أنها اعطته لا ليأخذ ، وإنما ليعطي ، لأن ابن لن يكون ابنا ان لم يتحلّ بأخلاق الأم . والأم لم تدخل على الغرباء . لم تدخل حتى على الاعداء . ما عليه أن يتعلّمه هو هذا السحر الجديد ، القاسي ، الذي يرى أن الخلق الذي يريد أن يتباهى بالانتقام للأم العظيمة ، لا بد له أن يبلغ من التسامح مقاما يجعله قادرا أن يقطع نصبيا

من خيرات الارض ، يغدق به حتى على أعداء الارض . فهم ابناء الأرض ، وان ضلوا السبيل ، وساروا وارء الساحر « وانتهيط » .

فأي سر تخبئه الصحراء في حلمها الخفي ، وتسامحها القاسي ، ونبتها الحكيم ؟ ولكن بورو فهم دائمًا . فهم لغتها ، لأنها أمثل لتعاليمها عندما لقتته أول الدروس . وما عليه إلا أن يستنفر قواه ، ويستفز الذاكرة ليسترجع المسيرة . ففي السيرة القديمة يستطيع أن يستعيد الوصايا ، ويفهم الاشارة ، ويفك ما غاب عن باله كما يفك رموز « تيفيناخ » السرية التي تركها له الأسلاف محفورة على لواح الحجارة .

هناك ، في رحاب الماضي المجيد ، حيث ينطبع الأجداد بقامات المردة على صدور الصخور المطفأة ، ويستعير الصيادون العظام ليس اقنعة الودان فقط ، أو قرونها ، أو أجسامها الجليلة . وإنما هييتها أيضًا ، وغموضها ، والسر المبهم في عيونها الكحلاء . هناك ، في رحاب الصخور المطفأة كبشرة الأرض ، هناك ، في هذا السفر الغامض ، المكتوب بصور اقطعتها الأسلاف من أرواحهم ، يستطيع بورو أن يجد سر قرينته مولا - مولا ، ويقرأ سيرتها الأولى .

(٧)

تحرر الظل فعرى هروبـه الى الشرق الضيف من الفـئ فأدرـكته الشمس باشعة مكسورة ، أشعة العشـيبة . ولكن الانكـسار ومشوار

الاَفول لم ينزعَا النَّارِ مِنْ رُسْلِ الْقَرْصِ الْمُسْتَبْدَّ . فَرَأَى كَيْفَ تَلْمِلِمْ
جَبَارِينَ عِنْدَمَا سَلْطَ الطَّاغِيَةِ خِيُوطَ الشَّعَاعِ فَوْقَ نَحْرِهِ الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ
اللَّثَامَ . هَبَّ بُورُو إِلَى امْتِعْتَهِ التَّيْ انْحَسَرَ عَنْهَا الظَّلَّ أَيْضًا وَتَرَكَهَا لِسَطَانِ
الشَّعَاعِاتِ الْمُسْتَمِيَّةِ . تَنَاهَى بِرْنَسَهُ الْأَزْرَقَ الَّذِي تَهَمَّتَهُ نَفْسُ الْاَشْعَةِ
الْخَالِدَةِ وَلَحْسَتَ لَوْنَهُ فَبِدَاءً يَهْتَ وَيَسْحَبُ وَيَسْبِّ . رَمَاهُ فِي الْهَوَاءِ ،
فَوْقَ رَأْسِ الْطَّلْحَةِ . تَلْقَفَهُ الشَّوْكُ ، وَتَشَبَّثَتْ بِهِ الْفَرْوَةُ . كَانَهَا كَانَتْ
تَنْتَظِرُ الْعَطِيَّةَ . فَزَعَتْ مُولاً - مُولاً فَرَفَرَتْ . طَارَتْ صُوبُ الْمَرْتَفَعَاتِ
الْجَنْوِيَّةِ وَحَطَّتْ عَلَى طَلْحَةِ بَائِسَةٍ تَقَفَّ عَنِ الْمُنْعَطِفِ حَيْثُ يَزِدَادُ
الْوَادِي عُمْقاً وَيَنْحَرِفُ ، بِحَدَّهُ ، لِيَدُورَ إِلَى الْغَربِ فِي طَرِيقِهِ الْاَزْلَى
نَحْوَ آلَوْنِ الْعَظِيمِ . هُنَاكَ تَقَفَّ نَاقَةُ الْمَسَافِرِ أَيْضًا ، تَنْحَنِي فَوْقَ شَجَرَةِ
حَلْفَاءِ ، وَتَنْتَظِرُ زَوَالَ الشَّمْسِ . أَمَا طَلْحَةَ فَتَمْسَكَتْ بِالْحِجَابِ لِتَحْمِي
رَأْسَهَا مِنْ سَيْلِ النَّارِ الْمُخْتَضِرِ ، فَتَدَلَّى بِالْبَرْنَسِ فِي الْفَضَاءِ لِيَسْتَرِ نَحْرِ
الْمَسَافِرِ مِنْ الفَيْضِ الَّذِي اسْتَمَرَّ يَتَدَفَّقُ مِنْ عَيْنِ الطَّاغِيَةِ . الشَّمْسُ لَا تَرِيدُ
أَنْ تَسْتَسْلِمَ حَتَّى وَهِيَ تَخْتَضُرُ وَتَلْفَظُ أَنفَاسَهَا الْأُخْرِيَّةِ . اقْتَرَبَ مِنْ بَدْنِ
الْقَرَيْنِ . سَجَدَ فَوْقَهُ فَسَمِعَ أَنفَاسَهَا الْمُجَهَّدَةَ . رَأَى صَدَرَهُ يَعْلُو وَيَهْبِطُ
مُسْتَجِيبًا لِحَرَارَةِ الْأَنفَاسِ الْمَدْهَشَةِ وَهِيَ تَسْرُبُ إِلَى وَعَاءِ الطَّينِ ، عَبَرَ
دَرُوبَ خَفْيَةَ ، حَامِلَةَ السَّرَّ الْمَقْدَسِ ، لِتَصْنَعَ السَّاحِرَ ، وَتَمَدَّ الْيَنْبُوعَ
بِالْغَذَاءِ ، فَيَنْبَضُ كَوْمُ الطَّينِ ، وَيَسْتَجِيبُ لِعَجَيْبِ الْجَيْبِ الْحَيَاةِ . أَنْسَدَلَ
طَرْفُ اللَّثَامِ الْعُلُوِّيِّ حَتَّى لَامِسَ الْعَيْنَيْنِ الْمُسْبَلَتَيْنِ . فَوْقَ الْجَفَنِ الْأَيْمَنِ سَالَ

خيط شقي من العرق . انبجس من الجبين المستور باللثام ، وسار عبر الغضون بشقاوة المياه في المسالك الجبلية ، حتى أصاب الاهداب الكسولة بالبلل ، فبدا كأنَّ العين المسبلة هي التي فاضت بالنداوة . ففي شق بين الجفنين كشفت عين النائم عن بياض المقلة . في البياض لم يمتص طفولي يخفى سؤالاً قاسياً . انحنى بورو حتى كاد طرف لثامه يلامس لثام النائم . تأمل الشقَّ . كان ضيقاً إلى حدٍ غاب فيه السواد تماماً، ولم يسمح الا لخطَّ البياض بالتبديِّ . خطٌ يشبه القبس الفجري البكر الذي يتولى الأمر ، امثلاً لأمر اعظم ، ويعطي اشارة تقلع بدن السماء عن جسد الأرض ، منبعاً الخلق عن نهاية العرس ، واقتراب ميعاد الانقضاض . خيط فاجع ، لأنَّه يحمل بشارة الفراق برغم استمرار طقوس القرآن . ولا يعرف بورو لماذا رأى في البياض المنبثق من الشقَّ الضيق ، بين العينين المسبليتين ، فجيزة قبس الفجر ، كأنَّه ، البياض ، يخترق غيوب الغيب ليكشف خفايا الزمان ، على طريقة العرافين السُّحراء ، ملوّحاً بنبوة لا تقل فجيزة .

تراجع إلى الوراء . تقدم إلى امتعة المسافر . أمسك السرج من رأسه . من شعار تانيت المجسم * والقى به على منكبِه مقلوباً رأساً على عقب . كأنَّ السرج هو الذي يمتطي منكبِه ، والشعار المهيوب منكس إلى

* شعار تانيت المجسم : تقاطع على هيئة صليب ، وهو حرف + «التا» - بأبجدية «تيفيناغ» . الحرف الأول من اسم الآلهة «تانيت» .

اسفل ، كأنه يركع للارض ، ويصلّى لتراب آجر المقدس ، بعد ان كان
مكابرا ، مرفوعا الى السماوات في فلوات الحمادة الحمراء . حركة
عفوية ، صغيرة غير متعمدة من بورو جعلت معبودة صحاري الشمال
ترکع في صحراء آجر العظمى ، لتحول الي عابد ينحني براسه الى
اسفل ، يقبل الأرض ، ويصلّى للتراب ، ويعبد آلهة أخرى ، أ Nigel ،
وأعظم ، وأكبر ، الي حدّ أنهم لا يكتفون بالخلق الزائل عبيدا ، ويأبون
الآن يتخدوا من الـله الأغراب عبادا .

صعد المرتفعات المهيءة . ودخل مغارات جليلة . اخفى السرج
المتوّج بعلامة تأنيت كما يخفى الجنّ كنوزهم في اقبية الحجارة ، ليعقبهم
اليها الكنازون السّحرة الذين تلقوا تحريضا من « وانتهيط » اللثيم ،
 فأصحابهم بالمسّ لينبشوا قبور الاسلاف المقدّسة ، فتزلزل الجبال سخطا ،
 وتتوّج الارض غضبا، ويخرج التراب افاله وحممه انتقاما .

عاد من المخبأ بواء من الفخار . وعاء محروق باللون المطفأ ،
الغامض ، الحزين . أتى بثلاثة احجار ، أقام منها نصبا مثلث الزوايا فوق
النّار ، وضع فوقها الوعاء بعد أن دلق فيه الماء . بدأ في اعداد الحساء .
جرّ بعض قطع من الجمر بالمسعر وكومها جانبا .

وضع فوقها وعاء آخر ملأه بالماء وحفة من الأعشاب . تململ
جبارين . رفع رأسه . استند جسمه برفقيه . راقب الخلاء . رأى فيه
الفرح الطفولي البكر الذي تستقبل به الصحراء غياب الشمس . الفرحة

الوحيدة التي تستبدل بـكائن يؤدي شعائر الوداع . راقبه بورو بفضول قبل أن يمد له بكسرة الرغيف . جلس جبارين . تربع . تناول القطعة بكلتا يديه . تناولها بجلال من يعرف قداسة العطاء ، ويسجل القرص الذي استعار لونه المطفأ ، الخفي ، من تراب الصحراء . تأملها بين يديه . رفعها إلى اللثام . حرر انفه من اللثام بسبابة يده اليسرى . دارت عيناه في محجريهما وغاب فيما السواد وهو يسحب العطر السري من القطعة . تتمم بتعويذة مجهرولة قبل أن يعرى فمه ويلامس بشفتيه الرغيف المعطر بانفاس النبات الصحراوي . نباتات كل الفصول ، وكائنات كل الدهور . هذه الانفاس التي تعطيه مذاقا خاصاً ، وتفجر فيه شذى يشير شجنا لا يقارن إلا بشجن الأشعار والأغانى .

ابتسم بورو . ابتسم لأنه استطاع أن يعطي ما للأرض ، ويطعم عابرا يصنع منه قرينا .

كان جبارين ثانى مخلوق يأكل من الرغيف بعد مولا - مولا .

(٨)

بعد الحسأء تكلّم بورو لأول مرة :

- تقاسمنا نعمة الأرض ، وأكلنا خير الصحراء . أنت ، منذ الآن

قريني !

تكلّم جبارين لأول مرة أيضا :

- قرينك ؟

تفقد بورو وعاء الاعشاب فوق الجمر . أوضحت :

– توأمي ان شئت . ألم نولد من هذه البطن ؟

هدهد التراب براحة يده وأضاف :

– ألم نرضع من نفس الثدي ؟ ألم تطعمنا الأم نفس الطعام ، ومن

نفس اليد ؟

حصّن جبارين وجهه بلثامه . التفت الى الأفق البعيد حيث تنحدن السماء لتقبل جبين الأرض ، فرأى كيف تكتب الشمس وصية الوداع

برموز غامضة . سأل ببرود :

– هل انت ساحر ؟!

سكت بورو حتى ظن جبارين أنه لن يجيب ، ثم قال بذلك الاسترخاء الذي يجعل من البرود لغة تخص الحكماء :

– كُلنا سحرة !

احتضن جبارين ركبتيه بذراعيه . ضم قلادة أحججته المهيّة في حضنه ، اخفهاها بين ركبتيه . راقب طقوس الغروب في الأفق ، يقرأ أسرار الصحراء ، وخفايا الزمان . سرّ الرحلة القصيرة التي تبدأ بالشروع ، وتنتهي بالغروب . تبدأ بميلاد ، تنتهي بالزوال . ولا يستطيع أي لوح أن يأتي بتفسير لهذا السفر الغامض . الأفق ، وقت الغروب ، وحده يستطيع أن يكتب سيرة الرحلة الفاجعة ، ويوح بسرّها . لقد اكتشف هذه الموهبة السحرية في أفق الحمادة منذ زمن بعيد ، وتعلم أن

يجلس بخشوع ليقرأها مع كل غروب .

قال بورو بنفس نبرة الاسترخاء : .

- اخبرني عراف عجوز أن ابناء الصحراء هم احفاد الجنّ !

وكل من رفض ان ينزع للاقامة في الواحات ، وآثر ان يهيم مع الاشباح في الخلاء ، يهُب مع الرياح في مواسم القبلي ، يتسلّك في الفلووات مع ألسنة السراب ، يردد المواويل الحزينة مع الجنّيات في الامسيات المقمرة ، كل من اختار أن يكون طيفا من الاطياف ، خيالا في «آغرم نودادن» ، هو جنّي أبن جنّي ، وساحر ابن ساحر !

قطع جبارين قراءته لنبوة الزوال في صحائف الأفق ، وسأل :

- هل كان عرّافا من كانوا أم من تينكتو ؟

ولكن بورو لم يجب على سؤاله . انتزع وعاء الأعشاب .

ووضعه على التراب الرملي . واصل روايته :

- .. لقد رافقني الى تادرارت ، وقال أنه يريد ان يعلمني كيف

استخرج الكنوز من مخابئ الجنّ . ولكنني تركته حتى نام وهربت !

- هربت ؟

- نعم . أنا أخاف الكنوز ولا انوي أن اتحرّش بالجنّ !

- حسنا فعلت !

- هل توافقني في أن هروبي كان فعلا حسنا ؟

- نعم .

- لماذا تظن أن ذلك عمل حسن ؟

- لأن العرّاف لم يكن عرّافاً حقيقياً !
- قال انه عرّاف ، ولكنني نسيت أن أسأله لأي ملة يتعمى : ملة كانوا أم ملة تنبكتو .
- وانتهيط اللعين !
- ماذا يقول جبارين ؟
- جبارين يقول أن العرّاف كان وانتهيط اللثيم !
- وانتهيط ؟ نعم . العرّاف كان مزيفاً . وانتهيط يتخفي في جلود العرّافين ، في كل الجلود . وانتهيط ساحر كبير . كبير السّحرة .
- ... -
- أحد الرعاة الحكماء اخبرني أنه يتنكر حتى في جلود الافاعي والحيّات !
- ... -
- ولكن هل سبق لجبارين أن قابل وانتهيط في حياته ؟
- نعم . مرّة واحدة .
- ظننت أن وانتهيط لا وجود له في مملكة الحمادة .
- وانتهيط موجود في كل مكان . وانتهيط موجود أينما وجد الانسان .
- هل لـ « وانتهيط » الذي قابلته في الحمادة قرون التيوس ؟

تكاففت غلالات العتمة في المدى ، فاحتجبت الرموز في لوح الأفق .
تحرر جبارين من أسر القراءة فهب واقفا . سأله :

– ولكنني لا أرى سرجي . أين السرج ؟ أنا لا أقدر أن أنام دون
أتوسد سرجي !

هأها بورو في ضحكة ماكرة . نفس الضحكة التي سمعها
جبارين في غيبوبته وانبأه بأنه لا ينوى أن يغفر له . تكلم بورو :

– لقد رأى الجن أن ينقدوك من هجاء الشاعرات فاخفوا السرج
حتى لا ينتشر غدا نبأ بين القبائل يقول أن فارساً أقبل من مملكة الحمادة ،
يجلس في سرج مثبت على ظهر ناقة ! هيـــ هيـــ هيـــ ..

جلس جبارين في مواجهته . سأله :

– هل اخفيت السرج ؟

– رأيت أن سمعة قريني من سمعتي ، فتحالفت مع الجن حرصا
على سمعتي . أنا لا أريد أن تتناول سيرتك الشاعرات . يحس بك أن
تعلم أنهن موهوبات ، وإذا ورد اسم فارس في قصائدهن مرة ، فلن
يترکنه حتى يهلك نفسه بيده كما فعل خبذا المسكين !

– خبذا ؟

– جن من العار . جنته الشعر .

– حدثني عن خبذا .

- لا بد أن الانباء بلغتكم عندما حرم الزعيم تارات عقب هطول أمطار الصيف حتى لا تفسد الابل المراعي قبل أن يكتمل نضج النبات في الربيع . ولم يكتف الزعيم بالتحرير ، كما جرت العادة ، ولكنه أقام عسسا في افواه الوديان التي تصب في تارات . ولا أحد يعلم كيف تسلل خبذاً بابله الى السهل الأخضر وانتهك الحرم . ولا أحد يدرى كيف انفضح ، لأن العسس لم يكتشفوه . ويقول الرعاة أن رسول الزعيم كانوا أول من رأاه . وروى آخرون أن الزعيم ، الذي لا تخفي عليه خافية في مملكته ، هو الذي رأه من مقامه المعلق في رؤوس الجبال ، بين السماء والأرض ، فأصدر أمره الذي لا مرد له يا قريني جبارين .

سكت . رفع نظرة غامضة الى جليسه ، ثم سأل :

- هل يدرى محبوب الربة تانس ما هو العقاب الذي أنزله زعيم آزر جر بخداً الذي انتهك الحرم ، ودنس السهل المقدس قبل الميعاد الذي حدد زعيم في شريعته ؟

تلاؤات مقلته بالآلئ مفاجئة لاحظها جبارين برغم العتمة ، ثم نكس رأسه قبل أن ينطق بالقصاص الفاجع :

- إينايغان* .

ردّد جبارين بذهول :

* إينايغان : أقسى أساليب التعذيب لدى قدماء الطوارق .

- ايغايغان؟

... -

- هل كان خبذاً ملوكاً من قبائل العبيد؟

- في آخر كلنا مماليك . كل من دخل أرض آخر فهو ملوك من المالكين ، وعبد في خدمة الزعيم ، قريني جبارين ، الآن ، أيضاً مملوك ، وعبد من العبيد .

ردد جبارين بنفس الذهول:

- عبد من العبيد؟

- هكذا قضت الشريعة منذ زمن لا يذكره أحد .

... -

- في آخر عليك أن تنسى تانيت ، ويجب عليك أن تعلم كيف تسبح بحمد الزعيم ، لأن القبائل تتطلع للريع ، والريع بين يديه . كل المياه التي تجود بها سماء آخر تصب في سهول الزعيم .

- ولكن ايغايغان ..

قاطعه بورو:

- .. وب رغم قساوة الاحكام الا أنه رحيم بالقبائل ، غفار للخطايا.

- لا أفهم .

– يقال أنه يقسوا في القصاص كي يجعل من تارات فردوسا تنعم
فيه القبائل بالحياة .

– في الحمادة لا يعاقب الرجل بـ « ايفايغان » الا اذا كان عبدا
ملوكاً أرتكب جرماً أكبر من ادخال الابل الي المرعى في زمن التحرير .
– في شريعة آزرجر لا يوجد جرم أكبر من ادخال الابل الي
المرعى في مواسم التحرير .

... –

– طاف به عبيد الزعيم الوديان لتتفرج عليه قبائل الجنّ والانس .
رأسه حاسر ، محاط بعمودين هائلين من سدر مملكتكم ، من سدر
الحمادة . رأيتهما بنفسى . كانوا مثل قرنى الودآن . ورأيت عبداً مارداً في
قامة الجنّ يهوى بعضاً من السدر على العمودين فيفقد خبذاً المسكين
صوابه . يحترق المخّ في راسه بنار الوجع ، فيطير في الفضاء كما يطير
البهلول بوشا وراء جده الودآن الكبير آمغار . على قرنى الآءيسى بي
الظن فيقول في نفسه أني أعيد ما لم أره ، وأقول ما لم أسمعه مثل نساء
النجوع . الحق أقول أني رأيته بعينين خلقتنا لتكوننا خبزاً للتراب في
القريب . رأيته عندما وصلوا به « تانوت ملت » ، كان شقياً ، فمه يشر
الزبد مثل الجمل القربيع ، عيناه حمراوان ، خرجتا من محجريهما حتى
قلت لنفسي أنهم لن تعودا الى مكانهما أبداً . ولم يخطئ بورو الذي
تكلّم في صدري ، لأنّ خبذاً جنّ بعد ذلك !

ظل يحرث الأرض بسبابته طوال الرواية . يرفع رأسه ليتابع زحف العتمة على العراء . يرفع رأسه من حين إلى آخر ليتجسس على الساحرات السماويات وهنْ ينهمكن في اعداد المكيدة . فهو يعرف أن النجوم عندما تخرج من مخايشها بعد انسحاب الشمس إلى النّوم ، تتحاور بلغة الضوء الذي تعلم كيف يفكَّ رموزها ، ليس ابتهاجاً بملكه الليل ، ولكن لأنها تدبّر حيلة تقلب نظام السماء ، وتخلي بناموس الأشياء . تريد أن تقتل الشمس لتسنوا على عرش السماء . وساحرات السموات هنَّ أول من أخبر النجوم الحسان انهن لن يملكن السماء ، ولن يستطيعن التباهي بحسنهن في رحاب الكون الا اذا جعلن الليل خالداً . وذلك عجب لن يحدث الا اذا قتلن الشمس . وكان ينصت لحوارهن الاجرامي كل ليلة عندما تذهب الشمس لتغط في نوم عميق ، وتذهب الكائنات في آلوان العظيم لتهجع في مخايشها . ينطفئ كل شيء مع انطفاء الشمس ولا يبقى في الكون غير السكون . سكون . سكون . سكون . يستلقي على قفاه فينصب لحوار الساحرات . يسمعهن بوضوح . يتمتنن ، يتهامسن ، يرسمن المكيدة باشارات الضوء ، يراهن يتزاورن ، يتبدلن الشهب رسلاً ، يسمع تمائم سحرية مخيفة ، تمائم مقلوبة الحروف ، مثل « تيفيناغ » السرية التي يعتمد الدهاء أن يخلطوا حروفها ليظللوا القراء البلياء ، تمائم مجهلة المعنى ، هي أقرب إلى لغة الجنَّ . هي لغة الجن ، لغة السحر ، هي لغة أهل الخفاء . يقشعر

بدهه ، يشعر أن الميعاد أقرب ، الأجل حان ، ستنفد النجوم مشيئه الساحرات ، وسوف تقتل الشمس ليصبح الليل خالدا مثل الصحراء ، مثل زعيم أزجر . لن يرى الشمس بعد اليوم . تسعى اليه ساحرة لثيمة من ساحرات النجوم . تقترب حتى تكاد تلامس قمم آلون المهيءة . يسمعها تقول : « الشمس لعنة الارض ، وقدر الصحراء أيها البهلوى ! الشمس هي التي خلقت من الصحراء ارضا جردا . لو لا الشمس لما كانت الصحراء صحراء . ألا تريد أن تخلص من الطاغية المسلط على رقبة الصحراء ؟ ألا تريد ان تتحول الارض وتخرج الصحراء من الصحراء ؟ ». انسحبت الساحرة وسافرت في رحلة الى الافلاك . بقي له الوسواس . فكر فيما لو تحققت النبوءة ، وغابت الشمس الى الأبد . الساحرة قالت أنه سيجد نفسه في أرض أخرى ليست صحراء . واذا تحولت الارض ، وخرجت الصحراء من الصحراء ، فسوف يختفي آلون العظيم ، وتهرب تادرارت ، وتتلائى تاسيلي ، ويندثر أزجر كلّه . ليس آزجو وحده ، وإنما آهجار أيضا ، والحمدادة ، وآير ، وأضانغ ، سيختفي الكون ليأتي كون جديد ، لا سكون فيه ، ولا خلاء . لا مولا - مولا ولا آمغار . لن يسمع فيه ثرثرة النّبع العجيب المنحدر من مكان مجھول في قمم تاسيلي ، ولن يخاطب فيه السراب ، لأن لا وجود للمخلوق اللعوب خارج حدود الصحراء . كون يطل فيه سحر الغناء ، ولن يتنتظر فيه الرعاة الأفراح عندما يأمر الزعيم بفكّ الحرم ويأذن

بدخول مراعي الجنة في تارات . تكون لن يستطيع فيه أن يتحول الى سراب أو ماء أو يتخذ له قرناء ، أو يستعير جلد تيرزازت ، ليدخل «آغرم نودادن » ، لأنه سيعجز عن الغناء ، ولأن الصحراء كلها ستنزل الى الأسفل ، وتصبح جزءا من «آغرم نودادن » اذا غابت الشمس . اذا اغتالت الساحرات الشمس . وكان يهبّ كجني ، ويجري بين الجبال ، يصرخ بأعلى صوته ، يستنجد بالقمر ، بالأشباح ، بقرنائه الجنان . فيهب الجنان لنجدته . لنجدة الشمس . لنجدة الصحراء . لنجدة الحياة . تهسّس الابل في الوديان وتهتمّهم غماً، تتململ الطيور في اعشاشها وتخرج من اوخارها فرعا . تتنادى الذئاب في القمم وتتناقل الاشارة . يهرع الجنّ لينقلوا الخبر الى تيرزازت . تقفز تيرزازت لتخبر آمغار في آغرم نودادن ، ولكنها تجد البهلوان بوشا قد سبقها الى جده وأخبره بالخطر . يهرع آمغار الى الزعيم . لأنه لا أحد يستطيع أن يبلغ مأوى الزعيم ، المعلق في قمم بين الارض والسماء ، غير الودان العظيم . يبعث الزعيم برسله ليحذروا الشمس ويطلّوا المكيدة . والآن ، عندما رفع بورو رأسه ، وشاهد سرب «أشيت ناهظ» يتراحمن في حلقة لثيمة تذكر مكائد السّاحرات ، واستنجد سرّاً بالقمر ، نسي وعاء الاعشاب ، وتوقف عن رواية خبذا الذي جُنّ ، وبدأ يرتعد خوفاً من مكائد الساحرات السّماويات . ولم يكمل رواية خبذا إلا بعد أن قرأ البشارة في الافق . جاء القبس منذرا بالعلامة التي سفسد عمل

الساحرات السماويات : ميلاد القمر !

بعد أن تيقن بورو أن القمر سيُخرب السّحر ، وسيُخطر سيدة الكواكب بمكيدة الساحرات ، واطمأن إلى أن الصحراء لن تهرب من الصحراء ، عاد إلى سيرة خبذاً :

- .. قبل أن يجن جاعني في آلون ، وقال لي أن الشاعرات رجمته بأشعار الهجاء ، رأيت الأحمرار في عينيه ، وضحك كثيراً وهو يردد أبياتاً من أشعار الهجاء . سمعت في ضحكته نواياً مريبة ، ولم تدهشني « تيرزازت » عندما جاءته بعد زيارته بأيام وقالت لي أنه استعار منها جلدها ليفر به إلى « آغرم نودادن » فركضت إلى جملتي في الوادي . قفزت إلى سامه دون سرج . وصلت تارات فوجدت الرعاعة وقد تزاحموا على وعاء الطين الذي استبدل بجلد تيرزازت ، وتركه في أسفل الصخرة العالية . كان الوعاء كوماً مشوهاً ، مزقته الحجارة ، وأكلته الصخور عندما تدرج من رأس الجبل . بعد أيام خرج من « آغرم نودادن » وجاعني في لسان السراب .

تمادي القبس في الأفق الشرقي . انشغل العراء بطقوس الميلاد . تأهبت الصحراء لاستقبال كوكب الخلاص الذي سيحمي الشمس من مكيدة الساحرات السماويات ، لطمئن الكائنات أن الصحراء ستبقى صحراء .

تطلع بورو إلى القبس بخشوع أكبر من الامتنان ، بخشوع

العاشق لفتنة القمر . دفن كلتا يديه في التراب . واصل روايته :

- قريني جبارين يعرف أن من دخل «آغرم نودادن» لا يخرج
من هناك الا في جلد تيرزازت الساحرة ، أو لسان السراب الذي يفوقها
سحرا . طلع في القيلولة وأسمعني أغنية شجانية سجية قبل أن يخبرني
بسر . أغنية لم أسمع بمثلها أبدا . آه ، يا قريني جبارين ، ما أبهجهها .
جعلتني أرتجف وأبكي طول الليل ..

رأى جبارين كيف لمعت عيناه بثؤلؤتين في ضوء البدر الوليد ،
ووجد نفسه يقاطعه كي يمحو من رأسه ذكرى الغناء ، ليعرف السر .
كان جبارين ، مثل كل الصحراويين ، يتوق أن يعرف السر في كل
رواية :

- .. ولكنك قلت أنه قال لك سرّا ..

- .. السرّ . نعم . كدت أنسى السرّ . الحق أن أغنيته جديرة بأن
تنسي كل الأسرار ، لأنها هي السر يا قريني الجليل جبارين . الأغنية ..
- القرين جبارين يرى أن تحدثه عن السرّ ..

- السرّ . ماذا قال ؟ .. فلتحم السماء رؤوسنا من وباء النسيان .
آه ، تذكرت . قال أنه لم يجرؤ على اقتحام الحرم بقطع الأبل بأمر
نفسه ، لأنه لم يكن الا راعيا مثل كل الرعاة ، ولا يملك من القطيع سوى
ناقة واحدة يتبعها حوار رضيع . ولكن صاحب القطيع (وهو أقرب

النبلاء الى قلب الزعيم) بعث له برسول أخباره بأنه نال له اذنا من الزعيم بدخول المراعي . وعندما أفضح الامر ، وشاع الخبر في آزجر انكر النبيل ، واحتفى الرسول من الصحراء كلها.

- ألا يظن قريني أنها مكيدة مدبرة من وانتهيظ القديم ؟

- أنا أيضاً ظنت ذلك . لقد احترف الفتنة منذ اختلف مع الزعيم .

- هل قلت انه اختلف مع الزعيم ؟

- كل آزجر تعرف أنهما كانوا صديقين . ولا يتخد الزعيم قراراً الا اذا استشار في أمره وانتهيظ ، ولكنهما اختلفا في أمر غامض ظلل مجھولاً حتى على النبلاء والحاشية ، فطرده الزعيم ، فتحداه وانتهيظ واقسم أن يخرب مملكته . هذا ما يقال في ازجر منذ قديم الزمان . ولكن اليقين الذي يعرفه الجميع ، وعاشه حتى الرّعَاة ، أن وانتهيظ كان وراء مكائد كثيرة حيكت في الصحراء ، منها تلك المكيدة البشعة التي دبرها هذا الدّاهية ليغوي ابن الزعيم الوحيد ويفتن بينه وبين أبيه ..

- هل قلت فتن بين الزعيم وابنه ؟

- آزجر كله يعرف ذلك . عجيب ألا يصل خبر هذه الفتنة مملكة الحمادة .

- يخجلني أن أقول أن أمر هذه الفتنة لم يصل ربوع الحماد :

- ولكن هذه رواية طويلة سيسرّني أن أرويها لك في ليلة طويلة.
ولكن السرّ هو أن خبداً كان ضحية مكيدة أخرى من مكائد خصم
الزعيم القديم « وانهيط ». .

- ألم يقف الزعيم على الحقيقة قبل أن يصدر حكماً قاسياً
كـ« ايغايغان » ضد راع مسكين ؟

- الزعيم يرى أن من وقع ضحية كذبة من أكاذيب « وانهيط »
يستحق عقاباً أقسى من « ايغايغان » لأنّه حذر رعيته من شره عندما لعنه
في مجلس الأعيان وتبرأ منه أثر خلافهما الغامض . وبعث رسلاً إلى كل
القبائل لينذرهم بالبيان الشهير : « لتعلم قبائل الجنّ والانس منذ اليوم أن
الخصومة قد قامت بيني وبين « وانهيط » ، فلا أنا منه ولا هو مني ، ومن
أفعاله أعلن أنني بريء . وإذا خدع أحدكم وجاءني بشتكى فلا سلوى له
عندى ولا مواساة ، وإنما هو العذاب المبين ». ولم يكن الزعيم يظن أن
الساحر الكبير سيعرف كيف يتسلل إلى بيته ليفتّن بينه وبين أبناءه !

- يا له من داهية !

- فكيف تريده أن يرحم لخبذاً خططيته ؟

- يقول حكماء الحمادة أن الرحمة من أخلاق الزعماء !

- إلا في ضحايا كبير السّحرّة ، فالويل لهم من « وانهيط » ،
والويل لهم من الزعيم . عقاب يتلقونه في السهول السفلّي ، وعقاب

أشدَّ يأيدهم من المقام المعلق في أعلى الجبال .

- هل تظن ان خبذاً تخلى عن وعائه واستعار جلد تيرزازت
بسبب عار ايغايفان أم عار الأشعار ؟

- لا ادري . ولكن الصدق أقول لك : الرجال في آزرجر يخافون
اشعار الشاعرات أكثر مما يخافون شرائع الزعيم .

- من منا لا يهاب الرجم بالأشعار ولا يضع الحساب لشرائع
الحسان ؟

- أنا !

- انت ؟

- أنا لا أطرب لمديحهن ، ولا اشعر بالعار اذا رجمتني بالأشعار !
- يا للعار !

- هي - هي .. احترس ! من خاف شريعتهن وقع في
غرامهن ، ومن وقع في غرامهن وضع رقبته في ورق أقسى سبع مرات
من عذاب ايغايفان !

تطلع الي مولد البدر في وهج القبس واعترف :

- ولكن لا انكر عشقى لأصوات المغنيات اللائي يتقن ترنيم
الماوابل الشجنية . مماوبل الشجن وحدها تعين على الخروج .

- الخروج ؟

- نعم : الخروج من الوعاء . من الصحراء . من أي مكان ،
والدخول في أي شيء ، وفي أي مكان .

- الحقّ أني لم أفهم .

- ألم تجرب الدخول في جلد الساحرة تيرزازت ؟

- الساحرة تيرزازت ؟

- أو زيارة أمغار في «آغرم نودادن» ؟

- آغرم نودادن ؟

- أو .. الصعود مع الريح والنزول مع الماء من قمم تاسيلي ؟

- ...

- أو السباحة في السراب وقت القيلولة ؟

تابع جبارين ومضياظل يلمع في عيني المجلس تحت ضوء البدر
الوليد . التفت اليه بورو وقدّم وعاء الأعشاب . قال بغموض :

- ما دمت تخشى اشعار الشاعرات فعليك أن تغفر لي
وتشكرني لأنني خبأت السرج .. هي - هي - هي ...
في العراء أكمل ميلاد البدر .

من الشمال هبّت نسمة باردة ، كأن الحمادة أرادت أن تلاحمه
برسالة مكتوبة بانفاس البحر الشمالي البعيد ، فسمع مسامه يتفتح ،
يتنفس ، ينفث بخاراً تشبع به في رحلته القاسية ، واحتبس فيه ، تشربه في

الأوعية والعروق ، اختنق به . والآن ، عندما هابت النسمة البحرية المشحونة بندى الشمال ورائحة البحر ، تحرق البدن شوقا ، وفرزَ لالتقاطها . هبَ إليها مرتجفا ، كما يهب الفرخ العاجز عندما يحس بعودة الأم إلى الكُنّ، فيهرع إليها مصوصواً ، ماداً رقبة راجفة ، فاتحَا شفتي منقاريه على اتساعهما ، يستجددي القوت ، ويتوسل الحياة . جسده الآن يرتجف أيضا ، يتفتح مثل برع عم زهرة الرتم الضئيل ، المكوم حول نفسه كالقنفذ خلال الليل ، ولا يتبسّم أَلَا إذا تدفقت خيوط الضوء الأولى في أشعة الشروق . يستيقظ من سباته في الحال . يكشف بيسمته عن ثغر يسطع بالبياض ، تتراجع أصابع الشرنقة البنفسجية التي يتخذها لباسا ، يندفع بمس العشاق لالتقاط بصيص الضوء البكر المتولد في أفق الحمادة العاري . فالبدن الذي تنفس الصَّهد طوال السَّفر الطويل ، واستنشق الزفير القاسي ، زفير القبلي ، من رئي الجنوب ، لا يملك أَلَا يسترخي ، ويتفتح على طريقة برمدة الرتمة ، ليتلقّف هبة الهواء الشمالي ، ليس لأن فيها نفس الحياة ، ولكن لأنها حملت مع نفس الحياة روحًا من الحمادة . الحمادة التي جعلتها المسافة حلماً مستحيلاً ، وامنية بعيدة . تململ في صدره حنين ، حتى أنه التقط عطر زهرة الرتم في النسمة ، برغم أنه يعرف أن المسافة التي جعلت من الوطن حلماً مستحيلاً ، سوف تجعل من الاحتفاظ بعطر الزهرة في النسمة عملاً أكثر استحالة .

بعد يومين تولى بورو محو الأثر بحماس . قال أن عين المخلوق هي أصل الشر الذي ابتليت به المخلوقات ، وإذا لاحظ الرّعاه أثر السرج على الدّابة فلن يعرف النوم طريقاً إلى عيونهم الشريرة الاً إذا تأكّدوا أنّ الأثر محفور على ظهر جمل . أمّا إذا وجدوا أنها ناقه فسيتندرون بذلك في مجالسهم تحت ضوء القمر . من هناك سيتنتقل الخبر بافواه الجن ليصل إلى كل القبائل في آزجر ، فتتلقّفه الشاعرات . ولن تمضي أيام أخرى حتى تعود الفضيحة إلى جبارين في أشعار العار . وقال أيضاً أنّ الأمر سيكون أسوأ بعد أن ترأّم الذي جاء من مملكة الحمادة يعشّق الحسان ، ويخاف الهجاء في أشعار الشاعرات . هذا جعله يخشى عليه من مصير كمصير خبذاً الذي أسرّ له أنّ احساساً مجهاً لا أخبره بأنّ خبذاً فعل بنفسه ما فعل ليس انتقاماً من نفسه كرجل خدّعه وانتهّي ونكلّ به الرّعيم ، ولكن لأنّ في نفسه كبراءة الرجال الذين يعشّقون الحسان ولا يخشون شيئاً مثل ما يخشون العار . وعندما سأله جبارين لماذا أخفى عنه هذا الاحساس المجهول في حديثهما الطيب عشية وصوله ، لمعت عيناً بورو بذلك الالق المطفأ ، الغامض ، الذي رأه جبارين مراراً في عيون المجنوين المأذوذين بالغناء في اللحظة التي تسبق سقوطهم في النوبة . ثم مال عليه وقال: « هل تظن أنّي استطيع أن أعلم بكل شيء مرة واحدة؟ أنا أقول ما أعرفه ، وما أعرفه لا يأتي به الجنّ

دائماً في الوقت الذي أريد . أنهم يأتون به متى شاءوا هم كما تعودوا أن يفعلوا مع كل السّحرة . الساحر أيضاً لا يعلم الغيب عندما يريد أن يعلم يا توأمِي جبارين .. هيء - هيء - هيء ..». قفز إلى امتعته وأتى بوعاء مصنوع من جلد الجمل ، له شكل القرع الذي ينمو في حقول الواحات ويُتَّخذ منه الفلاحون قللاً يحفظون فيها مياه الشرب . كان الوعاء مسدوداً بغطاء جلدي أيضاً ، منمنما برسوم مختلفة الألوان . من الرقبة تدلّت كتلة من سيور دقيقة ، ناعمة ، اقتطعت من جلد الغزال . نزع الغطاء فتوقع جبارين أن يشم العطور السحرية التي تتقدّن عجائز آضاغ وأثير صناعتها من المراهم المستحضرّة من روح الأعشاب البريّة . اسدل طرف ثامنه على فمه وحرر انفه ليتمتع بعطر الرّتم ، ولكن بخاراً حاداً ، كريه الرائحة ، رائحة لا تطاق ، اندفع في خياليه وشعر به يصعد إلى رأسه ، يتسلل عبر الاوردة ، فارتج المخ ، وتصدّع الرأس ، وجاشت النّفس بالغثيان . ترَّنَّح ، تراجع إلى الوراء ، استuan بيديه متعداً . بدأ يتقيأ ، في حين مضى بورو إلى النافّة مهأهلاً ، كاتماً ضحكه خالدة تسكن صدره : « هيء - هيء - هيء .. هل ظنتت أن علاج الآثار عمل سهل ؟ هيء - هيء .. عمل الآثار عمل سهل حقاً ، سهل مثل الاقتران بالمرأة ، ولكن الهم ما يترتب على ذلك من هم . فهل تريد أن تمحو الهم بالعطور كالتي تفوح من أجسام الحسان ؟ ». هرش عمّاته بسبابته مشيراً إلى رأسه وأضاف : « اذا اقترن هذا برأيِّي رديء فلا بد أن يلد ورطة . هيء

بعد أن فرغ من مداواة الناقة أطلق سراح البعير ومضى يهشّه عبر الوادي . يضع عصاته وراء ظهره ، بموازاة منكبيه ، ويعلق يديه من طرفيها . وعندما استقام سير الدابة ولزمت عمق الوادي الذي بدأ يزداد عمقاً كلما توغل جنوباً ، توقف بورو وانتظره مسندًا ظهره إلى جلمود جليل يهجّع في المجرى .

ارتفع قرص السلطانة وأندر بالطغيان . تطلع بورو إلى خيوط النار التي سكبها القرص في العراء فهمس له الجنّ أن الشمس لن تتوقف عن غزو الصحراء أبداً ، واضاف الجنّ قائلاً بوضوح الانس : « مكائد الساحرات الشريرات سوف تكشف مع مطلع كل صبح ، والاخفاق قريين لها خالد » . ابتسم وهو يرى مارد الجنّ يذوب في ألسنة سراب مبكر دون أن يصدق نبوءته . وصل جبارين فسأل بورو عن حال مملكة الشمال .

سارا متجاورين . رفع جبارين عصاته إلى منكبيه أيضاً . أمسك بها من طرفيها فتدلىت يداه مثل بورو فبدوا ، عن بعد ، توأمين حقيقين : جسمان نحيلان يجعلهما الملابس الفضفاضة ، منفوشين وكأنهما يمبلان إلى البدانة . قامتان متعادلتان . وبشرة ذات لون مطفأً ، غامض ، حزين ، مثل بشرة الأرض ، مثل بشرة جلاميد تادرارت العمودية التي ترفع إلى السماء رؤوساً حزينة ، تفتّش عن الله مجھول تخلي عنها يوماً ، ولم يعد

الى الابد .

زفر جبارين صهدا كأنفاس القبلي ليخبر رفيقه عن المصاب الفاجع الذي نزل على رأس مملكة الشمال : « الجدب ، الجدب . الجدب . ». لم يشك أن البلاء الذي حلّ بالحمدادة قد بلغ آذجر ، واجتازه مع قوافل التجار ليصل آهجار واير وأضاغ ، لأنه يعرف أن الجدب هو الخبر الوحيد الذي يصل إلى كل المالك الصحراوية بسرعة القبلي . فاضططر أن يكرر لفظة « الجدب » المشئومة ثلاثة مرات حتى ينقل للسائل حجم الفجيعة . ولم يتيقن من النجاح إلا عندما سمع بورو بهمهم بتميمة تبطل مفعول التكرار الذي يستدعي الشرّ ويقرب الجدب . ازداد حجم الحلاميد الصخرية التي تتشبث بالسفوح ، وتشرف على الوادي . بعضها تدرج وسجد عند الحضيض ، فحام حوله الأسلاف ، وجعلوا منه حرما بمقابرهم ذات الشكل المستدير .

ازداد الوادي عمقا . رأى جبارين قامة الناقة وهي تغيب في شجيرات جعلت منها السيول الأخيرة أحراشا كثيفة . في العمق حتى اشجار الطلع اعتمرت طرایيش أكثر نضارة ، فعرف جبارين ان العمق حبس الماء ، ولسان السيل لم يسلك الوادي الفرعى المنشق عن « آلون العظيم » ، والتجه إلى « تانوت ملت ». السيل العرمم مضى عبر العمق ، وسافر إلى تارات ، ليصبّ ، ككل أودية آذجر ، في الحرم المنبع الذي يحرسه عسس الزعيم ، هناك ، في أقصى الغرب ، تنتصب قمم

مهيبة ، منيعة تختجب وراء غلالات رقيقة ، زرقاء ، تزيد القمم مهابة وغموضاً ومناعة ، تلوّح بالوعد ، وتحفي ربيعاً تتطلع اليه الام والقبائل . قطعاً مشواراً آخر ، فعاد بورو الي البلاء : « هل أكلت النجوع الشعير في البعر ؟ » ومضت علينا جبارين ببريق امتزج فيه الاستخفاف بالكتابة : « الشعير في البعر انفرض في زمن المجاعات الاولى ». ولكن بورو الذي يستبعد اختفاء حبات الشعير في بعر البعير أقترح : « هناك دائماً قوافل التجار الاغنياء . في ايل التجار الاغنياء وجدت الشعير دائماً في البعر ». فاضطرّ جبارين أن يفجعه حتى في الشعير المخبأ في بعر القوافل : « التجار تجنبوا المرور من طرق الحمادة منذ اشتدت المجاعة ، لأن بورو يعرف أن في زمن المجاعة ينشط قطاع الطرق ويكثر اللصوص ». رفع اليه بورو نظرة تحمل سؤالاً ، ولكنه اشاح بوجهه واسرع الخطو . ابتعد خطوات ليقرأ تيمة أخرى . سمع جبارين التمتمة السرية ، ولكنه لم يتسم . تراءت له المملكة الشقية سهولاً قاسية ، عارية ، موجعة ، احترقت فيها الاشجار ، ووقف السدر والبطم والرتم هياكل بائسة من أعود الحطب ، فتبعد ، عن بعد ، امتداداً لحجارة شواها الحريق ، وكساها القبيظ الحالد بطبقة من العتمة والسوداد . أمّا الاعشاب الصغرى التي تفرش الأرض ، في المواسم المطيرة ، بكليم أخضر يتبدّى ، على امتداد البصر ، أفحـم من الكليم الذي يأتي به التجار من « توات » ، ويفوقه كثافة وبهاء ، هذه الاعشاب التي ظنّ دائماً أنها لن تندثر ولن

تُفْنِي من الصحراء عندما رأها تكسو السهول ، وراقب الماشية وهي تصبِّع فيها حتى تخفي عن البصر تماماً، فقد انطربت على الأرض الآن، بعد حلول الجفاف ، مستجيرة بالعراء الظامِئ من فضاء يتَفَسَّ الصَّهْد ، وهواء يشتعل بالنَّار . فيشتعل العراء الظامِئ ، الشقِّي ، المكشوف أيضاً ، فيدبَّ اليأس إلى عروق النبات ، لأنَّه يدرك أنه استجار من النار بالنَّار ، فينكفِّي حول نفسه ، ينكمش كالقنفذ ، يبحث عن الخلاص في مكان ما في الاعماق العطشى ، ولكن زفير القبلى يرميه بأمواج الغبار بلا توقف . يكُوم فوقه الأُتُرَة ، يدفعه ، يصنع له قبراً . يقاوم النبات ، يبحث في جذوره البعيدة عن العزاء ، ولكن القبلى يستشرس ، ويندفع بموحات اعنف فيتسدل النَّبت إلى الأسفل . في الأسفل يوجد أنَّ الأمل تبخَّر مع نداوة سبقته إليها الرمضاء ، وامتصتها ، فيوثر الانسحاب إلى المجهول ، إلى الفناء . تزحف إلى رأسه الأُتُرَة ، ويَكُوم العجاج فوق رأسه المزید من التراب . فيترأى الكوم مثل « أدبِني » * ، ذلك القبر المستدير ، الجليل ، المنسي ، من قبور الأُسلاف الأوائل .

ولكن هل تُفْنِي العشبة وتتلاشى ؟

لقد عرف أن زوالها مناورة ، لأنَّها اخفت في كوم التراب سرَّها الذي ستبعث فيه نفسها يوماً . دفنت سرَّ الحياة في البذرة . سمع الشيوخ

* أدبِني : مقابر الطوارق القدماء ذات الشكل الهندسي المستدير

الحكماء يقولون أن البذرة هي الكنز الخفي الذي يتحدى به العشب جنون الجفاف حتى لو استمر مائة عام . وسمع رعاة قدماء يؤكدون أن البذار اذا اندست في الأرض ، فانها تمحض هناك ، في السرّ أجيالاً كما تمحض الكنوز . تنتظر بشاره تعرف أن صروف الزمان سوف تأتي بها . لأن نوائب الدهر ستبدل الحال وتضرب غول الجدب يوماً . فإذا جاءت الساعة ، وتجهمت السماء بالسحاب ، ولمع الأفق يوميضاً البشاره ، وقوع الفضاء برعد القيامة قبل أن يسقط أول الغيث ، عندها يتململ السرّ في الكنز ، فيولد لُعاع الأمل من غول الزوال . تبعث الحياة من كوم التراب . رأى بنفسه كيف تحدث هذه المعجزة في أكثر خلوات الحماده فجيعة وقساوة وعراء . شاهد هذا العجب في أرض مررت لم يترك الجدب فيها حتى الأعواد الميتة . لم يترك فيها سوى صخور مكونة بنار الدهر ، تخترق بلهب يتسع في السنة السراب . لهب شرس يشتعل في ابدانها بنهم وعناد . لهب مدھش يجعل من حجارة العراء طعاماً للسراب ، حطباً شهياً لنيران السراب . ولو لم تجد نيران السراب أن الحجارة شهية للأكل لما التهمتها بهذه الشرافة وهذا العناد . ويرغم ذلك فان البذار يطلع والحياة تولد في هذا الحريق الفاجع كلما حلّ الميعاد وشاء الزمان الحكيم أن يبدل من أمر الدنيا ، كأنه يبشر الكائنات قائلاً أن البذر لا يندثر اذا ذرت الرياح هياكل النبات اليابسة ، والحياة لا تتبدل ولا تزول مهما تلذذت الشمس الوحشية بالتهام الحجارة .

وإذا كان الزمان ، الذي يروق للشيخ الحكماء أن يسمّوه حكيمًا ، قد أصدق القول وأبْرَّ الوعد دائمًا ، فإنه عايش فواجع الجدب في النجوع ، ورأى كيف يقترب الجوع في القبائل فظائع تفوق في وحشيتها تلذذ الشمس بقطع الحجارة ، واستطعامُ ألسنة السراب لطين الحمادة الأحمر .

(١٠)

كلما رأى الأرض تتشقق ، والسراب يستعمل في كسور الطين باللهب الأزرق ، عاودته رجفة الذكريات . ولكن بورو استعار مسلك الصبيان الأشياء الذين يلاحقون العجائز الحكيمات المقوّسات كي يحدثنهم عن قصص الجنان والغيلان ومغامرات الساحرة تيرزازت . فإذا تنازلت عجوز منهن وتفرغت للرواية وقف شعور الصبيان وفروا من وجهها فزعًا من الغيلان ، وخوفاً من اسحاق العجوز تيرزازت . فهم يقبلون ويلحقون ، فإن نالوا الغاية أديروا وهردوا . بورو أيضًا يقبل ويذهب . يتقدّم منه سائلاً : « حدثني عن الجدب .. » ، فإن تهيأ للرواية أديب بورو في أحراش « أشـك مـقرـن » * كأنه صبي يفرّ من أخبار الشريرة تيرزازت .

وكان إذا هرب جانباً سمعه يردد التمام المجهولة أبعاداً للlobاء

* «أشـك مـقرـن» : مصطلح صحراوي يطلق على النباتات البرية التي لها خاصيات الأشجار الصحراوية ، ولكنها لا تقاوم العطش طويلاً مثل هذه الأشجار .

واتقاء لشره . ولكنه يطلع له من وراء صخرة ، أو يخرج من شجرة حلفاء بعد أن يكونا قد قطعا مسافة طويلة في الوادي الجليل ، ويكون جبارين قد أبعد هاجس الجدب ، واستسلم لسكينة السكون . ولكن بورو يظهر فجأة . يدخل مغامرة سرية فيستبدلها اصدقاؤه الجن هناك بيورو آخر . الجن يستبدلون ابناء الانس دائمًا عندما يولدون ويقيون مدة طويلة مجردين من الشيح أو السكاكين أو تمائم السحر . يأتي الجن ويسرقونهم من الأمهات ، ويضعون لهن اطفالا من ملتهم لا يختلفون في مظاهرهم عن أولادهن . ولكن مواهبهم السرية تتكتشف عندما يكبرون . ما أكثر اولاد الانس الذين خطفهم الجن في المهد ، وما أكثر الأمهات الصحراويات اللاتي ابتنين بتربيه ذرية الجن . بورو أيضا يعود من الخفاء مستبدلا . يعود صبيا في شقاوة الجان ليلح : « توأمِي جبارين : حدثي عن الجدب .. » ، فيتهياً جبارين . يستعيد شمسا تتلذذ بالتهام الحجارة ، وسرابا يمضغ جلدَة الارض ، يأكل بانياب زرقاء كسور الطين، و....

يستغير لهجة العجائز الحكيمات ليبدأ الرواية .

ولكن بورو يتشجع ، يصمد ، يتшوق للرواية ، وكلما التفت وجده يعشى الي جواره ، فتيقن جبارين مرة اخرى أن الجن اشجع من الانس ، لأن بورو لم يتوقف عن الصبينة ، والاقبال والادبار ، الا بعد أن استبدل ، وجاءه في بدن الجن .

٢- الطير

« توعّدوا السماء باللعنات

كفروا بالأصل البشري ، باليوم ، بالساعة ،
باليد ، بالنطفة التي خلقتهم »

دانسي

الكوميديا الالهية

كتاب « الجحيم »

XXX

« بعد هذا فتح أیوب فاه وسبّ يومه واخذ أیوب يتكلّم فقال :
ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه ، والليل الذي قال قد حبل برجل . ليكن
ذلك اليوم ظلاماً . لا يعن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . ليملأه
الظلام وظلّ الموت . ليحلّ عليه سحاب . لترعبه كاسفات النهار . أما
ذلك الليل فليمسكه الدّجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلنَّ في عدد
الشهور . هو ذا ذلك الليل ليكن عامراً . لا يسمع فيه هتاف . ليلعنه
لاعنو اليوم المستعدون لا يقاظ التّين . لتظلم نجوم عشاهه . ليتضرر النّور

ولا يكن ولا يرهدب الصَّبَح لأنَّه لم يغلق أبواب بطن أمِّي ولم يستر الشقاوة عن عيني . لم لم أمت في الرحم ؟ عندما خرجت من البطن لم لم اسلم الروح ؟ لماذا اعانتني الرَّكْب ؟ ولم الثدي حتَّى ارضع لأنِّي قد كنت مضجعاً ساكناً . حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيري الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم ، او مع رؤسائِ لهم ذهب المائين بيوتهم فضةً . او كسقط مطمور فلم أكن كأجنة لم يروا نوراً . هناك يكف المنافقون عن الشغب . وهنا يستريح المتعبون . الاسرى يطمئنون جمِيعاً . لا يسمعون صوت المسخَّر . الصغير كما الكبير هناك والعبد حرَّ من سيده ٤ .

سفر ايوب

١٧، ١:٣

عليه أن يعترف ، كما يعترف أكابر القبائل وزعماؤها في الحمادة، أن البلوى لا تنزل أبداً بدون إنذار . يستطيع أن يستعيد متابعة العرافين والعلماء والسحرة لأسراط الطيور المهاجرة ، يخرجون للمراعي لمراقبتها ، ويسافرون في أثرها عندما تطير وتهاجر إلى مراعي النجوع المجاورة . كثيراً ما يغيبون أياماً وأسابيع . وعندما يعودون يستقبلهم أكابر القبيلة في خباء الزعيم حيث يجتمع الأعيان ، تتحرّ على شرفهم الذبائح كأنهم ضيوف نبلاء جاءوا من ممالك الصحراء البعيدة ، مثل آزجر ، أو آهجار ، أو آير ، أو حتى آضاع . ولا يعرف لماذا كان لتلك المراسيم الخفية جلال لا يقاس إلا بجلال الموت : يحل السكون الخيف ، تنتقل النسوة بين المضارب بوجوه كثيبة تخفي سراً ، يجرّجن اطفالهن وراءهن ، حتى إذا تجاسر الطفل ورفع صوتها اسكنته بحيلة كأن يتلقى منها حبة تمر ، أو قطعة سكر ، فان فشلت العطايا في شراء سكوطه ، لأنّ الحمى الموسمية أو السقم الباطني الذي ألم به كان أقوى من حبة التمر أو قطعة السكر ، فانهن يدلّله يحتضنه ويعدّن عليه بالموايل التي تجلب النوم . يفعلن ذلك دون أن يفارق السر وجوههن . أما الصبيان فيسكنتهم بالاشارات الصارمة ، فإن لم تتفع ، فانهم يتلقون انتهارات أقسى من القصاص الذي يتلقاه الاشقياء منهم بحسب سائل الفلفل في خيائاتهم ، فإذا لم يجد الانتهار ، تلقوا وعيدها بالاشارات هو

أسوأ من كل عقاب .

كانت النساء تجتمع في خباء احدى العجائز للتعاون في تحضير الطعام للسحر العائدين من مطاردة الطيور ، يتهامسن بأصوات مريرة ، خافقة ، تزيد في غموض الوليمة ، وتعطى للمراسم قداسة الموت ، تومض عيونهن بفضول قاتل . وكان الرجال دائمًا أقل فضولاً وأكثر هدوءاً . وربما رجع الفضل إلى اقنعتهم المهيأة في أخفاء ما فشلت وجوه النساء السافرات في أخفاها . ولكن الانتظار لا يطول . فلا يلبث الخبر ، الذي عاد به سحرة القبيلة من رحلتهم وراء الطيور ، أن يخرج من خباء الشيوخ ليتشر في كل الصحراء : الجدب ! الجدب ! الجدب !

لم يكن الخبر يخرج من الخبراء بهذه العبارة الفاجعة التي يتوجب
الحكماء التلفظ بها ، وإنما المؤمء الذين دأبوا على تسمية الأشياء باسمائها
الحقيقة ، وتفوقوا في فك رموز لغة السحرة الغامضة ونقلها إلى لغة
العوام القاسية ، هم الذين استعاروا دور النذير في النجع ، فتجاسروا
دائماً أن ينطقوها بكلمة : «منا» * الصغيرة ، المركبة من ثلاثة أحرف ،
التي قضت شريعة الحكماء ، شريعة آنهى الضائع ، شريعة الأسلاف
الأوائل ، ان تضعها في معجم السر المحرم مثلها مثل : «ايسجي» **
وتيرزازات المشقومة ، فاختبرعوا لها استعارات لغوية أخرى كثيرة حتى

* منا: الجدب (تماهق).

* ایجی : الذئب .

كادت الكلمة الأصلية أن تنقرض . ولو لا هؤلاء الاشقياء الدهماء الذين يعتمدون أن يسموا الاشياء باسمائها بمجرد أن يتعدوا عن المضارب (ربما كي يستفزوا السّحره والحكماء الاسلاف معا ، وربما رغبة منهم في ركوب الخطر واكتشاف مجهول مثير أجمع القوم أن يضعوا عليه ختم التحرير ، كما وضعه عليه آباؤهم واجدادهم من قبلهم) لاندثرت الفاظ كثيرة وانمحت من ذاكرة الأجيال .

وكان سحرة القبيلة وعراقوها يستعينون بعظام الذبائح على قراءة النبوءة التي رأوها في أسراب الطيور المهاجرة . أو هكذا ظن في ذلك السن المبكر . فكان عليه أن يعيش اهواً كثيرة حتى يعرف ان الذبائح لم تتحر على شرف السّحره ، أو من باب الاحتفاء بالعرافين العائدين بالنبوءة ، ولكنها قرابين ضرورية لاستكمال شعائر النبوءة ، ومفتاح سحري لا غنى عنه لفك الرموز التي رسمت الطيور اشارتها في سماء الغيب . وكثيرا ما احتمم الجدل في خباء الحكماء وعلت اصوات الأكابر الجللين بالوقار واقنعة الكبارياء ، مهددة بتمزيق الوقار والاقنعة معا . وكان الاختلاف لا يحسم الا اذا اذن الزعيم بنحر أضحية أخرى . وكثيرا ما تردد في ربوع القبيلة أن الدهاء الذين غلبهم القرم الى اللحم هم من اخترع هذه الحيلة ، وبرغم أن الشاعرات قلن اشعارا هجائية ممتعة في هذه الفضائح ، الا ان الحق يبقى سرا ، لأن لا أحد يجرؤ على الطعن في صدق السّحره أو التشكيك في نواياهم دون أن يكون ذلك

طعنا في النبوة نفسها . وأنه يخبر أن الطعن في النبوة ، والتشكيك بالاشارة ، هو استفزاز للغيب ، وتسفيه لالسلاف ، وتجديف منكر بحق الآلهة . فإذا لم تكتشف الحقيقة في عظام الذبيحة الجديدة ، وازدادت النبوة ابهاما ، دارت رؤوس السّحرة بالعناد ، وتناطحوا بالسنة مجندة بالجن ، مسلحة بارادة المردة . لا ينفض المجلس في القيلولة الاً ليعود الى الانعقاد بحلول العشية . وإذا لم تتوصل الأطراف المتعاندة الى اجماع في حل الرموز حتى اخر الليل ، أعطى الزعيم الاذن بالاستمرار حتى صباح اليوم التالي . فان استعصت القراءة ، وأبى الرموز الانتقال الى لغة البشر (لأن جدل القوم كان دائماً في طريقة القراءة واعطاء تفسير بشري للنبوة) ، وقتها لم يجد المجلس الجليل بدأ من الاحتکام الى المعلم الأخير : قبور الاسلاف ! فقد عاش في قلوب الصحراويين يقين يقول أن الاسلاف وحدهم لم يخيبوا ظنّهم يوماً ، وحسموا الأمر دائماً ، وجاءوا بالخبر الذي تخفيه الصحراء تحت لثام مزاجها المتقلب . ويبدو أن هذا اليقين لم يكن مقنعا الى المخد الذي يجعلهم يكفون عن التجادل ، لأن الحماس للنقاش لم يتوقف حتى رأى أحد الأسلاف الحكماء أن يكشف لهم حميفتهم عندما خاطبهم بلغة بشرية واضحة في احدى النبوءات الممتعة : « سيتازل الصحراوي ويترك الجدل يوم يدخل الجمل في سُم الابرة » . وقال آخر بنفس اللغة : « العناد قدر الصحراوي ، والجدل لعنته » . ولكن هذا لم يجبرهم على التخلّي عن الجدل . بل أن

كبار السُّحرة حرضوهم دائمًا على التجادل ومارسة الخلاف ، وقالوا بلغتهم الغامضة المستعارة من دنيا النبوة : « حياتنا في خلافنا ، وموتنا في وفاقنا » .

في المرة الأخيرة التي رأوا فيها البلاء عاد السُّحرة من سفر خلف الطيور استمر ثلاثة أسابيع . عادوا بأقنعة كدسها الغبار فوق اقنعتهم القماشية ، في حين تزملت نظراتهم أيضًا ، واختفت خلف اقنعة أخرى من الوجوم . أمر الزعيم بتنصب خباء إلى جوار خبائه وبدأوا في نحر القرابين . نحرموا الذبائح ثلاثة أيام ، ولكن سيل الدم لم يطفئ لهب الجدل حول النبوة الرهيبة ، بل كان الخلاف يزداد والاصوات تعلو مع كل دقة دم تنهمر من نحر الذبيحة الجديدة . تجاوز عدد الذبائح السبعين رأساً وهو رقم خرافي لم تعرفه القبيلة في المذابح السابقة خلال ثلاثة أيام ، فتوقع العقلاء أن يأمر الزعيم بوقف المذبحة ويأذن بالاحتكام إلى المعقل الأخير ، المعقل الوحيد الذي يملك الكلمة التي ستضع حدًا للخلاف : قبور الأسلاف ! ولكن الزعيم ظل يبتسم بغموض في زاوية الخباء ويعطي الاشارات بمواصلة المجزرة ، فاستمر نحر الانعام حتى تحولت قراءة النبوة في ذلك الموسم إلى وليمة سخية لم تعرف القبيلة لها مثيلاً .

أكل الكبار والصغار اللحم بشرابة انتهت بأولئك الذين حرمتهم السماء نعمة الاعتدال إلى السُّقم والأوجاع . وتجاوزت خيرات تلك

الوليمة تخوم النجع ، ووصلت أكdas اللحوم الى القبائل المجاورة ، ومضت حتى وصلت الى الرعاة في المراتع النائية . ويذكر جبارين أنه تلقى قصعة خشبية كثيبة عامرة بقطع كبيرة من اللحوم . فعاد بعد يومين من الماعي ليشهد المراسم الختامية لتلك الملهمة التي شاء لها القدر أن تكون فاصلة وتاريخية ليس في حياة القبيلة فحسب ، وإنما في حياة الحمادة كلها . فسمع بنفسه ما تردد في اوساط العوام (هذا الوسط الذي يصرّ الوجهاء أن يسمّوه وسط السفهاء) من شائعات فظيعة طاعت في كفاءة الزعيم ورجمته بالحق لأنّه أباد قطعان القبيلة متعمداً بدل أن يعجل بنقل النزاع الى اعتاب الاسلاف . ثم انضم الى همس السفهاء كثير من عقلاه المجلس نفسه ، وبلغ بهم الحق حدّاً جعلهم يجردون الزعيم من الحكم ، ويشكّون في قواه العقلية . ولو لا هذا الطعن الذي خرج من خباء الزعيم نفسه لما تملّلت الألسن بالأقوال في حق الزعيم ، ولما تجاسرت الساحرات على التعرّض لتلك السرية بالأشعارات السرية ، ولما أحسَّ كل فرد بالخطر . فالجميع يعرف أن تجريد الحكم من الزعيم في السر هو زلزال ينذر بتجريد الزعامة منه في العلن .

ولكن النبوءة التي دشنها الزعيم بتلك القرابين ، ولم يدخل عليها بسيول الدم ، تلك النبوءة التي لم تتأخر ، لم تعد له الاعتبار فحسب ، ولكنها صنعت له مجدًا تجاوز ثغور الحمادة كلها . لانه رأى ، في ذلك اليوم ، في زاوية الخبراء ، ما لم يره السحررة في عظام الأنعام . قرأ ما غاب

عن العرافين في أسراب الطيور المهاجرة ، وسبق الأسلاف في تفسير النبوءة الفاجعة . ويروي أن سحرة الحمادة تnadوا واجتمعوا عندما حلّت أول اعوام الجدب ، وبدأت النبوءة تتحقق ، فاشادوا بكفاءة الزعيم ووصفووا بصيرته بالصفاء ، واوردوا صفات سحرية أخرى لم يفهم لها أحد معنى قبل أن ينعتوه باللقب الأجل : « كبير السّحرّة » . ونقل عنهم الفضوليون انهم دعوا ، في نداء بعثوا به الى الأقران ، كي يتعلّموا منه السرّ . جاءت النبوءة بالموت الى الصحراء ، ولكنها أعادت الحياة الى الزعيم .

(٢)

قبل أن يجري الزمان بما خبأه القدر في الغيب قام الزعيم برفع الأمر الى المقابر . في ذلك اليوم فقط استطاعت القبيلة ان تجاهر باليقين القائل أن الزعيم أذن باستطلاع رأي الاجداد ليس لجسم الخلاف ، او تعطّلها لمعرفة يقين النبوءة ، ولكن لأنّ الحكمة تقضي أن يمضي في الشعائر ، وألا يخالف وصيحة السلف حتى لو تمنع ب بصيرة كبير السّحرّة . أعطى الأذن في المساء ، فهرع الخلق ، وجرت مراسم استنطاق اولئك الذين هجعوا منذآلاف الأعوام ، ولم يعد يفهمهم من الأمر سوى إخلاص الأخلاق . وكان اللجوء الى أكواخ اضرحتهم هو البرهان الوحيد على استمرار العلاقة بين الاحفاد واجدادهم القدماء . فكان يروت للرسل أن يداعبوهم في اجاباتهم الشعرية على جهة الشوق ،

كما حادث في شعائر المرّة الأخيرة، أو يلجأوا للاستفزاز اذا كانت الطالية العذراء شريرة ، أو بها عيب في الخلق ، أو مس في العقل ، أو سرّ آخر لا يعلمه سواهم . أما اذا لم تكن الفتاة ، التي وقع عليها الاختيار، ورضيت الدخول الى عالمهم الخفي ، عذراء ، فانهم لا يكتفون بالاستفزاز اللفظي ، ولا الرجم الليلي بالحجارة ، ولكن على القبيلة أن تتوقع غضبة مجوسية قاسية ، وقصاصا يليق بمنزلتهم . فالغش لا يشتري الأُ بسيط من دم القرابين . وتدخل السّحرّة قد يستمر شهورا حتى يتمكنوا من اعادة السّلّم بينهم وبين الاحفاد . والشعيرة الأخيرة لم تخل من الدعاية ، برغم خلوّها من الاستفزاز الذي يستثير اللعنة فبعد أن تلقت القبيلة أمر الزعيم بالاحتکام للحرم ، هرع العقلاء لاختيار من سيتولى الامر ، ليجد نفسه عضوا في جماعة الأخيار . انقسموا الى فريقين : فريق ذهب لينصب خيمة فوق القبر تقى العذراء شمس القيلولة (الشرعية جرت بأن تم المراسم نهارا) ، وفريق اجتمع في العراء ليبحث في أمر العذراء المرشحة لتنفيذ المشيئة . وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما اكتشفوا أن ليس في النجع كله عذراء واحدة . تندروا ، تفكّهوا ، تضاحكوا طويلا قبل أن ينقلوا البلاع الى مندوب الزعيم . ولكن مجمع السّحرّة في خباء الاجتماع لم يندهش ، ولم يضحكه الخبر ، ربما لأن الوقار غالب ، وربما لأن الهول الذي لاح لهم في النبوءة وتجادلوا في أمر قراءته اياما ، هو السبب . اقترح أحد النساء

صبية لا تقل عن السادسة عشرة سوی أسباع قليلة ، فانتهـرـهـ مجـمـعـ السـحـرـةـ وـرـفـضـواـ العـرـضـ بـصـرـامـةـ .ـ تـمـسـكـواـ بـالـشـروـطـ :ـ عـذـراءـ .ـ بـلـغـتـ السادـسـةـ عـشـرـةـ ،ـ سـبـقـ لـهـاـ أـنـ تـوـجـتـ بـ «ـ اـيـكـرـهـيـ »ـ *ـ فـيـ حـفـلـ التـدـشـينـ .ـ مـجـرـدـةـ مـنـ الـحـلـىـ وـالـسـكـاكـينـ وـاـخـلاـطـ الـمـعـادـنـ .ـ وـقـالـوـاـ أـنـهـمـ لـاـ يـنـوـونـ أـنـ يـخـالـفـواـ الشـرـعـ ،ـ لـأـنـهـمـ لـاـ يـرـيدـونـ أـنـ يـسـتـفـزـوـاـ الـاجـدـادـ اـتـقاءـ لـلـعـنةـ .ـ الـمـعـرـوـنـ أـزـدـادـوـاـ وـجـومـاـ ،ـ وـاعـتـبـرـوـاـ مـجـرـدـ خـلـوـ الـقـبـيلـةـ مـنـ الـحـسـنـاءـ الـبـكـرـ لـعـنةـ وـفـأـلـ سـوـءـ .ـ

وعندما جاهر أحدهم بهذا الشُّئْم علَّق الزعيم مداعباً : « سأتيكم بالعذاري يوم تكفون عن الاقتران بالفتیات الابكار فلا يبلغ الرجل منكم من العمر عتياً حتى يبدأ في تسلية شيخوخته بالعذاري . لا اخفي عليكم أن الشبان يشتكون ويقولون أن العرق النبيل أشرف على الزوال ، لأنكم لا تتركون لهم الا بنات الرعاة ». لم يضحك أحد ، ولكن أحد المعمرين تصدى للدعابة بروح لم يفقدها شبع الجدب ، شجاعة تحلى بها المعمرون دائمًا : « ماذا يبقى للمعمر الصحراوي غير العذراء تسلى شيخوخته وتزين ما تبقى له من أيام الباطل ؟ اينوي الزعيم أن يتزعزع منا هذا العزاء أيضًا ؟ ». ابتسם كبير السحررة ولكن الوجوم ابتلع دعابة المعمر أيضًا ، وبدا واضحاً أن المجلس لن ينعم براحة البال إلا إذا وجد الزعيم مخرجاً في شأن العذراء . البحث عن مخرج مسئولة الزعيم

* ايكرهي : قطعة قماش مشبعة بالنيلة الزرقاء يتوج بها رأس الفتاة في جفلات البلوغ . وهي تمثال اللثام عند الشبان الذين يجري لهم حفل تماثيل .

وحده . وكان الزعيم يجد هذا المخرج دائمًا . اقترح : « ابعثوا إلى زعيم اوراغن كي يغيرنا عذراء من قبيلته » .

عاد نفس المعمر الحكيم الذي علمته الصحراء الا يفقد روح الدعاية حتى وهو يقف على باب الفجيعة . علق : « أخشى أن يكون في هذه القبيلة معمرّون أكثر شهوة وعشقا للعذراوات من معمرينا » . انفجر المجلس بالضحك أخيرا . لم يتأخر أحد . ولكنها الضحكة التي قال عنها حكماء الصحراء القدامى أنها اذا ملأت بها فمك اليوم فتوقّع أن تملأه بالدموع غدا . ولكنهم ضحكوا ، ولم يبالوا . خالفوا شعائر الورق ، وكفروا في حضرة النبوة . وضحكتوا . لم يبالوا ، لأنهم رأوا الهول في طيران الطير ، وقرأوا الفاجعة في عظام القرابين ، واقتنعوا ، بينهم وبين أنفسهم ، أن النبوة ستنزل سواء ناموا فوق أضرحة السلف أم لم يناموا ، وجدوا الرسولة العذراء أم لم يجدوا ، فحاکوا الذئب الحكيم الذي لا يضحك الا اذا جاء وحل موسم الجدب ، لانه يعلم أن الجوع سيليه شبع ، فان شبع بكى ، لأنه على يقين أن الشبع سيعقه جوع . فمن احقهم بالضحك ، الآن ، في اليوم الذي وقفوا فيه في مواجهة اقسى مجاعة سترعفها الصحراء في تاريخها ؟ ضحكوا لأن السحرة الاجلاء عرفوا أن الضحكة لحظة الحزن هي اللحظة الوحيدة المسروقة من القدر .

سافر وفد الفرسان لاستعارة العذراء من قبائل اوراغن . وكان زعيم القبيلة يعسكر على مسيرة ثلاثة أيام بالمهارى . ولكن الشريعة قضت أن ترافق الوفد عجوز نبيلة تركب هودجا مهيا يليق بالبكر المعاشرة . والى جوار العجوز جلست شاعرة حسناء ظلت تعزف على «امزاد» * طوال المسير لتسلى العذراء بالأشعار والأغاني في طريق العودة . فاستغرقت الرحلة في الذهاب والأياب سبعة عشر يوما . عاد الوفد بعذراء حسناء ، تتمتع بموهبة يندر أن تجتمع في فتاة . فالى جانب الحسن والبكارة امتلكت الفتاة المعاشرة خصالا أخرى . كاتقان الغناء ، وتأليف الأشعار العاطفية وملامح البطولات الحربية . وكانت ، فوق ذلك كله ، كريمة زعيم قبائل اوراغن كلها من زوجته الآهgarie . فلم تفز بالنيل من جهة الأب وحده ، ولكنها نالت أصالة السلالة من ناحية الأم . وقد رأى زعيم اوراغن أن يدعم أواصر التحالف بين القبيلتين فلم يجد حيلة أنساب من هذه المناسبة . فقال في أبيات شعرية مجازية بعث بها إلى الزعيم ما يرهن على تكامل علامات الفضيلة في ابنته ، وحذر في بيت آخر غامض من عيب وحيد . احتار الزعيم كثيرا قبل أن يجد له تفسيراً . واضطرب أن يستعين بشاعر عجوز تخصص في ثيابه بتأليف الانغاز والا حاجي الشعرية ، فقال الداهية في تفسير البيت الغامض :

* امزاد : آلة ذات وتر واحد تشبه الكمنجـا .

«زعيم اوراغن أراد أن يخبرك أن ابنته مثال في كل شيء ، إلا في غرابة الاطوار». سكت الزعيم طويلا قبل أن يتتسائل : « وهل غرابة الاطوار عيب من العيوب ، أو سرّ من الأسرار التي يرفضها الاسلاف ؟ » ولما كانت عبارة «غرابة الاطوار» غامضة في كل لغة ، غامضة حتى في المعاجم السحرية نفسها، فقد سكت السحرّة جمِيعاً . ولم يجد أحد تفسير السكتة في ذلك اليوم .

(٤)

بدأت مراسم الزفاف . تخلقت الحسان حول «تهيجالت» * . وامتدت الأنامل الساحرة لتداعب الوتر الصحراوي الحزين . توجّع امزاد بأشودة التيه القديم ، فرقص المهاري في العراء ، يعتليهم فرسان زرق يتبدّون في الأفق المعمور بشموس الضحى مثل اشباح حقيقة من قبائل الجن . فوق الرأية تخلق السحرّة حول الزعيم ، وفي جوار حلقة الحسان تجتمع عشاق الوجد والاشجان في طابور مهيب . ولم يمض وقت طوبل على انطلاق الغناء حتى استجابوا للنداء ، لأن السحرّة الحقيقيين الذين يحرق الشعر قلوبهم ويذهب النغم الخفي بعقولهم ، يسبقون دائمًا . يهاجرون الى «واو» ، الى الوطن الأول ، ليدخلوا الى حصن الاسلاف الاولى من بوابة لن يقدر غيرهم على دخولها . السحرّة الحكماء الذين يتحلقون حول الزعيم ويستجدون الرؤيا من

* تهيجالت : طبل محظوظ من جلد الحمل يستعمل في مناسبات الزفاف

المقابر ، يعرفون ان الرجال الذين يجوس الشعر في صدورهم ، ويختطف الشجن عقولهم هم أجدر بدخول الحرم القديم ، لأنهم وحدهم من يستطيع ان يخرج من وعاء البدن في لحظة الشوق العظيم ليخترقوا المكان ، ويهاجروا في الزمان . يعايشون الاجداد ، ويعيشون الرؤيا في سورة الأبد . سحرة القبيلة يعرفون أن الشاعر اذا سقط في

«آجولل»^{*} فانه يتحول الى ساحر يفوق اعنى السحرة في الصفاء ووضوح الرؤية ، يتفوقون حتى على كبير السحرة الذي ادخل السر الى الصحراء ليصبح تجنة خلقت ل تعالج كل اوجاع الصحراء . ولكن السحرة الكبار يعرفون أيضاً أن مضمة الصفاء ضائعة ، لأن الاسلاف الذين اخترعوا السحر ليداووا جراح الصحراء ، أبوا الا أن يأخذوا معهم السر . سرّ الوميض وسر الرحلة .

وفي الوقت الذي فتح فيه الغناء طريق الهجرة وسقط عدد من الفتىـان بابدـانـهم على الارض يـتاـلوـون ، ويرجـفـون ، ويتـقيـأـون اللـعـابـ والزـبـدـ ، ليسافـرـوا فيـ الزـمـانـ الـبـكـرـ الـذـيـ لمـ يـعـرـفـ الزـوـالـ الـىـ سـدـنـتـهـ طـرـيقـاـ ليـقـسـمـهـ الـىـ الثـالـوـثـ الـفـاجـعـ : المـاضـيـ ، الـحـاضـرـ ، الـمـسـتـقـبـ ، سـافـرـوا ليـسـبـقـوا الـىـ اـعـتـابـ الـأـسـلـافـ . الـفـرـسـانـ وـحـدـهـمـ يـتـسـابـقـونـ لـنـقـلـ الـبـشـارـةـ . مـضـواـ يـقـولـواـ لـلـلـوـاـئـلـ أـنـ عـرـوـسـهـمـ الـحـسـنـاءـ عـذـرـاءـ ، تـجـرـيـ فيـ عـرـوـقـهـاـ دـمـاءـ الـنـبـالـةـ وـالـزـعـامـةـ وـالـأـشـعـارـ الـتـيـ تـغـنـيـ موـالـ الـوـلـاءـ لـلـتـيـهـ الـخـالـدـ.

*آجولل : حالة وجدية شamanية يؤدي اليها الغناء .

سبقو ليخبروا أهل السر الذين أخذوا معهم سر الومضة ، وسر الرحلة ،
وسر النبوءة بأن عروسهم :

وتزغشّ انكتamas

وترززي ايغسان دغماس

وتفرین تمارت ايتيس

* وتزفيف تيغريت اينغاس

في تراتيل الغناء تخفي توسل ، صلاة ، حنين ، فجيعة . هرع
جبابرة الى الأسرى الذين يرتجفون شوقا للسفر بالبشرارة . مرر الجبابرة
على أجسادهم مدى صنعوا سحرة الواحات من اخلاط المعادن
السحرية . نحرروا الجن ومزقوا عن المجنوين الاغلال .

قامت أوعية التّراب لتمايل على النغم الحزين ، في حين غابت
الشعّلة في سماء الأسلاف . بلغت النعيم المستحبيل واوصلت البلاخ .
رددت العجائز تراتيل الاشارة بنفس الروح الفاجعة ، روح الحنين
والبكارة والصلوة ، دون أن تتوقف أيديهن الخبرة ، العجفاء ، عن
مداعبة جسد العذراء العاري ، البكر ، المسبوك كحجارة الصوان .

لم تخجل الحال
لم تكسر عظاما في بطن الأم
لم تكشف لاما عن رأس الأب
لم ترفع صوتا في حضور الأخ .

حولهن تراكمض الخادمات الزنجيات ، يدلقن الماء ليساعدن في تحريم الصبية العارية ، أو يلقين الى الجمر بمحفنت من اخلاط كريهة الرائحة جلبنها معهن من بلاد الادغال ، وقلن أنها تمائم تبطل سحر العين الشريرة . وَكُنْ يَرْفَعُنَ إِيْدِيهِنَ إِلَى افواهِهِنَ لِحَجْبِ السُّتْهَنِ عَنْدَمَا يَلْعَلُنَ بِالزَّغَارِيدِ . يَتَمَايلُنَ عَلَى انْغَامِ اغْنِيَةِ أُخْرَى يَرْدَنُهَا بِلِغَةِ «الْهُوْسَا» مشاركةً مِنْهُنَ فِي زَفَرَةِ الْعَذَرَاءِ إِلَى قَرِينَهَا الْمُجْهُولِ لِتَعُودُ مِنْ رَحَابِ النَّبُوَّةِ بِيَقِينٍ يَدْفَعُ عَنِ الْقَبِيلَةِ الْهُولِ الْمُنْتَظَرِ . خَرَجَتِ الْعَرْوَسُ إِلَى قَرِينِ هَجَعَ مِنْذِ عَشْرَةِ الْأَفِ عَامٍ ، وَعَادَتِ فِي الْعَشِيَّةِ بِجَوَابِ غَامِضٍ مَا لَبَثَ أَنْ أَثَارَ الْبَلْبَلَةَ فِي الْقَبِيلَةِ :

«المَلْفُ ادْتُونْتِي – آسْغُونَ ادْتِيْغْسِيُّ *

القت الرسولة بيت الشعر الى جمهرة النساء وانهمرت في البكاء. ركض رسول وابلغ الزعيم . خرج الزعيم من الخباء تحيط به كوكبة من السحراء والحكماء . هرع الى خباء العرس . وقف خارجاً وأمر أن يأتوا بالعجائز . خرج اليه وفد العجائز تقدمه معمرة جنية امتلكت أسرار الآخرة الى جانب اسرار الدنيا . قرعن الزعيم مردداً البيت الشعري المهين : «المَلْفُ ادْتُونْتِي . آسْغُونَ ادْتِيْغْسِيُّ . ما أَبْشِعُ هَذَا . ما أَسْخَفُ هَذَا ! ». ابتسمت المعمرة الجنية وقالت له بهدوء الساحرات : «فليتحل الزعيم بالتسامع كما عودنا دائمًا ، فما الجواب الا

* القطيفة على جسد حسناء مثل عقال في ساقى معزة !

دعاية من دعابات القدماء » ، انتهرها الزعيم ملوحا بعصاه في الهواء : « دعاية ؟ ما الذي يحملك على هذا الظن ؟ ». أجبت المعمراً بحلم الصحراويات الحكيمات : « مضى ، يا جلالة الزعيم ، زمن طويل لم نبعث إليهم برسانا ». تمشي الزعيم في العراء بحثاً عن الدعم في وجوه الحاشية ، ثم تردد قبل أن يوجه إلى الجنية هذا السؤال : « ألا يمكن أن يكون في الأمر غش ؟ ألا يمكن أن تكون كريمة الزعيم ثيابا ؟ ». تبادل سهرة الحاشية نظرات غامضة . نزل سكون . ولولت أحدى العجائز فانتهرت بها الجنية المعمراً بحركة صارمة . قالت بخشونة المعمرات : « وكيف لي أن أجاسر وأختبر عذرية سليلة الأغراب يا جلالة الزعيم ؟ » هنا تدخلت أحدى المرافقات : « وجدناها ترتدي قميصاً من القطيف

تحت الرفيفت^{*} يا مولانا الزعيم ». هتف الزعيم « قطيفة في هذه النار ؟ فتاة غريبة الأطوار حقا ! أنا لا استطيع أن ألوم الأجداد على دعائهم ». ضحك باستخفاف ثم أضاف : « بل أنهم على حق . أقسم أنهم كانوا على حق دائما ». تدخل أحد السحراء : « ألم يحذركم أبوها المجل من غرابة أطوارها ؟ » ضرب الزعيم كفا بكف وتف : « لم أتوقع أن يكون السر في القطيف . نعم . غرابة الأطوار في تعلق البنية بالحمل شيئا . أحمدوا الآلهة تانية التي عصمتنا من الغش . اعيدوها في الغد قرينة لـ « ادبني » ^{**} . عادت العذراء للاقتران بالجهول فجاءت في

* الرفيفت : جلباب فضفاض من القماش الأبيض .

** ادبني : القبر .

الظهيرة بالتفسير المنتظر : كوديد لأنْت فلاس

تكونت داغ اد ناس * .

(٥)

صدق النبأ لم يتأخر . لأن قطرة واحدة من المطر لم تسقط في مملكة الحمادة منذ ذلك اليوم .

في الماضي كان السّحرة يقرأون آيات الجدب في عظام الأضاحي أيضا ، وكان الخلاف حول صحتها ينشب ، وكثيرا ما بلغ الخلاف حداً تنايزوا فيه بالألقاب وترافقوا بالعظام ، ولكن القبيلة وجدت الأمل وقرأت السر في صلب الخلاف . كان العقلاء يعيدون حكمة السّحرة أنفسهم : « الحياة في الخلاف ، ولكن احترسوا من الوفاق فقيه يتخفى الموت ! »، فيحل الجدب في تلك السنوات أيضا ، ولكن الحمادة صحراء واسعة ورحمة السماء أوسع . فان عانت المملكة من الجدب في العموم ، فإن السحب العابرة لا بد أن تخترق الحمادة هنا ، أو تمرن هناك . فيسافر الرعاة ، وحتى رسّل النبلاء ، لاستطلاع المطر وتفقد الكلأ والنبات . يتناقلون أخبار الريّع ولا يخلو حديث من تتبع أنباء السحب العابرة . وكان أهل الحمادة يطاردون هذه السحب

* اذا كان ما زال هنالك صدق
فإن نبأ الهول سوف يصدق .

مسافات طويلة طلبا للربيع العابر . ويطيب لهم ، اثناء البحث ، أن يشوا على اختلاف السحرة في تفاسير الآيات ، ويشكروا الالهة « تانيت » وينحرموا لها القرابين . أما الوجوم الذي نزل على رؤوس الجميع بعد الجواب الأخير فانه كان اجماعا على الاتفاق . ويدو أن أمل السحرة قد خاب لأنهم لم يجدوا في رد الاسلاف رمزا يستوجب الجدل أو التأويل ، فتعلقوا بالصمت . والسكوت ، في لغة الصحراء ، دائما علامة الموافقة . فرأوا الخطر في اتفاق دبره القدر ، واحتموا بالأكتتاب . وأكتتاب السحرة اشارة الهول .

لم يتأخر الهول .

ففي ذلك العام لم تصعد سحابة في سماء الحمادة ، وكذلك في السنوات التالية . وكان على مجتمع الحكمة أن يتقدم باستفسار لجلالة الزعيم في العام التالي لحلول المجاعة كأنه أراد أن يختبر مواهبه السحرية : « ولكن كيف استطاع جلالتكم أن يرى الرؤيا قبل أن تنزل في طبائع الطير ، وقبل أن تثبت في بياض عظمة الكتف ، وقبل أن تجib بها شفاه الأجداد ؟ ». فأتى جوابه أكثر غرابة من الموهبة : « رأيت ما رأيت بهذا ». وأشار بسبابته إلى قلبه . ثم أضاف يوصي الأجيال : « اعلموا أن الساحر لن يكون حكيمًا ما لم يقرأ الغيب بقلبه . فان استطاع إلى ذلك سبيلا جاز له أن يستعين بعظام الانعام ، وطيران الطير ، واحتطاف ردود

الأنس والأنسون من أقواء العذاري ». وروى لهم كيف أمر ب البحر المعز لأنه رأى اليوم الذي سبب في الهول القطعان ، ويقضي الجدب على الماشي إلى الحد الذي ستتعاف فيه لحمها الذئاب الجائعة ، فتأثر أن يقدم الاغنام قربانا لـ « تانيت » علّها تشفع وتخفف البلاء . واتضح فيما بعد أن المجتمع لم يمنحه لقب « كبير السحررة » لأن سبّهم إلى المجهول ، ورأى في زاوية الخباء ، ما عجزوا عن رؤيته ، ولكن الرعيم استحق البطولة لأنّه كان أول من استقبل المصير البائس وعمل بالحكمة الصحراوية القديمة : « آيرن تا مولي يامتيت » * . كان أول من واتته الشجاعة وتوارى في خيمته وأعلن في القبيلة الصيام الأبدى . فكان ذلك الصيام السر الذي بنى للرعيم مجدًا لن يمحوه الزمان من ذاكرة الصحراء . لأن الشريعة تقول أن الرعيم الحكيم ليس من قاد القبيلة إلى فردوس الفضيلة ، وإنما من سبق قبيلته إلى الموت عندما يعم الجدب .

(٦)

قبل أن يبدأ الصيام توقف عن الكلام . جاء الحكماء وتحلق حوله السّحرة . تسامروا بجواره تحت ضوء القمر ، استعادوا زماناً كانت تصدق فيه النبوءات وتکذب . ورووا خرافات آخرى عن ازمنة تکذب فيها النبوءات حتى لو صدقـت . وانتهوا إلى أن السحاب لن يهرب من

* من أراد أن يفوز بالجهد فليتم (مثل للطوارق) .

الصحراء الى الأبد ، وآنهى الذي جرفه السيل يوماً يؤكّد أنّ وديان المملكة السماوية لا بدّ أن تعرّيد بالسيول في القريب . ولكن السحاب لم يأت ، والمطر لم يسقط حتى في العام التالي ، واستمر الزعيم يتثبت بصوته عن الكلام . قام مجمع الحكم بمحاولة أخرى . جاعوا بهرج من قبائل « كيل أولي » * ليرفه عن جلالته بالحكم والأشعار والأغاني وقصص الزمان القديم . تحدث الراعي العجوز مع مغرب الشمس ، واستمر حتى طلعت في الغد . غنى الماويل ، ولحن اللحون ، وروى الخرافات ومواقف العشق و .. قصصاً عن احوال الزنوج في بلدان الادغال ، حتى انتهى الى الفضائح . تلوى المجلس بالضحك ، ودمعت عيون السّحرة ، ولكن الزعيم لم يتسم . في ذلك اليوم فهم مجمع الحكم أن جلالته قد مضى بعيداً ، فلم يندهشوا عندما بدأ شعائر الصيام . اسدل على نفسه اطراف الخيمة ، وحرّم عليهم أن يخاطبوه الآمن وراء حجاب . ولكنهم كانوا يخاطبونه دون أن يطمعوا في تلقى الرّد . اضطرب المجمع أن يسّير أمور القبيلة ، في حين استمرت القطعان في الهلاك . ماتت الجداء ، ثم المعز ، وتبعتها الجمال . لم يأس بعض السّحرة ، فطافوا حول الخبراء وتسلّلوا الزعيم أن يرد على رسائلهم . يدفعون اليه بأوعية الماء ، ولكنهم لا يتلقون الرّد ولا الاوعية . استمر هذا الحال زمناً .

* كيل أولي : الرعاة .

انتظروا الاشارة . انتظروا أن تفوح الجثة بالرائحة ، ولكن ذلك لم يحدث . انتظروا أياما . أسابيع . شهورا . حولا . عقدوا اجتماعا للمجمع لاتخاذ قرار الكشف . كشفوا اطراف الخبراء واقتحموا الخيمة . كان الخبراء خاليا . انهار السحره وركعوا . قبلوا الأرض التي رقد عليها الزعيم يوما ، وخرجوا الى القبيلة ليقولوا أن الموت لا يكفي لمن أراد أن يفوز بالجهد ، ولكن عليه أن يطير الى السماء أيضا . ومن رفض أن يحوز قبرا على الأرض ، فان الفوز بلقب « كبير السحره » أقل ما يمكن أن يفوز به ، والقدر هو الذي قضى ألا ينال الانسان مجدًا الا اذا تخلّى عن الحياة .

في تلك المرئية عرفت القبيلة كلها أن السحره إنما ينعون أنفسهم أكثر مما يعلقون وسام « كبير السحره » في رقبة الزعيم ، لأن الدور ادر كهم كي يبدأ اشعار الاحتجاب .

(٧)

بعد الزعيم جاء دور السحره . احتجبوا واحدا تلو الآخر . احتجبوا مع أسرهم خوفا من أن يعرف الضعف الانساني نحو الحياة طريقه الى قلوب ابناهم فترتكب ذريتهم العار من بعدهم ، لأن الساحر لن يكون الا ساحرا مزيفا اذا غفل عن الوسواس الذي يجعل نار الآباء تحول الى رماد في الابناء ، فتحلو الحياة في عيونهم ولا يرون عارا اذا قايضوها بذل السؤال . يهرعون الى القوافل العابرة ليتسولوا منها حفنة



شعير أو بعض حبات من التمر . وقد رأى النبلاء أن يتبعوهم ، ويتخذوا من عملهم ، ومن عمل زعيمهم الذي علّمهم السحر من قبلهم ، درساً يصلح للاتباع . دفعوا أنفسهم وذويهم في بيوتهم حتى الموت . فانقطع بذلك أصل الحكماء في القبيلة . اندثر الشبرخ ، وجاء اليوم الذي تحققت فيه نبوءة آنهي المفقود : « آسخر كن امعارن نسن ، ادخر كن

ايراضن نسن » * ، ووجدت القبيلة نفسها وجهاً لوجه أمام مكيدة جديدة من مكائد الزمان : التيّه . فاستعادوا وصليبة السحرة التي تقول أن هناك حيلة واحدة لقهر الزمان هي : الغناء . فزغردت النساء . وعزفت الشاعرة مواويل الفجيعة على الوتر الوحيد المسحور ، وسقط الشجعان في « آجولل » ولم يعودوا منه أبداً . أما من تبقى منهم فقد تسابق لتحويل البيوت ، كل البيوت ، إلى مقابر جماعية . بدأ الاحتجاج الأكبر . احتجاج القبيلة عن الصحراء وعن الحياة . أسدلت كل عائلة أطراف خيالها على نفسها وبدأت الصيام الكبير ، الصيام الأخير .

كانت العائلات التي خلت بيتوها من الماء ، أو شارت القرب على الانتهاء ، أوفر حظاً ، اذا غلبتها الغيبة ، وقضى عليها الظمآن قبل أن تعذّب بالغياب الفاجع ، الطويل ، الذي يأتي بالجموع . فتمنى أهل القبيلة لأول مرة في حياتهم ، تمنى الخلق لأول مرة ، وآخر مرة ، في تاريخ الصحراء ، أن يستنزفوا الماء ، أن يختفي الماء ، أن يتبدّد ويتبخّر

* اذا ضاع شيوخهم (حكماً لهم) ضاع ابناءهم (امثال الطوارق) .

من القرب كما تبدّد في فضاء الحماده ، وتبخر في حلمة السماء .
ولكن كل من امتلك طفلا يومها فاق في العذاب من امتلك الماء .

جاء اليوم الوحيد الذي تمنى فيه الخلق لو لم ينجبو اطفالا كما
تمنوا قبلها لو نصب الماء من القرب ، فلعنوا اليوم الذي رزقا فيه بالذرية .
انقلبت الاشياء ، وتبدلـتـ الحـكـمة ، وتحولـتـ النـعـمةـ الىـ نـقـمةـ . صـدقـ
آنـهيـ الـذـيـ قـالـ آنـالـإـنـسـانـ لـاـ يـسـطـعـ انـيـمـيـزـ بـيـنـ النـعـمةـ وـالـنـقـمةـ ،ـ النـافـعـ
وـالـضـارـ ،ـ الـأـصـيلـ وـالـمـزـيفـ ،ـ الـحـقـيقـةـ وـالـوـهـمـ ،ـ الـآـفـيـ فـيـ تـلـكـ الـوـمـضـةـ الـتـيـ
يـمـثـلـ فـيـهـ بـيـنـ يـدـيـ الـفـنـاءـ .ـ الـأـشـيـاءـ لـاـ تـتـغـيـرـ ،ـ وـلـاـ تـعـودـ لـهـ مـعـانـيـهـ الـحـقـيقـةـ
اـلـاـ عـنـدـمـاـ يـتـأـهـبـ الـخـلـوقـ الشـقـيـ للـعـودـةـ اـلـىـ الـأـرـضـ ،ـ لـلـتـرـابـ ،ـ لـيـصـبـحـ ،ـ
طـالـ الزـمـانـ أـمـ قـصـرـ ،ـ ذـرـةـ مـنـ غـيـارـ .ـ فـيـكـتـشـفـ مـنـ ظـنـ نـفـسـهـ بـالـأـمـسـ
أـسـعـدـ الـخـلـوقـاتـ ،ـ لـأـنـ رـزـقـ بـأـوـلـادـ يـسـتـعـينـ بـهـمـ عـلـىـ قـساـوةـ الصـحـراءـ ،ـ
أـنـهـ أـتـعـسـ الـخـلـوقـاتـ سـاعـةـ الـحـسـابـ ،ـ لـأـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـقـتـلـهـمـ جـوـعاـ اـذـاـ أـرـادـ
أـلـاـ يـلـطـخـوـ اـسـمـهـ بـعـدهـ بـالـعـارـ .ـ يـكـتـشـفـ أـيـضـاـ أـنـ قـتـلـهـمـ لـاـ يـكـفـيـ .ـ عـلـيـهـ
أـنـ يـتـحـمـلـ صـرـاخـهـ وـشـكـواـهـ وـهـمـ يـمـوتـونـ أـمـامـهـ بـيـطـءـ .ـ يـمـوتـونـ فـيـ كـلـ
رـمـشـةـ ،ـ مـعـ كـلـ غـمـضـةـ ،ـ لـيـتـلـىـ هـوـ بـيـتـاتـ لـاـ تـحـصـيـ فـيـ الـيـوـمـ الـوـاحـدـ .

كـانـ يـسـطـعـ اـنـ يـخـالـفـ الشـرـيـعـةـ الـقـدـيمـةـ وـيـسـبـقـهـمـ بـأـنـ يـضـعـ حـدـاـ
لـحـيـاتـهـ حـتـىـ لـاـ يـمـوتـ مـعـ كـلـ صـرـخـةـ ،ـ وـيـفـزـ مـنـ قـلـبـهـ الدـمـ الـحـارـ مـعـ كـلـ آـنـةـ
أـوـ آـهـةـ أـوـ تـوـجـعـ .ـ وـلـكـنـهـ يـعـلـمـ أـنـ أـمـمـهـ سـوـفـ تـبـقـيـهـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ .ـ
حـيـاةـ ذـلـيـلـةـ سـتـلـاحـقـهـ بـالـعـارـ .ـ سـتـشـحـذـ لـهـمـ حـفـنـةـ مـنـ الشـعـيرـ أـوـ حـبـّـةـ تـمـرـ مـنـ

قوافل التجار . ستبיעهم لتجّار القوافل مقابل أن تراهم أحياء . ستقايدضمهم بالعبودية مقابل أن تبقيهم على قيد الحياة ، هذا هو منطق الأُم . منطق الأمهات . شريعة الأمهات . الشريعة التي زرعتها الصحراء في صدور الأمهات الصحراويات كي تجعل منها نقيضاً لشريعة أنهى القاسية التي تضع الموت في مرتبة أعلى من الحياة عندما يكون خلاصاً من الذلّ ، ونجاة من العبودية . كأن الصحراء أرادت ، بهذا العمل ، أن تدافع عن مبدأ الحياة ، عن البقاء ، بأي ثمن ، حتى لو كان المقابل ذُلاً وعبودية وعاراً ، لأن الحياة في دفاعها عن قداسته المبدأ ، قادرة أن تسترِي نفسها من الذلّ ، وتتطهر من العبودية ، وتغسل نفسها من ادران العار يوماً ، اذا استطاعت أن تتغلّب على الكبراء ، وتنتصر على منطق آنهى الموجع .

يستيقظ خوف . الخوف من أن يحل الأجل فینتصر منطق الأُم . الأجل الذي تمناه الأُب منذ قليل غولاً يقف خارج الخبراء . يتضرر اختفاءه ليجرّ عائلته الى الذلّ ، الى تجّار القوافل . يبعها هناك للأشرار الذين يشترون اولاد الصحراء مقابل الشّعير أو التّمر ليأخذوهم معهم الى مالكمـ الخيفـةـ فيـ الشـمالـ . هناك يـبعـونـهـمـ الىـ اـشـباحـ تـبنيـ بـيوـتاـ فوقـ صـحـارـيـ منـ مـيـاهـ الفـاسـدـةـ ، يـصـبـحـونـ عـبـيدـاـ لـلـاشـبـاحـ الـتـيـ تـسـكـنـ فـوقـ المـيـاهـ المـسـوـمـةـ . فـيـتـمـنـيـ أـنـ يـسـتـمـرـ نـزـيفـ الدـمـ فـيـ قـلـبـهـ إـلـىـ الـأـبـدـ شـرـيطـةـ أـلـاـ يـنـطـفـئـ الـقـلـبـ قـبـلـ أـنـ يـطـمـئـنـ عـلـيـ مـصـيـرـ الذـرـيـةـ . يـتـمـنـيـ أـنـ يـظـلـ يـتـقـلـبـ فـيـ قـلـبـ النـارـ مـقـابـلـ أـنـ يـسـبـقـوـهـ إـلـىـ الـخـلاـصـ ، إـلـىـ الـحـرـيـةـ الـأـبـدـيـةـ .

فيعلو الانين الفاجع ، الموجع ، الذي لا يحتمل ، فيتمنى لأول مرة أنه لم يولد ، لم يعش ، لم يكن ، ولم يتنفس هواء الصحراء يوما . يلعن أمه وأباء ويقول لهما بصوت يظنه مسموعا : « لماذا جعلتماني ضحية لمعتكما ؟ لماذا استسلمتما للحظة صغيرة لتنجبا نطفة الشقاء الكبيرة ؟ » ينسى الى الأبد أنه تلذذ بطعم الترفاس ، وترنّح كالمأخوذ بنشوئي الاحان عندما تنفس عطر الرّتم . ينسى بأنه تمايل طربا وهو يتصنّت له مولا - مولا » الصغير ، وهي تعني في أحراش الربيع . ينسى بأن الحياة حياة ، ويلعن الآباء ، والأجداد ، ولحظة الميلاد . و .. يشقى ، يشقى لأنه يتذكر أنه ضاع ، ووضع قدمه في صراط التيه في اللحظة التي تعلق فيها بمخلوق آخر . عندما سمح لنفسه بأن يعيش . عشق مخلوق يسعى ، فانزل قلبه من رحاب السماء ، من جنائن الرّتم ، من شذى الترفاس ، من دنيا الربيع ، من غناء مولا - مولا ، ووضعه على الأرض . قدمه مهرا للمخلوقة ، فباع نفسه وخان الحياة . قايض عطية وطن الرؤى السماوية التي لا تقدر بثمن مقابل أن يتلذذ بلحظة سيلعنها الابن كما يلعنها هو الآن في لذة أبيه ، لأنهما صنعواه بنطفة شقية . انزل قلبه من السماء وجعله يدب على الأرض . وعليه أن يدفع ثمن هذا الحمق . عليه أن يتحمل نتيجة اللعنة . اللعنة التي يتلقاها كل من رضي أن يمتلك بيته . امرأة . ولدا . ذرية . إسما . عرف أنه خرج من الصحراء ، من وطن الرؤى السماوية ، من وطن المولى نفسه ، الى المنفى الخالد ، عندما اختار أن يتعلق . يعشق . ويهب قلبه للمعشوق . تبدّد الفردوس وبدأ التيه .

سكتت مولا - مولا عن الغناء ، توقفت شجرة الرتم عن الازدهار ، اصيبيت ارض الحمادة بالعقم ولم تنجب ترفاشه واحدة منذ ذلك التاريخ. فكيف لا يسب يوم الميلاد الآن بعد أن عرف السر ؟ كيف لا يتمنى لو لم يبدأ هذا السفر اذ ادرك ان الشقاء قدر السلالة ما دامت لا تستطيع أن تعرف أن المنفي هو المنفي الا اذا سارت في هذا الطريق ؟ واذا سارت في هذا الطريق فان اللعنة المنزّلة لن تقبل التوبة ، ولن تسمح للسلالة الشقية بالبقاء الى الخلف ، والعودة الى وطن الرؤى السماوية من جديد ؟ فاستحالة العودة الى الحرم القديم هي التي تبيع الكفر ، وتجعل من سبّ يوم الميلاد أمراً جائزاً، تجعل حتى سب الوالدين أمراً مباحاً . فالسلالة الشقية ، لا تقدر أن تسب يوم الميلاد ، وتجربه أن تلعن الآبوين ، اذا لم تكفر بالمنبت . بالحياة . ببداً الحياة .

(٨)

ولكن اراده الحياة عرفت دائمًا كيف تنتصر ، فغلبت الامهات تدابير الآباء . وقد سمع جبارين السحره أنفسهم يثنون على هذه الارادة الغامضة سراً، ويعرفون أن اهل الصحراء مدینون لها عبر الدهور بالبقاء على قيد الحياة . ولو لا الاعتراف بالفضل القديم لما عبد الصحراويون المرأة ، ولما جعلوها وريثة لهم في النسب والاسم والميراث من دون كل الأمم الأخرى . هذه الارادة التي جعلت منها مخلوقاً مقدساً في الماضي هي التي ساعدتها في أن تجده حيلة تقاوم بها أهوال الجدب ، وتغلب

الجوع وكرباء الآباء . هذه الارادة هي التي أجبرتها أن تكتشف السر الذي يقهر الموت . فقيل أن بعضهن تعلمون الدهاء من الشعال ، فاحتضنَّ أولادهن ، وحبسَ انفاسهن حتى بردتُ أطرافهم ، حتى اذا تفحصهن الأقران تهياً لهم أنهن قد سبقن . قدمْتُنَّ ، فيلتفتوا الى الزاوية الأخرى من الخباء ليتمموا بحمد الإلهة « تانية » قبل أن يشهقاوا ، ويلفظوا النفس الأخير . عندها تنسى الأم ، وتزحف خارج الخباء ، ترنج عبر الخلاء ، تحمل كنزها في حجرها لتبعه لتجار القوافل العابرة مقابل قبضة من دقيق الشعير ، أو بعض حبات من التمر . فإذا ماكسها التجار أعطتهم الهيكل العظمى الصغير الملفوف في خرق القماط بلا مقابل . بل بمقابل . مقابل أكبر من كل كنوز الصحراء ، ومن كل أحمال الشعير والتمر والذرة التي تزرعها بلاد السود . مقابل أن يعطي التجار الحياة . ويروي أحد التجار أن امرأة من « كيل أولى » باعت له طفلها مقابل كسرة من خيز الشعير . ولكنها لم تذق من الكسرة سوى قطعة صغيرة . وأعطت الكسرة للوليد . وعندما بدأت القافلة تبتعد لحقت بهم ل天涯 أن يأخذوها أسيرة الى البلاد التي قالوا لها في الأساطير أنها تبني بيوتا من جذوع الشجر لتسكن فوق صحاري من المياه المسمومة . عرضت أن تذهب عبدة لتربى ابنها . ولكنه رفض عرضها لأنه لم يجد لها مكانا فوق جماله المحمّلة بالبضائع . بعد شهور ادركته قافلة اخرى ليخبره التجار بأمرها . قالوا له أنها مشت وراء القافلة مسافة طويلة .

وعندما غلبها الجوع والظماء حاصرتها الذئاب الجائعة . تناولت حجرا واستعانت به لتكتب وصيتها لابنها على صخرة عند حضيض جبل نفوسة : « تكشيد تيرفاس ، يقل كي آضو نتيلوت تفسايت ، تسليد اي مولا - مولا ، مهيتَكَد اي تينيري ؟ » * . وقال الناجر أن نبوءة تلك العرافة تحققت . فما أن كبر الولد ورث العضل ، وتهياً لبيعه لنصارى بحر الروم حتى اختفى . هرب إلى الصحراء . قيل له أنه شوهد برفقة قافلة متوجهة إلى غدامس . وروى تجار آخر أن كيف استحال عليهم أن يخلقوا من أبناء الصحراء الأشقياء عبيدا . فما أن يشبوا حتى يفرّوا من وجوه الأسياد . وإذا تعذر عليهم الفرار لجأوا إلى الخيار الوحيد الذي لم يقدر إنسان أن يمتنع عن إنسان آخر حتى لو كان عبدا مملوكا : الانتحارا كانوا يشنقون أنفسهم ، أو يقفزون من شرفات المنازل ، أو يرمون باجسامهم على السيف أو السكاكين ، أو يشقون رؤوسهم بالرؤوس . وقد ذاع صيتهم إلى حد أن تجار الروم اطلقوا عليهم اسم « الجن » ورووا عنهم الأساطير ، وقالوا أنهم يجلبون النحس . وتطيروا منهم وتشاءموا . تحدثوا عن السفن التي غرق في بحر الروم ووجدوا أنها كانت محملة بعيد من مملكة الصحراء . فحرم ربان السفن حملهم قبل أن يتمتنع التجار عن شرائهم ، مفضلين الأحباش وجباررة الأدغال . فكان أن بارت تجارتهم ، ورفض تجار القوافل مقايضتهم بحبات التمر أو بذار

* أكلت الترفاس ، استنشقت عطر زهرة الرتم ، سمعت غناء مولا - مولا . وبذلك ، أين سفر من الصحراء ؟

الشاعر في المواسم التي يعم فيها الجدب وتبدأ المجاعات . وتناقلوا اقوالا مشهورة تفيد بأن أهل الصحراء سحرة ، يتزوجون الجنينات وينجبون منها اولادا ، يدسونهم للتجار حتى يفسدوا بضائعهم ، ويحولوا التبر النفيس الى أ��ام من رماد . وما أن يخطفوا الكنز حتى يطيروا به ويغدو الى الصحراء ، تاركين وراءهم أجسادا استعاروها للتمويه . وأكَّد الرواة أنهم رأوا بعيونهم كيف يؤدي ابناء الجن هذه الطقوس السحرية . فيبدأوا بترتيب المواتيل الصحراوية الحزينة حتى تمحر عيونهم ، حتى يغيب منها السواد تماما . تنتابهم رعشة عنيفة تهتز لها ابدانهم كلها . يطلقون صرخة جنونية ليقعوا صرعى . يسقطون من أعلى ارتفاع ، أو يغرسون انصال السكاكين في صدورهم . أو يضربون رؤوسهم بالفؤوس ، ليترکوا كوم التراب ، البدن المزيف ، في يد الأسياد ، ويطيروا الى الوطن . الى الصحراء . فاذا تفحَّص المالك كنزه ، بعد هذه الشعائر ، فلا بد أن يجده وقد تحول الى رماد .

ادَّعى التجار أنهم تخلوا عن عبور الحمادة ، وسلكوا طرقا أخرى أبعد ، مثل غدامس وزويلة ، تجنبا لغارات قطاع الطرق ، ولكن الدهاء يعرفون أنهم أصبحوا يتحاشون عبور وطن الرؤى حتى لا يحملوا في امتعتهم الذرية المسكونة ، حتى لا يدس لهم سكان الصحراء السُّحرة الوباء الذي يخطف تجارتهم ، ويحول كنوزهم الى هباء من رماد .

Twitter: @alqareah

٣- الحُصْن

« .. حتى الحُصْن بزواجه الرباعية

يبدو مستديراً عن بعد .. »

غاي بتروني (بترونيوس)

أبيات من قصيدة ضائعة

* * *

« اي حركة إنما تنتهي بدائرة . سواء أكان ذلك في المكان أم في

الزمان»

توماس مان

«الجبل السحري»

(١)

في المراعي استعار الشجر الحيل من السحرة القدامى . ابتنى لنفسه صرحاً من رمل وعروشاً من تراب . قال للجدب أنه أعدَّ مثواه بنفسه ، حفر قبره بيده ، في حين اخفى في « أدبني » كنزه . طمر في التراب سره في غفلة من الريح ، والشمس ، والجدب . حاكي الحكماء الذين يدسوّن ثرواتهم في قبور الأسلاف حتى لا تنتد إليها يد اللصوص والباحثين عن الكنوز . الرتم أيضاً دفن في التراب سره وانتظر اليوم الذي سيبدل فيه مزاج القدر فيجري الزمان بغير ما يشهيه البلاء . يوم تقدم السماء شرر البشرة ، فيبدأ البعث . وتخرج الأرض من جوفها كنوزاً في مطلع اللّياع . ولكن الأشياء كلها تعود إلى التراب ما ساد الجدب . تتحصن بمجهول لا يعلمه إلا الجنّ . الجنّ يحرس حبيبات البذور في مدافن الجنود كما يحرس كنوز الأولين في المقابر القديمة . فوق المقابر يقف مردة يتخفون في جلود الحيات والأفاعي ، وفوق نعش الشجر يدب المردّة في أجسام النمل . تشق لنفسها دروباً على الدوام . تحفر المطامير والدهاليز والأنفاق لتدس فيها بذور الحياة في مخابئ أكثر أماناً .

هجم جبارين بجوار كدس من الأكّداس ليلاً ليتخدذه وسادة . استيقظ في الصباح فوجد نفسه محاصراً بجيوش الجنّ ، فبدأ يقرأ

التعاونيذ ويراقب تحركات العمالقة وهم يتخفّون في ابدان أصغر مخلوقات الصحراء . راقبهم وهم ينقلون كنوزهم ويشقون طرقاً جديدة ليحكموا حوله الحصار . راقبهم دون أن يتوقف عن التمتمة بالتميمية . ارتفعت الشمس اثباراً فوق خط الأفق . استمرّ يتأمل حركة الذّر حتى تبدّت النبوءة . رأى في حرف + حفرته جيوش الجنّ على عرش التراب علامة غامضة . علامة بدت ، ككل الاشارات الغامضة ، أليفة ولجوحة ولعوب . تستعيّر خصال السراب . تقترب ، تشاكس ، تغمز بفنج الانشى ، فإذا استجاب للاحواء وأقدم انسلت وتلاشت . وإذا يقس وتراجع عن ملاحظتها هرعت اليه مرة أخرى وحامت حوله بالحاج . و .. فجاة تذكر . رأى البارحة رؤيا . رأى العلامة في الرؤيا . في كف ربّ القافلة . كانت تزين صدره كقلادة مسبوكة ومجسمة من الفضة . متساوية الرؤوس . تساوي اطرافها زادها جلالاً وجمالاً وغموضاً ، فلم يعرف لها رأساً من عقب ، طرفاً ايسر من طرف أيمن . الطرف العلوي ينتهي في نقطة التقاطع ، ويعادل في طوله الجزء السفلي . والطرف الأيسر ينتهي في نقطة التقاطع ليتساوی مع الامتداد نحو الجهة اليمنى . ولاحظ بوضوح كيف تناولها ربّ القافلة المجهولة ليقلبهابين يديه ، ليداعبها بحنان ، فلمعت تحت اشعة الشمس ، وعكست نار الغسق ، ليتحول الرأس الى القدم ، يحتل الطرف الأيسر مكان الطرف المضاد . تبادلت النماضن الاذوار واحتل الضدّ مكان

الضد مثل رموز «تيفيناغ». ولم يفهم أن رب القافلة تعمّد الحركة جواباً عن سؤاله إلا عندما أعاد العجوز الاشارة ثلاث مرات . كان ظامناً . هام أياماً في الخلاء بحثاً عن ناقته . ولا يعرف متى اهتدى إلى القافلة . وجد نفسه يهجع أمام العجوز المجهول بعد أن شرب من يديه الماء وأكل خبز الشعير . سأله أين يمكن أن يجد ناقته فأجابه الرب المجهول بالاشارة . أخذ القلادة المتساوية الأطراف وقلبها بين يديه ليشير بها إلى الجهات الأربع . كان جواباً أكثر غموضاً من السؤال ، لأنه يعرف أن الـ+ المتساوية الزوايا لم تصبح رمزاً للاللهة «تانيت» لأنها تحمل الحرف الأول من اسمها ، ولكن لأنها تشير إلى الجهات الأربع حيث تسكن الإلهة . ويعرف أيضاً أنها لا تكتفي بالسكن في هذا الوطن . ولكنها تملك عليه السلطان المطلق . والناقة لا بد أن تكون في مكان ما ، في ركن ما ، من هذه المتأهة . في زاوية من زوايا مملكة «تانيت» ، لأنه لا وجود لجهة أخرى تستطيع الإلهة العظيمة أن تتسلط عليها خارج جهات الصحراء الأربع . ولذلك جاء الجواب أكثر غموضاً من السؤال ، لأنه يقول : «الناقة في مكان ما في التيه . في احدى زوايا الجهات الأربع» . وهو يعرف أن الناقة لن تفرّ من مملكة «تانيت» حتى لو طارت بجناحين . لأن سيماء تانيت المطبوعة على افخاذ الناقة ، مثل تيفيناغ المزبورة على الصخور ، لا تشير في وقتها المهيءة إلى الأفق . لا تومئ إلى الجهات المطروحة فوق العراء . ولكنها تنتصب في كبرىاء الإلهة نفسها لتعلن أن

وطنبها السماء أيضا . تشير الى مقامها الأعلى ، في حين يركع طرفها المضاد ليقول أن الأرض السفلی وطنها أيضا . فأين يمكن أن تهرب الناقة من هذه الدائرة المغلقة باحكام كأنها كرة من الحنظل؟ ولكن رب القافلة أكتفى بجوابه الغامض وتهيأ للرحيل . لحظتها أفق بعد أن لسعته اشعة الشروق ليجد نفس العلامة محفورة بارجل النمل على وسادته . على الكدس الترابي الذي خبأت فيه شجرة الرتم الزائلة كنز الحياة . استيقظ جبارين يومها باحساس أكثر غموضا من جواب رب القافلة ، واعمق منه في الایحاء والجلال . احساس أكد له أنه لن يجد ناقته أبدا . احساس اليأس الذي زرعه في صدره الجواب القاسي . النبوءة الفاجعة التي وجد تأكيدا لها في الطريقين المتقطعين المرسومين فوق كوم التراب بدبيب النمل . بأصابع العمالة الذين يتخفّون في اصغر مخلوقات الصحراء ، ليس لأنهم يريدون أن يريحاو أج丹هم من جبروت الجبارية ، ولكن لأن الجنّ أول من عرف الحقيقة السحرية التي تقول ان العملاق لن ينعم بالفردوس اذا لم يتحول الى نقشه ، الى نملة . وهي حكمة ما لبث أن استعارها سحرة الادغال فسكنوا الظلال وهجروا أج丹هم وحوّلوا الى ظلال . وقيل أنهم فعلوا ذلك في البداية كي يتذوقوا النعيم ، ولكن الحيلة راقت لهم عندما اكتشفوا أن التخفي في الظلال يحميهم من اخطار العدوان ، فقرروا أن يتخدنو الظلال حصنا دائمًا ويهجروا أجسامهم الى الأبد . وحدثه شهود العيان الذين زاروا بلاد الادغال أن

الحكماء يغرسون حرابهم المسمومة في الظلّ عندما يشتباكون مع السّحرة ليقينهم أن عدوّهم يتخفّى هناك . ولكن السّحرة الدهاء قطعوا في حرفتهم مشواراً أبعد فابتدعوا الإقامة في حواسِي الظلال ، حتى اذا هوجموا بعنه ، وتلقوا حربة في القلب ، انتقلوا من الحاشية ، واختبأوا في جسم نملة ، أو ذرة غبار . وما برعوا في فنون التّخفّى ، وبلغوا هذا المقام اصْبَحَت مهاجمتهم مجازفة كبيرة ، لأنهم يستطيعون أن يصيروا عدوّهم ، في حين يعجز عدوّهم عن النيل منهم . وأخبره أحد الرّعاة أنهم استفادوا من حكمة تانية التي وجدوها في الشّارة . استعاروا أسرار سحرهم من النّقائض العجيبة التي تحملها هذه العلامة في تكوينها البسيط . وقال أيضاً أن قبائل الجنّ أيضاً استفادت من رموز الشّارة عندما اخترعت الانتقال من مأوى في القمّم الصّغيرة إلى قامة تخترق الفضاء ، أو التنازل عن حجم العملاق ، والنزول للسكن في بدن نملة .

اختلطت في رأسه رؤى النوم واحلام اليقظة الى حدّ أیقُن فيه أنه مايزال يجلس في مواجهة ربّ القافلة الذي يقلب في وجهه بالحرف الفضي الغامض المشدود الى رقبته بخيط مفتول من الجلد . ثم استمر يقلب الشّارة المرسومة بحوافر النمل (التي هي حوافر الجنّ) فوق الكوم المقدس . وكلما تمايلت العلامة المجهولة كلما اشتد احساسه بأنه لن يهتدى الى ناقته . وتواصل هذا الاحساس ، الذي تحول الى يقين خفي ، حتى بعد ان تأكّد أن حلم الليل هو الذي تواصل في رؤيا النهار ،

لأن البرهان هو أن ناقته تبرك بجواره ، تجتر باسترخاء قبضات التبن التي طرحتها أمامها البارحة قبل أن يهجم فوق الكدس المقدس .

ادرك أن عليه الآن أن ينجو بناقته من الخطر ، كما ادرك البارحة ، أو صباح اليوم ، قبل أن يصحوا من النعاس ، أن عليه أن يفهم الزوايا المتساوية في تقاطع شارة تانية ، اذا أراد أن يجد الناقة .

(٢)

في سهل يهجم عند حضيض الجبال الزرق وجد الرعاة يتحلقون حول بعض حبات من التمر . توأى القسمة راع مرح ظل يغالب الهول بالفكاهة والنكات . قدم له شقاً واحداً من تمرة فرفضها جبارين بهزة من رأسه . انتهز الراعي الفرصة فعلق على الرفض بمرح : «انتظر . سوف تترجماني في الغد ان أعطيك التوأة . من تكبر اليوم على شقّ التمرة قبل غداً شقّ التوأة » . ثم أخذ التوأة والقى بها في فمه . شرع يمتصها كأنه وجد فيها رحيقاً من نخاع . تبادل جمع الرعاة ابتسamas ذات معنى . كشفوا عن شفاههم . وضعوا الانصاف في افواههم . لم يمضغ أحد . كأنهم كانوا على اتفاق . حاكوا زميلهم المرح وبدأوا يتلذذون بامتصاص الانصاف . واصل الراعي المرح سرد رواية لم يكمله : «... بقي بابا يدور حول خباء معشوقته كما تحوم الذئاب حول المضارب مع

بداية العام الثاني للجدب . ولكن أمّها لم تعطه جثتها الأّ بعد أن أيقنت أن الدم برد في عروقها والهواء لن ينفع صدرها بالحياة أبداً . هل تدرؤن ماذا فعل الشقيّ باباً بعشوقته ؟ انتبهوا . ومضت عيونهم بالاهتمام ، ولكنهم لم يتوقفوا عن امتصاص الرحيق من انصاف حبات التمر . واصل الراعي روايته : « أخذها بين ذراعيه واطعمها لذئب كان يحوم حول النجع طوال الوقت » . تبادل الرعاة نظرات الاستنكار ، ولكنهم لم يتوقفوا عن امتصاص الرحيق . أخرج الراعي نواة التمر من فمه . القى في فمه بنصف التمرة ، وببدأ يتلذذ بامتصاص الرحيق . ولكنه احتفظ بالنواة في قبضته . استمر يسرد روايته عن باباً : « ثم صنع فخاً بديعاً من الطلع . نصب الفخ في الوادي واصطاد الذئب . نحره وشواه وأكله . بوبو قال أنه أكل اللحم نيشاً ، ولكنني لم أصدقه . لأنني أعرف أن بوبو نازعه يوماً ما ، وتخاصماً بسبب فتاة أخرى من « كيل أباداً » . ولكن باباً أكل الذئب كلّه . لم يترك حتى العظام . دقّ العظام وأكلها . ثم .. ثم هام في وادي تاناروت ، وصعد آوال . هناك القى بنفسه من صخرة . هوى الى الارض فكانت الذئب في انتظاره . لقد أكلته الذئب » . انصت جبارين للرواية وهو يتكمّل برفقه الى الارض . تابعها بخطوط على التراب . رسم لها مخططاً عفوياً على الرمل . كان يتبع القصة من فم الراعي ليسجلها في الخطوط . ولدهشته وجد نفسه يشتتها في خطين متقطعين . تقاطع تأنيت . حفر بسبابته خطأ يقف على نقشه

العاشقان . وعندما انتهى الراعي من روايته خرق الخط المستقيم بخط آخر يمثل بابا والذئب ، فاتحذت الأطراف وأكتملت الدائرة . أتحد العاشقان في الذئب ، واتحد معهما الذئب في نقطة التقاطع . التقاطع يتحول إلى دائرة . لأن الرواية في تقاطع تانية لا تساوى الا اذا أستكملا الرسم وتخيل الدائرة .

تذكر الشارة المقدسة التي عبّث بها ربّ القافلة ربما كي يرسم له هذه الاستدارة . أبتسם باستخفاف قبل أن يمحو التقطاع بجمع يده . بدأ الرعاة حديثاً جديداً حول أهوال الجدب ، حتى انتهوا إلى أن المجاعة عمّت الصحراء كلها لأن قطرة واحدة لم تسقط في القارة . مالت الشمس نحو الغروب واقترب الغسق . عاد ينحني فوق التّراب . أعاد حفر التقطاع على الأرض . فكر قبل أن يرسم قوساً فوق رأس التقطاع . اعتمرت العلامة ، الآن ، طربوشًا فبدت مثل أكواخ الواحات المضفورة من جريد النخل . أو .. لماذا لا يكون خباء منسوجاً من شعر المعز ؟ أبتسם مرة أخرى قبل أن يغلق الدائرة ويختنق العلامة الجليلة بأفق الصحراء الكبرى . بقوس ثان ، فمحصر التقطاع من كل الجهات ، وتواصل في كل الاتجاهات . الاركان الاربعة تتوحد ، الآن ، وتلتافي في الحلقة الجيدة التي صنعتها الأفق . كل رأس من رؤوس التقطاع التائهة ، المنسية ، تستطيع أن تتصال بالطرف المجاور ، وتقضي للتواصل في الأطراف الأبعد ، في الاركان التي جعل منها انتصاب العلامة القاسي

نقضا يستحيل الوصول اليه . دائرة الأفق المقدسة التي أعادت الأجزاء
المتغيرة ، المتضادة ، المفتربة ، الى اصلها ، الى نقطة البدء المجهولة ،
عجنـت التقاطع المستحيل ، وجعلـت منه كـلـاً واحدـاً ، مستديراً ، مثل
قبور الأـسـلـاف . الأـسـلـاف وجدـوا حـلاً للـغـرـبـاً بالـأـفـقـ المـغـلـقـ فـجـعـلـوـاـ منـ
مـثـاـهمـ الـأـخـيـرـ دائـرـةـ تـنـصـلـ أـرـكـانـهاـ بـكـلـ الـأـطـرافـ :ـ بـالـجـهـاتـ الـأـرـبـعـ ،ـ
وـبـالـسـمـاـوـاتـ الـعـلـيـاـ ،ـ وـبـاعـمـاـقـ الـأـرـضـ السـفـلـيـ .ـ تـعـودـ الـأـرـكـانـ الـقـاسـيـةـ ،ـ
الـأـعـدـةـ الـمـكـابـرـةـ الـمـرـفـوعـةـ إـلـىـ الـمـجـهـولـ ،ـ تـعـودـ مـنـ مـنـفـاـهـاـ ،ـ مـنـ لـعـنـةـ الـيـهـ
الـتـيـ عـلـقـتـهـاـ الـآـلـهـةـ فـيـ رـقـابـ كـائـنـاتـ الصـحـراءـ ،ـ لـتـعـانـقـ فـيـ الـجـدـولـ
الـخـنـيمـ ،ـ لـتـحـمـمـ فـيـ النـبـعـ الـأـوـلـ ،ـ لـتـصـلـىـ فـيـ نـفـسـ الـحـرـمـ الـذـيـ خـرـجـتـ
مـنـهـ يـوـمـاـ لـتـنـطـلـقـ فـيـ سـفـرـ الـضـيـاعـ .ـ اـسـتـعـادـ الـآنـ كـيـفـ كـانـ فـيـ الـطـفـولـةـ
يـعـانـدـ كـيـ يـجـعـلـ الـعـمـودـيـنـ الـمـتـقـاطـعـيـنـ يـلـتـقـيـانـ .ـ الـأـبـ قـالـ أـنـ تـانـيـتـ شـاءـتـ
أـنـ يـتـقـاطـعـاـ كـيـ لـاـ يـلـتـقـيـاـ ،ـ لـأـنـ التـقـاطـعـ هـوـ مـحاـكـاةـ لـلـكـائـنـاتـ فـيـ الصـحـراءـ
الـتـيـ لـاـ تـلـتـقـيـ اـبـداـ اـذـاـ انـفـصـلـتـ عـنـ اـصـلـهاـ .ـ وـكـانـ يـنـحـنـيـ فـوـقـهـ وـيـلـوـحـ فـيـ
وـجـهـ بـالـمـسـعـرـ :ـ «ـ هـلـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـعـودـ إـلـىـ بـطـنـ أـمـكـ ؟ـ »ـ ،ـ فـكـانـ يـكـتمـ
الـسـوـالـ الـفـاجـعـ :ـ «ـ لـمـاـذـاـ لـاـ اـسـتـطـعـ أـنـ أـعـودـ إـلـىـ بـطـنـ أـمـيـ ؟ـ »ـ لـيـسـ لـأـنـهـ
يـخـشـيـ أـنـ يـسـفـرـ الـأـبـ ،ـ وـلـكـنـ لـأـنـهـ يـخـشـيـ أـنـ يـكـونـ فـيـ السـوـالـ عـقـوقـ
فـيـ حـقـ الـوـالـدـيـنـ .ـ الـأـبـ كـانـ يـدـرـكـ السـوـالـ ،ـ فـيـجـيـبـ مـكـافـأـةـ لـهـ لـأـنـهـ لـمـ
يـعـقـ الـوـالـدـيـنـ :ـ «ـ اـذـاـ سـلـكـنـاـ طـرـيقـيـنـ مـتـعـاـكـسـيـنـ ،ـ أـحـدـهـماـ يـذـهـبـ إـلـىـ
الـشـمـالـ وـالـثـانـيـ إـلـىـ الـجـنـوبـ ،ـ فـهـلـ نـلـتـقـيـ ؟ـ »ـ .ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـقـنـعـ .ـ يـمضـيـ

الى المراعي وراء الجداء الشقيقية . يتفقد رموز الاجداد على الصخور . يشاهد الرسوم ويقف طويلا أمام حرف + الغامض . علامة « تانيت » المقدسة . لغز الصحراء وشاربة الصحراويين . التميمة التي يحمل شعارها فوق احتجبته الجلدية ، وتزين بها النساء ارديتهن الوردية . يطبعها الرجال بالنار على افخاذ الابل ليحموها من الضياع أو الوقوع في يد اللصوص . تخيطها النساء على اللباس . ويجسدتها الحدادون السحرة في تقاطع مجسم مهيب في رأس السرج تيمناً وتبركاً وطلبها للتوفيق . عمودان صغيران . أحدهما يهجن في امتداد الأفق ، في سكينة الأفق ، في تسليم الأفق . والثاني يتتصب بكبرياء الإلهة تانيت ، يشق السماء بقامة عمالقة الجن ، لأنه يريد أن يخرق الأرض ، ويلغى الجبال . يجتاز الجبال ويطلب الآلهة في السماء . حاول أن يفهم سر العلامة دائمًا . حاول أن يجد طريقة تكسر قساوة التقاطع ، بتغيير وضع الأركان الأربع في خياله ، ولكن الروايا تحتل مكان الزوايا ، والركن يشغل محل الركن في عناد بطولي يشير اليأس . وكلما جاهد في ايجاد وضع أكثر مرونة في التميمة ازداد التقاطع تحدياً واستحالة . ويستطيع الأن أن يجزم أنه قام ، في خياله ، في ذلك الزمن البعيد ، بنفس المحاولة التي نفذها رب القافلة . الآن ادرك أن الشيخ كان يرسم حلقة حول التقاطع بادارة الشارة الفضية بتلك السرعة . تذكر أن أبناء الفلاحين في الواحات يصنعون من تقاطع السعف دائرة بمساعدة الريح . سرعة الريح تجعل التقاطع الجليل

يدور حول نفسه حتى تتلاشى الارکان تماماً، وتبقى الدائرة كتلة واحدة، تختفي فيها الحواف ، وتتلamu الأركان ، ويتهي الضياع .

فهل كان هؤلاء السحرة الصغار يقدرون أن يكسروا كبراء التقاطع السّحري لو لم يسخروا سحر الريح ؟

دبّت العتمة في الوديان السفلی ، ولكن القمم العالية مضت تتحمّم في قبضة ذهبية كثيفة من خيوط الغسق ، فتحول رؤوس الجبال إلى قطع ماردة ، مديبة ، من جمر تختلف عن حريق الظهيرة . نيران القيلولة تحرق الصحراء بالسنة من اللهيـب الأزرق خلال النهار ، وعندما يجيء أوان الأفول ، وتسسلم الشمس للزوال ، يستميت الشعاع ويتمادي ، فيغمر المرتفعات والرؤوس الجبلية المكابرة بالسنة بلون النار . ولكن الصحراء ، في علاقتها الخالدة بـ كوكب النار ، عرفت مسلك الشمس . فإذا توعدت وانزلت على الأرض سيلاً أزرق ، استغاثت الصحراء وناحت بالفجيعة ، لأنها تعرف أن الشمس وقتها تنفس ناراً موقدة ، فإذا سكن الفرص واحتضر وأرسل من منفاه في الأفق شعاعاً بـ لون النار ، ادركت الصحراء السرّ ، ورقت فرحاً ، لأنها تعرف أن الشعاع الذهبي هو نار مزيفة ، لأن تنين الأساطير القديمة لا ينفث ناراً بـ لون النار الا اذا رکع ویش واصابه العجز . الشمس أيضاً تستعير مسلك سكان الصحراء الاولئ الذين يسمون الآثياء بنقائضها ، ويرسمون على الحجارة علامات تدل على الطريق المععكس اذا شاعوا أن

يضلّلوا الأغراط في الوصول إلى آبار المياه أو موقع الكنوز . فإذا نفثت الشمس أشعة الذهب عرفت الصحراء أن خصمها يحتضر ، فتتعرّى ، وترقص ، وتغنى ، وتسلّى بالتعجم في فيض النيران الذهبية المطفأة . رآها جبارين تحتمم ، وقال لنفسه أنها تتأهب للتعرّى ، وسوف ترقص عندما تستيقظ حبيبات الرمل وتعود من منفاتها في الفناء ، لتقرع لها الطبول وتغنى مواويل الشجن والحنين والميلاد .

صعد الوادي . تمشي في العراء المفروش بكساء من الحجارة الأفقية السوداء . كأنها افحوص من النوع الذي تقنن الطيور البرية بناءه في الخلاء وإن كانت حجارة الحضيض أكبر حجماً وأكثر سواداً من الحجارة التي تستعملها الطيور في تشييد الأفحوص . البساط الأسود تمدد شمالاً مسافة طويلة ، فاخترقته أخاديد متفاوتة العمق ، حفرتها بناط الأرض التي تتدفق عندما تجتمع المياه فوق فراش الحجارة ، في المواسم المطيرة ، لتفيض في النهاية ، وتتدفع إلى الأسفل ، تتسلل عبر شقوق الفرش الحجري بشقاوة الطفولة ، تتحايل على الجbos التي تعترض طريقها ، تتجنب الصخور القاسية ، باحثة عن مسالك سرية تقود إلى منحنيات لا تراها العين ، ولا تعرفها إلا الأرض العطشى . والمنحنيات تقود مستويات واحدة بالانخفاض . هنا تستعين المياه بمرونتها وشقاؤتها واعجازها لتحفر بيدها أخاديدها التي يعتمد مستوى عمقها على مدى انخفاض الأرض وتجابها في استقبال السلسلي السماوي ، كي يصل

الى الكنوز الدفينة في الاسفل من أقصر طريق . يتجمع في جداول ليتقطط الانفاس ويستجع قواه ، ليندفع في خيوط تبدو بائسة للعين ، ولكنها نافذة الى اسفل ، الى خندق ينزل بها الى منحدر يقود الى الوادي العميق . في الوادي فقط يمكن مشاهدة المعجزة . فالقطرات المتباude الصغيرة ، البائسة ، التي تنزل على السجاد الحجري الفاجع ، تتحول ، باستمرار الرذاذ ، الى سيل مارد يجرف في مسيرته الآلام والانعام ، يصرع الصخور ، ويطيّح بأعْتَى الاشجار . تتحول القطرات التي يضرب بها الصحراويون المثل في الوهن الى مارد يضرب به الصحراويون المثل في الغدر والسلطان والجنون والقوة . تلك القوة المجهولة التي تجعل من الزخات الكسولة ، المترافية ، الواهية ، ساحرا آخر يفوق كل المخلوقات الصحراوية سحرا ولوئماً وذكاء . هذا السر ، هذه القدرة السحرية هي التي تنبت الارض الميتة عشبا ، وتبدع في الصحراء الحياة .

ولكن الرعاة الكسالي يصرّون على تعميم البلاء ، ويرددون في مجالسهم أن المطر خرافة انقطعت كما انقطعت خرافات كثيرة في الصحراء . فهل يصدقهم ؟ هل يقتنع بأكذوبة الجدب ويكتذب مسلكاً عرفه في الصحراء أكثر من رعاة كل الصحاري ؟ هل ير肯 الى التراب ويستسلم لليلأس فيخالف وصية آنهي التي أخبرت الأجيال أن قدرها هو الرحيل ، والموت سيحل مع اليوم الذي يتوقف فيه عن السفر

لبني بيتاً أو كوخاً أو يركن إلى أرض مكتفياً بالاسترخاء ، قانعاً
بامتصاص حبات لنوى تلقاها صدقة من أرباب العبودية في الواحات ؟
عرف غزلاناً عجيبة لها طبائع ذكرته بمسلك هؤلاء الرعاعة . تتجمع في
قطعان ، تعتصم بوديان جدباء لتخذ من الحشائش الميّة والعليق اليابس
معاشاً طوال مواسم الجفاف ظناً منها أن البلاء عمّ ، والجدب شمل
الصحراء ، في حين ترتع قطعان آخر في بساتين من العشب الأخضر ،
في الوادي المجاور الذي فاض بسيول السحب العابرة مراراً خلال العام .
لكن الغزلان التي تحمل مزاج الصحراء وسرّ المطر تهلك إذا لم
تستكشف ولم تستطلع . وهي لن تستكشف ولن تستطلع إذا لم تهاجر .
فإذا لم تهاجر خانت الوصية الأولى في الشرع ، وحكمت على نفسها
بالموت . فمن آمن بالحُمُول واتخذ من الاستقرار إليها كفر بالناموس
القديم ونال قصاص الصحراء . سحرة القبيلة نالوا هذا القصاص منذ أن
جمعوا القبيلة في نجوع ، وانتظروا أن يأتيهم العابرون والأشباح بأخبار
المن السماوي . استسلموا للأرض وتوقعوا البشائر من الجن المتنكرين في
ثياب المسافرين وتجار القوافل . استقرّوا ، فوجد الجن فرصة لهم في
الانتقام من الاعداء القدامي . نقلوا لهم الأخبار الكاذبة زاعمين أن
الجدب عمّ ، والجفاف لعنة شملت كل الحمادة ، كل الصحراء .
الاستقرار سُمّ عقول السحرة كما سُمّ أبدانهم ، فصدقوا الأكذوبة ،
وتجادلوا حول النبوءات ، وترافقوا بصحائف العظام ، وكفروا بدين

الهجرة، وخلّوا العهد القديم . تخلت عنهم « تانيت » كما تخلّى عنهم الاسلاف من قبلها فاستولى عليهم « وانتهيط » وحده . ولم يكن صعبا على وانتهيط أن يقلب السحر على السحره ويحوّل هؤلاء المردة الى مخلوقات بائسة لا حول لها بعد أن زين لهم الخمول ورضوا بالاستقرار وطنا . استدرجهم كي يخونوا شريعة الاسلاف والصحراء وتانيت . وانتهيط صنع الفتنة وقادهم الى الفخ ثم تخلّى عنهم عندما جاء يوم الحساب وبدأ الاحتجاب .

فالسّحر الذي يتحصن به سحرة القبيلة ويستمدون منه قوتهم وحكمتهم يتخلّى عنهم حالما يتخلّون عن شرع السّحر . وإذا تخلّى السحر عن الساحر خسر الرّهان مهما أدعى البطولة بعد ذلك بالذهب للاحتجاب في الخبراء . حاكوا الغزلان البلهاء وحبسوا أنفسهم في زاوية شقية من الصحراء الواسعة . رهنوا رقابهم في ركن مظلم من اركان التقاطع الأربع ، ولم يجدوا في انفسهم الشجاعة كي يصنعوا من التمية افقاً الهياً يحتوي الصحراء كلها عندما يتحرّك ، بمشيئة الريح ، ويسبح في فلك الملوك الصحراوي الحالد .

(٣)

سافر جنوبا . بعد أيام نزل الواحة . ادرار . تتخفي خلف الجبال الزرق ، تختفي بالسلسلة الجليلة فرعاً من بطش عدو ابدى استعمالاً بالقبلي يوماً كي يمسخ الفردوس الأول ، ويحوّل واو الكبرى الى صحراء

هذه الساحرة التي تهب من مكان مجهول في الجنوب الاقصى، بسرعة الجنّ ، ومرونة الحياة ، وفتنة الانثى ، وسحر التّبر . تغوي الارض فتستسلم لها ، تغوي الجبال فتنحنن وتتركع ، تهدّد الكائنات بنعومة الحسناء ، فإذا أطمأن الفردوس الوديع ، بدأت تبتعد الحيلة وتسجح خيوط المكيدة : تغمر الأنهر والآبار وعيون الماء بأكdas من حبيبات التّبر . تنزل الى الاعماق السفلى وتنقص النداوة وتنزع الحياة عن الجذور . تستغيث اشجار النخل وتولول حقول الحنطة والشعير . تصعد المرتفعات وتتدفن الروابي وتطاول الى اليابس في الجبال . تقرع الطبول وتبتعد رقصة لعواً . فإذا انخدعت الجبال النبيلة وأخذها الغناء ، وجدت الافرعان الذهبي يلتف حول رقبتها بمرونة الحياة وفتنة النساء . ولكن الجبال المأخوذة بسحر التّبر لا تقاوم طويلاً . تنهار وتتركع وتنسى الكبراء . تترنّح في الوحل وتخنق بالتراب والهباء . لحظتها تبتعد السماء عن الأرض رعاً ، وتأخذ معها أمطارها السخية .

بهذه المكيدة قضت الرملة على الفردوس الأول وابتلت « واو الكبرى ». واو التي نسيتها الأجيال ولم تعد تذكر من اسمها القديم سوى صفة بائسة ملحقة بالاسم الزائل : « الكبرى ». في حين احتلت « الصحراء » الاسم كما استولت قبلها على الوطن الجيد نفسه . على انقضاض هذه المملكة النبيلة ، على تخوم فردوس ما زال ينام في احشاء

الارض ، قامت واحات هنا وهناك . تغذيها عيون تستمد مياهها من ينابيع واو الأصيلة ، يتکاًكأ عليها الفلاحون كل عام ليحفروها ، ويعمّقونها ، ويزيحوها أکوام التّبر اللثيم ، خوفا من ان تنتصر الجبال الرملية التي تطوقها من جهات ثلات (الجنوبيّة ، الغربيّة ، الشرقيّة) فتخنقها وتطرمرها كما طمرت ينابيع واو القديمة . ولم يتنفس الأهالي البؤس الا عندما دخلت النخلة طرفا في العراك مع الريح . اوقفت الشجرة النبيلة زحف العدو ، وساعدت الفلاحين في صد حملات الرملة ومنع أستتها الشرهة من الوصول الى العيون .

آدرار أيضا أنقذت عيون الحياة من الموت ، وزرعت النخيل والبقول والخضر وحقولا من الخطة والشعير والذرة . ولم تكن خيرات الأرض وحدها سر ازدهار الواحة ، ولكن موقعها المتاخم لجبل الحمادة من الشمال جذب لها القوافل المتوجهة الى بلدان الادغال طلبا للتّبر والعبيد ، وساق اليها التجار العائدين الى ممالك الشمال محمّلين بقوافل الكنوز وجيوش من الأسرى الماليلك . في آدرار يتزودون بزادهم من الماء والمؤن ، يتبادلون البضائع ، يقايسون العبيد بالسلع ، أو يشترون رؤوس الاغنام أو أكياس القمح أو أكيال التمر مقابل التّبر أو العاج أو رؤوس العبيد .

هذا السحر المتخفي في التبادل ، هذه المعجزة التي تبتعد عنها المقايسة ، هذه القدرة التي لم تخلقها حرفه مثل حرفه التجارة ، هي

السر الذي صنع من ادرار ملتقى القوافل ، وجعل من واحة منفية ، مهدّدة بالرملة ، حتى أنها تبدو في ذلك الحضيض بلا أمل في النجاة ، حرما مقدسا يترى بزيارته كل من أراد أن يجرّب حظه يوما وسلك طريق الصحراء بحثا عن الثروة وطلبا لكنوز الذهب . وحيثما انتعشت التجارة ، وعلا صيت المقايسة ، وفاحت رائحة الذهب ، هرع السحرة واقاموا لانفسهم سوقا لصهر الاختلاط واستخلاص المعادن ، وتقديم الحديد . كان سوقهم شرط مكمّل للسوق التجاري الكبير ، سوق الحياة ، حيث تباع ارواح الناس وتتملك ، كما تباع أكياس التبن وتتملك . ويقول الحدادون أن التجارة ستنتكس ، والافلاس سوف يصيب اغنى التجار ، والتبر سيتفسخ الى رماد ، ويعود الى أصله ، اذا لم يتحصن هذا النوع بسوق آخر ، بتسمية أخرى ، من اختلاط المعادن ، وقوة الحديد . والنار التي يصهر بها الحدادون الحديد والنحاس والمعادن في الأفران هي التي تخيف الجن وتأكل المردة الذين يطاردون القوافل لاسترداد ثرواتهم المنهوبة .

أحد هؤلاء السحرة الخبائث قال له أن التجار الحكماء وحدهم ادر كوا سر المعدن ، واعترفوا بقدرته على حماية حمولات التبر . فلا يشتروا الهباء المسوس الا اذا أحاطوا الاكياس بسلسل مخيفة من حديد الحدادين . ولم تصل حمولة من كنوز الصحراء والا دجال الي ممالك الشمال اذا لم تتحصن بحرز من سلاسل الحديد . أما التجار

البلهاء الذين يدخلون القارة بروح الغزاة معتمدين على مواهبهم ، متباهين بقوتهم ، فانهم يقعون في الفخّ اذ يغفلون عن تحصين الذهب بأغلال الحديد ، فيسلط عليهم الجنّ الحيات والافاعي ، أو يسخر لهم مردة في لباس اللصوص ، أو قطاع الطرق ، ليقضوا على القافلة . وقد يتولى الجنّ الأمر بنفسه فيأتיהם في أمواج العجاج ، أو يعترض طريقهم برياح القبلي ، ليضيعوا ويموتوا عطشا . ولا يكفّ أهل الظلمات عن ابتداع الحيل حتى يصلوا الى ثروتهم ويستردوا كنوزهم . في النهاية ضحك الحداد الساحر واضاف: «هؤلاء البلهاء يظنّون اننا نحرّض الجن لنروّج لبضاعتنا . أنا أعرف أنني اخترع حيلاً كثيرة كي أروج لبضاعتي أيضاً . اذ من منا لا يروج لبضاعته؟ ولكن البلهاء لا يصدقوننا الا عندما يخسرون بضائعهم . عندها يكون الاولان قد فات ، لأن التاجر الذي فقد صفة العمر لا يجني التعب وحده ، ولكنه يخسر حياته أيضاً مع بضاعته» . كان ساحراً ببشرة نحاسية في الأيام التي لا يقترب فيها من النار ، ولكن بشرته تتشرب عتمة قاتمة ، وتستغير لون القصدier اذا خرج للتوّ من مغارته التي يخفى فيها فرن السّحرى . استضافه في زيارته الأولى للواحة عندما كان يزاول الرعي في الحمادة ، وسافر ماراً للبحث عن الابل الضالة ، وتزود من ادرار الماء والتمر والشعير . في زيارة الثانية جاء له من الحمادة بالترفاس المحفف وشاة غزال مقدّدة . وجاءه اليوم كي يساعدته للحصول على الصحراء في الافق المستدير .

جاءه كي يجعل من العلامة القاسية كرة طبيعة ، كي يجد حيلة تنهى اغتراب الاركان ، وتدمجها في كوكب له حنان الأفق في الحمادة ، ودفء الصحراء في وعدها بالماء . ضحك الساحر العجوز وداعبه : «لا أعرف ماذا كتم ستفعلون لو لم نأخذ لكم من الأرض سراً ، ارهبتم به عدوكم ، ونصركم على سكان الظلمات ». دخل الى كهفه المحفور في حضيض جبل يتوسط الواحة ، يتسلقه الاهالي بالبنيان ، ويتخذ الحدادون اسافله أحافير لأفرانهم السحرية . مكث في الدهلiz ومضات ، وعاد من هناك برواية المعدن الذي قهر الجن . غسل يديه في فم الكهف ، اشعل نارا ، أعدّ له كوبا من الاعشاب البرية ، ثم اشتكي طويلا من القيظ والذباب ووحشة الحياة في الواحات . ثم شاء أن يسليه على طريقة النبلاء الحكماء الذين يسامرون الضيوف الأكابر بأساطير الأولين ومخامرات القدماء . روى له كيف أحتر الأسلاف في مقاومة الجن قبل اكتشاف الحديد . كانوا يرعبونهم ويتبدّون لهم في أجسام الغيلان وأبدان السعالى ، يفزعون قوافلهم ، ينهبون الأبل من الرعاة ، يهشونها في غفلة من المسافرين ، ليتركوا اصحابها ضحايا تحت رحمة العطش في خلاء حال من الآبار . يتسللون الى البيوت ليخطفوا اولادهم ليتخدوا منهم عبيدا ، أو يسرقون بناتهم ليزفوهن للازواج المردة ، أو يهبوهن لملوكهم قربانا وزلفى ، ليجدن انفسهن محظيات بائسات في حريم من الجنـيات الفاتنـات . شنوا عليهم الغارات ، ونشبت

بينهم الحروب . توقف الخداد عند الغزوات طويلا . وقال أن ليس هناك بلوى مثل أن تحارب عدواً مجهولاً يحتمي بالخفاء . ومن حسن حظ الجنّ أن الهراءات والأدوات الحجرية هي الأسلحة الوحيدة التي كانت تستعمل في قتال ذلك الزمان . لأن الاهتداء إلى اختراع الأسلحة المصنوعة من النحاس أو الحديد أو أخلاط المعادن هو الذي ارعب الجنّ ووضع النهاية لسلطانهم على الصحراء . وعله من المدهش أن يتسبّب فنّ نبيل ولا غنى عنه لأهل الصحراء مثل الغناء في خسائر في الأرواح فاقت تلك الخسائر التي كان الأجداد يمنون بها في ساحات القتال . تناقلت الأجيال أن لا نهاية لصحراوي ادركه «آجولل» . فما أن ترتفع الأصوات بالألحان الشجانية ، وتقرع الطبول التي تجاري الواقع ، حتى تشتعل صدور الفتيان بنار الوجد ، ويتبّس الكلّ الجنّ . يصابون بالبكّم ، تحرق ابدانهم الحمّى ، يرتجفون كالسعف ، تغيب أبصارهم وراء الأفق ، تفتشر عن المجهول في الفراغ ، يظلون مشدوهين ، وحمرة مثل شفق المغيب تزحف على البياض في عيونهم ، تضيق أنفاسهم وتضيق ، تنحل عقد عماماتهم فينحسر اللثام عن الرؤوس ، عن الأنوف ، عن الشفاه المنفرجة التي يفز منها زبد كثيف كالجمال القريبة في موسم الربيع . في العيون يتبدل الانشداء ويتحول إلى ألم ، ففجيعة . تشتد الرجفة وتشتد، ثم .. يسقطون أرضاً ، يتلوّون على التراب كالافاعي ، قبل أن تتخلّى الشعلة المقدسة عن كوز الطين ، تفرّ إلى الخفاء ، وتهجر مأواها

الى الأبد . وكان كل من وقع في «آجولل» من الفتىـن النباء خسرته القبيلة وعدته مفقودا . وبرغم عشق الشبان للغناء الا ان الجن سمه وجعل من ارتياـد حلقات السـمـر الليلية مجازفة كبيرة . وكما رجع الفضل للسـحـرة في اكتشاف اسرار الحياة في الصحراء ، فانهم كانوا اول من صنع التـميـمة عندما اختـرـعوا سـكـينا من حـديـد . ويرـوـى أنـذـلكـ حدـثـ بـمحـضـ المـصادـفـةـ . اـذـ لـاحـظـ كـبـيرـ السـحـرـةـ أـنـ الشـبـانـ المـمـسوـسـينـ الـذـيـنـ يـسـقطـونـ فـوـقـ حـجـارـةـ الصـوـانـ يـعـانـدـونـ الموـتـ زـمـنـاـ أـطـوـلـ . بلـ أـنـهـ لـاـ يـهـجـرـونـ أـوـ عـيـتـهـمـ إـلـاـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـاتـ التـيـ يـهـبـ فـيـهاـ الـآـخـرـونـ لـابـعـادـ الـحـجـارـةـ بـقـصـدـ مـسـاعـدـتـهـمـ . فـمـاـ كـانـ مـنـهـمـ إـلـاـ جـمـعـواـ حـجـارـةـ الـجـبـالـ الزـرـقـ وـحـرـقـوـهـاـ فـيـ موـاـقـدـ هـائـلـةـ لـيـسـخـلـصـوـاـ مـنـهـاـ السـرـ الـذـيـ أـرـهـبـ الـجـنـ . وـقـدـ جـرـبـوـاـ التـمـيـمةـ عـلـىـ رـقـابـ الشـبـانـ المـصـابـيـنـ بـمـسـ جـنـ جـاءـهـمـ عـنـ طـرـيقـ الـغـنـاءـ ، فـوـجـدـوـاـ أـنـ جـرـ المـدـيـةـ الـحـدـيدـيـةـ عـلـىـ جـسـدـ الـمـشـدـوـهـ يـنـحـرـ أـهـلـ الـخـفـاءـ ، فـيـشـفـيـ الـمـصـابـ ، وـيـقـفـزـ إـلـىـ حـلـقـةـ الـغـنـاءـ وـهـوـ يـحـجـلـ وـيـرـقـصـ وـيـتـمـاـيلـ مـعـ النـفـمـ . وـأـنـتـهـىـ صـدـيقـهـ السـاحـرـ ، فـيـ مـلـحـمـةـ الـتـبـاهـيـ بـمـهـنـتـهـ ، إـلـىـ القـوـلـ أـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـخـيـلـ حـيـاةـ الـصـحـراءـ دـوـنـ مـدـيـةـ ، أـوـ سـكـينـ ، أـوـ رـمـحـ ، أـوـ سـيفـ ، حـيـثـ تـسـتـطـيـعـ أـغـنـيـةـ شـجـيـةـ وـاحـدـةـ أـنـ تـسـلـطـ عـلـيـهـ عـدـدـاـ مـنـ الـجـنـ يـكـفـيـ لـيـأـخـذـوـهـ مـعـهـمـ إـلـىـ الـظـلـمـاتـ فـيـ غـمـضـةـ عـيـنـ . أـخـيـراـ ضـحـكـ كـعـادـتـهـ وـاخـتـمـ مـلـحـمـتـهـ الشـقـيـةـ مـدـاعـبـاـ : «عـلـيـكـ أـنـ تـحـمـدـ إـلـهـةـ تـانـيـتـ التـيـ حـالـتـ دـوـنـ أـنـ تـولـدـ فـيـ ذـلـكـ الـزـمـانـ الـذـيـ كـانـ

فيه الشباب النبيل يتمنى أن يقترب بالحسناً التي تعشق الغناء خوفاً على نفسه من المصير البائس » ، هنا وجد جبارين الوقت مناسباً كي يطرح عرضه على صديقه القديم . أخرج له مديته ووضع أمامه سيفه ، وطلب من الحداد الساحر أن يحيط شعار تانية المقاطع ، عند المقبض ، بحلقة من النحاس . وضع أمامه احتجبته أيضاً ليحفر على جلدتها التميمة بنار السّحر . ثم طلب منه أن يعد له حصناً مربع الاركان محشورة في أفق مقفل . نفس الحصن الذي رأه في الحلم ، وووجهه مرسوماً في الصباح بدبيب النمل على كوم الرمل . ابتسم الساحر قبل أن يتم : « لا أعرف ماذا كنتم ستفعلون لو لم تأخذ لكم من الأرض سراً ، ارهبتم به عدوكم ، ونصركم على سكان الظلمات » .

(٤)

اجتاز الحزام الخيف الذي أقامته الرملة لتطوق الواحة من الجنوب . في وادي الآجال أقام أمداً كافياً كي يعيد لناقته العجفاء عافيتها بكلأ غابات الطلح . ففي الصحراء الوسطى حرق نيران القبلى الأرض منذ الأزل ، ولم تغلبه سوى شجرتين: النخلة والطلحة . ويرجع الحكماء والسحرة القدماء سبب صمود الشجرتين إلى مياه البحيرة السفلية التي قامت على ضفافها حضارة واو الكجرى ، وطمرها ريح الجنوب مستعيناً بالرمل اللعوب . ولكن ارادة الصحراء، ارادة الحياة في الصحراء ، غالبت الرمل ، غلبت جنون القبلى ، واختارت أن تبقى الشجرتين على

قيد الحياة ، لأن حكمة وطن الرؤى السماوية رأت ، بعقلها الخفي ، أن النخلة ليست مصدراً لرزق أهالي الواحات وحسب ، ولكنها شجرة على الأهالي أن يبعدوها ويعرفوا بقداستها لأنها العنصر الوحيد الذي يقاوم زحف الرملة ، ويحمي الواحات من غول الزوال . وإذا كانت النخلة هي الشجرة التي اختارت بها الصحراء وحملتها سرّ الحياة في الواحات ، فإن الطلعنة هي الشجرة التي نالت القدرة على التحمل والصبر على العطش في المراعي ، فحملت القطعان من الهلاك وانقذت الرعاة من الموت جوعاً . ولا تخلو ملحمة واحدة من الملاحم الشعرية الكثيرة التي تناقلتها أجيال الصحراويين منذ القدم من أبيات تتدحر الطلعنة وتتجدد النخلة وتؤكد أن في الشجرتين يكمن سرّ الحياة في الصحراء . ولا يستطيع الصحراويون أن ينسوا ماتوارثوه ، منذ الأزل ، من نبوءات يقول أن زوال النخل وانقطاع الطلعنة من القارة هو العلامة على قيام الساعة .

وعندما بلغ جبارين وادي الآجال ورأى الاقنعة الخضراء وهي تلف رؤوس الطلعنة أيقن أن الحياة لم تنتقطع من الصحراء ، والهول الذي تحدث الرعاة عن شموله هو خرافه زينها لهم « وانتهيط » اللعين كي يشددهم إلى الفناء كما يشد الغباء الغزلان الشقية إلى الوديان الجدباء . أيقن أيضاً أن الأسلاف كانوا حكماء عندما سنوا شريعة الهجرة وجعلوا من العبور عرفاً لكل من آثر المقام في وطن الرؤى السماوية . وصدق

الأخبار التي يرددوها الخبرون بمسلك الرمل ، العليمون بطبيعة الصحراء، عندما نبهوا الأم الى قدرة الزمل في حماية النداوة ، وكفاءة الذرات القدرة في الاحتفاظ بالماء مخزنا في الاعماق .

في الوادي المحسور بين الماردين المتعادين ، الرملي من الغرب ، والجلبي من الشرق ، ترك الناقة ترتع في غابة ، جعلتها الأرض السخية ذخرا الكل من يش و جاء طلبا للنجدة ، وتطاول في شريط جبلي حزين نبتت في سفوحه قبور الاولين كدمامل خرافية وامتدت يد المغامرين الاشقياء والطامعين فنبشتها بحثاً عن الكنوز ، فبقيت افواهها فاغرة ، تدين الطمع والطامعين ، وتشهد بحضارات نال منها الزمان فزالت ، ولم يبق منها سوى الدمامل الحجرية المفتوحة ، ورموز بـ «تيفيناغ» اختطفتها على الصخور أجيال ترفض الزوال وترى أن الانسان يقدر أن يقهر الموت ، اذا حفر اسمه على الجدار الصخري ، أو سطّر حكمة بجوار قطuan الودآن ، مقدما ، بذلك برهاناً يثبت به للأجيال أنه عاش يوما، وارتكب الخطيئة باصطياد الودآن المقدس ، لأنه انسان . والانسان لا بد أن يأكل إلهه عندما يجوع .

في وادي الأجال والأجيال استقبل جبارين رُسل وانتهيط . جاء الجن المسخرون متذكرين مرة بشباب الرعاة ، ومرتين متذكرين في اثواب النباء . قالوا له أن «مساك ملت» فازت بالسيول ، وكل الانظار تتجه الآن الى المشرق ، لأن السيول المزعومة ستتجعل من تلك الارض جنة

في القريب . ولكن جبارين لم يقع في الشرك الذي وقع فيه سحرة القبيلة عندما قبلوا أن يركنوا للأرض ويتسقطوا أخبار المطر من العابرين المزيفين ، من اشباح الجن المتذكرين في مسوح المهاجرين والتجار وعابري السبيل . ذهب الى ناقته وحدثها طويلا عن حيل وانهيط ومكائد الجن ، ثم اخبرها أنه سيحتكم الى فراستها ، فهي أكثر علما من كل قبائل الجن ، وكل سلالات الانس ، أين سقط المطر . حل الوثاق ، وحرر ساقيها من القيد . انطلقت غربا بدل أن تتجه شرقا . ابتسم وهو يراها تسلك الطريق المعاكس وأيقن أن خبر هطول الأمطار في «مساك» ما هو الا مكيدة من مكائد أهل الخفاء . تبعها على قدميه مسافة طويلة قبل أن يتأكد أن الدابة الحكيمية جادة في خيارها . لحق بها عند سفوح الرملة ، أحكم فيها اللجام وأعادها بالقوة الى الموقع . أعاد التجربة ثلاث مرات ، ولكن الناقة لم تختر اتجاهها آخر ، ولم تتراجع . ثبت عليها السرج ، وحملّها المتع ، وارخي لها العنان . وقفت بكبرياته . تابعت امتداد الخلاء الموجع الذي يتواتد ويتواصل في أفق قاس يغمره السراب . انشقت لسكون الظهيرة في وجوم المصلين ، تلتقط الوحي المقدس في آنين السكون . تفتش عن النداوة في هواء القيلولة الميت . ولكن ركود نسيم القيلولة لم يخدعها ، لأنها تلقت النداء الخفي بحسنة اخرى ضربت صدرها بخفتها كأنها تطرد الذباب للجوج ، ثم لبت النداء وتحركت غرباً ، نحو آزرجر .

Twitter: @alqareah

٤- الوطن

«لقد كانت الصحراء دائماً وطن الرؤى السماوية»

روبرت موزيل

«انسان بدون خصال»

(١)

كانا يستلقيان باسترخاء تحت الطلحة . استرخاء يختلف عن الاسترخاء الذي يعقب التعب ، أو الاسترخاء الذي يملئه الحر ، واعتقد الصحراويون ان يمارسوه في القيلولة ، ولكنهما استسلما لاسترخاء آخر لا يعرفه الا من اعتزل في الخلاء طويلا ، وتعلم أن يتصنّت في السكون ، ينزل ضيفا على قبائل الخفاء ليخاطب الرؤى السماوية بلغة المجهول . استرخاء السحرة عندما يجتازون البرازخ ، ليطوفوا السماوات والأرض . يخترقون أبدان الخلق ، يدخلون في الأشياء ، مستعينين بسلطان اللحون .

جبارين رفض الالهام ، وكبت الغيبة ، الا أن حمى الاستهلال ،
قشريرة البدء ، وحدها تكفي لصرعه ، ورميه بالتعب أياما .

لم يواصل المسير في العشية ، لأن اغنية بورو عن « الارض اذا
تبسم ..» اختلست منها الزمن ، أو جعلت الزمن يختلسها من
آلون ، ومن الصحراء كلها ، فهو وحده القادر على أن يطوف المجهول
في رمشة ، بنفس الموهبة ، وبنفس السرعة ، التي يخطف بها الحياة من
الظلال التي تتسع في الصحراء وتتقلّل كاهل الارض . حتى اذا عادا
(بورو وجبارين) الى نقطة الانطلاق ، الى آلون العظيم ، و جداً أن

الليلة قد مضت ، والعشية انقضت ، وميعاد الغداء قد فات ، ولم يبق من اليوم سوى الغسق ، فقررا ، دون أن يتفاهما بلغة ، أن يقضيا ليلاًهما تحت الطلحة . فهجموا ، وتلذّذا بالاسترخاء ، وراقبا السماء العارية ، وانصتا للسكون الذي عجزت كل اللغات ، بما في ذلك لغة السحرة ، لغات الجن جيّعا ، أن تكشف سرّه ، أو تفك له رمزا ، لقد شاء الناموس أن يرفعه فوق لغة الخلق ويجعله خارج الكلام ، ليصبح التعبير عنه مستحيلا ، وتفسيره اعجازا . فورد في ميراث الصحراويين (نقلًا عن الكتاب الضائع) أن الصحراوي لا يملك أزاء السكون إلا أن يتصنّت ، ويشهد شجنا .

في هذا الوقت ، وقت الغسق الذي تخرج فيه أشرار الجنّ من الكهوف ، وتسعى في الصحراء ، سمع بورو الدمدمة ، في حين لم يسمع جبارين سوى الأنين المقدس ، الموجع ، الذي ينزل إلى الحضيض فيستحيل بكائنة فاجعة ، ثم يعود فيسمو ويسمو ، ليتحول ، بالتدريج ، إلى لحن شجي لن يصدر إلا من حناجر أهل الرؤى . لم يكن يسيرا على من لم يعش في آزجر ، ولم يخبر شعاب « آلون » العظيم ، أن يلقط النشار في لحن الصمت ، في أغنية السكون المقدس . ولكن الخلل ، في موآل الموئل ، لم يفت بورو ، فقفز جانبا كمن لدغته حية ، زحف على ركبتيه ويديه ، قبل أن ينكفئ على وجهه ، ويلصق أذنيه بالتراب . أغمض عينيه امعانا في التركيز ، وتسخيرا للحواس الأخرى ،

لتصرير كلّها ، آذانا صاغية . تابعه جبارين وهو ينكفي على وجهه لا ليشم الصحراء كما تفعل السماء في نقطة التلاقي ، ولكن كي يعطيها أذنه ، ويسمع من فمها الخبر اليقين . فوق كفيه المغروستين في الرمل رأى النمل . كان الجندي يتلاحقون في طابور عنيد ، بعد أن شقوا طريقاً يتحلق حول الطلحة ليصنع دائرة ذكررت جبارين بقبيلة النمل التي وجد نفسه يتوسّدها في الحمادة قبيل النزوح إلى الجنوب . حركة بورو اربكت طابور الجندي ورأوا فيها عدواًانا من قبائل العمالقة ، خرقت خطوطهم الامامية ، فتادوا ، تراكموا ، تصايحو ، وهم ينفحون مزامير الخطر ، ويقرعون طبول النفير . صعدوا كف العملاق ، عملوا فيها عضاؤنهما ، ليصدّوا المعتمدي ، ويصلوا الفيالق الخلفية بالخطوط الامامية . ولكن العملاق واصل ركعته . ولم يرفع رأسه إلا بعد أن سمع جبارين الدمدمة بالأذن المجردة . دمدمة مكتومة ، خفية ، تلوح بوعد يهدد السكون ، يتلع نداء الأبدية . لقد داست على القدس ، وقهرت الجلال ، وهتك السرّ ، فولول السكون مودعا . ناح قبل أن يتراجع إلى وطن الغموض والحلم والرؤى .

اقربت الدمدمة . اقبل الهدير ، وصل الجلمود الذي ساقه السيل من أعلى الوادي . فأين تجمعت السحب ؟ ومتى سقطت الامطار ؟ أيكون النسيم البحري هو الذي أسال الأعلى الجبلية ؟ أيكون الصحراء قد احتمكت إلى مسلكها القديم عندما يقرر القدر أن يهلك بيدها

القبائل ؟ ألم يرث أهل الصحراء التحذير من « آنهى » في النبوة
الضائعة التي تقول أن عليهم أن يحترسوا من غدر ثلات : جمل هائج ،
عبد حاقد ، وسيل لا يعرف متى موعده ؟

هب جارين واقفا . توّب للانطلاق الى حاشية الوادي ، ولكن
الخوف من العار جعله يتمهّل . رمق بورو فلم ير في عينيه تعبيراً ينذر
بالسيل . في مقلتيه لمع تعبير آخر . قلق ؟ فضول ؟ وجد الغيوبة ؟ بلى .
انه أقرب الى الوميض الذي يسبق سقوط المجنوين الذين صرعتهم
اللّحون ، ولكن في المقتلين لم يلمع الخطر يقيناً . وقف بورو . التفت
يمينا ، ثم يسارا . علا صوت الهدير . اقتربت الدمدمة أكثر . تكلّم بورو
أخيراً :

– أمغار !

– ما تنيّد ؟ *

– بوشا !

– لا أفهم ..

جاوبه بغمضة ضاعت في الدمدمة . هبت العجاجة في تلك
الغمضة . لم تهُب هبوب الريح ، ولكن ذيل المطية ، مطية الجن ،
ومركوب اهل الخفاء ، ارتفع الى السماء ، وحجب شعبة الجبل التي تند

* ماتنيد : ماذا قلت ؟ (غمايق).

طوراً مستطيلاً يحرس «آلون» من الجنوب . وفي جوفها، في جوف الغبار المارد ، تخفّي الرعد ، اختبأ غول حاول ان يكتم دمدمته . وفي نفس الومضة التي فز فيها جبارين ، ليتنحّى جانبًا ، ويهرّب من وجه المطية المشتمة ، أصيب بالعماء ، قبل أن يتلقّى الصدمة الموجعة التي صرعته أرضاً. ويبدو أن الارتباك جعله يقفز في الاتجاه المعاكس ، نحو المركبة ، بدل أن يتنحّى شماليًا ، أو يستسلم للوادي ، ويجري شماليًا نحو المجرى كما فعل بورو ، فارتطم بجسم المارد الذي يقود المطية بسرعة الجن ، ويستتر بالغبار . في البداية استنشق حفنة من التراب ، من الغبار ، ثم انهالت عليه العجاجة بحبّيات الرمل فرأى نفسه في سحابة قانية . بعد السّتار القاني نزلت في مقلتيه الظلمة والدموع ، و.. تلقّى الصدمة .

والحق أنه لم يتيقّن ، حتى بعد مضي سنوات على الحادث ، عمّا إذا كان قد تلقّى صدمة حقاً ، لأنّه لم يعد يذكر شيئاً منذ الومضة الصاعقة التي وجد فيها نفسه في الظلمة . بورو قال أنه لا بد أن يكون قد فقد الوعي ، لأنّه لم يحدث مخلوق في الصحراء أن شاهد آمغار دون أن يصاب قبلها بالغيبوبة . وقال أيضاً أنها غيبة لا تختلف عن تلك التي يصاب بها عشاق الغناء عندما يمسّهم سلطان اللّوحون . ولكن ما يذكره، ولن ينساه أبداً ، أنه أحسّ بسعادة عجز عن وصفها باللغة ، ولا يستطيع إذا استعاد ذكرها إلا أن يرتجف ويقفز من عينيه الدمع . أرجع السبب إلى الجن . فلم يفت السّحرة أن يوكدوا دائمًا أنّ الإنسان لا يلاقى أهل

الخفاء الا اذا استغفلوه في نوم أو أماتوه بصدمة يعود بعدها الى الوعي ، أو اغماءة ، او غيوبه الوجد ، او اذا تستروا بلباس أهل الصحراء وتبدوا بشباب الانس . وهم يفعلون ذلك شفقة على المخلوق من فزع ربما ذهب به الى الابد . كيف تحتمل الظلال الشقية التي تشق كاهل الارض لقاء مخلوقات تصاب بالدوار والصداع والحمى اذا اشتمت لها رائحة ، وتشتعل ابدانها بالقشعريرة اذا صادفتها في الطريق مجرد المصادفة ؟ كيف يحتمل الانسان لقاء الجن اذا لم يتبدّ ، ويتنكر في اسمال الرعاة ، ومسوح العابرين ؟ فالانسان يلفظ انفاس الحياة اذا التقى الجن وجها لوجه ، مع توفر شرط العلم المسبق بصفته الرهيبة ، ليس لجبن في نفسه ، ولكن لوهن زرعه الطبيعة في سلوكه وطبعه ، وذلك لسبب الاختلاف الحاصل بين النار والطين .

هكذا يقول السحرة الاولئ .

ولكن السعادة الغامضة بقيت سرّاً لم يجد له جبارين تفسيرا حتى في وصايا السحرة القدامي . فاثر أن يخفيه حتى أصبح سراً من أسراره مع توالي الأيام ، فيسعد باستعادة الساعة الجيدة ما أن يخلو الى نفسه ويكتسب ، فلا يلبث أن يتھج ويتمتع ويتبدل .

أصبح السرّ رقية لها مفعول المماويل الشجانية .

وبرغم أنه لم يشعر بالسقطة ، الا أن اليقين أيضا أنه لم يغب طويلا. فما أن عاد ، ووجد نفسه تحت أكمة أقامتها شجرة أثيل هرمة ، حتى رأى العمود الرملي يزحف في دورة لولبية حبيبة عبر الوادي ، رأسه في السماء ، وذيله على الأرض ، وبورو يسبح في موج الغبار ، يغيب ، ثم يظهر ، كأن المارد المتخفي في العجاجة يشده من يده ليأخذه بعيدا ، إلى المجهول . بذل جهدا بطوليا كي ينهض على قدميه . وبرغم أنه لم يفهم ما حدث حتى تلك اللحظة ، الا أن الدوار جعله يحس أنه لم ينج من الغيوبة تماما . كان رأسه يتحطم بالصداع ، وفمه مليء بحبسات كبيرة ، خشنة ، قاسية ، من رمل العاصفة ، والوجع يمزق مقلتيه كأنه وخز الإبر . و.. الغشيان . ترنّح وراء المطية خطوات ، ثم سقط وشرع يتقىأ بأعلى صوت . بعد ذلك غزاه الاعياء . لم يستسلم للاسترخاء ، للخدر الذي زحف على ركبتيه ويديه ، ولكن الموكب كان قد قطع مسافة طويلة عبر الوادي . وبرغم الألم في العينين الا أنه تابع آخر ذيول الغبار وهي تختفي في عمق «آلون» ، في المنعطف الذي ينكسر فيه الفجّ ، ليتراجع شرقا ، قبل أن يستدير مرة أخرى ليسمّ صوب القمم التي يتخذها الزعيم وطنا .

حاول أن يتبع امتداد الوادي في المنحنى الذي يعود فيه إلى الشمال ، ولكن البصر خذله. اشتد الوجع واحتد الوخز ، سال الدموع

ونزلت العتمة . بعد احتجاب البصر اشتد الدوار ، وعادت نوبة الغثيان
مرة أخرى .

ولكن شيئاً استوقفه في تلك الغمضة . اذ تبدى له ، وهو يغالب
الدوار والغثيان والوجاع ، شبح شاحب ، يرتدي أسمالاً دكناً
فضفاضة ، يتقنع بلثام باهت بلون التراب ، يركض بأقصى سرعة ، وقد
انحرس طرف لثامه السفلی عن فم مغمور بالزبد . ولا يستطيع جبارين
أن ينسى تلك الومضة التي تباطأ فيها الشبح فجأة حتى كاد أن يتوقف
عن الركض ، فالتفت عيناهما لقاء خاطفاً ، ولكن كان كافياً كي يرى
فيهما ذلك الخليط القاسي من الشقاء والألم والقوع والعناد البطولي
الطوبل . لاح في النظرة تردد عابر ما لبث أن تلاشى في الألق
القاسي ، ليجد أن الجنّي قد انطلق ليتحقق بركب العجاجة التي جرفت
قرنه بورو أيضاً .

بعدها انكفا على وجهه ، ولم يعرف كم مضى من الوقت ،
وعندما استيقظ وجد أن «آلون» كله يغيب في الظلمات .

(٣)

قبالته تربع بورو حول نار خالية ، يخلط الاعشاب بين وعاءين .
بجواره ، في التراب ، غاب نصل مدية نحاسية . حدس أن بورو حرّ
فوق رقبته المدية لينحر الجنّ ، ثم سمعه يتحتم : «تماغس بعد أن يسود ،

وغداً نوفنا غادس » * . اختلس اليه نظرة . قال دون أن يتوقف عن خلط الأعشاب :

– هل رأيته ؟

كان رأسه ثقيلا ، ومزاجه في أسوأ حال ، كما يحدث في الأيام التي ينام فيها أكثر مما يجب . أعاد بورو سؤاله :

– هل رأيته ؟

استفهم يصره فاوضح القرین :

– آمغار ! ألم تر آمغار ؟

رمقه بدھشة . سأل بيلاهة :

– هل تظن أن آمغار ..

قاطعه بورو وفي عينيه تلوح ابتسامة خبيثة ، الابتسامة التي تمتزج فيها شقاوة الصغار بلؤم السحراء الدهاء :

– لقد رأيته بنفسی ، بهاتين العينين . ولسته ييدي ، بهاتين اليدين . ولكن .. ها – ها ... ولكن كيف يمكنك أن تراه اذا كان قد صرعلك منذ البداية بضربة واحدة ؟

– هل تظن أنه ..

لم يكمل جملته . استدرك :

• رقية سحرية اعجمية اوردها ابن خلدون في «المقدمة» .

- حتى لو كان آمغار . حتى لو لم يكن آمغار ، فلم يكن بإمكانني
أن أراه !

استفهم بورو وهو يتناول رشفة من مشروب الأعشاب ، فاوضح

جبارين :

- كيف يمكن رؤية مخلوق يتخفّى في عجاجة ؟

ضحك بورو . عاد يسأل بنفس الخبرت :

- وبوش؟ ألم تر بوش؟ وهو يلاحق العجاج؟

-رأيته . اعترف أنّي رأيت شبحاً لمن يكون الآ بوش . شبحاً يليق
بهذا الاسم !

- ها ..

ثم رفع سبابته أمام وجهه وهدّده :

- احترس ! فهو جنّي أيضا . جدّته كانت جنية !
- جنية ؟

- نعم . يقال أنّ آكا * جدّه من أبيه كان ساحراً كبيرا . احتلس
امرأة سيدّه في « تادرارت » من جسدها واحتضاها في جدار كهف .
وعندما يغس قرينه الذي ظنّ أنها نزلت إلى « آغرم نودادن » ، ذهب

* آكا : بطل « الربة الحجرية » ، راجع « الواقع المفقودة في سيرة الجبوس » للمؤلف .

آكّا الساحر واحتلّى بها . اقترن بها وانجب منها ولداً وبنّا ..

قدم له شراب الاعشاب ، واحتفظ لنفسه بالوعاء الثاني . تناول

رشفة أخرى قبل ان يكمل :

- وبرغم جمال الجنّية الذي ينافس البدر الصحراوي ، الآأن وباء الملل عرف الطريق الى نفسه فهرب بابنه الى آزجر وترك للجنّية الابنة الانثى ، ولكن الجنّية دبرت له مكيدة جراء الخيانة ..

قاطعه عواء ذئب بعيد فتوقف عن السرد . تصنّت للشكوى الفاجعة . كفَ العواء فعم سكون . انتقل بورو من عواء الذئاب ، نداء الذئاب الغامض ، الى نداء المجهول ، نداء الاسلاف . أنصت لمحاورات الاولين ، واستجاب لمحاطبات السحرة القدامى بابتسمة ، ثم تجهم وهو يعود الى « آلون » . ترّنّح على انغام لحن خفي . زفر الاشجان مع الانفاس . بدأ يروي سيرة الساحر آكّا كأنّه يحاكي شعراء القبائل أو شاعراتها عندما يطيب السهر في ليالٍ يستوی فيها القمر ويتحول بدرًا ، ليرووا للأجيال ملاحم البطولة في الأغانى الحزينة التي يرافقها « امزاد » بالنواح .

٥- الكمين

« .. و زعموا أن التنازع والتلاقي قد يقعان بين الجن والأنس لقول الله تعالى « و شاركهم في الاموال والأولاد » ، لأن الجنيات إنما يعرضن لصراع الرجال من الانس على جهة العشق لهم و طلب السفاد ». .

أبو منصور الشعابي

« فقه اللغة » *

« يا ابني اصغ الى حكمتي . أمل أذنك الى فهمي لحفظ التدابير ، ولتحفظ شفتاك معرفة . لأن شفتني المرأة الاجنبية تقطران عسلا وحنكها أنعم من الزيت ، لكن عاقبتها مرّة كالأفستين ، حادة كسيف ذي حدين . قدمها تحدران الى الموت . خطواتها تحمسك بالهاوية ، للا تتأمل طريق الحياة تمايلت خطواتها ولا تشعر . والآن أيها البنون اسمعوا لي ولا ترتدوا عن كلمات فمي . أبعد طريقك عنها ولا تقرب الى باب بيتها . للا تعطي زهرك لآخرين ، وسينيك للقاسي . لثلا تشبع الاغراب من قوتك ، وتكون اتعابك في بيت غريب . فتوح في او اخرك عند فاء لحمك وجسمك ». .

سفر الامثال / (١١، ١: ٥) .

* اورد الشعابي العبارة دون اشارة لأي مصدر ، في حين وردت بنفس النص عند الماحظ في موسوعة « الحيوان » .

(١)

يروي الرعاء في « تادرارت » أن الطفل والطفلة اللذين انجبهما آكاما من جنّته الحسناء كانا توأمين . اختار للأثنين اسم « تانس » ، وللذكر اسم « اطلانطس » تيمناً بالحبّ الأخوي الخالد الذي مجده الأسطورة الصحراوية القديمة * . كأنَّ القدر الذي حشر الاخ والاخت في جوف واحد شاء لربطهما أن يتواصل ، وأيّ إلا أن يستمر حتى بعد خروجهما من قمم الأم إلى قمم الحياة برغم استنكار الشرائع التي ترى في مثل هذا الاقتران عدواً على الناموس ، ومخالفة منكرة لطبيعة الأشياء .

و .. لكن طبيعة الأشياء تقتضي أن ندع النهاية للنهاية ونبداً السيرة من أولها .

فبعد أن شبَّ التوأمان ، وترعرعا في الصحراء ، وأدى الأبوان واجبهما المقدس ، لم يكن أمامها إلا أن يعرفا طعم الشقاء بعد أن جربا طعم الهباء . فجاء دور وباء الملل الذي لا يجد أرضًا أكثر خصوبة من ساحة القرآن . آه .. القرآن هو القرآن . القرآن تابوت العشق . جلاد متنكر ، غول يختفي في ضياء الملك . شرك نصبه أعني السحرة ليقتل الدفء الذي يغذي القلوب ويزود الأقدمة بالأمال . قمم يكتم انفاس العشاق ، ويختنق فيه أهل الوهم وال幻 . القرآن فخ أثقنا « وانتهيط »

* الأسطورة الصحراوية القديمة : هي أسطورة « تانس » . راجع رواية « البتر » ، الرواية الأولى من رباعية « المحسف » للمؤلف .

صنعته ليستدرج البلهاء ، ليغوت عليهم فرصة الحياة . فرصة العشق الحقيقي . وعندما يكتشف العاشق الخدعة القبيحة ، ويفرّ من مكمنه ، من كهف الظلمات ، يكون الاوان قد فات .

وليس المدهش أن يقع ساحر في دهاءً آكلاً في فخٍ من افخاخ وانتهيط (وما أكثرها في الصحراء) . ولكن المدهش حقاً أن يكون آكلاً هو الذي أعدَ لنفسه هذا الفخَ ليُقْبِر نفسه مع معشوقته كل هذا الزمن ، حتى اذا تسلل اليه السم خرج من الكهف ليجد أن الحياة قد مضت في سبيل آخر ، وعليه أن يستحضر كل حيل الدهاء ، وكل مكائد السحرة ، اذا أراد أن يلحق بالموكب الجليل ليستنشق الخلاص .

هذا ما أراد آكلاً الداهية أن يفعله في ذلك اليوم الذي قصد فيه صديقه الحداد ليعدّ له العدة التي رأى أن يستخدمها في خطة الفرار .

(٢)

في الطريق الى الحداد حاور نفسه مرة أخرى . تساؤل عن السرّ ، ومخاطب نفسه بالقول أنه يعرف (كما يعرف ذلك كل الرجال العقلاء) أن أصل البلاء ليس في الشجار أو التنايز بالألقاب ، وليس لنيل الزمان من حسن المعشقة أي دور في الأمر أيضاً . كما أن الملل بريء من دم العلاقة المتصرحة ، ولكن .. يقيناً أن بعث المصاب لن يكون إلا الاشمئزاز ، اشمئزاز ملأ صدره بالقرف والغثيان والبغضاء . بلـى ، بلـى .

الاشمئزاز من الاثنى يسبب الاحساس الرذيل بالبغضاء . والبغضاء لا بد أن تدفع بالقرين يوما الى الفرار . ولكن .. هل الاشمئزاز سبب وحيد؟ أيكون الاشمئزاز سببا بائسا وليس نتيجة همجية ؟ عليه أن يعترف بشكوكه . عليه أن يتحلى بالرجولة ويعرف أن السبب الحقيقي هو رغبة قديمة ومقدسة وسوس بها صدره منذ زمن بعيد . رغبة ظلت تتململ وتهمس قائلة أن قدر الرجل الحقيقي ليس الاثنى ، ولكنه الصحراء . قدر الرجل النبيل ليس القلب في مخادع الحسان ، ولكن ساحتة الخلاء . المدى . الحرية . نعم . الحرية . هذا بالضبط ما بحث عنه . بحث عن هذه الكلمة الفتانة كقدّ الغزال ، اللعوب كلسان السراب ، الصارمة كحد السيف . ويبدو أن هذه الصرامة قد ابتلعت بقية الخصال ، فتتساها ، تتجاهلها ، وحاول أن يخدع نفسه ويميتها في قلبه طوال هذه السنوات . ولكن هيئات . فالحرية شعلة لا تنطفئ أبدا ، اذا قدح القدر شراراتها في وجдан مخلوق ، اشعلت في بدنـه اللـهـب ، ولـنـ يـنـطـفـئـ منـ قـوـادـهـ الحرـيقـ الاـ اذاـ خـرـجـ حـامـلـهاـ إـلـىـ العـراءـ الـابـديـ ، وـعـقـدـ اللـقاءـ بـالـقـبـيسـ . القبس السماوي الذي لا ينزل الى الصحراء الا في الفجر الأول ، وكتب على المخلوقات الضالة الا ترى له ضياء ، الا اذا اكتشفت في نفسها قبسا مائلا ، كنزا مائلا ، شعلة سماها سحرة المجروس « شعلة الطلب » ، وسمّاها الدّماء : « الحرية » . وهو لن يتباهى الان ويدعى الحكمة لأنه ادرك أن الرجل لا يقترب بالاثنى (حتى لو كانت

في بھاء ربته الحجرية) دون أن يكون قد فقد عقله . ضحك حتى
لامس بعمامته سنام المهرى عندما تذکر تلك السنوات التي اتھر فيها
الحمق . عندما حام حول خباء «بوخا» باكياً مستعطفاً «تامدورت» *أن
تخرج الى العراء كي تضئ له الصحراء بوجهها حتى يتمكّن من حلب
النوق . واستعاد أيضاً كيف رکع تحت قدميها الحافيتين عندما خرجت له
في تلك الليلة التي ملأ فيها الصحراء عويلاً ونواحاً . ضحك مرة أخرى
وهو يستعيد هذه الخدعة السحرية . توقف عن الضحك . استقام في
جلسته فوق السرج . رمق امتداد الخلاء بلؤم الدهاة . ثم ما لبث أن لعن
نفسه بصوت مسموع .

(٣)

مكث في ضيافة صديقه الحداد ثلاثة أيام . زوده بخريج من
الانصال الفظيعة . سكاكين حديدية ، مدى نحاسية ، أمواس مطلية
بطبقة من الفضة ، وسيوف مختلفة الاحجام . و .. مدية موسومة بتعاونيد
سحرية غامضة ، صغيرة الحجم ، مدسوسة في غمد محفور برموز أهل
الادغال . قدمها له الحداد قائلاً أنها تميمة تصلح أن يضمها الى قلادة
الرقى المعلقة في رقبته ، لأنه لاحظ أن أحد الاحجبة قد سقط بالتقادم .
ولكنه لم يضم المدية الشرسة إلى احجبة القلادة كما نصّح الصديق ،
وانما شدّها بخيط الجلد حول ذراعه ، وانفخها تحت كُم الثوب

* تامدورت : بطلة «الربة الحجرية» ، راجع «الواقع المفقودة في سيرة الم Gors» للمؤلف .

ما أن غابت ظعن الحدادين عن البصر حتى تبدّت في الأفق رؤوس أعمدة تادرارت ملفوفة في عيام زرقاء كأنها زمائّل جبابرة الخرافات . رفع عقيرته بموآل شجي فاستجاب له السراب ورقص في الأفق بقامة سماوية اللون . هبّت نسمة شمالية انتعشّت لها الصحراء ، فازاح لثامه عن فمه وسحب نفسها من مئة النسيم البحري . انتعش المزاج فرحا بالنهار المعتمل ، وامتلاًّا البدن بالحياة . الحياة التي هجرها جريا وراء العشق ، وراء الحسن ، وراء الوهم ، وراء الفخ الذي نصبه وانتهيط ، وراء الأنثى . الحياة التي أضاعها يوم وضع رقبته في قم الوهج المتوجّش ، ورهن قلبه في قمّ صنعه بأهوائه وأوهامه ووساوشه . الحياة التي داسها بقدميه ودنسها بغفلته وقايسها بالجاذبية الفارغة التي كان عليه أن يدفع حياته كلّها كي يكتشف اليوم أنها أكذوبة اختلقها « وانتهيط » اللعين كي يقتل الوهج في النفوس ، ويطفئ « شعلة الطلب » ، ويسرق من الصحراويين الحياة . ولكن الضائع لن يضيع اذا استدرك وعاد الى « أنهى ». أنهى هو الذي يبحث على العودة من منتصف الطريق ، فيقول أن الضال لن يكون ضالا اذا استدرك وتخلى عن الضلال في المنتصف . وها هو الوهج الجليل ، الشعلة التي توّمض في كلّ صدر ، تستيقظ في نفسه وتدعوه للتراجع . وها هو يرى نفسه يسعى في الارض ليصلح الخطأ . ليتمرّد على القيد ، ليحطّم السلسلة الوحشية وينجو بنفسه و ..

بذرّيّة . بلّى . بامكّان الخلاص أن يكون أهون ، والخطّة أيسّر ، والفرار أسهّل ، لو لم تعرّضه عقبة التوأمين . ففي سبييل الذريّة ، نطفة الاصل ، بذرة السلالة التي ستحمل الرسالة للأجيال ، أعد الخطّة ، وعَرض نفسه لخطر المواجهة ليس مع قرينته الجنّية وحدها ، ولكن مع قوى الخفاء التي ارتبطت بها تامدّورت بحكم الاتّماء ، وبحكم الخدعة السحرية التي استخدمها عندما استولى عليها واحتلّسها من مخدع قرينه المخدوع . فالذريّة هي العزاء في محبنة الاقتران . تانس واطلانس هما البديل ، هما العصارة التي اخذها من الصفة مقابل قربان جسيم اسمه الخلاص ، اسمه شعلة الطلب ، اسمه الحياة . تانس واطلانس في النتيجة هما الحياة نفسها ، هما حياته الضائعة ، لأنّ آنهى يعلم أن الابناء فناء الآباء . وهو لن يستعيد الحياة الآن حتى لو حدثت معجزة ، لأنّ حياته ذبحها كشاة بكماء ، سفح دمها قرباناً كي ينالاً ، هما ، الحياة بدلاً منه . حياته انتقلت اليهما وصنعت لهما الحياة . ولن يستعيدها الا اذا انقلبت التواميس ، وولّي الزمان ادباه ، واصيبت الاقدار العليا بالخلل ، ونال السماء عطب ووباء ، تقلب بموجبه الاشياء ، وتحتلّ الطبائع ، فتشرق الشمس من الغرب ، ويسيير الزمان الى الوراء ، تتناطح الكواكب ، وتتدخل البروج ، ويستحيل الشيخ رضيّعا ، ويتهقر الرضيع ويعود نطفة في بطن الأم ، وتصير النطفة هباء ، والهباء يجّبه الفناء . ولما كان انقلاب الموازين من هذا القبيل مرهوناً بقيام القيامة كما ورد في الوصايا ،

فانه لن يستطيع أن يحتكم الى رهان المستحيل ويطمع في استرداد حياة اقضى الناموس أن يورثها للذرية طالما ارتكب الحمق ، وارتضى لنفسه القمّم يوما . هذا اليقين هو الذي جعله يعد الخطة فرارا من مخلوقة جنّية كي ينقذ نسله الانسي ، حياته التي اضاعها وانتقلت للذرية حتى لا يتبع الطفلان أمهما * ليظلا عبدين في مالك الجن ، وربما خادمين لسلطان أهل الخفاء ، او تابعين ذليلين من اتباع المردة ذوي الخلقة السوداء كظلمة ليالي الشتاء . فأي عار سيلحقه اذا استهان بموهوب قرينته الجنّية وسلم للمخلوقة ، التي خلقت بلا عقل ، ذريته ، نسله ، حياته ، خلوده في الزمان الآتي ، ورسالته التي ستتحمل للأجيال الوصيّة ، وتحصن الأصل من غول الزوال؟ . نعم . لا بد أن ينقذ الذرية اذا أراد ألا تلعنه الصحراء ، لا بد أن يخليس الطفلين من كهف الغولة كما اختطفها يوما من احضان قريتها الأبله ، اذا أراد أن تباركه الأجيال فتخلد ذكراه في الاشعار كما خلدت مأثر الابطال الاولئ في أساطير الملائم وجدران الحجارة وحيطان الكهوف .

لم يتوقف عند التفاصيل ، ولم يسمح للتفكير في الخطة أن يصيّبه بالوجع . فسلطان السحر ، سلطان العين التي استعان بها يوما لاخراج المعشقة من بدنها . من بين يدي قريتها الأبله ، هرع لنجدته الآن أيضا ، فأوحى له بالتمائم المجنوسية . القبس الغامض الذي يسميه البلياء سحرا

* الطوارق مجتمع أمومي ، النسب فيه للاخوال ، والرجل يرثه ابن اخته لا ابنه .

ألهمه بالتعاويذ التي ستحميه من شر الجنية . فمن غير السحرة يعرف السرّ ؟ من غير السحرة يفهم ما يحويه التراب من كنوز انفس بما لا يقاس من كنوز التّبر و معادن النّحاس ؟ من غيره ، آكًا ، الذي لم ينفصل عن جلاميد تادرارات الخفية الاّ بعد أن تشرب جملة الأرض ، وتنفس غبارها ، وخبر خفاياها ، واطلعته على كنوز الأخلال ، وسلطان المعادن ، من غيره يستطيع ان يعرف ما يرعب الجنّ ، وما يخيف الانس ؟ صمم ان يتحصن بالأنصاب المعدّة من أخلاط الحديد والنحاس ومزيج المعادن المستخرجة من الأمّ التي تعلّمت منها كل المخلوقات السحر ، لأنّه أدرك منذ زمن بعيد ، منذ كان نطفة تتقلب بين الماء والطين ، سرّ الأخلال في ارهاب الجنّ ، كما أدرك قدرة العين على استدراج النفس واحتلاسها من مكمنها في قمّم الجسد .

(٤)

.. لم يندهش بعد العودة أن يتلقّى من تامدورت نظرة ارهاب قاسية أمتزج فيها وعي السحرة ، ولؤم وانتهيط ، وقدرة ملك الجن على استشراف مجاهل الغيب ، انحنت فوق القدر ، اثناء اعداد طعام العشاء ، وحدجته من تحت حاجبين معقودين بشكّ بلغ اليقين ، وردّت نبوءة تليق بجنية :

ـ وراء الأكمة ما وراءها !

لم يعجبها . تابع التوأمِين وهمَا يتسلّيان بلعبة التحوّلات . كانت الشقّيّة « تانس » تستحيل إلى حيّة فظيعة ، تتلوّى في مدخل الكهف ، وتشهق بفحیح مخيف ، فيندفع « اطلانتس » الماكر ويتمدد ، يزفر ، يخرج عينيه من محاجرهما ، يتمطّى ، حتى يتحوّل انفه إلى منقار حاد ، معقوف ، ويستطيع الوجه في رأس عُقاب ، ينبت له الريش ، ويفرد يديه ليستحيلا جناحين هائلين . يهجم على اخته ، على الحيّة ، في غارة خاطفة ، محاولاً أن يدق رأس الحيّة بمنقاره البشع ، ولكن الاخت الدهاهية ، الحيّة الماكرة ، تشبع برأسها جانباً لستقي الضربة ، فيرفر العقاب ويطير إلى الأعلى ، يحط على رأس الصخرة هرباً من عقاب الحيّة ، من لدغة الاثنى ، التي تتوعده في الاسفل ، ولا تكف عن الفحیح الكريه .

استجاب أكّا للمنازعة بضحكه ، ولكنه سمع نبوءة الجنّية مرة أخرى :

ـ وراء الأكمة ما وراءها !

الحق أنه لم يشك في قدرتها على قراءة النوايا ، لأنّ معرفة ما يجول في النفوس من أبسط الحال في جبّة الجنّ ، ولكن ظنه أنه احتاط لهذا المأذق عندما نزع النّية من رأسه في حضرتها انزلت في قلبه الاطمئنان وجعلته يحس بالأمن ، برغم علمه بغياب الأمان في رحاب الاثنى ، أي اثنى ، فكيف بها اذا كانت جنّية شقّيّة مثل تامدوّرت ؟ أم أن

اللعمية اشتتمت رائحة الأنصاف؟ لقد ظن أنه تدبر هذا الأمر أيضاً عندما حفر فجأً عميقاً تحت صخرة تبعد مسافة طويلة ، وادعها كنزه الى حين تأذف ساعة الفراق . ساعة الفرار . ساعة يليّ فيها النداء ، نداء الحياة ، نداء الصحراء التي خانها طوال هذه السنوات واستبدلها بقمقم قبيح سماه تارة «مشوقة» ، وتارة أخرى «ربة حجرية» ، و«معبودتي الحسناء» تارات . ولكنها هي تقتفي الأثر ، وتجسّ النبض ، وتحسب عليه الانفاس ، وتنصب في طريقه الأشراك ، فأي هفوة ارتكب حتى تسلل الى قلبها الارتياب؟ هل هما العينان؟ آه . العينان مرآة الساحر وسرّ السحر . العينان لن تخفيان نيةً لمن اتخذهما سلاحاً لغزو الأفchedة وانتزاع القلوب من القلوب ، واحتلاس النفوس من البدان . العينان سلاح ذو حدين فاحترس يا آكاكا ! ثم احترس ! ولا تنس أنك خلقت هذه الخلوقه من إلهامك ، ومن وساوسك ، ومن ظنونك . خلقتها بسلطان عينيك وبقوّة قلبك ، وبموهبة الاختلاط التي عرفتها يوماً عندما كنت نقطة ، نقطة بين الماء والطين . ثم مددتها بحرارة انفاسك وعجبتها بتراب الاسلاف ، بدم الأرض الخلوط بدمائهم ، بـ«تفتست» ، ذلك الكنز المقدس الذي امده بالقدرة ، وامدها ، هي ، بالدم والحياة . ولو لا هذه الشعائر القاسية ، الشعائر المستحيلة ، لما استطاع مخلوق أن يلتقط أمراًة خرجت من مخدع زوجها ، ومن مخدع روحها ، من بدنها ، حتى لو كانت في فتنة تامدورت وحسنها . لأن الساحر أول

من يعرف أن « إيمان » * إذا أفلت من دنّ الطين طواه المجهول ، وسكن في مملكة النسيان ، ولن يعيده إلى وطن الرؤى السماوية الأَتمية الأرض ، سر الصحراء ، الذي أودعه الأُسلاف « نفتست » ، ونفخت فيه الأرض روحها ، ومدّته بسر لا يعلمه إلا السحرة . ولو لا علمه القديم بالأمر لما استطاع أن يعيدها من سفر النسيان ويودعها حجارة الكهوف . فلا تخفيها ، يا آكَا ، ولا تسمح لها أن تأخذك بالسلاح إلى اخذتها به يوما ، لأنك أنت من سرى بها ليلا من مخدع قرينه الأبله بوخا ، وطاف بها ممالك السماوات ومهالك الأرض ، وعاد بها من « آغرم نودادن » ليثثها في الحجر ، ليبدع خلقتها في صدر الجدران ، ويزيدها بهاء على بهاء قبل أن يتخذها قرينة ووعاء لذريتها !

كان يحدّق في وجهها وهو يستعيد آيات التكوين ، وآلاء الخلق الأول ، ولم يلحظ التبدلات التي حدثت في الساعة الجليلة من الفسق المسحور . تركت القدر وتقهقرت خطوات . استمرّت تتراجع بلا توقف . وكان آكَا يزحف نحوها على ركبتيه ويديه طوال الوقت . يزحف ، ويزحف ويزحف . وهي تتقهقر ، وتقهقر ، وتقهقر حتى التصقت بالجدار ، بالمؤوى ، بالجوف الحجري الذي انجبها ، الذي خرجت منه يوم البعث ، يوم استعادها من المجهول ، من الظلمات ، ليعيدها إلى نور الصحراء ، إلى تادرارت، ثم .. ندت عنها آهة فاجعة . شکوی یائسة، مكتومة . أين موجع ، عادت على أثره إلى جوف الأم . إلى الحجر .

* إيمان : النفس (تماهق).

كفَ التوأمان عن لعنة التحوّلات . خرجمت الاٰثى من بدن الحية وهبط «اطلانس» من أعلى العُقاب . رفعا عقيرتيهما بالبكاء في وقت واحد . ناحا طويلا ، لأنهما عرفا أن الشجار بين ابويهما قد نشب ، وهما اللذان تعلما بالتجربة أن الشجار بينهما لا يتوقف الأَ اذا انتهى بحبس الأم في بدن الحجر . ناحا بفجيعة ، لأن التجربة علمتهما أيضا أن غيبة الأم في المعتقل الحجري سوف تطول ا

(٥)

نادرا ما كانا يتشاركان . واذا تشاجرا فان البلاء لا يلحق الأم وحدها ، ولكن الأَب أيضا . فما أن يشتعل الخصم ، وتستعر نار الشجار حتى تنتاب الأَب الرجفة ، وتخرج عيناه من محجريهما . لا تخرجان قبل أن تضيوا في الفراغ ، ويغزوهما أحمرار مقبرة . يتقدم من الأم ويغمغم مأنخوذا : « اسكنني . اسكنني . اسكنني ». ويظل يردد التميمة الفظيعة وهو ينفض ويستعر بالحمى . يفرّ من فيه الزبد . يتكاثف حول شفتيه ، يلمل طرف لثامه السفلي ، ولكنه لا يتوقف عن التتممة بالتميمة . في ذلك الوقت تكون الأم قد انهارت على التراب . تترنح يميناً ويساراً ، في عينيها يختفي العدوان ، وينزل الر جاء ، الضراعة ، التوسل ، الفجيعة . يزداد الوجع في عينيها كلما مضى الأَب مردداً التعويذة . ثم تبدأ مسيرة العودة الى الوراء . تتفهقر والأَب يتقدم . تراجع خطوة كلما تقدم الأَب خطوة ، حتى اذا بلغت الكهف ، ووقف تفهقرها الجدار ،

نَدَّتْ عنْهَا تِلْكَ الْآهَةِ الْأَلِيمَةِ التِي تَتَلاشِي بَعْدَهَا ، وَتَخْتَفِي فِي الرَسْمِ
الْمُخْطُوطِ عَلَى الْجَدَارِ ، فَتَبْقَى أَصْدَاءَ الْآهَةِ الْفَاجِعَةِ تَتَرَدَّدُ فِي قَمَمِ
تَادِرَارَتْ طَوِيلًا . تَسْكُنُ فِي الْحَجَرِ ، فِي الرَسْمِ ، فَتَبْدُوا نَظَرَتَهَا وَهِيَ
تَرْمِقُ الْقَمَمِ الْبَعِيدَةِ مَوْجَعَةً ، حَزِينَةً ، غَائِبَةً ، مَعْلَقَةً فِي مَجَاهِلِ الْمَجْهُولِ .

أَمَّا الْأَبُ فَيَقُعُ ، بَعْدَ الشِعَائِرِ ، فِي الْغَيْوَةِ . يَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ
وَيَتَلَوَّ طَوِيلًا ، ثُمَّ يَهْدَأُ وَيَسْتَسْلِمُ لِسَبَاتِ يَسْتَمِرُ يَوْمًا وَرَبِّمَا يَوْمَيْنِ .
وَعِنْدَمَا يَصْحُو يَقْنِي ذَاهِلًا ، وَاجْمًا ، مِنْهَا ، مَرِيضًا ، أَيَّامًا . الْأُمُّ أَيْضًا
تَغِيبُ طَوِيلًا . تَغِيبُ أَيَّامًا ، أَسَابِيعًا ، وَفِي الْمَرَأَاتِ الَّتِي لَا يَرْقَّ فِيهَا قَلْبُ
الْأَبِ تَبْقَى مَعْلَقَةً فِي حَبْسِهَا شَهُورًا . وَلَا يَتَازَلُ لِاستِعَادَتِهِ مِنَ الْمَنْفِي إِلَّا
بَعْدَ أَنْ يَمْلِ نَوَاحِ التَّوَمِينِ . وَلَكِنَّ استِعَادَتِهِ مِنَ الْحَبْسِ تَقْتَضِي شِعَائِرَ لَا
تَقْلِ عَسْرًا وَقَسَاؤِهِ عَنْ شِعَائِرِ النَّفْقَى .

(٦)

تَبْقَى الْأُمُّ تَشْبَثُ بِالْحَجَرِ ، مَعْلَقَةً فِي الْجَلْمُودِ النَّحَاسِيِّ الْقَاسِيِّ .
تَمْدُّقُ فِي الْفَرَاغِ ، تَرْصَدُ الْقَمَمَ الَّتِي يَلْفَهَا السَّرَابُ بِغَلَالَتِهِ الْزَرْقاءِ
الْمُسْتَعَرَّةِ مِنْ سَعِيرِ الْخَفَاءِ ، مِنْ ابْخَرَةِ لَمْ يَرِ الصَّحَراوِيُّونَ نَظِيرًا لَهَا إِلَّا
فَوْقَ غَابَةِ الْحَجَارَةِ الَّتِي تَحْجَبُ « آغْرَمَ نُودَادُونَ » . تَرْصَدُ شَيْئًا أَبْعَدَ مِنَ
الْقَمَمِ ، تَرْصَدُ سَرًا يَلْوَحُ فِي الْاَفَقِ الَّذِي تَنْحِنِي فِيهِ السَّمَاءُ لِتَقْبِلُ جَبَّينِ
الصَّحَراءِ ، تَرْصَدُ السَّرَّ الَّذِي لَا تَرَاهُ إِلَّا أَبْصَارُ مِنْ كَتَبِ عَلَيْهِمِ الْقَدْرِ
أَنْ يَعِيشُوا الْعَزْلَةَ ، وَيَقُوا وَحْيَدِينَ ، تَائِهِينَ ، مَنْسِيِّينَ ، مَنْفِيِّينَ ، إِلَى الْأَبْدِ .

ولا يتوقف الصغيران عن البكاء .

يدوران حول الكهف ، يحاولان تسلق الجدار الصخري الاملس في محاولات بطولية للوصول الى معتقل الأم . ولكن قلب الأب لا يلين . يسرج جمله ويسافر الى المراعي . يعدها ارغفة خبز الملال قبل أن ينطلق . ولا يعود الا بعد أيام . فيهرع اليه الصغيران ليبدأ التمسمح بالمهرى . تانس من الجانب الأيمن ، واطلانتس من الجانب الأيسر . يتولسان ، يرفعان اصوات التوسل كأنهما يتهلان الى إله السماوات والارض : « آرا نجد تامغارت . ما سكيكما إيهود ؟ ما سكيكما ؟ ما سكيكما ؟ » * يترجل عن المهرى بقفزة الفرسان . يقود الجمل الى حضيض الجلمود النحاسى . يزبح عنه انقال السفر ولا يجيب بكلمة . يحرر الجمل ، يعقله ويتركه ليترتع في احراش الوادي المجاور . يخرج من الحراب الجلدي لحم الغزاله المجففة . يشعل النار صامتا . يشوى اللحم على الحمر الخائى . يطرح لحم الطريدة على أعود الحطب . يدعوهما باشارة صارمة من رأسه . ولكنهما لا يقدمان . يحومان حول اللحم ، يستنشقان رائحة الشواء ، دون أن يتجرسا على الاقتراب . تبرق عيناهما بوميض الجوع . وميض الشره ، ولكنهما يخنقان الرغبة . يقتلان الجوع ، لأنهما دبرا مكيدة يحرقان بها قلبه . قررا في غيته أن يرفضا الطعام ، أقساما ان يمتنعا عن الطعام ما لم يطلق سراح الأم . قرأ

« رد لنا عجوزنا . ما ضرك بربك ؟ ما ضرك ؟ ما ضرك ؟ (تماهق) .

المكيدة في عينيهما . لاحظ ارغفة الخبز التي تركها لهما قبل سفره وقد استحالـت الى قطع من الحجارة ، ملقأة على خرقة في مدخل الخباء .
فيا للشقاء !

انتحب اطلانتس نحيباً موجعاً وزحف نحو اللحم . جذبته رائحة الشواء ، استجابة لنداء المجموع . من فمه سال لعاب . اقترب أكثر . انتحب أكثر . وكلما ازداد قرباً من الشواء الشهبيّ كلما ندت عنه حشرجة ابتلعتها التواح ، والتواح استحال الى عواء أكثر فجيعة من عواء الذئاب . وفي اللحظة التي انحنى فيها فوق لحم الغزال ، فوق شرائح الشواء الشهبيّ ، هجمت عليه أخته وشدته من شعر رأسه . جرجرته بوحشية فوق الحصى ، ومضت تجرّه فوق الأرض الى عمق الوادي . اختفت وراء أكمة ، من هناك سمع العواء وقد تحول الى صراخ وحشي . هرع الى الاحراش ، فوجد تانس تعض على شفتها السفلية بوحشية وتدق رأس شقيقها ، توأمها اطلانتس ، بحجر حاد . امسك بيدها وحاول أن يزيحها عن الضحية ، فهجمت عليه وعضته في مucchمه حتى فزَ الدم . هوى عليها بيده اليمنى ، ولكنها استماتت وخنقت اطلانتس بكلتا يديها . نزل على رأسها بقبضة فترنحت . عاجلها بلكرة أخرى فارتخت يداها وبدأت تفقد الوعي .

قالت بعد أيام أنها فقدت صوابها لأن اطلانتس خالف الاتفاق وأراد أن يبحث بالوعد.

ثراسة طبع الصغيرة أفرع آكًا ، وخفاف ان يغلب في جبلتها عرق الجنّ، فشرع يبني على أهل الصحراء ، ويروي الملاحم عن حبّ تانس لأنخيها أطلانتس شعراً . استغل غياب الأم في حبسها فشاء أن يزرع ما زرعه فيهما الجنية من خرافات ، ويذر فيها حبّ الانس ، فتحدث عن عراقة الانساب ونبل الصحراويين. تحدث كثيراً ، وقرأ ملاحم شعرية كثيرة لدعم بطولات أهل الصحراء ، ولكن تانس هبت فيه يوماً : « لا تسقنا من معين الكذب ولا تخدعنا . أهل الصحراء أول من أدان للناموس الصحاوي . الناموس على حق . شرع الصحراء يعلم أن الأم هي الحق . الأب كذب لأنه يمكن للمرأة أن تنجب ذرية من جنّ أو شبح او ابن آوى ، او ودان ، او حتى من ريح القبلى . الأم واحدة ، والأب مخلوقات كثيرة . الأم حق ، والأب باطل . باطل . باطل ! ». ليتلها عرف آكًا أنه فقد تانس إلى الأبد ، وتمادورت استعانت بشرع الصحراء في تسميم عقل الصغيرة .

(٧)

أخيراً حانت ساعة التحرر من الأسر . جاء الالهام بمعاد الخلاص ولم يبق له إلا أن يلبي النداء المقدس الذي سيضع الحدّ للشجار ، والمل ، و... الاشمئزاز .

نهض مع ميلاد القبس البطل . سرج المهرى . أخرج

حزمة الأنصال . لقية الحدادين ، سلاح السحرة وتميّتهم في مغالبة أهل الظلمات . حصن الدّابة بالأنصال . علق مدّيّتين حول رقبة المهرى . وربط سكينا حادة في ذيله . أحاط السرج بحزمة الأسلحة . سيف ومدية وسكين ، وجعل أنصالاً آخرى تتدلى على الجانبين . أيقظ أطلانطس أوّلاً . أخذه بين يديه وثبته بمسدٍ متين قدّام السرج . ثم تقدّم نحو الانثى الشقية .. فوجئ بعينيها المفتوحتين ، الفطّيعتين . كانتا تتبعانه بنظرة لثيمة تلقي بسلامة الجنّ . هم باحتواها بين ذراعيه فإذا بها تنهشه باسنان وحشية كأنها حيّة . صفعها فصرخت . ولولت بأعلى صوت . استجاب لها التوأم فانتصب . نزل على وجهها بصفعة أخرى ، ثم أخرى ، ثم .. ركلها بهمجيّة حتى خال أنها فقدت الوعي ، جرّها من شعرها فلدغته مرة أخرى . تركها ملقاة على الأرض ، وأتى بحبل وحشي من المسد . ربط يديها وراء ظهرها ، وكمّ فمها بخرقة ، وألقى بها على ظهر المهرى ، وراء السرج ، خلف السنام . ثبّتها فوق الدّابة بأمن الحال . قفز فوق المهرى ودار على رقبته بقدمه العارية من المدارس ، فأنطلق . زغردت الانصال حول بدنـه فأجلـل وجـنـ. طار كأنه ينوي أن يخـرق الخـلاء ، ويـدرك السـراب ، ويـبلغ مـدى أـبعد من آـزـجر ، ومن كـلـ الصـحرـاء . مضـى مـصـمـماً أن يـنـفذـ نـيـةـ مـولاـهـ فـيـقـطـعـ مـسـافـةـ أـيـامـ فيـ يـوـمـ . هـذـهـ مـزاـياـ الـمـهـارـىـ الـأـصـيـلـةـ . الـمـهـارـىـ النـبـيـلـةـ وـحدـهـ تـقـرـأـ نـوـاياـ الـفـرـسـانـ ، فـتـلـهـمـ الـأـرـضـ بـهـمـةـ ، تـعـبرـ الـبـيـدـاءـ دـوـنـ أـنـ يـحـتـاجـ لـلسـعـ قـدـهـ

الفتّان بنيران السياط . المهارى النبيلة ، المهارى الأصيلة ، خلقت للنوايا ،
وليس للسيّاط .

والاليوم لا يريد الفارس أن يعبر الصحراء لحضور ميعاد تقيمه
الحسان . اليوم لا ينوي آكاكاً أن يبلغ أقصى الارض استجابة لهوى
السباق . اليوم يفر من الخطر ، من القيد ، من هولة حبسته عمراً وسرقت
منه الحياة . اليوم يهرب من غول امتص دمه وأراد أن يخطف منه ذريته
ليسخّرها حاشية تخدم سلطان الظلمات . وصديقه القديم ، مهرية النبيل
لا بد أن يقرأ النية ، ويقدر جسامته الخطر . فأركض يا جملي ! فِرْ ، طِرْ ،
اخرق الفضاء ، وانقذ ذريتي من الفناء ، فأنت تعرف أن لا ذكر لمن لم
تعقبه ذرية ، وسوف يتلع الزوال كل من خالف ناموس الصحراء وسلم
نسله لأم جنية . فانقذ ذكري يا جملي المحبوب ! فأنت وحدك القادر
على أن أبقى ، لأن من اختفى ولم يخلف لم يعش ، لم يكن ، لم
يُخلق ! فنج خلفي ، وإبق على ذكري ، وأعد لي حياة ضاعت ، وليس
في مستطاع مخلوق أن يعيدها لي سواك !

بدأ المهرى يتصرف بالعروق . على رقبته فز زبد ، وما لبث أن
تمادي وتکائف ، ولكن بکائنة مولاه ، صديقه القديم ، اصابتة بالمس ،
فطار ، وعبر مالك الجن في تادرارت ، حتى لاح بحر الرمال الذي
يفصل الأعمدة الجبلية الرهيبة عن وديان آزجر .

ولكن المارد ما لبث أن فك الوثاق ، وأبطل الطلسم ، وخرج من

القمقم.

ادركته القرينة قبل أن يتغول في الصحراء الوسطى ، وقد حولها الحقد الى « تامزا » * مهولة .

(٨)

ادركته بخطية الجنّ . بعجاجة رأسها في السماء وذيلها ينساب على الارض ، أخرجت من الزوبعة رأساً مشوّهاً : شعر أشعث ، أسنان نائمة كأنابيب الوحوش ، وجه ممزق بتعجاعيد الغilan . عينان تنزفان دماً ، أنف ينثر بالصدىد ، فم مغضّن تتدلى منه خيوط من قيح .

مدت اليه يداً نبتت في أصابعها مخالب لم ير أبشع منها ولا أطول . لسعها بالسوط فندت عنها قهقهة كريهة . جرد سيفه من غمده ولوح به في وجهها القبيح . تراجعت إلى الوراء واختفت رأسها في الغبار . اقتصر بدن المهرى . تعلقت بالذيل فمزق السكين يدها . صرخت بأعلى صوت . سقطت على الأرض . سمع الدمدمة ، التفت فرآها تلعق اللّم من يديها البشعتين . لحقت بالمهرى مرة أخرى . تشبت بأذيال المداع اليسرى فنحرتها المدى والسيوف . صاحت صيحة طويلة استجابت لها الجنية المشدودة إلى الوراء بغمضة موحشة مخنقة . اشتكتي الجمل أيضاً :

ـ آـ آـ آـ عـ عـ

* تامزا : الهولة ، او الغولة (تماهق) .

ولكنه لم يتوقف عن العدو ، ولم يخن العهد . سابق الزوبعة وسبقها . تامزا الم تخلّف أيضا . ادركته بعد مسافة قصيرة . انشبت مخالفها الوحشية في لحم المهرى فتصدت لها مدية مجوسيّة فظيعة . ذبحت كفيها ، فرفعت عقيرتها بشكوى سمعتها كل الصحراء :

- آ-آ-آ-آ....

التفت فرآها تلعق الدّم ، وتيها للانقضاض من جديد . طارت مع الريح في الهواء ونزلت فوق رأسه . ولو لم ينزل الالهام مع نزولها لفتكت به في تلك الغارة المفاجعة . اختطف المدية المسكونة بالتمائم (صديقـه الحداد قال له أنها تكفي لنحر قبيلة من جبابرة الجن) وطعنها . سقطت . لم تسقط . لم يند عنها صوت . ولكنها اختفت . تلاشت . فهل تخلّفت متأثرة بالجراح ؟ التفت فلم يرها . ظلت مركبـتها تتدحرج بمحاذاته . ولكنـها لم تقترب . فأين الجنـية ؟ هل أصابـها بمـقتل ؟ هل نجاـ من المطاردة ؟ هل يعقلـ أن تـيـأس أمـ سـرقـ منهاـ أوـلـادـهاـ غـدـراـ ؟ هل يمكنـ أن تكونـ المـديـةـ بهذهـ القـساـوةـ بـحـيثـ تـفـتكـ بـهـوـلـةـ فـيـ ضـرـبةـ وـاحـدةـ ؟ . توجـعـ المـهـرـىـ مـرـأـةـ أـخـرىـ :

- آ-آ-آ-ع-ع-ع....

في تلك اللحظة رأى ظل سحابة يحوم فوق رأسه . ليست سحابة . طائر بحجم خرافي . رفع رأسه فرآها تغير على رأسه ، مدّ

المدية فقصد الغارة . هوت الى اسفل ورآها تتمرغ في التراب حقدا ووجعا واعياء . احس بسائل لزج يلصق ثوبه بظهره . التفت الى الوراء فهاله ما رأى : كانت الجنية الصغيرة قد تحررت من الكمامـة ، وشرعت تلتهم سـنام الجمل . التهمت الطرف العلوي الذي يـسند السرج ، ومضـت تلـعـق الدـمـاء بـأـنيـابـ أـبـشعـ منـ الـأـنـيـابـ التيـ رـآـهـاـ فـمـ أـمـهـاـ «ـتـامـزاـ»ـ مـنـذـ قـلـيلـ . عـرـفـ لـمـاـذـاـ يـتأـلمـ المـهـرـىـ المـسـكـينـ فـقـاطـ نـفـسـهـ بـالـغـيـانـ . دـسـ المـدـيـةـ بـيـنـ وـبـرـ الدـاـبـةـ ، وـبـيـنـ حـيـالـ المـسـدـ الـتـيـ تـشـدـ الـهـوـلـةـ الصـغـيرـةـ إـلـىـ ظـهـرـ الجـمـلـ . انـقـطـعـ الرـبـاطـ وـهـوـتـ الغـولـةـ إـلـىـ الـأـرـضـ . لـاحـظـ كـيـفـ تـلـقـتـهـ أـمـهـاـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـ ، وـضـمـتـهـ إـلـىـ صـدـرـهـ . تـنـاهـىـ إـلـىـ سـمـعـهـ الـبـكـاءـ المـرـيرـ .

واصل المهرى مسيرة الفرار برغم النزيف ، ولكن صدى البكاء
ظل يطن في اذنه طويلا .

(٩)

في آزجر سبّاكاً منبت النساء .

في الأيام الأولى تفرغ للاعتناء بالمهرى ، واستهان بالعضة المسمومة التي تلقاها من اسنان ابنته الفظيعة . وعندما يشـسـ منـ شـفـاءـ صـدـيقـهـ المـسـكـينـ ، وـاستـفـحلـ فـيـهـ الدـاءـ ، تـرـكـهـ يـحـضـرـ وـهـرـبـ لـلـاقـامـةـ فـيـ أعلىـ آلـونـ . وـجـدـ نـفـسـهـ وـحـيدـاـ مـعـ أـمـلـهـ الـوحـيدـ . كانـ اـطـلـانـتسـ يـتـبعـهـ

ضائعا ، جهما ، لا يتكلّم الا اذا أجاب على سؤال . في كهوف الوادي العظيم اعتكف آكا وعاد يشتم النساء . تضخم الانتفاخ في الكف وتفاقمت الاوجاع . بدأ يهزمي في الليل واستولت عليه الحمى . ظل يقاتل مردة الجان ثلاثة ليال متالية . في اليوم الرابع تحامل على نفسه ، وتطاول في الحجارة الجبلية . عاد بالأعشاب البرية . طبخها في القدر وأضاف اليها مسحوق النطرون . تراجعت الحمى ، وببدأ يتماثل للشفاء . ادرك سبب عشق تانس لبدن الحيات . فلا تلبّي نداء التوأم بلعبة الا اذا استدرجه للتحولات . الدخول في جسد الحية لعبتها المفضلة . فـأى سرّ في تعلق المرأة بالحياة لو لم تكن حية هي نفسها ؟ نعم . الانثى حية تسعى حتى لو كانت جنية ! وما هو البرهان ! لقد فقد صديقه بسيبها . بلدغتها . وكاد يفقد حياته أيضا . الشريرة ! فـكـرـ أنـ يـقـدـمـ قـربـانـاـ لـلـالـهـ «آمنـاـيـ» حـمـدـاـهـ عـلـىـ النـجـاهـ . وـشـكـرـهـ جـهـارـاـ لـأـنـهـ خـلـصـهـ مـنـهاـ . لأـولـ مـرـةـ فيـ تـارـيـخـ الصـحـراءـ يـشـكـرـ مـخـلـوقـ الـآـلـهـ ، لـأـنـهـ جـرـدـوـهـ مـنـ ذـرـيـةـ وـلـكـنـ هـلـ كـانـتـ تـلـكـ الـهـوـلـةـ ذـرـيـةـ ؟ هـلـ يـمـكـنـ انـ يـتـنـازـلـ المـرـءـ عـنـ كـبـرـيـاءـ الـاـنـسـ وـيـقـبـلـ أـنـ تـخـلـفـهـ حـيـةـ ؟ وـلـكـنـ هـذـاـ ثـمـنـ يـدـفـعـهـ مـنـ تـجـاسـرـ عـلـىـ استـعادـةـ الـمـعـشـوـقـةـ مـنـ الـمـجـهـولـ بـعـدـ أـنـ خـطـفـهـ بـالـعـيـنـ مـنـ مـخـدـعـ قـرـينـهـ الـمـسـكـيـنـ ! هـذـاـ قـدـرـ السـاحـرـ . قـدـرـ السـاحـرـ أـنـ يـنـقـلـبـ السـحـرـ عـلـىـ السـاحـرـ !

فيروى في الصحراء أن « وانهيط » الشيم هو الذي انقد

تامدّورت وحررّها من أسر الحجر ، كي يسلطها على آكاكا عقابا له لخالفته شريعة السّحرّة . فهذا الأحمق لم يعلم عندما مارس هذه الصنعة النبيلة أن الدخول الى هذا الملکوت ليس كالخروج منه . لأن من عرف الطريق الى السرّ بقي أسيرا له الى الأبد ، واضاءع الطريق الى لغة الخلق وملکوت البشر .

فك « وانهيط » وثاق تامدّورت ، ومسخها هولة مهولة ل تسترد أبنتها . وعندما استعادت « تامزا » وليدتها رسم لها خطّة الانتقام ، ونسج خيوط المكيدة . أعاد للأم حسنها القديم فوجدت تامدّورت نفسها محشورة في وعاء كتب له القدر أن يكون فخّا يستدرج الرجال ، وجوهرة تأخذ قلوبهم من أبدانهم ، وبدرأ بهيجا يذهب بعقولهم . بل ان البهاء فيها ازداد توهجا ، والقسمات فاقت عين الرّتم نصارة ، كأن « وانهيط » الرهيب كافأها على شراستها في استرداد تانس من يد الخائن .

رأى النساء حسنها في مياه الغدير الجبلي ، ولكنها كانت على استعداد أن تدفع كل هذا البهاء ، كل هذا السلطان الذي يخضع الممالك ويهلك السلاطين قربانا في سبيل تحقيق الرغبة الانثوية الوحشية في الانتقام . تلك الرغبة الفظيعة التي لم تعرف لها الصحراء مثيلا ، وخاف من هولها الانس والجن ، وقرأ لها « وانهيط » نفسه الف حساب وحساب . لهذا السبب لم يندهش وهو يرى النساء ترکع عند قدميه وتتوسله أن يأخذ جمالها الفتان ويحبه لمحبوبتها تانس . ضحك حتى

دمعت عيناه ، ثم حاکاها في تعويذتها عندما ردد :
- وراء الأکمة ما وراءها !

ضحكـت تامـدورـت ضـحـكة عـصـبـية حـوـلـها الحـقـد إـلـى حـشـرـجـة ،
إـلـى فـحـيـحـ كـفـحـيـحـ الحـيـة ، لأنـ سـلـطـانـ التـحـولـات مـا لـبـثـ أنـ حـوـلـها إـلـى
حـيـة حـقـيقـيـة عندـمـا أـيـنـعـ السـرـ الذـي اـوـدـعـهـ فيـ قـلـبـها ، وجـرـدـها منـ حـسـنـ
لـمـ تـسـمـعـ بـهـ اـذـنـ ، وـلـمـ تـرـهـ عـيـنـ ، ليـحـيـلـهـ إـلـى وـرـيـثـها الشـقـيـةـ تـانـسـ .
فـالـسـاحـرـلـمـ يـكـنـ ليـتـجـاسـرـ عـلـى مـخـالـفـةـ شـرـائـعـ الصـحـراءـ التـيـ أـبـتـ أـلـاـ أنـ
تـجـعـلـ مـنـ الـأـبـنـاءـ وـرـثـةـ لـلـآـبـاءـ ، فـنـاءـ لـلـآـبـاءـ ، فـوـجـدـ نـفـسـهـ يـنـفـذـ المـكـيـدـةـ ، وـيـعـيدـ
تـامـدورـتـ خـيـالـاـ حـزـيـنـاـ ، بـائـسـاـ ، مـرـسـومـاـ عـلـى صـدـرـ الحـجـرـ .

(١٠)

ولـكـنـ حتـىـ وـانـهـيـطـ ، بماـ وـهـبـ منـ دـهـاءـ ، لمـ يـقـرـأـ سـرـيـرـةـ المـرـأـةـ ،
ولـمـ يـعـدـلـهاـ ماـ تـسـتـحـقـهـ منـ حـسـابـ . غـلـبـ فيـ تـانـسـ عـرـقـ الجـانـ وـتـطـبـعـتـ
بـجـلـلـةـ الـحـيـاتـ . تـبـوـأـتـ أـعـلـىـ عـمـودـ صـخـريـ فيـ تـادـرـارـاتـ وـأـرـادـتـ أـنـ
تـبـتـزـ سـلـطـانـ الـابـتزـازـ . اـعـتـلـتـ شـعـفـةـ الجـبـلـ الـمـرـبـعـةـ وـهـدـدـتـ باـفـسـادـ الـخـطـةـ .
استـعـارـتـ لـغـةـ الـرـوـاـةـ ، وـتـكـلـمـتـ بـلـهـجـةـ مـغـنـيـ المـلاـحـمـ الـقـدـيمـةـ . جـاـوبـتـ
الـأـمـيرـ الذـيـ صـاحـ حـيـنـ رـأـيـ وـجـهـاـ الفتـانـ فيـ مـاءـ الغـدـيرـ : «ـ هـذـهـ الـحـسـنـاءـ
لـيـ . سـاقـتـرـنـ بـهـذـهـ الـحـسـنـاءـ حتـىـ لوـ كـانـتـ حـلـماـ ، رـؤـياـ ، مـلـكـاـ نـزـلـ منـ
الـسـمـاءـ » * :

* المقطع مأخوذ من اسطورة تانس واطلانس ، والمحاورة التي تلت المقطع محاكاً لخطاب تانس
الموجه للأمير الصحراوي . - راجع الأسطورة في رواية « البر » ، الرواية الأولى في رباعية
« الخسوف » .

- لن تفترن تانس حتى يحصل اخوها اطلانتس على جمل أبيض، ضامر ، وسيف من ذهب .

هنا أبتسم وانتهيط بخبث الدهاء ، وانحنى حتى لامس الارض بطرف عمامته ، ثم رفع رأسه قليلا وأجاب شبح تانس والابتسامة الخبيثة ما تزال تلمع في عينيه :

- لك ما أردت يا مولاتي !

- لن تفترن تانس حتى يحصل حبيها اطلانتس على السرج الموشى بخيوط الذهب !

مضى وانتهيط يتسم بلؤم ، مسلينا نفسه بدور الأمير الاسطوري :
- لك ما أردت يا مولاتي !

- لن تفترن تانس حتى يضع الأمير في يد اطلانتس مائة من العبيد ، وعشرة من الانباء .

- لك ما أردت يا مولاتي !

- لن تفترن تانس حتى يضع الأمير في يد اطلانتس قافلة من التوقي وعددأً من الرعاة .

- لك ما أردت يا مولاتي !

- لن تفترن تانس حتى يقسم لها الأمير أن اطلانتس الحبيب سيظل بجوارها الى الابد .

- لك ما أردت يا مولاتي !

عندما نزلت تانس من الشعفة الجبلية المربعة. ولكن المحاورة لم تنته . ضحك وانتهيت حتى استلقى الى الوراء . تابعته تانس بابتسامة لثيمة استعارتها من وانتهيت . ثم قطع ضحكته ولمعت عيناه بالبريق .
قال:

- جاء دوري كي أعلن لأميرتي الصغيرة أن الذهب صنعتي ، والتبّر لعنتي ، وكل ما يشتريه هذا المعدن الرهيب فهو تحت طائلتي ، حتى أن لعنته قد طالتني فلا ملمس ترابا الا استحال تبرا ، ولا أمسك بيدي حجرا الا وتحول سبيكة من سبائك الذهب ، ولا أقدر أن اتناول طعامي الا تخصّست بالتعاويذ التي تحميء من التحول . فيا أميرتي ، سمعا وطاعة ، خذني منه ما شئت ، واشتري به ما شئت من الاتباع ، فالخلق كلهم اتباعه ، واقتنى من العبيد ما أردت فالناس كلهم عبيده . وأنا وحدني الشقي لأنني جزء من تلك القوة التي تريد الشر دائما ، ولكنها تفعل الخير دائما * ، لأنك لا تعلمين يا أميرتي الصغيرة أن سعادتي في غيابه .
نزع خاتما متوجا بفصّ مهيب . فرّكه بين يديه فضجّت الجبال المحاورة كلها . رأت تانس العجب : من ادبنان** خرج الأسلاف يحملون جرار الذهب . السفوح كلها ارتجحت وترجرجت ، وتدرجت من قبورها الحجارة ، واقبل سكانها يحملون قلل المعدن النفيسي .

* أنا جزء من تلك القوة التي تريد الشر دائما ، ولكنها تفعل الخير دائماً : غوته « فاوست » .
** ادبنان : جمع « ادبى » ، وهي مقابر الأسلاف (تماهق) .

فوق تادرارت نزلت العتمة .

طوقتها الاشباح الجليلة . كان جمع الاسلاف يَنْ ويهُمهم بلغة الجنَّ . يلوحون بكنوز الصحراء فوق رؤوسهم في شعائر جماعية . الكنوز المدسوسة في قلل فخار غدر به الزمان فلوحة بلون العتمة . هذه هي الكنوز التي جعلت من الصحراء أمل المغامرين والطامعين وجحافل الغزارة . هذه هي الكنوز الخيفية التي حلم بها الخلق وسعوا اليها من كل فجَّ عميق . تقدم من وانتهي ساحر جليل ، يطوق رأسه بتاج من قطع الودع ، رفع اليه جرَّة دكناه ، ولكن لها قدَّ حسناء . لم يستلم وانتهي قلة الفخار المعتم . اذ كان يحدق في وجه المريدة . حدق في وجهها حتى غابت الارض . اختفت الصحراء . احتجبت الشعفة المربيعة . تلاشت الأشباح الجليلة أيضاً ، ولم ترسو .. سماء جديدة ، وارض جديدة ، لأن السماء الاولى والارض الاولى مضتنا * . أخرج من كم جلبابه مدية مجوسية . شقَّ بها جسد الفتاة عند الصدر . أخرج من القفص طيراً ناصعاً سرعان ما ذاب في الفضاء . في العتمة . ثم .. القى بجرة الفخار الدكناه في الشقَّ فصاصت ييسر مدھش . حدق في الجسد المسجي فدبَّت فيه الحياة ، وانقلب البدن المرن ، بدئ الحسناء ، الى حيَّة تسعى . مضت الذاكرة أيضاً . التحقت بالسماء التي مضت والارض التي مضت ، وحلَّ نسيان .

* .. سماء جديدة وارض جديدة ، لأن السماء الاولى والارض الاولى مضتنا : رؤيا يوحنا اللاهوتي / الاصحاح ١٢١ /.

(١١)

نزلت « تامنوكالت » * على آزجر ، تحيط بها جموع العبيد والاتباع . دفعت الى وديان تارات قطعان إبل يهشّها رعاة ما لبثوا أن دنسوا حرم السكون بالجمعة والهرج والصياح . جاءت الأميرة تسبقها الأساطير ككل أميرة . قيل أنها أبنة أحد زعماء قبائل آير ، قُتِل أبوها في احدى غارات قبائلبني آوى . وقيل أنها حفيدة زعيم آهجار من أم آزجرية ، ولما مات أبوها بعد أمّها احتكم الزعيم الحكيم الى الاسلاف وبعث بها الى وطن الأم . وروى آخرون خرافه أخرى تقول أن الأميرة ما هي الا فتاة تتسمى أمها الى سكان تادرارت . وقد انجذبتها من الافعوان الذي يعاشر النساء اللائي يتن في العراء في الليالي التي يسطع فيها البدر ويصير سلطانا على السماء . وكان « آكا » يهيم في الوديان ، يستقي الروايات عن الأميرة من شفاء الرعاة والاتباع والعبيد ، ليتسم بغموض ، الى أن جاء اليوم الذي انتظرته النجوع طويلا . اليوم الذي أقبل فيه رسول الزعيم يمتطون ظهور المهارى ، يلوّحون في الهواء برقة من الجلد ، قبل أن الزعيم سطّر فيها برموز « تيفيناغ » ، أمرا يسمح للقبائل بدخول الارض الحرام . استقبلت الصبايا الرسل بالزغاريد العاصفة . وتجمّعت الاقوام استعدادا لاقامة افراح طال انتظارها .

بدأت الشعائر باجتماع أكابر القبائل على القرعة . جاءوا من كل الوديان . يرتدون العمامات الزرقاء ، يلفون مناكبهم بقطع القماش الازرق

* تامنوكالت : الأميرة (تماهق).

أيضاً . يحيطون بطونهم الضامرة بأحزمة الجلد الموسومة برموز السحرة . تتدلى من رقابهم قلائد التمام ، وتتوسط من أكمام ثيابهم الفضفاضة مقابض سيف دست انصالها في أغمام من جلد الجمال . يخطون بكرباء الطواويس ، وبطء السلاحف النهرية ، ويدوسون الأرض بحرص الصيادين واحتراسهم عندما يقتفيون أثر طرائفهم . يدون في عتمة المساء كأنهم كوكبة جليلة من زعماء الجن .
يجتمعون في العراء .

يأتون بأعواد القرعة في صمت مقدس . ينزل الصمت الجليل على العراء كله . على تارات كلّها . على أزجر كله . يتربّق الرجال من بعيد . تتلهّف النساء في مداخل أختيّن . يبتلع حتى الأطفال ألسنتهم ويخرسون . يتوقف الودآن المقدس في المراتع عن الرعي . يكف عن اختلاس الأعشاب من شقوق الحجارة الجبلية ويتذهب . ينتظر . تزداد قمة الزعيم ، وطن الزعيم ، مهابة وقداسة وجلاً وایغالا في الحزن والسكون . فكأنّ الزعيم نفسه يطل من صومعته السماوية ليرقب عن كثب وقائع الاجتماع . يستفرج جنوده في السهول قاطبة ليتسابقو في إبلاغه بخبر القربان طمعاً في الفوز بالكراء . يتصنّت أمغار في مملكته السفلّي ويرفع رأسه المتوج بأطول قرنين في الصحراء ليستنشق الهواء ويتلذّذ برائحة دماء الأضاحي الشهيّ .

أما وانتهيط فيسخر رسلاً من الجن . يرتدون لباس الأكابر نفسه ،

ويشاركون في القرعة عن كثب . ويقال أن الغلبة دائمًا لجماعته في مراسم القرعة ، حتى أن كثيرا من الحكماء جاهروا بأي جسور دعا فيه إلى الغاء هذا المبدأ ، لأن الحظ فيه لا يجري إلا بما شاءه وانتهيت ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فأشاعوا في القبائل أن الزعيم قد أوكل لخصمه القديم أمر الصحراء ، ولن يحدث شيء إلا بمشيئته . ولكن هذه البلبلة المفاجئة ما لبثت أن انطفأت بانتفاء الأصوات الجريفة التي اطلقتها عندما قضى الحكماء نحبهم واحداً ثانية في ظروف غامضة استعصى أمرها على أعني السحرة وأشدّهم دهاء .

ثم ترتفع اصوات الأكابر ، يبدأ النزاع والعناد ، ثم الرهان ، ثم القسم ثم .. ثم يعود السكون مرة أخرى . ولا تثبت الاصوات أن ترتفع للمرة الثانية لتمر بنفس الدرجات : العناد ، فالرهان ، فالقسم . ولا تعلن النتيجة الا في الجولة الثالثة . هنا يستدعي النذير ، ويعطي الاذن باذاعة البشارة وعميم النبأ .

تنحر القرابين ليبدأ المهرجان .

جاء دور النساء ، فانسحب الأكابر وتنازلوا لهنّ عن العراء .
 يتقدمن بخطوات أبيهی من خطو الغزالت ، يرفلن في أزياء مبرقةة أنت
 بها القوافل من سواحل الشمال . في اقدامهن المدسوسة في نعال « تما »
 تزركتشت رموز خطتها العجائز الساحرات برحیق الخناء . في
 صدورهن تزفرق عصافير العشق . نهودهن تنفعن اللباس الفضفاض .

تمرد فوقها حلمات راجفة تتلهف للغناء . تنتقل العدوى فيحرق الحبّين
قلوب الفرسان ، وتجيئ صدورهم بالاشجان والاشواق وحمى الوجد .
أنهن صبايا الصحراء . انهن حسان أزجر في موسم الفردوس .

بالأميرة احاطت صبايا . ثلث على اليمين، وثلاث على اليسار .
سارت بينهن تامنوكالت مثل عذراء تزف الى خباء يتربع فيه العريس
على عرش الرمل المهيّب . ارتدت ثوبا ناصعا . تلحفت بـ «تاير كامت»*
قانية بلون «تفتست» . تحت الرداء النبيل ، فوق الرأس ، وضعت «
ايكرهي » ** ازرق مشبعاً بنيلة يشع منها البريق . جرجرت
«الرفيف»*** على الارض ، ولكن قدمها موسومة بدم الحناء تبدى ، مع
كل خطوة ، حبيسة قفص «تمبا» . تحت شمس الغسق لمع في معصمهَا
بريق . بريق اذهل رجال السهل وانزل في صدور الحكماء غصة حتى
أنهم كذبوا انفسهم وأرجعوا الأمر الى خداع البصر . ولكن البريق
الاصفر عاد فومض على الصدر ، وفوق الاصابع أيضا . فكان على
العقلاء أن يصدقوا في النهاية أن السوار الذي لمع على معصم الأميرة
مبوبك من معدن النحاس ، وقلادة التمام التي تنام على صدرها ليست
محفوظة في رقع الجلد أو قطع الفضة وإنما من نفس المعدن المشئوم .
وحتى الخواتم ، التي كانت تتغامز وتتلاؤ على اصابعها ، كانت مصنوعة
من العسجد . من الشرك الذي أطاح بالملك وأورد الرجال المهالك .

*تاير كامت: رداء تلحفه نساء الطوارق في المناسبات .

** ايكرهي: طرحة فاخرة مشبعة بالنيلة .

*** الرفيف: جلباب فضفاض ابيض اللون .

من الهباء الغامض الذي استولى عليه وانتهيط وصنع منه سلاحاً استعمله في حربه ضد الزعيم ، واستدرج به العشائر والقبائل ولم يجلب للصحراء الا المكائد والدسائس والبلبلة . ولا أحد يعلم الى أي منقلب كان يمكن أن ينقلب أهل الصحراء لو لم يصدر الزعيم مرسوماً يقضى بتحريمه وانزال اشد القصاص بكل من تسول له نفسه أن يتعامل به .

وهو مرسوم حكيم وقديم ذاع خبره ووصل أمره الى أسماع أقصاصي الصحراء ، حتى أنه صار ناموساً وعرفاً أعتمده الحكام والسوقة وأعتبروه من ضمن التعاليم المتوارثة عن « آنهي ». فكيف خطط ببال أميرة تنزل ضيفاً على نجوع الصحراء أن تنتهك الحرم وتلبس حلياً مسبوكة من معدن النحاس في يوم الميعاد والفرح ؟ . في تلك العشية اكتفى الشیوخ بتبادل النظرات الخفية . ولم يكن لرعاة مراسم الضيافة دور في امتناعهم عن التعبير عن استنكارهم والماهرة بالرأي . توقعوا شرّاً ، ورأوا يقين الحكام أن أمراً جسيماً سيحدث طالما لم يفعلوا شيئاً يحول دون ومض هباء النار في رحاب السهل . ولأنّهم يعلمون أيضاً أن التشاور سوف ينتهي الى رفع الأمر الى الزعيم، وسوف يمضي زمان طويل قبل أن يأتي الرد . ولن يأتي الرسل بالرد الا بعد أن يكون الأذى قد لحق السهل . وهذا هو الهباء المسبوك يلمع بالشعاع المستعار من لهب النار ، يتحدى السهل بعين وانتهيط ، فيغمز بالحديث والدهاء والتهكم .

تابع الرجال الوفد السباعي حتى بلغ الحلقة حيث تجتمع النساء

حول الطبول . ورأوا كيف ارسلت قلادة الأميرة الاشارة لتخرق
السهل بالمس المجهول وتتواصل في حزمة الخيوط الذهبية المرسلة من
قرص تخفي وراء القمم الجبلية المجاورة لمقام الزعيم .

شَيْعُ العَقَلَاءِ، مِنْ مَوْقِعِهِمْ فَوْقَ الْرَّابِيَّةِ، حَزْمَةُ الصُّوَرِ بَارِتِيَابِ . ثُمَّ
تَبَادَلُوا نَظَرَاتٍ ذَاتِ مَعْنَىٰ . اعْقَبُوا النَّظَرَاتِ بِهَزَّاتٍ مَتَوَالِيَّةٍ مِنْ رُؤُسِهِمْ
الملفوقة في عمامات كثيفة زرقاء .

(١٢)

صار البدر سلطاناً امتلك السماء ، ولم يكتف ، فامتلك الصحراء
أيضا . ازدادت حمّى الغناء . وعندما غنت الأميرة أنشت سلطان
الصحراري والسماءات بجلال يليق برسول الأكونان المجهولة ، كما رفع
جمع العقلاء رؤوسهم عن رقعة جلد رأوا أن يسموها بالتفيناغ ويعثروا
بها للزعيم لأن الحمى اشتعلت في صدورهم وأعادتهم الى زمن آخر
كانت فيه الحياة تبدو خالدة فاكتأبوا ، ويأسوا ، وأحسوا بالشقاء ، حتى
أن دموعا ساخنة فزت من محاجر حجيتها الاطراف العلوية للعمامات .

في ذلك الوقت كان آكا يرتجف في العراء . ولا يعرف أحد
كيف زحف حتى وصل الى أكمة تجمّع فوقها الفتيان . استدعي فني
طويلا ، حاسر الرأس ، تسطر رأسه الخلائق تسرية تحاكي عرف
الديك . همس له في اذنه قبل أن يضع في يده حبة من التمر . تفحّصها
الفتى تحت ضياء السلطان ، ثم جرى الى حلقة النساء كأنه يفرّ من

ثعبان. ولا يعرف أحد ماذا فعل هناك ، ولكنه عاد راكضاً أيضاً حتى
رکع فوق عمامة أَكَا المحموم . ظلَّ ينحني فوقه ومضات . ثم ابتعد
وانضم الى الاقران . و .. فجأة ، انفجر «أَكَا» بضحكة هادرة سمعها
العقلاء في موقعهم فوق الرابية البعيدة . وعندما تقدم منه بعض الفرسان
قال لهم وهو يتلوى على الارض : « هل سمعتم ؟ تعلمت الغناء من
نواح الرياح في أنفواه الكهوف ! هل سمعتم ؟ ها - ها - ها .. أميرة
تعلمت الغناء من أنفواه الكهوف ! هل سمعتم ؟ ها - ها .. ». ثم ارتجف ،
وتشنج ، وفزَّ من فمه زيد كثيف قبل أن يترنح ويسقط في الغيوبة .

استلَّ أحد الفرسان مدية مجوسيَّة موسومة بالتعاويذ وتقدم من
الجَنْ فوق جسده .

(١٢)

انحل الوثاق فجاء المجنوب الى حلقة الغناء زاحفاً على ركبتيه .
يترنح يميناً ويساراً ويغمغم باهات موجعة ، مخنوقة . بلغ الحلقة . توقف
عن الزحف . ولكنه لم يكف عن الجذب . استمر يترنح دون أن يقف
على قدميه . وعندما توقفت الأميرة عن اغتيتها المذهلة التي هزَّتْ
السهل وقالت أنها تعلمتها من محاورات الرياح في أنفواه الكهوف ، هبَّ
أَكَا واقفاً كأن مارداً من قبائل الجن قد حلَّ فيه . قفز الى الحلقة واندسَّ
بين الصبايا . ضرب «تهيجالت» * بيده حتى تمزق الجلد . ثارت بلبلة ،

* تهيجالت : دُنَّ من خشب ، فوره مغطاة بجلد جمل ، ويستعمل كطبل في الأفراح .

ولم يلحظ أحد أن فتاة شقية كانت تروّض لحنا بليدا استفز المجنوب . جاء الرجال بـ «تهيجالت» أخرى وتواصل الغناء . جاء دور بنات الاتباع فغتّت صبيّة حسناء ألحان الرعاعة ، ولكن المجنوب رفضه أيضا بهزات متالية من رأسه . تهامت العجائز ، ثم أشرن للأميرة أن تروي فارسها العطشان . ابتسمت الحسناء وهي ترنو إلى البدر . تلقت الوحي من سلطان الكواكب . فكافأته بابتسامة سالت لها دموع المجنوب . انفرجت شفاتها عن صفة ناصعة من الاسنان تحت ضياء البدر ، لأنه بارك بسمتها . طأتّ خجلًا قبل أن تقر بأصابع توّمض بخواتم المعدن الخيف ، وتروّض لحنا شجياً استجابة له آكاكاً بصرخة فاجعة . تبعتها جوقة الصبياً ورددن اللحن وراءها . نهض الفارس وبدأ يحجل حول الحلقة . قرعت العجائز على الطبل اللّحون السماوية التي تعيد إلى الشيوخ الثقة بالحياة الزائلة ، وتخبرهم بأن الزوال أيضًا مقدس ، لأن الحياة حلقة في رحلة الزوال ، وليس الزوال حلقة في رحلة الحياة . والسحررة الحكماء الذين كانوا أول من اكتشف هذا السرّ ، هم أول من وجد الدموع تفزّ من عيني آكاكاً . كان يغالب الشجن ، ويتمايل ، مردداً وراء الأميرة الساحرة لحن الزوال الحالد .

مضى يرقص ويتلوّى ويتوّجع مغموماً بآهات مكتومة حتى تخلى السلطان عن عرشه وهجّع صوب المغيّب .

الغيبة أعقبها سبات استغرق ثلاثة أيام . وعندما استيقظ ، وعاد من رحلته ، هام في الصحراء . تنقل بين النجوع وأخبية العشائر . قطع الوديان المجاورة وصعد المرتفعات والجبال . يستوقف السابلة والرعاة ليعيد على اسماعهم جملته البلياء : « هل تدرى ؟ تعلم الغناء من نواح الريح في أنفواه الكهوف ! ها - ها - .. ». وكان العابرون يهزون عماماتهم المهيّة باشفاق ، يخرجون من امتعتهم حبات التمر ، أو قبضات من دقيق الشعير ، ليتصدقوا بها عليه ظناً منهم أنه أبله تلقى غضبة سماوية حررته من عقال العقل .

ولكن آكاكاً أبتدع خرافه أخرى أضافها إلى عبارته العديدة . فكان يدور بين الخلق ويتشبث بتلابيب المارة يقرأ لهم السر الجديد : « هل تدرؤن ؟ ما ضرّها لو قالت أنها تعلم الغناء من همس الريح في خصلات الرّتم ؟ هل سبق لكم أن سمعتم آهات الريح عندما يبعث بخصلات الرّتم ؟ . »

وعندما ذكرَ بعض الاشقياء أن الأميرة لم يسبق لها أن رأت الرّتم ، لأنها لم تأت من الحمادة ، وإنما من صحاري الجنوب ، اضطر آكاكاً أن يستبدل الرّتمة بالأثيل . وقد شاء أحد هؤلاء الاشقياء أن يستفزه فقال له أنه لا يرى فرقاً بين صوت الريح وهو يعوي في أنفواه المغاور وبين نواحه في أحراش النبات . ولكن آكاكاً هبَّ فيه مستنكراً : « ماذا أسمع ؟

هل قلت لا ترى فرقا ؟ ألم تعرف أن الريح « يعوي » في المغاور و « ينوح » في شعيرات الرتم ؟ أم أن لسانك هو الذي خانك ؟ نعم . نعم .
الريح يعوي في الكهوف ، ولكنه ينوح في رؤوس الرتم . ها - ها -
ها .. لولا التواح ، لولا اغنية التواح ، لما اوقعتني الأميرة في الأسر ». ثم
أطلق في السهل أشعارا تتغنى بشجرة الرتم ما لبست أن ردتها الحسان
ولختها المغنيات . ويقال أن هذه الأغاني استفزت الاشقياء الذين نسوا
ماضي آكا السحري ولم يعودوا يرون فيه غير أبله فقتله الأميرة وأصابته
بالخليل . وذهب الحساد فطعنوا في صدق الأشعار وادعوا أن آكا لم
يذهب إلى الحمادة ، ولم ير في حياته رمة واحدة ، وكل قصائده عن
« الشذى الذي يفتح الطريق إلى واو » (كما وصف زهرة هذه الشجرة
الخفية) هي أبيات مختلفة وملفقة . ولكن آكا لم يتأخر عن الرد . فما
أن سمعت إليه الشائعات حتى ترتعن واخفى عينيه بثمامه ووجد نفسه يوح
بذلك السر الذي دافع به عن النفس وجلب له الشقاء .

قيل أنه قال وهو يترنح : « اذا جاءت الغيبة انفتح الباب على
الخلفاء وتبدى ما في الظلمات . اذا وقع المجنوب رأى ما لم تره عين ،
وسمع ما لم تسمعه أذن . فكيف يتاجسر البلهاء ويستكثروا على
المجنوب الخروج إلى الحمادة والتتمع بمشاهدة اشجار الرتم وهي
تفتح؟ ». زاره بعض الخبراء ونقلوا له سؤالاً ادعوا أنه مرسل إليه من قبل
الحكماء ، يقول : « هل خرجت إلى واو أيضاً اذا كان الجواب

بالايجاب فلا تتفوه به أمام رسالنا قبل أن تضع يدك على «ادبني» وتقسم بجماج الأجداد ثلاثة». فما كان من آكا إلا أن ترّنح وانزل اللثام على عينيه ووضع يده على القبر القديم وأقسم بالسر ثلاثة.

قبل أن السّحرة بحثوا أمر هذه الخطيئة طويلاً، ثم حكموا عليه بالجزاء.

(١٥)

اعتصم برأوس الجبال، واعتزل في بطون الكهوف حتى خشيت القبائل أن تكون المغنيات الساحرات قد استدرجنه إلى آغرم نودادن. الرعاعة وعاشرو السبيل أخبروا أنهم شاهدوه يهيم في الغيران هزيلاً شاحباً، واجماً كأنه مسوس. ولكن وحيداً ظل حتى ذلك الوقت سراً. لم يستطع أحد أن يعرف أن آكا كان يجذب في البحث عن دم التكوين، قيمية الأرض، سر الأسلاف، نداء السيرة الأولى. كما لم يدر أحد كم من الوقت مضى قبل أن يعثر العاشق على كنزه، على دم مقدس يجري في عروق الأرض، على .. «تفتست».

بعد العثور على الكنز اختار أبل صخرة، وبدأ يخط على صدرها نقوش الخلق.

نحت، وصقل، وهيأ للمعشقة في الحجر وطناً تسكن إليه. أصيب بالحمى، وقاوم الدوار، وتقيأً كثيراً، ولكنه لم يستسلم للسقم. حاربه المردة وسلطوا عليه الشعابين والحيّات والسعالي، ولكنه أفلح في

شخذ الجلمود أخيراً . هام أياماً آخر قبل أن يواصل المرحلة الثانية في مشوار الابداع . أتى بحفنات من بعر البعير وطحنتها جيداً . أضاف إليها حليب النوق ومزج الخليط مع مسحوق « تفتست » النفيس . قبل تنفيذ الشعائر كان قد استدرج عجوزاً من خدم الأميرة ليعرف منه اسم سيدته الحقيقي . ناور الداهية طويلاً ، ولم يخبره أن اسمها هو « هابا » الا بعد أن دفع له قطعة نادرة من النطرون مقابل الاسم . هام في الوديان مرة أخرى . سهر الليلي وحاور النجوم . أنصت لمحاطيات الجن في الغيران واستمدّ الالهام من جلال السكون . تطاول في شعاف الجبال . ورافق السهل من موقعه في القمم المعلقة بين السماء والصحراء . كان السرّ الذي لم يبع به لأحد يحرق صدره . يتململ ويخرق القلب . فلا يملك إلاّ أن يتلوّي ويتقلّص وينزف . ظلّ ينزف منذ تلك الليلة التي تلقى فيها الحربة المسمومة من العين . من عين الأميرة . رفع رأسه عندما ضرب الطبل احتجاجاً على لحن غبى ترنت به فتاة غشيمة ، فالتفت نظره ببنظرتها . عينها لمعت ببريق عندما انعكست في مقلتها أشعة البدر . في المقلة ، في الحدقـة ، في قلب العين ، في الجوف المجهول المحسن بضلفتين جلدتين كأنهما صدفة القوقة ، تاه . تاه لأنـه وجد نفسه فجأة يدخل حرماً مهيباً زاره في اسفار السرّ كثيراً دون أن يعرف أين كان ذلك ومتى . شرع الحرم ببابا موسوماً بالرموز المقدّسة من ضلفتين ، وتبدّى خلفه ، في العتمة ، وطن آخر .

وَجَدَ نَفْسَهُ فِي جَوْفِ الْعُتْمَةِ دُونَ أَنْ يَعْرُفَ كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ أَيْضًا . عَبَرَ مَرَّاً مُسْتَوْرًا بِغَلَالَاتٍ بِلُونِ الْحَلِيبِ ، أَدَى إِلَى مَرَّ آخَرَ مُحْجُوبًا بِاسْتَارَ قَانِيَّةٍ كَأَنَّهَا الدَّمُ . فِي الْمَرَّ ثَالِثٍ أَغْمَضَ عَيْنِيهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَحْدُقَ فِي الْهَبَاءِ الْأَصْفَرِ الَّذِي يَشْبِهُ ذَرَّاتَ التَّبَرِ ، كَأَنَّهُ دَخَلَ دَارَ الْكُنُوزِ . وَفِي اللَّهُظَةِ الَّتِي أَغْمَضَ فِيهَا عَيْنِيهِ تَلَقَّى الْحَرْبَةُ الْمَسْمُوَةُ . أَحْسَّ بِهَا وَهِيَ تَخْرُقُ قَفْصَ الصَّدْرِ ، وَتَغُوصُ فِي الْلَّحْمِ . تَغُوصُ ، وَتَغُوصُ ، وَتَغُوصُ . خَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهَا غَاصَتْ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ تَبْلُغْ نَهَايَةَ الْمَطَافِ وَتَسْتَقِرْ فِي قَطْعَةِ الصَّمِيمِ الْمُحْصَنَةِ بِالْأَقْفَاصِ وَالْعُظَامِ وَاللَّحْوِ وَالشَّحْوِ : فِي الْقَلْبِ . نَدَّتْ عَنْهُ آهَةُ فَاجِعَةٍ ، وَأَحْسَ بِقَطْعَةِ الصَّمِيمِ تَنْزَفُ وَتَسْتَغْيِثُ . وَلَمْ تَتَوَقَّفْ الْقَطْعَةُ النَّبِيلَةُ عَنِ التَّزْيِيفِ وَعَنِ الْإِسْتَغَاةِ مِنْذَ تِلْكَ الْلَّيْلَةِ . لَمْ يَعْلُجْ لَأْحَدَ بِالسَّرِّ ، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلْ حَرْبَتَهُ فِي صَدْرِهِ وَيَعْلَجْ جَرْحَهُ بِوَحْيِهِ الْقَدِيمِ . هَامَ بَيْنَ النَّجْوَعِ فِي الْأَسْابِيعِ الْأُولَى طَمَعاً فِي تَلَقِّي الْإِلَهَامِ . ثُمَّ رَجَعَ عَنِ الْمَسْعَى وَطَلَبَ الْإِلَهَامَ فِي الْخَلْوَةِ . وَمَا أَنْ تَهَبَ بَدْنَهُ بِالْحَمْىِ حَتَّى عَرَفَ أَنَّ الْخَلاصَ قَرِيبٌ ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعْدَ الْفَخْ وَيَخْتَارَ لَهُ وَطَنًا . عَشَرَ عَلَى الْكَنْزِ وَلَجَأَ إِلَى أَنْبَلِ جَلْمُودِ فِي «الْأَلْوَنِ» الْعَظِيمِ . رَدَّ الدَّيْمَامَ وَتَغَنَّى بِالْتَّعَاوِيدِ . اسْتَدْرَجَ الدَّاهِيَّةَ وَاشْتَرَى مِنْهُ الْأَسْمَ بِقَطْعَةِ نَادِرَةٍ مِنَ النَّطَرَوْنِ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْشِ سَرَّ الطَّعْنَةِ حَتَّىَ أَنْ أَوْانَ الْخَلْقِ . نَهَضَ فِي مِنْتَصِفِ الْلَّيْلِ وَدَسَّ اصْبَعَهُ فِي الْمَزِيزِ الْمَقْدَسِ وَلَامَسَ جَسَدَ الْحَجَرِ بِادِئَةِ السَّفَرِ الْجَلِيلِ . بَدَأَ يَرْجُفُ وَيَتَمَمْ : «هَابَا . اِيُو .

أَرْغَ ». * يرفع رأسه الى البدر الغامض ، يتلقى من اشعته شحنة خفية فيعود الى الصخرة . يعيد : « هابا . ايوا . أَرْغَ » بصوت راجف ، مهموس ، يفيض بالابتهاج والتَّوسل . ظلَّ يداعب الحجر برأس أصبعه حتى انشقَّ خط الافق عن قبس البشاراة . في تلك اللحظة تزحزح رأس الحرابة لأول مرَّة وتخلَّي عن لحمة الصَّميم .

(١٦)

في تلك اللحظة أيضا سقطت الأميرة صريعة الحُمَى .

بدأ السقم بالشحوب . ثم تصدعَ الرأس بالدوار . تلا ذلك رجفة في البدن ، وضعف في اللحمة المحسنة بالقفص . في اليوم الثالث اشتعلت بالحُمَى وأُصيبت بنبوة غثيان . لزمت الفراش واستدعت السُّحرة . تجادلوا طويلا . عند الظهيرة تحول جدلهم الى معاندات مكابرة . في العشية تشايروا وتنابزوا بأقبح الألقاب . في المساء طردتهم من الخباء واستدعت الداهية العجوز . كان نحيلًا ، طويل القامة ، نحاسي البشرة ، يتخفي وراء قناع من الكتان الأسود . من طرف اللثام العلوي يتبدى شاربه الموسي بالشيب . انحنى في مدخل الخباء ، ثم سقط على ركبتيه وزحف حتى رکع عند قدمي الأميرة . استمرَّ راكعا حتى تلقى الإذن من الأميرة بأن يرفع رأسه . رفع رأسه فاللتقت نظراتهما . شاهد البياض وهو يتبدل الى سواد . والسواد ينتقل الى متاهة

• هابا ، تعالى . اسكنني (تماهق) .

من الغموض . والغموض يتحول الى دهليز مظلم . والدهليز يؤدي الى وطن السرّ . حرم يخيم عليه السكون . وقف أمام الباب المهيّب المرسوم بالرموز المقدّسة ، المزبور بالختم المجهول . أُنفتحت الضلفتان في آن واحد . مضى عبر الممر المستور بالغلالات الناصعة حتى افضى الى ممر آخر محجوب بأسثار قانية . في الممر الثالث أغمض عينيه لأنّه عجز أن يحدّق في ذرات الهباء الصفراء التي تتطاير في الهواء وكأنّها نثار التّبر . هنا رأى الأميرة تجلس على لوح اصفر يحرسه أفعوان مهول . حدّقت فيه غاضبة وهدّته بالحرس الذي يقف على رأسها ، بالثعبان ، ان لم يعترف . فهم ذلك دون ان تنطق الأميرة بكلمة ، ودون اشارة أيضا . رفع بصره الى الحرس فرأى كأنّ الأفعوان يتسم . كان يلتف حول عمود عجيب ينتصب فوق رأس الأميرة . له رأس في حجم رأس ابن آوى ، يتذلّى على صدره باسترخاء . جلده خشن ، تعلوه حرائف كأنّها لحاء الطّلح عندما يهرم . عيناه مغمضتان نصف اغماضة . ولكنّه ما لبث أن فتحهما ببطء عندما أحالت عليه الأميرة أمره دون نطق . استمر يفتحهما ويفتحهما حتى رأى فيما العجوز ما جعله يرتجف ، ويبين ، و... يسقط مغشيا عليه .

عندما عاد من رحلته وجد نفسه يهجم عند قدمي الأميرة . في المدخل تلظّت السنة النار فأيقن بنزول العتمة . كانت الأميرة تتكئ على وسادة الجلد المرسومة بالتمائم ، يغمر الضوء وجهها في غمزات

متلاحقة ، ولكنها كانت كافية ليشاهد في بياض عينيها لوم السحرة القدماء . أشاح بوجهه تجنبًا للعين ، تهياً للأعتراف لو لم يسمعها تقول :

- سوف تذهب وتأتني بقطعة من ثيابه !

عرف أنه لم يعد في حاجة للأعتراف ، وفكّر كم سيكون اعترافه سخيفاً في ملوكوت لا يُعرّف بالكلام لغة للتّفاهم ، فركع وقبل الكليم الذي يغطي العرش الترابي الجليل الذي تتخذه مخدعاً . غمض بالفاظ مبهمة قبل أن يزحف خارج الخبراء .

(١٧)

لم يكن صعباً على عجوز داهية أن يعثر للساحر على اسماء بنفس القدر الذي لم يكن صعباً فيه على من خالب تعاليم « آنهي » واسترخي أن يرتكب الخطيئة التي ورد في الكتاب المفقود أنها لن تكون الا الخطأ الأول والأخير في حرفه قاتلة كالساحر .
آكاكا استرخي وتفاول واقترف الخطيئة .

ترك أمتعته معلقة في جدار كهف من كهوف « آلون » دون أن يطمرها بالحجارة ، فتعقبه الداهية وعرف اليها طريقاً . اختار من لباسه لحافاً قد يحاكيه مشبعاً بالعرق والاحلام والذكريات والرؤى . لحاف قاسم آكاكا الحياة ، وشاطره الفرح والتجيء . مثل هذا اللحاف يساوي ذهباً كثيراً عندما يكون صاحبه ساحراً محترفاً . هذا ما تناقله الرواة نقلان عن معجم

خفي من معاجم السحررة القديمة . والداهية العجوز سمع هذه الرواية من كهنة الأدغال . ومن العرافين القادمين من مدن تهجم على سيف البحر المحيط عند أعمدة هرقل . ورأى أن اللحاف سوف يكون هدية جديرة بأن تطفئ غضب الأميرة أولاً ، ويُكفر بها عن خطيئة في حضرة مولاته ما دامت ستعيد إليها العافية . فكر أن يسكي بين يديها ويخبرها أن الأدمان هو الذي دفعه أن يفشي السر . سيقول لها أن الحياة لا طعم لها ولا معنى بدون ملح النطرون . وملح النطرون لا وجود له إلا عند سحرة مثل آكا . ولكنها غفرت له دون أن يتكلّم . غفرت له دون أن يضطر للبكاء بين يديها . فما أن جاءها باللحاف النفيس حتى لمعت مقلتها الغائبتان بفرح طفولي مفاجئ . اضجعت على عرشها الترابي وأمرت الجارية أن تشعل النار . مزقت قطعة من اللحاف وهي تبتسم بغموض . لم تلق بالقطعة إلى النار كما توقع ، ولكنها دلتها فوق الموقد حتى تعلق لسان اللهب النهم بتلابيها . استنشقت الدخان المنبعث من اللحاف المنسوج بالذكريات والرؤى والاحلام . اللحاف الذي تشرب عرق البدن في أجل جعل منه الزمان حياة مخلوق اسمه آكا . ابتهجت . استعادت قسماتها حيويتها . برقت مقلتها بالوهج . اختفى الشحوب وعادت للأميرة الحياة . سمعها تتنفس بالبشرة :

– لقد غفرت لك !

قطع شوطاً بعيداً في سفر الخلق . ملأ بدن الحجر باللّحم ، وصور العينين وبهاء الوجه ، ثم تولى أمر القدّ قبل أن يكمل رسم الرأس . أحس بالارتياح . تخلّصت لحمة الصميم من الرأس المسموم فتنفس الصعداء لأول مرّة منذ تلقى الحربة القاتلة في الصدر . ولكنّه لم يسمح لنفسه بالتوقف عن العمل الاّ بعد أن اتم التكوين في ستة أيام فرأى أنّ من حقه أن يستريح في اليوم السابع . نام ثلاثة ليالٍ متالية ، ثم ألقى نظرة أخيرة على المعبودة ونزل ليتفقد الأميرة في السهل .

هناك زلزلة الدهشة .

وَجَدَهَا تَتَشَمَّسُ خارجِ الْخَيَاءِ مُسْلَمَةً شَعْرَهَا الْفَاحِمُ الْكَثِيفُ فِي يَدِ جَارِيَةِ حَبْشِيَّةٍ . وَمَا أَنْ رَأَتْهُ حَتَّى أَبْعَدَتْهَا بِحَرْكَةٍ مِنْ يَدِهَا وَسَحَبَتْ لَحافَهَا الْقَانِي فَوْقَ الشَّعْرِ السَّخَامِ . ابْتَسَمَتْ بِغَمْوضٍ وَمَرْحٍ وَعَافِيَةٍ . أَحْسَّ بِرَأْسِ الْحَرْبَةِ يَتَلَوَّى وَيَتَوَعَّدُ وَيَزْحَفُ نَحْوَ لَحْمِ الصَّمِيمِ . غَمَرَتْهُ الْقَشْعَرِيَّةُ وَالْخَوْفُ . فَأَيْنَ وَقَعَ الْخَطَا؟ تَوَقَّعَ أَنْ يَرَى الْأَمِيرَةَ وَعَاءَ دُونَ شَعْلَةٍ ، فَإِذَا بِهَا فَرْحٌ وَعَافِيَةٌ وَغَمْوضٌ . هَمْسَ لَنْفَسِهِ عِبَارَةُ الْمُبَوْدَةِ الْقَدِيمَةِ : « وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا » وَصَمِّمَ أَنْ يَسْبِحَ عَنْ سَبِّ الْخَطَا . تَبَادَلَ مَعَ الْأَمِيرَةِ حَدِيثًا مَقْتَضِيَا أَخْبَرَتْهُ فِيهِ أَنَّهَا افْتَقَدَتْهُ طَوِيلًا . تَجَاهَلَ الْإِشَارَةَ وَادَّعَى أَنَّهُ سَعَى فِي طَلَبِ الْأَبْلِ الشَّارِدَةِ لَا دَخَالَهَا الْحَرَمُ قَبْلَ أَنْ يَفْوَتَ الْأَوَانَ وَتَتَهَكَّ قَطْعَانُ الْقَبَائِلِ الْعَشَبِ الْبَكَرِ . وَلَكِنَّهُ رَأَى فِي

عينيها أنها لم تصدقه . فهل أخفق ؟ هل تدخلت قوّة أقوى أبطلت مفعول الخلق ؟ هل تشكيكه صبية شقيقة في قواه السحرية ؟ والأَمَّا معنى بسمة الغموض في عينيها الخفيتين ؟ وراء الأَكمة ما وراءها . وراء الأَكمة ما وراءها . وراء الأَكمة ما وراءها .

عاد إلى الشعفة . تفقد الخلقة في الحجر . تأمل الحسناء . تأملها بخشوع من انتظر أن يرى الحياة تبعث في البدن الفتان . ولكن المعجزة لم تحدث . اعجوبة الخلق لم تكتمل . وكأنَّ الزلزال سوف يضرب الصحراء كلها ما بقيت الصورة صماء . انتظر الزلزال حقاً لو لم يقرأ في الأبراج الليلة وحِيَا .

في اليوم التالي نزل إلى تارات . إلى الحرم . مشى إلى البحيرات كأنه ممسوس . لم يتمتع بمشاهدة الجنان والجنان . لم يصر احراس الأرض التي تبسمت . لم يسمع نداءات الطيور في ادغال الربيع . ذهب آكاكا إلى البحيرات . قرأ الرموز الغامضة التي لمعت بها عين الماء . ظلَّ يقرأ طويلاً قبل أن ينزع لباسه ويقفز في الماء . هناك ، في الأسفل المجهولة ، حاور البط البري الحكيم وأخذ منه السر الذي أبطل تميمة الخلق .

أجمع الرعاة وعشاق الازهار المحترفون أنهم رأوا آكاكا يخرج من البحيرة قبيل طلوع القمر . ارتدى ثوبه الفضفاض وركض حاسر الرأس متوجهاً إلى المنفذ المؤدي إلى «اللون» العظيم . وأكَّد رعاة آخرون أنهم

شاهدوه يتسلق الحجارة في شطاره ودان يطارده صياد شقي . ولم يتوقف عن الركض حتى دخل المغارة التي ترك فيها امتعته يوما . هناك اكتشف اختفاء اللحاف فصرخ بأعلى صوت . ظلت الجبال الليلية المهيضة تردد الصرخة الجنونية طوال الليل . من قمم الجبال انتقل أمرها إلى عسس الجن الذين يحرسون الكنوز . من العسس انتقل الخبر إلى الأنس . وعندما بلغ الأمر الانس هرعوا إلى المكان ليجدوه مغشيا عليه وقد تدرج من الجبل حتى سقط عند الحضيض .
في غيهب الغيبة غاب ثلاثة أيام .

(١٩)

ما أن استعاد العافية حتى استقبل رسولا من الأميرة زاره كي يزف له بشاره . قال أن الأميرة أوكلت له أن يبلغه بأنها قبلت العرض . لم يصدق ما سمع . أيعقل أنها قبلت العرض ؟ أيعقل أنها فكت رموز السر في قلبه البائس ؟ أليس هذا برهانا آخر على اتقانها لحرفة لم يظن أن في الصحراء مخلوقا واحدا أتقنها وادرك أسرارها مثله ؟ أليس هذا دليلاً أن آنهى لم يخطئ عندما قال أن ثمة عالماً فوق كل ذي علم ؟ هرع إلى السهل . ذهب إلى خباء الأميرة . جاءها في امسية نصب فيها البدر نفسه سلطانا على الأرض وسلطانا على السماوات . تقرفص قبالتها وأثنى على استباب الطقس كثيرا . ثم تحدث عن الفردوس في الحرم ، وغنى لها اشعارا قال أنه سمعها من الطيور الخفية التي تتخذ من احراس

الحرم اعشاشا لها . انصتت الأميرة بجلال . واستضافته بابتسامة شهية من عينها المسكونة بالسرّ والسحر والغموض . استجابت لحمة الصميم لبسمة الجنّ بالرقص والفزّ والقلق . قدم له أحد عبيدها وعاء مليئاً بحليب النّوق . وضع الوعاء قدّامه ، ولكنّه لم يرتشف جرعة واحدة . غالٍ الأميرة في سخائها وبالغت . فما أن توقفت عن الابتسام حتى استبدلت العطية الأولى بعطية أخرى أحسن منها . قالت :

– قبلت عرضك !

هبّ واقفاً . فزّت لحمة الصميم . ارتجف البدن . واصاب الرأس دوار . غمم :
– حقاً؟

ردّت بابتسامة . نفس الابتسامة التي صنعت منه أسيرها . مریدها . عبدها . قال وهو ما يزال يرتجف :

– ظننت أنني .. أنني اخفقت !

لم تجُب فأضاف وهو يسقط ارضاً :

– انت تعرفين ماذا يعني أن يخفق العاشق في نيل المنشوقة !

سلط السلطان السماوي حزمة من ضوء على العين الباسلة .

تلقت العين الهبة فلمعت بالبريق القديم . البريق الأول . البريق الجذّاب الذي يمتد في خيوط تصنع نهايتها نصل الحرية . أصاب النصل فم اللحمة اذ نطقـت بالسرّ :

- ولكن مخدع الأميرة لا يستقبل العشاق دون شروط !
فَرَّتْ حول شفتـيه قطع صغيرة من الزبد . سحب لثامـه ليدارـها
فاصطـكت اسنانـه بشدـة . حكـ صدرـه بيسـراه عـلـه يوقف النـصل قبل أن
يتـوغلـ في لـحـمـةـ الـحـيـاـةـ ، ولكن الضـربـةـ قـصـمتـ ظـهـرـهـ اذ سـمعـهاـ تـنـطـقـ
بـالـهـوـلـ :

- ستـأـتـيـنيـ بـرـأسـ آـمـغـارـ !
فـزـ مـرـّـةـ آـخـرـىـ لـأـنـ النـصـلـ الشـرـسـ كـانـ قدـ اـخـتـرـقـ الـبـرـزـخـ وـأـصـابـ
الـصـمـيمـ . رـدـ بـذـهـولـ :
- رـأـسـ آـمـغـارـ ?

- رـأـسـ آـمـغـارـ ثـمـنـ منـاسـبـ لـلـفـوزـ بـمـخـدـعـ الـأـمـيرـةـ .
اشـتعلـ جـسـدـهـ بـالـحـمـىـ . حـاوـلـ أـنـ يـحـتـجـ . أـنـ يـعـتـرـضـ . أـنـ
يـرـفـضـ . ولـكـنـ هـيـهـاتـ . النـصـلـ استـقـرـ فـيـ القـلـبـ . لـحـمـةـ الـحـيـاـةـ وـقـعـتـ
اسـيـرـةـ فـيـ قـبـضـةـ الـأـمـيرـةـ . فـأـيـقـنـ أـنـ شـعـائـرـ التـكـوـينـ قدـ اـخـفـقـتـ وـالـلـحـافـ
الـذـيـ تـهـاـونـ فـيـ اـخـفـائـهـ كـانـ السـبـبـ . هـمـمـ :
- آـمـغـارـ ?

لمـ تـجـبـ . رـآـهـ تـهـضـ كـأنـهاـ طـيفـ منـ أـطـيـافـ الـجـنـ فـيـ تـادـرـارتـ ،
وـتـلـجـ الـخـبـاءـ . قـبـلـ أـنـ تـخـفـيـ حـانـتـ مـنـهـاـ التـفـاتـةـ فـرـأـيـ أـنـ الغـمـوضـ فـيـ
الـعـيـنـ قدـ اـسـتـحـالـ إـلـىـ غـضـبـ . إـلـىـ وـعـيدـ . إـلـىـ خـطـرـ . تـقـلـصـتـ لـحـمـةـ
الـحـيـاـةـ وـفـزـ مـنـهـاـ دـمـ غـزـيرـ . رـفـعـ رـأـسـهـ إـلـىـ أـعـلـىـ فـشـاهـدـ كـيـفـ أـسـوـدـ سـلـطـانـ

الأرض والسماء وتواري خلف حجاب مفاجيء.

(٢٠)

عاد الى الأعلى . اعتصم بالغiran . اعتزل هناكأسابيع كاملة .
يحرق بالحُمَّى ويuarك مردة الجان حتى يش من الشفاء . نزل الى
الوديان . هام طويلا قبل أن يذهب الى السهل لزيارة الأميرة . ولكن
الحسناء رفضت استقباله . بعثت له برسول نقل له وصيّة منها تقول : «لن
ترضى الأميرة أن تستقبل في مخدعها رجلا خلا من البطولة » . فرجع
الى «آلون» . أشتدّ به السّقم فقصد تارات . قال الرعاة أنه ظلّ يردد
اسم آمغار طوال الطريق . وعندما بلغ الحرم توقف تحت طلحة وسطّر
رموزاً على رقعة جلد بعث بها الى اطلانتس الذي كان وقتها منشغلًا
برعي الأبل في مراتع الربيع . كان آكًا قد انتوى بمجيئه زيارة الابن .
ولكنه تراجع عند مشارف الفردوس وأثر أن يحرر مكتوباً . ويقال أن
الرقعة أحنت وصيّة وداع موجهة لا طلانتس . حذرّه فيها آكًا أن
يتجنّب النساء ، ويحترس من التورط في الاقتران مع بنات الأغراب .
وروى رواة آخرون تفاصيل أخرى وردت في تلك الوصيّة الغامضة ،
ولكن كثيرين رأوا أن تلك التفاصيل ما هي الا قصص اختلقها
الفوضوليون وهواء الملاحم ولا علاقة لها بنص الرقعة الأصلي .
آكًا عاد من منتصف الطريق . لم يجتمع باطلانتس ، تحت ظلال
ادغال الشجر كما قضى العرف ، لم يحدثه عن الجليّ والخفى في

الصحراء كما يفعل سحرة الصحراء عندما تحيّن غمضة الفراق . آثر أن يخطّ كلمته الأخيرة على رقعة لأنّه جبان . بلّي . الأميرة على حقّ عندما قالت أنها لا تقبل أن تستقبل في مخدعها رجلاً خلا من البطولة . الأميرة لم تخطّيء . وهي أرجل منه وأبل . وها هو يرتكب اليقين . ها هو يقدم لنفسه البرهان على أنها لم تخطّيء إذ رفضت استقباله . ولكن عزاؤه فيما انتوى . العزاء الآن في قراره بالنزول إلى أسفل المملكة السفلى لا طمعاً في نيل الأميرة ، ولكن كي يبرهن لنفسه أن ما زال فيه بقية من رجولة . كان أمغار يتصبّ في وجهه منذ تلك الليلة التي سمع فيها الهول من شفتى الحسناء . يراه في الصحو وفي المنام . يرفع على رأسه قرنين هائلين . يقف بقامته الماردة ويحدّق فيه بعينيه الكحلاوين الغامضتين . يتخفّى في جلد الوذآن المقدس . يتذكر في مسوح السلف الأولى صامتاً . لا ينطق . لا يقضم العشب السخنيّ . لا يأتي بحركة . يتجلّى بوقار السّحرة الأوائل ويصرع الاعداء بالسلاح القديم . سلاح يكمن في جلال السكينة الذي اكتسبه بالاعتزال والخلوة . وكان آكاكاً يتحاشى عينيه . في المقلتين العميقتين ، في البئر التي لا قاع لها ، في مأوى السرّ هذا ، رأى آكاكاً دائمًا خطراً . فكان يحتمي بالأسم كتميمة . يردد «أمغار» ليتحصن من العينين بالأسم ، ليهرب من أمغار إلى أمغار ، ليتحمي من أمغار بأمغار . واذ ردّ الأسم مراراً في طريق العودة ، فإنه ما لبث أن صار لغته الوحيدة عندما بلغ شعاف «آلون» .

هناك اختار الحجر الذي هيأه كشرك لسلطان مملكة الودآن . ذلك نصب يليق بآمغار . كان لوحًا عمودياً رشيقاً . صقيل الصلد طوليل القامة . بهيّ البدن . بدأ عمله مع ميلاد القبس متممًا بالتميمة ، مغمماً بـ «آمغار . ايو . ازع» ، ولم يتوقف عن إداء الشعائر الآء مع حلول الغسق . بدأ ينصب الكمين .

بدأ بالقناع . في القناع يخفى آمغار سره . اذا لم يفلح في تجسيد الرأس الملفوف بالقناع فلن يتمكن من استدراجه السلف المقدس . اذا لم يتقن رسم القرنين المعقودين الهائلين ، اذا لم يلتقط المنخار ، الخطم ، العينين ، فان آمغار سيظل طليقاً في المغاور ، سيفى خارج المصيدة ، خارج الكمين ، وسوف يخبره الطير ، مولا - مولا ، أو تيرزازت ، وسوف ينزل الى الأسفل . سيتوغل في «آغرم نودادن» ليتحصن بالصخور السفلية . اتقان الفخ يعتمد على اتقان القناع . اتقان القناع يكفل اصطياد ما وراء القناع ، ما يخفيه القناع . ما يخفيه القناع هو المفتاح ، هو التعويذة ، هو الأصل ، هو السر . وعمله كله بحث عن هذا السر . السحراء الأوائل يؤكدون ذلك دائماً . هذه القناعة جعلته يهب تجسيم القناع ثلاثة أيام كاملة . ولا يستطيع أن ينسى ما حدث عندما فرغ من القناع ولم يبق الا تكوين العينين . كان يجذب ويشر الزبد ، ويرتجف . يقترب من جدار اللوح ويبتعد . يرقص حول النصب المقدس طويلاً كلما افلح في اصابة الحجر باشارة من اشارات تفتقست :

من اشارات التكوين ، من دم الأرض ، حتى اذا أكملت الصورة ، ورأى العينين المقدستين ، اللتين تشبهان عين الماء في البشر ، رکع على ركبتيه . حدق في وطن السرّ مأخوذاً . ماذا رأى هناك ؟ هل هو وعيد ؟ هل هو فجيعة ؟ هل هو علامة من علامات الفناء ؟ أم أنه رأى لنفسه النبوة التي لم يكن منها بدّ ؟ لقد صاح بعد ذلك صيحة طويلة موجعة ، سمعها الرعاة وعابرو السبيل ، وتولّ وهو يغطي وجهه بذراعه ، وعندما لم تستجب الحديقات الخفيتان للتتوسل سقط على الأرض يتلوّ . ولم ينج من الخطر الا بعد أن غاب في الغيوبة . وبرغم الانهاك الذي اعقب الرحلة الا أنه أكمل في اليوم التالي . غطّى القناع بوشاح قديم حتى يخفى الرؤى في العينين . استمرّ في العبادة . ينكبّ على النصب كالعاشق ، يعني له المأويل الشجانية ، ويرقص حوله رقصات المجنوين المصايبين بحمى الوجود . ولم يسترح الآ في اليوم السابع .

(٢١)

استراح ثلاثة أيام .

نزل الى السفوح وتلقى حليب النوق من الرعيان ، وذاق طعم الطعام لأول مرة منذ اسابيع . ولكنه لم يسهر ولم يقاسم الرعيان السمر . تسكيّع في الجوار ، قطع الوديان ، تسلق السفوح ، زار أشجار الطلح ، وتمسّح بجلاميد «آلون» كأنه يستغفرها ويعانقها بوداع الأبد . وما أن دخل الصحراء ضياء وعاد الزمان بالبدر لينصبه سلطاناً على الخلاء ،

حتى بكى . ظل يبكي ، يرمي البدر ، وينتقل في ارض مقدسة بدا له كأنه يراها لأول مرة . استعاد تعاليم الكتاب المفقود ، وتذكر ما أورده الحكماء من أن الصحراوي لا يعرف معنى الصحراء التي اطعمته من جوع وآمنته من خوف الا عندما يحين الوقت ويتهميا لفراق الصحراء .

ذهب إلى مغارة في سفح «آلون» الغربي كان قد أخفى فيها متاعاً منذ عامين . أزاح كوما من الحجارة واستخرج ترساً قاسياً مصنوعاً من جلد البعير . نزل وسار في بطん الوادي مسافة طويلة . انحرف مع الوادي وتلوى مراراً قبل أن يتوقف ويتفقد العلامة . رأى طير البومة الذي صنع له كميناً عابراً وثبته في صخرة مميزة ، مثلثة الأضلاع ، تهجم على شط الوادي الأيسر ، الشرقي . صعد خطوات . توقف عند الصخرة . التفت . يمّ شطر المشرق . بدأ يقيس المسافة بخطوات واسعة ، وهو يتمتم مع كل خطوة : «أَيْت - سَنَاتٍ . كِرَاضٌ . سَمُوْسٌ . سَضِيْسٌ . أَسَاهٌ .» .

في الخطوة السابعة توقف وركع فوق الأرض . حفر بكلتا يديه . استخرج من الحفرة جلوداً ملفوفة في أسمال من القماش فتكث بها الأرضية . قطع الجلد أيضاً فتكث بها الأرض ، ولكنه لم يبال . حملها في كيس وعاد إلى الموقع . في الطريق عرج على غار في الأعلى . مكث مع الجن في الظلمات ساعة ، ثم خرج من هناك برأس ودان .

• واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربع ، خمس ، ست ، سبع . (تماهق) .

كان متوجاً بقرنين هائلين معقوفين الى الوراء ، ثم الى الأمام . دسَّ المتابع في غرارة منسوجة من شعر الماعز . توسلَها وهو يهجع في السفح .

تخلَّى سلطان الضياء عن عرشه السماوي . حلَّت العتمة الكثيبة التي تعقب اختفاء القمر . حاول أن يغفو . لم يقدر . نهض . ملِمَ متابعاً . حمله على منكبيه وعاد الى النصب . توقف الجنّ عن الثرثرة .

تصنتت الصحراء ، تابعت أرتطام نعليه بحجارة السفوح .

(٢٢)

ما أُن تدخلَ القبس البطل وآوقف عناق السماء والصحراء حتى أصبح متأهباً . تلحف بالجلود . نصب فوق رأسه قناع الودآن فارتفع التاج المهيـب المـكون من قرنين معقوفين الى الوراء ، ثم الى الأمام مرة أخرى . تربع في مواجهة الحجر . تابع الخطوط التي جسّمت الملامح وبعثت آمغاراً من منفاه في ظلمات آغرم نودادن . ولكنه لم يمزق القناع . لم يمط لثام الكتان عن البغر ، عن السرّ ، عن الوطن الخفيّ ، لأنَّه آثر أن يتحصن بقراءة التعاويد .

تمتم طويلاً حتى أنه لم يعرف متى استيقظت الحسناء الفتية من الظلمة وغزت الصحراء بأصابعها الارجوانية * . انعكس الشعاع البكر على النصب الذي يماثل مسند السرج في كبرياته . تململ الزائر في جلسته . مدَّ رأسه الى الأمام . تابع أصابع الحسناء وهي تزيل العتمة عن

* استيقظت الحسناء الفتية من الظلمة بأصابعها الارجوانية : هوميروس « الاوديسة » .

ألوان الخلق . غمغم بصوت مبهم . ترتفع كالمحذوب . تمدد بجسمه . ارتفع عن الارض اشبارا . ولكن القامة لم تنتصب تماما ، لأن البدن ظل مشدودا الى الارض في وضع أفقى . ظهره مقوس ، وما كان أياً دياً وأرجلاً استحال الى قوائم أربع . تحول الخلوق المدهش الذي كان يدب على قدمين وزال مع الأرض التي مضت والسماء التي مضت . تقل حول النصب بحذر . ثم تقافز في الهواء بشقاوة الجداء . عاد يغمغم بصوت مجهول ، ثم دار وراء الحجر . تصنّت لحظات قبل أن ينهش الخرقة التي عصب بها عيني آمغار عندما كان مخلوقا يقطن الأرض الأولى ، ويتنفس الحِيل . زفر الهواء بخياسيمه وقفز في الفضاء بمرح قبل أن يدور حول الحجر ويقف في مواجهة بحيرة الغموض والصمت والأسباب . حدق في المياه الفضية ، تابع الألق المبهم ، ورأى مخلوقات مقطوعة الرؤوس ، وأخرى نبت لها الرؤوس في الاقدام السفلية ، وحاول أن يستعيد علاقة لابد أن تكون حميمة ، أقامها يوما مع هذه الخلوقات ، ولكنه نسى . لم يستطع أن يتذكر . وحتى عندما خرج وانهيط من البحيرة وانخبره بحقيقة المكيدة مقهقها على طريقته القديمة ، لم يرف له جفن . ظل يتلوى ضاحكاً ويتحدى عن الكمين اللثيم . ولكن الخلوق المشدود الى الأرض بأربع لم يبال ، ولم يفهم ، ولم يستجب للاستفزاز حتى وقع وانهيط في اليأس . ولم يكن وانهيط ليعرف بهزيته لو لم يعرف أن الصحراوي يدخل مملكة الودان

والاجداد الاوائل اذا فقد الذاكرة وتحلى بالنسيان . واذا دخل ارض النسيان والأوائل فقد لغة التفاهم مع وانتهيط أيضاً . وفيما كان الرعيان يتبعون مخلوقاً محشوراً في جلد آخر ، على رأسه يقف قرنان معقوفان الى الوراء ، يتقافز على أربع ، يسلك طريقاً ترابط على رأسه المغيبات الساحرات ، يتحاشاه تجّار القوافل ويهرب منه الرعاة وعابرو السبيل ، كان وانتهيط ينتخب يومها بدموع حقيقة ، ويعيد حكمة غامضة يحلو له أن يعيدها دائماً : « أنا جزء من تلك القوة التي تريد الشر دائماً ، ولكنها تفعل الخير دائماً ».

(٢٣)

لم تفتقد القبائل المرابطة في فم الحرم غيبة آكاكا ، لأنها لم تتوقع للساحر أن يعود من كمين نصبه لنفسه . حتى اطلانطس لم يفتقد أباه اذ لم يره أحد معتصماً باعتزال أو صمت أو حزن . وقيل في النجوع أنه دفن أباه يوم تلقى منه تلك الرقعة الجلدية الخفية ، دون أن يجد نفسه مضطراً للالتزام بالوصايا . فما أن غاب الأب الذي حذر الأبن من التورّط في علاقة مع نساء الأغراب حتى قرعت في السهل طبول تنبيء القبائل باقتران اطلانطس بالأميرة .

كانت جنان الحرم قد ألهت النجوع لحدّ أنساها الفضول ، فلم تدرّ كيف قبل الأبن أن يرث حسناء يعرف أنها دبرت المكيدة ضد أبيه ، ولا كيف قبلت سلطانة المعدن المشئوم الارتباط بأبن رجل ساحر رأت

فيه عدواً . ولكن قيل أن الأميرة لم تدبّر الكمين للأب الذي تستولى على الأبن . وما أن غاب آكا في غياب الملكة السفلی حتى بعثت بعدها العجوز ليخبر اطلانطس بوصيّة تقول فيها أن العرف جرى بأن تقتربن الحسناء التي هلك رجلها سعيا وراء القربان بوريشه الذي يقع على قيد الحياة . وقالت أيضاً أن الأبن جدير بتل حسناء رضي بأن يرى أباء يقدم نفسه قربانا لها . ويقال أنها اشتربت المؤن من القوافل العابرة ، واعشلت النار في السهل استعداداً للفرح دون أن تنتظر جواب اطلانطس . فلم تعرف القبائل عما إذا كانت الثقة في النفس (التي تتحلى بها كل حسان الأرض) هي سبب هذا اليقين ، أم أن هذا العمل هو تأكيد لما قيل بوجود علاقة خفية بين الاثنين يرجع عهدها إلى الأيام الأولى التي نزلت فيها الأميرة أرض آزجر . ولم تكن العلاقة لتبقى خفية طوال هذا الزمان لو لم يرتكب آكا الحماقة ويتدخل لافساد العشق .

وفيمَا كان السهل يعج بالجموع ويضج بالصخب والغناء ودقائق الطبلول ، كان السحراء يرسمون أقدار الحمقى ويعذّبون للخلق خططاً أخرى . ويقول الرعاعة الحكماء أن الكمائن شريعة في الصحراء منذ الأزل . فما أن يندفع البلهاء للرقص ويصبحون بالفرح حتى يهرع هؤلاء الآلهة الخيفون للجتماع ليعدّوا للصحراويين مصيرًا آخر . في ذلك اليوم أيضًا أعدّوا للعاشقين مصيرًا آخر .

الحقوا رقعتهم القديمة التي بعثوا بها للزعيم برقة سرية أخرى . وبرغم أن النّص بقي خفيًا إلا أن التكهنات قالت أنهم ذكرروا الزعيم بخطورة السكوت على ادخال معدن النّحاس إلى مملكة آزجر . وحدّروا الزعيم أنه ان رضي بالكفر وسكت على الحثّ بالوعد فانهم سيضطرون للهجرة ، لأنّهم لا يريدون أن يدخلوا في عداوة مع الجنّ . ويبدو أن التهديد بالتخلي عن المملكة أربك الزعيم فجاء الرّد قبل أن تضع الأميرة مولودها الأول . كان رداً يليق بزعيم آزجر . فلم ير أحد كيف تسلّقت الأشباح المحتجبة بالسود المهيب سفوح «آلون» العظيم مع نزول عتمة المساء ، ولم تتوقف حتى بلغت جلماوداً في الأعلى تلقى يوماً تميّمة شاء لها وانتهيط الآتّكتمل ، لأنّه دبر لمدعها البائس مصيراً آخر . ولكن السرّ الذي اخفاه وانتهيط وغاب عن الساحر لم يكن ليخفى عن الزعيم الذي تقاسم مع وانتهيط الماء والملح قبل أن يدب بينهما الخلاف . فبعث برسل قرأوا على الرسم اسم «تأنس» بدل الكنية المستعاره «هابا» .

تقدّم أحد الأشباح وائلع بجوار الجلمود ناراً . أخرج الشبح الثاني من كمهّ وعاء صغيراً ، مستديرًا ، مصنوعاً من جلد البعير . كشف الغطاء ودسّ سبابته النحيلة في السائل الأحمر . ارتجفت شفته السفلی كما تنوّس اغصان الرّتم عندما يهب القبلى ، ولكن لم يلحظ ذلك أحد ، لأنّ شفته السفلی كانت محتاجة خلف اللثام الأسود . جحظت عينا

الشبح الثالث وهو يشيع رأسه نحو السماء . في تلك اللحظة أنطفأت النجوم لأن سحبا مفاجئة ما لبست أن غزتها . ردّت الاشباح الثلاثة في صوت مفاجيء : « تانس ! ». خطف الجلمود النداء وردد بصوت أكثر جلاً : « تا - ا - ا - نس .. ». تناقلته القمم الأخرى ، ومضى يتردد في الصحراء من قمة الى قمة ، ومن جلمود الى جلمود ، حتى نقلته الحجارة من لغة الانس الى لغة الجن ، ولم تطمئن قلوب السحرة الا بعد أن تلقته من جديد من أفواه أهل الخفاء فايقنوها أن السر زال ، والتميمة انتهكت ، ولا بد أن يكون وانتهيط الشيم قد أصيب بالسقم ، لأن مخلوقا في السهل سقط الآن . مخلوق السهل لم يسقط فحسب ، ولكنه أسقط جنينا لم يمض عليه في الاحشاء سوى سبعة أشهر . هرعت النساء الى مخدع الأميرة ، وهب اطلانطس الى الاخبارية سعيا وراء العجائز . في شعفة الجبل لوث الشبح بدن الحجر بدم التكoin . استمر يجرّ أصبعه على التكoinين متتمما بالتمائم المبهمة ، حتى اذا امتصّ البان الدم من الأصبع دس السبابة في الوعاء وتزوّد بـ « تفتست » المخلوطة بحلب النوق وبعر البعائر .

استمرت الاشباح تمارس شعائر الخلق في رأس الجبل ، واستمر المخلوق الارضي يتوجّع ويدفع بالجنين الى الحياة في السهل . وما أن ارتفع صوت الوليد بصرخة الاستهلال ، وتناقل سكان الخفاء نداء الميلاد ، حتى توقفت الاشباح عن العمل . رفعوا رؤوسا سوداء الى

السماء الظلماء وصاحوا بصوت واحد : «تأنس». مضت القمم تردد النساء في حين تناول أحد الأشباح الثلاثة قادوما مخيفا من الحديد هوى به على البدن . اهتز الجلمود . توجعت السماء ، سطّر المجهول شررا مبيها على قرطاس الظلمة ، كانَ وانتهيط أراد أن يحرقهم انتقاما . بعد الشر جمع الرعد ، كانَ وانتهيط أراد أن يخسف بهم الأرض . ولكن.. السرُّ أُنكشف ، والتعيمة أنتهكت ، وتأنس لفظت انفاسها الأخيرة .

قيل أن اطلانطس أصيب بالمسَّ في اللحظة التي هجرت فيها محبوبته السهل لترك بين يديه الوليد . فخرج من الخبراء وركض عبر الظلمة حاملا الطفل بين يديه . ويبدو أن صراخ الوليد هو الذي أعاد له العقل . ولكن ذلك لم يدم سوى ومضات . فما أن ألقى بال طفل بين يدي أول رجل ادركه ، حتى ابتلعه الليل إلى الأبد .
لم يره أحد بعدها .

وبرغم اختلاف الروايات الا أن العقلاء أكدوا أن اطلانطس لحق بأيه ونزل آخر نودادن . وتساءلوا : كيف ينجو من بش المصير من خالف الناموس واستهان بوصايا الأب ؟

(٢٤)

نزل الاشباح الى السهل في نفس الليلة وبدأوا في جمع الكنز .

كانت الهرجة في ذروتها ، ولكن الرّسل لم يأبهوا لشيء أبداً . مضوا الى الاخيبة اولاً ، وأستخرجوها من الصناديق كل حلّى الأميرة . جمعوها في غرائر ، ثم امتدت أيديهم الى صدر كل امرأة تلقت عطية ذهبية من أميرة الأغراب . وقد ظلت القبائل تروي لسنوات طويلة كيف لم تخفي اصغر قطعة عن أيدي هذا الثالوث المخيف . وما زال الفضوليون يتذرون كيف ظنَّ أحد الرعاة البلهاء أن حلقة الذهبية قد نجت من أيدي السّحرة مجرد أن عقله العبودي حدثه بأنها ستكون في مأمن اذا اتخذها لجاماً وثبتها في خطم الجمل . ولكن أحد هؤلاء الجن غاب في الظلمة وأختار هذا الجمل من بين مئات الجمال الأخرى . أناخه أمام الخبراء وحمل عليه غرائر الكنز . احتفوا في الظلمة ، فلم يعرف أحد الى أين ذهبوا ، كما لم يعرف أحد قبلها من أين جاءوا . ولكن ما عرفه السهل هو أن الجمل عاد في اليوم التالي مجرداً من اثقال البارحة ، وقد اختفت الحلقة الذهبية من خطمه .

قيل أن الثالوث ينتمي الى أهل الخفاء ، جاء الى السهل كي يسترد كنوز الأميرة ، بدعم مجمع السحرة ، في حين ابتسم السّحرة بغموض وابوا أن يعلّقوا عن مصير الكنز .

(٢٥)

ظنَّ العبد العجوز أن مولاته هلكت لأنَّه أذاع سرّها . ولم يدر المسكين يوماً أن المرأة التي جاءت الى آزر ل تسترد نسل الأم من صلب

الآخر لن يذاع لها سر حتى لو شاءت ، ليس لأن قلب الغريب هو كنز السر في شريعة الصحراء ، ولكن لأن المجهول الذي بعث بها رسولا ، اودع فيها أسرارا كتب عليها ألا تعرفها هي نفسها . وعندما أراد العجوز أن يكفر عن خطيبته المزعومة لم يجد غير الوليد الذي تيقّن في المهد يغدق عليه حنانا حرم منه . وقد حرص بنفسه أن يجعل له اسما يليق بمن تيقّن قبل أن يرضع حلبيا من حلمة الأم ، فحمله بين يديه في اليوم السابع ، وغسله بأصابع الشمس الارجوانية ، وصرخ في أذنه باسم اعتادت قبائل الصحراء الجنوبية أن تطلقه على كل من تيقّن في قماط المهد : بوشا ! كان يحشوا فمه في أذن الرضيع ويكرر : « كر - ر - ر .. ايسمنك بوشا » * ثم يلوّح به في الهواء ، صوب الشمس ، بعد كل صيحة ، ليتغلّل بفيض الشروق .

ويقال أن سحرة القبيلة شاهدوه من مداخل أختيهم وهم يتسمون . نفس البسمة الساخرة ، الغامضة ، الحالدة ، التي تنطبع على شفاههم وتلمع بها عيونهم عندما يطيب لهم أن يراقبوا افعال الخلق البلياء الحالية من شرر السر . ولأنهم يعرفون أن السر مهنة السحرة فانهم لم يلبثوا أن تخطابوا يومها بلغة التيفياغ التي لا يتقنها سواهم . شرعوا يرطون بحروف الأبجدية الملحونة ، وتبعوا الخطاب بهزات مهيبة من عماماتهم الزرقاء ، واصدروا أصواتا خفية بتصورهم ، ثم

* كر - ر .. اسمك بوشا (نداء تصرخ به القابلة في أذن الوليد) .

تقاطروا على خيمة الاجتماع . تجادلوا هناك طويلا ، وبعثت العجائز بالصبيان ليتجسسوا عليهم ولكن السحرة الدهاء الذين عرفوا حيل العجائز توقفوا عن التخاطب بلغة الصحراء ليعودوا الى اللغة السرية كلما جاءوا على ذكر بوشا ، فلم يعد الصغار الى جدّاتهم الا بلفظتين بدتا أشد غموضا من ابجدية « تيفيناغ » نفسها هما : « المنفي » و« الشقاء ». وكان على حكمة العجائز أن تجدهم لهما تفسيرا . ولكن ما نفع العجائز في الصحراء اذا عجزن عن ايجاد تفسير لرموز « آنهى » ، أو طلاسم الكنوز ، أو ما خفى عن العقول البلياء في مخاطبات السّحرة ؟

بعد اجتهاد العجائز سارت في آزر الروايات . تناقلت القبائل خبر بوشا فقالت أن السّحرة حكموا عليه بالمنفي لأن سلالته الشقية سوف ترمي السهل بما هو أعن من نحس التّبر الذي أرادت به أمّه من قبله أن تهلك به أرضهم النيلة . ولأن من سبقهم قد جربوا من قبلهم أن الأخت اذا أخذت النسل من صلب أخيها وأصبح الحال للابن أبا فسدت الأرض ، وحل الجدب ، وعم الخراب . واذا أرادت القبائل أن تبقى على الخير في ارض الحرم فليس أمامها إلا أن تلحق الأبن بالأب ، بالسلف . ولما لم يعرف أحد كيف السبيل الى ذلك رأى مجمع السّحرة أن يتولّي الأمر بنفسه كما اعتاد أن يفعل في تلك المواقف التي تهدّد القبيلة بالزوال . تنادوا للجتماع مرارا ، تبادلوا الهزّات برؤوسهم كثيرا ، وتخاطبوا باللغة السرية طويلا قبل أن يخرجوا للملأ بالبشرة .

قالوا أنهم أستطاعوا أن يلحقوا الخلف بالسلف دون أن يفهم أحد كيف حدث ذلك اذا كان بوشا ما يزال في تارات تحت رعاية العبد العجوز . حتى العقلاه لم يفهموا اشاره السحرة الاّ بعد سنوات طويلاه عندما ترعرع الولد وكبر وأصبح لا همّ له في الحياة الاّ أن يهرب من الخلق ويطارد الودان في الجبال . حاول أهل الفضول أن يجدوا تفسيرا لهذا الطبع فللاحقوا العجوز بالسؤال ، ولكن العبد القديم الذي ظنّ يوما أنه أهلك مولاته لأنه أفشى سرّها للاغراب ما لبث أن مات حتى لا يجيب عن سؤال رأى فيه خطرا على حياة ذريتها .

لم يزد موت العجوز الأمر الا غموضا . والغموض هو الذي يغذّي روح الفضول في صدور أهل الصحراء . وعندما تمادي بوشا واتخذ من مطاردة آمغار حرفة له ببحث العقلاه عن سرّ المنفى مرة أخرى . لم يطل بهم البحث هذه المرة لأنهم اكتشفوا التعويذة فانتهت بهم الأمر الى أن السحرة لم يلحقوا الخلف بالسلف جسدا ، ولكنهم فعلوا ذلك عندما ذهبوا بعقله . دبروا مكيدة وذهبوا بعقله . بلى . بلى . ما بوشا اليوم الاّ مخلوق أبله يسكن الشقوق ، يقتات نبات المرتفعات ، يلاحق الودان ليلقى عليه سؤالاً غامضاً اختلف في أمره الرعاة ، واجتهد أهل الفضول كثيراً ليقفوا له على المعنى .

٦ - الحية ((١))

« وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وحلقة مركبة في البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتيء ، وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعدة يرجى نفعها ، أو إحياء شرف يريدون ذكره »

الجاحظ

« الحيوان »

« .. ربما سكنت بقرب ماء ، إماً غدير ، وإماً عين ، فتحمي ذلك

الموضع »

ابو عثمان الجاحظ

« الحيوان »

« عندما ينعم الإنسان بالاكتفاء يصبح التوق للبقاء على الذكر هدفاً للتدليل على انه تواجد حقاً يوماً ما . إننا نطبع هذه الأدلة على الأحجار والأشجار أو في مصائر البشر . هذا التوق يحيا عميقاً في كل منا ، ابتداء من الصبي الذي يختطّ الألفاظ البدئية على جدران المراحيض العامة ، واتهاء بيودا الذي رسم لنفسه صورة في وعي شعوب كاملة . الحياة لا تبدو واقعية ، لهذا نشكّ عما إذا كنا نعيش حقاً في هذا الوجود ، فنبرهن ، بأي وسيلة ، لأنفسنا ، وللآخرين : نعم . نحن على قيد الحياة » .

جون ثتاينبك

« مراعي الفردوس »

(١)

كلما امتد الوادي الى الجنوب ، ازداد عمقاً وجللاً وغموضاً .
كان يتلوى ، ويترعرج ، وترتفع هامة الجبال على جانبيه فتنطق الحجارة
التي حفظت في قلبها الشرائع الأولى ، واحتفظت ، على صدورها ،
بأسفار « أنهى » الصنائع . كان جبارين يتوقف ليقرأ الحكم المحفورة على
بدن الصخور . أو يتباطأ ليشاهد رسوم الرجال المسلمين بالبنال ،
متذكرين في جلود الودان ، يحومون حول الطرائد ، ويتشاررون ، قبل
أن ينطلقوا لمطاردة الفرائس . قطعان من الودان والجاموس البري
والثيران والغزلان ووحيد القرن .

نصوص كتبت على صخور تدرجت إلى أسفل بالزلزال ،
و glamied أخرى نهبتها السيول الماردة عن السفوح ، وجرفتها التيارات
المجنونة في تلك المواسم النادرة التي تصاب فيها سماء الصحراء الجنوبية
بالماء ، فبدت الرسوم والصور على جدرانها في حال بائس . لحسست
السنة السيول ألوانها فأصيّبت الرموز ، تآكلت الخطوط ، تلاشت
الأحافير ، بهتت الأصاباغ والألوان المدونة بـ « تفست » * ، وغضّتها
رياح القبلي بطبقة من الأتربة والأملاح والأسباخ . أمّا الرسوم المشبّبة على
الألواح بالنقش والنحت والحرف ، فبدت أكثر كفاءة في مقاومة الطبيعة ،

* تفست : نوع من المغر استخدمه فنانو ما قبل التاريخ في رسم لوحاتهم الصخرية في جبال
الصحراء الكبرى .

وأكثر مناعة في محاربة الدهر . كان جبارين يتسنم وهو يتهدج الجملة التقليدية التي تبدأ بها كل اسفار الصحراء الحجرية : « آوا ، نك ، مندام .. » * ثم يتقدم خطوات ، يتابع الكتاب المقدس ، كتاب الوصايا ، والشرايع ، والرموز . يتأمل تمائم السحرة في الخلوقات البشرية المدسوسة في جلود الودان ، المتوجة بالقرون ، ويقرأ في الحكم الغامضة ، المقتضبة ، ارثاً خفياً كان جزءاً من حياة الأسلاف . في جلمود مهيب يتکئ في حافة الوادي قرأ وصيّة العاشق : « آوا ، نك ، بابا . أهاضغ مسينغ واهيد يخلنن كود أکشينغ أدنيغ تمينا » ** .

ضحك جبارين ، ولكنـه كتم ضحـكتـه عندما لاحظ رموزاً كـتـبتـ أسفلـ العبـارـةـ بـخـطـوطـ مـتـعـرـجـةـ ، بـصـيـفةـ حـمـراءـ كـأـنـهاـ خـطـتـ بـدـمـ قـانـ : « آسـورـمـهـيـاتـنـ الـدـوـنـتـ دـغـ آـزـجـرـ ، إـدـمـهـيـاتـنـ دـغـ آـغـرـ نـوـدـادـنـ . تمـيـماـ مـيـهـيـتـكـدـ دـغـ آـغـرـ نـوـدـادـنـ ؟ » . *** . ضـحـكـ جـبـارـينـ بـصـوـتـ عـالـ . انـحلـلتـ عـقـدـةـ العـمـامـةـ ، فـانـفـلـتـ اللـثـامـ وـلامـسـ طـرـفـ الـأـرـضـ . هـرـعـ إـلـيـهـ بـورـوـ . حـدـجـهـ باـسـتـنـكـارـ قـبـلـ أـنـ يـتـمـتـ بـتـمـيـمـةـ سـحـرـيـةـ تـطرـدـ الشـرـ . وـلـكـنـ جـبـارـينـ اـسـتـمـرـ يـتـلـوـيـ ، وـيـوـمـيـءـ بـعـصـاتـهـ إـلـىـ رسـالـةـ الـوـدـاعـ التـيـ وجـهـهاـ العـاشـقـ الـيـائـسـ إـلـىـ معـشـوقـتـهـ القـاسـيـةـ . سـمعـ بـورـوـ يـقـولـ : « يـكـفيـهـ فـخـراـ .

* هذا أنا ، فلان . (تماهق) .

** هذا أنا بابا . أحلف بالمولى الذي خلقني لأنـدوـقـ طـعـاماـ قـبـلـ أـنـ أـنـعـمـ بـرـؤـيـةـ تمـيـماـ . (تماهق) .

*** إذا لم يلتفـ الـخـلـقـ فـيـ آـزـجـرـ ، فـلاـ بدـ أـنـ يـلـتـقـواـ فـيـ مـلـكـةـ الـوـدـانـ . أـينـ سـتـغـرـيـنـ مـنـيـ بـأـنـيـماـ فـيـ مـلـكـةـ الـوـدـانـ ؟ *

أنه لم يحيث بالوعد . » . عجز أن يكف عن الضحك ، أوقفه بورو بالإرهاب . انحنى على حاشية الجلمود اليمني ، دسَّ رأسه في تجويف في الصخرة يشبه الكهف ، ثم التفت إليه ودعاه أن يقرأ رسالة رأى فيها ، فيما بعد ، جواب الأسلاف على استخفافه بالعاشق الشقيّ ، وكفره بآيات النّاموس القديم :

•III: •E+0E: .E.||: < :E+0:0I< *
[0E]: E.||: E+0<E

بجوار العبارة يميناً ، حُفرت ، بخط أقدم ، كما يدو من اللون
المتأكل المعتم ، حكمة مستعارة من (أنهى) المفقود :

توقف جبارين . مسح عرقاً فزّ من الجبين . أنحنى فوق الرسم المطبوع . تهيجي الرموز بعنایة . ردّ النبوءة ، لنفسه بصوت مسموع . خيل له أنه سمع جنّاً يعيدها في جلاميد الجبل العليا .

نسى أن يعيد ربط العمامة ، فاستمر اللثام ينهر ، مع كل حركة جديدة ، حتى تکوم على الأرض ، بجوار الملمود ، كأنه ثعبان .

• اليوم ضحكت كثيراً . فإن لم تغفر لي يا مولاي ، فماذا يتمناني يا ترى ؟

٥٠٠ من ملائمه بالضحك . سوف يملأه بالدموع .

(٢)

كُلّما دعا قرينه لمشاهدة رسوم يدو فيها الصيادون الأوائل وقد توجّت رؤوسهم القرون المعقودة كان بورو يعقب بهممة غامضة : «إِمْغَارُنْ . هُؤْلَاءِ إِمْغَارُنْ» . * . قبل أن يلغا الجلود المسجّى عند حضيض الجبل قال جبارين :

«يقال أن الأجداد كانوا يتّسّبّهون بالطريدة قبل الخروج للصيد طلباً للفوز . سمعت السحرة يقولون أنهم يتّنكرون في قرون الودان لهذا السبب ». ولكن بورو ردّ بجفاء : «لا يستطيع السحرة أن يقولوا ذلك إلا إذا كانوا مزورين . كأن للأوائل قرون حقيقة . قرون ودان . وكانوا يدخلون إلى مملكة «آغم نودادن» ، ولا أحد يعلم ما الذي ارتكبوه حتى حرم آمغار دخولها على أحفادهم . ولكنني تسللت مرّة هيء هيء إلى المملكة متّخفياً في جلد الشريدة تيرزا زات . هيء هيء...». كان بورو يخاف الضحك ، فإذا هاجمته نوبة سارع يكتّمها بيده ، فإن لم يفلح حشا فمه بطرف ثامنه الرمادي الكثيف . فشل هذه المرأة أيضاً ، فقفز جانباً ، وسدّ الفم بطرف اللثام . ولكن النوبة لم تتوقف . ظلّ منكباً يرتجفان ، ويتفضنان ، دون أن يفهم جبارين ما الذي يمكن أن يثير الضحك إذا استطاعت شقاوة الولد في صباحه أن تهديه إلى

• إِمْغَارُنْ : جمع آمغار .

حيلة سحرية صغيرة يدخل بها ملكته موحشاً لا تس肯ه إلا الغilan
وأشباح الجن .

سارا مسافة أخرى .

قبل أن يصلا إلى المنعطف المفضي إلى جلمود الأسفار استفهم
جبارين : « هل قابلت المغنيات الساحرات في المملكة ؟ يقال أنهن يقفن
لحوناً تبث الانفاس في الحجارة ، وتجعلها تحجل وترقص وتغنى ». رمه
بورو بفضول . تمهل قبل أن يجيب : « المغنيات يقفن في المدخل
لاستدراج المارة البلهاء . أما أنا فدخلت متتكراً . ما حاجة المغنيات
الساحرات لاستدراج الساحرة تيرزازت ؟ » .

ثم كتم الضحك مرة أخرى .

(٣)

من طرف التجويف الأيسر ، في الجانب المطل على الوادي ،
أزاح بورو أكواخ الرمل بكلتا يديه . سجد على ركبتيه في مدخل
المغارة ، وغاب في جوف الجلمود بنصف جسمه الامامي فابتلت
الصخرة رأسه ومنكبيه ، ولكنه استمر يحفر بهمة الفخران ، يزيح ألسنة
الرمل ، ويرمي بأكواخ التراب في وجه جبارين الذي استمر ينحني في
فم الجوف ، يستند بيديه على ركبتيه ، و قطرات العرق تنز من جبينه

العاري ، وتلمع تحت شعاع الشمس . كان رأسه حاسراً ولثامه مكوم بجواره كثعبان . خرج بورو من جحره زاحفاً إلى الوراء على طريقة الضب . تطلع إلى رأس جبارين الحاسر فرأى أنه مكلل بشعيرات فضية ومضت تحت الشمس . كان جبارين غائباً في زمان النبوءات ، زمان كان فيه الأسلاف الأوائل ينتقلون في الوديان بأجسام الودآن ، فلم يلحظ النظرة العجيبة التي رممه بها بورو عندما رأى قرينه برأس حاسر لأول مرة . نظرة امتزج فيها الحزن بالشفقة بالغموض . الغموض الذي تفيف به عيون المعتزلة وحدهم .

طأطاً بورو وتمتم :

– يحسن أن تستر رأسك !

انتفض جبارين كمن لدغته حية . قفز إلى ثعبانه بفزع من ادركته الصبيايا وهو يقضي حاجته ، أو .. أو كمن ضبطته الصبيايا برأس حاسر !

قرأ بورو أفكاره فتهكم :

– ما يدركك أن الصبيايا لا تتفرّج عليك الآن ؟

– الصبيايا ؟

– نعم الصبيايا الجنينات الحسناءات في كل مكان .

– الجنينات ؟

- نعم . الجنّيات . ألا تخشى أن تظهر برأس حاسر أمام
الحسناوات الجنّيات ؟ على الرجل الذي يعشق الحسان أن يخشى العار .
الفارس الذي يخشى العار يجب أن يحرص ألا يظهر برأس عاري حتى لو
كان وحيداً في الخلوة . لأن الجنّيات في كل مكان .

- انت تمزح .

- أنا لا أمزح . أنا أعيد ما ي قوله النّاموس .

بدأ جبارين يلف لثامه حول رأسه . أراد أن يمازح قرينه فقال :

- وأنت ؟ ألا تخشى العار ؟

أجاب بورو ببرود :

- أنا أخشى عاراً آخر . عاري يختلف عن عار العشاق .

- وهل في الصحراء عار غير عار يرتكبه الفارس أمام الصبايا ؟

- هناك عار آخر لا يعرفه عشاق الصبايا .

كم جبارين ضحكة . سأله :

- يقتلني الفضول لأعرف هذا العار .

تطلع بورو إلى سفح الجبل . تسلق الحجارة الجليلة . بلغ القمة
التي تلامس السماء الزرقاء الصافية ، الغامضة . انتقل غموضها إلى
مقلتية . تتم بهمس :

- يقتلني الفضول أيضاً كي أعرفه .

- لا أنهم . هل هو سرّ ؟

- نعم سرّ .

- هل يخفى القرین سرّاً على قرین ؟

- كيف يوح القرین بسرّ إذا عجز هو نفسه عن فهمه ؟

- هذه لغة الجنّ . كل سكّان آزر جر يتّمرون بصلة قربى إلى قبائل الجنّ .

ابتسم بورو :

- صدق القرین جبارين . كل سكّان آزر جر فيهم عرق من الجنّ .

كل سكّان الصحراء فيهم عرق من جنّ .

ثم أكتأب فجأة قبل أن يقول :

- يحسن بك أن تملأ «اللون» عوياً هذه الليلة .

التفت جبارين فاللتقت نظراتهما . رأى جبارين في عيني قرينه الإيماءة المدهشة فتلبسه قشعريرة افزعته . في الإيماءة ذلك التعبير الغامض . مزيج من الحزن والشفقة والخوف المجهول . فانتقل إليه الخوف أيضاً . انتقل مع القشعريرة الخفية . نكس بورو رأسه . احتضن ركبتيه بذراعيه وضمّهما إلى صدره . رفع رأسه إلى قمة الجبل ليقرأ فيها نبوءة

السماء :

- لابد أن تبكي طويلاً حتى تكفر عن الضحكة .

- أنت قرأت النبوءة . الرجل الحقيقي ، الرجل النبيل ليس من يخشى أن تضيّقه الصبايا حاسر الرأس ، ولكنه من يخشي الناموس ولا يخالف الوصايا .

ابتسم باستخفاف ثم اضاف بدعابة :

- هب بحث لك بسرّي ؟ هل تظنّ أني اكتشفت السرّ الذي غاب عنّي منذ قليل ؟

التقت نظراتهما . تبادلا نظرة طويلة . احسّ جبارين بالقشعريرة تحول إلى رجفة . إلى حمى .

قال بورو :

- هل تعدني بأن تتوح الليلة طويلاً ؟

ظلّ جبارين منتسباً . قاوم الرجفة . قاوم الحمى . لم يعرف ماذا يفعل بيديه فرفعهما ليعدل من وضع اللثام فوق رأسه . حدج بورو . التقت نظراتهما مرة أخرى . حدق كل منهما في وجه الآخر طويلاً . في النهاية هزّ جبارين عمامته علامة الموافقة . هزّها بيضاء فلمعت مقلتها بورو فرحاً . أراد أن يكافئ قرينه لقاء الوعد فتفاقف في الوادي على طريقة المعر . ثم عاد إلى جبارين و هاتف :

- إذا تَمَّتْ الرجل بالخلق صار من حقه أن يأخذ الكراء . هكذا يقول حكماء آزرجر . فهل تدرِّي ما هو كراوُك ؟

استفهم جبارين بابتسامة وهو يتابع بورو يتقافز أمامه كالجدي الشقى . أوضَّح بورو :

- تعال الكراء . سادفع لك الكراء بشارَة !
قفز فوق الحجارة المتناثرة في قعر الوادي . عاد إلى الموقع . وقف في مواجهة قرينه . أشار إلى الجلمود بسبابته وصَاحَ :

- إقرأ !

لم يفهُم جبارين فأعاد بورو مشيرًا إلى فوهَةِ الجلمود :

- لقد اكتشفت وصيَّةً أخرى في قعر الجدار الأيسر . إقرأ !

ركع جبارين وزحف ليلاج جوف الصخر ، ولكن بورو قفز إلى الفوهَةِ واعتراضه . توسل بروح الطفل :

- هل ستعذبني لأنك لن تخلف الوعد ؟

رفع إليه جبارين عينين قرأ فيهما بورو آية الوعد . تنهَّى جانباً ورافق قرينه وهو يحاكي الضَّبَّ . يتحول إلى ضَبَّ . وللضَّبَّ جحْرَه . تهْجِي الوصيَّة . تلقَّى البشارة . استلم السَّرَّ من الجَحْرِ . منحه أمانة احتفظ بها قرونَاً وقرونَاً . ففتح قرطاس سفره الخالد وكشف

للخلف ما سطّرَه يد السلف بدم الأرض ، بمداد « تفتسَتْ » السّحري .
المداد الوحيد المُحصَن من غدر الزمان . ومزاج الصحراء المتقلب .
الحجر ، سفر الصحراء الخالد ، الذي قبل أن يكون كتاباً يلملم نتف
آنِي المفقود ، الحجر ، السفر النبيل الصبور ، الذي تحمل المسئولية ،
وتقبل أن ينقل للأجيال البائسة وصايا الحكماء الأوائل .

يفتح قلبه للسحر ليتلقّف من أفواههم السر . ينقشه في قلبه .
يخفيه في جوفه . يحفظه عن ظهر قلب . يخاطل الأيام ، يتحايل على
الدهر . يرفض البوح . لأنَّه يعرف أنَّه الوحيد الذي استطاع ، في
الصحراء كلها أن يتصرّ على نفسه ويكتم سراً . كل المخلوقات
والكائنات عجزت . السحره الحكماء اختبروا كل الموجودات في
الصحراء الكبرى ، فلم يجدوا خيراً منه . وقد قال هؤلاء الدهاء
حكمة الدهرية : « إذا أردت ألا تفقدني فلا تبع لي بسرّك » تصديقاً
لضعف الكائنات أمام السر ، وبرهاناً على عجزهم في أن يهتدوا للكائن
أكثر وفاء وصبراً على السر يضاهي الحجر . إنه يرى السحره الأوائل
الآن . يراهم يهيمون في الخلاء بحثاً عن كنوز « تفتسَتْ » . يقطعون
الفيافي ، يصعدون قمم الجبال ، وينبشون قبور اسلافهم طلباً للمداد
السحري . حتى إذا حالفهم الحظ ، ومنت عليهم الأرض بدمها
المسحور ركعوا وقلعوا في جيوبها ، ونحرروا الذبائح ، وسقوها بدماء
الأضاحي . ثم يتحلقون حول الكنز ليرتلوا الاناشيد الشجانية شكرأ

للآلهة ، ثم يهربون للرقص . يرقصون حتى يشق قبس الفجر خط الأفق ، لأنهم يريدون أن ينبعوا الأجيال بالرسالة ، وأنهم يخافون الفناء ، ويعشقون الخلود . يعودون إلى الكهوف ليلقموا الصلد الوصايا . يفتح لهم الحجر قلبه ويقول لهم : « إطبعوا رموزكم ، وهاتوا وصاياكم . فأنا من عرف كيف يتحدى الشرائع . ويقهر الزمان ، لأن في بدنِي عرقاً من سرِّ الزمان » . ينقش الرُّسُل تعاليمهم ، يطبعون رموزهم ، يخطوون رؤاهم ، ويجدون الحياة في الرسوم . يقرأون التمام على رؤوس الحجارة ، ويؤدون لها الشعائر التي ستحفظها في رحلتها الخالدة . كانوا يرتلون المراثي ، ويستعطفون السماء كي تحفظ الحجر النبيل من عدو أبدي خافوه دائمًا أكثر مما خافوا النار ، أكثر مما خافوا الأعاصير ، أكثر مما خافوا غارات الجن . إنَّ الحياة التي تلذخ الأجيال باسم بطيء المفعول ، الحياة التي ليس لها جسم يُرى ، ولا فحيح يسمع ، ولكن لدغتها قاتلة . إنه العدو المهوِّل الذي استحال عليهم دائمًا أن يخوضوا حرباً ضده لأنه خفي . إنه .. الزمان !

ولكن الحجر يقبل التحدي ، يتلقى الرسالة ، ويبدأ حربه الرهيبة ضد الحياة الخفية . ولو لم يتحقق الحجر نصراً لما عشر اليوم على الكنز الذي تركه له السحرة . ولما زحف قرينه جبارين ، كما تزحف الضباب إلى جحورها ، ليقرأ الوصية في جوف الصخر ، في قلب الجلمود . فطوبى لمن طلب ، وباحث ، وفتش ، وأحسن قراءة الوصايا ، وعرف

كيف يفكَّ الرموز . وبعس المصير لكل من خدعهم « وانهيط » ،
فاسترخوا ، واهملوا الحجارة ، وركضوا وراء البريق !

كان يعرف ما يحدث عندما يقترب من حجر يحمل له وصيّة .

تتابه رهبة خفية ، حتى أنه يعجز عن مواصلة السير ، يحس بالنجذاب
مجهول نحو الصخرة المدونة . ثم تخل الألفة محل الانجداب . ألغة
غامضة نحو الحجر ، كأنه كان صديقاً قدماً نسيه . نسيه عقب كارثة
فقدته الذاكرة . بعد الألفة يستيقظ الحنين . حنين مجهول ، قاسٍ ،
ولذيد . يستمر عذاب الحنين زمناً ، ولكنه يظل مسماً على الأرض .
كأنه عمود مثبت إلى التراب . أم ... أم أن الأرض شارك في اللعبة ،
وتحالف مع الحجارة ليقهرها ، معاً ، في رأسه النسيان ؟ يستمر حريق
الحنين الغامض حتى تستجيب مقلاته للشعائر . تنبجس الدموع ، ولكنها
تظل تتشبث بأهداب العينين ، ولا تسقط على الأرض . يتمنى لو تسقط
الدموع حتى ينطفيء الحريق في صدره ، وفي عينيه ، ولكن هيئات .
يبدأ الحريق ، يستمر ، يتمادي حريقاً في الصدر ، في القلب ، في
الوجدان ، وفي المقلتين . يفهمهم بأصوات غامضة . تفلت الأصوات
رغماً عنه ، ولا يفهم لها سبباً ، ولا يدرك لها معنى . يتناهى إلى سمعه لحن
شجي ، شجنـي بعيد . يسمع اللحن ، ولكنه يعجز عن تمييز الصوت .
هل هي أغنية لصبيّة ؟ أم جنـيات الكهوف ؟ أم لصوت سماوي ؟ أم أنه
هو الذي يغني ؟ أم .. أم هو نداء الأـسلاف ؟ بعدها يمتليء قلبه بالجلال .

أطراfe ترتجف بالحمّى ، ويحل في قلبه الوجd . يتقدم إلى الصخرة المقدّسة . يستعيد الذاكرة . في تلك اللحظة يشهد مصرع الغول . يموت الزمان . ويجد نفسه يعود إلى الوراء ، يقطع مسافةآلاف الأعوام بحساب الزمان دون أن يتحرك في المكان . يقف بين يدي السحرة الأوائل ليخبروه بالكلّ . ليقولوا له أن الأصل لن يضيع ، والصحراوي لن يفقد الهوية ما بقى حجر واحد في الصحراء .

(5)

زحف جبارين على طريقة الضب . تمدد وزحف إلى الأمام حتى لم يق ، خارج الكهف ، سوى قدميه . تفقد الجدار الأيسر . بحث عن الرموز . في العتمة ، عند الحافة الملاصقة للتراب ، تبيّن الخطوط المعتمة . على جدار الصندل تناولت حلقات خطّها الزمان بالملح وذرّات الرمل في محاولة لتخريب الخطّ ومحو الأثر . ولكن الخطوط القديمة ، المهيّة ، المعتمة ، الحزينة ، الغامضة غموض الصحراء ، انطبعت على الحجر الأمين بوضوح لم ينله الزمان :

• ॥ 0 : + + 5 : || 5 : 0 < ॥ E < + I : + ... || K . I || . *
.. 0 E + + ॥ 0 : < + < ॥ 0 || 0 || D || I

وفيما كان جبارين يتهجّي البشرة بصوت عالٍ في جوف البحر

«أَجْ أَسَاهْتْ تِيكَالْ إِوْسِدْ جَمَضَدْ تِفُوكْ ، تِقْلَدْ آفَلَاً كِراْضَتْ . إِتْجَرُودْ آنُو دَاجْ أَسْلِسْ مَلَنْ »
«إِنْطَعْ مَسَافَةْ سَبْعْ خَطُوطَاتْ حِيْثُ تِشَرَقْ الشَّمْسْ ، إِصْعَدْ إِلَى أَعْلَى ثَلَاثْ خَطُوطَاتْ .
سَتِجَدْ بِهِ أَخْتَتْ لَوْحْ أَيْضُ ».

كان بورو يرتجف في الخارج فلم يعرف كيف زلزلت الأرض زلزالها ، ومتى نزلت السماء بالصاعقة ، فوجد الغموض يحل في القلب ، والحمد لله تستولي على الجسد ، والدموع يحرق المقلعين ، والسمع ضجّ بسكون مخيف . السكون المقدس الذي عرفه دائماً في تلك الومضات النادرة التي يشيرها الغناء ، وتسقط سقوطه في الوجود ، أو حلوله في جلد تيرزازت ، أو تحلله في أسمال السراب ، أو ... أو تسقط التحول الذي يلاقي فيه الاسلاف ليقرأوا له بشارة ، أو يلقنوه بوصية . فما إسم هذه الرمثة ؟ وما معنى هذا الحال ؟ إذا حلّت هذه الساعة يعرف شيئاً واحداً . يعرف أن الزمان يتعطل ، والماضي يصبح حاضراً ، والحاضر يصبح غائباً ، والصحراء تختفي في السماء ، والوديان تنزل إلى «أغموندادن» و «دواو الموعودة» تخرج من مدفأها القديم تحت كثبان الرمال ، ويسقط الزعيم العظيم من جبال تارات ليتجوّل مع الرعاة وابناء آزرجر في وديان تاسيلي ، ويخرج آثار المهيوب من مملكته الخفية ليتسكع في احراش الطلع ، ويشعر هو بأنه يتلاشى . يتلاشى ، ويتلاشى ، ليصبح مع «مولا - مولا» كائناً واحداً يطير به المجهول . ثم تتلاشى «مولا - مولا» أيضاً ليجد نفسه نسمة ريح تقطع الصحراء بسرعة الجنّ . فإذا تحرر من الوزر وحلّ في الريح تبدى له كل شيء مرة واحدة ولكنه ينسى ما رأى في كل مرة يعود فيها إلى الأرض الوحشة . إلى القفص البشع . إلى الصندوق الطيني القبيح . يختنق ، يصبح ، يركض . يقطع

الوديان ركضاً ، .. ييكي . يملأ الصحراء عوياً . يختفي الصفاء المدهش ، يتلاشى الارتياح الغامض ، ولا يبقى من التحول إلا خاطر مُبهم . حلم مجهول . فيستعر بالحنين . يشتعل بالسوق ، يحترق بالغضب ، لأنه لا يعجز عن استعادة الاحساس الذي تملّكه في الملوك ، ولكنه يعجز عن التذكرة ، ليصبح النسيان هو الشريعة . النسيان . النسيان . لعنة الزمان قدر الإنسان . كفن المخلوق إذ يرتضى الحشر ، ويختار المقام في قفص الطين الفاني .

ترحّزت القمم في الأعلى . تراقصت قبور «إيدبنان» على السفوح . تدحرجت الجلاميد من علّ ، فز لزلت الصحراء زلزالها . غاب جبارين في الجوف وخرست همته وهو يتهمجي رموز البشرة . اختفى حتى الجلمود نفسه ، ولكن الإشارة المذهلة المشتبة على جداره الخارجي الآمين ، المواجه للشموس الغاربة ، لم تخف باختفاء الجلمود ، ولم تسقط في جوف المجهول كما سقطت صحراء «آللون» . وفي لحظة دبت الحياة في الإشارة ، رأى الحياة توميء باللسان الشره ، وترفع هامتها إلى أعلى ، تومض عيناهما بالإغراء تحت أشعة شمس الفسق . وجد نفسه مشدوداً إلى العينين ، فانقاد ، واقترب . استسلم ، وسلم نفسه للإغراء ، تقدم خطوة أخرى . وآخرى . وآخرى ، حتى وقف عند ذنبها المرتجف ، وأصبح في متناول فكّيها ، وسمع فحيحها بوضوح . غمرته القشعريرة ، لأنّه رأى في عينيها اللامعتين ، الغامضتين ، الخطير . رأى جرة فخارية

ذهبية اللون . لها هامة الحسناء ، سموق الحسناء ، رشاقة الحسناء، قدّ
الحسناء ، مرونة الحسناء . و .. سحر الحسناء . غنج الحسناء. وإغواء
الحسناء . كانت تتمدد في عين الحياة اليمني . رأسها يتوجه نحو الغرب .
يومض ويتلامع ويغمر تحت أشعة الغسق .

سقط بورو على الأرض . ركع على ركبتيه اسفل الحياة . جد في
الحفر . وجد نفسه يحفر الموقع بكلتا يديه . يحفر ، يحفر ، ويحفر .
ازاح أكوااماً من الرمل ، بلغ الطيقة الطينية الصلبة ، فاستعلن بالأظافر ،
قاوم الصلابة بالأظافر . نهش الطين اصابعه ، ولكنه وصل إلى التمية
السرية .

في قدم الجلمود الخفي ، في طرف الصندل السفلي ، وجد
الإشارة التي رسمها الأوائل لتقويد الاحفاد إلى مرقد الحسناء . إلى موقع
سرّتقف الحياة الخالدة فوق رأسه حرساً . أم أن « وانتهيط » هو من أودع
السرّ الأرض ، ونصب فوقه الداهية حرساً ، ليستدرج الممسوين لمقام
البريق ، لمرقد الحسناء ، لمدفن هباء يدفع بالتيه الأبدى كل من صنع له في
نفسه مقاماً ، وآثاره على استنشاق عبير الرّتم ، أو استخراج الترّفاس ، أو
الإكفاء بمراقبة الخلاء الخالد متصيّتاً لأنفاس السكون ؟

توقف عن البحث . عن الحفر . رفع رأسه إلى الرسم . مسح
املحاً تشبت بالخطوط . مسحها بيد راجفة ، ولكن بعناية . تووضحت
الخطوط . تكشفَ بدن الرموز . تبدّلت الرسالة . قطعت مسافةآلاف

الاعوام لتجد نفسها فجأة في زمن آخر . في قبضة قدر آخر ، ولكن المكان لم يتبدل ، والشمس لم تتبدل ، والسماء لم تتبدل ، ونسمة الريح لم تتبدل . خرجت من الظلمات إلى نفس النور الذي غابت عنه يوماً ، وادركت حكمة « آنهي » القائلة أن لا شيء يتبدل في الصحراء . الشمس تشرق ثم تغرب ، ثم تشرق من جديد . الريح تذهب إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح * . والقمر التي تقف في الأعلى ما زالت نفس القمر ، وما زالت ترقب الدمى التي تتحرك في الوديان بسخرية مريرة . فما الذي تبدل في آلاف الاعوام ؟ تبدل الاشباح التي كانت تهيم في الوديان . تبدل الظلال التي تเคลل كاهل الأرض ** بسعيها المجنون وراء البريق . آه ، لو امتلكت لساناً ، آه ، لو امتلكت نعمة النطق ، لصاحت بالحقيقة بأعلى صوت . لرمي بالبشرة القاسية في وجه الأبله الذي يركع فوق رأسها ، يرتجف ، وقد تملّكه المس . لو امتلكت نطقاً لقالت له :

« إبتعد أيها الشقي ! ابتعداً ابتعداً ! ». ولكن هيئات . فاليد التي خطّتها راحت على عاهتها المخرباء . وخطّت الفخ لأنها تعرف أنها لن تملك لإذاعة السر سبيلاً :



• سفر الجامعة .

.. « ما نحن إلا ظلال تเคลل كاهل الأرض » . الفيلسوف ديو جين (الكلبي) .

استمرَّ «الآن» يتقلب في «كان» ، وبقي «كان» أسيراً في «الآن» حتى طلع له من الكهف الكاهن الأكبر ، كبير السحراء . نحيل ، طويل ، يرتدي ثوباً مركباً من قطع جلد الودان . تزيّن صدره قلادة من حبات الودع . فوق رأسه قناع جليل متوج بقرنى ودان . قرون آمغار . على وجهه ارتسنت طبقة من الغضون تشبه لحاء الطلح . يتوكأ على عصا مشدبة مستقطعة من شجرة مجهولة لم يدرك لها هوية . وقف فوق رأسه . انحنى . مال نحوه برأسه المقدس حتى غزت انف بورو رائحة الكهوف . حدق في عينيه . في عينيه رأى بورو العجب : رأى نفسه يركع فوق الكنز . يحتضن الوديعة بيدين محمومتين ، و .. فوق رأسه ، فوق رأسه هو ، بورو ، يتصبب «وانتهيط» ، يمتطي أثانه البيضاء ، ويتنسم بخث من نجح في جرّ ضحية جديدة إلى مملكة البريق .

تابع المشهد فرأى «وانتهيط» يأخذه ليجلسه بجواره على ظهر الدابة البيضاء . مضى به إلى أرض مجهولة لم يعرفها ، ولم يرها من قبل . هناك نثر في وجهه حفنة من الهماء الأصفر ، هباء التبر ، فرأى نفسه مسجّى على الأرض . غطّ في السبات . شمر وانتهيط عن ساعديه وخرج من كمّ جلبابه مدية مجوسيّة فظيعة . لمع نصلها في الفضاء قبل أن يهوي بها على صدره بمهارة السحرة . غاصت بسهولة

عجبية . انشقَ الصدر إلى شطرين ، ولكن الحرج لم ينفر دمًا . دسَ يده في جوفه وأخرج القلب . هل هو قلب؟ لم يكن قلباً . أخرج طيراً ناصعاً كأنه قطعة من ضياء . طير صغير في حجم «مولا - مولا» . ولكن في عينيه رأى شقاء وذكاء . أخذه الساحر من جناحه وألقى به في الفضاء . لم يره وهو يرفف بجناحيه ، وإنما تلاشى في الفضاء . استحال جزءاً من ضوء الفضاء . أصبح هو الفضاء .
وأصل الساحر .

مدِّ يده وتناول الجرة . نفس الجرة المدهشة التي لها ملامح حسناء وشاهدها في عين الحرث . القى الجرة في الجوف . أدهشه أن يتسع صدره الصغير للجرة ، كما ادهشته المرونة التي غابت بها الحسناء في الصدر . خيل له أن «وانتهيط» أنهماك في قراءة التمية . نكس رأسه بخشوع قبل أن تدبُّ الحياة في الجسد المسجّي . وإذا به حيّ ، نصفها السفلي أثني ، حسناء ، ورأسها ، حية رقطاء . لسانها مشطور إلى نصفين ، وفي عينها اليمني تلمع الجرة . وفي الجرة يومض التبر . زحفت في الحجر . ذهبت لتقف حرساً على القبر . فأين أنت يا بورو؟ أي ... أغمض عينيه فتوارى الكاهن القديم . غطى وجهه بكلتا يديه وسقط على الأرض . صاح بصوت ردت صدأه الجبال :

- آ- آ- آ- آ... أ... أ... أ-

في البداية انكفاً على قفاه ، ثم أهتز البدن برجف عنيف . غاب السواد من العينين الوديعتين وغزاهما البياض الشامل . انحسر اللثام عن شفتين راجفتين فزّ منها زبد ناصع . ثم شرع يتلوى ويتمرغ في التراب .

(٥)

عندما اخرج جبارين رأسه من دار الاسلاف ردت إليه الجلاميد التي تحرس رؤوس الجبال صدى غامضاً . تصنّت للصدى الخفيّ زمناً . تابع الإبهام في الصدى . سافر مع الصوت إلى الوطن الذي مضى . وطن الرؤى السماوية والظلال البعيدة . قرأ في الصوت المجهول نداء أنساه جسد يورو الذي أصابه الجنّ . ولو لم يقف على رأسه شبح مارد لما عاد إلى آزرجر ، إلى آلون العظيم ، إلى مجرى الوادي ، عند حضيض صخرة دسّ فيها الأوائل الوصايا والأسرار . كان الشبح المارد يرتجف أيضاً . في عينيه وميض قاسٍ . وميض المعزلة الذين يسكنهم الجنّ دائماً . ثم ... ثم تلقى وحياً استفزه بسؤال مباغت : أين ومتى وفي أي ظرف رأى هذا الشبح العظيم ؟ لم يفكّر للإجابة على السؤال ، لأن المارد قفر إلى جدار الصخرة وطفق يهيل على الصلد التراب . يلهث ، ويلهث ، ويغمز الجدار المكابر بأكdas الرمل الممزوج بحبسيات الحصى . انحسر لثامه عن فمه فتدلى طرفه العلوي إلى أسفل . تحت شعاع الغسق ومض

• أماواه : الطرف السفلي للثام .

بالشقاء الأبدي القتا فيه الإلهام وأجابته عن الثالوث ، وانتزعت من فيه
النداء بالإسم .

ما حدث بعدها كان برهانا على هذا الظن .

هب بوشا من موقعه عند الجدار وقفز إلى المعركة . تناول المدية
المنصوبة إلى أعلى ومررها على جسد جبارين . . نحر العدوّ الخفيّ
فتتحرّر البدن . انهار جبارين على الأرض وتمدد . التفت بوشا إلى بورو
ومرر على جسده المدية أيضاً . رسم بها تقاطعاً فوق الرأس . ثم نزل بها
من الصدر حتى القدم اليمنى . رسم تقاطعاً آخر على الجسم كله .
أحاط جسد بورو بدائرة . قطع إلى الخلف خطوات . التفت إلى
جبارين . رسم حول بدنـه المدد دائرة كبيرة . اقترب منه . حدق في
عينيه بمقلتين يفيضـ منهما الشقاء و .. رسم التقاطع على صدره بالمدية .
تابعـه جبارين باستسلام . وما أن تلقـى الرمز على صدره حتى أصابـ
القلب وميـض . هتف :

– لقد أصبت الجنـي بعلامة « تائـيت » . نحرـته بالـعلامة . ولكنـ
الـدائـرة . كيف أهـتـديـت إـلـىـ الدـائـرة ؟

رمـقـهـ بوـشاـ بـغمـوضـ ، رـآـهـ جـبارـينـ اـسـتـخـفـافـاـ . استـفـزـهـ الـاستـخـفـافـ
فـحاـوـلـ أـنـ يـنهـضـ . لمـ يـقـدـرـ فـاكـفـيـ بـالـاحـتـجاجـ :

– هـذـاـ سـرـيـ . اـنتـ سـرـقـتـ كـنـزـيـ . اـنتـ ..
جـبارـينـ لـمـ يـكـمـلـ ، وـبـوـشاـ لـمـ يـرـدـ .

غرس نصل المدية في التراب ، بجوار رأسه . رممه مرة أخرى قبل أن يفز ويففز نحو الجبل . صعد السفح راكضاً . تسلق الصخور مستعيناً بيديه . دحرج حجارة قبل أن يتلعله غيوب الغسق .

(٦)

تقدّم الليل . فرض سلطاناً على الصحراء فدبّت الكائنات الليلية . كانت الحياة أول من انفصل عن لحمة الحجر . نزلت من منفاهما الأزلي في الصّلد ، وخرجت إلى رحاب السهل . تفقدت الوادي ببصر اخترق صدور الحجارة ورأى ما تخفيه الجحور ، ثم زحفت نحو العراء المجاور حيث تمدد كائنان غامضان . دارت حول الدائرة الأولى ، راقت صدرأ يعلو ويهبط . تصبّقت فسمعت همس الوسواس الغامض الذي لا يوسم إلا في صدر ذلك الخلق الذي جعل الخالق بينها وبينه عداوة منذ الأزل الأول * . غزت انفها الرائحة فأجفلت واستنفرت بدنها للدفاع . رائحة الخلق . انفاس الإنس . عفن البدن البشري . السُّم الذي تخشاه الافاعي ، يصيّبها بالدوار والغثيان والموت . عفن الإنسان سُمُّ الحياة كما لعب الحياة سُمُّ للإنسان . ولكن هذا سر لا يعرفه إلا الدهاء ، إلا السّحرة . فما أجهل الإنسان . جهله بهذا السر برهان آخر على جهله القديم . يحفظ في بدنـه سلاح الخطـر . الرقـة . التـيمـة ضدـ

* «قال رب الإله للحياة لأنك فعلت هذا : ملعونة انت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعن وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، واضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وانت تسحقين عقيبه » سفر التكوين : (٣) .

العدُو الأَزْلِي ، الدوَاء الَّذِي يُشْفِيه مِنَ اللَّدْغ ، وَيُسَافِر إِلَى الْأَوْقِيَانُوس ، أَوْ بَحْرِ الظُّلْمَات ، بِحَثَّاً عَنْ دَوَاء لِلْسَّم . وَلَكِنْ هَذِه لَعْنَةُ الْحَقْهَا بِهِ الْخَالِق مِنْذِ الْبَدْء إِذْ جَعَلَهُ غَافِلًا عَنْ نَفْسِه . غَفَلَتِهُ عَنْ نَفْسِهِ هِيَ سَبَبُ شَقَائِهِ . فَلَوْ تَوَقَّفَ عَنِ الرَّكْضِ مَرَّة ، وَالْتَّفَتَ إِلَى نَفْسِهِ لَوْجَدَ الْكَنز ، وَنَالَ الْخَلاَص ، وَدَخَلَ الْفَرْدَوْس . وَلَكِنَّ الْلَّعْنَةَ قَضَتْ أَنْ يَحْمِلَ الْخَلاَصَ فِي يَدِهِ وَيَسْعَثَ عَنْهُ فِي أَرْضِ الْوَاقِ وَاقِ ، فَمَا أَغْبَاهُ !

احسَتْ بِالدُّوَارِ فَغَاصَتْ بِرَأْسِهَا فِي التَّرَاب . التَّرَابُ يَمْنَعُ الْفَزُورَةَ ، وَيَغْسِلُ رَئَةَ الْحَيَّةِ مِنْ سَمَّ الْأَنْفَاسِ الْإِنْسِيَّةِ . هَذَا سَرْ آخِرٌ ضَيَّعَهُ الْمُخْلُوقُ الْمَكَابِرُ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَقْيَقَةَ فِي كَفَّةٍ وَيَسْعَثُ عَنْهَا فِي بَلَادِ الْوَاقِ وَاقِ . فَمَا أَغْبَاهُ ! زَرَحَتْ إِلَى الْأَسْفَل ، إِلَى الْجَهَةِ الْأُخْرَى حِيثُ يَهْبَطُ نَسِيمُ رَقِيقٍ . فَهُنَا سَتَكُونُ فِي مَأْمَنِ مِنَ الْأَنْفَاس ، مِنَ الْعُفْن ، مِنَ السَّمْوُمِ . وَالرِّيحُ سَوْفَ يَأْخُذُ الْأَبْخَرَةِ الْإِنْسِيَّةِ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى . سَيَذْهَبُ بِهَا بَعِيدًا ، إِلَى الْمُخْلُوقَاتِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي سَتَشْتَمِ رَوَاحِعَ الْأَغْذِيَّةِ فِي الْأَنْفَاسِ ، فِي السَّمِّ ، وَسَوْفَ تَهْرَعُ الْمُخْلُوقَاتُ إِلَى الْمَوْقِعِ ، إِلَى أَرْضِ الْوَلِيمَةِ ، إِلَى الْفَخِّ . وَسَتَجِدُ نَفْسَهَا فِي الْكَمِينِ . مَا أَكْثَرُ الْمُخْلُوقَاتِ الْغَيْبِيَّةِ فِي الصَّحَراَءِ . هَجَعَتْ عَلَى بَعْدِ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عَقْبِ الْإِنْسَانِ . غَاصَتْ فِي التَّرَاب ، اُوْدَعَتْ جَسَدَ الْحَسَنَاءِ فِي الْأَرْضِ ، وَتَرَكَتِ الرَّأْسَ خَارِجًا . رَاقِبَتِ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ بَعْنَيْنِ تَخْرِقَانِ الظُّلْمَاتِ . سَلَطَتْ شَعَاعَيِ الْعَيْنَيْنِ عَلَى بَطْنِ الْقَدْمِ . كَانَتْ مَتَشَقَّقَة ، خَحْنَشَة ، تَعْلُوْهَا طَبْقَةٌ سَمِيكَةٌ مِنَ الْلَّحْمِ

الميّت . طبقة كريهة في صلابة الصّلد الذي تحرّرت منه منذ قليل . هذه الطبقة المشوّمة ، الميّة ، العازلة ، هي التي ستتحميء من اللدغة عندما تخين لحظة الاتقام . لن تتمكنّ منه ، ولن تصل إلى اللحم الحيّ حتى لو تزودت بأنابيب في قوة الإبر . طبقة زوّدته بها الأرض لتحميء من انبابها كما زوّدتها هي بالتراب الذي يحميها من سُمّ أنفاسه الكريهة . القسمة كانت عادلة . هي ادركت سرّ الأرض ، والمخلوق لم يدرك سرّ نفسه ، فما اغباء !

إنّ غباءه يشير غيظها إلى حدّ لا تستطيع معه أن تشعر نحوه بأي شفقة . الإنسان هو المخلوق الارضي الوحيد الذي لا يستحق الشفقة ، لأنّه أغنى المخلوقات . ولكن هذه عادة جرى بها النّاموس : كل من رأى في نفسه ذكاءً كابر ، وكل من كابر كان الأغبي . ولم يخطر لهم على بال أن يسألوا لماذا يعود كل شيء إلى التراب ، بما في ذلك هم انفسهم . لم يدرّوا أنه الأقوى لأنّه الضعف . يستمد قوته من ضعفه . من تسليمه واستسلامه وقبوله أن يداس بالأقدام . من بلغ في تواضعه ضعف التّراب كان في قوّة التّراب . من رکع وغسل من نفسه الكبير ، ونزل إلى مستوى تراب الأرض كان أقوى من كل شيء على الأرض . ولكن هيهات أن يدرك مخلوق معجون من ذرات التّراب سرّ التّراب ! هيهات أن يعلم من يمسك الحقيقة في يده ويبحث عنها في جزائر واق الواقع ، أن الرکوع والقبول بالنّزول إلى الأرض السفلّي هو سرّ الحياة الأولى .

وسائل ، أنا الحية ، الطرف الأقوى ما ظللت أسعى ورأسي في التراب .
فحمدًا للخالق الذي خصني بالنعم و لم يهدِ خلقه إلى سرى ، وأبى إلا
أن يقيهم على كبرهم و ضلالهم .

تململ البدن المدود فتقلب العقب المزق بالشقوق . انتفضت
ورفت رأساً يتحين الإنقضاض . في تلك اللحظة شعرت بالخطر في
انتفاضتها . اجتازت خط الخطر في ومضة فأصابها المسُّ الخفي .
اخترقت الدائرة برأسها فتلقت مسَا نارياً أشعل شرراً في بدنها . زحفت
إلى الوراء أشباراً . ابتعدت عن الدائرة المسحورة وغاصت في الأرض
مرة أخرى . سرى فيها الدفء ، وبعثت ذرات الرمل في صلبها إحساساً
مجهولاً بالأمان . ذلك الإحساس بالصفاء الذي لا ينفعه للكائن شيء
سوى الأرض . الأرض . الأرض التي احتضنت الكائن ، واغدقت عليه
من حنان ، وهددهته في مهدٍ كان فيه أسيراً في مملكة النسيان . داعبته
على صدرها طويلاً ، وانزلت في قلبها بهجة لم تلنها لعنة الذاكرة .
صنعت له بدنًا من أحشائهما ، من ذرّها * ، من ذرات رملها ، من حبات
الهباء ، وألبسته من نفسها ، وأرادت له أن يكون لها وليداً إلى الأبد . لم
تبخل عليه بشيء من جسدها ليكون لها ابنًا وحيداً ، مدللاً ، سعيداً في
ملكتها المسكون بالنعيم . بالنسيان . وكانت تخشى عليه من شجرة
لئيمة اوقفت الحياة حرساً على بابها . ولكنها هي ، الحياة ، ما لبست أن

* الذر : صغار النمل « فقه اللغة » للشعالي .

أكلت الغيرة قلبها عندما رأت المخلوق المدلل الذي نال القرب ، وأحيط بطقوس إكبار لا يستحقه ، فدعنته إلى وليمة . ساقته إلى الشجرة الشائمة ليأكل من ثمرها المسموم . وما أن وقع في الشرك ، وذاق الطعم حتى خرج من مملكة النسيان ، ووقع في الذاكرة . انقلبـت الحيةـ من غضـب الأرضـ فاستجـارتـ بالـأرضـ ، لأنـهاـ تـعـرـفـ أنـ البـلـ يـجـعـلـ الأـدـيمـ يـغـفـرـ لـكـلـ مـنـ اـسـتـجـارـ بـهـ ، فـيـ حـينـ عـرـفـ الإـنـسـانـ فـرـعـ رـأـسـهـ عـنـ الـأـرـضـ ، اـمـتـدـ بـقـامـتـ إـلـىـ السـمـاءـ ، وـكـاـبـرـ . تـطاـولـ إـلـىـ الـأـعـالـيـ وـنسـىـ الـأـسـافـلـ . نـسـىـ الـأـرـضـ وـدـاسـهـ بـالـأـقـدـامـ ، وـبـصـقـ عـلـيـهـاـ ، وـتـقـيـاـ فـوـقـ وـجـهـهاـ ، وـبـالـ عـلـىـ ظـهـرـهـ ، وـظـلـ يـطـلـبـ فـيـ السـمـاءـ شـيـئـاـ مـجـهـوـلـاـ فـقـدـهـ . قـامـتـ الـأـمـ وـنـاحـتـ بـفـجـيـعـةـ . لـعـنـتـهـ بـصـوـتـ رـدـدـتـهـ كـلـ جـبـالـ الصـحـراءـ ، وـاخـذـتـ مـنـ قـرـينـهـ السـمـاءـ عـهـدـاـ بـالـأـبـداـ .

فـأـنـاـ وـحـديـ مـنـ اـدـرـكـ السـرـ . وـلـوـ لـمـ اـسـتـجـرـ بـالـأـمـ لـمـ لـنـلتـ الـغـفـرانـ . أـصـبـحـتـ أـثـيـرـةـ الـأـمـ ، وـأـصـبـحـ الـوـلـيدـ الـمـدـلـلـ مـنـبـوـذـاـ ، تـائـهـاـ ، شـقـيـاـ . يـطـلـبـ الـمـسـتـحـيلـ فـيـ جـزـائـرـ وـاقـ الـوـاقـ وـيـدـوـسـ كـنـزـ الـحـقـ تـحـ قـدـمـيـهـ . وـلـوـ تـواـضعـ مـرـةـ ، وـتـلـفـتـ إـلـىـ نـفـسـهـ ، وـتـخـلـىـ عـنـ الـكـبـرـيـاءـ وـالـتـطاـولـ فـيـ السـمـاـوـاتـ ، وـرـكـعـ اـرـضاـ ، وـقـبـلـ جـبـينـ الـأـمـ التـيـ اـطـعـمـتـهـ مـنـ جـوـعـ وـآـوـتـهـ مـنـ خـوـفـ ، لـأـدـرـكـ السـرـ ، وـوـجـدـ نـفـسـهـ فـيـ مـلـكـتـهـ الـقـدـيمـةـ التـيـ اـخـرـجـتـهـ مـنـهـ لـعـنـ الـذـاـكـرـةـ . لـعـنـ الـكـبـرـيـاءـ . وـلـكـنـهـ يـؤـثـرـ أـنـ يـصـبـ اللـعـنـاتـ عـلـىـ الـحـيـةـ دـوـنـ أـنـ يـتأـمـلـ مـسـلـكـ الـحـيـةـ . يـقـاتـلـهـ بـالـتـعاـوـيـذـ وـيـتـخـذـهـ عـدـوـاـ أـبـدـيـاـ

دون أن يرى أن سر تفوقها في الزحف على بطنها . في التصاقها بلحمة الأديم الحميم . في علاقتها القديمة بالأم ، في حرصها على مجاورة النبع ، والاعتصام بملكة لم ترض أن تستبدلها بملك الوهم ، أو جزائر السراب . وستظل قدر الإنسان ماظلت لصيقة بالملكة ، بالأم ، بالأرض . ولن يجد المخلوق الأبله سبيلاً لقهرها ما ظلت على وفائها بالوعد .

هذا سر الحياة . سر صغير ، ولكن الكشف عنه يقلب ناموس الصحراء ، وينزل السماء إلى الأرض ، ويرفع الأرض إلى مقام السماء . ولذا قامت وشقت لسانها إلى نصفين ، إلى شطرين ، حتى تخرس ، حتى تكتم السر الصغير ، حتى تقطع الطريق في وجه النفس الامارة بالسوء . لأنها لن تكون حكيمة إذا لم تعرف أن المخلوق الارضي لابد أن يفتح فمه ويدفع سره ، مهما كان صغيراً ، ما لم يتحرج للأمر ، ويشطر لسانه إلى شقين . ولو لم تجسر على شل اللسان لما فازت بإعجاب الأرض ، فرأيت أن يجعل منها حرساً على كنوزها الخفية : كنوز التبر التي يسعى في طلبها البهاء ، وكنوز أخرى أشد حفاء وأبعد مناً يسعى في طلبها أهل السحر والسر .

(٧)

الحنفس المقدس أول من استجاب لنداء البدن وأقبل وراء الانفاس . راقبته الحياة وهو يحرث الأرض بستة أرجل ، يتسلّك بتعدد

العميان ، مهتماً بقرون الاستشعار . ابتسمت وهي تستعيد سيرة الصفقة . فعندما أغوت أثير الأرض ، وقادته إلى الشجرة اللثيمة ، أصابتها الأم بالعماء جزاء لها و كان الخنفس الأبلق يمشي على أربع ، ويتباهي ببصره الذي يخترق الظلمات ويرى البعوضة في أشد الليالي سواداً . تقدمت منه واقعته بصفقة أضحت الأجيال . أعطته رجليها مقابل عينيه . تردد وماطل طويلاً قبل أن تفلح في إقناعه . قال لها أنه يخشى أن يقع فريسة سهلة بين فكيها إذا تخلّى لها عن عينيه ، ولكنها أجابته بيقين الحياة : «كيف استطيع أن أبتلعك وأنا مقعدة كسيحة ، بلا رجلين؟ كيف يسقط من امتلك ستة أرجل بين فكي حبل مسكون ، ممدّد على التراب؟». قهقه طويلاً ثم استجاب . ثمت المبادلة . نالت أقوى عينين ، وتخلىت من ساقين كريهتين كانتا ترفعانها اشباراً فوق صدر الأم . ركعت وقبلت التراب . لثمت جبين الأم . لبست جسد الأرض فنالت الغفران . ومنذ ذلك اليوم كانت تفتح في وجه الخنفس الأبلق لتخيفه وتتسلى بمشاهدته وهو يركض في كل الاتجاهات خوفاً وفرعاً ، ولكنها لم تفكّر يوماً أن تبتلّعه .

لأن الخنفس جرّدها من الاداة التي كانت تبعدها عن الأرض . اداة تدوس بها التراب ، وتجعل لها شبهها بالأنسان المكابر . صفة الخنفس أبعدتها من السماء ، ولكنها قرّبتها إلى الأرض . ألغت المسافة القاسية التي كانت تفصلها عن الأرض . الآن تستطيع أن تزحف وهي تلاصق

الأم ، وتنام وهي تلاصق الأم ، وتقتل اعداءها وهي تعتصم بحرم الأرض، تتلبّس جلداً من الأرض . فإذا مر بجوارها خنفس ، أو التقطه في طريقها ، فتحت في وجهه من باب الدعاية كما فعلت منذ أول يوم في الأزل . فالحية أوفي مخلوق . الحية لا تغدر بمن هداها سواء السبيل . وهي أول من وهب الخنفس لقب القداسة الجليل . وهي تتجدد وتبثج بحمده ليس لأنه منحها عينيه الخارقين ، ولكن لأنه حررها من عكازين كانوا سبب شقائصها . فآه لو تعرف المخلوقات سرّ الحية ! آه لو لم تقطع الحية لسانها إلى نصفين !

اقرب الخنفس . تحسّس الدائرة بقرونها . سار بمحاذاة الدائرة . ارتطم برأس الحية . هبت في وجهه : « ف - ف - ف .. » . فز راكضاً . جرى إلى الأمام ، ثم ولّ عائداً على عقيبه . ارتطم بخط الخطر المرسوم حول جسد جبارين فأصابه المس . تعرّ . تدحرج . هرول شمالاً ، ركض في المسافة الواقعة بين الدائرتين ، بين الخطرين ، حتى ارتطم بلسان المدينة المغروسة في الرمل . توقف .لامس النصل . احتمى بالمدينة . اعتصم بالنصل وهو يلهث ، ويرتجف .

(٨)

من الشرق تبدى وهج فضي . تجددت الظلمة في فيض القبس الجيد فعرفت أن مسيرة الكوكب المسحور قد بدأت . في مكان ما ، في أعلى الوادي ، عوى ذئب بنداء بعيد . الذئب أيضاً اشتَمت انفاس

الإنس المسجى فطالبت بنصيبيها من الوليمة .

لا شيء يصلح كميناً للكائنات مثل بدن الإنسان . آه لو بقى هذان الجسدان ممددين هنا لاستدرجت بهما الف فأر ، والف يربوع ، وألف حيوان شهي آخر . آه لو رضي الإنسان بالتسليم ، وكفَّ عن الركض وراء الأوهام ، ورقد هكذا في وداعه من لا قامة له ، إذن لاستحال إلى ولني ستكون هي ، الحياة الداهية ، أول من يعبده ، ويتحذَّد من بدنه ضريحاً يقدم له القرابين . ستسيل دمًا غزيرًا احتفالاً بزهد المخلوق المكابر . ستتحرَّ آلاف الحيوانات الصغيرة احتفاء بعوده الإبن الصال إلى الأرض ، إلى الأم . الإنسان لا يعرف أن في القامة يكمن سرُّ الشقاء . لا يعرف أنه لو تشجع مرة وتخلص من القامة ، وقبل أن يحيَا راكعاً ، زاحفاً ، لصيقاً بالتراب ، لفائز بالبطولة ، وأصبح إلهاً ، ولعرف أن طلب الحق في جزائر واق الواقع وهم ، واللعبة المسمة حياة ، عمل بسيط لا يستحق أن نركب في سبيله الخطر . ولكن المخلوق لن ينجو ، ولن يفوز ، ولن يصحو من الكابوس ، ما ظللَّ يهبَّ ، كل مرَّة ، واقفاً على قدميه . يمْدُّ قامة كافرة إلى السماء ، ظاناً أنه يستطيع أن يخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولاً . وهي الحياة ، لن تكشف السرَّ أبداً . لقد قطعت لسانها نصفين ، لأنها ادركت أن قطع اللسان هو الحيلة الوحيدة التي يستطيع الكائن أن يحفظ بها سراً .

(٩)

تصبتَتْ فصيَّدَ رأسها زفير وشقيق الآدميين المتروكين على صدر الأمّ . هبَ النسيم من الطرف المعاكس فغزتْ أنفها الرائحة الكريهة . رائحة الأطعمة والأخلاق والنكارة والكفر فأصابتها الدوار . استنجدتْ بالأرض . دسَتْ رأسها في أحشاء الأم فانجذبتها بحبساتِ الرمل . تطهَّرت بالغبار وتداوت بالتراب . رفعت رأسها مرة أخرى . رأتْ كيف تتعارك عتمة الوادي مع قمر ينذرها بالزال . اخترقت العتمة الزائلة بعين لم تعرف لها الصحراء مثيلاً ، العين المستعارة من رأس الخنفس المقدس ، فرأتْ بدنًا يحبو في ارتياح ويتجه نحو الموضع . نحو الكمين اللثيم الذي نصبه ابن آدم بيده واحتلاطه وانفاسه الكريهة : ليس في الصحراء مصيدة أصلح من بدن الإنسان . لو بقي هاماً ، لصيقاً بالتراب ، لإنقاذتْ إليه كل الكائنات . لو عرف فإن بدنه نفس فخ . به يستطيع أن يقتضي كل حيوانات الأرض . الجوارح والوحش والزواحف وكل الانعام . بعضها يُقبل ليشبّع فضولاً ، وبعضها يأتي لينهش قطعة من لحمه ، وبعضها يأتي ليتقم ، وحيوانات أخرى تسعى إليه لتقف على السرّ . ولكنها هي ، الحية ، التي وقفت على السرّ الأعظم ، فدانت لها أسرار الأرض والسماء ، تعرف أنه مخلوق بائس لا يحمل أي سرّ ، ولا يصلح إلا لأن يبقى مصيدة للفرائس ، وفخاً للدواب

الغبية التي يدفعها الفضول لأن تسعى إلى حتفها . آه ! ها هي الفريسة تقترب . ها هي الدابة الصغيرة التي تحبو في ارتياح ، قد بلغت الموضع ، الشرك . ها هي تقف فوق رأس المصيدة . تطل على فم الفخ . فما الذي جذب الفأر الغبي إلى مكان يتمدد فيه مارдан إنسيان إن لم يكن الفضول؟ الخلق لا يعلم أن الفضول أهلك من الخلوقات ما لم تهلكه النار ، ولا السيل ، ولا الجفاف ، ولا الحروب . الحياة وحدتها تعرف أن الفضول أشدّ خطرًا من النار . أشياء كثيرة يجهلها الخلق وتعرفها الحياة . ولو عرف الخلق ما تعرفه الحياة لبلغوا حكمتها ، وإذا بلغوا حكمتها وقفوا على سرّها . ولكن هيهات أن يجدوا طريقاً إلى سرّها ! هي على يقين أنهم لن يجدوا طريقاً إلى سرّها ، لأنهم أكثر كبراء من أن ينفذوا إلى الأرض . عليهم أن يقيموا دهوراً في باطن الأرض ، في الظلمات السفلية ، إذا أرادوا أن يهتدوا إلى السرّ .

اقرب الفأر . سار بمحاذاة الدائرة . شمشم خط الخطر بخطمه المدبب ، الصغير . جرّ ذيلاً أزهراً اللون . رفع قائمته الخلفيتين إلى أعلى حتى بدا كأنه يريد أن يقفز في الرمل وينغوص في باطن الأرض . كأنه يحذر الحياة ويقول لها ، بحركة جسده ، أنها دنت من الشرك الذي كان سبباً في إصابة الإنسان باللعنة ، لأنها كفرت إذ ظنّت أنها أدهى الخلوقات حقاً * ، فهو أيضاً يستطيع أن ينافسها ، ويخترق بدن الأرض ،

* ورد في سفر التكوين : « وكانت الحياة أحييل جميع حيوانات البرية ... ». الإصلاح الثالث : ١.

ويذهب في سفر المجهول إلى الظلمات ، وآغم نودادن ، ويبلغ المالك السفلي . تلقت الحياة الإشارة فارتجفت وفزعت ، وقبلت التراب . دست رأسها في الأرض ندماً ، وكان عليها أن تتمسّح طويلاً، وترفع كثيراً ، وتغيب في غياب الظلمات مرّات ومرّات ، وتترمّغ بأنفها وببدنها وكل اعضائها في التراب دهراً ، إذا شاءت أن تغسل من نفسها الخطيئة ، وتفوز بالغفران . قطعت على نفسها عهداً بأن تمارس الشعائر ، ولكنها تركت لنفسها حتى اختيار الوقت . أما الآن فعليها أن تنتهز الفرصة ، وتقتنص الفريسة التي استدرجها الكمين . عليها أن تؤدي شعائر أخرى لا تقل جلالاً وقداسة عن شعائر الندم وطلب الغفران . فابتلاع مخلوق حمل لها الوحي ، والقى في قلبها بشرر الإشارة ، عمل أكثر متعة من ابتلاع الكائنات البلياء ، والكائنات المسكونة بالفضول الميت ، الكائنات الجوفاء التي لا تحمل رسالة ، ولا تكتم سراً . فالخلوق الذي يطيب ابتلاعه هو الخلق الذي وضعت فيه الأرض سراً ، او حكت فيه السماء إلهاماً . الحياة لا تحيا بالخلق وحده ، بالطعام وحده ، ولكنها تقتات وحياً مع اللقمة ، مع بدن الخلق ، وتحيا بالسر الذي يحمله في جوفه ، لأنها جربت كثيراً أن الفرائس الخالية من السر ، حالية لا من الطعام فحسب ، ولكن من النفع أيضاً .

٢ - الدائرة (أ)

« كما السماء بادية ، دائرة في الصورة والحركة ، كذلك الذهب »

م. ماير

« الدائرة »

« قيل أنها لا تجوز أن تكون ذات زاوية فلا تكون إلا كرّة ، لأن سائر ما لزاوية له من الاشكال البيضية والمفرطحة ، يكون فيها اختلاف امتداد عن المركز وتفاوت في الطول والعرض ، والطبيعة البسيطة لا توجب اختلافاً . فإذا صَحَ وجود الكرة صَحَ وجود الدائرة ». .

الحسين أبي علي (ابن سينا)

« كتاب النجاة »

« إن الشكل واحد ، منه ينبع كل شكل ، وهو المدور ، والاشكال كلها مأخوذة منه لكتلة زواياه ». .

أيو حيان التوحيدى

«المقابسات»

(١)

أحسّت بفيض القشعريرة يسري في البدن . موجة من الأشواك غمرت جلدتها . تملمت تحت التراب . قمعت في نفسها سموماً استغَّها الاستفخار والرغبة المحمومة في القفز إلى أعلى والتقاط السر مع الصحّية . سرّ محشور في جوف المخلوق الصغير . المخلوق الذي جاء سعياً وراء الانفاس ، وراء الإنسان ، وراء الكمين . المخلوق الأبله الذي يرى فتاتاً حيّاً حين آدم رحالاً . اودع فيه اسلافه هذه الشريعة ، ولكنهم نسوا أن يحذّروه من الشرك . لم يقولوا له في وصاياتهم أن الحياة تقتفي أثر الإنسان وترتبط فوق رأسه أينما حط رحالاً . لم يلتفوا المسكين أن الحياة قدر الإنسان ، تلذغ عقبه حيّاماً ذهب ، كما تلتهم كل من سوّلت له نفسه أن يعترض طريقها ، ويتعيش على فatas مائدة الإنسان . تلتهمه ل تستزيد من سرّ الأعمق الخالد . من وهج الأسافل التي اعتاد الفأر أن يرتادها طلباً لكنوز لا يعرف أحد سواها لها سراً . لا يعرف أحد أنها كنوز لا لقاء بينها وبين تلك الكنوز المعدنية البلياء التي يبعدها أهل الأرض ويظنو أن الحياة الحكيمية يمكن أن تتنازل وتفني حياتها وهي تقف حرساً عليها . ولا أحد يعلم أنها وهب الخلود لأنها تبدل لحمة جلدتها في كل موسم ، ولكن لأنها تستمد السرّ من النّبع ، لأنها تتزوّد من الأعمق بكثيرٍ من النفس بما لا يقاد بالمقارنة مع كنوز الأرض

الغيبة . كنوز أهل الأرض الاغبياء . و ..

وفجأة تلقت الإلهام . قدح الوحي في قلبها شرراً جعلها تتراجع ، تتوقف ، تترىّث ، تصبر . فقد علّمتها الحياة ، علّمتها الأرض ، علّمتها شرائع الكنوز السفلّي ، أن التسرّع مرید من اتباع الجشع ، وإطلاق الجشع وقوع محتم في الأشرار . في افخاخ القدر ، في أفواه الكمانين المشرعة أبد الدهر . كنوز الأسافل نحتت فيها تميمة أخرى من تمائم النبع الأبدي . الأمتناع شرط الحياة ، قالت لها التميمة . الصبر شرط الفوز ، شرط الخلود ، قالت لها كنوز الأسافل . لأن الأرض إذا بعثت بفار فلا بد أن يظهر وراءه عدوٌ يتّخذ منه شركاً . من وراء الضفة الجليلة الشرقية فاضت في الوادي البشاره . انبق خيط الضياء الفضي فجأة ، وسقط على قمة صخرة السلف . الصخرة الجليلة التي آلت على نفسها أن تنقل الوصايا ، وتتحدى السبيل ، وتنافس في خلودها وصبرها الزمان . الصخرة التي تواجه الضريح القديم ، وتتحذّها ، هي ، الحياة الأبديّة ، وطنًا . في امتداد الوادي الأسفل . خرج من الاحراش البريّة قنفذ . تدرج عبر الأرض المغطاة بالمحصى ونبات الحلفاء اليابس . يتفقد الطريق بخطمه ، يستطيع المسافة ، يقتفي أثر الطعم الذي أرسله إلى موقع الوليمة منذ قليل . بلـى . لم يتأنّر العدو . جاء الغول الذي لم تحف الحياة غولاً سواه . لم تعرف عدوًا أثیرـس منه منذ مليون عام . منذ الأزل . منذ أنفصل الليل عن النهار ، ورفعت السماء عن جسد

الصحراء . ولو لا التميّة الخالدة ، تميّمة الينابيع السفلي ، لسقطت في الفخ ، لوقعت في فم المخلوق الرهيب ، المطلّع على السر ، الوحيد قادر أن يحاكيها ، ويصنع من بدنـه المدهش ، المحسّن ، دائرة مهولة الأشواك . المهوـل ليس طربوش الشوك ، ولكن الدائرة الخفية ، المقدّسة ، المحكمة الإغلاق التي تحاكي دائرة الأرض ، ودائرة السماء . نعم . لو لا ان القنفذ لم يستعر سراً من الأرض مثلـها ، لو لم يأخذ من السماء رسم قبـتها ، لكان مخلوقاً بايسـاً كـكل المخلوقات البـلهاء التي تدبـ في الصحراء . ولكن التفـوق جاء بالـدائـرة وليس بالـشـوك كما يظنـ الخـلق ، كما يـظنـ ابنـ الإنسان الغـبي . لأنـ كلـ شيءـ استطـاعـ أنـ يتـكـوـمـ ، ويـضعـ ذـيلـهـ بينـ فـكـيهـ كـماـ تـفـعـلـ هيـ ، الحـيـةـ ، كـلـ مـخلـوقـ وـجـدـ فيـ نـفـسـهـ الكـفـاءـ والمـروـنةـ كـيـ يـتـكـوـرـ جـسـداـ وـرـوـحـاـ ، استـطـاعـ أنـ يـحـتـويـ الـكـوـنـ ، يـحـضـنـ الـكـنـزـ . وـقـدـ عـرـفـتـ قـدـرـةـ هـذـاـ الـكـائـنـ الـعـجـيـبـ عـنـدـمـاـ قـفـزـ وـاخـطـفـ رـأـسـهـ مـنـ الـأـرـضـ مـرـةـ . التـقطـ رـأـسـهـ بـيـنـ اـسـنـانـهـ الشـرـسـةـ وـ .. تـكـوـرـ . حـاوـلتـ أـنـ تـلـجـأـ إـلـىـ الـحـيـلـةـ الـقـدـيمـةـ بـالـالـتـفـافـ حـولـ العـدـوـ . لأنـ الـكـائـنـاتـ الـتـيـ اـطـلـعـتـ عـلـىـ السـرـ وـرـبـتـ فـيـ روـحـهـ وـبـدـنـهـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ التـكـوـرـ وـالـسـتـدـارـةـ ، لـاـ تـخـلـصـ نـفـسـهـ إـلـاـ بـالـدـائـرـةـ ، بـالـالـتـفـافـ ، بـمـحاـكـاةـ كـرـةـ الـأـرـضـ ، وـتـقـلـيـدـ قـبـةـ السـمـاءـ . هـذـهـ الـحـرـكـةـ هـيـ التـمـيـةـ ، هـيـ السـلاـحـ السـحـريـ الـذـيـ يـفـتـكـ بـالـعـدـوـ ، وـيـكـفـلـ الـخـلاـصـ لـأـهـلـ السـرـ . ولكنـ الـكـائـنـ المـهـوـلـ ، القـنـفـدـ الـعـجـيـبـ ، اـجـتـهـدـ فـاضـيـافـ حـيـلـةـ أـخـرىـ إـذـ

تلبس شوكاً فوق البدن . فما أن رسمت حول جسده الكرة السحرية ، وبدأت تضغط بعضاًلاتها ، حتى لسعها الشوك وتتدفق من جلدتها التزيف . استنفرت كل عضلة في بدنها ، وقامت بمحاولة بطولية أخرى لتحرير رأسها ، ولكن هيئات أن يتحرر رأس مغمور في طوق من الشوك . بدأت تختنق ، وتترافق ، وتشعر بالدوار لو لم تهرب السماء لنجدتها . تزلرت الصحراء بالقمعة السماوية ، وتنزق السحاب بسياط من نار . تدفق المَنْ وسقط على البدن الكروي الملبس بعمامة الشوك . هنا حدثت المعجزة . تراحت قبضة العدو على رأسها ، وبدأ الحيوان السري يفك عن رقبتها الحصار . أنهار وتخلّى عن رأسها . فعرفت سر العدو منذ ذلك اليوم . عرفت أن الماء هو المفتاح السحري لدائرة الشوك . كشفت لها الأرض ، بمساعدة السماء ، سره ، فكفَّ أن يكون عدوًّا إذ انكشف أمره . فعادت هي ابنة الأرض ، وريثة التراب المدللة ، التي تعرف أسرار الكل ، التي عرفت أسرار كل الخلوقات ، في حين غاب سرّها عن كل الخلوقات .

(٢)

.. ولم تكن لتدرك سر الدائرة لو لم تتأمل أفق الصحراء دهراً . قوس الأفق يمتد ، يتمدّد ، يقطع مساحة الخلاء القاسي ، يلامس المجهول ، ولا يتوقف عن التوغل حتى يقف على السر في اللامتهى . تتبع امتداده الفاجع ، تجري وراءه في البرية الأبدية ، تدور معه في مدارات الفراغ .

طارده في البرازخ السماوية ، تجده نفسها في الملوك الأول . ثم الملوك الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع ... تقلب في اكون لا تحدّها المسافة ، ولا تقيّم وزناً للزمان . في ذلك الوقت الذي تتبع فيه رحلة القوس وهو يدور حول نفسه تدور حول نفسها أيضاً . تدور حول جسدها المكوّم في الأسفل ، في الأرض ، في الضد . تلتف حول نفسها ، بعض ذنبها ، تصنع من نفسها ، من بدنها ، كتلة مستديرة ، مستعارة من الأفق الدوار . تحس بالدفء ، تغوص في النقيض ، في تراب الأرض . وكلّما ازدادت فيها في الأفق ، وضياعاً في سماوات المجهول ، كلّما غمرتها السكينة ، وفاض القلب بالسعادة . الدائرة علّمتها أن المخلوق لا يبلغ ملوك السماوات إذا لم يتوجّل في الأرض . إذا لم يسافر في الأسفل . لأن الناموس يقول أن المخلوق لا يجد نفسه إذا لم يفقدها ، والدائرة لم تكن لتصير محراً لو لم تكن منفي . والبلاء الذين يدوّسون الأرض بأقدامهم ، يملؤون قamas الكبراء ليبلغوا السماء طولاً لن يجدوا الصراط ، ولن يدخلوا الملوك ما لم يزحفوا على الأرض ، ما لم يقبلوا التراب وينغوصوا في الرمل . على جبين هؤلاء المكابرین سطّر القدر نبوعة الشقاء . لأنه لم يخبرهم أن المخلوق لا يبلغ القمة إذا لم يزحف على الحضيض ، ولا يدرك سرّ الضد إذا لم يعرف الضد . ولا يدخل «واو» إذا لم يعبر دهليز الظلمات . ولا ينال الخلاص من صعب عليه طعم المنفى . وهي تفوقت على ابن الإنسان ، وعلى كل

الخلوقات ، وفازت بالخلود ، لا لأنها اختلست الشعلة الخفية ، ولكن لأنها فهمت سر الأصداد . وهيهات أن يفهم المخلوق أبله أنها لا تحرس أكdas التّبر إلا للتّمويه ، لأن التّبر ما هو إلا هباء يعمي ويضلل ويصيب المخلق بالمس . التّبر قشرة البيض ، قيس البيضة ، الوهم الملعون بكل الألسن ، المهلك ، المقيت ، الميت . أمّا الذهب الحقيقي ، الذهب الآخر ، ذهب الخفاء ، ذهب السّر ، فهو في الخفاء ، في مكان مَا في الأعماق التي لا تدرك بغير التّحول ، في المسافة المجاورة للخطر ، في البرزخ الأبعد من السماوات ، ومن الأرض . في بربخ الملائكة . في الدائرة !

(٣)

فلنقترب من الدائرتين المرسومتين حول الجنسيين . فهنا يرقد مخلوق أبله ، وضع دائرة من نحاس صنعها ييد حداد ، احاط بها رقبته ، اخفاها وراء الثوب . حفظها بين الثوب واللحم ظانًا أنه امتلك التّمية . ولكنه أبله لأنّه يتّمّي إلى فتة ترى التّبر في الهباء ، الفتة التي ترى الذهب في المعدن ، الفتة التي لن تبلغ السماء لأنّها أخذت بالباديات . ولكن في الناحية الأخرى ، في الدائرة الأخرى ، يرقد بدن علّق تميمته في مكان أبعد . في اللّحون ، في رعشة المواويل ، في الجوف الثاني ، مكان يتجاوز الصليب ، ويجاور دار الملائكة ، ويركض مع السراب . يدخل في الأفق ، يتقلب في المدارات . يعبر

البرازخ ، يدور في الأفلاك ، يسافر في البروج ، يحترق وجداً ، ويعرف الخطر . ومن عرف الخطر وقف على السرّ ، ومن عرف السرّ نال الكنز الآخر . الكنز الأبعد الذي لم يخلق الخلق إلا ليعرفوه * . فهذا الكائن الصغير ، البائس ، الممدد كخرقة خرقاء ، هو كائن الخطر .

(٤)

لا تتكون الدائرة بمدارات الملوكوت ، ولكن الأفق ينشد كقوس قاس . تبدأ الدورة . دورة التكوين وانتزاع الكنز . تضيق المسافة بين الضدين . تضيق وتضيق بتميمة العناد . وعندما يتلامس طرفا المستحيل يولد الحجر في مركز الدائرة ، فيرقص الملك . تزغرد الحوريات ، وتهمنهم الآلهة بالبشرة في الوادي . وأهل الغفلة وحدهم يظنون أن تلك الهمة ما هي إلا لغط اعتادوا أن يسمعوه من الجنّ . بعدها يغيب المعتقل في الأسفل . يتخفي في هاوية الظلمات ، ويتبدى الوجه .

تبدل الجلود ، يبدأ موسم التحول ، زمن الخطر . تخفي الاحجبة السفلی ، يقرأ الطلس مقلوباً فيحل الضد في الضد . هذه علامة أخرى تضاف إلى الهمة المبهمة ، فتهبط من جديد وتشبه بينات الأرض اللائي اعتدن سرقة مياه الأمطار من الوديان العليا ، لأنهن كن أكثر مقدرة على حفظ الهامة ونبذ الكبر . عقب الدرس تتوقف

* «كنت كنزاً مخفياً، فخلقت الخلق ليعرفوني» حديث قدسي .

الدورة وتجد نفسها تقف فوق رأس الكثر . كثر يسميه الدهاء سراً ، ويسميه البلهاء «واوا» .

ولكن هل تخون الحياة عهداً وتتضي إلى أبعد من ذلك ؟ هل يتشبه أدهى مخلوق أرضي بأبناء الجنس الزائل وهو الذي كوفيء على الدهاء بالخلود؟ هل تتنازل وترتضي إفشاء سر قطعت بسببه لسانها الى نصفين؟

(٥)

بلغ البدر عرشه . استسلمت الصحراء للفيض . انقطع عواء الذئاب . لم يبق في الصحراء سوى السكون يتتجسس على السكون . علت انفاس الخلوقين الممددين على كل الا صوات . علت لأن السكون عندما يتتجسس على السكون وعندما يستوي البدر المسحور على عرشه في الأعلى ، يصنع من الهمس ضجيجاً ، وينفع في الانفاس ليغيرها نفيراً منيراً .

في الوادي تدفق الفيض الفضي .

عادت من سفر الظلمات . أخرجت رأسها لتتفحص الساحة . لم تخرج رأسها كاملاً . اكتفت بتخلص العينين من رقبة التراب . دارت العينان في محجر يهما بحدار . رأت الكائن المقدس وقد تحول الى فريسة . أدركه القنفذ في معقله عند نصل المدية فقتله به وافترسه .

سمعت طقطقة الدرع الأبعع وهو يتحطم بين فكين القنفذ الجبار .
ضج الوادي بالطقطقة . طقطقة نفح فيها السكون من روحه فأحالها
إلى رجيج كأنهيار الصخور من أعلى الجبل . ابتسمت بغموض الحياة .
لقد خلقت من الخنفس المسكين ضحيةً منذ سلبت من رأسه العينين .
خسر المقايسة لأنَّه لم يفهم أنَّ المخلوق لن يقدر أنْ يخرج من الظلمات
إذا فقد العين حتى لو اكتسب الف قائمة . وقد عرفت منذ البداية أنه لا
يملك إلا أن يكون ضحية أبد الدهر ، لأنَّ القدر حكم عليه بالغباء ،
بالقداسة . وإذا لم تسلب هي ، الحية ، الداهية ، عينيه ، فإنَّ ثمة مخلوقاً
آخر سوف يفعل ذلك نيابة عنها . وهي لا تملك أن تشفع لمن خلقوا
ليكونوا ضحايا حتى لو أرادت ، حتى لو احتكمت للدهاء . ذلك أنَّ
الدهاء هو عينه ما يمنعها من التدخل في شئون قدر تحجم الآلهة نفسها
عن التدخل في شئونه * . ولو لم يكن ضحيةً منذ الأزل ، قرباناً منذ
سلبته البصر ، لما كان مقدساً . فالعماء ثمن القداسة . التضحية ثمن
القداسة . لا يكون المخلوق قدِيساً مالم يقدم نفسه قرباناً . وعلى المخلوق
المكابر ، الزائل ، الذي يظن أنه يستطيع أن يفوز بالبلوغ ، بالولاية ،
بالقداسة ، دون أن يدفع نفسه ثمناً ، على هذا المخلوق الشقي أنْ يعي
الدرس . وعليه أن يتأمل الخنفس ، الولي الحقيقي ، إذا أراد أن يسلك
طريق الولاية .

الآن ، وقد حان الميعاد ، تستطيع أن تخرج من القمقم ، وتترفرغ

* ورد في نبوءة إله دلفي : «هناك شيء واحد أقوى حتى من الآلهة : القدر !» تاريخ هيرودوت

لفریستها أيضًا . الآن ، وقد كافأتها الأرض ، الأم ، على اعتقادها بالصبر ، والقامت القنفذ الجبار خنفساً مقدساً يتلهى به ويسكت به نداء الجوع ، تستطيع أن ترابط لضحيتها وتقتنص الفأر الذي استمر يحوم حول الكمين ، حول الدائرين ، حول الجسدین المددين فوق التراب . فالناموس يقضي أن يذهب القنفذ ويسترخي في مكان آمن بعد أن ملأ جوفه بالخنفس المقدس ، فكسبت الرهان مرتين : مرة عندما عقدت المقاومة واستبدلت قوائم الكفر بنعمة البصر ، ومرة عندما صنعت من البدن الأبلق طعماً أطعم القنفذ وأزاح من طريقها العدو . الآن خلا لها السبيل . الآن لن ياغتها الكائن الدائري الخارج ، المسلح بفروة الشوك ، الذي كاد يفتث بها يوماً لولا رحمة السماء . الآن ستتجنى ثمار الصبر والانتظار والانحطاط الطويل في الأسفل البعيدة .

انسابت من الأرض بمرونة لم تقارن أبداً الدهر إلا بمرونة الحياة . المرونة التي جعلت من بدنها سراً قادرًا على الالتفاف حول نفسه ، صانعاً دائرة تخبيء الكنز في المركز . المرونة التي جعلتها قادرة على مباغطة الفريسة ، الفأر الفضولي الشقي ، والإمساك به من رأسه . من جوفها تلقت الصحراء نداء شکواه : - صَوْ - صَوْ - صَوْ .

لم يهب لنجدته أحد . لأن ناموس الصحراء علم الكائنات أن تحمل وزرها المقدر ، فإن وقعت في مأزق فعليها ألا تنتظر النجدة من أحد . ولا أحد يعلم ماذا سيحل بالفأر الفضولي النهم لو لم يدخل الساحر أرض الوادي .

Twitter: @alqareah

٨ - الحجر (١)

« .. وعقول العرب فوق الديانة بعبادة الأصنام والخشب المنجورة والحجر المنصوب والصخرة المنصوبة » .

الماحظ

موسوعة «الحيوان»

* * *

« وشمام جبل عظيم منيع أيضاً ، فيه قرى ومزارع وسكان كثير ، وفيه جامع . وهو متميز من جبال اليمن ، ويرتفع منه العقيق والجزع والحجر المعروف بالجمست ، ويقصيها المطالبيون بالناحية غشياً كسائر الحجارة ، فإذا عملت ظهر جوهرها بالنار والعمل ، وبلغني أنها تكون في صحارى فيها حصى ملون تلتقط فيه من بينها » .

ابن حوقل

«صورة الأرض»

* * *

« .. فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامه بنت مرة ، وكانت امراة زرقاء ، فأمر فنتزعت عينها فإذا في داخلها عروق سود ، فسألها عن ذلك ، فقالت : حجر أسود يقال له الأئمـد كنت اكتحل به فتشـبـالـى بـصـري»

المسعودي

«مروج الذهب»

* * *

«نحن نخطيء الى حد الجنون عندما نعتقد أن الإنسان ، في حياته الحاضرة ، أو الآتية ، يعني في الكون شيئاً أكبر من ألواح الوديان الحجرية التي يعandها ويعاملها بالاحتقار ، رافضاً أن يرى فيها الروح ، لمجرد أنه لا يلاحظ حركة هذه الروح ». .

ادجار آلان بو

«جزيرة الحوريات»

(١)

أرادت أن تتواري . أن تنزل إلى سبع ظلمة . أن تنفذ إلى المدار .
أن تتحصن بالسرّ . بالدائرة . ولكن الجوف الملعون قهرها ، فادر كها
الداهية الأولى بمجرد أن التقمت الشمرة . وكان عليها أن تقلياًها إذا
أرادت النجاة . عليها أن تترك سبيل الضحية حتى لو لم تجد سبيلاً
للنجاة . لأن الجوف يرتجف ، ويغمر البدن التهم غشيان ، ما أن يحلّ
الخطير . ما أن يقف على رأس الحياة مولاها الأولى الذي علمها
السحر و زير في قلبها أبجدية الدهاء . الآن ستعتق القربان ، وستبحث
عن باب الخروج إلى الظلمات ، وستعلم أن فوق كل ذي علم عليماً ،
والتباهي أولى علامات الخطير ، أولى آيات الكفر ببيانات الأرض ،
وستعلم أن الدرس يستمر ما استمرت الحياة ، والخلوق الجاهل هو من
لم يعلم أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً . وما المأزق الآن إلا برهان على
شريعة توارثتها الأجيال في الصحراء تقول إن الواهم من ظنَّ أنه يستطيع
أن ينصب فخًا ، أو يقيم كميناً دون أن يُنصب له فخ ، أو يقام له الكمين .
والنّاموس الأولى يروي أن من يحفر هوة يقع فيها ، ومن ينقض جداراً
تلدغه ، هي ، الحياة ، ومن يقلع حجارة يوجع بها ، ومن يشقق حطباً
يكون في خطر منه * فكيف تكون عضواً في طابور الحكماء ، وتغفل
تعاليم النّاموس ؟ كيف تسلب الزاهد الأبلق بصره وتتركه شركاً للعدو ،

للقنفذ المارد ، لتختلي بفريستها ، بالفار ؟ ولكن العزاء أنها تعلم أن في الصحراء ، إلى جوار ناموس الأوائل الصارم ، تقوم شريعة أخرى ، شريعة الضد . ولو لا اسفارها في مجاهل الظلمات ، لو لم تختبر الإسراء في المدارات ، لو لم تتهن البحث وتندوّق قساوة الطلب ، لما وقفت حرساً على الكنز ، ولما عرفت سر الدائرة ، ولما ادركت الشريعة الفاجعة : شريعة الضد .

بصقت الطعم . لفظت ثمرة صارت لها شركاً ، فصوَّصَوَ الفار بنبرةٍ فرخ طير مذعور . انسابت لتعتصم بالضريح ، ولكن الساحر القديم سبقها ولوح في الفضاء بعказ موسوم برموز السحر ، فاختفت الصحراء ، وغاب القمر . طارت الأرض ونزلت السماء . اجتازت انبرازخ والبروج وبدأت تدور مع الأفلاك . لم ترو هجاً ، ولم تسمع همة . ولم تدخل محراب السر .

(٢)

كان يسند عجیزته على العکاز على طريقة الرعيان إذا أنهكمهم السفر الطويل . يسند عباء الجسد على العصا من الجانب الأيمن ، ويثنى الساق الأيمن حول قرينة الأيسر . فوق رأسه ، بدل العمامة ، أبصر حالة من الفيض الفضي . لم يصر الهالة وحدها ، ولكنه شاهد فيضاً أرجوانياً آخر يحيط بدائرة الفتنة . بالحلقة الفضية البهية . وكان عليه أن يتنتظر طويلاً ، حتى يفهم . عليه أن يقطع مشواره إلى الوراء ،

ويستعيد أمراً كي يدرك أن الحلقة الفضية التي يعتمرها ما هي إلا الكوكب الصحراوي المسحور ، والهالة الأرجوانية لن تكون سوى ساهوره الجليل * . فجأة اعتدل في وقته ، ولكن الشعار لم يتزحزح فوق رأسه . بقي يتلحف بالبدر الريان ، فابتلع ألقه الحميد التعبير في عيني الزائر . لوح بالعكاّز في الفضاء . شيعه إلى أعلى ، فبدى له في هجعته ، حيّة شرّه تتخيّن للإنقضاض . ثم .. ثم عاد وتبدي له العكاّز ساحرة حسناً ليس في مثل حسنها وفتتها إلا الجنّيات : هيفاء لعوب ، مديدة القد ، ضامرة عند الخصر . كان عكاّزاً غريباً عن الصحراء . تيقن ، في ضوء الغمر الفضي ، أنه مُعدّ من شجر يسمّى التجار خيزراناً . بلون معتم ، شذّبته الملامة والمعاملة فتهذّب وأنصقل وأنصاع . ولا يعرف نفسه عما إذا كان قد استطاع أن يتبيّن هذه التفاصيل في ضوء الغمر ، أم أن جنّاً همس له بها . اليقين أنه رأى فيه مفاصل ناتحة ، مطوقة بأعناق نحاسية موسومة برموز . يستطيع أن يجزم بشأن الاعناق النحاسية ، لأنها ومضت تحت شعاع الفيض ، ولكنه ليس على يقين أنه تبيّن الرموز .

اعتدل الزائر في وقته ولكره بالعكاّز . أوّلاته برأسه فترّج القرص الفضي المهيّب . القرص الذي يتخذه الزائر لثاماً . رقص الساهور أيضاً . نهض بورو بمساعدة مرفيقه . حاول أن يتبيّن ملامح الضيف فأعماه فيض الكواكب ودمعت عيناه . تتمم بلاهة :

* الساهور : هو غلاف القمر (عن « فقه اللغة » لأبي منصور الع قالبي) .

- ماذا ترپد؟

لم يجب . صمت طويلاً وعندما يئس بورو من جوابه سمعه

يقول:

-أريغ إيهيتلكمد ! *

لحفظ العبارة المبتسرة بصوت مكتوم ، مغموم ، مزدوج النبرة .
كأنّه يأتي من بشر ، أو من مجاهل مغارة عميقـة . أمـا اللـكنـة فـلم تـتـم لـلـكـنـة
أهـل آـزـجـرـ. لـكـنـة غـرـيـةـ ، غـامـضـةـ ، وـلـكـنـهاـ ، مع ذـلـكـ ، تـتـمـتـع بـسـحـرـ
مـجهـولـ . لـكـنـة قـدـيمـةـ رـبـما بـقـيـتـ مـتـداـولـةـ عـنـدـ بـعـضـ العـشـائـرـ فـيـ آـيـرـ أوـ
آـضـاغـ أوـ .. أوـ لـدـىـ قـبـائلـ اـهـلـ الـخـفـاءـ !

نهض بورو . اعتدل في جلسته . سأله مرات أخرى :

مانی سی؟ —

هذه المرة لم يجب الزائر أبداً . رمى بالعكاّز فوق رأسه . رسم دائرة ارجوانية حول عمامته المنسوجة من خيوط القمر . ثم تحرك نحو الجبل . رأى بورو أن رأس الضيف لم يتحرر من قرص القمر ، فأيقن أن الزائر المجهول يتخد من البدر قناعاً . قام بجهد بطولى حتى استطاع أن ينهض ويقف على قدميه . مشى وراء الهالة . لم يكذب الزائر بلغ موقع الخطير ، كوم الحجارة الذي وقفت الحياة تحرسه أجيالاً ، حتى ادركه بورو .

* اريدك أن تتبعني : (تماهق) .

• * الْيَوْمَ أَيْنَ؟ *

عندما يهجع المخلوق الصحراوي إلى جوار آبائه الأوّلين يأتى السّحرة . يفتحون له في الأرض شقّاً . يدفونون كنوزه إلى جواره . ثم يأذنون للأرض أن تستعيد عطّيتها . يأذنون للريح أن تستردّ النفس ، تستحيل العظام حجارة . الشّعر يصير إلى نبات . الدّم يجري في الماء . والجسد ينفي في ذرات التّراب . يقعون في فم الأرض ، يرددون التّمام السّحرية القديمة ، ولا يهجرون إلا إذا تيقنوا أن الديدان قد بُعثت من عدم ، وأن الأمر قد آل إلى زوال ، وإنسان الأمس قد مضى .

ولكن السّحرة يعترفون أن ما يجعل مهمّتهم عصيبة ليس في إففاء المخلوق وإعادة الإنسان إلى أصله الصحراوي ، ولكن في حماية الحرم المقدّس من عبث الطّماعين والباحثين عن كنوز الأرض . وقد مضى زمان طویل حتى اهتدى الدهاء منهم إلى تلك الحيلة التي أصبحت شريعة لا يعرف سرّها إلا الكهنة . كان الدهاء أول من أشار إلى جلب مقتنيات الموتى من الذهب ومصنوعات التّبر ودفنهما إلى جوار الفانيين حتى يضلّلوا اللصوص البلياء ويعموا بصرهم عن رؤية الكنز الحقيقي . إذ جربوا أنه كلما دفوا حفنة من المعدن المسموس انساق لها الخلق وتبعوها وترکوا الكنز الآخر ، الكنز الحقيقي .

ولكن ما هو الكنز الحقيقي الذي حرص سحرة الصحراء على اخفائه في شقوق الأرض ؟ . رفض الدهاء إذاعة السّرّ أجيالاً . ولكن

الأسرار لا تبقى أسراراً إلى الأبد حتى لو رقدت في صدور الكهنة . فافشى الزمان السر وقال أن الكنز هو الحياة . والبلهاء حقاً من ظنوا أن الحياة هي التي تحرس الكنز في حين أن كنز الذهب هو الذي يقف حرساً على الحياة . لأن السر في الحياة . فما أن تستعيد الصحراء بدن الإنسان (يؤكّد السحرة) حتى يتسلل عصفور التور ويدخل في بدن الحياة . تتلقى الحياة السر وتخفيه في جوفها بعيداً ، وتلتج به أسافل الأرض . تخترق كل الأسافل وتبلغ « آغرم نودادن » . ويقال أنها تلتج بسرها أعمقاً أبعد حتى من « آغرم نودادن » . وبرغم رحلاتها في الملوك الأرضي إلا أنها تظل تحوم حول « إدبني » . حول الشق الأول ، حول كوم الحجارة ، حول الضريح ، حول الظل . بل . السحرة يؤكدون أن الذهب ظل الحياة ، لأنه يجذب الطامعين فتنجو الحياة من كيد المعذبين . لأن المخلوق الزائل يرى الأشياء دائماً مقلوبة . يظن أن حقيقة الأشياء في الأشياء وينسى أن حقيقة الأشياء في ظلال الأشياء . يقوم إلى الحياة ليقتلها وينسى أنها لم تسم الحياة حية إلا لأنها اختلست من الإنسان الحياة . في حين يؤثر كوماً شقياً من الغبار لا شيء إلا أنه لمع بياقة خداع .

وبرغم أن الزمان اذاع السر العظيم إلا أنه لم يجد اعترافاً من الخلق . ولم يكن هذا الأمر دالاً على حسن حظ الحياة فحسب ، ولكن لحكمة دهرية ميزتها عن سائر الكائنات * .

* سفر التكوين : ١ .. وكانت الحياة أخيل حيوانات البرية ٣ : ١ .

(٤)

السّحرة الدهّاه وحدّهم ادرّكوا السّرّ ، وحفظوا التّميّمة القديمة. نقشوا الوصيّة في الصدور ، وكشفوا لنفوسهم لغزاً خفي على الخلق . كتبوا في التّمام الم gioسيّة بالعبارة المبهّمة : « الذهب ظلّ ، والحياة أصل . التّبر ضياع ، والحياة حياة . إسْعِ لنيل الحياة واحترس أن تتمد يدك إلى كنوز الأرض ، لأن التّبر شرك ، والذهب تراب ، والثراء لعنة ». منذ ذلك الزمان انقسم أهل الصحراء إلى شطرين . شطر لم يعلم لأنّه لم يشاً أن يعلم فبقى في صفوّ الذين لا يعلمون . وفقة قليلة ادرّكت سرّ الظلّال ، فعلمت ، ووُجّدت نفسها في ملکوت السّحرة الذين لا تخفي عليهم خافية وهم بكل سرّ علّمـون .

ولم يتحول زهد السّحرة في الذهب إلى شريعة صحراوية إلاّ بعد أن مضى الزمان يتقلب بالصحراء أمداً طويلاً . غدر بالأثرياء ورفع المستضعفين إلى أعلى المجد والتّرف والثراء . أطاح بأئمّ طفت واستكبدت ، وصنع من الشعوب الوديعة قوماً أكابر . وقد أتّخذ الزمان ، في سيرورته ولعبه بالمصائر ، من الذهب فخاً وكمناً ووسيلة . ودلّل لكل من غفل عن حقيقته أنه بدن الأرض ، بدن الحياة الدنيا ، كما برهن لأولئك الذين ادرّكوا وعلموا أن جوهر الحياة وسرّها ، وروحها ، إنما تخفّي في جلد الحياة . وكان من الممكن أن تقدم آيات الزمان (التي

رآها الخلق تعجن مصائرهم وترتب شئونهم) برهاناً للفريق الذي لم يعلم، ولكن هيهات . فالكلفة القديمة لم ترجح لصالح أي من الفريقين طوال العراق . وحتى عندما قام السحراء وتنكروا في ظلالهم مستعيرين الدرس من أحكام مخلوقات البرية وأحيلها فإن الفتنة الأخرى لم تقنع بل رأت في الآية خدعة استعارها السحراء من دهاء « كانوا » و « تينبكتو » ومجاهل الأدغال ، ومضت تصلي في محراب الذهب ، وتجري وراء الوميض .

وهكذا بقى الذين لا يعلمون على دينهم ، وبقيت الفتنة الأخرى على دينها .

(٥)

تابعه بورو وهو يطوق رقبته بالعكاّز ، بعكفة العصا الرقطاء . عصا القصب التي تزداد شبهاً بالحية كلما تأملها . رأس الحية يلتقي حول رقبة الزائر . توقف عند الجلمود الجليل ، في ذلك الجانب الواقع جهة الغروب ، فتحرّرت الرقبة من الأسر ، ركع بجوار الجلمود . نزلت الحية . وتسلّلت إلى مثواها في الحجر . استعاد رحلة قديمة ، قديمة . غامضة فأحسّ بالدوران . ترّنح وهم بأن يتنهى جانباً ليتّقيأً الأمعاء الخاوية ، ولكن ما حدث بعدها محاذاً الذاكرة ، والغى الرحلة القديمة ، وانساه الغثيان وألام الصداع . اختفت الدائرة القمرية المهيّة التي كان الزائر يضعها

فوق رأسه . تملّكت الصحراء الظلمة . ثم فقع رعد . واعقبت القعقة زلزلة . ظلت الأرض تميد وتهتز فرقشت معها الصحراء كلها . سقط بورو على ركبتيه وتقيأ بصوت عالٍ . وبرغم انشغاله بإفراغ الأمعاء الفارغة إلا أنه لم يغب عن الصحراء تماماً . سمع حجارة الجبل وهي تتدحرج نحو الخضيض ، وكان يخشى أن تدهمه الجلاميد أثناء إنشغاله ولكنه لم يقدر أن يوقف القيء ، كما لم يستطع أن يمنع نفسه من الاستماع إلى الجن وهم يتراطنون ويتبادلون ويتوعّدون . سمع عواء الذئاب ، أشتعلت الظلمة بوميض النار فرأى أسراباً من طيور مجهرولة . ولا يعرف كم مضى من الوقت ، ولكنه أيقن أن الفيض السماوي انقطع ، والبدر البطل توارى . ولم يبق في الصحراء غير شبح نحيل فقد قناعه المدهش المنسوج من خيوط القمر . كان يذرع المسافة الفاصلة بين الجلمود والكوم المحرّم . يردد مع كل خطوة بصوت مسموع : « أين . أين . كراض ، أكّوز ، سموس . سضيس . أسا » * . في الخطوة السابعة توقف . لوح بالعصا في الهواء ، نفس العصا الرقطاء المصنوعة من قصب الخيزان ، المقسمة إلى مفاصل ملساء صقلها الاستعمال . نفس العصا المعقودة التي رآها منذ قليل حية تتلوى حول رقبته . لوح له بالحية فرسمت دوائر أرجوانية آسرة . ولم يدرك أنه كان يشير له بتلك الحركة أن يتبعه إلاّ بعد أن كرر الإشارة ثلاث مرات . تقدم خطوة ، وخطوة . وخطوة . توقف إلى جوار الزائر . تفقد الكون فغابت

* واحد . اثنان . ثلث . أربع . خمس . ست . سبع (تماهق).

الصحراء . عبر الصحراء ، واجتاز ، ليجد نفسه تحت سماء أخرى ، فوق أرض أخرى . والسماء الأولى ، والأرض الأولى ، قد مضتا . لا زلزال في الأرض الجديدة ، لا رعد في السماء الجديدة . لا بروق في الفضاءات الجديدة . ولكن على الكون خيّم سلام ، وعلى الأرض الصفاء . سمع دليله يقرأ رقية مبهمة . ثم .. سقط بيصره إلى أسفل فتبدى له الضريح . لم يكن من الأضرحة الفخمة التي اعتاد الأوّلون أن يقيموها للزعماء والأكابر وكبار السهرة ، ولكن تواضع الحجم لم يفقد الحرم جلاله وقداسته وهيبته . بل أنه أحسّ أن تواضع البناء ، وصغر حجم الحجارة ، تخفي سرًا أدهى إذا ما قورنت بالانطباع الذي توخيء به الجلاميد الصخرية ، والألواح الحجرية العظمى التي تستر أبدان الزعماء والأكابر والكهنة . تأمل التكوين فرأى أن المثوى لا ينبعض فوق سطح الأرض بأكثر من ثبرين . مدعّم بحجارة معتمة ، عمودية ، متوسطة الحجم تطوق المقام في حزام دائري . ارتسمت على بعض القطع مسحة غامضة من السواد . كأنّ يدًا مجهولة شاءت أن تخطّب الأجيال رمزاً فحرقتها في موقد النار قبل أن تجعل منها وسادة للسلف الزائل . كأنّ اليد المجهولة أرادت أن تزير بها رسالة خفية إلى الخلف الشقي لتحذرّهم من غدر الزمان . كأنّ الحكماء القدماء أرادوا أن يقرّوا بعجز اللغة عن احتواء الخطاب ، وتقصير الرموز في نقل الوصايا ، فاستبدلوا اللغة بالعلامة ، والرموز بالبصمة . وقد تحول هذا الإحساس ،

هذا الهاجس المبهم ، إلى يقين عندما فوجيء بالزائر يسقط على ركبتيه راكعاً . كان يرتجف وييكي ويغمر الحجر المعتم بقبلات محمومة . ظلّ الزائر يتمسّح بالحجر الأسود ، يتراطن بتعاويذ المجنوس ، يغمغم بتمائم السّحرة القدماء ، وييكي بصوت تخنقه الدّموع .

وَجَدْ نَفْسَهُ يَجْثُو بِجُوارِهِ ، يَمْدُ يَدًا رَاجِفَةً لِيَصِلُّ إِلَى الْحَجْرِ
الْأَسْوَدِ الْمُوسُومِ بِصَمَمِ الْعَتْمَةِ .

(٦)

الحجارة ، كالألم ، اجناس وألوان وتصاوير وطبعات .

في الطفولة اذهلته خطوات العمالقة على الألواح التي تهجم في قيعان الوديان . يطارد الجديان ويتبعد آثار السحالى والضباب والحيات على السيوف الرملية التي تستعيدها الحمادة من عجاج الجنوب لتذكر الصحراء الشمالية بالنبوءة القديمة القائلة أن القبلي آتٍ لا ريب فيه ، وأن مآل الدنيا أن تصير يوماً إلى صحراء . يزحف على أربع فوق السيوف اللّميسة ويكتشف في الألواح السفلّى عن أقدام الجباررة . رقد أول مرة في بطنه وادٍ حرقه الجفاف ورأى القبلي أن يستولي عليه . صمم أن يدفنه فغزاه بسيوف الرملة . شطرته السيوف الذهبية الآسرة في أكثر من موقع عبر امتداده المتعرّج الطويل . فوق أحد هذه العروق رقد ليتفقد آثار الهوام ويتسلى بمتابعة ديبها فوق حبيبات دقيقة متعددة الألوان . لم

يُكَنْ يَتَسَلَّى تَمَامًا لِأَنَّهُ سَمِعَ مِنَ السَّحْرَةِ وَرَعِيَانَ الْأَبْلِ أَنَّ الْهَوَامَ لَا تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ عَبْنًا ، وَلَكِنَّهَا تَرْسِمُ بِأَرْجُلِهَا وَأَبْدَانِهَا رَمْزًا وَنَبْوَاءَتِ إِشَارَاتٍ تَسْتَحِقُ أَنْ تَقْرَأَ . اِنْحِنِي فَوْقَهَا يَوْمَهَا مُحَاوِلًا أَنْ يَقْلِدَ الْعَرَافِينَ وَيَعْتَلِمْ قِرَاءَةَ الْخَطُوطِ الْعَامِضَةِ . اِنْحِنِي طَوِيلًا فَوْقَ دَبِيبَ حَيَّةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لِمَعْنَى الرَّسْمِ . تَابَعَ الْأَثْرَ بِسَبَابِتِهِ . غَاصَتِ السَّبَابَةُ فِي التَّرَابِ الْلَّمِيسِ فَبَلَغَتِ الْحَجَرَ السَّفْلِيَ بَدْلَ الْمَعْنَى الْبَاطِنِ . اِزَاحَ التَّرَابَ بِغَضْبِ مِنْ عَجَزٍ فَوُجِدَتِ الْبَصْمَةُ تَحْتَ الرَّمْلَةِ . اِزَاحَ الْمَزِيدَ مِنَ التَّرَابِ عَنِ الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي الْأَسْفَلِ فَتَوَضَّحَتِ صُورَةُ قَدْمٍ هَائِلٍ . لَمْ تَنْكَشِفْ الصُّورَةُ كُلَّهَا فِي الْيَوْمِ الْأُولَى لِأَنَّ الْغَرْوَبَ اَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَّمَ الْكَشْفُ . عَادَ فِي الْيَوْمِ الْتَالِي لِيَوَاصِلَ الْبَحْثَ . اِزَاحَ الرَّمْلَ ، وَلَكِنَّ الْلَّوْحَ الْحَجَرِيَ اَخْفَى سَرَّهُ وَلَمْ يَكْشِفْ لَهُ عَنِ اَثْرٍ آخَرَ غَيْرَ اِحْفُورَةِ الْقَدْمِ الْهَائِلِ . فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَاسَ الْقَدْمِ بِذِرَاعِهِ فَوْجَدَ أَنَّهُ يَفْوَقُ قِيَاسَ الذِرَاعِ بِشَبَرَيْنِ . كَشَطَ تَرَابًا تَشَبَّثَ بِقُعْدَتِهِ فَازْدَادَتِ اِصَابَعُ الْقَدْمِ وَضَوْحًا وَعَمْقًا وَبَهَاءً . اَخْفَى الْأَمْرُ عَنِ الْأَقْرَانِ ، وَلَكِنَّ اَمْطَارًا نَزَلتَ عَلَى الْحَمَادَةِ فَجَرَفَتِ السَّيُولَ أَكْوَامَ الرَّمْلِ مِنْ قِيعَانِ الْوَدِيَانِ الْعُلِيَا لِتَسْفَهَ عَمَلَ الْقَبْلِيِّ . تَعَرَّى الْقَدْمُ الْمَجِيدُ وَانْكَشَفَ السَّرَّ . لَمْ يَخْبُرِ الْأَقْرَانَ بِالْأَمْرِ ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ كَبَارَ الرَّعَاةِ يَقُولُونَ أَنَّ الْقَدْمَ تَعُودُ لِعَمَالِيقِ مِنْ مَرْدَةِ الإِنْسَ وَأَصْحَابِ قَوَّةٍ وَجَبْرُوتٍ عَاشُوا فِي زَمَانٍ كَانَتْ فِيهِ الْحِجَارَةُ رَطْبَةً ، وَالْطَّيْرُ يَنْطَقُ وَيَتَخَاطِبُ ، وَأَهْلُ الصَّحَرَاءِ يَتَعَايشُونَ مَعَ أَهْلِ الْخَفَاءِ وَيَتَجَاوِرُونَ ، يَتَعْشَقُ رِجَالٌ

الجن نساء الإنس ، ويتعيش رجال الإنس حسان الجن، فيتصا هرون ، ويتراء جون ، ويتناسلون حتى امتلأت الصحراء بجنس امتلك أجرام الإنس ونال خصال الجنان ، يسعى في الفلووات ، يتبدى متى شاء ، ويختفى متى شاء . ويقول السحرة أن تلك الأقوام (التي ما زالت تظاهر في الخلوات بأبدان الإنس ثم لا تثبت أن تتبدل كسراب القيلولة) ما هي إلا بقايا من هذا الجنس الذي تركب من تعايش أهل الصحراء مع أهل الخفاء في أزمنة كانت فيها الحجارة ما تزال رطبة ، والطير يمتلك لسان المنطق . والصحراويون (إذ يرون أن البرهان الوحيد على أن الحياة ليست خيالاً أو كابوساً هو وجود الأنثى) استغرقهم عشق الجنينات لا لينالوا الدليل على أنهم أحياء ، ولكن لكي يجدوا العزاء وينسوا أنهم على قيد الحياة .

ففي الطفولة عرف الطريق إلى الحجارة قبل أن يجد المسيل إلى الإبل ، وتلقى الأسرار من قبور الأوائل قبل أن يتعلم لغة الجداء والخرانق* وصغار المهاري . وعندما كانوا يقيمون في الحمادة المتاخمة للصحراء الوسطى عشر على حجر عجيب قيل أنه مكرم . كان مكعباً ، ممتداً ، بهيجاً ، في حجم يملأ كف اليد ، في جوفه تتلامع الوان وهاجة ، ولكنها مخنوقة بعتمة غامضة . والعجائز أول من أكد أنه حجر نفيس أتخذه الأسلاف حصنأ يحمي من الجنان . لم يصدق أحد هذه الخرافات

* الخرانق : صغار الأرانب .

عملاً بتعاليم نُسبت لأنّه تحدّر من أملاك أي جرم ارضي يدفع يوميشه إلى الخارج . وبرغم أن الحكمة كانت تخص المعادن إلا أن أهل الخبر برهنوا أن التحرّم لم يستثن الحجارة . فما كان من اهل الصحراء إلا أن تجنبوا الأحجار التي تفيض بالشعاع ، وتنبع وميضها إلى السماء ، وأثروا عليها الحجارة الميتة ، التي لا لون لها ولا وميض ، عملاً بوصيّة أخرى نُسبت إلى «أنّه» أيضاً ، تقول أن الحجر الوحيد الذي يصلح تميّمه هو الحجر الآخرس ، لأنّه كالقندف ، يحمي الجوهر بالانكفاء على نفسه ، ولا يتباهي كالأكابر فيَدِدِ الوميض في الخلاء . وسمع روایات كثيرة تتحدث عن سبب عبادة القدماء للحجارة «إدبنان» فتعيدها إلى أسباب غامضة تشبه هذه الأسباب . استعاد كيف تلهي بتلك القطعة البهية . يحتضنها في راحة يده فتفيض اركانها وتبرز من بين أصابعه . الحق انه لا يرى بروز الاركان ولا يحسّ به ، ولكن الوميض ينبثق من اليد ما أن تتسلل الشمس على الصحراء وتدفع يوميشه مضاد إلى الكائنات . كان يحلو له كثيراً أن يتبع ميلاد الضياء من الكف المضمومة ، من مكان ما في القبضة ، من جوف مجهول ابتدعه بنفسه وصنعه بيده ، بأصابعه الصغيرة ، من خفاء حوله الانكفاء إلى ظلمات ومجاهل وادغال . من دنيا أخرى فقدت الصلة بدنيا الصحراء المكسوقة ، بدنيا الفضاء المفتوح على السماء . دنيا تتوهج بالغموض وتحرق بيده لأنّها احتوت ذلك المجهول الذي تضمّنه قبور الأولين في الاسافل فصيّرته أقرب إلى ذلك

الحال الذي يعتريه عندما يحسّ باقتراب الجنّ . يظل منبطحاً على بطنه في جوف الوادي ، أو عند حضيض المرتفعات ، يتبع المداعبة . تنبثق الشمس من قوس الأفق أولاً . تولد في المهد وعلى رأسها تاج منسوج من خيوط موشأة بهباء التّبر . تتدفق في الصحراء بقرون الاستشعار الصفراء ، تتقدّم حتى تلامس قبضته المرفوعة إلى السماء فستجيب لها القطعة الخفية ، القطعة الشقيقة التي تفتح قلبها إلى خارجها ، ويداً الحوار المبهم . حوار البكارة والملاظفة والدعاية ولقاء الحميم ، العناق العذري الحميم . يتعمّد أن يبقى على يده معلقة في الهواء فتبدو يداً أخرى وهي مغمورة بذلك الفيض النّبيل . وكلما تصير وأبقى على العناق الحميم أمداً أطول كلما تماطلت لعبة الضياء ، ولقاء نور النار مع نور حجر استنزف نفسه ففاض بسره إلى الملا . تستمر اللعبة حتى تحول يده إلى وهج ، إلى شعلة ، إلى قطعة مستعارة من الحرير . يشعر بالحرير يتنقل ويتسدل إليه ، فيستسلم وييهوبي بيده إلى الأرض . يطلق قطعة العجب فتتألق بألوان أُعجب : صفراء وخضراء وزرقاء وحمراء والوان أخرى لا يعرف لها إسماً . ولكن هذه الألوان لابد أن تتحدد في النهاية في ذلك اللون الذي تتلوّن به السنة النار عندما تطعمها أغصاناً حيّة ، الأغصان الخضراء المستقطعة من شجرة رتم لم يقض الجدب فيها على الحياة . وإذا تلوّنت القطعة بهذا اللون المخيف فلا بد أن يسترخي ويرمي بها إلى التراب ، لأنّ الستار يسدل ، وتسود الظلمات ، ويغشى البصر

عماء ، ويخرج الجن من القمم . يسمع الفهقة بأذنيه ، يغمض عينيه ويسدّ أذنيه بكلتا يديه . تنزلزل الأرض أو تصدع الجبال فيسمع الحجارة وهي تنكسر وتندحر عبر السفوح . تغيب الصحراء ، أو يغيب هو عن الصحراء زمناً . وكثيراً ما أفق من غيوبته بعد أن تكون الذئاب قد فكت بقطيع الجداء في الوادي المجاور . ادهشته خصيلة الحجر ، ولكنه سمع عجوزاً تحدث عن حجارة لها خصال المعادن الشائمة ، يسكنها الجن مثل التبر ، تفضع سرّها وتسكب روحها في البريق .

لعت الحجارة اللامعة طويلاً . وقالت أنها جوفاء لأنها شعت بفيض الضوء ونورها ظهر . واثنت على الحجر المعتم ، واطلقت عليه لقب « حكيم »، لأنّه يسدّ لثامه على وجهه ، ويتحجّب بقناع الفتنة والكآبة والخفاء . ولم تكتف العجوز القديمة بكشف حيل الحجارة المثلية للمعادن الشائمة ، فجمعت صبيان المنتجع في ليلة صيفية امتلكها بدر الصحراء الخالد ، وروت لهم حكاية شيبة عن حجر غامض ، مدلّ ، ومكرّم . يجلّه الحكماء ، ويسعى في طلبه دهاء السّحرة . يستطيع أن يحوّل الأشياء ، ويمسخ الكائنات ، يخفى ما ظهر ، ويظهر ما بطن . وانتهت إلى أن العثور عليه أمر يفوق العثور على بوابة « واو » الضائعة . وبرغم أنها روت لهم قصصاً عن خلق تمّ لهم الفوز ونالوه في الزمان الذي كانت فيه الحجارة ما تزال رطبة ، والطير يتخاطب بمنطق الأنس ، وأهل الصحراء يتخذون حسان الجنّ أزواجاً لهم ، إلاّ أنها نفت بشدة

الاساطير التي تدعى بأن السحرة نالوه في زمان تقدر أن تبلغه الذاكرة . ولم يجسر أحد من الصبية أن يسأل العجوز الجنية عن سر اختفاء هذا الحجر النفيس ، لأنهم سافروا إلى الزمان القديم ، ولم يبق منهم في العراء المعمور بفيض البدر الفضي إلا أبداناً جوفاء .

ولكن لا السحرة الدهاء ، ولا العجائز الحكيمات استطاعت أن تبتدع حيلة تقضي على السم الذي يمتلك قلوب الصغار ويدفعهم لتخريب مدن انفقوا في بنائها أياماً ، وتحطيم دمى كانت لهم بالأمس حياة .

هذا السم الشقي ، هذه الحية الداهية ، هي التي سلطته على الحجر المكعب ليمحوه ويقطع أصله من ارض الحمادة . وما أدهشه ليس لعنة السم (التي يراها الحكماء شريعة من الشرائع التي تدبر الحياة في الصحراء) ، ولكن الرغبة الجنونية التي تملكته لتحطيم الحجر . وقد استعاد فيما بعد كيف صار الشغف باللقيمة عدواناً ، والاعجاب بالحجر كراهية ، والاندفاع الحموم للتملك رغبة في التخلص والخلاص . ولم يفكر على هذا النحو في ذلك الزمان البكر ، وكان عليه أن يتضرر طويلاً حتى يعرف أن الإنسان لا يكره إلا الكائنات التي أحبهما . وكلما كان عشقه لها في أول العهد أقوى كلما قابلها بكراهية أقوى عندما يحين الوقت .

ولم يكن في حاجة كي ينصت لتفسير كهنة الجوس عن حكمة

الدهر ودهاء الزمان ، لأن الحياة عَلِمَتْ بِنَفْسِهَا ، فِيمَا بَعْدُ ، أَنَّ الْخَلُوقَ
يُكَرِّهُ بِقَدْرِ مَا يُعْشِقُ لِيُسْ غَرَابَةً فِي الْأَطْوَارِ أَوْ تَقْلِبَةً فِي الْمَزَاجِ ،
وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ دَفَاعًا عَنِ النَّفْسِ . فَإِنْ اسْتَسْلَمَ وَظَلَّ عَلَى عَشْقِهِ تَمَلَّكَهُ
الْكَائِنُ الْمُعْشُوقُ وَهَلَكَ فِيهِ إِلَى الْأَبْدِ . أَمَّا إِذَا اعْتَوَرَهُ مَا يُسَمِّيهِ الدَّهْمَاءُ
جَنُونًا ، وَقَابِلَ الْكَائِنَ الْمُحِبُّ بِصُنُوفِ الْكَرَاهِيَّةِ وَأَلْوَانِ الْعُدُوانِ فَقَدْ فَازَ
لأنَّهُ نَجَا . الشَّرِيعَةُ الْخَفِيَّةُ تَقُولُ أَنَّ الْخَلُوقَ الْبَائِسَ مَا امْتَلَكَ شَيْئًا إِلَّا
امْتَلَكَهُ الشَّيْءُ الْمُمْلُوكُ ، وَلَنْ يَنْجُو مِنَ الْفَخْرِ إِلَّا إِذَا تَخَلَّقَ بِمَسْلِكٍ
الْمَاهِرِينَ الْخَالِدِينَ الَّذِينَ لَا يُسَمِّحُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِأَنْ يَعْشُقُوا شَيْئًا غَيْرَ
شَذِي التَّرْفَاسِ أَوْ زَهْرَةِ الرَّتَمِ ، أَوْ رَموزِ الْأَوَّلِينَ . هَذَا الْاحْسَاسُ الْمُبِهمُ ،
الْخَفِيُّ ، سُلْطَهُ عَلَى الْحَجَرِ . فَالَّى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَفْنِيهِ وَيَعْيِدَهُ إِلَى تَرَابِ .
فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ رَمَاهُ عَلَى لَوْحِ حَجْرِيِّ فِي صَلَابَةِ الصَّوَانِ ، فَأَرْتَدَ إِلَيْهِ
وَاصِابَهُ فِي صَدْرِهِ . تَرَنَّحَ . تَلَوَّى . هَرَشَ قَفْصُ الصَّدْرِ بِقَبْضَتِهِ . حَشَرَهُ
بَيْنَ حَجَرِيْنِ . وَنَزَلَ عَلَيْهِمَا بِحَجْرِ ثَالِثٍ . لَمْ يَدْرِ كَيْفَ افْلَتَ الْحَجَرُ
الْمَلْعُونُ مِنَ الْحَصَارِ وَأَصَابَهُ فِي عَظْمَةِ الرَّسْغِ . سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ يَتَلَوَّى
وَيَسْبُ الْحَجَارَةِ . هَجَعَ طَوِيلًا . ثُمَّ نَهَضَ وَبَحْثَ عَنْ حَجْرِهِ الْمَلْعُوبِ .
اطَّبَقَ عَلَيْهِ قَبْضَتِهِ فَأَحْسَنَ بَوْخَزَ أَرْكَانَهُ الْمَدِيَّةِ فِي رَاحَتِهِ . فَاضَّ نُورُهُ مِنَ
الْقَبْضَةِ وَغَمَرَ لِشَعَاعِ الشَّمْسِ . لَوْحٌ بِيَدِهِ فِي الْهَوَاءِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ قَبْلِ
أَنْ يَلْقَى بِهِ بَعِيدًا . رَآهُ يَوْمَضُ فِي الضَّوءِ قَبْلِ أَنْ يَسْقُطَ فِي مَدِيَّ مَكْسُوِ
بِالْحَصَى ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ هَا هُوَ يَوْدَعُهُ ، لآخرَ مَرَّةً ، بِابْتِسَامَةِ لَثِيمَةِ ،
سَاخِرَةً .

لم يمض على تخلّصه من الحجر الممسوس سوى أيام عندما قطعت السحب مسافة أخرى ، فحملوا امتعتهم وهاجروا وراءها . ولا يذكر كم مضى من الوقت قبل أن يستدعيه الأب ليمثال، بين يدي ذلك الساحر الجليل الذي أقبل طلباً للحجر الضائع . في ذلك الزمان البعيد كان النهار مثل الأسابيع ، وكانت الأسابيع تعادل الأشهر طولاً ، وكانت الأشهر في طول السنين إذا قيست بأجل هذا الزمان . فما سرّ تباطؤ الزمان الأوّل وسحره وامتلاكه وبهاته بالمقارنة مع زمن اليوم لو لم يصدق السحرة في نبوءاتهم القائلة أنّ الزمان ، مثل الخلق ، يتلف ويبيد ويهرم ويفسد كلما تقدّم به العمر ، كلما مضى إلى الأمام ، كلما ابتعد عن مملكة الازل في طريقه إلى ملوكوت الأبد ؟ .

(٧)

وقف أمام الساحر يرتجف فأمره الأب :

- أخبره عن الحجر

رفع بصره فوجد نفسه يقف أمام رجل ملثم بقناع اسود امتصت منه الشمس لون العتمة فبهت وشحب ومال إلى بياض . على صدره ترقد قلادة مهيبة من حبات الودع . على رأسه ، حول العمامة البائسة ، طوق مخيف من قطع عرف فيما بعد أنها تعاويند مستعارة من عظام الموتى . نحيل الصورة ، نحاشي البشرة ، في عينه وميض الجنّ وغموض

القدامي . دس في جيب الجلباب يداً نحاسية ، نحبلة ، موسومة بعروق ضارمة ، وأخرج صرّة من الكتان البائد . فكَّ رباطها دون أن يتوقف عن متابعته بالنظر الذي ييرق بوميض الجنّ . تناول حفنة من مسحوق التبغ واستلقى بظهره إلى الوراء وهو يلقي بها في فمه . حشرج الطوق الذي يتوج رأسه حشرجة كثيبة ، ورأى في فم الساحر اسناناً سوداء مخيفة تليق بالسّحرّة . تلذّذ بمضغ المسحوق . بصدق اللعاب الأسود ، اللزج ، جانباً ، فلمع في ضياء الصبح . ولا يعرف كيف وجده يمسك بمعصمه بتلك اليد الخشنة النحاسية ، الممزقة بالعروق والتجاعيد . تسلّل باليد ، ليقبض على يده ، كما تسلّل الحيّة عندما تأهب لاقتناص الفأر .

قال بلهجة كالوعيد :

- هل حقاً ما سمعت ؟

لم ينتظر جوابه . أضاف وهو يتسنم فجأة :

- لن تصدق يا صغيري أن الخبر ادركتني في «مساك صطفت» .

ضاقت عيناه الناريتان فجأة . حشرج في ضحكة مكتومة : «هيء - هيء - هيء ...». ثم توقف فجأة أيضاً فاستعاد وقار السّحرّة . عاد الغموض إلى عينيه ، ولكن النار أنطفأت . حلّ فيما هدوء كالحزن . ولكن قبضة الساحر لم تتناسب مع التعبير المسالم الذي نطق به مقتله . تكورة وتصلبة وشدّدت حول معصمه الخناق . أحسنَ

بالألم ، ولكنه لم يشتت ، ولم يحاول أن يتملّص من القيد . أخيراً تكلّم الساحر :

- أنت لا تعلم يا صغيري ، أنه يظهر مرّة واحدة كل عشرة أجيال . هل تعرف ما معنى أن يظهر مرّة كل عشرة أجيال ؟

لم يجب . لم يفهم . فتطوّع الأب :

- الشّيخ الجليل يريد أن يقول أنه لا يظهر في الصحراء إلا مرّة في مئات ومئات من السنين .

ابتسّم السّاحر . اضاف :

- اردت أن أقول ذلك كي تصدقني القول .

بصدق اللعاب الاسود ، اللزج ، الكريه . مال إلى الأمام . انحنى فوق رأسه . تلاحت انفاسه كفحىح الحياة . سأله :

- أين أضعت الحجر الحكيم ؟

- اترك يدي !

- اصدقني القول وستلقى كراء !

- لقد قذفت به في الفضاء .

- سأجزل لك الكراء إذا اخبرتني أين سقط !

- يدك تؤلمني .

- تفكّر . اهرش رأسك ولا تقل شيئاً حتى تذكّر . أكره
شيء للسحرة هو الشّرارة فتفكّر ، وتذكّر وعدّي بالكافأة .

- لا أريد مكافأة .

- ماذا تريـد إذن ؟

- ان ترك يدي .

ولكن الساحر قال بالحاج طفولي :

- لن ادعك حتى تخبرني .

دس يده في جيب مخباً في كمه وأخرج حفنة من التمر . بسطها في راحته اليسرى ، في حين استمر يقبض على يده باليمين . ضاقت عيناه حتى اختفى منها بريق أهل الخفاء . حتى داهمهما الجفنان المتغضنان . حسرج كالختنق :

- إذا اخبرتني نلت الكراء . هيا : صف لي الحجر ا

- كان ملوّناً ..

اغمض عينيه تماماً . شبع راحته اليمنى في الفضاء . غمم كأنه يتضيّد نبوءة في الظلمات :

- ملوّن . ملوّن .. صف لي الألوان .

- حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء و ..

- أَكْمَل .. أَكْمَل ..

- .. سُودَاء ا

- هل قلت سُودَاء ؟

هرس معصمه فافتلت منه آهه أليمة . تابع اليد المعلقة بالتمر في
الفضاء فنسي الألّم . تتم :

- نعم . سُودَاء كعنة الغروب .

انهار الشّيخ فجأة . القى بحبات التّمر في حجره فتساقطت على
الأرض المكسوّة بالحصى وحبّيات التّراب . ارخى قبضته وترك يده .
رفع كلتا يديه على وجهه . ناح بأذني طويلاً ، فاجع ، أليم :

- آ-آ-آ-آ-ه ...

خيّل له أن الجن تلقفوا وجع السّاحر فرددوه وتنقلوا به في
الصحراء طويلاً . بعدها انحنى على الأرض ليلتقط التّمر ، ولكنه رأى
السّاحر يتلوّى على الأكمة ويتدحرج إلى أسفل . انحسر اللثام عن فمه
فرأى زبداً فزّ من فمه . بدأ يرتجف ويتفوض . هرع إليه الأب . اخرج
من كمه مدبة نحاسية . . لمع نصلها تحت شعاعات الشمس عندما
حرّها من الغمد وشرع ينحر الجن فوق بدن السّاحر . تفقد معصمه
فوجده موسوماً بأخذود كأنه سوار من دم .

(٨)

تناقل الرعاعة في الحمادة أن الساحر تنقل في صحراء الشمال . نزل السهول وصعد الجبال . حرث الأرض وفتّش الحجارة ، تلوى على تراب الاوائل ، وتمسح بـ « إدبيان » حيث يرقد الاسلاف . تغنى بالغناء في مواويل الاشجان ، ولكنه لم يفلح في العثور على الحجر الحكيم .

ويذكر ، الآن ، كيف عاد ونزل على منتجعهم بعد سنوات أخرى ، لكي يستنبطه عن مسلك الحجر . ولا يعرف حتى اليوم أي جن شرير أشار له أن يسخر منه كما سخر من الحوار المiskin بالغناء . في البداية هاله ما صارت إليه هيئة الساحر من هزال وبؤس الحال ، ولكنه مالبث أن ركب رأسه . انتهى الضيف من تساؤلاتة الملحوقة حول الحجر الفقید فاستسلم لفورة خفية انطلقت من المجهول وملائط صدره بنار . نار الصدر فاضت وتغلغلت في البدن فبلغت رأسه وملأته بالوجود .

قفز كما يقفز المجنوبون إذا دخل في ابدانهم الجن ، ووجد نفسه يقف في وجه الساحر الجليل . مدد رقبته إلى الأمام فوجد رأسه يلامس عقد العظام الذي يطوق رأس الزائر . في عينيه وميض مستعار من مملكة الخفاء . حاول الساحر أن يتعد فتقهقر إلى الوراء ، ولكنه لاحقه برأسه وغمغم في وجهه :

- كان حجراً لثيماً ، يغمز هكذا .. هكذا .. أردت أن أكسره بالحجر فضربني على صدري . حجر لعيم تسكنه قبيلة من الجن ! ثم قفز خارج الخباء وشرع يحجل على رجل واحدة ، في حين استلقى الساحر على قفاه وناح بأين طويل ، فاجع :

- آ-آ-آ-آ-ه ..

مضى يتقاوز في الخلاء كجدي شقي . التفت فرأى نصل المدينة النحاسية الفظيعة يومض في فيض الضياء ، فأدرك أن الساحر قد وقع وتملكته التوبة مرّة أخرى .

(٩)

قبل أن يعود المهاجر في المرّة الثانية اشعلت في صدره الفورة الخفية ناراً آخرى فسأل أباه :

- ألم يقولوا أن الحجر الحكيم معتم ، أظلم ، موحش ؟ ألم يقولوا أنه ينكتفي على نوره كما يتكون القنفذ على نفسه ؟ ألم يقل السحرة أن الأشياء التي تفيض بالضياء وتكشف عن جوفها كاذبة ؟

كان يلهمت ويرتجف ويکايد حريراً مجھولاً . تابعة الأب بقلق . تفقد مردة الجن في ظلمة الليل . تتمم بالتمائم القديمة والقى في النار بحفنة من الشيح . تبسم بغموض إذ رأهم يختنقون بدخان الشيخ ويستجيرون من تعاويد الأوائل بالخلاء . هرش احساء النار بالمسعر

وأخرج من جوفها جمراً بهيجاً مثل سبائك الذهب . كومها جانباً
ووضع فوقها وعاء مليئاً بخلط من الاعشاب . أضاف الماء إلى الوعاء .
غرس المسعر في نتوء رملي بحدّ الأربة ، ثم قال :

- الأشياء المجهولة ، كالجِنْ لها غرابة في الطبع ، وتقلب في
المزاج ، وتذبذب في المُسلك . انظر إلى السَّرَاب اللَّعُوب كيف يلعب
ويلهو ويعيش بكائنات الصحراء ! ألم تره كيف يرفع البير التافه ،
الضئيل ، فيصنع منه بنائناً من حجارة ، أو تلائِيحاً يدب على قدمين ؟ ألا
ترى غرابة الطبع وتذبذب المزاج في مسلك المردة ؟ ألا يتكلّقون حيناً
بأخلاق أفضل الإنس وآخيارهم ، ثم يفسدون بلا سبب ، فيداهمون
أهل الصحراء برؤوس مقطوعة ، وهيات مقلوبة وكأنهم أشقياء
السحرة ؟

اعتدل في جلسته . عدّ وضع الوعاء فوق الجمر . أحكم رباط
اللثام حول رأسه . رفع طرف اللثام السفلي وستر به انهه . غغم بتعريذة
أخرى قبل أن يتكلّم :

- فهل تعلم من أين يأتي السَّرَاب ؟ أتدرى أين يسكن المردة ؟
انتظر ومضة . تصنّت للسكون في الفلاة ، ثم استعار منها
الجواب :

- هذا ما لم يقف عليه حتى الدّهّاهة . ولكن السحرة بلغوا أمر
الحجر الخفي فعرفوا أنه قادر على تبديل الأشياء ، ومسخ الكائنات ،

وإخفاء ما ظهر ، وكشف كل شيء بطن وتحفّي . وإذا كنت ترى عجباً في قولهم بفساد كل الأشياء التي تلمع وتومض فاعلم أن تذبذب المسلك ، وتقلب المزاج ، وغرابة الطبيع ، خصال في الحجر الحكيم ، وليس حيلاً طارئة يعني من ورائها الشفاعة . فهو يومض ويوميء ويتلاءم من حيث هو كنز . والكنز حسناء لابد أن تكشف عن وجهها ، وتتغنى إذا أرادت أن تباهي بحسنها . ولكن التللاع يصيب حكمتها ويصير ميتاً إذا أصاب منها الصميم المهم إذا لم تكشف عن وجهها وتتغنى لتومي إلية .

سكت الأب طويلاً . نفذ صبر الإبن فعجل بالسؤال :

- الصميم المهم ؟

- أجل . الكنز !

- الكنز ؟

- أجل . البكاراة !

- البكاراة ؟

- أجل . البكاراة هي الكنز الذي تخفيه العذراء إذ تباهت ، وليس ملاحة الهيئة وحسن القد .

سكت ومضة أخرى . اضاف :

- اردت أن أقول أن لا حرج على الحجر الحكيم إذا تباهى

بحُسنه الخفي فغمز وومض وتلاعُب بالضياء ، لأنَّه لا يفعل ذلك إلَّا كي
يسعد الأشرار ويضلِّل الباحثين عن الكنوز الظلماء !

- الكنوز الظلماء !

- وهل ظننت أنَّ كلَ الكنوز براقة غُمازة مثل التَّبر ؟ كنوز
الحكماء تتبلع وميضها في جوفها ، و تستعيد الضوء لتغذِّي سُرّها متى
شاءت . والحجر الحكيم ينتمي إلى هذه العائلة . فاللَّعب خصلة تتخذها
كلَ الكنوز حيلة . ولكنَ الحجارة الحكمة داهية ، لأنَّها وحدها تملك
المقدرة على التلاعُب فتفيض بنورها دون أن تدع الخلاء يسرقها ، فلا
تلبيت أن تتجهمْ وتكتشب وتنكمش . إنَّها تستعيير حيلة القنفذ التي
تحدث عنها إذا احسَّ خطر الباحثين عن الكنوز الجوفاء .

- الكنوز الجوفاء ؟

- أجل . ما التَّبر وسبائك الذهب سوى كنز أجوف ، ليس لأنَّه
شقى يتلامع تحت الضوء ، ولكن لأنَّه ضلٌّ منذ زمان الأوائل فأبى أن
يتخذ قناعاً ، وآثر أن يمضي في الصحراء حاسراً فكان أن امتلكه الجنّ
الذين اتخذهم «وانتهيط» جنوداً . فاعلم أن حكمة الأوائل تلعن كلَ
مكشوف لم يتقنع ، وترى من لم يتلشم كائناً ممسوساً ، مسلوباً ، والذهب
كنز ينتمي إلى هذه العائلة .

سحب وعاء الأعشاب خارج الأرة . انتقل سعير النار إلى أصابعه
نفض يده في الهواء كأنَّ عقرباً علقت بها ولسعتها . حشا أصابعه في
كوم الرمل ليطفيء في التراب سعيراً أخفق الهواء في إطفائه . اختتم

الجواب :

- هل عرفت قليلاً عن لوم الاشياء وحيل الكنوز ؟ هل فهمت قليلاً عن مسلك الكائنات المزيفة وطبع المعدن ؟ هل رأيت إلى أي حد تتشبه اشياء الصحراء بأهل الصحراء ؟ هل رأيت أن طبائع المعدن لا تختلف عن طبائع الخلف ؟

التفت إليه فجأة . أمسك بمنكبيه بكلتا يديه . لمع في عينيه ومض الجھول عندما هزه محظراً :

- ليس في الصحراء كلها شيء أقسى من التمييز بين الأصيل والمزور ؟ هل تعلم لماذا ؟

لم ينحه فرصة لجواب . مضى :

- لأن الوهم في الصحراء أكثر قدرة على التباس الحق . والحق في الصحراء أسرع للتخفي في مسوح الخيال . فإذا أردت أن تعرف الحق من الباطل احتجت لشجاعة السحرة الذين يخرجون للاشتباك مع الغيلان في الليالي . الباطل أقدر على التشبيه بالحق من ملازمته الحق للحق . فاحترس ، ثم احترس ، ثم احترس !

(١٠)

ولكن الساحر عاد ، بعد سنوات أخرى ، طيفاً بائساً . بشرته النحاسية صارت بلون القصدير ، وازدادت بنبيه نحوأً وضموراً ، ولم يبق في خلقته سوى بريق يومض في عينين غارقتين في حبس المجرين . في العينين أيضاً وقع تبدل . فالوميض تخاذل وسار إلى انطفاء ،

والغموض القديم نافسه الشقاء والتسليم . لم يذق طعمًا لشراب الاعشاب الذي وضعه بين يديه ، ولم يعر انتباهاً لأكابر القبيلة الذين تحلقوا حوله يسألونه عن الأسفار . حدق في الفراغ . انطفأ سلطان الكواكب فحدقت فيه العتمة . رفع صوته بالآلة القديمة ، الآلية ، الفاجعة . قبل أن يبني مجلس الأكابر :

– انتم لا تعلمون ما الذي جعل الحجر الحكيم يستعيض لون الظلمة . انتم لا تعلقون أن ولدكم الشقي هذا (واشار بسبابته النحيلة نحوه) عثر لكم على كنز فاق كل كنوز الصحراء ، ولكنكم تركتموه يقذف به في الخلاء فضاع . لقد رأيتم فيه خطراً ، لأنكم نسبتموه إلى عائلة التبر ، ونسيتم أن ليس كل ما يلمع بذهب مشئوم ا قدّم له أحد العبيد وعاء مليئاً بـ « الكوه » . ولكنه رفض الوعاء بهزة من رأسه . مضى :

– سوف تنوحون كثيراً عندما تعلمون أنكم فقدتم السر الوحديد الذي يقود إلى « واو » .

كان يختفيء في زاوية الخباء عندما رأهم يتناطحون بالعمامات الجليلة . تهamsوا ، دسوا الشفاه في الآذان المحتجبة ، فرّت العيون بالبريق ، تلاقت الانظار ، وجلجلوا بالسؤال :

– واو !

أعادوا السؤال مرات . ثلاث مرات ، وانتظروا . ولكن المهاجر

• الكوه : عصير التمر المخلوط بحليب الإبل .

كان قد هاجر مرة أخرى . زحف البياض وابتلع سواد المقلتين . حدق
في الظلمة الفاجعة وناح :
ـ آـ آـ آـ ـ

حاولوا أن يستدرجوه ليخبر عن طبيعة الحجر إذا ضاع . فلم
يسمعوا منه غير عبارة واحدة بقيت غامضة :

ـ اعلموا يا أكابر القوم ، ويَا حكماء السَّحْرَة ، أَنَّ الْحَجَرَ الْحَكِيمَ
مِثْلَ الْأَزْلِ ، مِثْلَ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ ، مِثْلَ الْحَيَاةِ ، إِذَا أَضْعَتْهُ مَرَّةً امْتَلَكَهُ الْفَنَاءُ
إِلَى الأَبْدِ .

هُجُّعٌ عَلَى قِفَاه . يَذَكُّرُ الْمُجْمَعُ جِيداً كَيْفَ هُجُّعُ السَّاحِرِ الْمَهَاجِرِ
فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ ، كَمَا يَذَكُّرُونَ أَيْضاً كَيْفَ امْتَلَكَهُ الْفَنَاءُ فِي
الصَّبَاحِ لِيَصْبُحَ جَزْءاً مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى . فُجِّعُوا وَأَكْتَابُوا لَا لَأْنَهُمْ
فَقَدُوا ضِيقاً مَدْهَشًا سَخَّرَ حَيَاتَهُ لِتَطْلُبَ حَجَرَ تَافَهَ ، وَلَكِنَّهُمْ فَجَعُوا لَا لَأْنَهُمْ
لَمْ يَعْرِفُوا مِنَ الْمَهَاجِرِ السَّرِّ الَّذِي يَجْعَلُ الْحَجَرَ دَلِيلًا يَقُودُ إِلَى وَأَوْ
الْمَفْقُودَةِ .

تَشَارُورُوا ، تَنَاطَحُوا بِالْعُمَامَاتِ ، تَبَادَلُوا حَكْمَ الْأَوَّلِيَّاتِ الْمُسْتَعَرَةِ
مِنْ «آنَهِي» الضَّائِعِ ، ثُمَّ وَثَبُوا كَالسَّبَاعِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْ زَاوِيَّةِ الْخَبَاءِ .
جَرَّدُوهُ مِنَ الْلِبَاسِ ، وَأَوْثَقُوهُ بِحَبْلٍ بَشِيعٍ مَفْتُولٍ مِنَ الْمَسْدِ . عَلَقُوهُ فِي
رَكِيزةِ الْخَبَاءِ مِنْ رَجْلِيهِ . وَرَأْسَهُ يَتَدَلَّلُ إِلَى أَسْفَلِ . ضَرَبُوهُ عَلَى مَؤْخَرِتِهِ
بِمَسْعِ النَّارِ ، وَقَالُوا لَهُمْ لَنْ يَتَرَكُوهُ إِلَّا إِذَا أَخْبَرُوهُمْ أَيْنَ خَبَّأَ الْحَجَرَ .

Twitter: @alqareah

٩ - الظلمة

« في البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخلالية ، وعلى وجه الغمّ ظلمة » .

سفر التكوير

(٢، ١ : ١)

« عند ذكر القدمة : قد قيل في الكتب العتيقة أن أول شيء وأقدمه الظلمة التي ليست السّواد وإنما هي عدم كحال النائم » .

أبو الريحان البيروني

« في تحقيق ما للهند »

« إذا قويت الهيولى عليها ، لم تقو على وجдан الذي فينا ، إلا بطلب وفحص وسبع وغوص ، فإذا استولينا على الهيولى ، وجدنا الشيء بأهون السعي ، لأننا نحن هو ، إذ كنا نحن العقل الأول ، وكانت الأشياء فيه ، فهي هو فكيف يمكن أن نذكر الأشياء ، والأشياء فينا ، والتذكرة إنما يكون في أثناء الوقت ، لأننا ننسى في وقت ونذكر في وقت آخر ، وهناك الدهر لا الوقت »

أبو حيان التوحيدي

« المقابسات »

« قادني وسيّرني في الظلام ، ولا نور »

مراثي إرميا

(٢ : ٣)

(١)

ازاح الساحر حجارة كثيرة ، ولكن الأرض زلزلت مرة أخرى ما أن لامس اللوح الحجري المستطيل . تصدع الجبل ، وتقاطرت الحجارة ، وتدحرجت عبر السفوح . استجابت السماء بالقعقعة والشّرّ . جرجر الساحر اللوح جانباً ، ففُغرَت الأرض فاها ، وكشفت عن ظلمة مبهمة . تناول الساحر حجراً واسقطه في فم الأرض ، القمه فوهة الصحراء ، فاختفى . هوى ، وهوى ، دون أن يبلغ للقم الأظلم قاعاً . سرت في بدنِه رجفة ، ولكن الزائر الجليل أومأله أن يمضي . لم يمض . رأى ترددَه فتقدّم نحو الفم الموحش خطوات . وقف فوق الفوهة . فوق الظلمة الجليلة . انحني . انحني حتى ظنَّ أن الزائر انتوى أن يقفز في الهاوية برأسه . ولكنه اعتدل في وقته مرّة أخرى . جلس فوق الحافة . تتم بال تمامِ القديمة . مدّ ساقيه فتدلّتا في الهاوية . أمسك ببنوء صخري على الحافة وبدأ يتزلّ . نزل في البشر اشباراً . غاب في الأرض . ابتلعت الهاوية قامته حتى الصدر ، حتى المنكبين . طرف العمامة لامس الحافة ، كاد يختفي كلّه عندما سمع النداء التبّيل . نداء الأرض عندما تدعى ابن الأرض الضال لأنّه يعود . نداء اشد هولاً من انتهاراتها ومن زجرها ليلاً . نداء تلفّظت به الصحراء ولم يتلفّظ به الساحر : « تعال ! ». تردد مرّة أخرى ، فسمع النداء يتكرّر ثلاث مرات . في المرّة الأخيرة سمع الصحراء تضييف إلى : « تعال » كلمة « لا

تخفِّف» بصوت عرف فيه صوتاً انتظره طويلاً ، صوتاً كاد الزمان أن يمتهن
ويجعله طعاماً للنسيان . صوتاً امترجت فيه الأصوات ، فصار خليطاً من
هدير السيول المندفعة من الأعلى ، وشقشقة « مولا - مولا » عندما
تنغمس بالبشرة ، وهممات الجن في خلوات الشتاء ، وأغانى الصبايا في
ليل ينصب فيها البدر نفسه سلطاناً على الصحراء . المزيج الشجّي ،
الصوت السري ، اللحن الذي يشعل الأشجان ، ويقدح زند الشوق هو
ما أعطاه القوة للعبور ، وبلغ الضفة الأخرى ، ليعرف ، في النداء
الغامض ، صوتاً كان مقدراً ألا يكون سوى صوت مخلوق حزين فقده
يوماً ، وتخفي في جلد « تيرزازات » الساحرة يوماً آخر كي ينزل إليه في
« أغرم نودادن ». صوت : أمّه !

(٢)

النسيان ..

ناموس ستته « واو » ليصير لها شرطاً .

النسيان ..

لغة مجهولة خذلت من أتقنها ، ونسىها من ابتدعها . ونالت من
كل من ظنَّ أنه وقف لها على سرّ .

النسيان ..

زاد المهاجرين ، وقرىء من اعتنق السفر .

فتمهل ، يقول النسيان للمهاجر الأبدى . تمهل ، لأن الازل مملكتي ، والأبد فردوسى ، والطلب لن ينفع طالما امتلكت عليك كلا السبيلين .

ففي مملكتي يصير الازل زوالاً ، الأبد فناء ، والوقت خيالاً . وما على الشقى الأبدى إلا التسليم إذا دخل مملكة فيها الزمان مملوكى ، والعماء شريعتى ، والظلمة محرا بي ، وعبورها دياناتى . فمن أقبل على كافأته بحياة الميلاد ، ومن أدبر عنى فقدته وناله مني الخيال .

(٣)

قاده في مجاهل لها مهابة . ومجاهل لم ير لها مثيلاً في آذجر . مجاهل ليست من تارات ، ولا من آلون ، ولا من تانوت ملت . مجاهل كثيبة معتمة ، ولكنها جليلة ، ونبيلة . مجاهل اودية عميقة ، تقف على شطآنها من الجانبين قمم لم ير لها مثيلاً إلا في « تادرارت ». وقد بلغ من تفاصم القمم ، وعلو شأنها ، أنها غابت في سماوات مستورة بسحاب كثيف . ومسيرة الوديان كانت غريبة أيضاً ، فتتلوي يميناً مرة ، ويساراً مرة ، وتستدير إلى الوراء مرات كثيرة ، حتى يجزم سالك الدرج أن الصراط انسد ، وعاد على عقيبه . في قيعان الأودية نبت أعشاب عجيبة . وما ادهشه في النبات ليس التكوين ، ولا المسلك ، ولكن

اللون . فأحراس العلّيق التي استجارت بالأأسافل ، استعارت لون الرملة ، والأشجار الأخرى التي رأت أن تكابر ، اختارت لوناً معتماً كأنه الرماد أو معدن الحديد .

في مجاهل النفق سأّل بورو :

– من دخل المغارة ، أو أنزل بدنـه في «إدبني» طمعاً في الكنز ،
لـاقـى في الطريق رـيحـاً ...

جاوبـه الدليل بلـغـةـ الأـوـائلـ :

– لاـشـيءـ يـقـعـ قـبـلـ حلـولـ السـاعـةـ !

قطـعاـ مـسـافـةـ أـخـرـىـ ،ـ ثـمـ سـأـلـ بـورـوـ :

– من دخل المغارة ، أو انـزلـ بـدـنـهـ فيـ «ـإـدـبـنـيـ»ـ طـمـعاـ فيـ الـكـنـزـ ،ـ
لـاقـىـ فيـ طـرـيقـهـ نـارـاـ ..

جاوبـهـ الدـلـيـلـ بلـغـةـ الأـوـائلـ :

– لاـشـيءـ يـقـعـ قـبـلـ حلـولـ السـاعـةـ !

قطـعاـ مـسـافـةـ أـخـرـىـ ،ـ ثـمـ سـأـلـ بـورـوـ :

– من دخل المغارة ، أو انـزلـ بـدـنـهـ فيـ «ـإـدـبـنـيـ»ـ طـمـعاـ فيـ الـكـنـزـ ،ـ
لـاقـىـ فيـ طـرـيقـهـ جـنـاـ .

جاوبـهـ الدـلـيـلـ بلـغـةـ الأـوـائلـ :

– لاـشـيءـ يـقـعـ قـبـلـ حلـولـ السـاعـةـ !

قطعاً مسافةً أخرى ، ثم سأّل بورو :

– من دخل المغارة ، أو أنزل بدنـه في « إدـيني » طـعـماً في الـكـنـز ،
لـاقـى فـي طـرـيقـه حـيـة ...

جاـوبـه الدـلـيل بلـغـة الأـوـاـئـل :

– لاـشـيء يـقـع قـبـل حلـول السـاعـة !

قطـعاً مـسـافـة أـخـرى . اـجـتـازـا جـلاـمـيدـ منـ الحـجـارـة السـودـاء ، عـبرـا
كـهـوـفـاً وـمـغـاـورـ ، تـمـسـحـت السـحـبـ الجـهـمـة بالـسـفـوحـ ، وـوـطـثـتـ الـأـرـضـ ،
فـعـمـتـ الـعـتمـةـ ، وـازـدـادـ السـيـلـ إـظـلـامـاً . سـأـلـ بـوروـ :

– لـمـ اـخـترـتـني ؟

جاـوبـه الدـلـيل بلـغـة الأـوـاـئـل :

– وـهـلـ يـوـجـدـ فـي الصـحـراءـ مـخـلـوقـ سـواـكـ ؟

سـأـلـ بـوروـ :

– أـلـمـ تـرـأـنـ قـرـينـي جـبارـينـ دـوـمـاً إـلـى جـوارـيـ ؟

فـجـاـوبـه الدـلـيل بلـغـة الأـوـاـئـل :

– مـلـكـةـ الـظـلـمـاتـ لـاـ تـقـبـلـ سـوـىـ الـمـلـوـقـ الـذـيـ لـمـ يـجـتـزـ الطـفـولـةـ

يـوـمـاً فـهـلـ ظـنـنـتـ أـنـ « آـغـرـمـ نـوـدـادـنـ » يـفـتـحـ بـابـهـ لـكـ لـوـ لـمـ تـبـقـ طـفـلـاًـ ؟

سـأـلـ بـوروـ :

- هل يرى مولاي الجليل في الطفولة حقاً؟

جاوبه الدليل بوقار الاوائل :

- جئت بك كي تخرج من القمقم ، وتذوق طعم النعيم .

- حقاً؟

- عليك أن تنحر المعزى السوداء إن شئت أن تخرج ...

- المعزى السوداء؟

- نحر المعزى السوداء شرط الخروج ..

تباعد شقاً الوادي . تلاشت الجبال . افضت تعرّجات الوادي إلى خلاء موحش ، مكشوف ، عار من احراش التّراب وشجر الرّماد . اختفت الحجارة الحديدية ، وابتلع سكون الخلاء سكون أكبر سلطاناً وأعظم شراسة . استعارت البيداء خصال الجبال فرددت الصدى وهي تنفح في الحروف :

- نحر المعزى السوداء شرط الخروج !

(٤)

تمدد خلاء الرماد . الأرض اكتستها أستار صارمة مثل ذرات تخلّفت عن معدن الحديد . وصارت البيداء السوداء تقسو وتتوالد كلما تقدّما إلى الأمام .

سارا مسافة أخرى . سارا وسارا حتى اسودت في وجهيهما المفازة وزادت احتقاناً وعبوساً . سحب الأعلى أيضاً غاظت وتمادت في التلون بالسوداد . وبرغم الظلمات إلا أن السيف التي اعترضتها تبدّت ، واضحة في المدى البعيد ، كما ارتسمت امامها في الافق عروق رملية ، ولكن بلون اسود كالرماد أو نثار من مسحوق الحديد . وظللت تعلو وتشتد وتكتابر كلما تقدما إلى الأمام . على وجهها لاحت تموّجات شهية للعيون ، عرف فيها بورو تخضنات ألفها في وجه الرملة ، ولكن أين ومتى ؟ .

قطعاً مسافة قصيرة عندما تململت المتأهة وبدأت تذرّ تراباً من رماد . لم يطق بورو صبراً فهتف :

– هل جاء أو ان الريح ؟

فجاوبه الدليل الجليل بغموض العرّافين :

– إذا آن أو ان السّاعة لم تتأخر الواقعه .

أ- الريح

تمدد العراء . تلاشت الجبال على الجانبين . تمادت الرمال السوداء في الارتفاع ونافتت الجبال طولاً وعرضًا . تمادي الريح أيضاً ، ومضي يصبح ويعوي . في البدء اكتفى بأئن مدهش ، غامض ، ثم صار يصنع بذرات الرّماد ، وينهال بالتراب الاسود . الهواء أيضاً كان في اعتدال ،

فلم يستشعرا حرّاً ولا صقيعاً . ثم حدث التحول . اشتدَّ الحرُّ كلما تصاعدَ الرياح وزفرت صحراء الظلمات بأنفاس القبلي . خاطبه الدليل فجأةً :

- حسبيت أن لك أمنية ؟

هرش بورو رأسه المعمم . تفكّر برهة . قال :

- علَّ النسيان أخذها ..

- ركبت في سبيلها الاختصار ، وتنكرت في جلد الساحرة
تيرزازت طلبًا لها .

- علَّ النسيان أخذها ..

- ألا تذكر شيئاً أبداً ؟

- لا يحضرني شيء .

- فلالي أين المسير أيها الشقّي ؟

- علَّه إلى ..

- ألم يسلب منك النسيان واو ؟

- واو هي الملاذ الذي لا يقدر حتى النسيان أن يسلبه من القلب .

- ياللبلباء !

- ماذا ؟

- اردت أن الفت منك الانتباه إلى إننا في طريقنا لطلب الكنز .

هل نسيت ؟

- نسيت كل شيء ، ولكن لن يسلبني النسيان غاية رحلتنا !

- هل توافقني في إننا ماضون إلى الكنز ؟

- إلى واو !

- ها قد عدت إلى واو . ألم تتفق أن ...

- اتفقنا أيضاً بأن الكنز لن يكون في مكان إذا لم يكن في « واو ».

- دعنا من واو وحدثني عن الأمنية .

- كل الأماني وهبتها للنسيان .

أخفى الدليل صاحكته في كُم جلبابه . تسأعل بخبث الدهاء :

- وماذا ستفعل في واو ؟

أجاب بورو بحماس :

- يكفيني أن التحق بالأوائل .

تضاحك الدليل مرة أخرى ، انزل طرف ثامن العلو ليحمي عينيه من شراسة حبات سوداء تتناقلها الريح . سأله :

- وهل تظن أن الأوائل هناك سعادة ؟

فاجابه بورو بالحماس الطفولي :

- لا ادرى عن حالهم شيئاً ، ولكنني اعرف أنني سأكون سعيداً بينهم .

- من أين لك بهذا اليقين ؟

- ألم تقل منذ قليل أنني طفل ؟ اليقين هو ما يملكه الأطفال .

غمغم الدليل :

- يجدر بي ألا أحاور ، ولكن يحسن بك أن تستذكر أملاً ركبت في سبيله الاختصار .

صفعته الريح . ترَّنح . نفخت في ثوبه الفضفاض . صار بشقشقة العدبس القرير اتبه . تراجع إلى الوراء . اصطدم بورو . تراجع بورو . وقع على قفاه . ولكن العجاجة اهتاجت وازدادت وحشية . هبَّت بمواجة محمّلة بذرات كبيرة ، قاسية ، سوداء ، من الحصى . استتجد الدليل بعصابة الخيزران . شهراً في وجه الريح . انشقت بها الموجة الجنونية . سقط جيش الجن من المركبة . انكفاء المطية وتبعثر الجند . ارتدى دمدمة فلولها وهي تعبر العراء إلى المجهول . تبدّد السواد الفاجع . تبدّلت المفازة الابدية . اعتدل الدليل في وقته . قرأ تعوييدة غامضة بلغة خفية . نهض بورو ووقف على قدميه . بصق حبات التراب الأسود صوب عشبة رمادية كثيبة . زفر بإجهاد . تتم :

– ما أقسى السبيل !

الدليل لم يحب . علق العصا على منكبه الأيمن . قال :

– لو لم يخسف منك النسيان نعمَ الذاكرة لما استضعفتنا الرِّيح ..
ردَّ بورو ساهماً :

– النسيان ..

– أتدرى من الذي نزع من أهل الصحراء « آنهي » وتركهم
للضياع ؟

لم يتظر جواب بورو :

– النسيان ..

– النسيان ؟

– ظنوا أنه السيل ، وذهب بلهاء آخرون إلى أنَّ الجن هم من
اختطفه فاحتكروا الحكمة ، ولكن العقلاء يعرفون أنَّ السرَّ في النسيان .

تمتم بورو :

– ما أشقي أمة الصحراء !

– عليك أن تستعيد الأمل الفقيد حتى لو اضطررت أن تكسر
رأسك على صخرة .
– الأمل !

همهم باللّفظ كما يهمهم بالتمائم القديمه . ثم غمغم بسؤال :

- ولكن كيف السبيل إلى استعادة الأمل ؟

- من طلب السبيل ولو بالسؤال فاز بناصية الأمل ولو بعد حين

من الدّهر .

تباعدت السحب . ارتفعت إلى أعلى . ولكن العتمة لم تنجل .

ألحق السؤال الأول بسؤال آخر :

- حدثني ، أيها الجليل ، عن الظلمة !

عوى الريح في المغارة . صفعهما بوابل من الحصى . تأهّب الدليل للاشتكاك مع الجن . أمسك بعقة العصا ولوح في الهواء بالساقي الموشومة بالاطواف . اجتنبته مطاييا الجن و كف هبوب الريح . ولكن العواء تواصل في البيداء السوداء .

تحدّث الدليل عن الظلمات :

- الظلمة : بيت الكائن المجهول ، ووطن أهل الخفاء . الظلمة :

نب الأصل ونواة التكوين . الظلمة : منها المبدأ وإليها المصير . الصحراء ظلّ والظلمة وحدها هي الأصل .

- والأمل ؟ هل الأمل أيضاً قدر مثل الظلمة ؟

- هل ستفعل ما به ستؤمر إذا أخبرتك ؟

- وهل يعصي لدليل أمر ؟

- الأمل بباب مغلق لا يفتحه إلا الدم !

- لا أفهم ..

- إنحر المعزى السوداء !

تراجع بورو ، ولكن الدليل ادركه ووضع في يده مدينة نحاسية
موسومة برموز السّحرّة القدماء . لها نصل معتم ذو لسانين شرهين .

ارتجف بورو . همهم :

- ما أنا بذابع ..

هـبـ فـيـهـ الدـلـيلـ :

- إـذـاـلمـ تـذـبـحـ هـلـكـنـاـ .

أعاد بورو وهو ما يزال يتراجعاً إلى الوراء :

- ما أنا بذابع ..

- إـذـاـلمـ تـسـتـجـبـ اـهـلـكـتـناـ الـظـلـمـةـ ،ـ فـاـفـهـمـ ،ـ وـتـذـكـرـ أـنـكـ مـنـ قـالـ :

(وـهـلـ يـعـصـيـ لـدـلـيلـ أـمـرـ ؟) .

- لـمـ لـاـ يـتـولـيـ مـوـلـايـ الـأـمـرـ بـنـفـسـهـ وـيـنـحرـ الـمـعـزـىـ ؟

- النـيـانـ اـهـلـكـ حـقـاـ دـعـوـتـكـ لـلـخـرـوجـ مـنـ القـمـقـ ،ـ فـسـيـتـ .

قلـتـ لـكـ فـيـ بـدـاـيـةـ الطـرـيقـ أـنـ نـحـرـ الـمـعـزـىـ السـوـدـاءـ شـرـطـ الـحـيـاةـ ،ـ فـسـيـتـ .

اخـبـرـتـكـ أـنـ الـظـلـمـةـ لـاـ تـقـبـلـ الـقـرـبـانـ إـلـاـ مـنـ يـدـ الطـفـولـةـ ،ـ فـسـيـتـ .ـ فـاعـلـمـ

أـنـكـ لـنـ تـخـرـجـ ،ـ وـلـنـ تـطـلـبـ ،ـ وـلـنـ تـوـلـدـ أـبـدـاـ مـاـ لـمـ تـفـعـلـ مـاـ بـهـ تـؤـمـرـ !

هروي شماليأً ، قطع مسافة في العراء المستور بالعتمة ، وعاد على عقبيه .. هرع يميناً . اختفى وراء أكمة اعتلتها شجرة رمادية هرمة . غاب . في الصحراء المغمورة بالظلمة ، ساد السكون . مات الريح وانقطعت غزوات الجن . السكون تملّك الكون . السكون تصنّت وتبخس على السكون . عاد الدليل يجرّ جر بدنًا أسود اللون ، اشتعل الشعر ، حاول بورو أن يستعيد أين ومتى رأه . فكر ، فتش في ثنايا السيرة التي طواها النسيان ، ولكن الوهم ، الخيال القديم الذي يراه أهل الصحراء حياة ، ما لبث أن اشعل فيه الشرر . شرر الوحي ، وميض الإلهام ، فانتفض ، واشتعل بالحمى .

لقد شاء يوماً أن يفرّ من نفسه لأنه أراد أن يتنهك الحرم ويرى أمّه في مملكة الودآن . كان يعرف أنه لن يفلح ما لم يتنهك حرماً آخر ، فصباح بالنداء قبل شروق الشمس . نادي الساحرة تيرزازت في الفجر فأفزع إمرأة أبيه وأصحاب القبيلة بالهول . ولو لم يستدعا الساحرة فجراً لما وجد نفسه يتنكّر في جلدتها ويدخل الحرم الجليل من أبواب أحد الكهوف . هناك ، في « أغرم نودادن » ، تسکع طويلاً قبل أن .. ولكن هل يعقل أن يكون ذلك الكائن الجليل الذي التقاه في المملكة هو نفس الخلوق الرمادي المتوج بقرنين معقوفين مثل مقبض عكا ز الدليل ؟ هل يستطيع الدليل أن يجرّ أمغار العظيم من قرنيه المقدسين ؟ هل يعقل .. اوه، ياسماوات الصحراء ! في عينيه وميض الفموض . في مقلتيه

اللماعتين ييرق السر . لا يعرف لماذا ادرك دائمًا السر في مقلة العين. لا يعرف من أين له هذه الخصلة ، ولكن يقيناً أنه لم يخطيء . البريق هو الإشارة . وميض العين هو البرهان الذي خرق مساحات الزمان قبل أن يقطع مسافات المكان . الوميض وحده مزق النسيان وحرق ظلمة الوادي . فكيف يريده الدليل (الذي وضع في يده مدبة نحاسية فظيعة) أن يمدّ يده بالمدبة لينحر الأضحية ؟

سمع الدليل يقول :

— إذا لم تنحر فلن تعبّر !

تراجع إلى الوراء . ارتطم بشجرة رمادية ذات أوراق غريبة ، مستطيلة، كثيبة . سقط . نهض . بدأ يرتجف . ازدادت الظلمة كثافة ، ولكنها لم تفلح في إخفاء الوميض السري في عين أمغار . صاح الدليل بالأمر القاطع :

— إنحر !

تراجع مرة أخرى محاذراً أن يرتطم بشجرة أو بصخرة ، يمسك يمينه المدية الفظيعة ، ويختفي يده اليسرى خلف ظهره ليتحسس بها السبيل الملغوف بالظلمات . وعندما أعاد الدليل للمرة الثالثة : « إذا لم تنحر فلن تعبّر » كان قد القى بالمدية عند قدميه ، ورأها وهي تغوص في التراب الأسود .

لا يعرف كيف اختفى من آلى على نفسه أن يتخفى في جلد الودآن ، كما لم يعرف كيف افلت الشبح من غياب النساء . غاب بنفس الفجاءة التي ظهر بها . في نفس الوقت تبدى الشبح الذي التزم سيف الوادي ورافقهم طويلاً . شبح لم يظن أنه قادر أن يغفر لنفسه لو نسيه يوماً ، ولكن سلطان العتمة كان أدهى إذ جعله قاصراً عن إدراك نسيانه للمخلوق الجليل . كانت تجلس في قلب هودج مهيب . الهودج يعتلي هامة جمل درواس من النوع القربيع . لم يلحظ في خطمه خزانة أو جاماً ، ولكنه رأى كيف يز مجر ويرعد ويخرج من فيه شقشقة في حجم الشكوة . تندلى الشقشقة أولاً ، تناثر قطع الزبد الناصع على الأرض السوداء ، ليعقب تلك الإشارة بهدير كالزلزال . المخلوقة الوديعة ، الشبح الذي يتربع في الهودج وحده لم يكن يبالي . يتبع الأفق الخفّي ، يديري بين يديه شكوة منفوشة بالحليب . يتمايل معها نحو اليمين ونحو اليسار في إيقاع صارم ، بطيء ، وقاس ، ولكنه يوحى بالقداسة والخلود .

من المدهش ألا يتساءل طوال الرحلة كيف كانت تبدي الألوان والظلال والكائنات بذلك الوضوح العجيب رغم صرامة العتمة وتسلط الظلمات . فكل الأشياء ترى كما رآها دائماً ، كأنها وجدت لتحدّي الظلمة ، وتمتنع بصورتها التي وهبت لها يوماً . حتى الصحراء الفاجعة كانت تستطع بفيض فضي يحاكي ضياء البدر برغم انه لم ير لكواكب

الليل وجههاً منذ بدأ السّفَر . والآن ، عندما شاهد الهدوج المهيب لأول مِرَّة ، ورأى شقشقة الحمل القربي تنبع بلون الشمس وهي تنهيَ اللَّفَرُوب ، تأمل وجه الخلق لأن النسيان كان قد أُنْزَل السرّ وسُرَّه بحيلة من حيل الزمان . فأين ومتى عرف هذه الملامع النحاسية الغامضة؟ أين ومتى شاهد هذا الأنف الصغير الذي يرتفع إلى أعلى بشقاوة الجداء ، ثم يعود فينتكس ، عند الأرنبة ، ويتقاعس عن تطاوله إلى الأعلى ، كأنه آثر أن يتراجع عن شقاوته ويتخلّى عن تكبّره في آخر لحظة؟ أين ومتى ألف هذه الجلسة المكابرية التي تبدأ قبل أن يشق الفجر بالبتول سبيلاً ليفصل جسد الصحراء عن جسد السماء ، ولا تنتهي إلا بعد الشروق بوقت طويٍّ؟ تمايل خلالها مع الشكوة المقدّسة نحو اليمين ونحو اليسار ، تعلق ، ببصرها ، بقوس الأفق وهو يتمخض عن بشاره القبس ، لا تنبس بكلام ولا تتمتم بتمائم ، لا تجib عن سؤال ولا تلقى بسؤال ، تغيب في الصحراء وتغيب فيها الصحراء ، وكأن ما تؤديه هو الحكمة ، هو الصلة ، وليس عملاً لصنع الزبد تستطيع حتى بنات الرعاة أن تتقنه ؟ السّحرة الأوائل يولون تكون الزبد في بطん الشكوة اهتماماً لا يقل عن اهتمامهم بتكون الجنين في جوف الأم، أو تشكّل التّبر في باطن الأرض ، أو نمو الحجر الحكيم في احشاء التّراب . ويذهب بعضهم إلى القول أنَّ ابتداع الزبد في الشكوة لا يقل إبداعاً عن إعجاز الخلق . ولا يرهان على هذا اليقين يمكن أن يعادل ذلك البرهان

الذى تضعه تلك الخلوقـة الحكيمـة ، الصـبورـة بين ايـديـهم . فـمن يـراـها
تـنـهمـك في شـعـائـر الصـبـاح لـابـد أن يـقـتنـع بـأن تـكـون الزـيـدة في بـطـن
الـشـكـوة لا يـقـل عنـاء وـابـداـعاً وـقدـاسـة عنـ تـكـوـينـ الـخـلـوقـاتـ فيـ اـجـوـافـ
الـأـمـهـاتـ .

لم يتـسـأـلـ ماـ الذـى يـجـبـرـهاـ أـنـ تـمـخـضـ الـحـلـيبـ وهـىـ تـجـلـسـ فـىـ
جـوـفـ هـوـدـجـ يـقـعـ فـوـقـ هـامـةـ الـجـمـلـ الـقـرـيـعـ ، كـماـ لمـ يـتـسـأـلـ قـبـلـهاـ عـنـ سـرـ
وـادـيـ الـظـلـمـاتـ ، وـلـونـ الـأـعـشـابـ الـبـرـيةـ ، وـمـسـلـكـ الـرـيـعـ ، وـقـدـرـةـ عـصـاـ
الـدـلـلـىـ الـتـىـ تـصـبـ الـجـنـ فـىـ الـخـفـاءـ ، وـتـطـبـعـ بـعـثـاـيـاـهـ وـهـىـ تـرـكـبـ الـرـيـعـ .
كـماـ لمـ يـتـسـأـلـ عـنـ هـوـيـةـ الـدـلـلـىـ نـفـسـهـ . لمـ يـتـسـأـلـ ، وـلـمـ يـنـدـهـشـ ،
وـلـمـ يـكـرـثـ ، لـأـنـ الـمـسـافـرـ إـذـا عـبـرـ وـادـيـ الـظـلـمـاتـ لـابـدـ أـنـ يـعـرـفـ
بنـامـوسـ آـخـرـ ، نـامـوسـ النـسـيـانـ عـنـوانـهـ ، وـالـلـامـبـلاـةـ شـارـتـهـ .

هـبـ الـرـيـعـ مـنـ جـدـيدـ .

وـقـتـهاـ شـاهـدـ فـيـ هـيـثـةـ الـدـلـلـىـ الـكـاتـبـةـ . لمـ تـكـنـ كـاتـبـةـ ، وـلـكـنـ ماـ
أـصـابـهـ جـعـلـهـ يـضـعـفـ فـيـ الـبـنـيـةـ ، وـيـتـضـاعـلـ فـيـ الـقـامـةـ ، وـيـنـحـنـيـ فـيـ الـعـودـ ،
وـيـهـرـمـ فـيـ الـعـمـرـ . حـدـثـ هـذـاـ إـلـنـقـلـابـ فـيـ وـمـضـةـ ، فـيـ مـسـافـةـ الـزـمـانـ
الـصـغـيرـ الـمـتـدـىـ بـيـنـ سـقـوـطـ الـمـدـيـةـ التـحـاسـيـةـ الـفـطـيـعـةـ وـاـخـتـفـاءـ آـمـغـارـ ، وـظـهـورـ
الـهـوـدـجـ الـذـىـ تـرـبـعـتـ فـيـ الـخـلـوقـةـ الـخـالـدـةـ . فـماـ الذـىـ أـصـابـ الرـفـيقـ ؟
تـنـفـسـ الـجـنـوبـ بـمـوجـةـ جـدـيدـةـ . طـوـحـتـ بـهـ إـلـىـ الـوـرـاءـ خـطـوـاتـ . تـرـنـحـ .
سـقطـ . تـدـحـرـجـ مـسـافـةـ قـصـيـرـةـ . تـشـبـّثـ بـشـجـرـةـ غـرـيـيـةـ لـهـ أـعـرـافـ

مستطيلة ، حرشاء ، رمادية اللون . زعق الريح في الأعلى وتكلمت فيه ميل الجن بالف لسان . واصل العواء . ظل يعوي طويلاً . تدفق الوادي بالجندو . بعضهم ركض راجلاً ، وجلّهم أمتطى مركبات عاتية : غزلان ، وثعابين ، وتنانين وطيور هائلة لا وجود مثلها إلا في ممالك الخفاء .رأى كيف تنفس تنين مارد ناراً . لفحة الصهد في وجهه فدسه في التراب الأسود . كان تنيناً هائلاً يرتدى درعاً من حراشف تشبه حراشف الضباب الهرمة . فوقه جلس مقاتل صارم يضع رأسه في صدره تضليلأ لفرسان الأعدى . ثم ... عبروا . مضوا عبر الوادي الفسيح يتندون ، ويتصايرون ، ويملاون الدنيا بصرخات الويل والحماس . فعاد وحل سكون . زحف على أكمة الرماد مستعيناً بيديه ورجليه معاً ، ثم نهض . تفقد الدليل الجليل فوجده محشوراً في شقّ جلمود دحرجه زلزال من على فاستلقى عند الحضيض الجبلي . العاصفة أطاحت به . اخترفته وجرجرته على الرماد فتعلق بالصخرة . في عينيه الكايتين ، المطفأتين ، رأى التعasse . اختفى منها التصميم القديم وغزاهما هم واكتتاب وشقاء .

هرع إليه . مدّ له يد المساعدة . وقف على قدميه مستعيناً بمساعده الأيمن ، لحظتها اكتشف بورو الحال الذي آل إليه الدليل الذي كان مارداً ، جليلاً ، منذ حين . كان قصيراً ، هزيلاً ، ضئيلاً ، باساً ، في جسم طفل عليل . ربت على منكبه ياسفاق ، ولكن الدليل سعى في

الأرض بحثاً عن العكاز . سار منحنياً ، رأسه يتذلّى حتى يكاد يلامس التّرّاب . يلوّي يديه العليتين وراء ظهره ، ويفتّش الاحراش طلباً للعصا الضائعة . تذكر قامته وهبّته عندما كان مارداً ، صارماً ، مهيباً يسطع القمر فوق رأسه فيتوّجه الساهور مثل كل السحرّة القدامي ، ففاض صدره شفقة عليه وحزناً .

هَلَّ عِنْدَمَا عَثَرَ عَلَى العَكَازِ . أَغْمَضَ عَيْنِيهِ وَغَمَّفَ بِتَمِيمَةِ مُبْهِمَةٍ . تَقْدَمَ نَحْوَهُ خَطْوَاتٍ فَبَدَ فِي جَسْمِ أَقْزَامِ الْأَدْغَالِ . فِي حَجْمِ عَكَازِ الْخَيْرَانِ ، بَلْ فِي حَجْمِ أَصْغَرِ قَامَةِ مِنْ عَكَازِ الْخَيْرَانِ . رَفَعَ إِلَيْهِ عَيْنَيْنِ شَقِيقَتِينِ . تَفَحَّصَهُ طَوِيلًا كَأَنَّهُ يَرَاهُ لِأَوْلَ مَرَّةٍ . أَخْبَرَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ . قَالَ لَهُ بِلِغَةِ السَّحْرَةِ أَنَّ السَّاحِرَ لَابْدَ أَنْ يَتَضَاءَلَ وَيَهْزِلَ وَيَهْرِمَ وَيَخْتَفِي إِذَا خَالَفَ نَامُوسَ السَّحْرِ وَطَلَبَ كِنْزًا دُونَ أَنْ يَنْحَرِ ذَبِيحةً . أَنْتَهِي فَأَدْبِرْ . اشَّاحْ بِوْجَهِهِ وَانْطَلَقَ .

مشى وراءه . توغلًا عبر الوادي .

توقفت غارات الجن في مراكب العجاج ، وزغرد السكون في الآذان بلحون كنواح الذباب . السكون القديم الذي تتحاور فيه الكائنات بلغة أكثر غموضاً من مخاطبات الجن في افواه المغاور ، وتتفاهم فيه المخلوقات بلا اصوات .

ضاق عنق الوادي مَرَّةً أخرى .

قامت على السيف الأيمن قamas جبلية . قامت بهامات قصيرة في البداية ، ثم بدأت تتطاول وتنتكابر كلما طال الصراط وامتدت بهما المسافة . الضفة الأخرى ، اليسرى ، ظلت تتردد . ترفع على ظهرها عراقيب ومرتفعات وروابي متفاوتة الارتفاع والاحجام ، متباينة في المكان ، ولكنها تراجع كثيراً فتنقض عن ظهرها العباء ، وتتخلص من ابدان الصوان واثقال الصلصال . تعود فسيحة ، عارية ، بهية ، حسناً في زهدها وتجددها من الحجارة .

قطعاً مسافة أخرى . شرع الوادي يتلوى . انحرف يميناً هذه المرة . في قيعانه تشقت الأرض الظماء ، وناحت فيه الواح الطين . طين كثيف بلون الرماد أيضاً . تجمّع في جداول استأثرت بالسيول ، واستبقيت المياه لأمد اطول من بقية الأطراف . وعندما حدث التحول ، وطارت المياه في البحار ، استجرارت الجداول العطشى بلحمة الوادي ، ولكن الأرض أسرت لها بلغة الظماء الازلي ، الظماء الخالد ، وأخبرتها أن لا عاصم من نار الصحراء ، فناحت الجداول وولولت ، تشكت وتبكت ومزقت الوجه فجيعة . انكمشت وحاولت أن تخفي نفسها بالحيلة والاعتزال . تريشت زماناً ، ثم رأت أن تشكو أمرها إلى الأعلى وتتضرع . حاكت القنفذ ، ولكنها وقعت في نفس الفخ الذي اهلك القنافذ . فالحيوان الذي وهبه الصحراء حصنناً ليستخدمه للدفاع عن النفس ضد المخلوقات الأقوى ، لا يلبث أن يفقد حكمته بمجرد أن يهطل

المطر . يشرع ابواب صومعته المحبوكة من الاشواك ، ويهرع لالتقاط حبات المطر وقد نسى الخطر فيجد سكيناً غادراً في نحره . هذا حال الجداول أيضاً . فالسماء التي تتطلع نحوها طلباً للمن لا تلبث أن تلقى في وجهها بالخبر : لا عاصم من البلاء . فنموت الجداول وهي تتولّ . تموت وهي ترفع ذراعيها إلى السماوات . ها هما يسمعان طقطقة عظامها وهي تتكسر تحت اقدامهما . طقطقة خفية ، شقيقة ، تنطق بفجيعة الأزل ، وتحمل شكوى الاجداد . الاجداد الذين هجعوا فجعلوا من ابدانهم طعماً لها ، للطين ، منذ زمن قديم . ويعتقد الحكماء أن الأسلاف تواليوا في توسيّد التراب عبر دهور الأزل ، ووهبوا انفسهم للأرض النبيلة وفاءً لدين تلقوه منها يوماً ، فوجد الزمان نفسه يبارك التلامح ، و يجعل من الاجداد تراباً ، طيناً مقدساً ، كما خلق من التّراب المقدس يوماً لحماً ، إنساناً .

ولكن ها هو التّراب يتعدّب ، ها هو الطين يتوجّع ، ها هي عظام الاجداد تتفجّع وتتوح وتشكو قحط الأزل وجدب الأبد . ها هي ترفع رأسها نحو السماء وتستغيث دون أن يقدر هو ، بورو الذي عرف يوماً أن الأرض قرينه ، أن يمد لها يداً تزيل عنها جفاف الدهور ولعنة القدر . ها هو يمشي فوق البدن دون أن يستطيع أن يمسح عن وجهها الفجيعة . فهل تستجيب السماء للدعاء إذا نحر الذبيحة ودسَّ المدية في عنق الودآن كما أراد له دليله أن يفعل ؟ هل ترتضي الأم أن يُنحر الودآن ،

إينها آمغار ، ليقدم قرباناً لآلية السماء طلباً للكنز ، لكتنز الكنوز ، للماء ؟ هل تأبى أن يسفع دم آمغار ، أو غير آمغار ، حتى لو ماتت عطشاً ؟ بلـى. بلـى . هذا هو النـيل الذي لم تعرفه الأرضي ، ولم تتعلـمـه السـماوات في عـليـائـتها وـكـبرـائـتها وـلـامـباتـها . هو النـيل الذي كان على المـخلـوقـات أن تتعلـمـه منها . فهي تموت ظـمـاً ، ولكنـها لا تسمـحـ بأنـ يـسـفـعـ دـمـ مـخـلـوقـ تـقـرـباً لـسـماءـ تـقـذـهاـ منـ الـظـمـاً . وـهـاـ هيـ عـظـامـهـاـ الـجـلـيلـةـ تـوـجـعـ وـتـنـكـسـرـ تحتـ قـدـمـيهـ ، ولكنـهاـ تـرـفـضـ الأـضـاحـيـ .

تمـ خـضـتـ المـقلـتانـ عنـ نـداـوةـ نـقـيـةـ سـخـيـةـ ، قـاسـيـةـ . توـلـدتـ فيـ مـآـقـيـهـ وـغـمـرـتـ الـحدـقـتـينـ ، وـمضـتـ . فـاضـتـ بـالـعـصـارـةـ العـيـنـانـ . ثـمـ فـزـتـ وـتـعـلـقـتـ بـالـاهـدـابـ . تـعلـقـتـ نـثـراتـ بـالـرـمـوشـ العـلـيـاـ ، وـانـزـلـقـتـ قـطـرـاتـ فـتـمـسـكـتـ بـالـاهـدـابـ السـفـلـىـ . وـبـرـغمـ الـظـلـمـةـ إـلـاـ أـنـ قـبـساـ سـمـاـوـيـاـ نـزلـ عـلـيـهـاـ فـوـمـضـتـ الـحـبـيـبـاتـ النـقـيـةـ بـرـيقـ . تـلـامـعـتـ بـوـمـيـضـ غـامـضـ ، حـاورـتـ الـأـعـالـىـ وـالـأـسـافـلـ ، خـاطـبـتـ الـأـكـوـانـ وـالـكـائـنـاتـ ، قـبـلـ أـنـ تـنـكـسـرـ وـتـسـقـطـ فـيـ فـمـ الـأـرـضـ العـطـشـىـ . فـحـ التـرـابـ الـظـامـيـ بـصـوتـ الـأـفـاعـيـ . لـيـسـ صـوتـ الـأـفـاعـيـ . وـلـكـنهـ امـتـنـانـ الـجـمـرـ عـنـدـمـاـ يـتـلقـىـ جـرـعةـ مـاءـ . الـحـبـيـبـاتـ النـدـيـةـ التـيـ سـقـطـتـ مـنـ عـيـنـيـ بـورـوـ أـيـضاـ الـقـمـتـ الـجـدـبـ حـجـراـ ، فـأـطـفـأـتـ حـرـيقـ الـقـرـونـ فـيـ قـلـبـ الـأـرـضـ الـظـمـائـىـ . فـكـانـ الـفـحـيـجـ ، الـزـفـيرـ الـمـوجـعـ الـذـيـ نـدـ عـنـهـاـ عـنـدـمـاـ تـلـقـتـ الـهـبـةـ ، بـرـآـ وـامـتـنـانـاـ . كـانـ اللـقاءـ ، لـقاءـ الـنـداـوةـ وـالـطـينـ ، حـمـيـماـ وـقـاسـيـاـ إـلـىـ حدـ استـوقـفـ الدـلـلـيـلـ فـوـقـ يـتـصـنـتـ

ويتفقد الوادي . التفت يميناً نحو السيف الجنوبي والتفت يساراً نحو السيف الشمالي . انحنى ودسَّ انفه إلى أسفل حتى لامس طرف ثيامه الواح الطين . ازداد ضموراً وقصرأً وشحوباً . ركع على يديه أولاً ، ثم تبعهما بركتيه . زحف على أربع فبدا ، من فرط ضآله ، كأنه يزحف على بطنه . كأنه حيةٌ تسعى بحثاً عن حيةٍ أخرى . ادركه بورو فرفع إليه عينين خفيتين ، شرستين ، تو مضان بسيرة التيه وشقاء المنفى . عينان زادهما اللثام غموضاً وجسارة ولعنة . عينان خلقتا لتندسَا في ذرات الرمل وتنطقاً بوهج الإغواء الخالد . دارت في محجريها ثلاث مرات . دارت ياصرار من يريد أن يبرهن أن الحيوان الذي يحملها في جبينه هو المخلوق الوحيد القادر أن يصنع بجسده دائرة . دارت ودارتا ودارتا لتخفي سراً توارى وراء اللثام . خيل لبورو أنه رأى كيف انتفض الكتان ، قطعة اللثام ، لأن لساناً مشقوقاً إلى نصفين تحرك هناك ليظهر الدليل على أنه لم يفتش السر . بعد ذلك تلوى الحيوان الكريه على التراب . انساب بمرونة المخلوق الوحيد القادر أن يصنع من نفسه دائرة مقللة ، وتلبّس الأديم حتى ظنَّ بورو أن الكائن الذي كان منذ قليل رفيقاً له ودليلًا سوف يغوص في الأرض ويختفي . دخل في دغل الاحراش وغاب هناك زمناً . دار بورو حول الدغل الرمادي ، ولكنه لم يعثر على الكائن . اشتدت حلقة الظلمة وناح الريح في الأعلى . ركع على ركتيه ليتجنب الجنَّ في موجة الريح الجديدة . ولكن العاصفة لم تنزل الأرض .

ولولت في رؤوس الجبال ، وسمع بوضوح كيف تعلى صيحات جند الظلمات وهم يملأون أفواه الكهوف بزعيم الشجاعة وشعار الحماس . مضوا ، تدافعوا وابتلعم الفراغ ، ولكن صدى هجومهم ظلّ معلقاً في الهواء فوق عنق الوادي . رفع بورو رأسه فوجد نفسه يواجه كائناً خرج من بطن الأرض . كائناً قبيحاً يرتدي عمامه بالية من الكتان ، يغمر التراب الأسود رأسه وعينيه . تراجع إلى الوراء زحفاً فتمدد رأس الكائن وسار إليه . أغمض بورو عينيه ونطق بالتعويذة . قرأها بالكلمات ، ثم أعادها بالرموز كما يفعل السحرة . دارت به الصحراء طويلاً قبل أن يهجم ويجد نفسه في واحة السكون . فتح عيناً واحدة ففوجيء بشبح الدليل يقف فوق رأسه . كان يداعب العصا بين يديه وقد استعاد قامة الأقزام . ابتسم من وراء اللثام وقال بخبث الاشقياء : « ظننت أني سمعت فحيح الحياة ». لوح بعказ الخيزران في وجهه وسأل : « هل سمعت فحيح الحياة؟ ». بورو لم يجب . والقزم لم يتطرق جواباً . تجهم وتمتم وهو يطأطئ : « لن نعبر إذا لم تنحر . لماذا لم تنحر؟ ». لم ينتظر الجواب أيضاً . تحرك . تقدم من بورو خطوتين . ازاح لثامه عن فمه وابتسم في وجهه . لم يتسم . تلك لم تكن ابتسامة . لقد كشف عن وجه ممزق بغضون قبيحة . وكثير عن اسنان نائمة ، معقوفة ، كأننياب الحياة . لم ير تجاعيد بهذا القبع ، ولم يعرف انياباً بهذه البشاشة . دارت مقلاته في محجر يهما بشرابة الزاحفة ، ونفح في وجهه بضحكة كريهة

كالفحيح : « هيء - هيء - هيء ..» ثم استدار على قفاه . رفع العصا فوق رأسه . لم يرفع العصا . ولكن قامته لم تعد تناسب مع حجم العصا فارتقت فوق رأسه شبراً ، وصنعت له من عقفتها تاجاً . مضى . هرول . اخترق في منعطف الوادي الذي انحرف جنوباً وعاد يتلوى . ازداد عنقه ضيقاً فبدا كأنه أنسد بالجبل وانتهى به المطاف . ارتفعت ضلقة أخرى من الجبال على الضفة الشمالية ، وامتدت لتعانق السلسلة الجنوبية ، التقنا فانسد الامتداد ، وخنقنا فم الوادي . ولكن اختفاء الدهنية ، الذي تحول من دليل جليل إلى قزم ذليل ، جعله يمضي نحو الصند الصارم الذي ظل يتبدي في عتمة الظلمة . وقبل أن يرتطم بالجلالموه وينقطع الطريق ، وجد المنفذ . لم يكن منفذًا مفتوحًا على السماء كالمนาذل التي عرفها في وديان « آلون » او « تادرارات » أو « تاسيلى » ، ولكنه فوهة مثل فوهات المغاور . مغمور بالظلمة وينبعث في نهايته ضوء ضئيل . هم بالدخول فارتطم رأسه بالسقف . رکع على الأرض وزحف . وجد نفسه في جوف الكهف . في الخارج سمع الريح يعوي في هجوم جديد . في الجهة اليسرى ، الشمالية ، من الكهف علت همامة محبوسة . مضى يزحف ويزحف ، ولكنه لم يبلغ نقطة الضوء . لم يتبدل حجم البصيص ولم تتسع دائرته . كأن المسافة التي قطعها زاحفاً لم تقربه من الضوء شبراً واحداً . ولكنه مضى يزحف على ركبتيه ويديه معاً .

يلامس بعر الودان ، ويزبح من طريقه الحجارة . وفجأة نعقت البومة . نعقت في مكان ما فوق رأسه ، وسمع ضحكة اثنوية مكتومة . تناول حجراً ورماه إلى أعلى ، باتجاه الساحرة المشوومة . رفرف الطير ، غمغمت الاثني الخفية بالسباب ، وعاد الحجر الذي رماه وسقط فوق رأسه . حمته العمامة من الإصابة ، ولكن رائحة كريهة غزت انهه . رائحة ذكرته بتلك الأبغية التي تحرقها الساحرات في القبيلة عندما يبدأن في تدبير المكيدة . انشغل بقراءة التميمة فلم يأبه لمشاكل الجن . دلقوا فوق رأسه سائلًا ساخنًا فاح برائحة حادة كبول الإبل . وسلطوا عليه خنفساً ظلّ يهاجمه ويهرش يده اليمنى بأرجله الموحشة . ينفضه بعيداً ، ولكنه لا يلبث أن يعود بعناد المردة . قضت التعويذة على الجنية التخفيّة في بدن البومة فسلطوا عليه مخلوقاً لا تصيبه التعاوين ولا يناله السحر . سمعهم يتهامسون في زوايا الكهف . يتخاطبون ويكتمون الضحكات المريرة . الضحكات التي تفصح مؤامرة . ولكنه سيسير . سيعبر ، ولن يعبأ بشقاواتهم . يكفيه أنه لم يؤذهم ، ولم يرتكب في حقهم شرًا . السحر يجزمون أن أهل الخفاء لن يصيروا بأذى مخلوقاً لم ينادهم بأذى . أما الشقاوة فهي لعتبرهم الأثيرة . الدعاية عشقهم . مشاكسة الانس من احب الالعاب إلى نفوسهم . مما ضرره إذا صبر على الالعاب ؟ ما ضرره لو تسلّى بمداعباتهم ؟ أليسوا ابناء الارض أيضاً ؟ ألم تنجفهم الصحراء أيضاً ؟ أليسوا قرناءه أيضاً ؟ ألا يسكنون الودان

والكهوف ومعادن التّراب ؟ ألا يسكنون السراب ؟ بل لماذا لا يعترف بأنهم أكثر ظرفاً ولطفاً ووداعة من أهل الصحراء انفسهم ؟ يهربون لإنقاذ المفقودين والتائهين ويفتحون لهم أبواب واو . يتبدّلون في أبدان قبائل الإنس ليسلقو المسافرين الظامئين ماء سلسبيلاً . يطعمون الجياع بأغذية لم يذق لها أهل الخلاء طعماً . ويكتفيهم فخرأ أنهم لم يعيشوا في الأرض فساداً ، ولم يقتروا شرّاً . لم ينهبوا قافلة ، ولم يظلموا مسكيناً . يستطيع أن يعترف أنه نال منهم خيراً كثيراً ، ولكنهم لم يخطبوا في حقه يوماً . فأين أهل الخلاء من أهل الخفاء ؟ أمّا مداعباتهم فإنه يعرف انه لن يفقد شيئاً إذا صبر عليها كما لم يحدث أن أصابت شقاواتهم الصغيرة أحداً بسوء . أهل الصحراء لا يتخيلون الحياة في الصحراء إذا خلت منها شقاوات غير أنهم القدماء . وكثيراً ما رويت احاديث شديدة عن هذه الشقاوات . أحد الرعاة قال أنه نزل سهلاً عارياً بعد سفر يوم شاق . لم يوقد ناراً ، ولم يتناول عشاء ، ولم يتحصن بتعويذة . انهار على قفاه ونام كقطعة حجر . كان القمر قد فرَّ من الخلاء ، فخلأ المجال للظلمات لتستبّد بالصحراء . فلم ير المسافر المنهك أنه يتوسد رماداً خلفه الأولون واتخذت منه قبائل أهل الخفاء وطنناً . كان يستغرق في النوم ، يستنشق ازاهير الرتم في الحمادة ، يقلع الترvas ، ويقرص نهود الصبايا في مراعي الربيع ، عندما تلقى على وجهه صفعة قاسية فزَّ لها واقفاً . اختفت اشجار الرتم الجلّة بالبياض ، وتبدل مذاق الترvas ، وسافت

الصبايا وتوقفن عن الغناء ، وهاجرت الحمادة من مملكة الصحراء . وجد نفسه يقف وحيداً في خلاء مسكون بالظلمة والسكون . جمله يبرك بالجوار ، والصفعة ما زالت تحرق وجنته اليمني . التفت يميناً وشمالاً إلى كل الجهات فلم ير سوى الظلمة السوداء . خيل له أنه يتوهّم ، ولكن الصفعة ما زالت تحرق خده الأيمن . جلس على الأرض فاكتشف شبحاً يتشعّب باسمالسوداء يتربّع في مواجهته . أدهشه كيف لم يتبيّن الضيف ، ولكن أمر الجنّ لم يخطر له على بال . تربّع في مواجهته فتكلّم الزائر :

– هل انت نبيل ؟

لم يجب الراعي على السؤال البليد ، ولكن الشبع أعاده بلسان صارم . هم الراعي أن يطلق ضحكة ، ولكنه وجد نفسه يجيب :
– لا .

– هل انت زعيم قبيلة ؟

تلّكأ الراعي فتوّعده الجليس بنفس اللسان القاطع . وجد نفسه يجيب :
– لا .

– هل انت ساحر ؟

تردد الراعي مرة أخرى قبل أن يجيب بـ :
– لا .

هنا نهض الضيف . لم ينهض . ولكن فز . هبّ واقفاً ، كأنه يتتري أن يدعوه إلى مبارزة بالسيوف . توعدّ بنفس اللهجة :

أخرج !

أخرج؟

هبّ الراعي واقفاً أيضاً . في تلك الومضة وجد أن هامة الشبع
بدأت تنمو وتتعدد وتعلو . ظلت تطول وتعلو حتى غابت في السماء
الظلماء . لحظتها ادركته القشعريرة وفهم كل شيء . ولكن بعد فوات
الأوان . لأن الجان رأى أن يداعبه قليلاً فجرده من اللثام بضربة واحدة ،
ثم أمسك بأذنه اليمنى وجره على الأرض مسافة طويلة . اخرجه من
الوطن بالقوة ، وألقى به في ارض أخرى ، تمدد فوقها سماء أخرى .
وبرغم ان الراعي اقسم بكل الآلهة انه على يقين ان الوقت الذي
استغرقه المارد في نفيه من الوطن لا يكفي لقراءة أقصر تميمة سحرية إلا
أنه امضى اربعة أسابيع كاملة حتى بلغ الأرض الاولى كي يسترد جمله
الضائع . هناك وجد مخلفات الرماد وآثار المقابر فأدرك كم كان ظالماً
ومتهوراً إذ نزل ارض الأغраб ، وهجع فوق أكواخ الرماد دون أن يقرأ
التعاويذ .

مهاجر آخر نزل وطنهم ليلاً فلم يدر أنه يبيت ليلته في أرض
سالت فيها الدّماء في الزّمان القديم ، وشهدت نزالاً دموياً بين قبائل

الإنس . لم يرد المهاجر أن يقضى ليته في ذلك الحرم جهلاً منه بأن الواقع الحرية الوطن المفضل لقبائل الخفاء ، كما لم يفعل ذلك تعباً وإنها كأكما حدث مع الراعي البائس ، ولكن الظلمة هي السبب . فرغم أنه اكتشف في الصباح أن المكان يخلو من نصب يشير إلى الموقعة كما اعتادت القبائل أن تفعل (ليس تخليداً لذكرى النزال . ولا تمجيداً للأبطال الذين سقطوا ، ولكن للإشارة إلى نوايا الجن الذين يعلمون أنهم سيخذلون من الموقع وطننا) ، ولكنه كان يتسمى إلى أعلق السحرة القلائل الذين لم يتلقوا علماً من أحد ، ولكنهم ، رغم ذلك ، لا يجارون في معرفة خفايا الكائنات الخفية ، وإدراك الأسرار الصحراوية . فلم يكن صعباً عليه أن يكتشف أين عليه أن يقضي ليته لو لم يخنه القمر وتشتد عليه الظلمة . وقد صدق ، منذ تلك الليلة ، ما يرددده أهل الصحراء أن ما سببه الظلمة من فواجع لأهل الخلاء يفوق ما سببه الأوبئة والافاعي والقبائل المعادية وسنون الجدب . تلك الليلة جعلته يسب الظلمة أيضاً ويعادي الظلمات . فما أن انزل ثامنه على عينيه واعطى ظهره للأرض حتى أحس بجسم صغيرة ، كثيرة ، غريبة ، مرنة ، ولكنها تنفست في قفاه انفاساً حارة . لم يتحرك . حبس انفاسه وتضفت . لم يسمع صوتاً . لم يسمع سوى أنين السكون الحالد . ولكن الأجسام استمررت تنفس الانفاس الحارة . سكن . لم يتحرك . ولكن الأنفاس تماطلت فنفت سائلاً لزجاً كأنه المخاط . تحسّسه يده فغرقت

اصابعه في اللعب المقزّ . تحت السائل الزج كمنت الاجسام الصغيرة
 التي تشبه الانوف . انوف . انوف . في كل مكان انوف . نهض .
 اعتدل في جلسته ، تسلح بالسلاح الذي أرعب الجن دائمًا : الشجاعة .
 خاطبهم قائلاً : « تيهار . تيهار . إد اضسخ إدجروغ تيهار ». *
 سمع ضحكة مكتومة . ثم نطق المارد بالردد شعراً : « ايطسن فول تيهار .
 آيپس اد يسيجر و تيهار ». ** ابتسم المسافر في الظلمة ، ادخل يده في
 كُمه الأيسر ، أخرج من هناك مدبة نحاسية نهمة اللسان ثق نصلها
 الفظيع الظلمة إلى نصفين ، نزلت الفاجعة فوق رأس أهل الخفاء . هتف
 الرجل بنفس الحماس : « ليغ الموسى ناسفنجار ، إياتاجهن جير لمى
 إدتيهار ». *** . أطلق المخلوق الخفي قهقهة إعجاب طويلة جداً . ثم
 صمت طويلاً جداً . تهيأً للمسافر الساحر أن الأمر حُسم والتزاع انتهى .
 وقد نجح في هذا الحدس أيضاً ، ولكن مواهبه السحرية لم تهدء لأبعد
 من ذلك حتى يتوقع ما حدث بعدها . فما أن توقف الحوار ، وهربت
 الصحراء وتختفت في ثنايا الظلمة ، حتى استلقى الرجل وتهياً لأن يريح
 عظامه بالأرض . هنا تكلّم غريمه بالنبوعة فوق رأسه . قال بتسليم لا
 يحتمل قساوته سوى زعماء الجن وحكمائهم : « اعترف أنك غلبتني .
 سأبرهن لك على ذلك بعطيّة صغيرة ». في الصباح وجد المسافر أنه

* انوف ، انوف ، انوف . حينما أضع يدي أجدر الأنوف . (تماهق) .

** من استهرو هجع في مواقع السلف ، حينما وضع يده بمعرضه أنف . (تماهق) .

*** يروق لمديتي الميتة أن تقفل ما بين الأفواه والأنوف (تماهق) .

كان يتوسّد قلّة فخارية قديمة مليئة بهباء التّبرِ .

مهاجر ثالث تعرّض لشقاوة أكثر طرافة . خرج للصحراء بحثاً عن إبله الضائعة . مكث في الخلاء أياماً . كان هذا المهاجر شاعراً موهوباً . وككل الشعراء الحقيقيين كان عاشقاً للصبايا ، مفتوناً بالحسان . وقبل أن ينطلق وراء الإبل المفقودة فاز بقلب أكثر عذارى القبيلة فتنة وحلاؤه ولطفاً . لم يفز بقلبها فحسب ، ولكنه نال يدها أيضاً . وتم الإتفاق بأن يقيم مهرجان العرس حال عودته من سفره وراء الجمال الضائعة . لم يجد الجمال ، ولكنه وجد ما هو انفس بما لا يقاس . وجد الحكمة . ومن حسن حظه أيضاً أنه لم يتلقَ هذه الحكمة من ادعىء الانس ، ولكن من حكماء الجن . وبعد مسيرة ثلاثة أيام قطعها في تتبع آثار الإبل وتسقط أخبارها من العابرين والرعاة والرُّحل ، نزل الشاعر العاشق في ضيافة نجع مريب . وكما يحدث في أحوال الجن فإنّه لم يلحظ ظلاً للريّة ، ولم يشك في هوية الخلق الذين خالطهم ، إلا في صباح اليوم التالي . في الليل نحرروا له الذبائح ، وذاق من أيدي نسائهم طعاماً لم يعرفه في الصحراء ، ولم يذق مثله طعماً . بعد انتهاء العشاء ادخلوه في حلقة غناء فسمع لحوناً لم يسمع لها مثيلاً ، وتنعم بأصوات مغنيات لن يسمعها حتى في «واو» الموعودة ، وردد مع الحناجر الإلهية اشعاراً نظمتها الآلهة نفسها . ورأى نساء في جمال ربّات الحسن التي روت سيرتها أساطير الاولين . رقص وغنى وجدب إذ أوقعه الشّجن في

الوجود . سافر في السماوات الأخرى ، وطاف الصحاري الأخرى ، وداعب نهود الصبايا الإلهيات . بعد ذلك وجد نفسه يجلس على عرش سلاطين العرسان المعمول من ذرات التراب الناعم . زفوا له حورية الجنان ، وغنو الله حتى سكر وضاع وقع في الوجود مرة أخرى . صحا فوجد نفسه في احضان ربة الحُسن الإلهي ، تدخنه بانفاسها ، وتطيب اطرافه الخشنة المغمورة بطبيقة كحراشف الضباب ، بعرقها الذي ينافس زهرة الرّتم عطراً وأريجاً ، وتضمّه في جسدها الذي يفوق جسد الحياة طراوة ومرونة وليونة . ادرك أنه لم يكن يطير في الحلم ولكن ما يحياه هو الحق ، هو الصدق ، هو .. الحياة ! لا يدرى كم استغرق الوقت الذي قضاه وهو ينهل من رضابها ويتعرّغ في احضانها . ولكنه لن ينسى إلى الأبد جلال ذلك الرهط من الحكماء الذي انتزعه من جنته ، وانزله من أعلى الفردوس إلى أسفل الصحراء الفاجعة . تكلّم كبيرهم فعرف ، لا يعرف لماذا ، أنه كبير السحراء . استدرجه بإشارة من يده . خرج إليهم من مخدع العرس زاحفاً على قدميه ويديه معاً . كان حاسر الرأس . ولم يكتشف ذلك أيضاً إلا في اليوم التالي . أمام الخباء اقتعد الجميع الأرض فجأة . نزلوا على الأرض كما ينزل سرب الطيور المهاجرة عندما يأذن له قائد الرحلة . تكلّم زعيم السحرة بلغة السحرة . قال : « ما أعدل الآلهة إذ قسمت الحُسن بين الخلق كما قسمت بينها الرّزق . نالت الطيبة عقلًا جميلاً، ونالت الحبطة جسمًا جميلاً . ولكن .. آه .. آه ..

الحسن تأكله الأيام من وجه الخبيثة فلا يقوى للرجل منها سوى البلادة والغباء والتوايا الشريرة . أمّا من نالت عقلاً فقدت حُسن البدن ، فلم يخسر قرينه الرّهان . انظر ... » طقطق بأصابعه فخرجت العروس من المخدع . التفت المهاجر الشقئيَّ فوجد أمامه إمرأة أخرى ، مخلوقاً آخر ، جنِّيَّةً بشعة ، تيرزازت الملعونَة ، أبشع من الجنية البشعة ، وأقبح من تيرزازت الساحرة . كانت شعثاء ، حدباء ، هزيلة ، في عينيها إحمرار وخبث وشرّ ، تحمل عكازاً قصيراً ، وتحمل إلى جانب العكاز ، ملامح معبودته الربانية . ملامح لم توح بها قسمات وجهها ولا قامتها ، ولا التعبير في عينيها ، ولكنها ملامح زائلة ، عابرة ، مثل خاطر قديم ، قديم . مثل وهم مضى وانقضى . مثل تلك الومضات الخاطفة التي تغزو قلوب أهل الباطن لتلهفهم بأنّ ما يحدث أمامهم الآن قد حدث يوماً ما ، وتكتشف لهم ، بنبوة مستحيلة ، سرّاً لم تعرفه إلا الآلة ، ولم تسر به إلى القدر الخفيَّة . هذا القبس ، هذا الإيحاء ، هو ما ذكر المهاجر البائس أن زعيم السحراء لم يقل سوى صدق ، وهذه المرأة ، هذه الجنية العجوز التي تقف أمامه ، هي حقاً قرينته القديمة ، قرينته الحسنة بعد أن أكلت الحُسن منها الأيام . فسقط على قفاه مغشيا عليه . وعندما أفاق في الصباح لم يجد اثراً لشيء . اختفت القبيلة السخية ، وطار خباء العرس ، وتلاشى رهط الحكماء . لحظتها تذكّر الشاعر مكائد الجن . ولكنه لم يتخلّ عن الحكمة وإنما تخلّى عن الطيش والعشق والحسان ،

واقترن بأقبح فتاة في القبيلة . ويقال أنها لم تُقتل بذمامه الوجه ولم تفتقد الحُسن فحسب ، ولكنها كانت حدباء قليلاً ، عرجاء كثيرة ، بعينيها حول واضح . ولكن الرواية اجمعوا أن الشاعر عاش كأسعد قرين عرفته الصحراء . وتحدى العجائز الجنيات عن الاعجوبة فقلن أن «أنهبي» قد أخبر من قديم أن العرجاء ، أو الحدباء ، أو الحولاء ، لا تتفوق في العشق وحده ، ولكنها لا تُبارى في مجال الحكمة أيضاً . ولو تحلى الرجال عن ولعهم الأحمق بالغشاوة التي يسمونها حُسناً وجمالاً ، لما عرفوا حياة الشقاء . ويدو أن الجن لم يكتشفوا لأهل الصحراء ما خفي من أمر الصحراء ، ولكنهم استطاعوا أن يكشفوا لهم ، بشقاواتهم ، ما خفي من أمر انفسهم أيضاً.

بـ- الزُّبد

توقف أهل الخفاء عن المزارح .

تراجع المقهقرون عن الهاهات ، وسكتت الجنيات عن المشاكسات . أستبد الصمت بالدھلیز . لم يعد يسمع عویل الريح في الأعلى . لم يعد يسمع سوى صدره الذي مضى يعلو بالزفير ويهبط بالشهيق . زحف إلى الأمام . زحف وزحف وزحف . ولكن حفنة الضوء لم تتبدل . لم تتضخم ولم تتضاءل . ظلت تحفظ بنفس الحجم كأنها تحاکي مسلك النجم السماوي . كأنها لا تعبأ بالمسافة . كأن الطريق إليها لا يعترف بمقاييس المكان أو مسافات الأرض . مضت ترسل

وميضاً غامضاً لا ينزل الصحراء ولا يغمر الدهليز بالضياء . زحف مسافة أخرى . بدأ سقف النفق يرتفع ويعلو . ازداد اتساعاً أيضاً في الجانبين . قطع مسافة أخرى زحفاً قبل أن يكتشف أنه لم يعد في حاجة لأن يقطع الطريق زحفاً . نهض ومضى على قدميه . ولكنه ما لبث أن توقف وأصاخ السمع . خيل له أنه سمع صوتاً ذكره بصوت أخذه منه النسيان . أقترب الصوت وازداد وضوحاً . ولكن أين ومتى سمع هذا الصوت ؟ . أقترب الصوت أكثر . ضجّ البعير بالهدير فتزعزعت أركان الدهليز وزلزلت الأرض تحت قدميه . لفظت شقشنته المنفوشة قطعة زبد ناصعة . سقطت القطعة فوق يده اليمنى فلوثت ذراعه . فوق رأسه ضجّ رعد آخر . رفع عينيه إلى أعلى فرآها . تربع في نفس الهودج ، تتمايل مع نفس الشكوة ، وجهها ينطق بنفس التسليم . ظلَّ الجمل العدبس يهدِّر ويُنْفَث زبداً ، وظللت تتمايل يميناً ويساراً . تتبع اندفاع الحليب في الشكوة ، فيمددم في الجوف بإيقاع كفرع الطبول الخشبية المكممة بالجلود . تصنَّت . سمع ل هناً خفياً في الإيقاع . هناً لم يسمعه في الصحراء كلها . هناً فشل حتى النسيان في إفساده . لم يدرك السرّ . لم يعرف عما إذا كان السحر نابعاً من حركة السائل في الشكوة ، أم من هدير البعير ، أم من الوجه الذي لا يعرف لغة غير السكينة والتسليم ، أم من استجابة الصلد لهذه اللحون كلها . ما ادركه حقاً ، ولم ينجح سلطان النسيان في أن يمحوه من ذاكرته ، هو ما حدث بعد ذلك . فما

أن هبَّ وارتجف واستجاب للإيقاع، ورفف عصفور النور المحبوس في الصدور ، وتهيأً للأسفار وقطع المسافات ، حتى توقفت المعزوفة السماوية . توقفت فجأة . فهو ، هو . ظلَّ يهوي إلى أسفل حتى تعلق بالابتسامة . بلى . بلى . الابتسامة . افتر ثغر التسليم والحزن والوجوم عن ابتسامة مريمة ، كانت سبباً منعه من السقوط إلى أسفل ، والإرتطام بأرض الصلد . سرى في صدره شرر ، تملّكه انتشاء . وسكر بلحون مملكة الضياء . ضياء . ضياء . ضياء . الضياء غمر الدهلiz ، واخترق الصلد ، وفاض في كل الصحراء . لم تعد الصحراء صحراء، واختفت السماء من السماء . غابت الأرض في الأعلى ، وحلّت السماء في الصحراء . ثم .. ثم أخرجت من فم الشكوة زبداً . كان مدورةً ، اسود اللون كأنه استقطع من الظلمة . انحنى دون أن تفارق ابتسامة النجاة شفتيها . مددت له القطعة السوداء . زبد الشكوة . عمل السنين ، ابداع الدهور ، تميمة الحياة ، ولبَّ الخلق . لم تكن القطعة السوداء سوى ذلك الحجر الأسود . الحجر الذي تلقاه يوماً هبة من يد القدر فاستعادته الصحراء . أنهار سلطان النسيان فتذكّر الساحر الذي قضى نحبه جرياً وراء الحجر الأسود . هتف بأعلى صوت :

– الحجر ! الحجر الأسود !

ولكن يداً مزقها الغضون امتدت وتلقت الحجر من اليد المدودة . التفت فرأى وجهها مزقاً أيضاً بالغضون القبيحة ، يكشر عن

انیاب ناتکة، معقوفة ، کأنیاب الحیة . مقلتاه تدوران في محجریهما
کعینی الزاحفة الشیمة . على رأسه تتصب عصاة الخیزان ذات
الاطواق النحاسیة . وعلى وجهه ترتسم ابتسامة الدهاء . اختفت الخلوقۃ
الودیعة من الصحراء ، وغابت ابتسامة التسلیم والسكينة والنجاة إلى
الأبد . غاب البعیر کله . لم يسمع الهدیر ، ولا إيقاع الشکوة ، ولا
لحون العجب ، أبداً . استعاد الاحساس لأول مرّة . نبضت الحواس
الخرساء بالحياة فذاق مرارة الخيبة ، ونجزع الهزيمة ، واصابه الخواء .
تملکه اليأس ففرّ ووثب في رقبة الدلیل الكریه . حاول أن يتزرع العطیة
من يده ، ولكن الكائن الشیم هأها بطریقته القیحة وتکلم بشرط
الفجیعة:

- لن تنا الحجر إذا لم تنحر

ومضت قبضة القزم بخيوط الضوء . كان الحجر يستجيب لنداء
النجم البعید فيومض ويومئ ويغمز بفیض الضیاء . ولم یفهم کیف یقدر
الحجر الملطخ بالسواد أن یتدفق وینهر بهذا الفیض العنید من الضوء .
وبرغم القبضة المضمومة فوق جسد الحجر إلا أنه استمر یتسلل من بين
الأصابع ، یخرج قبضة الطین ، ویتلاأ بالشعاع اللعوب . هجم على
القبضۃ المتوجهة ، ولكن الدلیل وضع في يده المدية بدل الحجر . قال :
«لن تنا الحجر إذا لم تنحر» .

عقب ذلك ألقى إليه بالشأة .

كانت مكبلة بقيد سميك ، متواحش ، من مسد . اليد الأمامية مشدودة إلى الساق الخلفية ، واليد الأمامية الأخرى مقيدة إلى الساق الخلفية الأخرى . وكان بصره هو مشدوداً إلى مكان آخر ، إلى يد أخرى يبتلي منها الشعاع . فلم يقاوم ، ولم يعترض ، ولم يجاجج . وجد يده تغرس السكين في النَّحر دون أن يفارق الوميض المعلق ببصره . نَدَ عن الضحمة أَنِينَ موجع ، وانهمر من النَّحر سائل في حرارة النار . غمر يديه ، وحرق أصابعه ، فزَلَّت الأرض زلزالاً ، وتصدَّع جدار الدهليز . تساقطت الحجارة ، وانهمر التراب . نزل النُّور فرآها : تجنلت عن عرشها الدهري ، وفقدت شكتها الحالدة ، وتابه بعيونها الأبدي ، فاستلقت على ظهرها تتنفس كعصفور ، تعاند زحف الظلمات ، وتغالب مرارة النزع الأخير . استبد الشحوب بوجهها الوديع ، في عينيها احتفت ابتسامة النجاة ، وحلَّ في مقلتيها الفراغ . سقطت من يده المدية الفظيعة ، وسقطت إلى جوارها على ركبتيه . في ذلك الاوَان جاءه الصوت . نزل من سماء لا وجود لها كتبوعة مجوسية قديمة . حلَّ كزلزال عهد قريب ، فتكلمت به الاشياء ، وردته الحجارة وجدران الدهليز :

«أَلم تعلم أنَّ الخلق لابد أن ينحر أمَّه إذا أراد أن يفوز بالكنز؟».

سطع الضياء . توهج الكوكب المعلق في الأعلى البعيدة وكشف عن جوف من نار . فز إلية نور الحجر الأسود فاشتعل من لقائهما الشرر . تزلزلت جدران الدهليز ومادت . تساقطت حجارة حصى وتراب من السقوف . دمم جوف الأرض تحت قدميه بأذين خفي . تحول الضياء إلى ألسنة من لهب لها لون التبر . ظلت تتلامع وتتلاءب وتداعب البصر . استجابت لها جدران الدهليز فترافقست واكتسبت لون المعدن الأصفر . تصايع المردة في الخفاء ، وعلت هممات الجن . ثم .. ثم تراجع الكوكب المعلق واختفى . لا يدري عما إذا كان الكوكب قد هجر منزله القديم في الأفق وتلاشى ، أم أن نور الجدران النحاسي هو الذي أعماه ومنعه من تبيّن البرج . الجدران استعارت الانوار . مضت سطع بضياء كلهب النار في موقد الحدادين السحرة . انتظر أن يهدأ الوميض ويختفت ، ولكنه مضى يتغامز ويومئ بإشارات مبهمة . في الركن فوجئ بالرفيق الكريه يستعيد هيئته القديمة . لا يعرف متى ولا كيف تحرر من جلد الحياة واستعاد ملامح الخلوقات الأننسية . تمدد في القامة . وتراجع امتداد الوجه ، واحتفت التجاعيد والانيايب ونظرة «تانمضال» * اللشمة ، فعادت له ملامح الإنسان ، واستردَّ قليلاً من وقار الحكماء ، ولكنه لم يخلُّص من قامة القزم تماماً .

* تانمضال : حرفاً «إينة الأرض» أي الحياة . (تماهق) .

تواصل الزلزال .

انطفأ الضياء الساطع ، ولكن ألسنة اللهب التي تشتعل في الجدران بدت العتمة ، وهزمت سلطان الظلمات . في امتداد الدهليز ، في ذلك الأفق المجهول الذي سطع فيه نور السماوات طويلاً ، تبدى شبح كثيب . كوم يتشح باسمال سوداء كأنه استقطع من الظلمة . يستر الحجاب بدنها من قمة الرأس حتى أسفل القدمين . تدب ببطء «تانضال» ومسلكها الذي يخفي مكيدة ازلية ، فتبعد ، في سعيها كأنها تزحف ، أو تدرج . هدأت الزلزلة . اقتربت لفافة السواد . تجر جر اسمال الظلمة على الأرض فيذكر حفييف ثوبها بالفحيم الكريه ، الحالد ، الذي اقشعرت له ابدان الصحراويين منذ الازل . وكلما اقتربت أكثر كلما علا الحفييف المريب ، وازداد تداخلاً مع فحيح المكيدة . اقتربت شبراً آخر ، وآخر ، و .. وجد نفسه ينفر إلى الوراء بقفزة واحدة . استبدلت به القشريرة ، واستيقظ فيه عداء الأجيال ، فغلبه الفزع . ولكن الرفيق الساحر الذي عرف حيل التحول ، وتستر في جلد الزاحفة القديمة ، تصدى للشبح بعказ الاطواق النحاسية . ولم يدرك سر الاطواق إلاّ عندما بدأ العراك . فقد رآها تتلوى بمرونة بدن الزاحفة اللثيمة ، وتلتف على جسد الهامة الوحشية بمهارة ثعابين الأدغال . لم تعد العصا عكازاً من بنته الخيزران تزين مفاصلها باطواق نحاسية خرساء ، ولكنها تحولت إلى حيوان شرس ليس له مرونة كائن الأغواء

فحسب ، ولكن استعارة أيضاً رأسه وانيابه ولؤمه ومسلكه في النزاع . وقد تلاحم الخصمان في الومضة التي كشفت فيه الهامة عن وجهها .. وسوف لن يستطيع حتى سلطان مملكة النسيان أن ينزع من رأسه ذلك الاشمئزاز الذي تملّكه عندما تبيّن ملامح ذلك الوجه . كان مستطيلاً ، شاحباً ، محروثاً بشقوق وباء قديم ، محفوراً بآثار الدمامل والقروح ، وفي قلب تلك الكتلة من البشاشة تلمع مقلتان خبيثتان تو مضان باللؤم الحالد . كانت عجوزاً كريهة لها ملامح حية أيضاً . ولا يعرف لماذا وجد شبهها بينها وبين المخلوق الذي يقف بجواره الآن ، ويشيع عصاته السحرية في وجهها الذميم ، مستعيناً دور الخصم . أم أن المخلوق لابد أن يشاجر قرينه ويتخذ منه خصماً إذا شاء أن يقهر في نفسه ، عدواً ؟ إلا يؤكّد السحرقة القدماء أن مبارزة المخلوق مع القرىن ، مع المخلوق الآخر الذي يسكنه ، هي أشرس المبارزات في سفر الخلق ؟ ألم يعلم «أنهي» الأجيال أن العراك الحقيقي هو العراك مع الوحش الجھول الذي لا يعرف أحد كيف استطاع أن يتّخذ من النفس وطنًا ؟ وكان يمكن أن يشقى كثيراً لو لم يجد تفسيراً لحماس الساحر وتخليه المذهل بالبطولة طوال المبارزة .

تقاتلا دهراً كاملاً بقياس زمان يقع أسير الظلمات ، ويتسلط عليه سلطان النسيان . في المشادة الأولى حرق الساحر بعصاته لباس الهامة الخفية ، فانكشفت الهوية ، وتبدّلت الساحرة «تيرزازت» في بدن

السَّعْلَةُ ، ولكن المُقَاطِلُ لَمْ يَقْنِعْ بِانتصارِهِ فَمُضِيَ يَهُوِي بِالْعَصَمِ بِوْحشِيَّةِ مُخْلوقٍ يَقْاتِلُ مُخْلوقًا يَسْكُنُهُ ، يَنْزُ مِنْهُ الْعَرْقُ ، يَنْفَثُ انْفَاسُ الْفَحِيجِ ، يَتَقَافَرُ فِي الْهَوَاءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْفَرْسَانِ الْقَدَامِيِّ ، زَاعِقًا بِصَبِيحَاتِ الْحَمَاسَةِ . فِي تِلْكَ الشَّادَّةِ قَاتَلَتِ السَّاحِرَةُ بِسَالَةً أَيْضًا . تَتَلَقَّى ضَرَبَاتُ الْأَطْوَاقِ بِرَأْسَهَا ، وَبِدَنَهَا ، وَتَقْفَزُ نَحْوَ الْخَصْمِ بِعَنَادٍ بَطْوَلِيٍّ مُحاوِلَةً تَخْتَطِفُ مِنْ يَدِهِ الْحَجَرُ السَّرِّيِّ .

فِي الشَّادَّةِ الثَّانِيَةِ بَدَا الْخَصْمَانُ يَتَضَاءَلُانْ وَيَفْقَدَانْ جَسَدَيْهِمَا .

تَجْرِي دَارِمَةُ الْأَلْبَسَةِ ، وَتَعْرِيَةُ جَلَدَيْهِمَا . صَارَا عَارِيْنِ ، مَجْلُوْيِنِ ، صَقِيلِيْنِ ، يَلْمِعُ جَسَدَاهُمَا تَحْتَ اضْوَاءِ الْجَدْرَانِ النَّارِيَّةِ . فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ رَأَى كَيْفَ يَتَضَاءَلُ الْمُخْلوقُ وَيَفْقَدُ بَدْنَهُ ، وَطَنَهُ ، وَيَصِيرُ إِبْنَهُ يَنْتَمِي إِلَى وَطْنِ الْخَفَاءِ وَالرَّؤْيِ الْخَفِيَّةِ . فِي الْجَوْلَةِ الْثَالِثَةِ تَمْخَضُ إِيقَاعُ الْعَرَاكِ عَنِ التَّحْوِلِ كَمَا تَمْخَضَ إِيقَاعُ الشَّكْوَةِ الرَّتِيبِ عَنِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ . لَمْ يَعُدْ السَّاحِرُ قَزْمًا فَحْسَبُ ، وَلَكِنَّهُ فَقَدْ قَامَتْهُ وَعَافَيْهُ وَمَلَامِحَهُ وَبَدْنَهُ الإِنْسِيِّ . عَادَ حَيَّةً تَزَحَّفُ أَرْضاً ، تَتَلَوَّ حَولَ الْعَصَمِ ، وَتَقْاتِلُ دَفَاعًاً عَنِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ .

الْخَصْمُ أَيْضًا انْتَلَبَ حَيَّةً ، وَرَأَى كَيْفَ يَتَبَدَّى كُلُّ شَيْءٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَيَعُودُ كُلُّ مُخْلوقٍ إِلَى أَصْلِهِ .

اسْتَمَرَّ الْقَرِينُ يَقْاتِلُ الْقَرِينَ حَتَّى اصَابَ السَّعْلَةُ الْأَعْيَاءَ . كَفَّتْ

عن التحول والتنكر . توقفت عن تلك اللعبة التي راقت لها منذ الطفولة فاحترفها واتخذتها يوماً وسيلة انتقمت بها من أبيها «آكا» . ادركت أن الصُّلْع يظل ضلعاً ، مهما تحايل وحاول أن يتفوّق ، كذلك الساحرة لن تستطع أن تغلب الساحر الذي علّمها السحر .

ولكن الساحر لم يتوقف عن سحق بدن الخصم حتى بعد أن استسلم ، واعترف بالهزيمة ، وعاد يقف في مواجهته مستعيداً بدن حسناه لم تر الصحراء لبهاتها مثيلاً . فكيف لا يركع المقاتل أمام الحُسْن؟ كيف لا يستسلم ، ولا يلقى السلاح أمام الإغراء؟ ولكن من أين له أن يعلم أن من صنع الأغواء بيديه ، وبئته فتنة في نفوس النساء ، لن يؤخذ بحيلة صنعتها بنفسه يوماً؟

مضى الجلاد يدق رأس الحسناه بلا توقف . كانت تتلقى العصا المطروقة بدوائر النحاس بأنين فاجع . تتقى الضربات بيديها ، تخمي وجهها البهبي بذراعيها ، ولكن عصا الساحر وجدت سبيلاً إلى كل مكان من جسدها البديع . ففزَ الدَّم ، واغتسلت بالنزيف . توقفت عن البكاء . عندما يتفاقم الوجع ويتعاظم الألم ، لا يعود للدموع معنى . الدموع وُجدت لتعبر عن الألم البدئي الذي يصيب البدن ، ولكنها لم تُخلق لتعبر عن الفجيعة . رأى أن الحسناه لم تعد تتوجع بضربات لم تعد تحس بها ، ولكن في عينيها وجع آخر ، خفي ، تعلمه هي وحدها ، وربما يعلمه الساحر الذي علّمها السحر . فهل هو خوف من المصير؟ هل هو

حساب لما سيحيل إليه العقاب ؟ هل هو فزع من مخاض التحول ؟ لا يعرف ما الذي دفعه لأن يتدخل . يقيناً أن السبب ليس شعوره بالشفقة ، لأن النسيان أنساه هذه الاحساس أيضاً منذ بدأ السفر . كل ما يعرفه أنه وجد نفسه يصبح : « الرحمة ! الرحمة ! الرحمة ». التفت إليه الساحر بوجه لم يعرفه أبداً . حدق فيه بعينين لم يرهما من قبل ، و .. هوى بالعصا على وجهه . وقعت الضربة على الجبين . اصابه دوار . ترنّح ثم سقط . لا يدرى كم غاب . ولكنه وجد الجرح ينزف عندما أفاق من غيبته ، ووجد الساحر يتحنى فوق الأرض . امامه تمددت الحسناء بعد أن فقدت جسدها البديع . تضاءلت وفقدت الاطراف . حدث التحول الأليم وعادت الصبية حية تسعى . لم تحتفظ من وعائهما القديم بغير العينين . ولو لا هذه النظرة الفتاتة ، لو لا هاتان العينان المداورتان ، لما ادرك أن المخلوق الذي يتلوّى على التراب بين يدي الساحر ، هو نفسه ذلك المخلوق البهـي ، المكابر ، المرفوع إلى الأعلى بقامة المردة . تابع عمل الساحر فرأه يركع فوقها . يهـش « تانمضال » نحو تجويف العصـا . يتمتم بالتعـامـلـ السـحـرـيـةـ ، ويرسم بسبابـتهـ رـمـوزـاـ غـامـضـةـ فيـ الهـوـاءـ . تابـعـ زـحـفـ (إـيـنـةـ الـأـرـضـ)ـ نحوـ كـهـفـهاـ الجـدـيدـ ، نحوـ مـثـواـهـ الـآـخـيرـ ، نحوـ جـوـفـ العـصـاـ المـطـوـقـةـ بـحـلـقـاتـ النـحـاسـ . تـبـاطـأـ فيـ زـحـفـهاـ وـتـتـلـكـأـ ، وـلـكـنـهاـ لـاـ تـلـبـثـ أـنـ تـمـضـيـ . توـقـتـ قـبـلـ أـنـ تـدـخـلـ رـأـسـهاـ فيـ فـوـهـةـ التـجـوـيفـ . أـلـقـتـ حـوـلـهـ نـظـرـةـ شـامـلـةـ . نـظـرـةـ طـوـيـلـةـ . نـظـرـةـ فـاجـعـةـ جـعـلـتـهـ يـسـتـعـيدـ

التعبير الذي نطقت به عيناها عندما كانت تلقي ضربات الجلاد ، وفهم أن ذاك الوجع لم يكن سوى نبوءة ستؤدي إلى هذا المصير الذي تواجهه الآن . قرأت القدر ، وعرفت أن التحول سيتهي بها إلى الجوف ، إلى الفوهة ، إلى الظلمة ، إلى الفناء . ثم .. ثم اغمضت عينيها . تشجّعت . ادخلت رأسها ببطء وحذر . بدأت تلتج الجوف ، وتتضي في ظلمة التجوّف والجهول . توارت وعادت سليلة الجنية إلى منفاهما القديم . صارت رسمًا شاحبًا على جدار الكهف ، ومنحت نفسها غذاء يمد من امتلك العصا بالعافية والسرّ والحياة . انتصب أمامه الساحر بقامة ماردة ، وملامح تفيض شباباً وعافية وحياة . وإذا كانت التجاعيد المهولة قد اختفت حال استيلائه على الحجر الحكيم ، فإن بشرته لم تتشرب النضارة ، ولم تستعد الحياة إلاّ بعد أن استولى على الحياة . ولكن ما ادهشه ولم يجد له تفسيراً هو هذا الشبه العجيب بين المارد والحياة من جهة ، وبين المارد وبين الحسناء الضائعة من جهة أخرى . فقد ظلت مقلتاه تومنسان بنفس البريق الغامض الذي ومضت به عينا الحسناء ، وكان خصلة مميزة في مقلة الحياة أيضاً . فهل السرّ في ومض المقلة وحده ، أم في التعبير الخفي ، الحكيم ، القديم ، الملهم ، الذي ميزها عن غيرها من المخلوقات منذ أن اخترفت السرّ الأول من يد الجدّ الأول ليمنحها تفوقاً نالت به حيلة تبدل به جلدها وتحل في ابدان الكائنات ، وتحترف التحول ولا تبيد ؟ أم أن وجه الشبه بين المخلوقات الثلاث

(الساحر، الحسناء، الحية) يكمن في الناموس الذي قضى بجعل الضد لا يدخل في جسد الضد فحسب ، ولا يستمد منه العافية والحياة والنصرة فقط ، ولكنه يستعيير منه المسك أيضاً؟.

انتصب في وجهه الرفيق بقامة المردة ، ونضارة الفتیان ، ونظرة الحیة ، وقال بلغة اوضح من أي لغة أخرى :

– الآن يقدر الوادي أن يمضي بنا إلى الأبد ، ويتلوي كما يشاء ، الآن يستطيع القبلي أن ييكي ، ومن حق الريح أن تولول . فأنا الذي نلت كنزي (وهز عكازه في الهواء) ادعو رفيق السفر أن يتقدم ويأخذ كنزه !

استلقي إلى الوراء ، واطلق قهقهة جتونية زلزلت المغارة ، فنداعت الجدران وتفتت . ازداد وميض الجدران ، وتصاعد في بدنها الحريق . بدأ الهباء يتسلط كرذاذ المطر . هباء اصفر ، معاند ، لعوب ، شقي . استمر الدليل يقهقه ، ومضت الجدران تهتز وتنداعى وتتفتت .
تواصل هطول الهباء .

تكدست أكواخ الهباء ، وصنعت على الأرض سيفاً لامعة كسيوف الذرات التي يقيمها القبلي في بحر الرمال العظيم . سيف تومض ببريق كالرعد ، كالنبوءة ، كالوعيد . ومضت جدران المغارة الحمراء تغذيها بالفتنات ، بالذرّات ، بالهباء . ولم يكن عليه أن ينتظر

طويلاً حتى يدرك أن الانهيار قد تمخض عن التبر كما تخضت شكرة المخلوقة الوديعة عن الحجر الحكيم .

ولكن كان عليه أن يتضرر طويلاً حتى يفهم أن الساحر الذي امتلك الحياة ، قد أخذ منه الحياة ، ولم يكن الهباء الذي تركه له سوى خدعة سماها الخلق كنزاً ، وكان عليه ، كي ينالها ، أن يمد يده إلى المدينة ، ويجر النصل على الرقبة ، وينحر .. أمّه .

القسم الثاني

Twitter: @alqareah

١٠ - الحية (ب)

« ومثل ما يقولون : الحية تدل على العدوّ ، وفي موضع آخر يقولون هي كاتم السرّ ، وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة ». .

ابن خلدون

«المقدمة»

* * * *

« .. فوسوس لها الشيطان لبدي لها ما ووري عنهمما من سوأتهما وقال ما نها كما ربكمما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكمما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لها سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ». .

القرآن الكريم

سورة الأعراف ، الآيات ١٩ ، ٢٢

* * * *

« تناول السماء نفسك ، وتناول الأرض جسدك »

هوراك ، «مراثي إيزيس»

(١)

تململ جبارين اولاً.

تطاول قرص النار واعتلى الجبال . كابر أكثر فاجتاز القمم . اطل على الوديان ورأى أن يحرق الكائنات التي تعتصم بالبطون . سكب اللهب في «اللون» فولول ، مع الصبح ، كل مصاب . استعارات اشجار الطلع حيل القنافذ فكائفت كل شجرة ونسجت من اوراقها فروة حكيمة . انطربت الاعشاب واستجارت من نار السماء بامتداد الأرض كأنها تحاكى الحياة . فرّت الطيور ، وهربت الفئران في الشقوف والجحور . توارت الذئاب ، وغابت قطعان الودان في افواه الكهوف . وإذا ارسلت الشمس رسالتها للأرض ، وانخبرت أن لا عاصم من نارها ، فإن الحجر وجد الشجاعة كي يدع للمخلوقات من بدنها حصناً . نال جبارين نصبياً من القصاص الخالد ، وتلقى الفيض ، فتململ وسعى . زحف على بطنه وبحث عن صلد يصد به ويل القيلولة . اخترق الحصن ، تخطى خط الدائرة . اجتاز الحرم ، ودخل مملكة ابناء الليل . سحق دبيب الفأر ، ومحاختم القنفذ على الرمل . تحرر من القمم وجاور مملكة الحياة . لامس الأثر ، فاقشعر وتلقى إيماءة الخطر ، أطلق صيحة فروسية ، وفز بقفزة من انتوى أن يعارض الجن ، كان أحيل حيوانات البرية قد بعثت في الأثر ، وأخرجت من مخبئها ، في

الظلمات السفلی ، ناباً ، لم یهب أهل الصحراء شيئاً مثله ، ودسته فی عجیزته . انتصب وانهمک یهمهم بالتمائم القديمة . تفقد المكان فوجد أنه خرق خط الدائرة في فراره من فيض النار فتولاه الجن وقد تحفوا في جوف الحياة . ها هو الأثر الفظيع . آثارها على التراب وحدها تکفى لارهاب القبائل . الغضون التي تحفرها بجسدها وهي تناسب ، كالسیل على الرمل ، تکفى لإنزال الفزع في قلوب الفرسان ، وتکفى لاصابة «ایر کایتادم» * بالشلل . اقتفي الأثر . تابع کائن المکيدة . سار وراء البدن الذي تجرد من الأيدي والأرجل ليسجد للأرض ، ليقترب من الأرض ، ليصبح جزءاً من الأرض . ليستمد من الأم السفلی القوة . ليستعيير من البدن الذي خلقت منه كل الأبدان سلطاناً لا يقارن بسلطان . تابع العلامة المطبوعة على الأديم وهو يعاند قشريرة الخطير ووساوس المجهول حتى انقطع الأثر . اختفى . غاصلت ولیدة الأرض في الأرض ، عادت ابنة الأرض إلى جوف أمها الأرض . توارت الخلوقة الوحيدة التي لم تعرف بأبوة السماء كبقية الخلق ، فكانت الأرض لها آباء وأما . ذهبت الزاحفة التي التقطرت السر من فم الأرض ، وقطعت لسانها الى شطرين خوفاً من أن يغلبها الفضول فتدفع سر الأرض .. سر الأرض ..

الأرض انجبتها کي تستعيد بها مخلوقاً آخر . دمية أخرى . دمية

* ایر کایتادم: الرابع ، الدهماء . (تماهق) .

ابدعتها من الاوحال ، من عجين الطين عقب سيل سخية ، ولكن مارداً من الجن خطف الدمية البديعة من بين يديها ، وطار بها إلى وطن الزعيم في «تارات». ولولت الأرض . اشتد بها السقم والظماء . ناحت طويلاً حزناً على ولیدها الفقيد . في تلك الاثناء كان «وانتهيطة» يتسلک في الخلاء فسمع المناحة . رآها تفقد نضارتها وحسنها . تابع تحولات الشقاء على وجهها . مضت تتبیس وتتغاضّن وتهرب وتهرب منها الحياة . أقبل وانتهيطة ووقف على رأس الأرض التي استحالت صحراء . سألها عن حالها فروت له قصة الدمية . قال اللثيم في نفسه : «لابد أن تكون دمية خارقة تلك الدمية التي تجعل الأرض تتوح». تفكّر قليلاً . هرش عمamateه مرتين ، ثم أنحنى نحو الأرض الجدباء وقال بلؤم السحرة الاولئ : «أنا أعرف حيل الزعيم أكثر من كل الكائنات . فهل تعرف الرقعة الجليلة ما فعله الزعيم حتى استطاع أن يستولي على الدمية؟». توقفت الأرض عن الأنين الخالد ، ورفعت إلى «وانتهيطة» وجهها شاحباً ، أماته الحزن ، وسألت بلهفة من طمع في النجاة بعد يأس : «ماذا فعل ؟ ماذا؟». هرش وانتهيطة رأسه مرة أخرى قبل أن يجيب ببرود الحكماء : «لقد نفخ فيها» تعجبت الأرض كثيراً . وتزلزلت طويلاً ، ثم استفهمت : «حقاً أني لا أفهم . ماذا يستطيع الزعيم أن ينفخ في دميتي؟». قال وانتهيطة : «انت لا تعرفي حيل الزعيم يا أرضي الجليلة ! لقد نفخ في الدمية من نفسه . اعطاهما من نفسه فصارت تمثي وراءه وتدب على قدمين ...». هفت

الارض العطشى : «هل قلت تدب على قدمين؟» ولكن وانهيت تجاهل السؤال ومضى يقول : «.. وما عليك إلا أن تنفخ فيها من نفسك أيضاً إذا شئت أن تستردي دميتك الضائعة» قالت الصحراء الشقية : «وكيف السبيل إلى ذلك؟». قال وانهيت : «استطيع أن استرجعها من الملكة ، ولكنني لا استطيع أن ادخل الحرم» . هفت الرقة الجليلة : «ولكن لماذا؟». نكس وانهيت رأسه واعترف : «لا اخفى عليك أني اختلفت يوماً مع الزعيم . فطردني ، واصدر أمره الجائر إلى المرة فحرموا على دخول حرم القمم» . قالت الصحراء : «وما الحيلة؟». قال وانهيت: «سأخلف همك وانتقم لك إذا صنعت لي بدنًا يقدر أن يدخلني الحرم خفية عن عيون العسس» . تعجبت الأرض : «وهل تنفع الابدان والاستار مع من لا تخفي عليه خافية؟». أجاب وانهيت اللثيم : «ليس الزعيم من يقف على الابواب ، ولكنهم اتباعه من اختيار المرة . وإذا ابدعت في صنع البدن كما ابدعت في خلق الدمية ، فإني سأعرف كيف أخدعهم ، وأسأجد السبيل إلى الدمية التي تسکع الآن هناك على قدمين» . صمتت الرقة العارية ، ثم سألت بعد حين : «وكيف ترى هذا البدن؟». هنا انطلق وانهيت يصف الجسم الذي سيدخل به الوطن بعيد الملعق في الأعلى : «الأنسب أن يكون منسابة ، مرتنا ، رقيقة ، لطيفاً ، صقيلاً ، ناعماً ، بلا أرجل ، بلا أيد ، بلا عظام ، بلا رأس ، سهل الالتواء ، يستطيع أن يتكتل ، ويسترخي ، ويناور ، ويداور ، ويستدير ،

ليستحيل كتلة واحدة . كُرة واحدة . يزحف أرضاً ، يلج الشقوق والجحور . لابد أن يكون بدننا تافها في حجمه ، ولكن لابد أن يمتلك سلاحاً خارقاً للدفاع عن النفس» . سكت وانتهيط . رمق الأرض التي ارتفع من جوفها النواح . ظلت الأرض الظماء تتوجه دهراً قبل أن يقدر اللشيم أن يستعملها ويستفهم عن سبب فجيعتها الجديدة . لحظتها قالت المسكينة : «انت تريدين أعيجوبة ! اعيجوبة ! أعيجوبة ! . أيها الشقي ، أن خلق كائن جديد أيسر من ابتداع البدن الذي تريدين؟» . أبتسם وانتهيط ابتسامة اللؤم الخالد ، وهز منكبيه استخفافاً قبل أن ينطلق . ولكن الأرض الشقية استوقفته ، وطلبت أن يهبها مهلة . عاد يتسم ، ثم اقتعد الأرض . هجع على صدرها دهراً . سمع انينها الفاجع وهي تتمخض كما تتمخض كل الاناث . كما تتمخض كل الكائنات ، قبل أن تصنع الاعجاز وتنجب الحياة . لإنجاز الأعيجوبة كان وانتهيط شاهداً . عاش المخاض الدهري ، وسمع المراجع ، ورأى بنفسه كيف سخرت الأرض حكمتها الأبدية ، واستعانت بالأحاجي والمعادن والألغاز الخفية ، حتى استطاعت ان تبدع ، أخيراً ، الحياة ، التي اطلقت عليها اسم «الحياة» لا لأنها استغرقت في خلقها الدهور ، ولا لأنها انفقت في وضعها أحيل الحيل ، ولا لأن مخاضها فاق في الوجع اي مخاض سواه ، ولكن لأن الكائن الذي ابتدع بهذا العمل الفاجع ، وخرج من جوف الأرض ، من جوف الظلمات ، إلى ملکوت الضوء ، كان فريداً في نوعه ، وفي

تكوينه ، وفي سعيه ، وفي مسلكه ، وفي عقله ، وكان جديراً بأن يفوز باللقب الجليل : «الحياة» ، لأنه يحمل في جوفه سرًا إسمه : الحياة !

تحفّى وانتهیت في بدن الحياة وانطلق الى «تارات». تسلق القمم العمودية الملساء بأعجوبة لا يقدر إنجازها إلا من تحفّى في بدن الحياة . استغفل العسس واجتاز البوابات والأبواب . اخترق الحرم المعلق ، ووجد دمية الطين تسعى بين الأحراش ، وتدب على قدمين . تستر وراء عليةقة شقية تثبت بالصخر بعناد بطولي . تمهل هناك وأنهمك يعد الخطة ويحبك الأحبولة . وعندما فرغ من عمله خرج إلى دمية الطين في بدن النساء . كان بدن الحياة هو الجسم الوحيد الذي تمنع في جبلته بخصال من المرونة واللطافة والطاعة بحيث يستطيع أن يتحول بسهولة ويسير جسماً آخر . وقد رأى وانتهیت اللثيم أن بدن النساء هو أنساب الابدان لاستدراج الدمية الضالة واستعادتها من منفاتها في الفضاء الى صدر الأم التي صنعتها من أكواام الوحل وألواح الطين ، كما رأى قلتها ان الجسم الذي يتبدل ، ويغير جلدته دوماً ، هو الجسم الوحيد الذي لا يفنى ولا يبيد ، لأن سرّ إسمه الحياة قد بُثَّ فيه منذ البدء . ظهر بيدن الانشى في ذلك اليوم ، تسکع بين الانهار والأحراش بدلال لا تتقنه غير النساء ، لا تتقنه غير الحياة ، لا يتقنه غير وانتهیت . وما لبث الكائن الذي أباده التوحد ، وهذه الاعتزال ، أن هرع الى الأنثى وقبل قدميها ، وتوسل أن تبقى الى جواره ، وألا تتركه أبداً . ولكن الثالث الذي يتذكر في بدن

الحسن (الاثنى ، الحية ، وانتهيط) أبى أن ينزل عند رغبة الإبن الضال إلا إذا التزم بالشرط الفاجع . تسأعل مندام (وهو الإسم الذي اطلقه الزعيم على الدمية)* عن الشرط فتحرك وانتهيط في احشاء الحية ، واومأت صاحبة السر للحسناه لتتملي إرادة اللثيم . فمدت الاثنى اصبع الغنج والدلال ، وأشارت إلى تلك العشبة الصحراوية العجيبة التي يقال أنها كانت السبب في الفتنة القديمة التي نشببت بين الزعيم ومربيده «وانتهيط». كانت بنتة «آسيار» قد انقذت حياة الزعيم عندما تخلّى عنه جنده وفرّوا ، فبقى يقاتل الغزاوة وحيداً ، فأصابه الوباء الميت ، فلم يهرب لنجدته وينقذه من الهلاك إلا الصحراء النبيلة التي سخر حياته دفاعاً عنها ، فأنبتت له العشبة السحرية ، فلم تشفه من الوباء فحسب ، ولكنها صارت علة وجوده ، وسراً من أسرار عافيته وخلوده . فسن ناموساً صارماً يحرم على المخلوقات الاقتراب من النبتة السرية ، ويمنع على الأعوان والمريدين تناولها منعاً باتاً . وكان وانتهيط المريد الوحيد الذي خالف الناموس ، وانتهك التحرير فنال الجزاء . فيروى أن الزعيم جرّد من امتيازاته ، وحرمه مرضاته ، ولعنه أمام محفل الجن وجمع المريدين ، ثم أمر بطرده من الحرم إلى الأبد .

والآن عندما أُقيل وانتهيط متخفياً في بدن الحية ، في بدن الحسناه ، لتدبير المكيدة ، لاسترداد الدمية الشقيقة التي نفخ فيها الزعيم

(*) مندام : راجع رواية «الم Gors» ، الجزء الثاني ، القسم الرابع ، الفصل الثامن المعون بـ «اللثام».

من انفاسه ، لاستعادة كوم الطين الذي قدح فيه الزعيم شرر السماء وجذوة الأعلى ، الآن ، عندما دخل الحرم المحرم متسللاً ، متنكراً ، لا لإرضاء كبراء الأرض كما ظنت الأرض ، ولكن إشباعاً لجلة الكيد ، وإرضاء لحسد اشتعل في جوفه منذ تلقي اللعنة ، وحرم من نعم الحرم ، وعرف انه حسد بطبيعة لن تقف عند حد ، ولن تعرف طعماً للسكينة ما لم تحجب السكينة عن كل الكائنات ، وتنزع عنها نعم الاعتزال ، وتخرمها من متعة الزهد ، ولذة السكون .

ندت عن الدمية شهقة موجعة ما أأن فهمت الاشارة ، ورأت أن الحسناء تقوده إلى نبتة الحرام ، وتضع تذوق «آسيار» صداقاً للصداقة ، وشرط للاقتران الابدي . ولكن الحسناء تغنجت ، رقصت ، غنت ، و... مدّت يدها وقطفت ورق العشبة . وضعته في فمه وبذلت تمضيغه بتلذذ ، واشتئاء ، وإغواء . اعطته ورقة فتمنّع ، وتقهقر ، وخاف غضبة الزعيم . لاحقته الحسناء بالعشبة ، ولم تكف عن الملاحقة حتى اذاقت الدمية البلهاء لقمة الحرام .

ارتاحت القمم المعلقة ، وتزلزلت جبال الأعلى . فقعقت السماوات بالرعد ، وتمزقت استار الفضاء بشرر البروق . تنادى الجن ، وتصاير المریدون في انحاء الحرم . طاف النذير ودعا للاجتماع في حضرة الزعيم .

لم يطل الاجتماع ، ولم تتأخر اللعنة .

همهم بها انفاس الجن فتناقلتها القمم ، رددتها الحجارة وتغنى بها الطير . طافت السماوات ونزلت الى الأسفل . سبق النبأ الدمية البلهاء الى الأرض ، فكانت الرقعة الجليلة هي الكائن الوحيد الذي ابتهج وملأ الخلاء بزغاريد الفرح . ولكن فرحة الأرض بعودة الابن الصال لم تكتمل . إذ وجدت ان الشوق الحالد كان من طرف واحد ، بل أن الابن لم يواجه شوقيها بالنكران والبرود فحسب ، ولكنه دبَّ على ترابها بيده وحده . دبَّ غريباً ، كثيراً ، حزيناً ، ورأسه في السماء . كأنه لم يعرف أمه ، كأنه لم يعد الى صدر الأصل الذي خلقه يوماً من فناء . كأنه لم يدرك أن هذا البدن الذي يتبااهي به إنما أخذ وتكون من هذا الأديم الظاميء . من هذه الذرات العطشى ، من هذه الاوحال الوضيعة . مضى يدوس على السلف بكثرياء الأغرب وغطرسة الجاحدين . يرفع رأسه الى السماء كأنه لا وجود لشيء سواها . وكان على الأم ان تنوح طويلاً ، وترقبه طويلاً حتى تفهم سر الشقاء .

تابعته خفية ، وارسلت خلفه جواسيس الطير . وكان عليها أن تصبر دهراً آخر حتى يأتي الطير بالنبأ : ولاء المخلوق الذي يدب على قدمين ليس للأسفل ، ولكنه للأعلى . ولاء الدمية ليس للوعاء ، ولكن للانفاس التي تشده إلى السماء ، ولاء الابن الصال ليس للألم التي غذته من جسدها ، وصنعته من لحمها ، ولكن لأب بُث فيه نار السر ، وبذر فيه شرر الغموض . ولهذا فإنه ضال مرتين . مرّة ذاق طعم التيه وقد

الطريق الى صدر الأم ، ومرة ذاق طعم اللقمة الحرام ، فطرد من الحرم ،
ونزل الى ارض تواه فيها سلطان النسيان ، فأنساه علاقته بها . فلا
تطعني في مسلكه قبل أن تفجعي في أمره ، لأنه ، يا أمنا الرحيمة ،
مخلوق شقي . معلق بين سماء لن ينالها ، وأرض تكفر لها . فمن حرك
أن تتوحى عليه لأنه لن يجد السبيل اليك . جدير بك أن تولولي بنعيمه
لأنه لن يعود مهما دبّ على ترابك . ولن يعترف بك مهما انعمت عليه
من طيب ثمارك ، ومهما شرب من سلسيلك ، لأن من تنفس هواء
الأعلى لن يعرف السكينة في الأسفل ، ومن أودع قلبه في الحرم لن
يهنأ له بال في أرض . فما أشقاء ، يا أمنا الأرض ، لأنه أضاع وطنه
الأول ، ولم يبلغ في سفره الوطن الآخر . ما أشقاء ، يا أمنا الأرض ، لأنه
ضائع في الأبد كما ضاع يوماً في الازل . ما أشقاء ، يا أمنا الأرض ،
وما أشقاءك ، أنت ، بسببي !

هكذا تكلم الجواسيس .

هكذا أخبر الطير .

(٢)

بعد أن جنت الرقة الجليلة الخيبة من الوليد الأبله ، شاءت أن
تغدق من فيض حنانها على كائن يكون له أهلاً ، فلم تجد غير الأعجوبة
التي دبرتها من لدنها ، وابدعتها من همومها ، وحنينها وفجيعتها ل تستعيد

بها الإبن الضال . تركت الدمية البلهاء تهيمن على وجهها . عقبها على التراب ، ورأسها مشبع الى العُلَى . بدنها يدب على صدر الأم ، يلامس الصحراء ، ولكن قلبها ينづف حنيناً للمقام الاول ، ويفيض حسرة على الوطن الصائغ ، ويعانى وجعاً سببه مسيرة التيه . لم تلجم الصحراء للاستحواذ على الخلوقه الحكيمه بحثاً عن العزاء وحده ، أو طلباً ملء الفراغ الموحش الذي تركته الدمية الضائعة التي خسرتها إلى الأبد ، ولكنها تنازعت الحياة مع وانتهيط بسبب الخصال . فلم تعرف الصحراء كائناً واحداً منسابة ، مرتنا ، رقيقاً ، لطيفاً ، صقيلاً ، ناعماً ، بلا أرجل ، بلا أيد ، بلا عظام ، بلا رأس ، سهل الالتواء ، يستطيع أن يتكتل ، ويتكور ، ويناور ، ويداور ويخترق الأرض ، يعيش في الجحور والخفر . وبرغم هذا البدن التافه الذي صار مثالاً في الرخاوة والمرونة والاسترخاء ، إلا أنه يملك سلاحاً افتک من كل الاسلحه التي عرفتها الصحراء . وهذا السلاح ليس السم الزعاف كما سيعتقد البلهاء من احفاد الدمية البلهاء ، ولكنه الدهاء . ولكن هل كان الدهاء هو الامتياز الوحيد الذي رفع البدعة فوق بقية المخلوقات؟ لا ، ليست الحيلة ، ولا الدهاء . هناك خصيلة أخرى لم تجد إليها الكائنات طريقاً . هناك سرّاً أعظم لم تعرف الموجودات السبيل الى التحايل عليه . هناك التدبير الذي فاق كل التدابير ، هناك الاعجاز الذي أعجز الصحراء نفسها فلم تجد له تفسيراً ولا تديراً . هناك الشرك المدهش الذي اوقعت في أحابيله

الأيام ، وقهرت بسطوته سلطان الزمان .

هذه الحيلة ادهشت ارض الصحراء .

فعندما انهمكت الرقعة الجليلة في إبداع الأعجوبة لم تظن (مثلاً) في ذلك مثل كل السحرة والمبدعين) أنها ستفلح إلى هذا الحدّ ، ولم تتوقع أن يخرج المخلوق بهذه العبرية ، ويتمتع بمثل هذه الموهبة ، فتفوقت على نفسها من حيث لا تدرى كما أكد وانهض . ولكن الأعجوبة الحقيقية حدثت عندما عاد الساحر من رحلته في الأعلى مسترّاً بالبدن العجيب ، بالحياة . فرأى الأرض كيف تبدل «تانقضال» ابنة الأرض ، جلدتها . وعندما غلبها الفضول وتساءلت عن معنى هذا العمل ، تضاحك وانهض وأجاب نيابة عنها : «إنها تبدل جلدتها . إنها تجدد نفسها . إنها تبدع الحياة» . عاد يقهقه بصوت تصدعت له جبال «آلون» . قالت الصحراء : «عجبًا ! ولكنني لم أودع فيها هذا السر» . هنا كشف وانهض عن السر . قال وهو يتلو بالضحك : «هذا سر نالته من الرحلة . هذا أمر استولت عليه من القمة . هذا طريق خطفته من يد الدمية البهاء . الزعيم أراده لدميته المدللة ، ولكن الدمية لم تعرف للسرّ مقاماً ، فمدّت يدي وخطفته من بين يديه . نلت منه ما أراد الزعيم أن يكون وقفاً عليه وحده . نلت بمساعدة مخلوقك الأعجوبة . نلت بمساعدة الحياة . نلت .. نلت ..» تبدل وجهه . جحظت مقلاته . دبّ فيه شحوب . الشحوب استحال إلى ظلال من توتر واحتقان

وسواد . أخرج من كمه عكازاً موشى باطواق الخيزران . لوح به في الهواء . حدق في الفراغ كأنه يقرأ في قرطاس الافق نبوءة فاجعة . أكمل بلغة العرافين : «نلت الحياة .. نلت الحياة .. نلت الحياة..» عاد يهز العصا في الهواء . انحنى نحو الأرض . رکع على ركبتيه . مضى : «.. وهي لابد أن تبدل جلدها كي تبدع السر ، كي تبث الانفاس في التميمة . كي تصنع المعجزة . كي تخلق الحياة . وهي لن تستطيع أن تتحقق الحياة إذا لم تظهر عدواً خفياً إسمه الزمان . بلى . لقد اتخذت منها قريناً أبداً ، وجعلت لها في عصاتي مقاماً خالداً ، لأنها بذلت البدن البائد ، وقهرت الزمان الذي لا يقهـر ..». هنا سمع الساحر سؤال الأرض ينطلق في الخلاء : «كيف استطعت ان تبذر في مخلوقتي هذه الروح؟». قهقه وانتهـيط مرة أخرى . ثم مسح عينيه الدامعتين وأوضـح : «ألم أقل لك ، ايتها الرقعة المجلة ، أني خطفت السر؟ ألم أقل لك أني تخفيت في بدن القرينة الحسناء وأكلنا «آسيار» معاً؟ ها - ها - ها ..». احتارت الأرض : «ولكنـي لا اذكر اني انبـت عـشبـة بهذا الإـسـم!» هـجـع الساحر الى جوارها . لامـس صـدرـها الـذـي حرـقتـه نـيرـانـ الجـلاـدـ الخـالـدـ. قال لها : «هذه عـشـبـة تـنـموـ في قـمـ «ـتـارـاتـ» . وـيـروـيـ حـكـماءـ الجنـ أنـ العـشـبـةـ نـالـهـاـ مـكـافـأـةـ منـكـ يـوـمـ حـارـبـ الغـزـاـ وـحـيدـاـ بـعـدـ أـنـ تـخـلـىـ عـنـهـ جـنـدـهـ وـفـرـواـ غـربـاـ نـحـوـ بـحـرـ الأـوـقـيـانـوسـ . فـهـلـ نـسـيـتـ حقـاـ أـنـكـ صـنـعـتـ لهـ «ـآـسـيـارـ»ـ لـإـشـفـائـهـ منـ الـوـبـاءـ الـذـيـ أـصـابـهـ؟ـ هـلـ نـسـيـتـ حقـاـ كـيفـ بـعـثـتـ

له جندا من الجن ليقاتل بهم الغزاوة مكافأة له على الشجاعة والنبالة والثبات؟ أم أنك ، يا صحراءنا الكبرى ، لا بد أن تنسى جودك في كل مرّة تفعلين فيها خيراً؟». سكت الرقعة الجليلة ، الخالية فعم الدنيا السكون . ولكن الساحر وجد نفسه يفتق ببررة صوت جديد: «أعرف إنك لم تنسى بسبب ضعف الذاكرة ، ولكن لأن ناموس التبل هو الذي يقضي أن تودع الأرض عطاياها بيد النسيان إذا شاءت أن يسمى ذلك جوداً»

الصحراء لم تجب فتمادي في الدنيا السكون .

(٣)

مداهنة الخلق المكابر لم تنطل على الرقعة الوديعة ، ولم تمنع وقوع المشادة .

الرقعة الجليلة استغفلت «وانتهيط». تركته حتى اعياه السفر ، فهجم ونام . تسللت إلى العصا ذات الجوف واحتلست منها الأعوجوبة . صنعت لها من قلبها الكبير مخيّاً ، واحفتها ، بعيداً ، في جوفها . ذلك أن الأرض التي راق لها كثيراً ما صنعت يداتها ، رأت أن استرداد العطية هو العدل إذ احافت في التعرف إلى الخلق البائس الذي عاد به «انتهيط في رحلته المجيدة إلى قارات».

ولكن الساحر القديم فقد صوابه عندما نهض ووجد عصاته فارغة

من اللب ، من الوهج ، من السر ، من الحياة . هام في الخلاء . ناح في الفلوات . مرق لثامه النبيل . حطم صدره بقبضته . ضرب رأسه على جدران الكهوف . ملأ الصحراء الوسطى ولولة ونحيباً وبكاء . اصابه النحول ، وراح يفقد بدنـه . بدأ يتضاعـل ، ويتضاعـل حتى استحالـ خيالـاً وكاد أن يختفي . حزنت الرقعة الجليلة اسـفاً على مصيرـه ، ولكنـها لم تهـبه الأعـجوبة . زحف وانتهـيط على صدرـها يحاـكي الأعـجوبة ظـنا منهـ أنها فازـت بالـحظـوة بـسبـب الـامتـثال الـذـي جـعلـها تـلـمـ الثـرى ، وـتـمـشـي عـلـيهـ زـحفـاً ، وـتـخـذـه وـطـنـاً أـبـدـياً . أـكـابتـ الرـقـعة وـهـي تـشـاهـدـ المـحاـكاـة ، وـلـكـنـ كـابـتها لـم تـبـلـغـ حـداً يـجـعـلـها تـعـيـدـ السـرـ المـخـبـوـءـ فـي جـوـفـها إـلـى الـمـكـابـرـ . هنا توصلـ السـاحـرـ الـقـديـمـ إـلـى تـلـكـ الـحـيـلـةـ الـتـي اـتـخـذـهـ نـامـوسـاً أـبـدـياً استـمرـ منذـ ذـلـكـ الـعـهـدـ .

صـعدـ السـفـوحـ وـتـطاـولـ فـيـ المـرـتفـعـاتـ . رـابـطـ لـقطـعـانـ الـوـدـانـ الـمـقـدـسـ ، وـنـالـ مـنـ القـطـيعـ طـريـدةـ . أـخـذـهـ إـلـىـ الرـقـعةـ الـجـلـيلـةـ وـنـحرـ الشـاةـ الـنـبـيـلـةـ . غـمـرـ التـرـابـ بـالـدـمـ ، فـذـاقـتـ الـأـرـضـ الـظـمـائـىـ طـعـمـ نـداـوـةـ لـمـ تـعـرـفـهـ مـنـذـ آـلـافـ الـأـعـوـامـ . سـالـ الدـمـ ، وـعـرـفـتـ الصـحـراءـ نـامـوسـاً إـسـمـهـ الـقـرـبـانـ !

لم تـتـمـالـكـ الرـقـعةـ نـفـسـهـ فـبـكـتـ ، وـأـخـرـجـتـ مـنـ جـوـفـهـ الـكـائـنـ الـذـي يـمـتـلـكـ فـيـ جـوـفـهـ السـرـ ، وـ.. قـدـمـهـ لـلـدـاهـيـةـ . دـسـهـ وـانتـهـيطـ فـيـ جـوـفـ عـصـاـتـهـ الـجـوـفـاءـ ، فـاستـعـادـ قـامـتـهـ وـعـافـيـتـهـ وـ.. حـيـاتـهـ الـأـوـلـىـ . وـضـعـ

العصا على منكبه ومضي .

ولكن النزاع لم ينته عند هذا الحد ، لأن الأرض التي صنعت من جوفها للسرّ وطنًا لم ترتو بالدم ، بل أن ظمأها ازداد ، وشقاءها تضاعف ، واستولى عليها خواء فاجع ادركت أنها لن تجد للخلاص منه سبيلاً إلا إذا استعادت الاعجوبة من كف الساحر .

(٤)

ورد في «أنهي» أنها ناحت على «تانضال» الفقيدة دهراً .
وعندما نال منها الزمان ، وشارفت على اليأس ، اهتدت إلى حيلة
صارت ، فيما بعد ، أمثلة الأجيال ، ومثالاً سار على هديه السحرة .

مدت يدها إلى «تادرارت» ونقشت على الواحة الهائلة الفخ العظيم الذي بقي مطبوعاً على صخورها حتى يوم الخلق هذا . يتبرك به الرعاة ، يعبده الجنّ ، ويأتيه السحرة من الصحراري المتاخمة للادغال ليستغروا منه سلطان السحر ، ويستمدوا من صورته التمام والطلاسم .

الفخ هو الذي سرق اللب من وانتهيط ، وأعاد «آبا» * الضائع إلى البيت ، إلى الوطن ، إلى حرم الأم . لم يعد إلى الحرم في الحال ، ولكن مراسيم الميلاد اقتضت أن تتدفق الوديان بالسيول طويلاً ، وتمتلئ البحيرات في أرض تارات بمياه كثيرة ، قبل أن يحل الميعاد الذي تمثل فيه «تانضال» الضالة وتقع في الشرك . ولم تنس أن تتمتم طوال الوقت

* آبا (أو إباه) : هو الروح ، وهو العدم أيضاً (عماهق) .

بـ «تأنضال ، تأنضال ، تأنضال» لأن الساحرة تعرف أن الفخ لن يكتمل إذا لم تنطق بالأسم . لم تكتف الرقعة الجليلة باقتناص ضالتها ، ولكنها دبرت لها حصنًا أبعد مناً هذه المرة . أخرجت من جوفها طينا نفيساً ، شوته بفيض المجلاد السماوي ، وصنعت منه الوعاء . أقامت قلة فخار دائيرية الشكل ، بيضوية في صورتها ، وكسّت بها «آبا» . صنعت منها قشرًا لـ «اللب النفيس» . حفرت لها في جوفها السفلي البعيد ، الظلم ، مخبأً . حفرت انفاقاً ومسالك ودهاليز ومتاهات ، وأخرجت إلى النورائقالها . همت أن تدس في المتأهنة الظلماء كنزها ، ولكنها استدركت . تعلمت الحيلة ، ورأت أن تلجمًا إلى التمويه وإضاعة الأثر . صنعت من الفخار صورة الحسناء ووضعتها في الجرة ، ثم تفكّرت وانتظرت طويلاً حتى اهتدت إلى التبر . استخرجت من أحشائهما ذرات المعدن اللعوب ونشرتها في الجرة . اطمأنّت إلى عملها فأخذت الكنز وخباته في جوفها . في الدهليز . في المتأهنة السفلية الظلماء . تمددت الرقعة الجليلة بعد تعب طويل ، وسرى في بدنها الصفاء . ذلك الصفاء الذي أطلق عليه سحرة الصحراء وعرّافوها ، فيما بعد ، إسم «السعادة» . ولكن هيئات أن يتمتع بالصفاء من اتخذ من وانتهيط خصماً ! هيئات أن تكتب الديمومة لنصر تحقق في عراك مع من لم يرد أن يعترف بالهزيمة ! وهيئات أن تفلح حيلة ، أو تنطلي على من صنع الحيلة ، وابتدع سيرة الحيل من أولها !

(٥)

وانتهيط سخّر ذلك الفريق من البلهاء الذي رأى أن الحياة في طلب الكنوز .

البلهاء دسوا رؤوسهم في الاسفل وعرفوا الطريق الأسفل . البلهاء بحثوا وعثروا على الدهلiz . البلهاء طلبوا فوجدوا السبيل إلى المتأهة الظلماء . البلهاء وجدوا لأن من جدّ وراء التبر لن تخفي عليه خافية . البلهاء ذهبوا وراء البريق المزيف فقدوا وانتهيط إلى اللب ، إلى «تاغضال» ، إلى «آبا» الذي لا يقاس بشيء لا في الصحراء ولا في السماء ، ولا يقدر بشمن لا في الصحراء ولا في السماء .

يدخل وانتهيط إلى الحرم السفلي مهتميا بالبلهاء ، مستثيراً بالفيسن السماوي ، بالقبس البكر الذي زرعه الزعيم في سلالتهم عندما نفح في الدمية الأولى من انفاسه . في هذه المرّة تمادي الساحر في رسم الحيلة فاستبدل القربان . لم يستبدل في عيون البلهاء ، وإن استبدل في عين الأرض ، وفي عين الحقيقة . عرف أن نحر الودآن المقدس لا يكفي لاسترداد أمر نفيس كالحياة ، فطفق يمسخ أقارب الباحثين عن الكنوز وذويهم ، ويحولهم إلى أنعام ودبعة . يمسخ أب هذا إلى تيس ، وأم ذلك إلى معزى ، وولد ذاك إلى جدي شقي قبل أن يضع في أيديهم المدية ويأمرهم بجرها على النحر . وكانوا ينحرون ذويهم دائمًا كي يفوزوا بالكنوز .

وعندما كان الدم يتسلل إلى عروق الأرض ليَلْبِي قلبها ، ويجعلها تتنازل عن العطية ، كان وانهيط يحرص أن يترك للبلهاء كنزهم المزيف ، ويأخذ لنفسه الكنز الآخر ، الكنز الحقيقي ، «آبا» ، الحياة .. الحياة . الحياة . الحياة ...

(٦)

.. ظلت سلالة البلهاء تتهمن بالخدية ، وتنعنه في تراثها بالساحر اللئيم ، ولكنها لم تتوصل للسر ، ولم تعرف كيف خدعها ، ولا أين حدثت الخدعة ، ولن يكتب لهذه القبيلة البليدة أن تدرك السر أبداً الدهر ، لأن من ختم على قلبه بالبلادة منذ البدء ، لن يكتب له أن يقف على السر إلى الأبد .

هذا ما ورد في وصايا الأولين ، وتناقلته الأجيال في رموز حفرها السحرة على صدور الجبال ، وصارت ، مع تدفق الزمان ، شرائع للحياة ، وناموساً للتبيه ، اطلق عليه الكهنة اسم «أنهي» .

١١ - العابرون

« فجاءني العقل والنفس ، وجاءني العلم والمعرفة . فقال لي مولاي : جزها إلى عابرًا . أنت عابر كل شيء ، وألقها إليهم ، وأعهد إليهم أن يتنوّا بها بيوتاً ، فإنها هي مبلغهم ، ليفارقونك وتفارقونهم ، فما هي بيتك ، ولا أنت من سواكن بيوتها أبد الآبدين » .

م . ع . التّفري
«المواقف والمحاطبات»

* * * *

« وجعلت أمّام بني الرّكابيين طاسات ملأة خمراً وقادحًا ، وقلت لهم: أشربوا خمراً ، فقالوا: لا نشرب خمراً لأنّ يوناداب أبانا أو صانا قائلًا: لا تشربوا خمراً أنتم ولا بنوكم إلى الأبد ، ولا تبنوا بيتك ، ولا تزرعوا زرعاً ، ولا تغرسوا كرماً ، ولا تكن لكم ... ، بل اسكنوا في الخيام كل أيامكم ، لكي تحيوا أيامًا كثيرة على وجه الأرض التي أنتم متغربون فيها » .

سفر إرميا (٣٥ : ٤ ، ٥) .

(١)

أهل التّيَه يأتون دائمًا .

لا يفلح الجدب في اعتراضهم ، ولم يوقف القبلي اسفارهم . لم ترهبهم قلة الزّاد ، ولم يعترفوا بالظلمأ . اعتنقا ديانة الاسفار ، فصار لهم التجوال وطنأ . ويقول العرّافون والسحراء القدامى أن الهجرة امتياز موقوف على أهل الصحراء . ولو لا هذه العقيدة ، لما كان أهل الصحراء أهلاً لأن يحملوا لقب أهل الصحراء . وسبق أن ورد في «أنهي» المفقود أن المدى المديد لم يقبلهم في أرضه الواسعة إلا بعد أن رأى أنهم لا يجدون في الاستقرار لذة ، ولا يعرفون لهم غير الاسفار دينا ، لأنهم يرفضون أن يخدشوا وجهها بالفؤوس ، أو يحرثوا صدرها بالمحاريث كي يبذروا حبأ ، أو يزرعوا زرعاً ، أو يغرسوا كرومأ ، كما يفعل الفلاحون وأهل الواحات ، ولكنهم آثروا أن يسكنوا الخيام ، ويأخذوا من الأرض ما تعطيه لهم عن طيب خاطر ، لأنهم ضيوف تائهون نزلوا في رحابها ، ولا يليق بالضييف أن يمزق بدن المضيف كي يغتصب منه طعاماً . وقد نالوا بهذا المسلك النبيل مكافأة . اغدقوا عليهم الصحراء بسخاء . نالوا التّرّفاس ، وأكلوا أغرارام * . شموا عبر الرّتم ، وعرفوا السكون . ذاقوا انفاس ريح الشمال المبلولة بالنّداوة ، وفي القلب نزلت سكينة . فماذا يتغيّي الغريب في ارض الغربة أكثر من هذا النعيم ؟

(*) ترّفاس : الكما . أغرارام : عشبة صحراوية تؤكل نيئة .

أوليسوا أغراياً ساقتهم القدر الى ارض الاغتراب والمنفى؟ ألم تلقنهم القدر نفسها تيمة التمام عندما أوحت لهم بوساطة الرؤى قائلة أن أئبل الضيوف وأقربهم الى قلب السماء هم أولئك الذين لم ينسوا مبدأ الضيافة على الأرض الغريبة ، وساروا دائمًا وفق ما ي عليه ناموس الأغراي؟ ألم تلهمهم بالسلوك الذي يحرم تمزيق وجه الأرض بالمحاريث ، أو طعن جسدها بالفتوس الفظيعة ، أو تقطيع اطراف الاشجار الخضراء ، أو قتل شاة الودان التوج ، أو تبديد الماء في الفضاء ، أو ... ؟ ألم تخبرهم على لسان الكهنة الآخيار ، أن تلك الاعمال هي رذائل يرتكبها العبد الرذيل الذي ارتضى حياة الاستقرار ، ولكنها لا تليق بعاير السبيل النبيل؟

آمنوا بالناموس فاحتقروا الفلاحة . أخذوا بوصايا الكهنة الاولى فاستنكروا الحراثة والزراعة وانتهاك حرمة الارض العذراء . اتبعوا المسلك الذي يليق بالأغراي في الارض الغريبة فسنوا شريعة تحريم إتلاف الشجر الاخضر ، وتعاقب كل من أفسد في الأرض الغريبة ، أو أراق السلسيل في الفضاء ، أو أهرق دم الشاة التوج ، أو كسر اطراف الشجر الاخضر . أما من شاء أن يخرق الناموس ، ويخالف الوصايا ، ويشرم عن ساعديه وساقيه ، ويحترف الفلاحة وحرث الارض بالمحراث ، فقد نزعوا عن رأسه اللثام ، وجردوه من النبالة ، وقطعوا أصله من سلالتهم ، وحرموا ذريته من الانتماء الى ملتهم . لأنه ارتكب

الخطيئة ، وخالف الناموس ، واقترف الخيانة . ولما كان جزاء الخائن في
محو أثره من القبيلة ، ومن الصحراء ، ومن الحياة ، فقد توصل
سحرتهم إلى أن حرمان الذرية من الانساب إلى الملة هو السبيل الوحيد
لإنزال قصاص الحو في حق الخائن . ولكن الصحراء لم تعرف خيانات
من أبناء القبيلة المهاجرة إلا نادراً جداً . وحتى إذا حدثت خيانة فإنها
تصير علامه ، يوماً مشهوداً ، تارياً تستشهد به الأجيال . فتقول القبيلة
في ميراثها الطويل : «هذا حدث في العام الذي تركنا فيه فلان ابن فلانه
وسكن الواحة» ، أو «هذا حدث في العام الذي سبق وقوع العار الذي
ارتکبه فلان بن فلانه عندما خان وبذل سكينة الصحراء بخمول
الواحات» أو «هذا حدث بعد عامين من فقدان القبيلة لفلان ابن فلانه
الذي هجر الصحراء ودخل الواحات البعيدة» . وكانت الشاعرات
يجدن الفرصة للعن الخونة بالأشعار . وأشعار الشاعرات الموهبات هو
ما يخشاه «الخونة» في القبيلة أكثر من خشيتهم للعار نفسه . لأن
الغريب الذي دخل أرض الأغраб يوماً ، ولم يوجد ما يتسلّى به في
اسفاره الطويلة غير الأشعار هرع لمساعدته الزمان فسن ذلك التقليد
الذي صار تراثاً يتوارثه الصحراوي من جيل إلى جيل ، ففكفت الأشعار
أن تكون لغة الصحراء ، بل صارت الحياة نفسها . ثم سار بها الأمر
فأصبحت أسمى حتى من الحياة . إذ ما لبث الزمان أن خلق منها هاجساً
إلهياً أعلى تحول يوماً إلى إله . فإذا ارتکب ابن الأغраб فعلًا رآه ناموس

القبيلة عاراً ، فإن إبن التيه لا يخشى أن يتلقى أي فصاص جزاء هذا العار ، ولكنه على استعداد أن يغيب في باطن الأرض ، ويتمنّى أشد التمني أنه لم يولد ، ولم يطأ الصحراء ، إذا عرف ان هذا العار سوف يدخل في الأشعار ، ويتحول بيتاً في افواه الشاعرات . إنه يدفع حياته وهو في غاية الفرح إذا كان ذلك سببته له سكوت الشاعرات . ويروي «أنه» الضائع أن الشعر في تاريخ القبيلة قد حصد من الأبطال والنبلاء أكثر بكثير مما حصدته الاوية والجماعات وسيوف الغرابة . ويروي الكهنة أن عهوداً كثيرة مرت بالقبيلة سنت فيها شرائع تمنع الفتيات من قول الشعر بعد أن اكتشفت السحرة أن الأشعار صارت تشكل خطراً يهدد القبيلة بالزوال . ويقال أن الرواة أجمعوا أن لا شيء أعنّر من تحريم الشعر . والتجربة أثبتت أن نظم الأشعار في القبيلة تواصل سراً ، في ذلك الزمان ، برغم صرامة الحظر ، وبرغم قيام الكهنة باستئصال السنة عشرات الشاعرات اللائي غلبهن مواهبهن فدفنن إلى آغرم ندادن » بالعشرات من أشجع الفرسان وأكثرهم نبلأ .

والخوف من الاشعار هو سبب هلاك ذلك «الخائن» الذي تتحدث عنه تلك الرواية التي تتناقلها القبيلة إلى اليوم . فيقال أن «بو - بو» ارعبته الاهوال و خاف الظماً والوباء والجوع ، فترك ابنه الرضيع في احضان إمراته وفر إلى الواحة . عاش هناك سنوات ، غاص في الأرض وتطاول في التخيل . طعن الطين بالفأس وانتهك حرمة التراب . تنعم

بطعام الارض ، ولكنه فقد سكون الصحراء في قلبه . نال نعم الطين ولكنه لم يستمتع بالخيرات لأنها نالها من الارض غَصْباً ، فافتقد السكينة وشبّ في قلبه الحنين . تجوّل في الروابي المجاورة حيث تنتهي حدود الواحة وتبدأ شطوط الصحراء . تغنى بالمواويل القديمة ، وعزّى نفسه باشعار تمجد التخلّي ، وتمدح النبل والزهد والبطولة . ولكن الأغاني توقظ الأشجان ، ولا تزيد الإبن الذي أتى الصحراء غريباً ، إلا الشقاوة والاحزان . عاد إلى كوخه المشيد من سعف النخل ، وأخذ من سرجه القديم رقعة من جلد الغزال . خطّ عليها رمزاً بـ «تيفينااغ» موجهاً إلى الزعيم . قال له أنه سيقطع نحره إذا لم يغفر له ويأذن له بالعودة . خرج إلى سوق الواحة وسلم الرقعة لأول مسافر إلى الصحراء الثانية . انتظر «بو - بو» ولكن الرد المنتظر لم يأتي . رسم رقعة أخرى ، فلم يتلق رداً أيضاً . غالب الحنين زمناً ، وعارض كبرياءه زماناً آخر ، ولكن الشعلة الخفية ، الحنين الفاجع ، الشوق إلى الوطن المدهش ، إلى السفر والسكنون ، هو الذي غالب في آخر الأمر ، فوجد «بو - بو» نفسه يقايض الأرض والنخل والزرع وكل ما ملكت يمينه في الواحة مقابل جمل يعبر به المسافة ، ويمضي به إلى الوطن . تبدّلت مضارب القبيلة قبيل المغيب . هرع لاستقباله الصبيان . تجمّعوا حول المهرى المتعب فنزل عن السرج ووزع عليهم حبات التمر . رأى في أحد الصبيان علامات خفية رجف لها قلبها . تقدم منه وسأله بوقار النباء : «ميكيائيلن؟»*

(*) ميكائيلن: من هم أهلك؟ (عاهن).

فأجاب الصبي وهو يجرّد الحبة من التمر ويدس النواة في جيب جلبابه : «أنا أبن تميما». ارتجف قلب الأب ، واحترق الصدر بالنار ، ولكن الوقار كان أقوى حتى من عاطفة الابوة . أراد أن يداعبه فمضى يسأل : «ولكن من هو أبوك ؟ لا تعرف لأبيك إسماً؟» . هنا قال الصبي : «أبي هو من قالت فيه الشاعرة ...». وانطلق ينشد . في البداية انشد الهجاء الفظيع إنشاداً . وعندما انتهى من التهام حبة التمر ، حك شعر رأسه الذي يشطر رأسه إلى نصفين على طريقة عرف الديك ، وأخرج من جلبابه نواة التمر ، طفق يمضغها ويتغنى بالقصيدة التي تلطخ أباه بالعار الأبدى . ما ادهش الأب هو الطريقة .. فقد تلذذ بالأبيات ، بالعار ، بالهوان ، كما تلذذ بالرحيق الذي يتصه من النواة . القصيدة تحدثت عن هجرته . قالت الشاعرة أنه استبدل السيف بالمعول ، والمهري النبيل بالحمار البليد ، ونجموم السماء الوضيّة بسفف الحيطان الظلماء ، ولم تر القبيلة فارساً القى بنفسه إلى الموت هرباً من الحياة ، كما فعل هو «بو - بو» ظاناً أنه .. تحدثت الانشودة الفظيعة عن أفعالٍ كثيرة ، ومخازٍ أكبر ، ولكنه لم يتبع الأبيات .

أناخ الجمل ، وقفز في السرج . انطلق في الخلاء مصمماً أن يختفي إلى الأبد .

بعد يومين عشر الرعاة في الوادي المجاور على جنة فارس مفتوح العينين ، مقلتاه تحدقان في الفراغ ، ظهره يسنده السرج ، لباسه تلوث

بدم تيّس ، ولكن الدم في نحره كان ما زال نديّاً .

(٢)

تبدي الجبارين كما يتبدى لكل المهاجرين الأبديين .

تمادى القرص ، عبر إلى العرش . سكب فيض النار فكتم انفاس الصحراء ، وأمات الريح . اختنق الوادي وحلت القيلولة . ركض الفيض في الوادي كما تركض السيول . تدفق عبر المنحنيات والالتواءات واعتلى الصخور . داهم الطلع واقلع الاعشاب البرية الميتة . تراكمت الزواحف واعتصمت بالحفر والجحور . تنادى الطير في الاعالي واحتمنى بالأوكار المعلقة . التف حول رجليه لسان الفيض وداعبه بمسلك ثعبان الادغال قبل أن يعبر ويمضي عبر مجرى الوادي . تابع لعبته الشقية وهو يداعب الحجارة في طريقه ويشaks الاشجار . يوقد فوق رؤوس الحجارة شعلة سماوية اللون ، ويحرز سيقان الطلع فتسبح فروة الشجرة في الفراغ . ينزع فروة الشجرة ، ويضعها على قامة الصخرة . يجعل للحجارة اخرساء شأنأ ، ويأخذ الحياة من الطلع المكابرة . يحيي الاموات ، ويميت الاحياء . يعيد خلق الاشياء والكائنات وفق ناموس الهرء والسرخية . يدور حول نفسه ، يتحلق ، يرقض ، يتندع في خلق كائناته ، ليبعث في الافق خلقاً يدبون على الاقدام . يحاكي كهنة الجن فيأتي الى الصحراء بألوان لم تعرفها الصحراء . يبعث القوافل من المجهول ، ويشيد الأبنية الخرافية في غمضة عين . يقيم

اسوأّاً تكتظ بخلق لم ترهم عين ولم تسمعهم أذن ، ولم يخطروا بقلب بشر ، ثم يجعل من الأفق البائس وطنًا لكل هذه القيامة . ولكنه يستدرك ، ينشر حوله بسمة السخرية ، ويحو من الصحراء ما خلق ، ويمضي الى الامام ، عبر امتداد الوادي ، بكبرياء إله قديم . ابتسם جبارين أيضاً . راقته المخلوقات التي ابتدعها الإله الساخر ، وتمتع بروية حسناء نبيلة كانت تتجلو في السوق المجهول . تتلحف بـ «تاير كامت» مشبعة بلون ارجواني ، تتلامع خواتم الفضة في أصابعها وتحده من حين لآخر ، بنظرة فضول تنطق بوعد . العينان أكثر ما أثاره في الحسناء . كانتا كبيرتين مثل عيني غزالة ، كحلاوين مثل عيني غزالة ، وديعتين مثل عيني غزالة ، واعدين مثل عيني غزالة . التفتت إليه . توقفت . كأنما أرادت أن تخبره بسرّ . ولكن اللعب لم يمهله . خسف بها الأرض ومحاها من الصحراء ، من الأفق ، من الحياة ، مرة واحدة وإلى الأبد . قبل أن تخفي رأى أنها شيعته بنظرة حزينة ، كأنها تودعه إلى الأبد . كأنها تريد أن تقول أنها لن تستطيع أن تخبره بالسر لأنها لا تستطيع أن تتمرد على إرادة الإله . كأنها تقول أنها ستلاشى ، ستمضي الى مملكة المجهول لأنها لا تنوی أن تخالف الناموس . ناموس الاشياء ، ناموس الخفاء ، ناموس الفناء ، ناموس السراب .

عندما حدث الحو أكتاب ولعن السراب . ولكن الكائن اللعب واصل لعبته . مضى عبر امتداد النهر الميت ، بلغ المنعطف حيث ينحرف

الامتداد وينكسر الوادي شمالاً . هناك ادرك ضالته . هناك استقبل المهاجر كضيف نبيل . في البداية أقام له مهرجاناً لا يقل جمالاً عن مهرجانات القبائل التي تقيمها في تارات ابتهاجاً بفك التحرم عن الحرم . بعث الفرسان من المجهول ، وأتى بالمعنويات من أبعد المالك ، والقى بالجمهرة على السفح . رقصوا له وغنوا . تراكمض في وجهه الفرسان ، وتحلقوا حوله . زغردت الصبيا وناحت الشاعرات بمواويل الاشجان . ولكن ..

ولكن المهاجر كان المخلوق الوحيد الذي تجاهل الفرح ، ولم يعبأ بالمراسم . رمق المهرجان ساخراً ، ومضى في سبيله .

اغتاظ السراب ، ورأى ان لا مبالاة المهاجر تشكيك في مواهب اعترف له بها الجن قبل الإنس . محا المهرجان بإشاره عابرة . تبدد الفرسان ، وتلاشت الحسان ، وسكتت الشاعرات عن الغناء . تفكر اللعب مهلة ثم اهتدى الى حيلة جديدة . قام واعتراض المهاجر بالفيض . رأى أن ينزل به القصاص فدفع في وجهه بالسيل . تدفق النهر القديم ب المياه لم يعرفها منذ دهور طواها النسيان . ولكن المهاجر العجيب لم يعبأ . خاض في الغمر ، ورفس الفيض ، ولم ينحن ، ولم يرتو من ظماً السفر الطويل . مشى بوقار النبلاء ، رأسه مشيئ الى الافق البعيد على طريقة العابرين الاجلاء الذين ادر كانوا السر فلم يطلبوا في الاسفار كنوزاً ، ولم يبحثوا في الارض عن «واو المفقودة» . على وجوهم

تصميم ، وفي عيونهم ابتسامة ساخرة .

السراب لم يستسلم .

قام وطارد المهاجر من جديد ، صمم أن يجرب التزال هذه المرة ، فاندفع نحو خصمه ، والتحم معه في مشادة . امسك به من ساقيه ، فصلهما عن البدن ، شيعهما في الفضاء ، ثم القى بهما جانباً . رأى أن ما فعله حسن ، فالتفت إلى خصمه ، ولدهشته وجده لا يعبأ . في عينيه نفس التصميم ، في عينيه نفس الابتسامة الساخرة . وبصره معلق بالأفق الجھول ، يضع على منكبيه عکاز القصبة الذي تلمع على مفاصله اطواق من معدن النحاس .

أحس الكائن اللعوب باليأس لأول مرة في تاريخه ، وعرف أنه يواجه مخلوقاً ليس كبقية المخلوقات .

(٣)

العراد مسع من رأس جبارين سيرة الحسناء ، وأعاده إلى الصحراء .

تابع الخصمين وهما يلتحمان في البعد ، في الأفق الآخر ، حيث ينحرف الثعبان الذي يشق الجبل إلى نصفين ، وينكسر صوب الغرب في انعطافه الثاني . الالتحام ألهاه عن بورو . عن الأثر الموحش الذي خلفته «تانمضال» على التراب . عن الضريح المنتهك في الجوار . عن دم تعلق

بثياب القرین النائم . و .. عن ندبتي انحسر عنهمما لثام بورو : ندبة في الجبين ، حدیثة العهد ، تخثر دمها ، و تیست عليه ذرات رمل ، حامت حولها أسراب الذباب . و .. ندبة أخرى ، أقدم عهداً ، عميقه ، قاسية ، أصابت الرأس فشجّة ، حصدت الشعر ، و شقت في اللحمة طریقاً اقشعر لعمقه و قساوته بدن جبارین ، فانحنى فوق الجسد الطريح ، و تأمل العلامة الفاجعة طويلاً .

حام حول الجسد ثلاث مرات . رفع رأسه الى الحية التي سكنت جلمود الاسلاف ، و راحت تشاهد الأفق على طريقة العابرين الأبديين . مضى بيصره الى حيث سدت نظرة السر والسخرية والتيه فوق نظره على الكنز . على ضريح الاسلاف . على «ادبني» الذي اعتلى السفح ، و امتدت إليه يد الجن ليلة البارحة . يقيناً أنهم الجن . فبالأمس ، عند الغسق ، جرى العراك مع عتاتهم بسبب كوم الحجارة نفسه . بسبب الكنز . بسبب الضريح . ولو لا تدخل المارد «بوشا» لأصحابهما الهلاك . وها هم يتنادون في ظلمة الليل ، ويزيرون الحجارة عن فم الضريح . فهل نقلوا كنوزهم الى موقع جديد بعيداً عن متناول الانس ، أم أن اغراياً من أهل السحر اقتحموا الحرم ليلاً ، وعرفوا كيف يفكون
الطلسم ؟

تذکر العلامة فعاد الى بورو . رکع فوق رأسه . تابع انفاسه . صدره يعلو و يهبط مثل صدر طفل وديع . انفرج الجفن الأيمن عن حدقه

تبَدِّي فيها البياض مثل خط القبس البكر في غياب الفجر . خيط من العرق انبجس من دغل الشعر المفلفل ، المزروع بشيب كثثار الفضة ، وجرى عبر طرف الجبين الأيمن . اخترق هلال الحاجب ونزل حتى بلغ الجفن . لمع يومياً غامض قبل أن ينكسر ويدور إلى الأسفل ليسيل فوق الخد . هناك يرتطم الكتَان . هناك يتلقفه اللثام ، ويمتص نداوته بلهفة التراب الظاميء ، بنهم الأرض العطشى التي حرمت من السيل ، فاختفت بالختين ، وحملت للندي نداء الأزل .

عاد يتفقدَ الوسم .

انهمرت على الأخدود خصيلات شعر تخللها الشيب . ازاحها فعادت تستر الجرح القديم بعناد . استتجد باللثام . شدَّها بالكتان ولكنها طافت تتوثب وتحفر كأنها تتوعد الكف التي كشفت السر . الآن تبَدِّي الشرخ كاماً . شطر الجمجمة إلى شقين . تمدد عند قمة الرأس وأتسع في الحجم . في حين تضاءل ونحُف في نهاية اللسانين حتى تبدد في كلا الطرفين . بدا ، على هذا النحو ، مثل نحر ذبيح ، مثل ثغر قبيح لحيوان مجهول . مثل كعب الانشى ، مثل تكشيرة جنٌ في ظلمة الليل . مثل .. مثل بسمة وعيـد من جمامـج الـأـمـوـاتـ، بـسـمـةـ وـعـيـدـ منـ جـمـجمـةـ بـورـوـ .. بـسـمـةـ .. اـشـتـعلـ الـبـدـنـ بـقـشـعـرـيـةـ . اـسـدـلـ الـكـفـنـ عـلـىـ فـمـ الجـمـجمـةـ . أـخـفـىـ تـكـشـيرـةـ الـوعـيـدـ بـقـطـعـةـ الـكـتـانـ ، فـرأـىـ كـيفـ سـبـقـتـ خـصـيلـاتـ الـشـعـرـ لـاخـفـاءـ فـمـ التـجـوـيفـ . تـأـلـقـ فـيـهاـ الشـيبـ تـحـتـ شـعـاعـ

القيلولة . فغمزت بالإشارة ، وقالت باللغة الخفية : ألم أخبر أن تخترس ؟
ألم أشر بالابتعاد عن وطن السرّ اينما وجد ؟ ألم أحذر من الاقتراب من
موقع كل خفي ؟ ألم أنا بتجنب الاشياء التي تسيء المخلوق إن عرفها ؟
الم أعاند في إخفاء الأثر وستر السرّ ؟ ألم أكن أكثر رحمة بك وأكثر
شفقة عليك من نفسك على نفسك ؟

فرّ فرعاً . فرّ كأن الشيمة المطبوعة على جدار الجلمود قد
تحررت من الأسر ولدغت عقبه .

في تلك الومضة تململ بورو ، وبدأ المهاجر يهزم الخصم اللعوب ،
ويتحرر من الغمر ، في الطرف الآخر من الوادي .

(٤)

ظن جبارين أن المسافر قد نجا . ولكن اللسان اللعوب لاحقه بعداً
الأبطال . أشعل في الرقعة حريقاً إلتهم الاحراش السفلية ورؤوس
الأشجار العالية . امتد الحريق إلى اطراف المهاجر . اشتعل جلباه بالسنة
النار . حامت فوق رأسه ذيول الدخان . بدأت اسماله تتهاوى وتشتت .
الكم الأيمن انفصل عن الثوب وتبدد مع ذيول الدخان ، والكم الأيسر
رفف يأس واستنجد بفروة طلح لم تصلها ألسنة اللهب . تمادت النار .
استسلمت لجنون أشرار الجن فامتدت إلى الإمام ونالت البدن . اخترقت
الجسد فامتلاً الوادي برائحة الشياط .

الشياط انزع بورو من رقده ، وأخرجه من الدائرة .

هب واقفاً . وجهه موسوم بخطوط العرق ، والذباب ما زال يحوم حول الجرح الأسفل ، تفقد الوادي بنظرة غائبة . أنهار اللثام وتكون عند قدميه ، لم يهرع إليه ، ولم يشده حول رأسه . رفع عينيه إلى قرينه وحدق فيه بعينين ساهمتين كأنه يشاهد مخلوقا آخر يراه لأول مرة . ثم انحنى وراقب القيد الذي يحيط بيده ويكتب يديه ورجليه . راقب الطوق الذي خطه «بوشا» بالمدية كي يجعل له حصناً يقيه غارة الجن . تأمل الحلقة التي آمنته من خوف ، ورأى أثر الغزوة التي قامت بها الكائنات البرية في الليل . هذا مخلوق أقبل إلى مهجع الانس طمعاً في فتات الحبز ، وهذه «تامضال» انفصلت عن مخبئها المثبت في الجلمود ، تحررت من الأسر ، من الشرك ، ونزلت تسعى وتطلب رأس الفأر . خلفهما تدحرج الكائن الذي يصنع من بدنها المسلح بالأشواك حجر الزاوية في بنيان الثالثون . يأتي كرة مستديرة ، حاملاً في جوفه نبوة توميء بلغة المخلوقات السرية قائلة أن سر تلك الدائرة المحفورة على التراب ، من سر هذه الدائرة المشيدة من كوخ الاشواك ، وإذا أقبلت كرة الشوك تدحرج ليلاً ، فإنها لا تأتي لتصيد طعاماً يسد الجوف كما تفعل بقية المخلوقات الليلية ، ولكنها تجيء لتنظر العلامة ، ترابط لتشهد ميلاد القبس . تصbir وتنظر تحرر كائن السر من ملکوت الأسر . تستطيع ان تكمن في المخاب دهراً كي تناول رأس الحياة مرة واحدة . كي

تختطف الرسالة مرة واحدة . لأن المخلوق ليس في حاجة لنيل السر مرتين . وليس في الصحراء كلها من عرف قدر الحياة وادرك شأنها الخفي مثل القنفذ . وهو الحيوان الوحيد الذي تخافه الزاحفة الخالدة ، ليس تقديرأً لمواهبه القتالية ، ولكن لأنه الوحيد الذي ادرك السر ، وعرف كيف يستدير ويصنع من جسمه حلقة مبهمة .

عندما هم بالخروج من حرم الطوق انهمك بورو يتمتم بالتمائم . ولم يتوقف عن التمتمة حتى عندما هرع الى الامتعة وبدأ يصب الماء من فم القربة .

صب الماء في وعائين نحاسيين مطليين بمعدن القصدير . حملهما بحدر ونزل عمق الوادي مهرولاً .

تابعه جبارين .

ترنح وكاد يقع مرتين . تألق الماء تحت شعاع القيلولة ، فاحس جبارين نحوه بشفقة . بدا بائساً برأسه الحاسر ، وبشرته النحاسية التي تميل الى الرماد ، ولهفته الأبدية في معاندة الزوال والخروج الىظاميين، حاملاً في يده وعاء من قصدير يحوي سائلًا عجيباً لا يصير ، بالنسبة للظامىء، سبباً للحياة ، ولكنه يصير الحياة نفسها .

استعاد اليوم الذي نزل فيه ضيفاً على بورو . وتذكر المراسم الجليلة التي سن بها الميثاق ، ووطّد عهد القرآن . تساؤل : كم عابر سibil

ظامي ء يا ترى أسره بورو بالماء ، وصنع منه أخاً ، صنواً ، قريناً ، إلى الأبد ؟ كم مهاجر من قبائل الانس ، وكم مسافر من قبائل الجن ، أعاد له بورو حياة ضائعة ، فسلسله ، بذلك ، بأغلال لن يجد للتحرر منها سبيلاً إلى الأبد ؟ . وها هو الآن يكرر نفس الحيلة مع النائم الجديد . ها هو يتقدم منه ويرش بدنه بماء الوعاء الأيمن ليطفئ نار الحريق . ها هو يبدأ الطقوس : ينطق بالصلك قبل أن يختمه بداد السلسيل . يترنم بأسفار العهد قبل أن يضع القيد في رقبة المهاجر . يتمتم بالتعاميم التي لن يحدث بدونها رباط ، ولن يتلشم بغیرها شامل المخلوقات .

ها هو يحكم الوثاق ويقدم الوعاء .

ولكن هل ينتمي النائم الجديد إلى ملة تعتنق شريعة الحياة وتؤمن بناموس الاحياء ؟ . هل يعترف القادر الجديد بأغلال العهد ويعرف للدين ديننا ؟

(٥)

يشطر أهل الحكمة المسافرين إلى ثلات ملل ، ويقسمون الملل إلى ثلات إلى ثلات فرق أخرى .

الملة الأولى : قوم يغزون الصحراء في افواج محمومة ، في مواسم معلومة ، كأنهم ، في إقبالهم ، على ميعاد . كأنهم يداهمون الخلاء بموجب إتفاق خفي ، أو وفق عهد قديم ، صادق عليه اسلاف

الملة في زمن مجهول لا يذكره أحد ، واورثوه للخلف مزبورةً على رقع نفيسة من جلود الغزلان ، فينطلق الأبناء ليداهموا الأرض البكر ، فلا يلبث أهل الصحراء أن يكتشفوا أن الأرض قد امتلأت بالاشباح التي يتناهبيها السراب نهاراً ، وتحتفى في الظلمات ليلاً . يزحفون من الغرب ، من ناحية البحر المحيط ، كأن الأوقيانوس المجهول هو الذي يلدهم ، كأن الأوقيانوس يلفظهم ويدفع بهم إلى الصحراء مسلحين بكلمة السر . وبرغم انهم لا يأتون إلا في امواج تتلاحق ، إلا أنهم لا ينتقلون في جماعات ، ولا يلتئمون في فرق على طريقة تجارة القوافل ، ويأبون إلا أن يخرجوا فرادى . ولكن دهاتهم يعلمون أن توحدهم كاذب ، وعزلتهم مزيفة ، ورحلتهم محاصرة بالأعداء مهما اعتزلوا في الخلاء ، وسفرهم محفوف بالخطر مهما تكشفت لعيونهم الصحراء عارية من الخلق . لأنهم يعرفون أنهم واقعون تحت رقابة عيون لا تسمى إلى قبائل الجن التي تترصد كل من انتوى طلب الكنز ، ولكنهم مطاردون بقوى تفوق الجن سلطاناً وشراً ولوّماً عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الذهب . فهم ملاحدون بذويهم من أهل الانس ، وكل مسافر من هذه الملة يقلب الآية ، ويتحول ليه إلى نهار ، ونهاره إلى ليل ، منذ أن يبدأ رحلته في طريق الصحراء . فيسهر ليه خوفاً من أن يستغفله ذوو الكيد ، فيتلقى من أيديهم طعنة غادرة وهو يغط في النوم . وهي لعبة قديمة أتقنها طلاب الكنوز حتى تحولت إلى تقليد أصبح جزءاً

من تراثهم . ويقال أن الكناز يلجم إلى هذه الحيلة في حالين . الأول : إذا عرف من الجواسيس (الذين يتم شراؤهم بأسعار عالية قبل بدء المسيرة) أن الخصم توصل إلى امتلاك نسخة أصلية من نفس الرقة التي بحوزته ، فيصمم لإضاعة الأثر ، أن يتخلص من الخصم لإتلاف الرقة . الحال الثاني : إذا علم الباحث (من خلال الجواسيس أيضاً) أن الخصم حاز رقة أصلية فشل في الحصول عليها . وقتها لا بد أن يدبر مكيدة للتخلص من الخصم قبل أن يبلغ موقع الكنز . فإن لم يتمكن من طعنه بالمديبة ليلاً ، سبقه إلى أقرب متاجع ، وتنكر في ثياب عراف ، ودس له السم في وجة الطعام . وإذا لم يهتد إلى نجع يستطيع الخصم أن ينزل عليه ضيفاً ، جمع في طريقه الرعاة ، واشتراهم بالمال ، كي يلعبوا دور قبيلة من الرحّل ، يستطيع المسافر أن يأمن إليها ، ويلتجئ إليها للقرى . يندس فيما بينهم ويدس له السم أيضاً . فإذا عجز الباحث عن العثور على الرعاة ، جد في طلب قطاع الطريق (الذين لا تخلو منهم رقة في الأرض أبداً) وأكثراهم للإغارة على الخصم ، وانتزاع الرقة النفيسة بسلطان السلاح .

هذه الاخطار أجبرت كثيراً من الكنازين أن يخرجوا في حماية فرق كثيفة من الفرسان المدججين بالسيوف والحراب وأعواد النشاب . ولكن الكنازين لم يكونوا جميعاً ميسورين إلى الحد الذي يقدمون فيه على انفاق الاموال على أوغاد لا يكتفون بما يأخذونه من أجر نظير

اتعابهم ، ولكنهم يطمعون في اقتسام الثروة ، وأخذ حصتهم من التبر عند استخراج الكنز . وكثيراً ما سالت الدماء ، وزهرت الارواح ، بسبب الخلافات التي تنجم عند استخراج الكنز . هذا أجبر الكنازين على الاعتماد على النفس ، والتصرف خلسة ، وعلى انفراد ، والتحرك في السر ، عملاً بوصايا الكهنة القدامى الذين رأوا أن كل ما عُرف حلّت به اللعنة ، والكنوز نفسها تتفسخ ، ويستحيل تبرها إلى تراب ورماد إذا أُفشي سرّها ، وانكشفت لعيون الاغرب قبل أن ينطق فوقها بالتمائم ، ويسفح عليها دم القرابين . فآثروا العمل بوصايا الكهان الأسلاف ، واستعنوا على مكائد الخصوم بسلاح الكتمان وحده .

هذا جعل أهل الصحراء يتشاركون كلما بدأ الموسم ، وتدفقت الصحراء بالباحثين عن الكنوز . فيقولون أنهم لعنة تجلب على الأرض البكر عللاً وأوبئة لم تعرفها في تاريخها . معهم يأتي الشر والدسائس والكراهية ، والاحقاد ، فيتزرع في الصحراء السكون ، وتفقد السكينة ، فتنادي الرؤى السماوية ، وتهاجر . تجتمع قبائل الجن وتشاور . تستبك مع الأشرار في المعارك ليس حماية لثرواتها وكنوزها فحسب ، ولكنها تقاتل الغزاة دفاعاً عن وطن الرؤى السماوية ، وإنقاذاً للبكارة الخالدة .

ويرى بعض أهل الحكمة أن يدرج تجّار القوافل في نفس المعجم الذي تنتهي إليه ملة الباحثين عن الكنوز . حجتهم في ذلك ما يتناقله

الرواة عن القوافل من خرافات تجعلهم لا يختلفون كثيراً في مسلكهم وطبعهم عن ملة الكنازين . فهم أيضاً يتناحرُون ، ويدبرون الشرور في الخفاء ، ويكتيرون لبعضهم البعض كيداً . وبرغم أنهم يجلبون بعض البضائع النادرة إلى الصحراء إلا أنهم يرثيُون على ترابها من الدماء ، ويدخلون إلى حرمها من المكائد ، ويزرعون في أرضها من المفاسد ، ما يجعل نعمهم تتحول إلى نقم ، ونفعهم يصير شرّاً ، وترياقهم يستحيل إلى سُم زعاف .

ويقول أهل الحكمة أن الأمر لم يكن ليصيير إلى هذا السوء لو لم تدخل إلى الحرم الملة الثانية الأسوأ خلقاً ، والأشرس مسلكاً : الغزارة وقطاع الطرق .

ولا أحد يعرف حتى اليوم ما الذي دفع بغزارة أبعد الامم لغزو قارة عارية من الخلاء ، وتشتيت قبائلها ، والتنكيل بأهلها ، وحرق اشجارها ، واتلاف اعشابها ، غير شهوة المخلوق القديم في نشر الهلاك والعدوان ، ونزعته الأصلية في تعيم الخراب . ولا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحل بالصحراء ، وبكائنات الصحراء ، لو لم يتصد لهم الزعيم في الزمان القديم ، مستعيناً بجيوش من الجن تزلزلت بهم الجبال ، ودفعت بهم إليه الوديان والسهول ، وخرجوا من المغاور والكهوف ، وفروا من كل فج .

وكان ديناً على أهل الصحراء أن يحفظوا ، في قلوبهم ووصاياتهم للأجيال ، امتنانهم لأهل الخفاء ، وهم الذين اعتادوا أن

يقاوموا مثل هذه الغزوات الجنونية بالانسحاب ، وهي حيلة حرية تعلموها من الصحراء التي عودتهم أن تتولى عنهم قهر الأعدى الاغراب بالظمة تارة ، وبالجوع أخرى ، وبالأوبئة ثلاثة . ولم تسلط على الغزاة جند الخفاء إلا في تلك السنوات التي تماطلت فيها الجحافل الغازية ، وظللت تتدفق وتتدفق بلا توقف ما أن ذاعت في الصحراء سيرة الكنوز ، وما أن اشتم هؤلاء الأغيار رائحة التبر . وفتها استنفرت الصحراء قوى الخفاء ، واستنهضت الهمم فتدخل الجن .

وبرغم أن الاعداء منوا بالهزيمة ، وردوا على اعقابهم ، إلا أنهم خلفوا وراءهم خلقاً كريهاً ، انتهك قداسة الأرض ، وسفك الدم ، ونهب الثروات ، وأباد الانعام ، وأتلف النبات ، وقطع على المسافرين طريق الاسفار . وقد مررت بالقاربة آماد شلت فيها الحركة ، وبطل فيها المسعى ، وصارت الحياة مهددة بالتوقف ، ولو لا الحملات التطهيرية التي قادها الزعيم ، وتولاها جند الجن ، لتمكن الأشرار من قطع وريد الحياة ، وتحولوا وطن الآلهة والرؤى السماوية إلى وطن شقي من الفناء .

وإذا كان القدر قد شاء أن يجعل من الملائكة السابقتين سيفاً مسلطاً على رقبة الصحراء ، وابتلاها برذائلها كقصاص على خطايا أهلها ، فإنهرأى ان يرحمها بالفتة الثالثة . جاءوا من جهات الدينونة الأربع ، ركعوا لها أرضاً . سجدوا وقبلوا التراب كما يليق بالمريد أن يفعل في حضره الحرم . تنقلوا في سهولها بوجوم العباد ، صعدوا جبالها بخشوع الزهاد ،

استنشقوا زهور رتمها بلهفة المشتاق ، وتأملوا الاشارات الغامضة المرسومة فوق قلاع الترفاس بصير العرافين ، وراقبوا الكوكب المسحور وهو يتحول بدرأً أو كأنهم عشاق . لم يقتلوا الغزلان ، ولم يؤذوا إنساناً ولا جانباً .

ينزلون بوجوه واجمة ، شاحبة ، صارمة ، ولكنها تتوهج بسکينة غامضة . عيونهم تترصد الآفاق المجهولة ، ولكن فيها تستقر سکينة ، وتشع بالق خفيّ . ابدائهم نحيلة ، ضامرة ، كأنها ترجمان لمعتقداتهم الذي يرى في الطعام عدواً يلد اللبّ ، ويفسد المزاج ، ويقسّي القلب . وهو مسلك راق للصحراويين كثيراً ، ورأوه لائقاً لعشيرة اتخذت من التجوال مذهبها ، وجعلت من الوصول الى الواحة المفقودة رسالة مقدسة . كانت هذه الملة المدهشة تتغنى بفضائل الجوع ، وتنوح بموايل مدح للسغب ، ولا ترى فيه أداة لتهذيب النفس وترويض نزعتها الأمارة بالسوء ، ولا وسيلة لصدق الموهبة ، أو تشذيب العقل المثقل بأوزار اللحم ، المكّبّل بهم الدينونة الدنيا ، ولكنهم يرون في الصيام عن الطعام رسالة سماوية تحرر الملائكة الذي يرفرف في الصدور (كما يسمون الروح) من أغلال الأسر ، وتفتح له في الابدان البليدة آفاقاً إلى ملوكوت النبوة . والنبوءة غاية من غايات المسافر ، وشرط من شروط كل من انتوى أن يهتدى إلى الواحة المفقودة .

وب الرغم تبجّيل الجوع ، وعبادة الصيام الدهري من قبل هذه

الطاقة إلا أن الصحراويين لم يتوقفوا عن استضافتهم ، ولم يكفوا عن نحر الانعام على شرفهم ، بل رأوا في هذا المسلك نبلًا وبراءة وشهامة شجعتهم لاستقبالهم بمظاهر احتفاء تفوق كثيراً المظاهر التي اعتادوا أن يقابلوا بها غيرهم من العابرين. فما أن ينادي المنادي ، ويعلن النذير عن الوصول حتى تندفع ملacades الجموع . يخرج الفرسان والصبيان والحسان . يتحرّكون عبر العراء وهم يرقصون ويعنون ويبارون بالسيوف . يخرجون جمِعاً لأنهم تلقوا الإشارة في نداء النذير عندما نادى : «يا أهل الصحراء اسمعوا البشرة ! يا أهل الصحراء أقبل عليكم ضيف سيعقب مجئه السيل . يا أهل الصحراء أتاكِم من المالك البعيدة مخلوق لا يطلب تبراً ، ولا يبيد حيواناً ، ولا يقطع أصل النبات . يا أهل الصحراء غنووا وابتهجوا فقد أقبل زائر قلبه في السماء وبدنِه على التراب . يا أهل الصحراء : لقد رأيته بقلبي قبل أن تراه عيني . زارني في خبائي بيده من ضياء ، وتلا فوق رأسِي النبوءة . يا أهل الصحراء كونوا من القوم الآخيار وصدقوا نبوءة السيل ، لأن «أنهي» قد أخبر في أقدم الأزمان أن المجهول لم يحدث أن خيب رجاء من خرج في طلب واو ، ولم يكذب له نبوءة ... ». يتحول المجتمع كلَّه إلى عاصفة من الفرح . يتم استقبال المسافر على مشارف المضارب . يقاد بالزغاريد والمواويل والاغاني الى خباء سارع بإقامته العبيد . بعدها يتحرّك لاستقباله الحكماء . يتقدّمهم الزعيم ويليه كبير السحرة ، ثم طوائف العرافين

والمنجمين والعطارين الأقل شأناً . يبدأ العبيد في نحر الذبائح ، وتشعل موائد الشواء . وفيما يشرع الزعيم في محاورة المسافر بالحكم الغامضة والعبرة المستور ، يبدأ السحرة والعرافون بحثهم عن السيل الموعود في عظام الحيوانات المنحورة . وحدث كثيراً أن اهتدوا إلى نبوءات أخرى أعظم شأناً وأكبر خطراً أثناء بحثهم عن نبوءة السيل .

ويرى الحكماء أن تحر الأضاحي احتفاء بضيف لا يأكل لحماً هي عادة ليست رذيلة . ويظنون أن الزائر خيراً يفعل إذ يسيء الظن بجوف لا يشبع فيلقمه بحبات الحصى وقطع البعر كلما طلب طعاماً ، لأن البطن لن تشبع إلا بالتراب . ويقولون أنهم يبالغون في تقديم الطعام الفاخر لا لإرضاء الجوف ، ولكن لامتناع العين . وينظرون باعجاب الى أولئك الذين ينجحون في قمع البطن ، ويقاومون الشهوة الى المأكولات اللذيذ ، ويقتاتون بخبز الشعير وحبات التمر وكوب من لبن النوق . ويقولون أن زواراً كثيرين اعترفوا أن هذا الامتحان العسير قد قربهم اشبارةً إلى الوعد ، إلى الكنز ، إلى الواحة الضائعة .

لهذه الملة النبيلة أضاف أهل الحكمة نفراً انتموا لقبائل الجن ، ورأوا ، لسبب أو لأخر ، أن يخرجوا إلى الضياء ، ويتنكروا في مسوح أهل الصحراء . فكانت النجوع تستقبلهم أيضاً ، ولكن دون أي ضجيج . بل يجمع الرواية أن الوجوم هو اللغة الوحيدة التي اعتاد أكابر القبيلة أن يخاطبوهم بها . فينبرى السحرة لمحاورتهم بلغة الرموز .

ويتبارى العَرَافُونَ ليقرأوا في عيونهم وتصرفاتهم وإيماءاتهم أسرار الجھول . وبرغم اختلاف علاقتهم بالطعام عن ملة الباحثين عن الواحة المفقودة ، وتفضيلهم لحوم القرابين عن أي طعام آخر، إلا أنهم لم يسرفوا في المأكلي ، ولم يعرفوا بالنهم، بل أن بعض أهل المعرفة يؤكّد أنهم اشتهروا بالشهامة، وكثيراً ما هرعوا لمساندة الضعيف، واغنووا فقراء أفاليل إذ جاءوهم في غفلة بجرار من الذهب الأبريز، ومدوا قبائل بالجند ضد قبائل أخرى معتدية. بل لم يتأنّحروا عن تزويد قبائل الصحراء بأشجع المقاتلين عندما اضطررت لخاربة قبائل معتدية تتسمى إلى أهل الخفاء انفسهم. ولا زال الصحراويون يلهجون بفضيلهم في تطهير الوطن البكر من دنس الغزاة وقطعان الطرق .

(٦)

المهاجرون يولدون في الصحراء وهم يمتطون دواباً ، أو يقبلون مشيا على الأقدام . وآخرون يمشون راجلين ، ولكنهم يرافقون القوافل ، ويستعيرون منهم دواباً يركبونها بين الحين والآخر . وهؤلاء هم السحراء الجوالون غالباً . يتنقلون برفقة التجار ، يقرأون الغيب للقبائل الشقية ، يبيعون الترائق المضاد لسموم الحياة ومكائد النساء . يتمتمون بالتعاويذ على رؤوس الملعولين اليائسين من الشفاء ، يبيعون العقاقير ، وييطلون مفعول كل سحر . يصنعون من معدن النحاس ذهباً مزيفاً يرشون به التجار البلياء مقابل شراء الدابة التي يتداولون ركبها طوال الرحلة ، فلا

يكتشف التاجر زيف العملة إلا بعد أن يكون الساحر قد تخلف في أبعد نجح . أما إذا رأى القبيلة افقاً ينسد بعتمة تلاعب بها اللعب ، وارتسمت في الأعلى غيمة الظهيرة ، فإنه يصبح بالتدبر أن ينادي بالغفير . لأن عتمة الغبار لا بد أن تخفي وراءها جحفلًا من جحافل الغزا .

فئة الأفراد الراجلة وحدها تجلب الأمان . بل أنها تتجنب المرور على النجوع دائمًا . وحتى إذا خرجت لاستقبالها الجموع ، واصرت القبيلة على القيام بمراسيم الضيافة ، فإن افراد هذه الفرقه يصابون بالحرج ، وتتشهي عيونهم ذلك النوع من الحياة الذي يعانيه كل من انقطع عن الناس ، واعتزل في الخلاء طويلاً . ولكن هناك مخلوق واحد لا يكف عن شق الصحراء ، ولا يتوقف عن الاسفار ، لا ينتمي إلى أي ملة من الملل ، ولا ينتمي إلى أي فرقه أو طائفة . يسعى راجلاً ، وقد يمتنع جميع انواع الدواب (وإن أجمع الحكماء أن الأتان البيضاء هي دابة الأثيره) . يتنقل وحيداً ، فلا يخلو منه مكان ، يتخفى متى شاء ، ويتبدى متى شاء له أن يتبدى . نال من مواهب السحر ، واكتسب من فنون التجيم والعرافة ، ما جعله إن غفل عنه المخلوق ، ونسى النطق بإسمه ، حضر . وإن تبه ، ونطق بإسمه ، حضر أيضاً ، كأنه الجن ، كأنه القدر . قبائل كثيرة ارهبتها هذه المواهب السحرية ، فرأى فيه رسولاً سماوياً جديراً بالأضاحي ، وجزءاً من تلك القوة المجهولة التي تستحق

أن تتقى بالعبادة . وأكثر ما أفرع القبائل مسلكه في تقمص جلود الأفاعي ، وحيله في التتكر بالدخول في بطون الحيات . وعلّ اتقانه للمسلك السحري ، وتماديه في العاب التتكر ، وسلطانه المريب في استعارة الابدان الغريبة ، هو ما شجع أهل الخلاء أن يجعلوه في ملاحاتهم وأناشيدهم ، قريناً لأحيل حيوانات البرية ، وينصبوا «تانمضال» له شارة .

١٢ - الدائرة ب

«يقال خط الدائرة واحد أكثر من سائر الخطوط ، لأنه خطٌ تامٌ فيه الكل»

ارسطو

«ما بعد الطبيعة»

* * * *

«قيل في الخط غير المستدير أنه ناقص ، وقيل في المستدير أنه تام ، وكذلك الأمر في الجسم المستدير وغير المستدير .»

ابن رشد

«تفسير ما بعد الطبيعة»

(١)

غمر عمامته الزرقاء بالغمر . انطفأ اللسان الشقى . اختفى السائل اللعوب . تنفس بدن المهاجر بالبخار ، وناح بفحى الحمد والامتنان . رأى بورو قرينه المشاكس وهو يتراجع ، ويتدفق الى الوراء . اندلق على الارض . تسکع فوق فرشة الحصى . أقام فوق المسافة عرفاً سماوي اللون . ابتدع بركة من الغمر الشفاف . صبّ فيها سيلًا من السلسيل المبهم فتماسك فيض الماء المزيف ، وتكاثف في بحيرة كبيرة زرقاء . تقدم بورو من البحيرة ، وانتهر قرينه اللعوب بتمتمة . ثم رفع سبابية يده اليمنى وهو ما يزال يمسك بيسراه الوعاء الآخر ، ورفع سبابته في وجه السراب مهدداً . فسمع قرينه الشقى يقول : «انتظر ، لا تسبّني في سرك حتى تدرك التوايا ، لقد سعيت أمام المهاجر فحسب . لم اصرعه ، ولم اذله . تّرّغت قدّام وجهه كي اعطيه الأمل . لو لم أهبه املاً لما وجد قوة يصل بها إليك . لقد قدمته إليك . فانتظر . لا تتوعدني بسبابتك . لا تلمني ، ولا تلعن قرينك في سرك ! ». ثم تناول حجراً مثلث الزوايا ، رفعه فوق الغمر بمهارة السحرة ، وشرع يخلق منه بنياناً مرصوصاً على حافة البحيرة الزرقاء . ابتسم له بورو ورجع الى ضيفه . وقف قدّام المهاجر بخسوع الكهنة . قدم له الوعاء بوقار السحرة .

تناول المسافر الوعاء بكلتا يديه أيضاً . قاوم رجفة غرت اليدين ، ثم انتقلت الى الشفتين المشققتين المتلهفتين للفوز بقطرة ندى . ولكن المهاجر أغمض عينيه ، ورأى بورو كيف ييدي الظمآن إرادة البطولة كي لا يكسر كبرباء الأكابر ويجهن ناموس الحكماء . ظنه لم يخطئ إذ سمع الضيف يقول :

- على الرجل أن يتعلم كيف يتربى إذا أشتته شيئاً أكثر مما ينبغي !

وافقه بورو بإيماءه قبل أن يتلو تميمته :

- هذا السائل ، قريني ، عطيتي ، دمي . جئت أقدمه لضيفي ومولاي . أنت أيضاً أخي ، قريني ، إذا ارتويت من مائي ! انكسر الوقار وأنهار كبرباء الأكابر .

فلم ينتظر المهاجر مضيقه حتى يكمل تلاوة الشعيرة القديمة ، فاستسلم لحمى الملت به . انتابه رعدة عنيفة اهتز لها كل بدنـه . ارتجفت يداه فاندلقت قطرات الماء على الأرض . سقط على ركبتيه أرضاً ، وغمر شفتيه في الماء . لم يغمـر شفتيه وحدهما . لم يخف وجهـه في الماء الذي اكتسب لون الاناء وانطفأ وصار كالقصدير لوناً . ولكنه غطـس في الوعاء برأسـه . بـلـلـ عمـامـتهـ الزـرقـاءـ حتىـ الاـذـنـينـ ،ـ حتـىـ أـيقـنـ بـورـوـ أنـ الضـيـفـ قدـ نـسـىـ المـراسـيمـ النـبـيلـةـ ،ـ وـخـالـفـ الوـصـاـيـاـ الـأـولـىـ ،ـ

وسلم أمره للهوى . ابتسם . ولكنه لم يشعر بحياة . لأن بورو أول من ادرك أن التائه لم ينكسر أمام الهوى ، ولكنه أراد أن يحيا ، فهب للحياة . والمسافر الذي أخذ منه الظمآن يستطيع أن يركع على ركبتيه ، أو يسقط على وجهه ، أمام القطرة ، دون أن يقترب العار ، ودون أن يعذبه الظن بأنه خالف «أنهي» ، أو استهان بناموس الأكابر .

منذ أكثر من عامين التقى تائهاً عرافة في الخلاء المؤدي إلى غابة الحجارة قال أنه يش من التنقل ، والهجرة أعيته ، فقرر أن يمضي إلى «أغرم نودادن» ويستريح . كان يتربع طوال اللقاء ، ويردد تلك اللحون الشجية التي تغنى بها المغنيات الساحرات على مشارف المملكة كي يستدرجن العابرين . دعا بورو إلى وجبة الغداء ، فرفض الدعوة وقال أن التائه إذا قرر أن يستريح وينزل إلى «أغرم نودادن» فلن يحتاج إلا لجرعة من الماء تبقى على قواه ليعرف السبيل ويدخل الحرم وهو يميز الضياء من الظلمات . ثم تحدث عن الظمان كثيراً ، وأخبره أن المسافر الذي اعتاد أن يحمل زاد الماء في الأسفار ، لا بد أن يعرف الذل ، إذا نصب الزاد ، وعانى من العطش . ينكسر مهما تحلى بالبطولة ، ومهما حاول أن يتشبه بالفرسان ، لأن من اعتاد أن يمضغ «تابا»^{*} لا بد أن يفقد صوابه إذا افتقد العشبة . والمسافرون الذين تعودوا أن يحملوا زاداً في

(*) تابا: عشبة التبغ .

الصحراء هم أكثر الخلق تعرضاً للهلاك . أما الذين تخلوا عن هذه الرذيلة ، وخرجوا للراء عراة من كل حمل ، فإنهم حتى وإن عرموا قسوة الظماً ، إلا أنهم يحتفظون بوقارهم أمام القطرة الجيدة ، ولا ينكسرون أمام الإناء حتى لو تركته قدامهم أياماً . ولكن السر لا يدرك إلا بعد أن يأكل الزمان لحم المسافر وتنال الأيام منه نصيباً ، ويأتي الاوان الذي يتحرر فيه من احساس العار والبطولة والنبالة ، فلا يبقى لها نفس المعنى عندما يكون العابر قد قطع المسافة ، وأشرف طريق العبور على بلوغ النقطة التي بدأ منها .

ولا يتجيء الأوائل للتغير في الجرعة تمشياً مع التاموس ، أو تجنياً لإصابة الظمآن بالداء ، ولكن قمعاً للإغراء ، وقتلًا للشهوة . ولا يستطيع أن ينسى ما أصابه عندما تاهت بعائره ودخلت حدود الحمادة ، فتبعدها وتابه وراءها . نصب المعين ولكنه لم يترنح ، ولم يفقد إحساسه بالمكان إلا بعد أن قطع مسافة أيام كثيرة . نال منه الظماً وبدأ يدخل مملكة أخرى ، ظلماء ، موحشة ، لا علاقة لها بمملكة الحمادة . هنا ، في المملكة الموحشة ، طلع له شبح غريب الأطوار . كان يتبدى ، ويتجسد ، ثم لا يلبث أن يتبدّد ويختفي . إذا خطأ نحوه ومشى إليه تقهقر وهرب ، وإذا توقف اقترب منه الشبح وتقدم إليه . اشتدت حلقة الظلمة فيئس . جلس ورفع رأسه نحو السماء . بحث عن الجlad في عرشه فلم يصر سوى العتمة . عاد الشبح إلى الظهور ، تبدّى على

بعد خطوات . ظهر فجأة بقامة ماردة . انحنى فوقه . مد له فم القربة . تحسسها بيده فوجدها رطبة ، ندية ، مبتلة بالحياة . لم يصدق . ظنّها دعابة أخرى من دعابات المخلوق الخفي . قواه لم تخنه ، وعقله ما زال قادرًا على التمييز بين الظلمة والضياء ، بين الليل والنهار ، بين الانس والجان ، بين الشبح والانسان . ولم يدرك أن الثقة في القوى العقلية أكثر مما يجب رذيلة من رذائل أهل الخلاء إلا فيما بعد . استجتمع آخر ما تبقى في بدنـه من قوة وهجم على القربة . امتصـ من فمـها جرعة . جرعة كبيرة ، باردة ، لطعمـها لذة لن ينسـها مدى الحياة ، وسوف يقـى طعمـها العجيب في فـمه إلى الأبد ، حتى أن لـعابـه لا بد أن يـسـيل كلـما استـعاد لها طـعمـاً في البـال .

ولـكن الشـبح لم يـسمـح بـغير تلك الجـرعة ، فـنشـب العـراك . هـجم على القرـبة فـتراجـع الشـبح وابتـعد بها خطـوطـين . اندـفع اليـها بـجنـون العـطـشـان فـدفعـه الشـبح بـمنـكـبه . تـرـنـح وـسـقط . وما أـن نـهـض وـوـقـف عـلـى قـدـمـيه حتى اـنـهـي المـخلـوق الغـامـض من اـحـكام الـربـاط حول فـم القرـبة . تـقـدـم وـحاـول أـن يـنـتـزـع سـيرـ الجـلد من فـم القرـبة فـتـلقـى لـطـمة قـاسـية عـلـى فـمـه . تـرـنـح وـلم يـسـقط . استـجـمع القـوى مـرـة أـخـرى ، وـانـقـض عـلـى الخـصـم . صـرـعـه أـرـضاً . دـاسـ عـلـى بـدـنه بـقـدـمـيه ، وـهم بـأن يـقـضـي عـلـيه إـلـى الأـبـد ، وـلـكن الـوقـت لم يـسـعـفـه . كـانـت لـهـفـته إـلـى الجـرـعة أـقـوى ، فـوـثـب وـتـلـقـف القرـبة التي سـقطـت بـجـوار رـأسـ الخـصـم . اـخـذـها بـكـلـتا

يديه ، احتواها بذراعيه . ضمها إلى صدره . وبدأ يفك خيط الجلد باستانه . و .. لم يدرك ما أصابه بعد ذلك . قبل أن يسقط ذلك الجدار الكثيف من الظلمة قدح في رأسه زند ، ومزق الشرر جدار الظلمة كما يمزق البرق زحام السحب ، ثم سمع دمداة مثل قعقة الرعد البعيد . واعقب ذلك سكون .

عندما عاد له الصواب وجد نفسه مرميًا في العراء . موئق اليدين والساقيين . بجواره يجلس عجوز يتلهى بمضغ «تابا» . يصدق لعب العشبة من حين آخر ، ويتسنم بغموض طوال الوقت . وفي الحال سال لعابه ما أن استعاد طعم جرعة الماء . وبرغم أنه عاد إلى الصواب وقد ارتوى ، وبرغم أنه لم يعجب كيف حصلت هذه الأعجوبة ، إلا أن حنينه لتلك الجرعة الكبيرة الباردة الخفية التي تلقاها من الشبح المجهول ، كان أقوى من كل شيء . أزاح العجوز اللثام عن وجنتيه وفهم فتبدلت غضون بشرته الرمادية عميقـة ، سميكـة ، خشنـة ، كأنـها لـحـاء الاـشـجار الهرمة . بـصـق لـعـابـاً مـعـتمـاً فـي أـرـة صـغـيرـة وأـهـالـاـل عـلـيـه خـلـيـطـاً مـن التـرـاب المـزـوـج بـالـحـصـى وـقـطـعـ الحـجـارـة . أـخـرـج مـن جـيـه حـبـة نـطـرونـ . قـلـبـها فـي ضـوءـ الغـسـق فـلمـعـت بـفـتـنةـ التـبـرـ . قـضـمـ منها بـصـوتـ مـسـمـوعـ وأـعـادـها إـلـى جـيـبـ جـلـبـابـه . تـلـذـذـ بـمـضـغـها مـغـمـضـ العـيـنـينـ . مـضـغـها عـلـى طـرـيقـةـ الرـعـاةـ . فـلاـ أـحـدـ اـسـتـهـوـتـهـ هـذـهـ العـشـبـةـ مـنـذـ دـخـلـتـ الصـحـراءـ مـثـلـ الرـعـاةـ . لـأـحـدـ وـجـدـ فـيـهاـ تـلـكـ المـتـعـةـ المـجـهـولةـ مـثـلـ الرـعـاةـ . لـأـحـدـ عـرـفـ لـهـ سـراـ

كما عرفه الرعاع. بصدق اللعب مرة أخرى ثم التفت إليه . سأله : « هل ت يريد المزيد من الماء؟ ». أومأ بورو برأسه علامه النفي . ابتسם الراعي . وشعر هو بالخرج . تهيأ له أن العجوز الغامض يعرف كل شيء ، يعرف أنه خاض شجاراً وحشياً كي يسلب القرية من يد انقذته من هلاك . تحول إلى حية وغض اليد التي سقته سلسلة الحياة . منح جرعة تنزلت من السماء فطمع وسعى للاستيلاء على القرية . ولو لم يتلق ضربة القصاص على رأسه لأباد خصميه بأظافره في سبيل نيل القرية . وها هو يعود من الغيبة دون أن يحس بالظلمأ ودون أن يشعر بأي حاجة إلى الماء . يعود ليجد نفسه مقيد اليدين والساقيين ، ملقى في العراء ، فوق رأسه يتربع عجوز خفي يتسلى بموضع «ataba» ويتسنم له تلك الابتسامة الغامضة التي توحى بأنه على علم بكل شيء .

بعد صمت طويل تكلم الراعي . سأله : « أدهشك ان تجد نفسك مقيداً أم أدهشك أنك ارتويت؟ » أومأ برأسه ، وأشار إلى القيود في يديه . تظاهر العجوز بأنه لم يفهم . تعلق بأفق مغمور بضياء الغسق وقال : « لن تفلحوا ما ظنتم أن الصحراء خلقت لكم وحدكم ». بصدق اللعب . اضاف : « أراد بك ابن الخفاء خيراً فمنعك من تجربة المزيد ، ولكنك أساءت إلى نفسك قبل أن تسيء إليه . نعم . أعلم أنه هو الذي قيدك حتى لا تفلت وتسيء إلى نفسك . فليس الظمآن وحده الجنون في عرف الجان ، ولكن الجنون هو الإنسان . فأعلم أيضاً أنه أراد لك الحياة

عندما منعك» . بصدق اللعاب . زحف نحوه وفك له قيده . انطلق صوب خلاء مديد مغمور بأشعة الفسق . تابعه حتى اختفى ، فلم يعرف حتى اليوم عما إذا كان الراعي نفسه من أهل الخلاء أم من أهل الخفاء .

(٢)

بورو أراد أن يحاكي ناموس الخفاء النبيل عندما رأى أن يمنع الضيف ، فسحب من بين يديه الوعاء . سحبه بتمهل ، ووقار ، وتأنيّ أهل الخبرة الذين دربهم التجريب كيف يشدون رسن البعير في المنحدرات الوعرة وهو محمل بالانتقال والاعباء . سحبه بسلامة الرّحل الذين عرفوا أنهم إذا لم يسوسوا الدابة بالرفق ، فإن أدنى خطأ في السياسة ، وأقل غفلة في التدبير ، لن تذهب بالبعير وحده ، ولن تضيع البضاعة وحدها ، ولكنها ستجر القافلة وراءها إلى الهاوية ، وستجعل من الرحلة الطويلة القاسية أمثلولة في بلاده الخلق وخسران السفر .

وبرغم الحكمة في المنع . برغم الرويّة في ترتيب الرفض . برغم التصريح في الوفاء بالناموس ، إلا أن ما حدث بعدها لم يكن خرقاً للناموس فحسب ، ولا مخالفة للشرائع وحدها . ولكنه كان إخلالاً فظياً بأخلاق النبلاء ، وتشبيهاً وضيعاً بسلوك العبيد .

فما أن انتهى من سحب الوعاء ، ولا مس طرف الاناء صدره حتى رأى كيف تمددت رقبة المسافر وسعت وراء الاناء ، وعندما يشست

من إدراك الماء ، ارتفعت الى أعلى . ارتفعت ببطء ، وتمهل ، ووقار .
كأن الضيف تعمد أن يحاكي اسلوب المضيف في أداء المراسيم . ولكن
ما رأه بورو خالف كل أمر مرسوم ، ولم يرد في أي ناموس من نواميس
الأجيال : عينان جاحظتان ، غاضبتان اختفى منها كل سواد ، وزحف
في بياض المقلتين أحمرار عيون المجنوين عندما يبلغ بهم الوجد مداه .
ثم بدأتا تصيقات ، وتصيقات ، وتصيقات حتى بدا له أن المجنوب قد
اغمضهما . ولكنه لم يغمضهما . بين الرموش المسيلة انشق بصيص من
ضوء . انشق الجنان المطبقان على بياض ضئيل . في الشق تبدى البياض
كقبس بكر يمحو سلطان الظلمة بيد الفجر . بوتة الفجر الأول . في
تلك الومضة لم يلحظ كيف بدأ التحول في وجه الضيف ، لأن نام
الأكابر ذا اللون الأزرق انسلل على الوجنتين وكاد يستر حتى الفم
وربما لم يلحظ ما حدث لأنه انشد إلى العينين ، واغفل كل عضو آخر .
ولكن ما تذكره من المواجهة ، وكتب له القدر أن يعيش في قلبه إلى
الأبد ، هو الباب الذي انفتح ما أن فتح المسافر عينيه . هو الغم العجيب
الذي انشقت عنه الصحراء ، فوجد نفسه يقف في نفس الوضع ، في
نفس موقف المواجهة ، ولكن في موقع آخر ، وفي ارض أخرى ،
وتحت سماء أخرى ، وفي زمن آخر . اختفى قرص الجlad الابدي ،
وهربت الصحراء من الصحراء ، وتوقف تتابع الليل والنهار ، اختفى
الألق اللعوب فقد السراب إسمه ، وتبعه الضياء لأنه لم يجد ما يفعله

في خلاء خلا من البدر والشمس والتجمُّوم ، و .. نزلت ظلمة . نفس الظلمة التي تسكب لوناً رمادياً ترى فيها الاشياء بلونها الأصلي دون أن تفهم بأي حيلة تم ذلك . وخرج من المجهول نفس الوادي المكسو بالاحراش والنباتات الرمادية . لم يلبث في الوادي هذه المرة إلا ومضة عابرة . كما لم يسمع من مداعبات الجن في الدهليز سوى دمدمة خاطفة . نفس الكف التي خطفته من الصحراء وطوحت به في هذا الوادي الموحش انطلقت الى الأمام بجنون الريح ، بجنون الجن ، ولم تتوقف حتى ألت به في حمى العراك ، فرأى الحسناً مرة أخرى تتوجع ، وتسترحم الجlad ، ولكن الكف عبرت الاستعطاف ، وتباطأ عن الدخول ليطلب للحسناً الرحمة ، وتوقفت الكف تماماً عندما هبَّ فيه الدليل بوجه مستعار من «تأنضال» ورفع في وجهه عكاز الاطواف النحاسية بتلك الغضبة الم gioسية التي تلقى فيها الوسم على الجبين ، ليصير علامة أخرى تنضاف إلى ذلك الوسم القديم المحفور على رأسه .

ندَّت عن بورو شهقة فرع . تراجع الى الوراء خطوة . خطوتين . ندَّ عنه تساؤل : «انت؟» دون أن يخرج من صدره . خرج صوتاً ، همهمة ، ولكن التساؤل الذي حمله دهشة امتدت في الزمان اجيالاً ، لم يستقم في العبارة ، والصوت لم يتنظم في الكلمة . ربما ادرك عجز العبارة عن التعبير ، وربما سلم بأنه سيبدو مضحكاً لو جاؤ الى استعمال اللغة في المملكة التي هجرها الزمان ، وهربت منها الشموس والاقمار

والنجموم . هنا نطق الدليل بلسان «تامضال» ، أو نطقت «تامضال» بلسان الدليل : «هل ظنت أنك عبرت إذ نحرت؟» . لا يدرى تماماً إذا سمع العبرة بأذنيه أم أنها نزلت كوحى المجنوين في قلبه . اليقين أن العبرة بقيت معه ، عاشت في قلبه كما عاشت فيه المواجهة نفسها .

كانت العصا السرية ما زالت مرفوعة فوق رأسه . والحق أنه لا يدرى عما إذا هوت على الجبين أم لم تهو ، لأن هناك ، في الأرض الأخرى ، تحت السماء الأخرى ، لا يتتاب البدن نفس الاحساس ، والوجع في وادي الظلمة لا يلبث أن يستقر في مكان آخر . وهو لا يدرى أيضاً لأنه أغمض عينيه استعداداً لتلقي الجزاء ، فسمع هأ هأة تعقب العبارة هيء - هيء - هيء .. هأهأة لشيمة ، مكتومة ، خفية . ثم فتح عينيه فوجد الدليل ما زال يشيع العكاز في الهواء . فوق رأسه . ووجد نفسه يستعيد احساسه ، وزنه ، وبدنه . وما أن حدث ذلك حتى تمددت الأرض ، وعادت الصحراء إلى الصحراء ، فوقها ركض السراب راقضاً ، مبتهجاً بعودة الصحراء ، باليriad . السماء أيضاً عادت إلى السماء ، وهيأت في صدرها للجلاد عرشاً . فتقدم القرص ، واحد مكانه على العرش . التحول نال المسافر أيضاً .

بدأ يتحرر من الجوف اللثيم ، ويستعيد هيئته الأولى .
من يديه افلت الوعاء .

سقط على الأرض . توقع أن يهوي التائه وراءه ليسبّع نهمه .
يلعلق ما تبقى من الماء في قاع الاناء . ولكن المهاجر الذي استعاد وقاره
انتصب بكبرياء الأكابر ، وتجاهل الماء الذي أريق تحت قدميه . لم
يتجاهل سقطة الوعاء فقط ، ولكنه تجاهل الظماً نفسه . كأنه لم يعرف
العطش ، ولم يركع على القطرة منذ قليل . كأنه لم يركع ولم يحل فيه
مخلوق آخر . كأن سلطاناً أقوى من كل السلاطين أخرج مخلوقاً من
بدن وانزل في البدن مخلوقاً آخر ، كأن من هاً منذ قليل وتلفظ بـ : «
هل ظنتت أنك عبرت إذ نحرت؟» كان مخلوقاً آخر من ملوك آخر .
أم انه حقاً من ملوك آخر ؟ هل المسافة الفاصلة بين ملوك الصحراء
والمملكون الآخر ، البعيد ، الأبعد من بعد نفسه ، يمكن أن يقطع في
رمثة العين كما قُطعت ؟ وهل يستطيع ساحر مهاجر أن يطيع بسلطان
الأيام مهما أُتي من سلطان السحر بضربة واحدة ؟ ثم .. ثم ماذا أراد
أن يقول بعبارته الغامضة ؟ هل وضع في يده المدينة ، وأمره أن يجرها
على النهر المقدس لا لكي يأخذ بيده في عبور الوادي ، الدهليز ،
الظلمة ، وإنما لكي يخدعه ويشتم به ؟ هل خددهه اللثيم ملك المؤم
وسلطان الخديعة ؟ هل وعده له بالنجاة كان أكذوبة أخرى ؟ أم ..

لوح المهاجر بعصابة الأطواق النحاسية في الفضاء . رسم بها رمزاً
مجهولاً أمام وجهه . إشارة خفية من إشارات السحر ، أمسك بها
بكلتا يديه . تتم بالتمائم بلغة مجهلة ، ثم رفعها مرة أخرى . أمسك بها

من رأسها ، من عقفتها ، وأو ما بقفاها أمام وجهه . أشار الى جبينه . إلى العالمة التي تتوج جبينه . تكلم بلغة أهل الخلاء :

– ارضعني من دمك إذ ارويتنى من مائلك ، فأنا قرينك بالحق .
ولكن أن أكون قريباً لا يعني أن أقبل الدين . سوف أرد الدين ، فاذن لي
أن أمحو . دعني أريك أيها القرىن ... أيها القرىن ..

ردد لفظه «القرىن» ثلث مرات ، بل هجة لقيمة ، ذات معنى . ثم تقدم الى الامام . مضى في جانب الوادي الآخر حيث وقف جبارين ينتظرون صول الضيف . في قلب الوادي تشقت الارض ظمأً . تغضت جلدتها ومزقتها التجاعيد . في العمق ، في مسافة تقترب من كوم تراب استقدمته طلحة لتحمي به جذعها ، وتصنع منه سداً يحصنها ضد غارات القبلى وعدوان المسبiol ، توقف . توقف بجوار جداول طويلة احتفظت بالنضاره برغم الجفاف . تمتد وتتمدد مع امتداد العراء . تلتuncios بالأرض الى مسافات طويلة . تفتّش عن النداوة . . تطلب الماء . تبحث عن الظل . تستجير من نار السماوات بحمى الاحراش الميتة . وبرغم اللهم ، برغم حمى الحنين ، برغم الولولة والاستفار ، برغم القيامة التي ملأت بها النبتة قعر الوادي ، إلا أنها كانت أوفى النباتات حظاً في النجاوه . أكثر الاعشاب فوزاً بالنضاره والحياة . بل ربما عاد الفضل في الفوز الى هذه القيامة نفسها . فحتى الصحراء ، حتى الخلاء الميت ، يتخلّى عن النبات الذي استسلم للمصير ، ورضي بالهلاك قدرأً ، وتهب لنجدة كل

عشبة جعلت من المقاومة سبيلاً . ويدو أن هذه الشريعة ليست ناموساً استعارته الصحراء من الخلق ، ولكنها الناموس الخفي للأشياء . استعاره الخلق من الصحراء . تعلقت بصفائر النبتة الشمار . كرات في حجم بعض النعام . بعضها احتفظ بالاخضرار ، وكرات أخرى شحيحة ، واصفرت وسرى إليها الذبول . جسم مدور وغامض ككل الأجسام الخفية التي تكفى على نفسها وتحتفظ بسرّها في جوفها . بلى . بلى .
هذا هو سر جلالها وبنبلها وقداستها . الانكفاء إلى الداخل . الالتفاف إلى الجوف . العودة إلى البنابيع . إنها لا تبحث عن السرّ خارج نفسها كما تفعل الأجسام الأخرى ، الأجسام البلياء ، اللامعة ، التي تستنزف نفسها في المحيط الخارجي ، إنها تلتف حول نفسها كاللحية ، تستدير كالقنفذ لتصنع من بدنها الكمال . هنا الفتنة . الكائنات المستديرة تستهوي لهذا السبب . تستهوي لأنها تكتفي بنفسها ، ولا تطلب شيئاً خارج الدائرة . وسر غموضها ، سرّ حكمتها يكمن في الانكفاء . هكذا هي الشمس ، هكذا هي السماء ، هكذا هو البدر . وتمائم السحرة ، والحياة . والترفاس والقنفذ والنبوة . ولادبني والكتز . والافق الصحراوي ، والصحراء نفسها . نعم . هكذا هي الصحراء نفسها . وكمة الحنظل في الوادي لا بد أن تستثمر الجوار ، وتستمد السرّ من الخلاء . ولا بد أن تنام في جوفها على سرّ . ها هو المسافر يخطو نحوها ليقرأ رموز التميّة ، ويكتشف النبوة . وها هي الكرة تحاكي الكائنات

المستديرة وتتکور على نفسها . ها هي تشد القوس وتوغل في المجهول .
ها هي تبدأ الرحلة من المملكة الأخرى ، من الأرض الأخرى التي تسبق
البداية ، لتبلغ مطافاً يعود بها إلى نفس الملكوت في النهاية . فما دامت
الارض التي تسبق البداية هي نفس الأرض التي تعقب النهاية ، فإن البلوغ
حق ، والوصول يقين في المتهى . والمسافة بين الملكتين لا بد أن تسلك
طريقاً دائرياً .

فمن غير الساحر يستطيع أن يعاند الرموز ، ويقرأ النبوءة ، ويفهم
السلوك ، ويفك الطلسم في الجسم المدور ؟
من غير الساحر يستطيع أن يستخرج الكنز من كوة العلقم ؟

١٣ - القرآن

نَكْ أَمَان

نَكْ الْهَيْن

نَكْ تِرْوَلِيت

نَكْ آمَضَال

نَكْ ، كِيُونَانْ ، إِيلَلْ *

«أغنية بورو»

• أنا الماء

أنا الجان

أنا المعدن

أنا التراب

أنا ، هو انت ، أيها السَّرَاب ١

(١)

انحنى فوق كرة اصغر حجماً من جاراتها . اختلط في بدنها اللون الأخضر باللون الاصفر . فوقها ارتسست خطوط كثيرة ، كثيفة ، متداخلة . رفعها المهاجر عن الارض . تركها معلقة في الجديلة الأم ، وطفق يقلبها بين يديه . شيعها الى أعلى فغمراها فيض النار . تركها تحجب عنه عين الشمس . اغمض عيناً وراقبها بعين واحدة . ثم انزلها وعاد يقلبها بين يديه . تأمل الرموز المخطوطة على جلدتها . انهمك في القراءة . غاب في السماء الأخرى ، والأرض الأخرى ، حتى ترأى لبورو عرافاً يتغول في الملوك ويفقرأ النبوة في عظام الأضحية . اخيراً انزل الكرة الفاتنة على الارض . مسح عنها طيناً علق بها ، وأعادها إلى حضن الأم المدددة على التراب . قال :

– لا أريد أن اخطيء . لا أريد أن اسقي قريني سُماً بدل البلسم .

اقرب بورو :

– لا أفهم قريني ، لم أفهم لغة مولاي !

– إذا كان الحنظل ذكرأ فهو ترياق العلة ، وإذا كانت الكرة

الخفية أنتي فهي سُم وداء !

– حقاً ؟

- الاشي قاتلة حتى لو اختبأت في كرة علقم !
- حقاً؟ ولكن كيف استطاع مولاي أن يعرف الذكر من الاشي في كرة لها نفس البدن واللون والحجم؟
- هذه حرفتي .
- هل قريني الجليل عطار؟
- إذا انصرف المخلوق الى التجوال فإن التفريق بين ذكر الحنظل من اثناء هو أيسير ما يمكنه أن يعرف دون أن يكون في حاجة الى احتراف مهنة العطار .
- فهمت . ضيفي عراف . هذه لغة أهل السحر .
- هيء - هيء - هيء ..
- ثم انتصب وهدّد بورو بسبابته :
- يجدر بك أن تخترس . الاشي سُم ، الاشي في كرة الحنظل أيضاً سُم وعلة !
- انحنى على جidleة أخرى . اختار كرة تجاور عشبة مجهرولة أماتها العطش . قلبها بين يديه . في بدنها أيضاً احتلط اللون الاخضر باللون الاصفر . عليها ارتسمت نفس الشبكة من الخطوط . غمرها في فيض النار أيضاً . أغمض عيناً وراقب الرموز بالعين الأخرى كما فعل في

المرأة الأولى . انزلها وانكبّ عليها . غاب في الأرض الأخرى . دخل الملكة . نال الالهام . عاد بالنبوءة . قال :

– هذه ! هذه كرّة الترياق !

قطع القطعة من أصل جديلة الأم بعناية قابلة ماهرة تقطع حبل الحياة السري ل تستقبل الجنين ، و تحرر المولود من الرّحم . سعى في الوادي محنّي الهامة . وجد لوحًا حجريا غمرته السيل الفائتة بالوقش وقش الأحراش . وضع فوقه الكرة بحرص . انكبّ عليها كأنه يعاود قراءة الخطوط . ثم فلقها إلى نصفين بضربة واحدة من العكاز . انحنى على القمّم المشطور إلى ضلفتين متساويتين تتعلق حبات البذار بجوفيهما المكشوفين على فيض النهار . أشار له بيده أن يقترب دون أن يرفع رأسه عن الكتر ، كأنه خشي إذا غفل عنه ، أن يصييه السوء ، أو يمسّكه أهل الخفاء إلى رماد كما تعودوا أن يفعلوا مع كنوز التبر . وعندما اقترب بورو ووقف فوق القمّم المشطور كان الساحر ما زال منهكًا في قراءة التعاويد المجهولة . تفقد الكرة فوجد المحيط الدائري قد انتهك وانفتح الجوف الخفي عن شريحتين ناصعتين من شح姆 تخلّته بذور النبتة السرية . فأين السرّ المستر ؟ أين تلك الفتنة التي تحلت بها الحنظلة عندما كانت كرة دائيرية مستديرة ، مدورة ؟ أين الإغراء الذي يحيط بمحيطها عندما كانت نبوعة غامضة تسكن وطنًا إسمه المجهول ؟ أين نبل الزعماء في مسلكها ؟ أين القداسة في مراسمها ؟ أين الكمال

السماوي في صمتها؟ أين الحكمة في لغتها؟ أين الإله في لا مبالاتها؟
أين اختفت الهالة؟ إلى أين سار الساهم؟

ولكن الكرة ظلت تستلقي فوق اللوح الحجري باسترخاء عذراء
انتهكت وفقدت بكارتها . تستلقي عارية الجسد ، صدرها مفتوح على
سماء يتنصب فيها قرص الجناد سلطاناً ، فخذلتها منفرجتان ،
مكسوفتان على امتداد الفضاء ، فتوحي المذبحة بالبلاد ، واليأس ،
والباطل .

ويبدو أن الساحر الذي لا تخفي عليه خافية ادرك خيبة بورو
فبحث له عن العزاء :

- كل شيء خرج من السرّ ودخل دائرة الخلق وعرفته الخلوقات
بطل وهزل وصار إلى زوال . هذا مبدأ السحر الأول .

مضى بورو يتأمل الذبيحة ، يبحث عن السرّ الضائع في القرابان
فلم يستجب للعزاء ، أضاف الساحر :

- يخطيء السحرة الذين يظنون أن العين تصيب بالسوء لأن
شرها أكثر من باقي أعضاء الإنسان ، ولكن السرّ ليس في الشرّ ، ولكن
السرّ في المعرفة ! فكل ما خرج من وطنه في السرّ ، في البعيد البعيد ،
في المملكة الأخرى ، ودخل إلى دائرة الضياء التي يسطع فيها كوكب
الشمس وتسلط فيها عيون الخلق ، أصيب بوباء الباطل ، وعاني من

داء الزوال . فهل تطلب من الصبية العذراء أن تعطيك من نظرتها نفس البراءة التي وهبها لك قبل أن تفقد عذريتها ؟ انت تخالف الناموس إن طلبت ذلك . تخالف ناموس السحر ، وناموس الصحراء .

انتصب واستقام . علق عكاذه على منكبـه الأيمن . تنفس بارتياح .
قال وهو يتابع فراغ العراء :

– هذا حال الكرة أيضاً . حال كل الدوائر المسكونة بالسر الأول .

سحب نفساً عميقاً . عاد من رحلته في الافق المغمور بلعب السائل اللعوب . التفت إلى بورو وألقى بالأمر :

– اقترب ! لو أصابت كل الخلوقات علة مجرّد أنهم عرفوا سر الدوائر عند خروجها من الوطن ، لما قضى أحد في الصحراء حاجة !

(٢)

وطأ المواقـد كثيراً ، ودارس الجمر مراراً ، وذاقت النار منه اليد والقدم والشفة ، ولكنه لم يذق ناراً أقسى من نار الكرة . من نار الخفاء .
من نار العلقم !

الوجع في النار يصيب العضو الذي احترق ، ولا يتقل إلى باقي الأعضاء قبل أن يصير مسأً يصيب الرأس . بعدها تبرأ الآلام . أمّا نار المخطل فهي مسّ منذ البدء ، تشتعل في الرأس كثزر البروق ،

فيستجيب البدن كله بالاوجاع . سمع عن قساوة العلقم من الرعاة ومن العطارين ، ومن السحرة العابرين ، فظن دائماً أنها قساوة تصيب من تجاسر وتناول النبتة في الجوف . فالسحر إذا طال به الزمان ، فإنه يحيا ويتحول إلى علة ، إلى حية تسعى في بطن الخلق ، ولا تخرج من الجحر إلا بحريق أقوى ، بقوة أقوى ، باسم أقوى مرتين من السم الذي تنفسه في جوف البدن . والناموس الضائع يقول أن الشفاء من الداء القديم كالحمد لا يُنال إلا إذا زهد المخلوق في روحه وارتضى لنفسه الفناء . وقول القدماء : «أيرن تامولي يمتيت»^(٥) يصلح لأن يقال عن العلل أيضاً . ولكنه لم يظن يوماً أن تتساوى ملامسة العلقم بعقب القدم أم بطرف اللسان . بل ما شعر به ، عندما حشّا له قرينه الساحر قدمه في بطن الكرة المشطورة ، كان أقسى من ابتلاع جمرة ملتهبة رأى أن يجربها مرة عندما انقطع في الخلاء طلباً لبعير ضال ، فقابل مهاجرًا غامضاً ظل يتسلى بابتلاع قطع من الجمر الأحمر طوال جلستهما الليلية حول النار . وقد أراد أن يحاكيه في غفلة منه ، فانتظر حتى خرج المهاجر إلى العراء لقضاء حاجته فتناول قطعة جذابة ، متوسطة الحجم ، ظلت تلمع في الظلمة بوميض مغز كندرات التبر ، فالتقها . القها في فمه فهب كالمدoug . لم يحتملها في الفم فابتلاعها . لم يحتملها في حلقة فدفعها باللعاب إلى أسفل . إلى الجوف . نزلت كتصل السكين . نحرت باطن

(٥) من أراد نيل المجد فليت » (حكمة منقوله عن آنهي) .

النحر وجرت الى الأمام . لم يتحمل التزيف ففرّ وركض في الخلاء . ركض طويلاً ، طويلاً . وعندما أعياه الركض وانطفأ الحريق في جوفه سقط على وجهه وحاول أن يتبعين ضجيجاً طارده طوال الوقت . تصنفت فسمع القهقهة تقترب ، وتقرب ، وتقرب . ادركه المهاجر وهو ما يزال يحاول أن ينتهي من ربط تكة سرواله الفاضفاض . ويبدو انه انطلق وراءه قبل أن يفرغ من قضاء حاجته . وها هو يجلجل بالضحك فوق رأسه بأعلى صوت . ضحك طويلاً ، ثم .. ثم اختفى . ولم يدرك سره إلا عقب اختفائه المريب . عرف انه معتوه من قبائل الخفاء اضطرته الوحشة أن يبحث عن تسلية فلم يجد أحداً يهزاً به غيره .

وبرغم أنه ظل يتقيناً الدّم بعد ذلك أياماً ، إلا أنه يستطيع أن يجزم الآن ، وهو يقف فوق احشاء الكرة الخفية ، أن الوجع الذي يشتعل في بدنـه الآن أقسى من الالم الذي انتابه عندما ابتلع قطعة الجمر بما لا يقاس . فأي سر في العلقم ؟ أي سر في الكرة ؟ أي عناء كتب عليه أن يعيش في سبيل الشفاء من خدش عابر على الجبين ؟

لم يكن يدرى أن عليه أن يترى كي يعلم أن السر في مكان آخر .

(٣)

نزَّ منه العرق في خيوط بللت ثيابه كلها . تقصد العرق من رأسه ، من الشعيرات ، ونزل على صدغيه وجبينه ورقبته . غمر عينيه وفمه

وسار الى اسفل . أحس بيده يفور ، ويغلي ، ويحترق . نار الخلاء كلها انتقلت الى جسده ، وسكنت اطرافه . الحريق الاعلى الذي اشعله القرص الجلاد في السماوات ، سكبه على الصحراء ، وجعله يسكن بدنـه . حلقه جفـ، وجوفه تيـس . وفمه امتـلأ مراـرة لم يـعرف لها طعـماً قبلـ اليوم . مـراـرة امـاتـت اللـسان ، وامـتصـت اللـعـاب ، وحرـقتـ الحـلق ، وـاـفـقـدـتهـ حـاسـةـ التـذـوق . هـمـ بـأـنـ يـتـكلـمـ فـاسـكـتـهـ السـاحـرـ بـإـشـارـةـ منـ عـكـازـهـ . زـحـفتـ نحوـهـ الـظـلـمـةـ ، وـتـرـاءـىـ لـهـ الـدـهـلـيـزـ الـموـحـشـ . قـدـ اـلـكـارـهـ . اـلـهـلـيـزـ ، فـتـرـنـحـ ، وـكـادـ يـسـقطـ ، فـاسـنـدـهـ الـقـرـينـ بـمـنـكـبـهـ . فـقـحـ عـيـنـيهـ ، وـلـكـنـ الـظـلـمـاتـ تـضـاعـفـتـ ، وـاـزـدـادـتـ كـثـافـةـ . هـمـمـ الجنـ فيـ سـقـفـ الـدـهـلـيـزـ ، وـنـدـ عنـ الجـدرـانـ أـنـيـنـ فـاجـعـ . فـيـ الـاـفـقـ الـبـعـيدـ ، فـيـ مـكـانـ ماـ ، تـبـدـتـ بـقـعـةـ الـضـيـاءـ . الـحـسـنـاءـ أـيـضاـ خـرـجـتـ إـلـىـ الـوـجـودـ . وـقـبـلـ أـنـ تـبـدـأـ مـرـاسـمـ الـعـذـابـ ، وـيـرـىـ الـحـسـنـاءـ وـهـيـ تـتوـجـعـ تـحـتـ ضـربـاتـ الـقـصـبةـ الـمـطـوـقةـ بـالـنـحـاسـ ، سـمـعـ قـرـيـنـهـ يـقـولـ :

– هل ظـنـنـتـ الشـفـاءـ مـنـ إـصـابـةـ العـصـاـ أـمـرـأـ سـهـلـاـ؟

ظنـ أـنـهـ لـنـ يـقـدـرـ عـلـىـ الـكـلـامـ . ظـنـ أـنـ التـرـيـاقـ اـفـقـدـهـ النـطـقـ إـلـىـ الـاـبـدـ ، فـتـعـجـبـ كـثـيرـاـ وـهـيـ يـسـمعـ نـفـسـهـ يـقـولـ :

– أـصـبـتـ فـيـ حـيـاتـيـ بـمـاـ هـوـ أـسـوـاـ مـنـ العـصـاـ إـصـابـاتـ بـعـدـ شـعـيرـاتـ رـأـسـيـ ، وـشـفـيـتـ فـيـ أـيـامـ وـلـيـالـ دـوـنـ أـنـ اـحـتـاجـ إـلـىـ هـذـاـ الـعـذـابـ .

- تلك إصابات لم تكن بالعصا .

غمغم بضيق :

- لم أفهم ..

- تلك لم تكن عصا الخيزران . السر في العصا .

- بالحق ؟

- سوف أشرح لك عندما انتهي من القرآن !

- القرآن ؟

لم يجب الساحر على التساؤل .

عادت الظلمة تتكاشف . ضاق الدهليز السفلي . اتسعت بقعة الضوء قليلاً . نزلت العصا ، تلقت الحسناء أول ضربة ، توقع أن يسمع ابن الوجع ، ولكن العكس هو الذي حدث . قهقهت الحسناء بأعلى صوت . وكلما تلقت ضربة جديدة كلما علا صدرها النافر بالقهقهات .
قهقهات وقحة ، كريهة ، منكرة ، لا تليق بحسناء .

تكلّم القرین مرة أخرى :

- انت اغضبني . لو لم تعذبني لما نلت الأذى . ما كان ينبغي أن

تعذبني !

- الأذى ؟

- ضربة العصا . الجرح في الجبين .
 - لم افعل شيئاً يستحق القصاص . طلبت إنزال الرحمة بالحسناء.
 - هذه خطيئة !
 - خطيئة ؟ هيهات أن تدخل لغة السحرة الى رأس الرعيان !
 - تدخلك كاد يفسد كل شيء .
 - يفسد كل شيء ؟ هيهات أن تدخل لغة السحرة إلى رأس الرعيان !
 - لاستخراج الكنز ناموسه كما يمتلك اصطياد الغزلان ناموساً .
 - فلتتعاقبني الصحراء إذا رأيت أن أخالف ناموساً من التواميس .
 - طلب الشفاعة للحسناء خطيئة كان يمكن أن تهلكنا .
 - اعترف لمولاي أني لم أعرف .
 - الفوز بالكنوز مجازفة كبيرة . كبيرة جداً .
 - اعترف للقررين الجليل أني لم أعرف .
 - انتظر . انتظر حتى ننتهي .
- بدأت الظلمات تتراجع ، وتنقشع . ولكن بقعة الضوء لم تتسع .

بقيت نقطة جذابة معلقة في الأفق ، ظلت تبعث ضياء شاحباً كضياء القمر ، ولكنها لم تختف ، ولم تذوب في الفيض الذي غمر الظلمات . تضاءلت الحسناء وتضاءلت . فقدت بدنها الفتان واكتسبت بدنًا آخر يلتصق بالأرض ، ويبدو أكثر فتنة . فقدت اطرافها البلياء ولملمت نفسها في بدن واحد طويل ، مرن ، املس ، لا رأس له ولا رجل ولا يد ولا عظام . يتلوى حول نفسه ويتكوّن . يفز إلى أعلى ، ويغوص في الأسفل . يقفز في الهواء بوبيات بارعة ، ويتحذ من التراب بحيرة للاستحمام والسباحة . رآها أيضًا تبتسم له ابتسامة اللؤم والفتنة والاغواء ، ثم تسطر لسانها إلى نصفين ، قبل أن تبدأ رحلة أخرى مجهرولة في جوف العصا المجهولة . أحس بالدوار فهرع إليه قرينه السراب . رفعه إلى العلي بسلطان مارد . سافر به في الفضاء حتى فقد وزنه . طاف به أرضًا أخرى ، تتمدد تحت سماء أخرى ، ودخل به واحة ترقد على سيف من المياه الزرقاء . تنبت فيها بساتين لم يرها حتى في تارات زمن التحرير . في البساتين رأى كيف تتدخل الانعام مع انصباب الحجارة ، والخلوقات تتقمص اطیاف الجن وتستعيir ابدان الطير واجسام الزواحف . اثاره القران ، وراقت له التحوّلات . نزل إلى «واو» كي يعرف السر ، ويجرّب التحول . دخل البستان فتلذّذ بعيير الرّتم . سار خطوات أخرى فوجد نفسه في دغل من شجيرات الفصيص . التقط ثمرة تر fas شقت الأرض وبرزت إلى النور . كانت من النوع الأبيض ، الفتان .

تمتع برائحتها وداعتها بين يديه ، ونفخ عنها ذرات الطين ، ثم نهشها .
نهش منها قطعة نية ، صغيرة . أحس بانتشاء يفوق الانتشاء الأبله الذي
يعبده الرجال عندما يستسلمون للنساء . في تلك الومضة اعترضته
احراش القصب ، فزحف على بطنه كي يجتاز الدغل . تحول الى حية
وانساب بين اعواد الخيزران الناثنة ، أحس بالسعادة فابتسم بشقاوة ..

(٤)

كان الساحر ما يزال يسلط عكاذه الخفي على الجرح عندما
تراجعت الحمى وعاد إلى نفسه ، إلى الصحراء ، إلى الحياة . تكلم
المهاجر بالبشاره :

– الآن استطيع أن أقول أني رددت الدين وساعدت قريني في
أن يشفى من لدغة الحياة .

– لدغة الحياة ؟

جلسا بجوار اللوح الحجري . اقترب الساحر من كرة العلق
المسطورة . تفقدها بالعكاذه . استحال جوفها الناصع إلى لون كثيب في
سود الفحم . تتم :

– السم !

قال بورو وهو يتحسس جبينه الذي اختفى منه الجرح :

– ولكنني لا اذكر أن حية لدغتني .

ابتسم الساحر . قلب العصا بين يديه . لمعت الاطواق تحت اشعة
الجلاد الأبدى . قال :

– إذا أصابتك العصا فقد لدغتك الحية . هذا سر القرآن !

تقدم نحوه خطوة . انحنى فوق رأسه ، حدق في عينيه فتذكر
بورو هاتين العينين . تذكرهما حالاً . هما نفس العينان اللتان رأهما في
الحية المرسومة على جدار الاسلاف . الحياة العظيمة التي تنتصب على
الصلد وتومئ الى الغروب ، نحو الكنز . استولت عليه قشريرة
واحس بخطر الحمى من جديد . ولكن الساحر ضيق عينيه فخبا فيما
البريق الغامض . قال :

– من اليوم أنا هو انت ، والحياة الحسنة ثالثتنا . الحياة الحسنة ،
بورو ، وانتهيط . القرآن لن يتم اذا لم يكتمل في الثالث . وللدائرة
يروق الانكفاء على المثلث كما يروق لها أن تحظى التقاطع .
انتصب واقفاً مره أخرى . رفع عمامته الزرقاء الى أعلى ، اضاف
كأنه يخاطب الشمس .

– ولكن الناموس قضى الا تصيب حية بأذى بعد اليوم .

نطق بالنبوة بجلال يليق بالنبوة ، ثم اعقب النبوة بنبوة
أخرى :

– إذا خنت العهد فلا تلومن إلا نفسك !

٤ - الظل

" HORRIDAS NOSTRAE MENTIS PURGA
(*)TENEBRAS, ACCENDE LUMEN SENSIBIS"

« ما نحن إلاّ ظلال تثقل كاهل الأرض »

ديوغين (الكلبي)

بيت من قصيدة مفقودة

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل .. »

القرآن الكريم

• اللهم أجرنا من الظلال الفظيعة ، وارقد النور في انكارنا ، (نص لا تبني لكيسيائي من القرون الوسطى) .

(١)

انتابت بورو الحمّى قبل أن يلغا الطلحة المجاورة للجلود المقدّس.

اعترضتَهما أكمة موحشة من النوع الذي يتَّخذُ الجنّ وطنًا ، ولا يقترب منه صحراوي دون أن يتخلى عن كل شيء ويغرق في تلاوة التعاوِيد . فوق الأكمة انتصبت أثلة هرمة ، بجذعها السمين أحاطت طبقات من اللحاء ، الاعراف فقدت اوراقها فتساقطت إلى الأسفل ، وتجمعت عند الجذع القديم بعد أن امتصت كل ذرة ملح جادت بها الأرض المجاورة . اختطفت حتى الأملاح التي طاف بها الريح ، أو أقبل بها القبلي من الاوطان البعيدة . استولت حتى على الكم الزهيد من الملح الذي يتَّنفس به الهواء . فالائل هو صياد الملح ، ومصاص كل ملوحة في الصحراء . والجن الذين اجمع السحرّة انهم افتقدوا الملح في بلادهم الخفية ، لم يجدوا منجماً يمدّهم ب حاجتهم الخالدة منه ، فالتّجأوا إليه واتخذوه معقلًا . وبرغم أن الصحراويين لم يدركوا سبب اللعنة التي حرمت جيرانهم في الخفاء من نعمة الملح ، إلا أنهم رروا أسطير كثيرة لا تحاول أن تجد تفسيرًا لهذه اللعنة بقدر ما تسهب في ذكر الواقع التي تؤكّدّها . فلم يحدث أن نزل مخلوق انتهى لعشيرة الخلاء على منتجع أهل الخفاء وقدّم له طعام من اطعمتهم الشهية إلا وخلا من الملح .

حتى أصبح خلو الطعام من الملح هو العلامة الوحيدة التي تميّز قبائل الخلاء عن قبائل الخفاء . ويستطيع الضيف أن يعرف بها إلى أي فئة يتبعي المجتمع الذي نزل عليه ضيفاً ، هل هو من أهل الخلاء أم من أهل الخفاء ؟ . وكان الاعتقاد الذي ساد الصحراء في زمان «أنهى» الصائغ ، أن الجن امتنعوا عن استخدام الملح لعلة في طبيعتها ، وتحدث الأوائل عن هذه العلة طويلاً ، وفي أكثر من وصية ، ولكن الذي ثبت فيما بعد أن أهل الخفاء لم يمتنعوا عن تعاطي الملح في اطعمةهم (التي تفوق في لذتها اطعمة أهل الخلاء بما لا يقاس) حرصاً على العافية ، ومراعاة للرحمية ، وزهداً في طيب المأكلي (الذي لن يكون طيباً ولا شهياً بدون هذه المادة السرية) ، ولكن اطعمةهم خلت منها لأنهم افتقدواها وضلوا الطريق إلى مناجمها كما ضلّلتها قبائل صحراوية كثيرة ظلت تقايض القوافل بكل ما تملك مقابل أن تناول حفنة واحدة من التربة السحرية . ويقال أن اللعنة التي حرمتهم من هذه النعمة انزلها على رؤوسهم الزعيم من عليائه في قمم «تارات» وذلك إثر غضبة من غضباته الجوسية التي كانت تنتابه لأسباب أرجعها البعض إلى داء السويداء ، وأرجعها آخرون إلى الحنة التي تعقب نفاد «آسيار» في مواسم الجفاف .

ومهما كانت الأسباب إلا أن المؤكد أن مملكة الخفاء خلت من كنوز الملح ، ولهذا السبب طلبوه في اشجار الأثل . ومع تدفق الأيام استولوا على الشجرة ، وجعلوا منها وطنًا . ولم يكن غريباً أن يصاب

بورو بالحُمَى عند الأكمة التي تتتصب على رأسها الأثلة الهرمة حرساً .
لأن العقل يقول أن الشجرة التي نذرت نفسها لاستجلاب كنوز الملح
من أبعد الممالك وأعمق الامكنة لابد أن يقف على رأسها الجن عسراً
أيضاً كما تقف هي عساساً على كنزها النفيس .

فهل داس بورو على قدم أحد العسس ، واستفزَّ مارداً من قبيلة
الخفاء حتى يتعرّض لاعتداء جديد ؟ .

(٢)

الحُمَى أيضاً سلالات وعشائر ، ومنازل .

حُمَى تتسمى إلى سلالة الوجد يغذيها الغناه ، وثيرها أشجار
اللحون يطير فيها المجنوب . تَعِد بالخروج إلى مملكة الواحة ، ولكن
العصفور لا يخلص من القفص ، ولا يجتاز الحدود ، ولا يعبر إلى
الصحراء الأخرى التي تظللها السماء الأخرى . ولكنها حُمَى نبيلة .
تنبع العزاء ، وتساعد على إتمام القرآن . وحُمَى تتسمى في الأصل إلى
الحزان . الْهَمْ لها وقود . والسكنون فيها لغة . وقساوة الوجه تعبر عنها
الذي يصلح القلوب ، ويمحو الوجع من افادة العشاق . وحُمَى أخرى
ليست بنت بيتها ، يُرجعها أهل الحكمه والعرفة إلى اصل أبعد مجالاً من
الأرض ، يخرج في حده من مملكة الصحراء . فشدد العرافون على
صلةها بالأعلى كثيراً . بعضهم قال أنها مستعارة من برج عطارد المسمى

في معجمهم بـ « كوكب النّحْس » ، والبعض الآخر أكَّد على علاقتها بـ كوكب الزهرة ، وفريق ثالث زعم أنها تستمد سُرّها من القمر عندما ينتقل في منازله ويصير بدرًا . ومهما اختلف العرافون والمنجمون وأهل الحكمة حول وطنها ، إلَّا أنَّ أجمعهم على هويتها المستعارة من الأكوان الخفية هو يقين . هذا اليقين لم يعطها القداسة فقط ، ولم يحطها بـ راسم الإجلال فحسب ، ولكنه جعل لها رهبة في قلوب الأغراط كما جعل لها لهفة في افءدة العشاق .

بها يعترف الزعماء ، وينحنى أمامها السحرّة والأكابر . فهذه العشيرة المهيّة (عشيرة الزعماء والسحرّة والأكابر) لا تعترف بالصغراء ، ولا تولي اهتماماً بالشيئون الأرضية ، ولا تتحنى إلَّا أمام الرؤى السماوية ، والنبؤات المنزَّلة ، ولا ترتضي أن تقبل في مجلسها مخلوقاً لم تفتح له « واؤ » أبوابها ، ولا تستقبل في الجمع من لم يدرك السرّ ، ولم يسقط صریع الحمّ ذات البروج .

وإذا اختارت الارادة الخفية مخلوقاً ، وخصته بنوبة حمّ من هذه الفتّة ، انقلبت الحياة في المصادر : تزغرد الصبايا في المروج ، تغتني الحسان لحون الشجن . تعزف الشاعرة على « إمزاد » اشعار الحنين ترافق النساء حول موقد النيران ، ترسو العجائز الصبيان بقطع التّمركي يركضوا بالبشرة إلى مجمع الحكماء . يتلقّى الحكماء البشرة . يتقاطرون إلى خيمة الاجتماع . يأمرون بنحر القرابين .

يستدعون الفرسان الاشداء . يأمرونهم بأن يأتوا بالمحوم مقيداً . يأتي الفرسان بالمحوم مقيداً من يديه ورجليه . يلقون به في زاوية الخباء ويخرجون . لأن الشريعة تقول أن المحوم للمجمع وحده لا يشاركه فيه أحد . يختلي به الحكام طوال الليل دون أن يعلم أحد في القبيلة شيئاً عن طبيعة هذه الخلوة . البعض يقول أنهم يبدأون في استنطاقه ومساءلته عن السماء الأخرى التي تنام تحت ملكوتها صحراء أخرى . يبدأ الزعيم بالمساءلة ، ثم يليه السّحرة ، ثم الأكابر . وآخرون يؤكدون أنهم يتخذونه لوحـاً يستقون منه النـبوـات وأنبـاء السـيـول ، واهـوال الجـدب والأـوبـة . وفريق ثالـث يدـعـي أن كلـ الأخـبارـ التي تـناـقلـتـهاـ الأـجيـالـ عنـ «ـوـاـوـ»ـ الضـائـعـ إـنـماـ اـنـتـزـعـتـ منـ أـفـواـهـ المـحـومـينـ . وـيـذـهـبـ آخـرـونـ إـلـىـ أـبـعـدـ فـيـ قـوـلـوـنـ أـنـ ماـ وـرـدـ فـيـ «ـآـنـهـ»ـ الضـائـعـ أـيـضاـ أـلـقـطـ منـ أـلسـنـةـ الـمـصـابـينـ بـهـذـهـ الـفـةـ منـ الـحـمـىـ الـتـيـ اـطـلـقـواـ عـلـيـهـاـ فـيـ بـعـدـ إـسـمـ «ـحـمـىـ الـخـروـجـ»ـ .

ومهما اختلفت الأقوال ، وتناقضت الآراء ، إلا أن سرّها بقى مجهولاً ، كما بقيت مراسم الاستنطاق نفسها سراً آخر ظلّ حكرًا على الزعماء والكهنة وأهل السّحر .

(٣)

تحت الأئلة سقط بورو . تدرج خطوات على الرمضاء . بدأ يتلوّى وينتفث الزبد . سفح عرقاً غزيراً . أصاب ثوبه بالبلل . ظلّ يتفضّل ويتوّلّ ويرتجف . ثم .. ثم فزّ فجأة . قفز وتعلق برقبة الساحر . دارت

مقلتاه في محجريهما وغاب منها السواد . أمسك بقلادة التمام المعلقة في رقبة المسافر . غمغم بكلام مبهم . ندت عنه صيحة مكتومة . ولكنه استطاع أن يجد طريقه إلى اللغة أخيراً :

– أصدقني القول : لماذا وضعت في يدي المدينة وأمرتني أن أجرّها على النهر ؟

لم يصب الساحر العجب . لم يدفع عن نفسه الحموم ، لم يدافع عن نفسه . وضع يده في كمة بتمهل الكهنة . أخرج مدينة فظيعة مدسوسه في غمد موسوم بالتعاويذ ، ومرسوم بالرموز والتمائم . جرّدتها من الغمد فلم نصلها في الفيض المنهر . نطق بحكمة الأوائل :

– ما يفيد الخلق أن يعلم أمراً إن علمه أصابه بالهم والسوء ؟

اشتدّت الرجفة في بدن الحموم . اهتزَّ وارتجَّ فانتقلت رجفته إلى الساحر . أجاب الحموم وهو يقذف بالألفاظ مع قطع الزبد :

– الهم أصابني يوم فقدت الخلق الوديع . السوء ركبني منذ اختفت وحكمت القدر بالفارق .

ردّ المسافر بصبر العابرين :

– لا يفيد الخلق من أمر إن عرفه أصابه بالسوء .

ترنّح الحموم ، ولكنه لم يسقط . تشبث يداه بنحر المسافر وقال بعناد طفولي :

- ألم تعلم وأنت عليم بكل شيء كيف تناصرت يوماً في جلد تيرزازت كي انزل إلى « آغرم نودادن » وألقاها ؟ ولكن آغار اعترضني . ولو لم يعترض آغار طريقي لا لتحققت بها ، وبقيت في مملكة الودان إلى الأبد .

- حسناً . سأخبرك ماذا يجول في رأسك . أنت ظنتني أخذت منك البراءة كي أعرف الطريق إلى الكنز . أنت ظنتني سرقة الحجر الأسود كي يدلني على الموقع . أنت ظنتني دفعتك إلى نحر المخلوق الجليل قرباناً لكنز لن يفلته التراب إلا بسيول من الدم . أنت ظنت كما يجب عليك أن تظن . أنت ظنت كما تظن كل المخلوقات التي لا تعلم عن طبيعتي شيئاً . المخلوقات التي تلعنني كل يوم دون أن تعرف جبلتي ، دون أن تدرك سري . أنا لا أريد الآن أن انكر أمامك السبيل الذي خلقت من أجله . بلـ . أنا تلك الطبيعة التي تفعل شراً ، ولكنه شرّ لا بد أن ينقلب إلى خير . هل تفهم ما يعني أن يكون الفعل محكوماً بضده ؟ ولكن هيئات أن تفهم ذلك . هيئات أن يفهم الإنسان هذه الأعجوبة لأنها لا تتم بين ليلة وأخرى . وبلاء الإنسان أنه ضعيف الذاكرة ، ينسى بين يوم وليلة . ولو وجدت تلك الفتاة القليلة التي لم يصبها سلطان النسيان ، لأدركت حكمتي وسبحت بحمدي .

تشنج المحموم ومضات أخرى . ترتجف مرتين . ازداد تشيناً بخناق الساحر . غمغم .

- أنا لا أدعُك أني أفهم كثيراً . أنا أعرف أني لا أعرف شيئاً .
ولكن الصوت البعيد ، البعيد ، يقول لي ويعيد أني فقدتها إلى الأبد إذ
جررت على نحرها ومديتك الفظيعة . الصوت يقول ويعيد أني لن
أجدها حتى لو تذكرت في بدن تيرزازت ، حتى لو رافقتك مرة أخرى
إلى الاوطان الأخرى . آ-آ-آ-آ....

ظللت الآهة تعلو ، وتعلو . تسكت مع التواهات ، آلون العظيم ،
تلقتها الجلاميد الجبلية . نفخت فيها من روحها ، من روح الاسلاف ،
واعطتها وصية للجَنْ . طاربها المردة بسرعة المردة وسلموا البلاغ إلى
آمغار في المملكة الظلماء . قال المهاجر بتصرّب الزعماء :

- لو قدرت أن تفهمني لتبيّن لك الأمر يوماً ، وإلى أن يجيء
ذلك اليوم ، لا املك إلا أن افتح لك صدري ، واضع في يدك المدية ،
نفس المدية ، كي أهيء لك أن تنتقم . أليس الانتقام ، في عرف
الإنسان ، هو دين أقدس من كل الأديان ؟

وضع في يده المدية الموسومة بالرموز . شقّ ثوبه وكشف له
صدره . هتف بغضبة دهماء لأول مرة :

- هيـا . أرني بلاهة الإنسان ! هيـا ! اعطني البرهان على قداسته
الانتقام في شريعتكم ! هيـا ! إطعن وقدم الدليل على الجهل بالأشياء ،
بالأعاجيب ، بنواميس القدر ، بخفايا الأيام ، بنبوءة الزمان ، بالطبعات .

بطبيعة الطبائع . هيّا ! إعطِ الدليل كما اعطاه الاشقياء من قبلك . وأعرف أن الجهل بطبائع الاشياء هو السبب في شقائقك . في تيهك ، في حنينك ، في ظمآنك ، في فجيعتك ، في كل ما ملكت يداك !

تناول المحموم المدية . حدق في الخطوط العميقة ، المعتمة ، الغامضة ، التي تزّق النصل الشّرّه . لفظ قطعة من الزّبد ثم قال دون أن يرفع رأسه عن السلاح :

– ولماذا لا تفعل خيراً منذ البدء ؟

– لأنني أخاف أن ينقلب إلى الضّد في مسيرة الزمان . أنا أحسب حساب الزمان .

– وهل من الملزم أن ينقلب الأمر إلى الضّد ؟

– ليس للمخلوق أن يتعرض سير الزمان حتى لو كان ساحراً . المنقلب بيد الزمان . ومشيّة السحر من مشيّة الزمان ، والساخر الموهوب يسلك السبيل قبل أن يأتي به الزمان يوماً . السحر يقول أن كل أمر لابد أن ينقلب إلى ضده . لست أنا ، يا مسكين ، من وضع الشريعة الأولى .

– لن أفهم هذه الشريعة ، كما لا أريد أن اعتنق لها مذهبًا ، لأنني لن استطيع أن أؤمن أن السّيل الذي يجري في الصحراء ليحيي النبت الميت ويبعث الحياة في الأرض ، يمكن أن ينقلب إلى شرّ .

- ها أنت ترتكب نفس الخطية التي ارتكبتها عشيرتك الشقية في أجيال وأجيال . ها أنت تعطى الدليل الأول على انتماشك لقبيلة فتك بذاكرتها النسيان . أعلم ، إذن ، أن السبيل من طبيعة هي لي خصم . وهو لا يأتي إلا لغاية الخير ، ولكن خيره لابد أن يصير إلى شر . لن يستطيع البلهاء أن يدركوا السر ، ولكن السحرة به أعلم لأنهم يرون البعيد ، ويعرفون أن العبرة بالمنقلب . فمِلْ بآذنك إلى يا ولدي وأسمع الوصيَّة : إحترس إذا أقبل السُّيل . احترس وتذكَّر مسلك « موخامد » * عندما يجوع . انت تعرف أنه يملأ الوديان عوياً إذا ثبع لأن الشبع لابد أن يأتي بعد الجماعة !

في ذلك الأوان كان الحموم يشغل بأمر آخر غير الوصايا والخطايا والطبايع . كان ينكب على النصل ، يحدق في الوَسْم . في الرموز . في رسم الحياة . كانت تتنصب على ذيلها . تلوى بدنها في العُلى . تتمدد في الفراغ . في نظرتها غموض السر . في عينيها وميض التَّبر . استعاد وقائع السَّفَر . اطاح بسلطان النسيان . تذكَّر ان الدليل سلبه الكنز . أخذ الحياة ، الحياة ، وترك له كوم التَّراب . كوم الهباء . هو حقاً أبله . الإنسان حقاً أبله ، لا لأنَّه لم يدرك الناموس كما يدعى الدُّعَى ، ولكن لأنَّه لم يدرك أن الكنز في الحياة ، وليس في التَّبر . لقد خدعه حقاً ، ونهب منها الحياة ، الحياة ، وترك له كوز الرَّمل . فما أغباء !

* موخامد : إسم مستعار يطلق على الذئب .

رفع النصل إلى أعلى . رسم رمزاً في الفضاء كنبوءة حقيقة، و... هوى . هوى بالنصل الشّرّه على صدر السّاحر . انتظر . انتظر أن يغيب النصل في اللحم . بل النصل غاب حقاً . لم يكن ما انتظره غيبة النصل في قفص الصدر ولكن السقوط . انتظر أن يهوي السّاحر أرضاً ليطفيء شهوة الانتقام . ولكن الساحر لم يركع ، والنصل أيضاً أرتدَ . ارتدَ إليه دون أن تلوّثه قطرة دم . الأعجوبة اشتعلت فيه فتيل الغضب . نفث دفعة جديدة من الزبد الناصع . سفح نداوة لا يعرف أحد من أي نبع أستعارها . شيئاً يده إلى قمة أعلى من رأسه . و... هوى . هوى بالنصل الغامض ، المعتم ، الشرس ، على صدر الخصم الخصم لم يركع . المدية اختفت ولكنها عادت . ارتدَت إليه دون تتشوه بقطرة دم . سمع قهقهة كريهة ، منكرة ، مختوقة . تراجع إلى الوراء . في تلك اللحظة أقبل جبارين راكضاً . صاح بأعلى صوت :

– الظل ! الظل ! عليك بطعم الظل ! هل نسيت أنك
تقاتل ساحراً؟

ترنّح الحموم . سقط على ركبتيه . فزّ واقفاً بوابة الابطال . حال بعينيه باحثاً عن الظل . دارت عيناه في الحجرين . في المقلتين غاب البياض تماماً . جبارين قدر أن غياب البياض هو الذي أصاب قرينه بالعماء . صاح به مرة أخرى :

- إنَّهُ مِنْ سُحْرَةِ الْأَدْغَالِ . سُحْرَةِ الْأَدْغَالِ وَهُدُوْمُهُمْ يَتَخَفَّفُونَ فِي
ظَلَالِهِمْ . إِطْعَنِ الظَّلَلِ !

بَدَا الْمُحْمُومُ يَوْجَهَ الطَّعْنَاتِ لِلظَّلَالِ . ظَلَالُ الْأَثْلِ ، وَالظَّلْحُ ،
وَ«آشِكَّ مَقْرَنٌ» * . يَتَقَافَزُ هُنَا وَهُنَاكُ ، يَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ
مِنْ جَدِيدٍ ، لِيَوْجَهَ الطَّعْنَاتِ الْمُبَيْتَةِ . وَلَكِنَّ السَّاحِرَ لَمْ يَصْبَ ، وَلَمْ
يَسْقُطْ ، لَأَنَّ الْمُحْمُومَ لَمْ يَكُتُشِفْ أَنَّ خَصْمَهُ كَانَ بِلَا ظَلَلٍ !

(٤)

التَّخْفِي فِي الظَّلَالِ حِيلَةٌ ابْتَدَعَهَا سُحْرَةُ الْأَدْغَالِ الْأَوَّلَيْنِ . ثُمَّ
اَنْتَقَلَتْ إِلَى كَانُوا . نَقْلَهَا الْدَّهَاءُ الَّذِينَ تَنَقَّلُوا مَعَ الْقَوَافِلِ وَزَحَفُوا إِلَى
الشَّمَالِ عِنْدَمَا اَنْتَعَشَ التَّبَادُلُ ، وَانْتَشَرَتِ الْمَقَايِضَةُ ، وَصَارَتِ التِّجَارَةُ
نَامُوسًا جَدِيدًا عَمَّ الصَّحَرَاءِ ، وَبَدَلَ فِي اِرْكَانَهَا الْحَيَاةَ .

قَبْلَ دُخُولِ هُؤُلَاءِ الْدَّهَاءِ إِلَى الصَّحَرَاءِ لَمْ يَعْرِفْ أَهْلُ الْخَلَاءِ حِيلَةً
غَيْرَ التَّنَكِيرِ فِي اِبْدَانِ الْمَخْلُوقَاتِ الْبَرِّيَّةِ : كَالْوَدَانُ ، وَالْغَزَلَانُ ، وَالْحَيَّاتُ ،
وَالْأَرَابُ ، وَالْفَقْرَانُ . وَأَشْتَهِرَتْ فَتَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ السُّحْرَةِ بِالْتَّحَوُّلِ إِلَى
أشْجَارٍ أَوْ أَحْجَارٍ أَوْ آكَامٍ . سَارَتِ الْحَيَاةُ عَلَى هَذَا الْحَالِ أَجْيَالًا . وَعِنْدَمَا
ذَاعَ صَبَّتِ الْمَقَايِضَةُ ، وَدَبَّ فِي الصَّحَرَاءِ الْأَغْرَابُ ، زَحَفَ بَعْضُ
الْمَغَامِرِينَ إِلَى الصَّحَارِيِّ السَّفَلِيِّ بِرْفَقَةِ الْقَوَافِلِ . وَهُنَاكُ ، فِي الْوَاحَاتِ
الْمُخِيفَةِ الْمَتَاخِمَةِ لِمَالِكِ الْأَدْغَالِ ، عَرَفُوا كَيْفَ يَجْرُونَ الصَّفَقَاتِ التِّجَارِيَّةِ

* آشِكَّ مَقْرَنٌ : الْأَعْشَابُ الْبَرِّيَّةُ الْمُشَابِهَةُ لِلشَّجَارِ ، وَلَكِنَّ لِنَسْلِهِمْ لِمَبْرُ الشَّجَرِ الصَّحَراوِيِّ عَلَى
الْمَاءِ فَتَرَوْلُ مَعَ حُلُولِ موَاسِمِ الْجَفَافِ .

المشيرة مع أهل تلك الأوطان ، وبدلوا النطرون وأكdas الملح بالتبَرَّ
الأبريز . عادوا بالقوافل الحمْلة بالكتوز ، وعبروا بها إلى ممالك الشمال ،
واشتروا بالثروة ، باكياس الهباء الاصفر ، احمال الحبوب والأقمشة
والزيوت ، ونعمَا شهية أخرى . النعم كانت دياراً وحساناً وغلماناً
وطوابير من العبيد . ذاقوا طعم الشهوات ، وظنُّوا أن الحياة تنتظِرهم في
احضان الجواري . فسرى بهم « وانتهيط » ليلاً ، وعبر بهم الصحراء من
جديد ، ظنناً منهم أنهم يسعون كي ينموا ثرواتهم ويتعمدوا بالحياة قبل أن
تفتح الهاوية فمهما ، (قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم ،
وترجع السحب بعد المطر ، في يوم يتزعزع فيه حفظة البيت ، وتتلوي
رجال القوة ، وتبطل الطواحن ، لأنها قلت ، وتظلم النوااظر من
الشبايك ، وتغلق الأبواب في السوق ، حين ينخفض صوت المطحنة ،
ويقوم لصوت العصفور ، وتُحطَّ كل بنات الغناء . وأيضاً يخافون من
العالى ، وفي الطريق أهوال . واللوز يزهر ، والجندب يُستقل ، والشهوة
تبطل ، لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدى ، والنادبون يطوفون في
السوق . قبل ما ينفصِّم حبل الفضة ، أو ينسحق كوز الذهب ، أو
تنكسر الجرة على العين ، أو تنقصف البكرة عند البشر ، فيرجع التراب
إلى الأرض كما كان) * . فمن تذوق لذات اعطاهَا التَّبَرَ لا يعترف
بسلطان هذا المعدن ؟ من جرَّب التَّنَقْلَ بين احضان سراري اشتراهن بما
له ، بهبائِه الاصفر ، ثم يتخلَّف عن طلبه حتى لو طار إلى جزائر واق

* سفر الجامعة (١٢ : ٦٢) .

الواق ، حتى لو التحق بواو التي تستر بملكة الخفاء؟ من رأى في منامه الكابوس الذي ينتظره ولا ينطلق ليقطع الصحراء ركضاً على قدميه؟ من تخيل ، ولو في الرؤى ، الهاوية التي قضى القدر أن يلقاها في فمها يوماً ، ويبحث عن عزاء في اللهو ، واللَّعْب ، والعبث؟ من من هؤلاء المغامرين أبصر شبح الظلمات في سره ولا يلتحق بالركب المتوجه جنوباً ، نحو مناجم معدن يشتري أنيل الحسان ، ويدلل الأبطال ، ويقيم مدنَا من فراغ ، ويزيل ممالك لم يكن لها مثيل في السلطان؟ وكان لابد للسادة أن يتخدوا في الطريق حاشية تخفف عنهم هم السفر ، وتزيل عنهم وحشة السبيل الطويل . ثم مضى زمن آخر احتاج فيه التجار إلى جند لحماية قوافلهم من غارات اللصوص وقطعان الطرق . ومضى زمن آخر . عبست فيه الأيام ، وتقدرت علاقتهم بأهل التبر . أدى تهافت القوافل على المناجم ، وزيادة الطلب على التبر ، إلى استيقاظ روح الجشع في أفراد الأمم الجنوبية ، وعرفوا قيمة التراب الذي بين أيديهم ، فرفعوا الأسعار اضعافاً في البداية . وبرغم أن تجار القوافل دفعوا لهم ، وقايسوهم بكل ما أرادوه من بضائع ، إلا أن النهب أدى إلى استنزاف الثروة ، فتراجع النسب المستخرج من المناجم ، وتململ الأهالي ، وخافوا من الأفلاس . ادركتوا أنهم سيُحرمون من الرخاء والرفاه والنعيم إذا نفت ثروة التراب .

هنا جاء دور السحرة .

السّحرة أشاروا على تلك القبائل أن تستفيد من ثروة أخرى ، وتلجلأاً لاستخدام السّحر لإنقاذ الثروة ، والتقليل من استنزاف التربة الصفراء . أذن لهم الزعماء بالتدخل . وفي عشية واحدة تناكروا في ابدان المخلوقات الليلية ، وتخفوا في جلود السنّانير والماعز والكلاب والجمال والحمير ، واستطاعوا أن يستعيدوا من التجار في ليلة واحدة بضاعة باعواها لهم في أسبوع .

وعيناً حاول التجار البلياء أن يعرفوا سرّ هذا البلاء . وكان عليهم أن يفقدوا أحمالاً كاملة من الذهب قبل أن يهتدوا إلى حيل السّحرة . حاولوا في البدء أن يستمبلوا أكابرهم بالعطايا ، ولكن الكهنة رفضوا الرشوة بعناد الزهاد ، وسلطوا مزيداً من المخلوقات الليلية على قوافل التجار .

لم يجد التجار منقذاً من البلوى غير سحر الصحراء .

دخل سحر الصحراء الملائكة السوداء برفقة القوافل . وبرغم أنهم لم يجدوا الطريق ممهداً لكشف حيل سحرة الجنوب ، إلا أن تجربتهم الطويلة في استعارة ابدان الكائنات البرية لم تساعدهم على كشف حيل خصومهم فحسب ، ولكنها مكتنهم من القضاء عليهم جميعاً في زمن قصير . كانوا يجتمعون في الظلمة ليعدوا الخطة . لأن الناموس الضائع علمهم أن لا شيء يستقيم بدون تدبير ، بدون إعداد ، بدون شوري ، بدون خطّة . يختلّون في خلوة ليبدأوا غمامة طويلة

تنتهي بخروجهم في جيش مخيف . خرجوا للماعز في ابدان ذئاب ، واقترسوا الحمير بانياب السباع ، وطاردوا السنانير الشقية بالضياع ، وسلطوا على كل دابة جاءت للاختلاس دابة أخرى أقوى منها ، تناقضها في المسلك ، وتفوقها في الحيلة ، وتعاديها بالطبع . ابادوا العدو ، ونهبوا الذهب ، وسلبوا السبايا . قرع سحرة الأدغال طبول الاستنفار . نزحوا إلى الغابات ، وطلبو العون من آلهتهم ، ومن كهنتهم المعزلة . قالوا لهم أن المشادة لم تعد في سبيل الدفاع عن الثروة ، ولا عن النفس ، ولكن عن حياة يتهدّدها الزوال .

من هناك ، من الأدغال الخفية ، عادوا بحيلة التخفي في الظلّال !

(٥)

الظلّ !

ملكة الخفاء ، سرّ الملكوت ، أرض الحقّ التي آثرها على الضياء ، واختار أن يتخذها وطنًا وحيدًا لا شريك له .

الظلّ !

الضدّ الغامض الذي يلعنه البلهاء جهارًا عملاً بوصايا ورثوها عن عشائر البلهاء . ولا يدرؤن أنهم يسبّون الملكوت الذي ستؤول إليه البدائيات .

الظلّ !

اغنية سماوية مجهرة لم يعرف سرّها سوى العرافين والسحرة .
هؤلاء اودعوها قلوبهم منذ البدء ، وتعلموا أن يحتموا بها من عدوان
الخلق وشرور الضياء .

تسلّلوا إلى أوطانها ، لأنها لم ينسوا الوصية التي ورثوها عن
الناموس المفقود إذ يقول : «إذا أردت أن تحيَا ، فاختف ، ثم اخْتَفِ ، ثم
اختف .. » ، وتعاليم السحر تؤكد أن سر كل أمر في ضده . في
نقضه . في نفيه . رأوا كيف تهزم القبائل عندما تنتصر في الغزوات ،
ورأوا أيضاً كيف تنتصر القبائل عندما تهزم . تعلموا أن ينصتوا لصوت
الصحراء فعلمتهم أن النعيم في الترحال ، والخلاص في الاعتزال ،
والحياة في العتمة ، في الظل ، في الاختفاء ، في التخلّي عن الحياة .

دانوا للظل ، للعتمة ، للعزلة ، بالحكمة ، وبأسرار الحرفة ، بأسرار
السحر . استظلّوا بالكهوف ، وهرموا من نار الشموس ، ونار الخلق ،
لأنهم ادرّكوا أن لاحياء مخلوق يدب بين الخلق ، ولا خلود لأمر أقضل
بكارت الضياء .

الظل !

إليه التجأ الجنّ منذ أول الزمان ، لأن أهل الخفاء كانوا أكثر
حكمة ، وأكثر تعلقاً بالناموس ، وأكثر إدراكاً للسرّ من الدمية البليدة
التي ابنتها الرقعة الجليلة من كوز الطين ، فرضيت بالتراب قدرأ ،

وجعلت من لباسه مصيراً ، وأبىت أن تخرج من القمقم ، وتنفذ إلى دينونة الخفاء الواسعة . بقيت الدّمى أسيرة الأرض لهذا السبب ، وحلق الجن ، وكائنات السر ، في الأعلى ، طافوا البروج ، وعبروا الأكونان ، ودخلوا حرم الواحة المفقودة ، وعادوا من المعراج في غمضة عين !

الظلّ !

فيه وجد أهل السر لقية . في ملوكه رقدت كرة دائيرية مطفأة الصورة . قيل في الرموز الحجرية القديمة أنها كانت تحوي في جوفها سر النقائض كلها !.

فكيف لا تصير مملكة الظلّ نعيمًا للسحراء الدهاء ؟ وكيف لا يخذونها وطنًا وهم الذين آلو على أنفسهم أن يحاکوا الله ؟

(٦)

حلّ المساء . نزلت العتمة . رأى جبارين أن يحاوره . سأله عن العتمة :

- هل يقدر الخلق المشدود إلى التراب بأوتاد الطين ، أن يخرج ، ويسكن الظلّ ؟

احتضن الساحر ركبته المرفوعتين . راقب غياب المساء بخشووع الكهنة . تمت بتعويذة مجهرولة . رمق جبارين باستخفاف . اجاب :

- انت قلت ذلك . ألم تصرخ بقرينك أن يطعن الظلّ ؟

- الحق أقول : إنّي كنت أشكّ . ولكنّي اليوم أيقنت .
- هل أيقنت أن المخلوق لا يصاب بضرر المديّة إذا صار كله
ظلاً؟

- أيقنت بوجود السحراء الذين يسكنون الظلّال .

تدخل بورو :

- عرفنا حيل الخروج من القمم والاختباء في الظلّ ، ولكنّا لم
نعرف ساحراً يخلص من الظلّ .

ابتسم المهاجر . تناول عكازه . تحسّس عقده النحاسية بحنين
غامض . قال ساهماً :

- الساحر الحقيقي ليس الساحر الذي يختبئ في ظله ، ولكنه
الساحر الذي يخبيء ظله ! .

هتف جبارين وبورو بصوت واحد :

- يخبيء ظله ؟

رسم المسافر رمزاً على التراب بعصاه . ثم رفع العصا نحو الأفق .
خطّ بها علامات أخرى في الفراغ . سكت حتى خيل لجلسيه أنه لن
يجب على السؤال . ولكنه تكلّم أخيراً من مقامه في الأفق :

- صوّر الساحر في ظله . قدره في ظله . مصيره في ظله .
وسيظل في دائرة الخطر ما ظلّ الظلّ مكتشوفاً ، مفتوحاً على الخلاء .

عندما توصلَ الأوائل إلى الحيلة وحررُوا السرّ من كوم التراب ، ودعوه عتمة الظلال ظنوا أنهم حققوا الإعجاز وأخفوه عن عين الشر إلى الأبد . ولكن كما وجدوا هم الحيلة ، وجد خصومهم حيلة أخرى اهتدوا بها إلى الوطن الجديد . انكشف الموضع فبطل السحر ، وتبدل الإعجوبة . وكان على الأجيال التالية أن تبحث عن وطن آخر تخفي فيه السرّ . ونحن الذين توصلنا إلى الأرض الجديدة . واخفينا فيها أنفس ما في الحياة ، واخفينا فيها الحياة نفسها ، يسموننا دهاء . إن المشوار يقضي أن تدفع الحياة ثمناً كي تهتدي إلى سبيل الملوك الذي يقدر أن يكون حصناً لكائن يرفرف في الصدور ، للملحوق الذي نسميه في لغتنا عصفوراً ، روحًا ، وتسموه في لغتكم حياة .

أوقد جبارين ناراً . وتهياً لإعداد العشاء . سأل بورو :

– ولكن أين يمكن إخفاء طيف كالظل؟

لوجه الساحر بالعصافير وجهه وقال بغموض :

– في القمم!

– في القمم؟

ظنَّ بورو أن جوابه كان استهزاء ، ولكن الساحر مال إليه ، وقال له وهو يلوح بالعلказ في وجهه :

– هنا . هنا . أليس هذا قمماً أحكم من كل القمام؟ هل نسيت الأخطر؟ هل غابت عنك الأهوال؟ هل غلبك النسيان ونسيت

رحلة الكنز ؟

داعب الاطواف النحاسية بكلتا يديه . تجهّم ، تكلّم عن الهم :

- ولكن كيف يكون الإنسان إنساناً إذا لم ينسَ؟ ماذا سيفعل
كائن يخفي في صدره كنوز الأرض وسر السماء في منفاه الجديد لو لم
يغلبه سلطان النسيان ، ويصبحه باللعنة التي قطعت صلته بالوطن الأول ؟
هل كنت أنا ، الساحر البائس ، استطيع أن أخدعه وأسرق الحياة من بين
يديه مقابل أن أترك له هباء تراب يسميه كنزاً ؟

اقترب منه بورو . مال نحوه حتى وضع شفتيه في طرف اللثام
الذى يغطى الأذن . استولت عليه الرجفة ، وبدا أن الحمى تهدّد بالعودة
من جديد . غمم :
- هل الحمّى ...

- هي - هي - هي .. ها أنت تغلب السلطان أخيراً . هي -
هي .. ها أنت تتفوق على نفسك و تستعيد وهج الوطن . هي - هي ..
نعم . نعم . هنا الحياة . هنا السر . هنا الحياة . هي - هي .. الحياة . الحياة .
إنها أنا . العصبا هي أنا . أليست خدعة موفقة أن يخبيء الإنسان نفسه في
جوف قطعة قصب ، في عود الخيزران ؟ هي - هي - هي . اعترف
أنها حيلة يتتفوق فيها المخلوق على نفسه ! هي - هي .. ظلّي في يدي !

تكاثفت في الأفق الظلال ، واكتمل في الوادي نزول العتمة .

١٥ - النبوة

« يزعمون أن أبا جعفر المنصور نزل في بعض القرى ، ففرض الفأر مسحًا له كان يجلس عليه ، فبعث به ليرفأ ، فقال لهم الرفقاء : إن هنا أهل بيت يعرفون ، بفرض الفأر ، ما ينال صاحب المتابع من خير أو شر ، فما عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه ؟ . فبعث المنصور إلى شيخهم ، فلما وقعت عينه على موضع القرض ، وثبت وقام قائماً ، ثم قال : من صاحب هذا المسح ؟ . فقال المنصور : أنا . فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، والله لتلين الحلافة أو تكون جاهلاً كذاباً »

أبو عثمان الجاحظ

« الحيوان »

« يقول الله : ويكون في الأيام الأخيرة أنّي اسكب من روحي على كل بشر فيتباً بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ، ويحلم شيئاً يحكم أحلاماً . وعلى عبيدي أيضاً وإمامي اسكب من روحي في تلك الأيام فيتباًون »

اعمال الرسل

(١٧: ٢) (١٨)

(١)

في مزود المهاجر تخبّأ قطعة من اللحم .

يخفيها المهاجر في جراب السرّاج مثل تميمة . كأنّها حرز يحتمي به من عدوان أهل الخفاء الاشرار ، لأنّه يحصّنه من العار إذا بات ليلة ونزل عليه عابر آخر ضيفاً . عندها يتنهج . يتنهج لا لأنّه سيدِي جُوداً يتنقل مع المسافرين في الصحراء ليبلغ أبعد الأم ، ولا لأنّه سيفوز بالصيّت الذي يرمي في سبيله الأبطال بأنفسهم إلى التهلكة ، ولكن لأنّه سيتقاسم مع عابر آخر لقمة تقدّست منذ أن تخلّى عنها الجدّ ورفض أن يأكلها ، فتحوّل إلى آمغار ، وسكن الوطن السفلي في «آغرم نودادن» . سيتقاسم مع مهاجر آخر ساقته إليه الأقدار ، مع اللقمة ، مع جرعة الماء ، خطاباً صام عنه طويلاً ، هو في جلال اللقمة ، ولا يقل ، في القدسية ، عن جرعة الماء . فإذا كان الصمت لغة الخلاء ، فإن الاسترخاء تحت ضياء القمر ، والمحاورة الطويلة التي تستمر حتى قبيل الفجر ، هي تاج الاجتماع ، ونعمّة اللقاء . وبرغم اليقين الذي يعتنقه كل المهاجرين ، ويرون فيه أن كل ما هو كائن اليوم ، وما سيكون أيضاً غداً ، هو من قدّيم قدّ كان ، وأنّ الجديد لا مكان له تحت الشمس ، إلا أنّهم لا يتوقفون عن الحوار ، وألسنتهم تتلذّذ بالإخبار ، لأن التخاطب ليس وسيلة لتبديد الوحشة في ناموسهم ، في شريعة السفر ، ولكن الخطاب ، اللغة ، تبادل الكلام ، هو حيلة لصنع ذلك البرهان الذي يؤكّد لهم أنّهم

ما زالوا على قيد الحياة ، والزوال الذي ظنوا أنه أخذهم ، أمهلهم ، ولم يستغفلاهم بعد . تجود الأقمار بضيائها ، فيسكن الليل في بدن الصحراء ، والصحراء تمدد ، وتسترخي ، بعد أن هجرتها الكائنات ، وآوت إلى بيوتها ، تتأمل القبة العليا ، تقرأ النبوءات في ومض الكواكب النائية ، وتنصت لتراث المهاجرين . المهاجرون يستلقون على ظهورهم بعد أن تمتعوا باللقة . يرقبون القمر ، يتسلّون بمحاباة اشقياء الجن الذين يترافقون في العراء كالجديان . يتبادلون الأسئلة ، يتلذّذون بالكلمات ، بالألفاظ ، بلفظ الألفاظ ، بالنطق . يتحول الصوت نفسه إلى جسد حقيقي ينطلق مع أنسام المساء ليدب ، ويتسكّع في العراء ، لأن الصمت الطويل ، الصيام المزمن عن اللّفظ ، يغذّي الحنين ويعوّل التراثة الليلية البريئة ، الكسولة ، التي لا غاية لها ، إلى نشيد شجيّ له سلطان الشعر ، وسحر اللحن ، وعذوبة مواويل الغناء .

يهاجر الليل ويهاجر المهاجرون . يمضي ويمضون لتشييعه في بروجه بالثالوث : الماء ، قطعة اللحم المجفف ، والمحاورة . بالثالوث تُبني العلاقة ، ويشيد القرآن ، وتجدد الحياة . ولكن العابرين لابد أن يتبادلوا خطاباً آخر قبل أن يسرقهم سلطان النوم . لابد أن يمدّوا أيديهم إلى العظام ليقرأوا فيها أخباراً أخرى لن يأتي بها الخلق أبداً . المهاجر يعرف أن النبوة هي الخطاب الخفي الذي أرادت له الأقدار أن يجعله له لغة منذ خلقت اللغات .

عظمية الكتف كانت من نصيب بورو.

لم يدفعها إليه الحظ ، ولم تهبه لها المصادفة ، ولكنه لاحظ القطعة الجففة عندما أخرجها جبارين من مزوده . تابع قرينه وهو ينكب على اللحم ويقطعه بالمدية . ورأى العظمية عندما القى بها جبارين في القدر الملئ بالماء الممزوج بحفنة من النعمة . بحفنة نفيسة من اللحم . وضع جبارين الطبق أمام الضيف بمراسم تليق بالساحر . فمدّ بورو يده في العتمة واستولى على العظمية ، على الكتف ، على لوح النبوة . تظاهر بمشاركة الضيف ، ولكنه جرد اللوح من اللحم خفيّة ، وألقى بنصيبيه أمام الساحر . أحفظ بالعظيم ناصعاً ، عارياً من كل بدن ، في راحة يده اليسرى . رمق العابر خلسة ، فوجد الداهية يتسم بغموض العرافين . ردّ تيمة الحمد بصوت مسموع ، وتراجع إلى الوراء . من وراء جلمود انتصب فوق القمة تبدّى رأس القمر . فوقه طاف ساهور شاحب ، ولكنه حمل آيات عهـد ، ووعد بالإلهام . رسم فوق الجبل قوساً خفيّاً كالهلال البكر ، ولو لم يفسد الساهور الشاحب طهارته لظلّ هلاً وليداً . تابعه وهو يرتفع ، ويتوكون ، ويولد ، حتى خرج من آخر المنازل ، وأكتمل في دائرة كبيرة ، خفية ، ذات حدود صارمة . ولكنها جادت بفيض حميم ، مفاجيء ، اغرق الوادي الكثيب في غمر من ضياء . تابع الكوكب سفره . وتابع هو مسيرته . شدد قبضته على

العظمة وراقب الدائرة الكبيرة ، الخفية ، ذات الحدود الصارمة . تعلق بالكرة المعلقة في الفضاء الفاجع الذي تشبه بقمع تادرارت اللامبالية ، المكابرة ، التي تخلّت عن العراء السفلي منذ أن رفعت رأسها إلى أعلى .

وهب الكائنات السفلی ظلاماً . انتشرت الظلال عبر امتداد الوادي . استعار حيل السحر واسکن الاشجار في العتمة . في السر ، في الظلّ . رأى الطلح يهرب من صلبه في الجذع ، وينزل ليتخفي في الظلّ .

في القرص قرأ نداء غامضاً ، وفي الجوف تململ حنين حميم .
انتهى العشاء . التفت إليه الضيف . في عينيه رأى دموعاً .

(٣)

استلقى الأقران الثلاثة بعد اختتام القرآن .

جباري ن هجع في مجاورة الطلحة ، ناحية الشق الجنوبي للجبل ، وبورو تمدد ضداً ، عبر امتداد الوادي ، في مجاورة الضيف . راقبوا الميلاد كلّهم . تابعوا الوليد المستدير وهو يتحرّر ، ويخرج من المنازل الخفية ، ليجد طريقاً خفياً ، جديداً ، إلى منزل خفيّ ، جديد . تحمّموا بفистه في خشوع الكهآن . دخلوا مع الدائرة الفضية إلى دائرة الأبراج ، وخافوا أن يفسدوا البراءة إن هم هتكوا الحرم ، وتفوهوا بكلام . رأوا أن السمر لن يحلو ، واللغة ستفقد سرها ، والأنباء لذتها ، إن لم يطوفوا المنازل ، ويحلقوا في الملوك ، مع القرص الوديع أولاً .

بورو أول من أنهى الطواف ، وسبق إلى النزول .

نطق بنبرة كسلة ، مجده ، نائية ، كأنها قيلت في كهف ، أو

بعثت من دهليز :

- يُقال أن الأرض ستتسيل هذا العام .

لم يعلق أحد . فبقيت العبارة معلقة في فضاء السكون زمناً ، ثم انطلقت تسکع في الوادي . تعلقت بالشجر ، تمسحت بالحجارة والجلاميد الصخرية . تسلقت السفوح ، اعتلت حيد الجبل ، بلغت أفواه الكهوف ، استجاب لها الجن ، وهمهموا احتفاء بالنبوءة ولكن العبارة مضت تتطاول في الأعلى ، تعلق بثلايبي القمم . هناك انتهرت . تلقت وعيداً في صيغة سؤال لم يكن في حاجة إلى ترجمان . رددت القمم الجنوبية والشمالية معاً ، في وقت واحد وبصوت واحد ، وباستنكار واحد ، يحمل في لهجته ذلك الوعد الخفي ، ذلك الوعيد : « الأرض ستتسيل هذا العام؟ ». ودفعت بالاستنكار ، بالوعد ، بالوعيد ، إلى أسفل . أعادت العبارة إلى أهلها . ارتدت النبوءة لتسقط في أذن قائلها . عادت من منفاه غريبة وجريئة ، ولكن بورو لم يعرفها . ظن أنه تلقى سؤالاً بدل الاستنكار . تلقى سؤالاً من الساحر ، أم من أهل الخفاء ، فأراد أن يرد على التساؤل بإيضاح :

- الرعاة الحكماء يقولون ذلك !

شدّ قبضته على العظم . شدّها كما شدّها يوماً على الحجر .
ضمّها إلى صدره . جرّها على القفص . الجهة اليسرى من القفص .
حكّها على بيت يسكنه عصفور النور . حكّها كأنه يريد أن يبلغ الحرير
الذي يستعمل في البيت ويهدّد العصفور الوديع . حكّها كما يحك
عرجون نخل بعرجون نخل ليشعل ناراً تلتهم النار الأخرى التي تشتعل
في جوف القفص . زحف نحو الساحر دون أن يدرّي . مال على اذنه
وهمس له بصوت لم يعد له :

ـ إقرأ لنا النبأ في العظم !

رفع الساحر رأسه . استند بدنّه إلى مرفقيه . التفت فوجد أن
العظمة في وجهه . تحجب دائرة الفيض ، تحمل في قلبها رموز المجهول .
تبعثر آيات الزمان في يقوعها الخفية . ينطق الوشم في لوحها الناصع بلغة
الخفاء . تسكب عليها الدائرة السابحة في منازل الفضاء فيض الفضة
فترداد الرسوم في وجهها وضوحاً في اللون والصورة ، وغموضاً في
ناموس الرؤيا ولغة التفسير .

النبوءة مطفأة كالحجر الحكيم . تعتصم بالظلمات ، تخبيء
نفسها في جوفها ، فتحتاج عن الرائي ، في حين تكشف وجهها
للعميان ، فيراها الكهان بعين أخرى أحدّ بصرًا من عيون كل الرائيين :

عين الإلهام !

هذه العين لم يأت بها سحره اتخذوا من رؤوس السنانير لهم طعاماً ، ودم الحرباء شراباً ، كي يتعلّموا الحيل ، ويقتنوا التخفي . هذه العين لم تدخل المملكة العارية من تخوم الجنوب لأنها لم تكن حيلة ، بل كانت بنت بيتها ، ولدت في المتأهله ، وشقّت لنفسها طريقاً مضاداً ، ومضت ، من هذه البقعة ، لتعزّو القارّة ، وتمضي إلى كل القارات . ولدت ، وشبّت ، وانفتحت على النور في مملكة العراء ، لأن الانقطاع ناموسها ، والصيام لها شرط أول . ويرى الحكماء أن تلك الطائفة التي تفني العمر في طلب الواحة المفقودة هي أكثر الطوائف قدرة على استكشاف الغيب ، وموهاب كهانها لا تقارن إلا بالأنبياء . عرفت الحمادة أحد هؤلاء . كان جواؤاً منذ طفولته ، لم يعرف له طعاماً غير العشب . وفي مواسم الجفاف يستبدل النبات بحبة واحدة من التمر ، يتخذ من ضلافتها إفطاراً ، ويتناول نصفها الثاني على الغداء ، وغلاف النّواة له عشاء . وإذا التقى عابراً آخر ، استضافه بالتمرة ، واكتفى هو بالنّواة . كان يدقها بين حجرين حتى تصير هباء في نعومة الدقيق . يسفّها مثل السوق . بنية هذا المهاجر كانت ضامرة مثل عود قصب ، ولكنه امتلك عيناً كانت ترى صاحبها وهو بين الماء والطين ، ثم وهو نطفة ، ثم وهو مضغة ثم وهو جنين ، ثم وهو يتقلب في ظلمة الجوف ، ثم وهو يندفع إلى أسفل ، وينشق من الغيوب كالنور . ويروى كثيرون أنه كان يرى بعد من هذا الزمان . كان يصر الأحوال في امتداد الأزل ،

ولكنه يؤثر الصمت إزاء هذه الرؤيا ، ولم يكشف سرّها لخلوق أبداً . ولولا ساعات الاسترخاء التي يقضيها لاسترداد الانفاس بعد سفر طويل ، لما عرف أحد شيئاً عن الرؤى في زمان الازل . كان يتمدد تحت كوكب الضياء ، يحدق في الوجه المدور بعين غائبة . يدندن بالحان مجهولة لم يعرفها أهل الخلاء ، ولم يترنم بمثلها أهل الخفاء . الحان فاجعة ، ولكنها شجية . في هذه الألحان (التي سمعها كثيرون) عرف الخلق سيرته في الأزل ، وادركتوا سرّه الأول . فقد كان مهاجر الدهر قبل أن ينبثق مع فيض النور ، طائراً سكناً بدن « مولا - مولا ». ثم تقلب في الزمان ، ودار في البروج ، وعاد إلى الأرض في بطن ودان . تقلب به الزمان مرة أخرى ، وطافت به الأيام ممالك أخرى ، فوجد نفسه ينزل إلى وطن الرؤى السماوية في جذع طلحة . ويجمع كل من عرفه أن عينه كانت ترى بوضوح أكثر ما غاب عن عيون الخلق ، وتشهدت عن اصغر سرّ من أسرار الزمان في سيرة الأبد . فهو يرى ما سيؤول إليه كل أمر . ويدرك بُعداً بُعد ، فيرى المنقلب . رأى نفسه ميتاً ، والرؤى المدسوسة في أجسام الضوء تتحلق حول جسده وتصنع له الكفن ، وقبل أن يختفي ذلك العابر أخبر ، في إحدى الأغاني الشجانية ، أنه سيعود بعد زمان طويل في بدن حيّة ! ولكن الطوائف التي لم تختبر الانقطاع ، ولم تعش الاعتزال إلى النهاية ، ولم تبلغ عينها حداً أبعد من يوم الممات ، نالت قدرأً من الكفاءة أهلهَا لرؤية الخفايا ، وقرأت الرموز في مسلك

الطَّيْرُ ، وَفِي عَظَامِ الْأَنْعَامِ ، وَنَامَتْ فَوْقَ مَدَافِنِ الْقَدَمَاءِ لِتُخْبِرَ عَنْ سِيرَةِ
الْغَيَابِ الَّذِينَ رَافَقُوا الْقَوَافِلَ ، أَوْ تَاهُوا بِحثًا عَنْ وَأَوْ ، أَوْ ذَهَبُوا فِي
حَمْلَةٍ ، أَوْ اشْتَرَكُوا فِي غَزْوَةٍ .

وَلَمْ يَعْدْ وُجُودُ مُوهَبَيْنَ ابْدَعُوا حَتَّىٰ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ .
فَعَرَضَتِ الْقَبَائِلُ كَهَانَةً جَاءُوا بِأَبْنَاءِ الْمَجْهُولِ دُونَ أَنْ يَنْظُرُوا فِي عَظَمٍ ،
وَدُونَ أَنْ يَطَّارِدُوا أَسْرَابَ الطَّيْرِ ، وَدُونَ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى الْمَقَابِرِ . وَلَكِنَّهُمْ
كَانُوا قَلَّةً بِحِيثِ صَنْعِهِمْ الْحَكَمَاءُ عَلَامَاتٌ تَؤْرِخُ لِأَحْدَاثٍ ، وَأَنْصَابًا
وَسَمَوَا بِهَا تَقْلِيبَاتِ الْأَيَّامِ فِي الصَّحَرَاءِ .

ثُمَّ جَاءَتْ عَهُودُ أُخْرَىٰ تَنْقَلَّتْ فِيهَا وَفُودُ هُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى
الدُّوَالِّ ، كَمَا تَنْقَلَّتْ افْوَاجُ السَّحَرَةِ قَبْلَهَا مِنْ دُوَالِّ الْأَدْغَالِ ،
وَغَزَتْ صَحَارِيَ الشَّمَالِ ، فَحَدَثَ التَّمَازِجُ فِي الرَّؤْيِ ، وَقُوَىُ الْاِخْتِلاَطِ
فِي مَعْرِفَةِ الدِّينِوْنَةِ الْخَافِيَةِ ، كَمَا حَدَثَ تَمَازِجٌ قَبْلَهَا فِي صَلَاتِ الدَّمِ ،
وَالْاِخْتِلاَطِ تَقْرَى بِطَوَابِيرِ السَّبَّابِيَا ، وَاحْضَانِ الْحَسَانِ .

(٥)

— مَا أَخْبَرْتَهُ الرَّعَاةَ حَقًّا . الْوَدِيَانُ سَفَيْضٌ بِالسَّيْوَلِ !

لَمْ يَخْبُرْ بِالنَّبَأِ إِلَّا بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ :

تَنَاوَلَ الْعَظَمَةُ مِنْ بُورُو وَقَلْبَهَا بَيْنَ يَدِيهِ . تَحْسَسُ رَأْسَهَا المَدُورُ
بِأَصَابِعِهِ . خَنِقَهَا بِطُوقٍ صَنَعَهُ مِنْ الإِبَهَامِ وَالسَّبَّابَةِ . ثُمَّ تَفَقَّدَ الْجَسْمُ الْمُثْلَثُ

الذى يخرقه عرق يشطره إلى نصفين غير متساوين . لأن العرق يتلزم أحد الجانبين ليترك فضاء فسيحاً لبقع العتمة ، للخطوط الخفية ، للنمنمات الغامضة ، للآيات ، للنبوآت . اعتدل الساحر في جلسته . مضى يتحنى فوق كنزه . فرّكه بين يديه ، ثم بدأ يرفعه ببطء شديد إلى أعلى . اعتلى به حجره . اجتاز به شبح جلمود الأسلاف . بلغ به السفح . تسلق به الحيد المتوجه شرقاً ، تنقل معه بين مقابر القدماء المنتشرة على السفوح ، استوقفه عند الأكواخ الحجرية المستديرة ، وتوقفا معاً عند أفواه الكهوف المحفورة بأساطير الأولين ، تمرغا في رماد خلفته نجوعهم الفانية ، ركعا عند الرسوم ، ونزلوا ضيفين في مملكة آثار . خرج لهم آثار من المغاراة العليا . تقدما إلى الأمام . صعدا العمود الاملس ، دخلوا حدود الحرث . تنادى جند الزعيم بلغة الجن . تحولت الحجارة إلى مردة وعمالة ، وركض الزمان بالنبأ ، لأن اللوح بلغ المكان ، والرفعة وقعت في الكف ، وفيض الكائن المستدير السابع في الفضاء انسكب على اللوح ، وأصاب قطعة الرقعة ، ولم يبق للناموس إلا أن يخطّ الروايا ، ويرسم الوعد في القرطاس .

رفف عصفور الطفولة في صدر بورو فاقترح :

- هل أوقد ملولي ناراً !

لم يجده العرّاف ، في، حين انتهره جبارين بامياء صارمة .

غاب الجليس في المعبد طويلاً . ظلّ يقتعد قاع الوادي . يشيع أمامه لوح الأجيال . يشيعه في الوضع الذي يحجب فيه اللوح قرص القمر . ولكن القرص لا يحتجب . بدن القرص يتبدّد في نثار الفضة ، في هباء الفضة ، والهباء يذوب في القضاء ، المسافة تصيره فি�ضاً من ضوء ، سيلًا من ضوء ، يتدفق في الخطوط ليحوّلها إلى لغة ، ينسكب في البقع المبهمة ليجعلها حروفاً ، يتسلل في الصور ليبعث فيها الحياة ، ويتدلع الرؤيا .

توعّل السكون في الصحراء . توغلت الصحراء في السكون .

أخيراً عاد الكاهن من ملكوت المعبد .

تفوه بالعبارة الصغيرة :

– ما أخبر به الرعاة حقّ . الوديان ستفيض بالسيول !

أعادها ثلث مرات دون أن يلتفت لأيٍّ منها . ومكث مدةً أطول وهو يحتضن اللوح بين يديه وينكب فوق حجره . لم يتمهج أيٌّ منها بالنبوءة ، لم يلاقيا البشرة بما يليق ، ليس إجلالاً لوجوم الكاهن المكبل بأغلال الرؤيا ، ولكن لأنهما عبرا معه إلى السماء الأخرى ، التي تظلّل صحراء أخرى ، وتأنّخا في العودة إلى صحراء التيّه التي تظلّلها سماء التيّه .

(٦)

مدّ بورو يده لاستعادة اللوح ، ولكن الكاهن تجاهله . قال
بغموض :

– الآن تستطيع أن توقد لي ناراً .

مضى بورو يمدّ يده بعناد الأطفال . سأّل ببراءة الأطفال :

– وما حاجتك إلى النار بعد أن قرأت اللوح ؟

تطوع جبارين وائلع النار . زحف الكاهن نحو الموقد . هبّ
بورو واقفاً . صاح بصوت رددته الكهوف العليا :

– إياك أن تلقني بالعظم في النار ! العظم كان من نصبي . العظم
عظيم !

سأّل الكاهن بتصرّف الحكماء :

– وما حاجتك به ؟ ألم أقرأ لك التّبأ ؟ ألم تعرف البشرة ؟

– أريد أن احتفظ به . أريد أن اتباهي به أمام القرآن . أريد أن
أحدق فيه كما حدّقت فيه منذ قليل لأنّي تعلّم كيف تقرأ النبوات .

– لن تتعلّم قراءة العظام لا في عظم ولا في عشرات العظام .

– هذا شأنني ! اعطني عظمتي ! .

شدّد الكاهن قبضته على العظم . التفت إلى بورو لأول مرة منذ

بدأت الطقوس . حدق فيه بعين الساحر . بعين الكاهن . بنفس العين التي رأى ما لم تره عين ، وطافت آفاقاً لم تسمع بها أذن . نفس العين التي فكّت غموض الرموز ، وكشفت الإبهام عن بقع الظلمة . قال بتسامح النباء :

– اعترف بالحق . لماذا لا تعرف بالحق وتخبر بأنك لا تريد أن تتعلم الخفايا ، ولكنك أردت أن تذهب باللّوح إلى آخرين كي تستخبر عن الخبر الذي لم أخبر به . فلماذا تريد أن تعلم دائماً الأمر الذي يسيئك علمه ؟

استولت على بورو الرجفة . شرع يخطو دون أن ييرح مكانه . تهدّل لثامه عن فمه فومض ، تحت ضياء القمر ، على شفتيه زبد . أعاد الكاهن جملته الغامضة :

– لماذا تريد أن تعلم دائماً أمراً يسيئك علمه ؟
ثم ألقى بلوح النبوءة في النار .

١٦ - القمر

«تقدّم ، تقدّم ، يا صديقي ، نور القمر»

هوفمان

«إكسير الشيطان»

(١)

آسفُضْ * بدأ فجراً .

ظنّ بورو انه أول من استيقظ ، ولكنه فوجيء بالماجر يتربع في
عتمة الفجر الأولى كشبح من اشباه الجنّ . يتمتم بالتمائم ، ويراقب
الأفق المطضاً الذي بدأ يشق بقىس بكر ، خجول يجد في فصل السماء
عن الصحراء ، ويومئ ، بحياة العذاري ، بالبشرارة ، بالبكارة التي
ستجعل الجلاد الخالد يخرج من قمقمه الخفيّ ، ويولد مستبداً ، صارماً ،
في سلطان النهار . والساحر إذا هاجر فلا بد أن يستعطف المارد
بالتعاويذ ، ويدبر له عقاً متبيناً من التمائم والعزائم والطلسمان ، إذا شاء
آلا يفتك به في منتصف الطريق . وقد اعتقاد أهل الصحراء أن المسافر
الذي يكتفي بالتمائم إتقاءاً لشّر الجلاد قبل السفر هو أكثر فنات
المسافرين شجاعة ، لأن الاعتماد على علوم السحر وحدها في مواجهة
الجلاد كثيراً ما خذل الدهاة ، فعادوا إلى الناموس القديم الذي استخدموه
كل من أوتي من علم السحر قليلاً ، وحسبوا أنفسهم من ضعاف
النفوس الذين لن تكتب لهم النجا إلا إذا سفروا الدم ، وتقرّبوا إلى
إله المستبد ببحر القرابين .

ولكن الصحراء ظلت ، على مرّ الدهور والأجيال ، ترى هذه

* آسفُضْ : تشيع المسافر . وهي كلمة مشتقة من «آسف» أي «الخلاء» . وقد قضى التقليد أن
تشيع المضيف ضيفه مسافة تستغرق ثلاثة أيام ذهاباً .

الفئة التي تهيم على وجهها ليل نهار ، تدب دون توقف ، وتقطع المتأهة في كل الجهات ، تتحرف السفر ، وتحتخد من الرحيل ديانة ، دون أن تقدم للقرص المهوو قطرة دم واحدة قرباناً . فكان يطيب للخباء أن يتندروا وينعتوا هؤلاء المهاجرين بـ « أبناء الشمس » الذين لا خوف عليهم من العطش ، أو « أبناء الجن » الذين لا يخشون الظلاماً لأنه لا وجود له في ناموسهم . في حين يرى بعض الكهنة أن السحر الذي قهر أهواه الخلاء ليس في الطلسman أو التئائم ، ولا في الذبائح والقرابين ، ولكنه في الشجاعة . وهو سر بنام في صدور الفرسان قبل أن يعرفه السحرة . فمن جبن واستزداد من الزاد والماء والاعباء مات في منتصف الطريق جوعاً أو عطشاً أو بلدغ حية ، أو على يد العدو غاز ، أو قاطع طريق ، أو بمكيدة من أشرار الجن . ومن تحمل واستهان بالأعادى ، ورفع راية التحدى ، وخرج إلى العراء عاريا ، بلا زاد ، بلا ماء ، بلا مؤونة ، بلا دابة ، فقد غالب الجلد ، وهزم المسافة ، وانتصر على أهواه الخلاء .

ولكن جواب الفريق المضاد كان جاهزاً : هل يستطيع مخلوق أن يتحلى بهذه الخصال دون أن يكون هو نفسه الكبير الذي علم السحرة السحر؟

(٢)

آسفاض يبدأ بوجوم الكهآن ، وصمت المأتم . يتدثر بوشاح منسوج من ظلال النزع الأخير ، من تلابيب الليل المقهور ، لأن الفجر

البكر ، له ، دائمًا ، ميعاد مفضل . في هذا الاوَان تنقطع الكائنات عن الكائنات ، وتشبه كل المخلوقات بالأعجوبة التي ابتعدت بها الصحراء ناموسها يوماً عندما ارتضت أن تصنع من بدنها العاري وطنًا للرُّوى السماوية ، وخلقت من السكون لغة وحيدة للخطاب . في الاوَان المقدَّس تستسلم الكائنات في المحراب ، وتسلِّم أمرها للحرم . تستعيير حكمة الحياة فتشطر لسانها إلى نصفين كي تقوم النفس الامارة بالسوء ، بالكلام ، بالجمعية ، بالبible ، بقول الجهل ، بالدنس ، كي تخفي سرها ، وتكتفي بالاستماع . بالتصنت للوشوه الجليلة التي خلفها الإله قبل أن يهجر الوطن ، ويتركه لنرجاسة الخلق .

في هذا الاوَان تخسر حتى الأشياء .

تستيقظ ، تتمطى ، تشييع غلالات الظلال ، وتهيأ للميلاد . ولكنها تختبئ عن الخطاب . تكتفي بالإيماء ، بالإشارة ، لأنها تعرف أن ما خرج من الفم ، مثل ما طلع إلى النور ، حاقت به اللعنة ، وطوقه السخط ، فقد سرَّه . ومن فقد سرَّه في الاوَان المقدَّس فقد في النهار ظلَّه .

هذا هو الناموس .

هذا هو القصاص .

الحجر يتजسس على الحجر ، والطير يعتصم بالكتن المخبأ في أعلى

صخرة ، يدفيء ببضة خرساء ، أو يلزق ريشه بالفراخ الشقية حتى يكتم فيها الصوصوة . الطلحة تستطلع الافق بجلال العِبَاد . تترقب الميلاد بوجوم كاهنة طعنها الزمان بكل الاحوال ، تلبّي نداء نسمة الصبح ، فستمايل ، ولكنها تمتنع عن الغناء . تكتم نعماً شجياً كاد ينفلت ، وتكتفي بترويض الموال في السر . حتى الحية خرجمت من الجحر ، ولكنها كانت الخلوق الوحيد بين كائنات البرية الذي لم يكن في حاجة ليقمع في نفسه الرغبة في الثرثرة ، وتدنيس الفضاء بالقول الجھول ، لأنها ادركت السر قبل الكائنات جميعاً ، فقطعت لسانها إلى شطرين . انتصرت على نفسها ، فآمنت الحياة من كل خطير .

الخطير هو ما أدى بالناموس لتحریم النطق . ومنع التفوّه بالأسماء التي تنتظر دعوة الداعي لتلبّي النداء . فالكلام الذي اكتسب مسلكاً غداراً لا بد أن يجرّ إلى مستنقع الدنس .

والمسافر إذا عرف الدنس ، بلغ المستنقع الكريه قبل أن يطل رأس الجلاد ، وتطلع الشمس ، فله الويل ، ولن يجد من يحميه من سوء المصير .

(٣)

النَّارُ فِي الْمَوْقِدِ أَيْضًا لَا تَجْرُؤُ عَلَى الْبَلْبَلَةِ .

تلتهم العيدان بصوت كريم مخافة أن تجرح الصبح الخجول ،

مخافة أن تنتهي الطهارة ، فيجفل القبس ، ويفرّ الفجر من مساحة الأفق.

تبقى الأصوات محبوسة في القماقم حتى يخرج الجلاد من مملكته . بعدها تنتقل السلسلة من محيط البر ، وتدخل إلى البيوت . يبدأ مأتم آخر أكثر صمتاً وخفاء . تتقدم الكاهنات ويقفن عسساً على الأثر . على خطو المسافر المحفور في التراب ، يمنعن قضاء حوائجه كلها . لا يُرف لثوب ، ولا يرتق له لباس ، ولا يصلح له نعل ، حتى يأتي اليوم الذي يزغرد فيه الأفق بالبشرة ، ويُرِف للنَّجْع نبأ العودة . ثم تمضي الكاهنات إلى الأمام ، ويضعن في سلسلة التحرير حلقة أخرى ، يمنعن الزينة عن النساء ، وينهرن الحسان عن مشط الشعور ، أو حبك الجداول . وقد تقلب الكاهنات الساحرات الناموس إذا ودعن مهاجرأ معادياً أردن له الخراب ، فیأمرن الصبايا بالفرح ، يشطن لهن الشعور ، يجدلن لهن الصفاير ، يدلّكن لهن الأجساد برحيق الرّتم . يزغردن فوق رؤوسهن ، ويدّهبن إلى الخبراء ليترقن ثوبه ، ويصلحن نعله ، ويهرولن وراءه ، ويمسحن أثر عقبه على التراب . ويتمتن بالتميمة الم gioسية القديمة : ويل من سافر وخلف وراءه الفرح بدل المناحة ! ويل لك يا من لم يخف حوايجه بعيداً، وترك أهل الكراهة يعملون فيها رتقاً وإصلاحاً ورقاً، انت لن تبلغ أرضاً ، ولن تجد طريقاً ، ولن تدرك بمراً ، ولن تنزل نجعاً ، ولن تعرف وطناً ، لأن من كرهك قد حكم أن يسبقك تيه ، ويلاحقك

تيه ، ويدور حولك تيه ، ويدخل في جوفك تيه ليصير لك قدرًا الآن ،
وغداً ، وإلى يوم ينفصم حبل الفضة ، أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر
الجرة على العين ، أو تنصصف البكرة عند البئر ، فيرجع التراب إلى
الأرض كما كان * .

(٤)

ما أن ولد النور ، وتبدى ، من وراء قمم الغيمة الشرقية ، أول سوط ، أول لسان في كتلة السياط ، مبشرًا بانفاسخ الطلسمان ، حتى بللت النار في الأرة بلسان اللهب ، وهشمت ضلوع العيدان بقطعة مسمومة . غنت « مولا - مولا » في السفوح ، ثم اندفعت إلى الموقع ، وحطت على الطلحة وهي تتغنى بيشائرها الخفية . اهتزت فروة الشجرة ، ولبت نداء النسيم ، فرددت ، مع « مولا - مولا » انشودة النهار . في مكان ليس بعيداً ، في الناحية الجنوبية من عمق الوادي ، عوى « موخامد » بشكوى فاجعة . فجأة فزَّ المسافر . بدأ يطوق خصره بقطعة كتان باهتة كانت له ثماماً قدماً . سار وراء المخلوقات . تشبه باولياء الأمر الذين حقّ لهم أن يمتلكوا الصحراء . قال بنبرة عباد استغفلهم النوم فأقعدهم عن العبادة :

- استغفلنا الوقت ! يجب أن ننطلق قبل الشروع .

أحس بالدنس يتمدد ويستبد . انتحر السكون بمديمة البلبال ،

فتوارى الحرم ، وفقدت الصحراء البكاره . يش من استرجاع براءة تلقت الطعن مع ميلاد الحياة ، وأيقن ، من جديد ، أن الأبله هو من طمع في الاستيلاء على عصفور الفجر ، في امتلاك القبس الوديع ، المشوق ، الغامض ، بعد ميلاد النهار .

تكلّم بلغة السحرة لأول مرّة :

- ما أَنْ يهْجُعُ الْخَلْوَقُ ، وَيَسْلَمُ عَظَامَهُ لِلأَرْضِ ، طَلْبًا لِلرَّاحَةِ
حَتَّى يَقُعَ فِي الْفَخَّ . تَهْيَءُ الْأُمُّ الْأَرْجُوَهُ ، وَتَهْدِهُهُ كَوْلِيدُ ، تَغْنِيَهُ
الْأَغْنِيَاتِ مُسْتَعِنَّةً بِذَرَائِهَا ، حَتَّى تَسْتَدِرَ جَهَهُ لِلْإِغْفَاءِ . فَإِنْ اسْتَمِرَّ أَمْرُ ،
وَاحْذَهُ الْإِغْفَاءِ ، اسْتَغْفَلَتُهُ ، وَاسْتَعْدَتُهُ إِلَى حَضْنِهَا ، لِيَجِدْ نَفْسَهُ تَرَابًا كَمَا
كَانَ . هَيْ - هَيْ .. إِنَّهَا دَاهِيَهُ . ادْهِيَ الْأَمْهَاتِ . اعْتَرَفْ إِنَّا مَا تَعْلَمْنَا
السَّحْرَ إِلَّا مِنْهَا !

تناول العكاز . امسك به من نهايته . تحسّسه بأصابعه . صنع به دائرة في الهواء . دائرة أخرى ، ثلات دوائر . في أثناء تدوير العصا في فضاء الصبح ، كانت سياط الجلاد المحبوكة من ذرات التبر تسطع في الاطواف النحاسية ، مما جعل بورو يتخيّل الدوائر المدهشة حلقات حقيقة من الذهب استعارتها الاطواف من الدائرة الأم . من كنز الشعاع .
من حلقة القصاص والاستبداد .
أنطلق المسافر .

أنطلق خلفه القرینان .

(٥)

جبارين رافقهما يدرك ناقته .

قطعوا الشوط الأول . تلوّوا مع الوادي في التيار المضاد لمسير السيل . اجتازوا العنق الأول فتدفق الشعاع ودهمهم السراب . عبث بتلبيسهم . رفعهم إلى أعلى . جعلهم يدبّون في الفراغ . رسم رموز السحرة في الأفق ، وداعبهم بسمات غامضة ، جرى قدّامهم مسافات . وعاد كي يغمرهم بفيض النار . استشاط الهواء . استغاث التراب وتحمّ في الرمضاء . في الفضاء فاحت رائحة الشياط . رائحة الخطب وهو يقدح الشرر ويوشك أن يودع روحه في هبة اللّهب . تلألأ الحجارة باللوميض وتسابقت في إظهار الحُسن والتبااهي بالحوافر الخفية . ولولَ الطير وفرَّ إلى أوكرار مجهلة . أقبل سيل النار وجرى في الاتجاه المقلوب . دفعهم بلسانه النّهم فاستسلموا وصاروا له قشًا ووَقْشاً . قطعوا المسافة الثانية ، ودخلوا المنعطف الثالث .

انتصف النّهار .

تبّدت النّاقّة في البعد وقد ادرّكها السيل اللّعب ، فتعلّقت بغروة طلحة إنقاذاً لنفسها من الغرق .

من حلقة القصاص فاض الكثر ، وتمادى الوهج . طوق جسم النّاقّة بهالة دائريّة مثل ساحور القمر . استعارت لوناً من التّبر ، ولوناً من

قبس الفجر ، ولو نأ من غيَب الغروب . تلاحمت الالوان الثلاثة وانجدلت في إبداع حبكة حبل المسد . تراقصت في ارتجاف غامض كأنها أُصيَبت بمسَّ من حفيظ لطيف . ثم غلبتها السخاء فجادت بالتقاطع الصارم . تولدت العلامة في مخاض لم يستمر طويلاً . رأى جبارين ، كما رأى القرينان ، كيف طغى اللون المستعار من الغيَب اولاً ، وفاض على بدن الدابة كأنه عمود نزل من السماء . يتمدَّد ويتردَّد . يتمدَّد ويتردَّد ، ولم يتشجع ويقطع الدائرة إلاّ بعد أن اجتازوا الأكمة ، واقتربوا مسافة أخرى . لم يتأخر لا لون القبس ، ولا لون التبر ، ففاضا فيه معاً ، فأضافا التحادهما في العمود الجيد لوناً جديداً هو لون السماوات . أمّا الخط الآخر ، الافقي ، فلم يتأخر كثيراً . لم ينشق اثنان الفجاءة ، ولكنه تولَّد في مخاض أقل ، وارتسم بنفس الالوان ، في مهلة أقصر . اكتمل التكوين ، وانتقلت علامة « تانيت » من سيماء بائسة ، بليدة ، مطبوعة بالنار على الفخذ ، إلى إشارة جليلة مرسومة بـ كف الحفاء على قرطاس الفضاء وعلى رقعة من فضاء . أحاط المجهول العلامة بالطوق الدائري الصارم ، فاحتوى بدن الناقة وامتلكها ، في قبضة أقوى من سلسلة طولها سبعون ذراعاً ، لأنها قبضة مستديرة ، لم تستمد من معادن الأرض سلطانها ، ولم تحكمها أيدي السحررة الأصغر شأناً ، ولم تقبل أن تتلقى لوناً من الوان الباطل الاسفل ، لأنها لم تنتقم للأرض أصلاً . أستمرَّت مضيئة ، لِمَاعَة ، وامضة . ولم تتراجع ، وتبدأ في التلاشي إلا

بعد أن اقتربوا من الناقة مسافة لا تزيد عن المائة خطوة .

ساعتها اندفع المهاجر ، وهرول نحوها . وقف في مواجهتها . حدق في عينيها . ثم دار حولها وهو يعيد بلا توقف : « هذه الناقة .. ». مد يده وتحسس الوبر على جسمها . تقدم من الفخذ ودس سبابته في جوف العلامة . في لحمة التقاطع . في السبيل الذي حفرته النار على بدنها . كانت نهاية السيماء العمودية دامية . فوق الدّم تجمع سرب من الذباب . وعندما نزل الساحر بيده إلى أسفل فز السرب ، وتفرق الذباب . في زاوية الجرح ، في دغل الوبر ، رأى جبارين قرadaً يلعق الدم وقد تخفي نصفه في الدغل . لامسه الساحر سبابته ، ولكنها لم ينتزعه . ترك الحشرة الكريهة تلعق الدّم ، ومضى يمرر سبابته ويردد عبارته الغامضة : « هذه الناقة .. ». في تلك الومضة رأى جبارين في عينيه وميضاً . العينان ضاقتا في البداية . غاب منها السواد . شقان مثبتان في محجرين . بعدها بدأتا تتبدلان . انفتحتا ببطء شديد . وبدل أن تنفتحا عن مقلتين ، رأى فيما مقلة ذهبية تومض وتتوثب وتتوعد بالخطر . تدوران في محجريهما فينبعث منها شرر كالسهام المسمومة التي تتسلّح بها قبائل الادغال . شرر في لون التّبر عرف فيه الوسيض الذي تفيض به عيون الحُسَاد عندما تلقي الحاجة في نفوسهم هوَ . وعندما تلقى الإلهام ، وعرف أن المقلة هي مقلة حيَّة ، توقع أن يرى الناقة تخرّ إلى الأرض وقد صرعتها العين ، ولكن الساحر استعاد مقلته ، وأعاد

بغموض : « هذه الناقة .. ». .

عندما مَدَّ له يده مودعاً قال له :

- ظننت أنك لم تتملك شيئاً منذ عهد الضب !

شيعه جبارين بنظرة شقية ، ثم قفز إلى الناقة ، وانتزع من لحمها

القراد.

(٦)

في المسافة يتختفِ السر الذي يجعل المسافر يستمريء التراب .
فالمساحة تتواصل ، الأرض التي تحدُّ ، العراء الذي يتوالد ،
ويتولد ، ويتوالد ، كأن في عناده حلّ وعد مجهول ، ولا ينوي أن
يتوقف ، أو ينكسر ، فيدينه المولى المجهول حانثاً . هذه المساحة التي لا
تراجع ولا تنعطف ، ولا تلتفت إلى الوراء ، ولا تتمهل لالتقطاط الانفاس ،
ولا تنتوي أن تتحدى عن ملاحقة الأفق ، فتبثيق البقعة من البقعة ، وتولد
الرقعة من الرقعة ، ويتوالد المدى في المدى ، فت تكون من المساحات
مسافة . المسافة تتدفق مع سيل السراب إلى الأمام ، لتصب في يمَّ
الأفق . يلتهمها الأفق بلهفة العشاقي ، يطويها في جوفه ويركض بها إلى
الأمام كأنها بشاره المجهول . يمضي بها إلى الأمام الذي ليس له حدّ ، ولن
يكون له حدّ يوماً لأنَّه مشدود إلى القوس ، والقوس جزء من الدائرة ،
والدائرة لا تعرف بالمسافة ، لا تعرف بناموس الزمان والمكان ، لا
تعترف بشرعية الأعلى والأسفل ، السماء والأرض ، الضياء والظلمة ،

لأنها خالدة في الزمان والمكان ، لأنها احتوت الأعلى والأسفل ، السماوات والصحراري ، الانوار والظلمات ، فخلقت لنفسها ناماً لا تبني أن تخالفه إرضاء للمسافر . والمسافر يلهث ، يهرول ، يهرجل ، يلجمأ « توف نازآل »^{*} ولكنه لا يتوقف . لا يتمهل ، لا يتقطع ، نفسها ، لا يتجرّع ماء ، لا يستطيع لقمة ، ولا يتنسم عبراً بريأ ، ولا يتمتع بصفاء الملائكة التي تمدد أمامه عارية في بهاء الحسنات الجنينات ، لأنه أودع البصر للخلاء ، فتلقيه الأفق في غمضة عين . شدّه إليه . قاده بسلطان القوس . وسار به إلى المجهول الذي لا يعترف بالناموس ، وبالقدرة الخفية يجد المسافر أن قلبه قد صار في الدائرة . وإذا بلغ دار رأس المسافر ووجد نفسه في قيمة الدائرة ، فيتمادي في الهرولة ويتمادي ، ولا ينزل الصحراء حتى يسقطه الإعياء أرضاً . يسقط قبل أن تفتح الأبواب ويدرك اليقين . وقتها يسلم الأرض بدنًا متعباً ، ينزّ عرقاً ، ولكن ينبوع فيه قد شحّ ، لأنّه ترك عصفوره الخفي في وطن آخر . وعندما يتنهى السباق ، ويعود المسافر من السفر ، يستقل الوعاء ، ويستنكر على البدن أن يستمر في التراب .

لقد أنسه الرحلة أن اللوم لن يلقى على الولد الرضيع الذي فاق من سبات فتعلّق بشدي أمّه وشاء أن يقى في الحضن إلى الأبد ، ولكن اللوم في رقبة عصفور النور الذي طاف المسافات ، وجرب الضياء ، ثم

* توف نازآل : حرفياً المنفصلة على الركض ، وهو نوع من الهرولة التي تقى المسافر من الاجهاد ، ويقطع بها المسافة في وقت أسرع .

عاد إلى القيد وسكن القفص طوعاً.

(٧)

زحف الغيّب على الأفق فاحتجب الأغواء ، وانتقل الوطن إلى
ملكة السكون .

توقف المسافران .

هجع المسافران .

تمددًا على الأرض . أعاداً امانة حملها طويلاً . تلقى التراب
طيناً خرج منه يوماً وأغترب ، فهرع التراب إلى التراب . ولكن
العصفوري الذي يرفرف في الصدور مضى يقطع المنفي ، يحلق في فضاء
الدائرة . تشكي التراب إلى التراب ازداد به التصاقاً ليخبره عن اوجاع
الرحيل ، وفواجع الطواف ، فقبلَ التراب شكواه وشده إليه ليسعد له من
حضنه عزاءً . اندسَ كوم الطين في الرقعة . غاب في المحيط ، غاص
البدن في البدن ، احتمى الجزء بالكل ، الفرع بالأصل ، وراود العشيقان
أمل في الآيفترقا إلى الأبد . ولهذا السبب نبض القلبان بالحلم الجسور
الذي رأى للعصفوري مصير التيه الابدي حتى لا يعود إلى القفص ليفسد
خلوة العاشق بالمشوق ، ويختطف ، من جديد ، الحبيبة من حضن
الحبيب .

ولكن قبساً غامضاً ، مطفأً ، حزيناً ، تسليلاً إلى الصحراء ، وأعاد ،
مع دقة الضياء الخجول ، عصفور النور ، فأفسد المكيدة . دبَ الدفء

في الطين ، فتململ المسافران في هجعة المساء . عاد بورو إلى المنفى
أولاً . فتح العين وأبقى الجسد المجهد ممدداً على الجسد الصبور ، الوفي ،
الذي لم يكتب خلوته الدوام مع الجزء الذي انفصل عنه وتغرب . تلقت
المقلة فيض الضوء . الفيض الشاحب ، المطفأ ، الذي سرح في الخلاء
بدهاء السائل اللعوب ، تدفق في الوادي ، فاض به الوادي فتعلق
بالصخور والحجارة . تلکأا عند افواه الكهوف ، فأفرغ الجن ، شقّ
طريقه ، تطاول في الأعلى ، اعتلى السفوح الملفوفة بظلال الغموض ،
مضى مسافة أخرى . ادرك القمم في طرف الوادي المقابل . تحمم بورو
بالفيض الشاحب ، المطفأ ، الحزين . تابعه وهو يسعى إليه ويلتف حوله
كثعبان الأدغال . يحتويه ككفن فضي ليواري بدنناً أعياه السفر ، اعتيته
الاسفار ، وتأق أن يلقى العصا إلى الأبد ، ويعود إلى وطن خانه بالعبور ،
ليلتتصق به ، ليتوحد به ، ليتبدل فيه مرّة واحدة وإلى الأبد . فعندما ترتفع
العمامة الفضية ، الدائرة المحبولة بالنار المطفأة ، بالنور النبيل ، الشاحب ،
عندما تخرج هذه الاعجوبة من ملكتها ، وتجود بضيائها على
الصحراء ، تتقاسم مع الرقة عطية تستقطعها من جسمها ، لتعزيها في
عذاب النهار ، وتمسح عن جسدها فجيعة القصاص الحالد . يطل الكائن
الوديع ويسبّب عليه قرباً من ضياء يختلف بما لا يقاس عن الضياء
الآخر ، ضياء النهار ، الذي حبك الجلاد من خيوطه سياطا يجلد بها
الوطن وكائنات الوطن . يجيء بالعطية ولا يطلب قرباناً مثل بقية الآلهة ،

يغدق بالفيض الخجول ولا يرتخي المقابل ، فتتعلم منه القبائل ، قبائل الخلاء وقبائل الخفاء ، مبدأ الجود ، فتسابق الأجيال إلى الناموس ، لتحفر في تعاليمه الأحكام التي تشييد بالقمر ، وتضعه إليها فوق الآلهة ، لأنَّه الوحيد الذي جاد على الصحراء بنعمته دون أن يطلب في المقابل قرباناً.

تُثبِّتُ الأجيال هذه الوصايا في الناموس ، ليس اعترافاً بنبيل العمامة الفضية المستديرة ، ولكن لأنَّ الأجيال ذاقت مرارة القصاص على يد الجلاد ، فأوردت في الناموس المفقود نصوصاً انقذت الشفاه بعضها من الصياغ ، وروت الواح الحجارة نتفاً أخرى تتحدث عن سيرة سيول الدم التي سقى بها أهل الخلاء الوطن العاري في سبيل أن تسترضي المستبد وتجعل قلبه يلين وينعن عليهم ناره .

في البداية نحرروا الانعام ، قطعاناً من الأنعام . كانوا يجرّون الدواب إلى السفوح الجبلية حيث ينام الأسلاف في دوائر «أيدبنان» ، ويجرّدون المدى النحاسية الفظيعة ، ويجرّونها على رقاب المخلوقات الوديعة . ثم يقعدون فوق الصخور المغسولة بالدم ويرفعون أيديهم إلى إله المستبد ، ويرددون وراء السحرة : «تيسسي أرمسين تيسسينم» * . ولكن الجلاد لم يلتفت للدعاء ، والإله المستبد لم يرحم . زادته القرابين نهماً ، وهيجت في أتونه الأضاحي شرهاً مجهولاً لم يعرف له حتى السحرة سبيلاً ، فتمادي وأشعل في الصحراء حرائق .

* تيسسي أرمسين تيسسينم : يانار امسكي نارك ١ (عاهن).

تَبَيَّنَتْ غَابَاتُ الرَّتْمِ ، وَأَكَّابَتْ ادْغَالَ الظَّلْحِ ، وَمَاتَتْ الْحَيَاةُ فِي
أَهْرَاشِ النَّبَاتِ . ذَهَبَ السُّحْرَةُ إِلَى أَخْبِيَّةِ الْاجْتِمَاعِ . تَنَاطَحُوا حَوْلَ
عَظَامِ الْقَرَائِينِ ، اخْتَلَفُوا فِي التَّفَاسِيرِ وَانْتَفَقُوا فِي قِرَاءَةِ الرَّمُوزِ .
تَعَانَدُوا طَوِيلًا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى الْحَلِّ الْوَسْطِ إِلَّا فِي الصَّبَاحِ .
مِنْ هَنَاكَ خَرَجُوا بَعِيْونَ حُمَرَاءَ اجْهَدَهَا الْعَنَادُ وَالتَّحْدِيقُ فِي رِسُومِ
الْعَظَامِ وَطَوْلِ السَّهْرِ . انْقَسَمُوا إِلَى مَجْمُوعَاتٍ . بَعْضُهُمْ ذَهَبَ لِيَنَامَ
عَلَى اضْرَحةِ « اِيْدِبَنَانَ » لِيَسْتَشِيرَ الْاَسْلَافَ . وَآخَرُونَ رَكَضُوا وَرَاءَ
اسْرَابِ الطَّيْوَرِ لِيَقْرَأُوا فِي مَسْلِكِهَا النَّبُوَّةَ . وَفَرِيقٌ ثَالِثٌ نَزَعَ لِبَاسِهِ إِلَى
آخِرِ قَطْعَةٍ وَسَارَ عَارِيًّا إِلَى الْبَحِيرَاتِ . رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى الْغَمَرِ لِيَحَاوِرَ فِي
الْقَيْعَانِ الْبَطَّ الْبَرِّيِّ ، لِيَعُودَ مِنْهُ إِلَى الْقَبِيلَةِ بِالْخَبْرِ الَّذِي جَعَلَ إِلَهَهُ يَرْفَضُ
الْقَرْبَانَ .

عَادُوا يَتَجَادِلُونَ فِي الْخَيَاءِ بِمَجْرِدِ أَنْ التَّمَّوا فِي الْاجْتِمَاعِ .
وَلَكِنَّهُمْ ، كَعَادُهُمْ دَائِمًا ، لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَجْمَعِ إِلَّا وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى
أَمْرٍ . اتَّفَاقُهُمْ هَذِهِ الْمَرَّةُ أَعْفَى الْأَنْعَامَ الْأَلْيَفَةَ ، وَوَقَعَ خَرَابًا عَلَى رَأْسِ الْجَدَّ
الْمَقْدَسِ : الْوَدَانُ !

اطْلَقُوا النَّذِيرَ لِيُشَرِّرَ الْقَبَائِلَ بِرِسُومِ الْحَكَماءِ . لَمْ يَنْطَقِ النَّذِيرُ بِنَصٍّ
الْمَرْسُومِ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ نَصٌّ كَمَا لَمْ يَعْرُفْ نَصٌّ لِمَرَاسِيمِ السُّحْرَةِ وَلَا
لِنَوَاهِيَّهُمْ ، وَلَكِنَّهُ نَادَى الْفَرَسَانَ لِلتَّجَمِّعِ ، وَحَثَّ الرَّسُولَ عَلَى الْانْطَلَاقِ
إِلَى الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى لِلَّمَّا شَمَلَ الْأَبْطَالَ الَّذِينَ عَرَفُوا الْغَزوَاتِ ، وَصَنَعُوا

بسيوفهم ورماهم ملاحم الحملات ، وصدوا الغزوات . وكان السّحرة يعرفون دائمًا كيف يستدرجون المقاتلين . فقد جربوا أن التلويع بالحملات له في نفوسهم وقع أقوى من طبول الخطر ، ومن نفير الأبواق ، ومن ولة النساء ، لأن الرجال الذين لم يزد انتقام الإله نار الشهوة في ابدانهم إلا اشتعالاً ، كانوا في استنفار دائم إذا تعلق الأمر بتنظيم الحملات على الأدغال لاستجلاب السبايا . وقد لقنا النذير هذه المرة بنصوص حذّروه أن يصيّبها باجتهد كما يرور للنذيرين والمبشرين أن يفعلوا . ولم يمض على النداء مطلع قمر واحد حتى ازدحم العراء بالفرسان . جاءوا متمنطقين بالسيوف والرماح والسهام . يرتدون لباسهم الأزرق الذي جربوا أن هبته وحدتها كانت سبباً في هزيمة أشد القبائل الغازية شراسة وشجاعة ومهارة في استخدام السيوف .

انتظرت حشود المخاربين إشارة الزعيم لبدء الحملة .

ولكن الزعيم لم يعط الإشارة ، ولم يخرج إلى المخاربين من الخباء . كان محاطاً بمجلس السّحرة ، يجادلهم بصوت علا وعلا لأول مرّة حتى وصل إلى آذان الفرسان المحتشدين في الخارج . سمعه كثيرون يقول انه لن يقبل بنحر الجدّ استعطافاً للجلاد ، لأن الناموس لن يرتضى أن ينحر إله تقرباً لإله آخر ، وهو لن يشارك في المذبحة حتى لو تمادي الجلاد وأطلق حريقاً يلتقطهم الحجارة أيضاً ، لأنه لا ينوي أن يروي «أنهي» للأجيال أنه رضي أن يرتكب الخطية ، ويحمل دم الودآن المقدس في

رقبته حتى لو حوله الجلاد الشّرّه بناره إلى رماد . ودعاهم أيضاً أن يحترسوا ، فقال أن الحكمـة الحـفيـة تقول أن من يـدأ بنـحر الجـدـ المـقـدـس فـسوف لـن يـتـوقـف حتـى يـجـدـ نـفـسـهـ فيـ المـتـهـيـ يـنـحرـ اوـلـادـهـ وـبـنـاتـهـ . عـلـتـ الـهـمـهـةـ ،ـ وـاحـتـدـمـ الجـدـلـ ،ـ وـلـكـنـ الزـعـيمـ اـفـلـتـ منـ الـخـبـاءـ ،ـ وـسـارـ إـلـىـ الـرـايـةـ .ـ هـنـاكـ رـفـعـ يـدـيهـ إـلـىـ السـمـاءـ وـلـعـنـ السـحـرـةـ بـصـوـتـ عـالـيـ .ـ وـهـجـرـ الـقـبـيـلـةـ مـنـذـ ذـلـكـ الـخـلـافـ ،ـ وـتـوـلـىـ زـعـامـةـ قـبـيـلـةـ نـبـيـلـةـ مـنـ قـبـائـلـ الـخـنـ .ـ

أـمـاـ السـحـرـةـ فـتـوـلـواـ قـيـادـةـ الـحـمـلـةـ عـلـىـ الـوـدـانـ بـأـنـفـسـهـمـ .ـ تـحـلـواـ بـخـصـالـ الـقـادـةـ الـحـكـمـاءـ فـكـتـمـواـ أـمـرـ المـذـبـحةـ ،ـ وـلـمـ يـفـشـلـواـ السـرـ وـيـكـشـفـواـ مـكـيـدـتـهـمـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ بـلـغـواـ الـجـبـالـ .ـ سـاعـتـهـاـ اـعـطـوـاـ اـمـرـأـ صـارـمـاـ بـمـطـارـدـةـ إـلـهـ الـجـبـلـيـ وـقـالـوـاـ أـنـ الصـحـراءـ لـنـ تـرـىـ الـخـلـاصـ مـنـ لـعـنـةـ الـجـفـافـ إـلـاـ إـذـاـ سـُـقـيـتـ اـرـضـهـاـ بـسـيـلـ مـنـ دـمـ الـوـدـانـ ،ـ وـسـيـاطـ الـجـلـادـلـنـ تـكـفـ عـنـ إـشـعالـ الـحـرـائـقـ إـلـاـ إـذـاـ أـكـلـتـ قـطـعـانـاـ مـنـ لـحـمـ الـجـدـ الـقـدـيمـ .ـ تـرـدـ فـرـسـانـ كـثـيـرـونـ يـوـمـهـاـ ،ـ وـارـتـفـعـتـ اـصـوـاتـ تـؤـيدـ الزـعـيمـ ،ـ فـسـارـعـ الـدـهـاهـةـ إـلـىـ الـحـيـلـةـ .ـ اـنـبـرـواـ يـدـغـدـغـونـ فـيـ الـفـرـسـانـ ذـلـكـ التـزـوـعـ الـخـفـيـ إـلـىـ اـرـتكـابـ الـشـرـ الـذـيـ لـاـ يـعـرـفـ غـيرـهـ ،ـ وـغـذـنـواـ فـيـ نـفـوسـهـمـ نـهـماـ مـجـهـوـلـاـ سـبـاقـاـ إـلـىـ التـخـرـيـبـ ،ـ دـوـنـ أـنـ يـنـسـوـاـ الطـعـنـ فـيـ مـوـقـفـ الزـعـيمـ .ـ قـالـوـاـ أـنـ خـانـ الـقـبـيـلـةـ مـنـ حـيـثـ ظـنـ أـنـهـ كـتـبـ لـهـاـ الـخـلـودـ بـالـدـفـاعـ عـنـ إـلـهـهاـ الـجـبـلـيـ ،ـ وـغـابـ عـنـهـ أـنـ التـضـحـيـةـ بـالـحـرـمـ هـيـ السـرـ الـذـيـ اـقـرـتـهـ شـرـائـعـ الـأـوـلـيـنـ ،ـ وـالـقـرـبـانـ الـحـقـ لـاـ يـكـوـنـ قـرـبـانـاـ حـقـقـاـ مـاـلـمـ يـحـتـلـ أـعـلـىـ درـجـاتـ الـقـدـاسـةـ .ـ وـإـذـاـ كـانـ الـوـدـانـ

إلهًا تركه لنا الأجداد فما أجرده أن يحمي القبيلة من غول الفنان ، ويقدم نفسه قرباناً لإله أعلى منه واقوى سلطاناً، اسوة بما تفعله بقية الآلهة كما رأينا في ممالك الادغال

صدق حدس السحرة .

فما أن انتهوا من التحرير حتى بدأت الحملة .

في ذلك اليوم أيد الإله الجبلي ، وقطع السيف سيرة الودان في الصحراء.

ويُروى أن املاً لاح في ذلك التاريخ البعيد . عبس الافق ، تجمّمت السماء ، وتوارى الجlad خجلاً . ابتهج السحرة ، وعقدوا المهرجان . أمروا أن تقام الأفراح ، وتقرع طبول البشرة . تسابق الفرسان ورقصوا بالمهاري في العراء . غنت لهم الصبايا مواويل الأشجان ، وردّدت الشاعرات اشعاراً في مدح الانتصار .

لم يطل الانتظار .

مضت الشمس توارى حتى ظنّها العقلاء قد انطفأت إلى الأبد . ولكن المطر لم يتوقف إلا بعد أمدٍ طويل ، ولم يتوقف إلا بعد أمدٍ طويل أيضاً . استمر ينهر حتى ارتوت حجارة الجبال فدفعته إلى الأسفل ، هناك نهل منه تراب الوديان ، وشربت الأرض لطفئ ظمآن الأزل . مضت تقعقع بالويل وتتنحب حتى فقد الخلق حساب الأيام لأنهم لم

يعودوا يمیزون بين اللیل والنهار بسبب الظلمة . اختنقت الودیان بالسلسیل أخیراً ففاقت ودفعته إلى الأسفل . ارتفع فوق الصفا فبلغ السهول . جرف أنعام القبائل ومد يداً تعطش للقصاص إلى الولدان والصبايا . اختطف الصبيان والعذارى وساقهم قرباناً لإلهه المجهول . تشتت العشاير وفرقت السیول شمل القبائل . فرَّ أهل الصحراء إلى جزائر أقامها بحر الرمال العظيم ومكثوا هناك . في حين فرت عشاير أخرى واحتلت برووس الجبال الزرق . تعبد السحرة وساموا عن الطعام والكلام حتى مات اغلبهم جوعاً ، ولكن البلاء لم يتراجع ، والظلمة لم تنفع ، والجلاد لم يظهر . ولا أحد من رواة الماضي ، أو حكماء الناموس ، أورد هوية الساحر الذي صمم أن يتولى الأمر بمفرده ، فاعتكف في الكهوف زمناً ، ثم خرج من هناك هيكلأً عارياً من العظام . وقف فوق شعرة الجبل ورفع كلتا يديه إلى السماء وخطاب الإله الذي تخفي «(تیمسي . تیمسي . أرد تیمسيّم)» . ونزل من هناك إلى السفوح بجسده الهزيل ، العاري ، ونحر طابوراً كاماً من الصبايا الأبكار .

توقف المطر ، وانقذ السرّ القبيلة من الزوال .

بعد الامتحان يئس السحرة ووقفوا القرابين . بدأوا يمجدون القمر في صلواتهم ، ويروجون في القبيلة لديانة جديدة ترى أنه يستحق

* تیمسي . تیمسي . أرد تیمسيّم : يانار . يانار . أعيدي نارك (تماهق) .

العشق . أمّا الشمس فقد حرّموا ذكر إسمها منذ تلك الفجيعة ، واطلقوا عليها إسم «الجلاد»، لأنها دخلت دائرة الاعداء الحالدين ، وصارت عضواً في العشيرة التي تحمل الاسماء المستعارة مثل الساحرة «تيرزازت» و «موخامد» و «تانضال»* .

* «تيرزازت» : الأرنب . «موخامد» : الذئب . «تانضال» : الحية !

١٧ - الحجر

«هذا هو الحجر الذي احتقرتموه ، أيها البناءون ، فصار رأس الزاوية»

اعمال الرّسل

(٤: ١١)

«ولما كان هيرودس مزمعاً أن يقدمه كان بطرس في تلك الليلة
نائماً بين عسكريين ، مربوطاً بسلسلتين وكان قدام الباب حراساً
يحرسون السجن . وإذا ملاك الرب أقبل ، ونور أضاء في البيت .
فضرب جنب بطرس وأيقظه قائلاً : قم عاجلاً . فسقطت السلطان من
يديه . وقال له الملاك تمنطق والبس نعليك . ففعل هكذا . فقال له البس
رداك واتبعني . فخرج يتبعه . وكان لا يعلم أن الذي جرى بواسطة
الملاك هو حقيقي ، بل يظن أنه ينظر رؤيا .» .

اعمال الرّسل

(١٢: ٦، ٩)

«قالوا : من الأشياء ما كان صوتها خفياً ، فلا يفهمه عنها إلا ما كان من
شكلها .» .

الجاحظ

«الحيوان»

(١)

سؤال بورو:

- هل كان الحجر نظرونا؟

المهاجر لم يجب ، فتفكرَ بورو في النطرون . النطرون أيضاً يستدير في البدن ، يحاكي الملح شكلاً ، ولكنه أبل من نعة الملح ، يتخفّى في العتمة ، ولكن جوفه يضيق بالوميض . يمضغه السحرة مع «تابا» ، أو غيرها من الأعشاب ، فيقيهم شرُّ الخلق . يشربونه مخلوطاً بالماء فيغسل الأمعاء من الأظافر المميتة ، ويسفي المصاين بالمكيدة السحرية المعروفة بـ « ضربة الخلب » . تدرّه الساحرات في المستحضرات ، وتمزجه بالعقاقير ، فينقذ الجنوبيين من الوجد المزمن ، ومن اسقام الحنين ، والماليخوليا السوداء ، وداء العشق ، والتعلق النساء المجهولات . وهي علل دخلت الصحراء وانتشرت بين القبائل مع افواج السحرة القادمين من ممالك الأدغال . في حين استخدمه الأسلاف في غسل الاموات ليقى على البدن معافي في عودته من المنفى ، ويحميه من الديدان والحيّات والزمان ، في عودته إلى وطنه الأول الذي خرج منه . هذه المزايا جعلت النطرون أنفس الاحجار ، وانبل المعادن . يستخرج الدهاء من مداخن مجهلة ويادلونه بخيرات تساوي

ثروات.

تكلّم المهاجر . تكلّم بعد أن خاله بورو نائماً فيس من تلقّى الجواب . هام مع السائل القضي الذي يتدفق فوق الخلاء . يستر المسافات بغلالات منسوجة بخيط الغموض . يطوف العراء بالرحمة فلا يميت المسافر ظمآن ، ولا يحرق الحجارة بالنار ، ولا يفتك بالطلح ، ولا يصيب « مولا - مولا » بالهلاك ، كما يفعل ضياء الجلاد .

ولكن المهاجر لم يكن نائماً . وصمته لم يكن سكوتاً من غلبه الإعياء ، فاستسلم لإغفاء . ولكنه تريث السهرة عندما يريدون أن يتجنّبوا مسالك الحمقى . الساحر يعتمد أن يبتعد عن الجواب حتى يقترب من السؤال ، حتى يدخل في مملكة السؤال ، ولا يرى في الثاني انتقاماً ، ولا يتحرّج أن يتمسّح بأبواب المملكة كالمتسوّل ليستعطف العسس والمحاجب . ولا يتراجع إلى الوراء إلاّ بعد أن ينزعزع إلاذن بالصبر والحلم واللغة والتعهّل وبقية التمام . تبدأ بعدها الخطوة الأولى . تبدأ رحلة تمر عبر وادي الظلمات ، لأنها رحلة مثيلة لرحلة الفوز بالكنز ، بالحياة ، بالحياة . رحلة الفوز بالجواب ، بالسر ، بالمعنى . ولو سافر كل مجيب وراء السؤال إلى المملكة الخفية ، لما عانى الخلق من غموض المسألة ، ولا تخبط الحمقى في قمم الجهل ، ولا حار تواق في إدراك المعنى ، ولتقلب الجميع في فردوس المعرفة ، ولتنعم كل الخلق بكلنر المعنى .

عاد الساحر من وادي الظلمات بجواب رحل في طلبه طويلاً ،

وذلك في سبيله اهواً :

- الحجر لم يكن نطروناً .

- هل كان جوهرًا نفيساً ؟

- انفس من كل جوهر نفيس !

- حدثني عن الحجر !

ابتسم الساحر بحلم السحرة . وغفر لبورو تسرع الخلق وللهفهم، تلك اللهمـة البـلهـاء التي تفسـد لذـة الجـواب ، ولا تقتـرب بهـم إلـى اليـقـين بـقدر ما تـبعـدهـم عن مـوقـع الكـنز ، وتحـرـمـهم من دخـول الفـردـوس ، فـرـدـوس المـعـرـفة ، فـرـدـوس المـعـنـى . ظـلـ السـاحـرـ هـامـداً . يـهـجـعـ على قـفـاهـ . عـيـنـاهـ مـغـمـضـتان ، بـدـنهـ التـصـقـ بالـأـرـضـ فـي التـحـامـ حـمـيمـ ، لـمـ يـتـملـلـ ، لـمـ يـتـقلـبـ منـ الجـنـبـ الـأـيـسـرـ إـلـىـ الجـنـبـ الـأـيـمـنـ ، أـوـ منـ الجـنـبـ الـأـيـمـنـ إـلـىـ الجـنـبـ الـأـيـسـرـ كـمـاـ يـفـعـلـ مـتـبـعـونـ نـالـتـ مـنـهـمـ المـسـافـةـ . وـلـكـنـهـ تـكـلـمـ عنـ الحـجـرـ ، عنـ سـرـ الحـجـرـ ، بـيـرـودـ أـثـارـ إـعـجـابـ الـقـرـيـنـ .

قال أن الحجر كان في الماضي بعيد عندما كانت الحجارة كلها ما تزال رطبة ، لوحًا طينياً ، قطعة من الطين الرخو ، الاملس ، المبلل بمياه السلسيل . ولكنه كان محروماً من البهاء لأنه محكوم عليه بالموت في ناموس الزمان . كان بهياً في وداعته ، مرونته ، ورخاوته ، وصبره

الجليل . ولكن هذه شروط لا تكفي لنيل البهاء الآخر . البهاء الخفي المنكفِي إلى الجوف ، لأن الأولين لم يقيموا معه عهداً بعد .

تدفق الزمان . تراجع الغمر . ارتفعت الظلمة واقبل الضياء . وكفر الجد بالحياة في بساتين «واو» وانتهك حرمة الحرم ، فوجد نفسه خارج البستان . ارتدى اللثام عقب الخروج ظناً منه أنه يستطيع أن يخفى عاره . أقام في الصحراء وجعلها وطنًا لسلالاته العجيبة . ولكن السلالة اكتشفت أن الحياة يعقبها زوال ، والآباء يفنون في الابناء ، والابناء يسيدون في الأحفاد ، ولا يبقى للأولين ذكر في ذاكرة التالين ، ولا للتالين ذكر في ذاكرة الذين يعقبونهم ، والنسيان هو السلطان ، والفناء هو الناموس المنزّل الذي لا يستقيم في وجهه ناموس . فجمعهم بطلان كل شيء ، وارهفهم غول الزوال ، فكرهوا أن يحيوا ، وتمنوا لو لم يولدوا ، لو لم يوجدوا ، فناحوا زماناً ، ويسوا زماناً ، ولكن لا النواح صار لهم عزاءاً ، ولا اليأس انقضهم من مصير الباطل . فلم يجدوا حيلة تبقى ذكرهم ، وتحمل رسالتهم ، وتحدّث الأجيال بسيرتهم ، غير لوح الطين .

نزلوا إلى الوادي وأقاموا معه العهد . بضموه بفتحيغتهم ، وبثوّه بغربتهم ، وحدّثوه عن قساوة الحال ، وبكوا بين يديه ، وتوسلوا إليه أن يكون رسولًا يحمل نبوءتهم إلى الأجيال ، ويخبر أحفاد الأحفاد أنهما لم يكونوا وهما ولاهباء ، ولا ظلاً بليداً ، ولكنهم دبوا على قدمين

مثلهم، وعشقاوا الحسان مثلهم ، وألقت بهم اشجان الالحان في ممالك
الوجود مثلهم ، وتنسموا أزاهير الرّتم مثلهم ، وذاقوا طعم الترّفاس مثلهم ،
ولكن الخروج من الوطن هو مارماهم بالهم ، وغضبة سلطان الحرم هي
التي كتبت على جبينهم مصير الزوال ، حتى عدّهم اللاحقون طيفاً من
الاطياف ، أو وهماً أبدع في تصويره السراب .

قبل الطين الوصيّة ، وسافر بها في الزمان . أخذ من النهار زاداً من
ضوء فانكفاً عليه وانفاه في الجوف ، واحتلّس من الليل وشاهاً من
الظلمة تنكر فيه ، وانحفي فيه سره . ثم انطلق في دوامة الزمان . اصابه
التحول الأول . تصلب في البدن ، واصابت صورته التبدل . نزع وعاء
الرخاوة ، والمرونة ، والليوعة ، واستبدل بآخر يليق بكائن أراد أن يتولى
الأمر ، فأخذ على عاتقه وزراً خشيته السماء ، وامتنعت عن حمله
الجبال . انطلق مرة أخرى في دوامة الزمان . قطع مسافة طويلة أخرى
قبل أن يستبدل بدن الصلصال ، الثوب القديم ، بآخر جديد . اصابه
التحول وبلغ مقام الحجر . تكون مسدلاً على نفسه ستاراً منيعاً من
العتمة ، في حين انحفي الوهج بعيداً ، وامعن في التكتم على السرّ ، على
الوصيّة . ولكن البلاء الأكبر هو أنه اكتشف أن الاختلاف نسوا لغة
الاسلاف ، فلم يفهموا من الوصيّة الجليلة رمراً واحداً . والابناء إذا نسوا
لغة الآباء فإن الضياع صار لهم حياة ، والتيه يصبح لهم ناموساً ، والبلاهة
هي لهم المسلك . ولو لا السحرة لما عرف أحد في الصحراء للحجر

الحكيم هوية ، ولما فهم له أحد لغة ، ولما ادرك له أحد سرّاً .
الاخلاف لم يخونوا الاسلاف لأنهم جهلو لغة الحجر فحسب ،
ولكنهم خانوا مرة أخرى لأنهم اضاعوا الحجر نفسه .

كرر الساحر العبارة ثلاث مرات قبل أن يتوقف ويركز للصمت .
دمدم صدر بورو بأنين مكتوم ، ولكن الساحر عاد إلى سيرة الحجر :
- الحقّ أن الحجر حاول أن ينقل الوصيّة للأحفاد ، فخاطبهم
طويلاً ، طويلاً ، ولكن الأجيال لم تفهمه ، لأنّ الزمان الذي قطع
صلتهم بالسلف انساهم اللغة الأولى أيضاً ، فوجد الحجر نفسه غريباً ،
يتدرج في أرض غريبة ، ويتكلّم بلغة منسية ، فلا يوجد اذناً صاغية من
بعث لهم رسولاً .

كائن وحيد استطاع أن يفهم لغة الحجر هو : الماء ! فقد اعتاد هذا
الكائن أن ينساب بين الصخور بمرونة الأفعى ليداعب الحجارة ،
ويلامس الحصى ، ويدغدغ أصول الشجر ، ويشاكس الجلاميد فيحفر
تحتها أخداد ، ويشق دروباً ، ليتجسس على الكائنات السفلية . في هذه
الاسفار اهتدى إلى الحجر . داعبه ، لاطفه ، دغدغه ، ثم احاط به
وغمّره بالفيض . تأوه الحجر وبرطم بغموض . انفض السائل الشقئي
وتنهّى جانبًا . غاب في التراب . نفذ من جانب آخر . وخاطب السماء
عجبًا وألقاً . تلقى جواب السماء قصاصاً . احترق بالشعاّع ، واصابه

الجلاد بسياط النار حتى فقد بدنـه ، وتبـدـد بخاراً في الفراغ . طاف المجهول ، وعبر المكان والزمان ، وعرف زوالـاً لم يـعـرـفـه سواه ، ووقف على السـرـ في الأـعـالـيـ ، ثم عـادـ إلى الأسـافـلـ ، وسـقطـ على رأسـ الحـجـرـ مـطـراً . التـحـمـ بالـحـجـرـ المـنـسـيـ . المـهـمـلـ ، الغـرـيبـ ، وحاورـهـ بالـلـغـةـ الـقـدـيمـةـ ، بلـغـةـ الـأـبـدـ . انـطـلـقـ الحـجـرـ يـروـيـ سـيرـتـهـ ، ويـثـ لـسانـ المـاءـ شـكـواـهـ عنـ المـنـفـيـ وـالـشـقـاءـ . قالـ لـلـمـاءـ أـنـ اـقـسـىـ اـمـتـحـانـ يـتـلـىـ بـهـ كـائـنـ أـنـ يـقـبـلـ أـمـانـةـ لـاـ يـجـدـ لـهـ أـهـلـاـ ، وـلـيـسـ هـنـاكـ مـاـ هـوـ أـكـثـرـ فـجـيـعـةـ مـنـ أـنـ تـكـوـنـ رـسـوـلـاـ ، وـلـاـ تـجـدـ كـائـنـاـ آخـرـ يـتـلـقـيـ رسـالـتـكـ . فـقـالـ لـهـ المـاءـ أـنـ هـذـاـ حـالـ كـلـ الـكـائـنـاتـ الـتـيـ فـقـدـتـ لـغـةـ التـخـاطـبـ . الـأـرـضـ فـقـدـتـ لـغـةـ السـمـاءـ فـتـغـرـبـتـ عـنـهـ ، الـأـنـسـانـ فـقـدـ لـغـةـ الـوـدـانـ فـتـغـرـبـ . الـوـدـانـ فـقـدـ لـغـةـ الشـجـرـ فـتـغـرـبـ ، الشـجـرـ فـقـدـ لـغـةـ الـحـجـرـ فـتـغـرـبـ . ظـلـلـاـ يـتـكـلـمـانـ كـثـيرـاـ ، يـتـحاـورـانـ وـيـرـطـمـانـ زـمـانـاـ لـاـ يـقـاسـ بـوـحـدـةـ الـمـخـلـوقـاتـ الـفـانـيـةـ . تـضـاءـلـ بـدـنـ الـحـجـرـ وـتـضـاءـلـ جـسـدـ المـاءـ ، تـلـامـعـ بـدـنـ الـحـجـرـ بـالـوـمـيـضـ ، كـمـاـ تـأـلـقـ جـسـدـ السـلـسـلـيـبـيـلـ بـالـضـيـاءـ . صـارـاـ يـسـيرـانـ نـحـوـ قـدـدانـ الـوعـاءـ . أـصـابـ بـدـنـ الـحـجـرـ دـاءـ التـلـاشـيـ ، وـنـالـتـ جـسـدـ المـاءـ عـلـلـ الـاحـتـجـابـ . وـلـكـنـ الـلـغـةـ الـمـشـتـرـكـةـ كـانـتـ لـهـماـ رـبـاطـاـ وـمـصـيـراـ ، فـمضـيـاـ يـثـرـثـرـانـ مـعـاـ . وـرـآـهـماـ السـحـرـةـ فـيـ التـحـامـهـماـ فـأـثـارـ الـوـفـاءـ اـعـجـابـهـمـ ، وـقـالـوـاـ أـنـ المـاءـ وـالـحـجـرـ هـمـاـ الـكـائـنـانـ الـوـحـيدـانـ اللـذـانـ يـفـقـدـانـ جـسـدـهـمـ ، وـيـسـيرـانـ نـحـوـ الزـوـالـ ، عـنـدـمـاـ يـتـكـلـمـانـ كـثـيرـاـ . وـيـعـرـفـ السـحـرـةـ الـيـوـمـ أـنـ الـفـضـلـ يـرـجـعـ لـلـمـاءـ فـيـ اـسـتـنـطـاقـ الـقـرـيـنـ التـائـهـ ،

وارشادهم للغة الخفية . نسيت أن أخبرك أن دهاء هذه الملة قد توصلوا إلى فهم لغة الماء قبلها بوقت طويل . احترفوا قراءة النبوات في هدير السيول ، وزخات المطر ، وثرثرة الجداول التي تنهر من رؤس الجبال . وقد رأيتم في تاسيلي بنفسي وهم يتوصدون اذرعهم ليتجسسوا على الينابيع السفلية . ونزلت ضيفاً على احدهم في إحدى رحلاتي لتفقد الآثار في تلك الجبال . كان يجلس على جلمود على ظهر السفح ، بجواره يرطن الماء في ينبوع يتدفق من الأعلى ، يتصنت بخشوع الكهان ، حتى أنه لم يهreu للقائي ، ولم يستقبلني بواء الحياة كما يقتضي ناموس الخلاء ، فشككت في أمره ، وظننته شبحاً من أهل الخفاء قرأت التمام لإزالته ، ولكنه لم يتبدّد ، ولم يختف ، فأيقنت أنه من أهل الخلاء . بحثت له عن الاعذار وقلت لا شك أنّه أعمى . جلست بجواره ، ركعت ورأيت أن أنهل من النبع لأطفئ الظماء ، فاقنعني بإشارة صارمة من سبابته . انتظرت وقتاً آخر ، ولكن الساحر غاب في دنياه ولم يلتفت إليّ . يئست فذهبت لأرتوi من ماء نبع آخر . لم أجد نبعاً في المسافة التالية ، كما فقدت السبيل إلى الآبار القديمة بسبب العجاج . بعد يومين ادركتي الساحر راكضاً ، يحمل خبزاً وتمراً وشكوة ماء . أخبرني بما خبره النبع . أخبرني بما خبره الماء . انبأني بكل بلوى لحقت الصحراء خلال السنوات التالية . الجدب . غزوات القبلي ، غزوات الغزاة . الاوبية . رحيل الزعماء وكبار السحرة إلى الأرض

الأخرى التي لم يشاوروا أن يعودوا منها إلى وطن الرؤى . وقد عاشت الصحراء تلك المصائب ، وتلقت كل اللعنات التي قرأتها الساحر في ثرثرة جدول تاسيلي . ولا أخفى عليك أنني عدت إلى تاسيلي لا لفقد الأستان هذه المرة ، ولكن للالتقاء بالساحر القديم . طفت السلسلة كلها ، وفتشتها شقاً شقاً ، حجراً ، حجراً ، وادياً ، وادياً . طلحة ، طلحة ، ولكن الكاهن العظيم اختفى . يشت ورحلت . في الطريق قابلت نبيلاً من قبائل الجن أخبرني أن الداهية قد رحل مع من رحل من الزعماء وكبار السحرة إلى الأرض الأخرى ، فأسفت كثيراً ، لا لفراقه ، ولا لأن موت الداهية يقابل موت قبيلة كاملة ، ولكن لأنني كنت متلهفاً لتعلم لغة الماء .

سكت المهاجر . تكلّم بورو :

– أعد الحجر إلى مولاه ! رُدّلي حجري !

– هيئات . الحجر تكلّم كثيراً ، والحجر إذا تكلّم كثيراً فقد بدنـه ، وتبدّد في الفراغ مثل قرينه الماء !

– لم اسمعه يتكلّم قط !

– وهل يعني ألاً تسمعه أنه لا يتكلّم ؟ وهل تسمع للزمان صوتاً ؟ أو هل ترى له صورة ؟ هل تسمع ديب الفناء ، أو ترى له صورة ؟ وهل تسمع للخفي صوتاً ، أو ترى له صورة ؟ وهل سبق ورأيت الزعيم الذي

يعتصم بالأعلى ، أو سمعت له صوتك ؟ ومع كل هذا فإن غياب الأصوات والصور ليس برهاناً يلغي وجود العناة .

تكلّم بورو يأس الأطفال إذا ذاقوا مرارة التجرب ، وعرفوا خيبة

الامتحان :

– لقد نلت مرتين . مرّة فقدته بالطيش فلت الجزاء ، ومرة أعاده لي الكائن الوديع في الرحلة ، فخطفته من بين يديّ . رأيتك ..

قاطعه الساحر :

– لا انوي أن اخفي عنك شيئاً . لقد القيت به في الظلمة فهداها إلى الكنز . برمط بالتمائم القديمة ، بتمائم الأولين الذين يحمل كنزهم في جوفه . فأثار لنا السبيل ودلّنا على الكنز الآخر ، كنز الاعماق السفلي ، كنز التبر الذي تقف عليه الحياة عسّاساً هئ - هئ - هئ .. أو .. أو الحياة التي يقف فوق رأسها التبر حرساً ، إذا شئت الحق . هئ - هئ - هئ ..

– اعرف . اعرف . لقد فزت **بالكنز** وتركت لي التراب . لقد خطفت الحياة . وتركت لي الهباء !

– لم اخف ذلك أيضاً . لأنك لا تعرف أنني لو لم افعل ذلك لفقدت جسدي أيضاً ، وتبددت في الفراغ كالماء ، كالحجر الحكيم إذا تكلّم بالنبوءة ، أو انضمت إلى قافلة الغياب الذين استمروا الأرض

الأخرى ، الصحراء الأخرى ، وآثروا ألاً يعودوا . هيء .. لو لم
أقم مع الحياة عهداً ، واربط مصيري بمصيرها إلى الأبد ، لما وجدتني
بجوارك ، ولما عرفتني مهاجرًا أبدياً في الصحراء ، ولما لعنتي الخلق
حسداً ، وسموني « وانتهيط » لأنني أفضل أن أتخذ من الآثار دابة بدل
جمالكم الحمقاء !

- ظننت أن الحمير أحمق دابة عرفتها الصحراء .

- هيء .. هيء .. يا لكم من حمقى مثلكم مثل جمالكم .
ولو لم تكونوا حمقى لما تقائلتم على التراب ، على التبر ، وتركتم الكنز
الحي ، الحياة . ولكن هذا سر كتب عليكم ألا تدركوه إلى الأبد . إلى
الأبد . إلى الأبد ! ها - ها - ها ..

قهقهته المهولة افزعت بورو ، ولكنها لم تمنعه أن يسأل بعناد

الاطفال :

- ولكن اجبني على سؤال : هل يجوز ، بحساب العقل ، أن
يحدث كل ما حدث في ليلة ؟

أجاب الساحر بنفس الروح العدوانية التي تملكته فجأة :

- هذه بلاهة أخرى من بلاهاتكم . ما حدث كان يمكن ألا
يحدث حقاً لو حسناه بقياس العقل كما يطيب لكم أن تفعلوا ،

• وانتهيط : صاحب الآثار . (تماهق) .

وسامحني ، أيها القرىن الشقى ، أن أقول لك أنكم لن تفلحوا ما دمتم تقيسون كل ما حوتة الدائرة المطروقة بقوسي السماء والصحراء بحساب العقل . هذه الحماقة انتكم لغة الطير ، وجعلتكم تضيّعون انفسكم إذ فقدتم لغة الحجر الحكيم ، واهلكتكم إذ اعمتم عن المعنى المخشور في الدائرة ، وكتبت عليكم فيها لا عودة منه إذ أضبتم بعد هذا كله الناموس إلى الحياة : آلهي . وتريد بعد هذا كله أن تفهم كيف دخلنا وادي الظلمات ، وعبرنا بعد أن نحرنا ، فزنا بعد أن تهنا ؟ ها - ها - ها ...

جلجل بضحكه أخرى . ضحكة منكرة ، ماكرة ، كريهة ،
ظللت تتردد طويلاً ، طويلاً ، في فراغ الصحراء .

(٢)

لم يدرك بورو ماذا أصاب المهاجر الوقور . لم يفهم السبب الذي بدأ في المزاج ، ورماه بالسويداء وروح العدون . أراد أن يستفهم كثيراً، ويستعلم من أöttى علماً ، عن الدائرة ، والمعنى والظلّ وملكة الودان ، واحوال الارض الأخرى التي يأتي من دخلها أن يخرج منها ، ولكن الضحكة المنكرة ، الماكرة ، الكريهة ، افزعته ، قتابع العمامة الفضية الخجولة وهي تمبل إلى المغيب ، فقرأ فيها علامه غامضة مدته بالعزاء .

Twitter: @alqareah

١٨ - البكاء

«إن علامة وفاء المرء ودؤام عهده ، حتى ينبع إلى أخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه». المسعودي «مروج الذهب»

* * *

«البكاء صالح للطبايع ، ومحمد المغبة ، إذا وافق الموضع ، ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة . ودليل على الرقة ، والبعد عن القسوة ، وربما عُذَّ من الوفاء ، وشدة الوجد بالأولياء ، وهو أعظم ما تقرب به العابدون ، واسترحم به الخائفون». الماحظ «البخلاء»

* * *

(١)

عاد بورو يحمل في ثيابه وباء السُّويداء* .

في اليوم الأول أصابه الكتاب فتجهم وتعلق بالصمت . في النهار التالي بدأ يرطم لنفسه : «من اهتدى إلى لباسي في الكهف فرقه؟ من وجد نعلي فأصلحه؟ من محا أثري على الأرض يوم سفري؟ من لاحقني بالزغاريد والأغاني والضحك يوم خروجي؟ من أمر الصبيا أن يصبغن خدودهن بـ«تفتست» ويمشط شعورهن في جداول؟ من ... من ادرك أن بورو لاسمي المستعار فاهتدى إلى إسمي الخفي؟». ينهض ويدور قدام الموقد ، ثم يترنح ، يدق صدره بقبضته ، يسرح في الخلاء مسافة . يعود إلى الموقع . يطوف حول جلمود الأسلاف . يغمغم لنفسه بالجواب : «تيرزازت من اهتدى إلى لباسي في الكهف فرقه ، تيرزازت وجدت نعلي فأصلحته . تيرزازت محت أثري على الأرض يوم سفري . تيرزازت لاحقتني بالزغاريد والأغاني والضحك يوم خروجي . تيرزازت من أمر الصبيا أن يصبغن خدودهن بـ«تفتست» ويمشط شعورهن في جداول كي يصيبني السوء . تيرزازت ادركت أن بورو هو لاسمي المستعار ، واهتدت إلى إسمي الخفي». ثم استبدل تيرزازت بـ«وانتهيط»، فلعل في رقبته كل ما أصابه من سوء . لاحقه جبارين بوعاء الماء . رشه بشرات على وجهه ، وقرأ

(٤) نوع من الماليخوليا .

على رأسه تمائم تعلمها من ساحر مخيف نزح من الأدغال واستوطن الحمادة . ولكن حال القرىن ازداد سوءاً . اشتكتي من مزاج الجنّ ، وقال أن أشرارهم احاطوا به مع حلول الغسق ومدوا له السنة من نار ، واستنفزوه برؤوسهم المقطوعة التي ينزف منها دم ازرق . في المساء طلب من قرينه أن يعصب له عينيه باللثام حتى لا يرى وجههم الكرييئه ، فبدلوا الاسلوب ، وقهقهوا في اذنيه ، وافزعوه بقهقهات منكرة ذكرته بقهقهة الساحر في الخلاء . وبلغت بهم الوقاحة حداً جعلهم يلقون في كُمه حيّه غاضبة تتوعّد بالفحيج ، وتتأهّب لحقن العدو بالناب المسموم ، ولكن الحياة لم تلدغه . تذكر القرآن ، وسمع صوت الساحر وهو يتحدّث عن العهد الذي أقامه بينهما على ألا يدّيه لقتل حيّة ما دام حيّاً . فانفلت ضاحكاً . ضحك ضاحكاً منكراً ، كريهاً ، حاقداً ، تحول إلى قهقهة ابتلت قهقهات الجنّ واسكتتها . ثم رأهم يستعيدون رؤوسهم ، ويتعلّعون السنتهم النارية ، ويتوارون .

ساعتها وجد جبارين نفسه مجبراً أن يقيده بحبيل المسد .

(٢)

السويداء شرّ غلب الصحراء ، وحار في أمره السّحرة منذ القدم .

يقول الدهماء أنها داء جلبه القبلي مثل الوباء ، مثل الاوبئة

الآخرى . من ممالك الجنوب ، فولدوا من هذا اليقين تميّتهم التي تُقرأ على رأس المصاب وتقول : «ريح جاء بك ، ريح يذهب بك » . ولكن الحكماء رأوا رأيا آخر .

قالوا أنها لعنة جلبتها تيرزازت عندما دخلت الصحراء رسولاً يحمل النبأ الشّرير ، واصابت بها أخيار القبائل ، لأنهم شكّوا في أمرها ، وشكّوا في صدق النبأ . وبرهاناً على السيرة نبهوا إلى اقصار العلة على الاخيار ، لأن الملعونة أرادت أن تقتص من أهل الحكمة الذين كشفوا المؤمها ، فجعلت السويداء من نصيبيهم وحدهم من دون الدهماء وعامة الخلق . ويقول آنهي أن هذا المرض الخبيث كاد يقتصر - طوال تاريخه - على إصابة امزجة الخاصة حقاً . وكان الزعماء والسحرة وعشاق البحث عن «واو» أكثر الفئات التي عانت منه . وما زالت الأجيال تتداول سيرة زعيم آزر عندهما اصيب بالوباء فاحتاجب زماناً، ثم كره الناس ، وزهد في السلطان ، وأمر جنده الجن أن يتعدوا به عن البقع المأهولة بالخلق ، فأخذنوه إلى الجبل ، وتدرجو به في قمم «تارات» حتى بلغوا به الحلقة السابعة ، فأقام هناك ، واتخذ من الاعالي وطناً إلى يومنا هذا . ويقال أن السويداء لازمته طوال الايام . ولو لا «آسيار» تلك العشية النبيلة التي انقذته من وباء آخر في القدم ، وحمته من ويلات الهرم والشيخوخة عبر الزمان ، لفتك به نوبات هذا الوباء الميت . وإذا استطاعت السويداء أن تناول من الزعماء ، وتجعل أولى الأمر

يُزهدون في أحبّ أمر إلى الإنسان (السلطان) ، فكيف يصعب عليها أن تهزم الشعراء ، أو النبلاء ، أو الباحثين عن الواحة المفقودة ؟ الشعراء وأهل اللّحون عانوا من وجدٍ كثيراً ما قادهم إلى مالك الجنّ فلبيوا هناك ولم يعودوا ، والنبلاء تخلوا عن أولادهم ، وهجروا زوجاتهم ، واعتكفوا في الكهوف على طريقة الكهان ، أو اعتزلوا في الخلوات كالعايرين الأبديين . أمّا طلاب «واو» فكان نصيّهم من الحمّي أسوأ الجميع . كانوا يندفعون من الجبال عندما يطول بهم البحث وتضرّ بهم اللعنة ، ويلقون بأنفسهم إلى الأسفل من أعلى شعفة فتدرج ابدانهم عبر سفوح مفروشة بحجارة شرسة لها انياب الوحش ، تنهش لحومهم ، وتهشم رؤوسهم ، وتترقّ أجسادهم كأن سكاكين الأعداء هي التي قطعتها ، ولكن البسمة الغامضة لا تفارق شفاههم ولا عيونهم حتى عندما يغيبون ويتركون الاجداد الهامدة وراءهم .

أمّا الساحرة تيرزازت فتدفع عن نفسها وتقول أنها لم تفعل شرّاً ، ولم تأت بوباء ، وإن جاءت بالنبأ الحقّ . وتقسم بـ «وانتهيط» الذي علمها السحر أنها لم تستهجن أن يلعنها الخلق ، لأن اللعنة هي أقل جراء يصيب من أخبر بالحقيقة وبشر المخلوق بالخبر اليقين ، وذلك لأنها بطبع الناس أعلم ، فهم لا يستمرئون إلا الكذب ، وتجدد لهم العذر أيضاً ، لأنهم لم يعرفوا ناماًوساً غيره في كل حياتهم الفانية . والفناء ، نبا الزوال والتلاشي ، هو اللعنة التي أنت على ما تبقى من حكمتهم ، ودمفت

افعالهم بالكذب إلى الأبد في الوقت الذي أصيّبت فيه امزجتهم بالسويداء . بلـى . السوـيداء هي قدر كل من وقف على السـر ، على الحق ، على النـبـأ اليقـين ، وانـصـت لـنـداء الـأـرـض الـأـخـرى الـتـي تـظـلـلـهـا سـمـاء أـخـرى . الزـعـيم يـرـى فـي هـذـا الـحـدـ مـلـكـة أـبـهـى مـنـ مـلـكـتـهـ الـبـائـسـةـ ، وـسـلـطـانـاـ اـعـظـمـ شـائـنـاـ مـنـ سـلـطـانـهـ فـيـهـيـجـ بـالـشـوـقـ ، وـيـجـيـشـ صـلـدـرـهـ بـالـخـنـينـ ، فـيـكـرـهـ مـنـ وـالـاهـ ، وـيـزـهـدـ فـيـ سـلـطـانـهـ الشـقـقـيـ . وـالـشـاعـرـ يـسـمـعـ لـحـونـاـ لـمـ يـسـمـعـ لـهـ مـثـلـاـ لـاـ مـنـ حـنـاجـرـ شـاعـرـاتـ الـقـبـيلـةـ ، وـلـاـ مـنـ مـغـنـيـاتـ الـقبـائـلـ الـجـاـوـرـةـ ، فـيـقـعـ فـيـ وـجـدـ لـاـ رـجـوـعـ مـنـهـ ، لـأـنـهـ لـاـ يـتـمـيـ إـلـىـ الصـحـراءـ ، وـلـاـ يـقـاسـ بـقـيـاسـ نـامـوسـهـاـ . وـالـفـارـسـ النـبـيلـ يـرـىـ حـسـانـاـ لـمـ تـجـدـ بـجـمـالـهـنـ الـصـحـراءـ يـوـمـاـ فـيـقـدـ عـقـلـهـ فـيـهـيـمـ ، وـيـخـرـجـ إـلـىـ الـمـغـاـورـ ظـلـانـاـ أـنـ الـمـلـكـةـ الـأـخـرىـ هـيـ فـيـ مـكـانـ ماـ هـنـاكـ . أـمـاـ فـرـيقـ الـاشـقـيـاءـ الـذـيـ لـمـ يـكـفـ عـنـ طـلـبـ وـاـوـ فـفـةـ تـسـتـحـقـ أـنـ تـنـالـ إـعـجـابـ الـشـرـفـاءـ حـقاـ ، لـاـ لـشـجـاعـتـهاـ أوـ لـبـطـولـةـ فـيـ مـسـلـكـهـاـ ، وـلـكـنـ بـسـبـبـ عـنـادـهـاـ بـالـذـاتـ . هـذـاـ العـنـادـ الـذـيـ يـجـعـلـ «ـوـاـنـتـهـيـطـ»ـ نـفـسـهـ بـيـأسـ وـيـفـكـرـ جـديـاـ فـيـ أـنـ يـدـلـ مـنـ أـمـرـهـ ، وـيـغـيـرـ سـيـرـتـهـ وـيـدـلـ مـنـ جـدـيدـ . هـذـاـ فـرـيقـ يـرـحبـ بـالـسوـيدـاءـ لـأـنـهـ تـرـمـيـ بـهـ إـلـىـ الـحـدـ ، فـيـجـدـ نـفـسـهـ فـيـ أـفـاصـيـ الـيـأـسـ . لـاـ يـسـمـعـ لـحـونـاـ ، وـلـاـ يـرـىـ سـلـطـانـاـ ، وـلـاـ يـلـتـفـتـ إـلـىـ حـسـانـ ، وـلـكـنـهـ يـرـىـ مـاـ يـجـبـ أـنـ يـرـاهـ . مـاـ كـانـ يـجـبـ أـنـ يـرـاهـ . يـرـىـ أـنـ «ـوـاـوـ»ـ الـتـيـ أـفـنـيـ الـعـمـرـ وـبـدـدـ الـحـيـاـ بـحـثـاـ عـنـهـاـ هـيـ أـقـرـبـ مـنـ حـبـلـ الـوـرـيدـ ، فـيـ حـيـنـ تـبـدوـ ، طـوـالـ الرـحـلـةـ الـبـلـهـاءـ ، فـيـ مـكـانـ آخـرـ أـبـعدـ

من سرندليب * . فيرمون بأنفسهم من الأعلى ليعطوا ابدانهم طعاماً للصخور ويطبعوا شفافهم بابتسامة الحقيقة . ابتسامة من ادرك اليقين ووقف على صحة النّبأ الذي كذب به المكذبون . فطوبى لهم ، تقول تيرزازت في مدح الواوين ، لأنهم عرفوا أخيراً في قبس سماء البلاء سويدةء ، أن لا طلب يجدي ، ولا اعتكاف يفيد ، ولا صيام ينفع ، ولا غنى يحقق الفوز ، ولا أمجاد تأتي بالأمان ، والحكمة لا تعزّي بقدر ما تضاعف الهم ، ولا حيلة أبداً تهدي الى سوء السبيل . فطوبى لمن وقف في ظلمة السويدةء على الخبر اليقين ، ورأى أن يتولى الأمر ، فعبر البرزخ ، وتوارى ، تاركاً باسمة تسقط كقبس الفجر فوق كوز الطين .

(٣)

تغنى المصاب بانشودته عن «الارض إذا تبسمت» ، وردّد مواويلي التيّه ، واعشار الاحزان والاشجان . ولكن الهم لم يتنح ، والوباء تمكّن وتمادي ، فلفظ المعلول زيداً ناصعاً ، وازداد كآبة .

أكتأب يوماً آخر .

في اليوم الثالث بلغ الحدّ ، اعتلى البرزخ ، فلاح له القبس . من هناك ، من مملكة اليقين ، عاد بالخبر ، وكلم قرينه بالنبوعة :

(*) سرندليب : موقع بالهند يقال أنه كان مهبط آدم . يقول المسعودي : «وأهبط الله آدم بسرندليب ، وحواء بجدة ، وإيليس بيسان ، والحيّة بأصبهان » . (مروج الذهب) .

- اقتل النار في الموقد وتعال نستنير بنار أخرى .

لم يفهم القرین فكرر المصاپ دعوته :

- حرّني من قيد المسد وتأهّب للنّواح .

ظلّ جبارين ينحني فوق رأسه ، يحدّق في وجهه بلامة المجاذيب . أوضح المصاپ :

- هل نسيت الوعد يا قرین ؟

- الوعد ؟

- ازحنا التراب معاً ، وكشفنا عن الرموز الخفية معاً ، واعطانا الاجداد عطّيّتين : عطّيّة تسكن في بيت مدوار ، تقع ناحية مغيب الشمس ، لها باب مسبوك من ذرات التّبر ، تحرسها «تامضال» ، في جوفها كنّز الظّلّمات . وعطّيّة أخرى تشرق عليها الشمس ، تقع على يسار الجلمود ، سنكشفها عندما نسدّ الدين وننوح كما ينبغي أن ينوح من ضحك كثيراً . لقد غلّبنا الضحك في ذلك اليوم يا قریني ، فأصابنا القصاص ، والآن جاء ميعاد البكاء الذي قضت الاحكام ان يعقب كل ضحك . هل نسيت آنهي ؟ هل نسيت وصيّة النّاموس ؟ فهيا ، تأهّب . وتعال نملاً بالدموع افواها ملأناها من قبل بالضحك الكريه !

هرش القرین عمامته . أهال تراباً على النار بنعله ، هرجل في العراء مسافة . دار حول الجلمود مرتين . طاف حول الطلحة أيضاً .

تقْدِمَ أَخْيَرًا وَحَلَّ وَثَاقُ الْقَرِينِ يَدِينِ رَاجِفِينِ . اعْتَدَلَ بُورُو فِي جَلْسَتِهِ .
تَرْنَحُ يَمِينًا وَيَسِيرًا . لَا حَظٌ الشَّقَاءِ فِي عَيْنِي جَبَارِينِ . اقْتَرَحَ :
— يَجُدُّرُ بِنَا أَنْ نَبْدُأُ بِالْغَنَاءِ . الْأَلْهَانُ تَسْتَفِرُ الدَّمْعَ .

اغْمَضَ عَيْنِيهِ ، وَغَالَبَ عَتْمَةُ مَفَاجِهَةٍ ، رَفَعَ إِلَى الْقَرِينِ مَقْلِتَيْنِ
غَابَ مِنْهُمَا السُّوَادُ وَاضْفَافُ بِلْفَظٍ مُتَعَثِّرٌ :
— تَذَكَّرَ وَاوِ . إِذَا تَذَكَّرَتْ وَاوِ غَنِيَّتْ ، وَإِذَا غَنِيَّتْ طَوِيلًا فَتْحٌ لِكِ
الْحَزَنِ بَابًا إِلَى الدَّمْعِ ...

كَانَتْ وَاوِ تَقْفَ على تَخُومِ مِنْفَاهَا الْخَالِدُ مُنْسِيَّةً ، مَعْزُولَةً ، شَقِيقَةً ،
تَنْتَظِرُ عَشَاقًا نَالَ مِنْهُمُ الْحَنِينِ ، وَلَكِنَ الزَّمَانُ أَبَى أَنْ يَأْتِي بِهِمْ إِلَيْهَا . تَرْسِمُ
الْاِقْدَارُ لِلقاءِ مِيعَادًا فِي الْجَهَوْلِ ، وَلَكِنَ الْاِقْدَارُ لَا تَتَدَخَّلُ لِإِفْسَادِ مَكِيدَةِ
الْزَّمَانِ ، فَيَتَسَلَّلُ الزَّوَالُ ، يَنْصُبُ لِلْعَشَاقِ فَخَانِهِ ، يَرْمِي بِـ «وَانْهِيَطُ»
فِي طَرِيقِهِمْ ، فَيَقُودُهُمْ بَعِيدًا ، لِيَدْخُلُوا وَاحِدَةً أُخْرَى ، فِي مَالِكٍ أُخْرَى .
فَمَا اشْقَى الطَّالِبُ ، وَمَا أَبْعَدَ الْمُطْلُوبَ !

(٤)

فِي الْبَكَاءِ سَرٌ لَمْ يَجِدْ إِلَّا لِلْسَّحْرِ .

فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ كَانَ الصَّحْرَاءُ يُونِ يَفْرُحُونَ كَثِيرًا ، يَرْقصُونَ
كَثِيرًا ، وَيَضْحِكُونَ كَثِيرًا ، ظَنَّا مِنْهُمْ أَنَّ الْفَرَحَ شَارَةُ الْحَيَاةِ ، وَالرَّقْصُ
عَنْوَانُهَا ، وَالضَّحْكُ لَهَا شَعَارُ وَرَأْيَةُ وَنَامُوسٍ : وَلَكِنَ الْبَلَا يَا كَانَتْ

تصيّبهم عقب كل فرح ، والاسقام من نصيب كل من غنى ورقص وابتهج . ويروق للعلل والاوبيه أن تهرع الى بيوت الضاحكين الذين رأوا أن الضحك هو دين الاحياء فتابروا على العادة ، وملأوا اشداقهم باشتد القهقهات جسارة ووقاحة ، خاصة في المناسبات التي يعود فيها الفرسان من الخلاء وقد أصابوا الطرائد الوفيرة . أو في تلك الليلالي النادرة التي ينالون فيها عشاء فاخراً ، ويتحلقون حول موقد النار ليتباروا بالأحاجي ، ويتداولوا الأشعار . كانت المعيشة صعبة ، ولكن الحياة سهلة، لأنهم لم يخلطوا ، في ذلك الزمان المجيد ، الاشياء بطلال الاشياء، ولم يقلبوا الآيات ليجعلوا من العيش حياة ، ومن الحياة عيشاً . تأملوا الرّتم وهو يتفتح ويتتفتح في مواسم الازدهار ، وطلبو الترفاس لينالوا منه نعمة العبير ، ويتلذذوا بشذاه ، وتمددوا في الامسيات ليراقبوا رحلة القمر في سكون جماعي . لم يدبّروا الغزوات الى الادغال للعودة بالسبايا ، ولم يرتّبوا قوافل التجارة ليجلبوا هباء التبر . لم يشتّهوا شيئاً ليس في متناول اليد ، ولم يذهبوا وراء رزق حجبته عنهم السماء خلف قوس الافق ، فتمتّعوا بخلو البال ، وتنعموا بالهدوء ، وعرفوا أن الحياة هي ألا تمتلك اسباب الحياة ، وعرفوا أن السعادة في ألا تعرف السعادة ، والمعرفة ألا تعرف شيئاً عن المعرفة ، والحكمة ألا تعرف شيئاً عن الحكمة . زهدوا في اسباب المعيشة فنالوا الحياة ، ابتعدوا عن الامتلاك ففازوا بالسكينة ، رجعوا عن التكسب والعناء فكسبووا في

الارض نعيم السماء .

ولم يكدر عيشهم إلا تلك العلل والاسقام التي تصيبهم كلما أرادوا أن يفرحوا بالنّعم ، فرقعوا وضحكوا ضحكاً متواصلاً ، صاحباً، عنيفاً . جربوا أن البلاء ينزل على رؤوسهم عقب كل حفل من هذه الحفلات . والامراض تصيب الكبار ، كما تفتت بالصغرى بعد كل اجتماع علا فيه الضحك كثيراً . فكرروا طويلاً في سر هذه الغضبة المجهولة ، ولكنهم ، في ذلك الزمان البعيد ، لم يقدروا أن يهتدوا الى السر ، لأنهم كانوا قد جربوا أيضاً أن كثرة التفكير تجلب الهم ، والهم يقود الى دهليز مهول اطلق عليه السحرة فيما تلا من زمان باسم «المعرفة» . وفي دهليز المعرفة تختنق السعادة ، ويُعرف الشقاء .

عارضوا الامراض طويلاً ، لأنهم لم يقدروا أن يمتنعوا عن الفرح ما داموا على قيد الحياة ، وما دامت الحياة تمنّ عليهم بالسعادة والسكينة وخلو البال . عاركوا الامراض ، وعانوا من الاحزان والاوبيّة الخفية حتى كادت العلل تهدّد نسلهم بالانقراض . بعدها توقفوا عن الضحك وهرعوا إلى الجبال . هناك نحرروا الذبائح ، وسفحوا دم القرابين .

بعد أيام دخل الصحراء ذلك الرّسول المجهول .

جاء مع حلول الغسق راجلاً ، ملفوفاً في الثياب الزرقاء . يعلق يديه النحّاسيتين على عصا صقيلة من السدر كانت تستقر على رقبته

لتوازي المنكبين العريضين . في حين لم يلحظ أحد نعليه ، ولم يجزم أهل الفضول عما إذا كان يرتدي «قبا» أم جاء حافي القدمين ، لأن الجلباب الفضفاض الذي كان يفيض عن قامته ، يتذبذب على الأرض ، ويسهل بعيداً كما يليق بثوب رسول نبيل . في الليلة الأولى تحدث طويلاً عن «وانتهيط» ، وقال أن سبب بلاء أهل الصحراء أنهم يجهلون مسلك عدوهم القديم الذي اعتاد أن يهرع إلى كل بيت ارتفع فيه ضحك ، لأنه أول من يعلم أن هذا الصوت المدهش لا يعلو في مكان خلا من الوليمة أبداً . فيركب اللثيم دابته ، وينذهب إلى هناك ليفسد على الضاحكين فرحةهم ، ويقلب سعادتهم شقاء . «بلى . بلى . ما الأسماء التي أصابتكم ، والأوبئة التي فتكت بكم ، إلا مكائد دبرها العدو إذ تغافلتم عن خططه واسمعتموه نداء الفرح» . ثم فاجأ الجميع بأن طلب أن يأتوه بكل من ألم به مرض ، أو رقد مغلوباً بعلة ، أو سقط عقب نوبة ضحك وقد أصابه الداء . حملوا له المرضى والمعلولين وكل من أصابه مكروه عقب حفل ضحك فيه كثيراً ، ففاجأ الجميع مرة أخرى بطلب آخر : «لا ينجو من علة من لم يرك عليه أهله» . فجاءوه بذوي المصابين . هنا استعان ببعض الأشداء ، فقيد ذوي المرضى بامتن الحال واشرسها ، ثم شمر عن ساعديه النحاسين ، وأخرج من كمه مدية فطيبة لم ير الصحراويون لها مثيلاً ، وهجم على المعلولين و .. بدأ المذبحة . تنقل بينهم وهو يمزق أجسادهم بلسان السلاح الشره ، حتى

حاله المجمع مصاباً بمس الجنّ ، في حين حسّبه آخرون دعياً ، كذاباً ، جاء لينفذ فيهم مشيّة «وانتهيّط» نفسه . أفرز نزيف الابناء الامهات المقيدات بحبال أشرس من سلاسل الحديد فولولن ، وأطلقن عويلاً فاجعاً طويلاً . جاءت العجائز والصبايا وبدأن التواح أيضاً . ولكن الرسول لم يأبه للمناحة ، بل يقال أنه ابتسם بارتياح ، وشمر عن ساعديه الملوثين بالدماء وأمر الاشداء أن يسدوا آذانهم باللوبير والصوف ويتاهبوا لمشاهدة مزيد من الدماء . انقض على فريق آخر من المرضى ومنزق اللباس عن صدورهم وظهورهم . انكب على اجسادهم العارية ، وجر المدية على ابدانهم . ولو لول ذروهم وراءهم . ولكن الزائر الغريب لم يوقف سفك الدم برغم توسّلات الشيوخ ، ووعيد ذوي المرضى بالانتقام ، بل أنه تمادى في المذبحة . اشعل ناراً ، ودس في جمرها المدية الفظيعة . تركها هناك حتى التهب رأسها واستعار لسانها الشره لون الجمر ، فانتزعها من النار واطفالها في ابدان المرضى ، في روؤسهم ، في صدورهم ، في ظهورهم ، في وجوههم . اطلقت الرؤوس دخاناً علا إلى السماء ، وغزت الانف رائحة الشياط . رائحة الابدان المحترقة ، ورائحة الشعور المشتعلة بالنار . ارتفع النحيب ، وردّ الزائر اعتداء مهدداً المعدين بنصل المدية المشتعل . استمرت المناحة . ورفع الرسول ساعديه الملوثين بالدم في ظلمة الليل وصاح : «يقيينا أن وانتهيّط سيختنق يأساً هذه الليلة ، ولو كان فيه ذرة من بطولة لفكرة كيف يداري عاره

بالانتحار» . ثم اختلى بالزعيم ، وأسرّ في أذنه بأقوال صارت شريعة في الصحراء ، أعادتها الأجيال ، ووردت في متون الناموس المفقود . القول الأول يقول : «من ملأ شدقه ضحكاً لن يطول به الحال حتى يملأهما دموعاً» . القول الثاني يقول : «لا يدخل واتهيط بيتاً علا فيه النحيب قط» . القول الثالث يقول : «لا تدخل السعادة بيتاً علا فيه الضحك» . في اليوم التالي اختفى الزائر .

زاره الشیوخ مبكراً ، ولكنهم وجدوا الخبراء خالياً . بحثوا في الوديان المجاورة فلم يجدوا أثراً . تذكروا مسلكه الغريب ، وايقنوا ، بعد جدل طويل ، أن ضيفهم لم يكن إلا رسولًا من قبائل الجن . ولكنهم لم يخلوا عليه بالدعاء والابتهال عندما اكتشفوا ، بعد اسابيع ، أن مرضاهم قد تعافوا ، والعلل التي استوطنت بيوتهم ، وخرّبت ابدانهم ، قد اختفت .

١ - النار

رأوا في النار الرؤى ، وقرأوا في اللهب نداء ، واستلهم سحرتهم من مستناتها نبوات ، قبل أن يستقبلوا رسول الجن ، وقبل أن يكتشف لهم فيها تريراً للاوبعة ، وبلسمًا يشفى من العلل . يقطعون مسافات شاقة ليأتوا بالحطب . يأتون به محملاً على الجمال ، تدرك الأعواد التي استقطعت من السدر والرسو والطلح والرتم إلى أي مصير تسير ، فلا تجده الاعراف البائسة غير لحوم الدواب تدفن فيها يأسها ، تنهش ابدان

حاملها لتنتفت . تنزف الجمال كما نزفت الاغصان من قبل عندما امتدت الي اليد واستقطعت العضو من جسم أمّه غصباً ، تتكون الاعضاء في مداخل البيوت ، وتنظر مصيرها بصر الحجارة ، يأتي الخلق ليتحلقوا حول المواقد . تلقى في المoward الاعضاء التي شُبّه لهم أنها ذبلت ويست فقدت دفء الحياة . يحكّون عراجين انتزعت من نخيل الواحات ، ليحصلوا على السرّ ، على الوميض ، على الشرر ، على قبس الحياة الغامض . من التحاصم العرجونين ، من اتحاد العضوين ، من احتكاك الذكر بالأنثى ، يستمر المخاصم العنيف ، الحميم ، طويلاً . ولكن الالتحاص لا بد أن يلد الحياة أخيراً . يفزّ الوميض المبهم اولاً ، ثم يسري الدفء في القش المدفون تحت أعضاء الشجر . يتوجه في لسان شره ، يلتهم أعوداد القش ، يرفع لساناً قانياً بلون الغسق إلى الاعضاء الأصلب عوداً . تتوجّع الاعضاء بائنين مكتوم . تتطقطق فرعاً . يدركها اللسان الشرس ، الغامض ، فتنتبّح وتنزف ما تبقى من دمها . تنزّ من أبدانها رطوبة خفية . تجود برمق أخير . برمق الحياة الأخير . تذرف دمعاً سخيا . الدمع يتبعّر في لسان الوحش ويصير دخاناً يصعد ، يسير إلى أعلى ، ليحدث السماء بالقصاص ؛ ليشرّر الجنادل الأبدية بميلاد خصم على الارض ، ينافسه في القساوة ، ويفوقه في السلطان ، ولكن المتحلقين حول الموقد لا يسمعون الشكوى ، ولا ينتصتون لصوت النواح ، لأن لون اللسان ، وتلاعب اللسان ، ودفء اللسان ، ألهاهم عن النداء وانساهم تشكي

الاعضاء . ولأنهم يتأملون بذهول كيف انجب الخطب ، الشاحب ،
كيف انجب العرجون الميت ، لساناً نهماً التهم العرجون ، وأتى على
الخطب . يعود الرعيان بالقطعان من الخلاء ، تتسع الحلقة حول الموقد .
تلتحم العائلة حول اللسان . تتأمل فيه اللون المستعار من بدن الغسق .
تابع جهاده في الاعضاء ، تشاهد لعبته مع انسام المساء . ترى فيه لوم
السراب ، وشقاوة الجداء ، ومرونة الحياة ، ومثابرة الخنفساء ، وإغواء
التبر . بلى . الإغواء هو ما يشدّ في اللسان اللعوب . الإغواء هو
ما يستغرق الخلق ، وينسيهم نعمة الدفء ، واسترخاء البدن بعد شقاء
النهار . الإغواء يستمر ، يتضاعف ، حتى بعد أن يلتزم الخلق
حول اللقمة فيتمدّ الدفء ويسري في الجسم . الفضول لا يتوقف ،
والاهتمام باللسان لا ينطفئ ، لأن المخلوق الذي يدرك أن دفعة الدفء
التي نالها من اللقمة الجليلة إنما تلقّاها من اللسان الخفيّ الذي يترافق في
وجهه بإغراء . وكان لا بد أن يمضي زمان حتى يكتشف المخلوق أن سرّ
اللسان ليس في الدفء الذي يهبّ للقمة تعطيه بدورها إلى الجسم ، وإنما
في قدرته الخفية على ابتداع اللقاء وتقوية الاتصال في الحلقة ، وجذب
المخلوق الوحيد ، الثنائي ، إلى المخلوقات ، وجمع المخلوقات في العائلة ،
ولحم العائلة في القبيلة ، ولحم القبيلة في العائلة . وقد لاحظوا أن ذلك
لم يحدث قبل أن يتألق في محيطهم وميض اللسان السريّ فكان أن
ذهبوا إلى أبعد كعادتهم عندما يستهويهم أمر بطبعه الخفيّ . تسلّلوا وراء

اللسان ، تمايلوا معه نحو اليمين ونحو الشمال ، غمزوا بعينه حيناً ، وتغنجوا في قده حيناً آخر . استعاروا مسلكه ، وتلبسوا خصاله ، وتنفسوا الانسام على طريقته . فعلوا كل ذلك لا لكي يقفوا على سر سلطانه على الخطب ، أو قدرته على محظ الكائنات ، وتحويل اجسامها إلى رماد وهباء ، ولكن لكي يصلوا إلى سر سلطانه على عصفور النور الذي يرفرف في الصدور . وكان لا بد أن تجود السماء بامطارها زماناً طويلاً ، وتتدفق الوديان بسيول كثيرة زماناً آخر ، ويدفنوا اجيالاً في مدافن الاسلاف ، كي يجتازوا وادي الظلمات أخيراً ، وبلغوا موقع الكنز . هناك يتبدى السر في تلميحة بسيطة التركيب ككل الأسرار النبيلة . يعلمون أخيراً أن اللسان لا يملك على العصفور أي سلطان ، لأن عصفور النور في مأمن من كل السلاطين ، واللسان لا يغفل شيئاً كي يشد عصفوراً إلى ملوك عصفور آخر غير ما يفعله لقدور المأكولات . فالحرارة التي تسهم في طهو الطعام ، وتجذب حملة الاقفاص كي يجتمعوا حول الموقد ، ويلحموا أجسادهم ببعضها ، هي نفسها الحرارة التي تنتقل ، بالاحتكاك والالتصام ، إلى البرزخ البعيد لتصيب عصافير النور في حصونها . وجدوا أن اللسان رسول جاء يحمل نبوءة أخرى غير تلك النبوءة الشريرة التي تخرب وتبيد وتحوّل كل شيء إلى رماد وهباء . نبوءة أخرى تجمع الخلق ، وتلحم القبائل ، وتبعث في ابدانهم وليداً منسياً إسمه : المحبة .

فكّر السحرة في رسالة الرسول ، ورأوا أن اللسان لا بد أن يخفي ترياقاً للعلل والاسقام طالما لم يعجز في أن يجد الشفاء للعصفور الخفي الذي حيرتهم اسقامه ففشلوا دائمًا في أن يجدوا لها الدواء .

منذ ذلك اليوم صار حرق الاعضاء بـلسان النار بلسمًا لمداواة كل من تلقى ضربة جن ، أو عانى من الحمى ، أو غلبه العشق ، أو سقط ضحية لمكيدة من مكائد «وانتهيط» .

بــالمِدِيَّة

قبل أن تجد المدينة طريقاً إلى الصحراء عانى الصحراويون من إرهاب الجن .

في البدء وضعوا ناموساً للجوار ، واقاموا عهداً بقيت متونة خفية حتى اليوم ، ولكن ما تناقلته الاجيال يؤكّد أن زمن السلم بين سكان الخلاء وأقرانهم استمر طويلاً ، وشهد عهوداً توجّت فيها علاقة القبيلتين بالمعاشرة ، ومزج الدماء بالتزارج والمصاهرة . وبرغم أن الروايات اختلفت في شأن الطرف المسؤول عن إفساد العهد ، إلا أنها اجمعـت أن انتقام الجن من أحوال ابنائهم كان قاسيـاً في الزمن التالي . فدأب أهل الخفاء على الخروج لهم في ابدان استعاروها من مدافن الاموات . يتبدّون في قمامـات ماردة تتمدد وتتدلى إلى السماء ، أو يطلعون من الظلـمات بوجوه مكشوفـة ، عارية من اللحم ، مثل الجمـاجـم . ويروقـ

لهم حين آخر أن يقطعوا رؤوسهم بسُكاكين الحجارة ليطّلعوا لأقرانهم برقب تنزف دمًا له لون أزرق . بالفزع أحجهضوا النساء الحوامل ، واماًنوا الصغار ، واقعوا الشيوخ والعجائز في نار الحمىّ . أمّا الرجال فتولوه بسلاح آخر . رجموهم بالحجارة ، وضربوهم بأشرس الهراءات ، ونالوا منهم بقبضاتهم . وكانوا إذا انفردوا بخصم من الخصوم في الصحاري المهجورة طلعوا له في صورة حيّة لها رأس إنسان لينزلوا في قلبه الفزع . فإذا اصابه الخوف ، وغفل عن قراءة التعاويذ كما يحدث لكل من أصيب بنوبة فزع ، قاموا إليه وقيدوه بأشرس حبال المسد ، يسوقونه بول الإبل ، وفي روایات أخرى بول زعمائهم وأكابرهم . ثم يعلقون جسده في سقوف الكهوف مقلوباً . بعدها تبدأ مراسم القهقهة . يزعقون فوق رأسه ، ويملاون اذنيه ضحكاً كفيلاً بأن يجيء له بالوباء ، أو يقوده إلى الهلاك . لأن حكماء الجنّ ، كانوا دائمًا أعلم خلق الصحراء بفظاعة الضحك وقدرته على إنزال الشرّ بأكثر الخلوقات براءة . وهم أول من جرّب أنهم ما فهّمها في وجه إنسان إلا وسعى إليه السوء .

بعد القهقهات يحلّون وثاقه ويرحلون ، لأنهم على يقين أن خصمهم لن يرى خيراً ما بقى على قيد اللعبة التي يقدسها أهل الخلاء ويسمونها حياة .

وما ادهش الصراوين حقاً أن الجنّ لم يخطئوا التقدير أبداً .

فما أن يجد المصاب السبيل إلى القبيلة حتى تشتعل في جوفه النار ، ويسقط صریع الحمی . يأتيه السحرة ليبرطموا على رأسه بالتعاونيذ ، ولكن هیهات أن ينجو من بس المصیر مخلوق ارھب الجنّ ، وضحكوا على رأسه . استطاعوا بهذه الحيلة ، أن يقضوا على اشجع فرسان القبيلة ، حتى هددوا اسلاله النباء بالزوال .

ويقال أيضاً أنهم أول من استعمل السُّمَ .

في تلك الأزمان أبادوا عشائر كاملة بهذا الوباء . فكانوا يتسللون إلى الأطعمة المكشوفة ليدسّوا فيها سموهم الفظيعة ، حتى إذا أكل منها بلهاء الصحراء في الصباح ، سرت في دمائهم ، وفتكت بأحشائهم ، وتقيأوا عفناً وقيحاً ودمًا أزرق . وقد فشل السحرة في اكتشاف سر هذا الداء أيضًا .

ولم يعرف أهل الصحراء الامان إلا عندما عرفوا المدية .

المدية انتقمت لهم من الجنّ ، فرتب زعماء القبائل حملات تأديبية ضد طغاة الخفاء ، وقتلوا منهم في زمن قصير جيوشاً تفوق في عددها ما فقدوه على يد الأعداء في أجيال وأجيال . ولم تتوقف المذابح ضد أعداء الخفاء إلا بعد أن تعب المحاربون ، وثاروا لاسلافهم القدماء . ولكن الجنّ استغلوا موطنهم في العتمات والظلالة ، فرابطوا لإعدائهم في البرزخ الغامض الذي يرد إليه كل من استفرته الالحان ، واخذه الشجن ،

و غاب في الوجود . هذا الخلق يأتي إلى وطن السر عاريا من الحديد ، مجرداً من لسان المدية المسموم ، طفل لا حول ولا قوة . بدنه يتقلب في البرزخ ، و قلبه يتذهب لدخول واو . فما له من عصفور مسكون ، وما أسهله من لقية ، يتربصون به عند الحد ، يدخلون جوفه . يستدرجونه باللحون ، يدخل مملكتهم ، يتغل في مدنهم بكمين معزولين من السلاح ، يوقف كهتهم الألحان الشجانية ، ويأذنون للسعالي كي تتوالى أمره . تتکاکأ فوق رأسه السعالى ، تضحك في اذنيه ضحكاً منكراً يكفي لأن يطرحه في الفراش دهراً إذا لم يطيره في القبر في الحال . وقد ظلت الاسقام التي تصيب أولئك الذين سقطوا في الوجود غامضة ، ولم يكتشف السحراء أنها عمل من اعمال الجن إلا بعد زمن طويل . فما كان منهم إلا أن احتكموا إلى المدية مرة أخرى ، حتى إذا صرعت الألحان رجلاً طال به الحنين إلى الأرض الأخرى هرع إليه السحراء ، وجروا على بدنها نصل المدية . ففي النصل ، في رأس اللسان التحاسي الصارم ، تسكن التيمية . تستقر التمتمة المبهمة التي تستمد سلطانها من الظلمة ، من الخفاء ، من نفس الظلمة ، ومن نفس الخفاء ، ومن نفس الوطن الذي انتمت إليه قبائل الخفاء نفسها . والإلهام الذي أتى بالسر ، بالإغواء بالشر الذي يومض ويتلألأ في لسان النصل إذا استفزه الضياء ، لم يكن ليولد لو لم يتولد من نفس العجنة ، من نفس الطين ، والسحراء فازوا في المشادة لأن ناموس السحر هو الذي علمهم أن يستخرجوا

ترياق الشفاء من سُمّ الحَيَّةِ ، ليقيموا بنيان الدستور الذي يقول أن النقيض لا يفهم إلا بالنقيض ، وسرّ الضد يكمن ، دائمًا ، في الضد ، والساخر الذي استقام له السُّحر لا يخفى نفسه ، إلا في ظلّه .

جـ - الحزن

توقفوا عن الفرح البليد .

عرفوا أن الصاحب شؤم ما ظلَّ المخلوق مهدّداً بالفناء ، وايقنوا أن الرقص خيانة ما لم يتلحف بوشاح الوقار ليصير قرباناً إلى السماء . وادركونوا أن الفرح كله بدعة بلهاه ما بقى له الهم خليفة ، وما ظلَّ الندم له وريثاً أخيراً .

استنفر السحرة اختيار القبائل ، وخرجوا إلى الخلوات ليتشاوروا مع ظلالهم الفظيعة ، وقرأوا أنباء الوجوم في لا مبالاة الجبال ، والاكتاب في صرامة العراء ، والهم في استسلام الصحراء لسياط الجlad الخالد ، وعادوا من المعبد بالخبر اليقين . عادوا بديانة جديدة شارتها الوقار وعقيدتها حزن . القوا للزعيم بال بشارة ، وجاءوا إلى المجتمع بعشاق الاسفار والاعتزال ، والماهجرين الذين احترفوا البحث عن واو ، واستنطقوهم عن طبيعة الحال وعناء الطلب ، وفجيعة السؤال ، فردّ أهل الزهد ، واجبروا بلغة الغموض أن الزَّاد أصغر من المسافة ، والحبلة أعجز من السبيل ، والوقت المسخَّر للطلب انفس من أن يضيع في

الجمععة ، فكيف بالقهقهة المنكرة ؟ ومضوا فأجمعوا أن من روج للفرح في مسيرة الطلب إنما يقلب الوباء على رأس القبيلة ، وقصاصه أن يرجم بالحجارة ، ويدفن حياً بإعاداً لطير النحس من سماء القافلة . وانبرى مهاجر معمر اجتاز المائة وروى كيف توجّت رحلته يوماً بالبلوغ ، وظنَّ أن الطلب انتهى أخيراً بنيل المطلوب . فنهضت أمامه في الأفق الفسيح الواحة المفقودة . نبتت من الأرض فجأة كأن السراب اللعوب هو الذي نسجها من وشاحه وبني جدرانها المهيءة من حيله ومكائد़ه . تلألأت فيها الأضواء ، وتعددت الألوان ، وارتقت فيها البساتين فوق قامات الأسوار ، وشاهد الطير وهو يحلق فوق هامتها . استمرَّت تتبدئ ، وتخرج من وطن المجهول . ينجلِي عنها الغيم ، وتتضاح فيها الملامح كلما تقدم إلى الإمام ، واقترب مسافة أخرى . أخيراً واو ! أخيراً انتهى المشوار ، أخيراً ستفتح في وجهه أبواب المستحيل ليدخل مملكة سافر في أثرها الصحراويون منذ خرجوا إلى المنفى ، ونزلوا الصحراء . أخيراً سيرى ما لم تره عين ، ويسمع ما لم تسمعه أذن ، ويتلذذ بالخاطر الذي لم يخطر على بال بشر . أخيراً ... ولكن طيراً غامضاً رفرف فوق عمامته . رفع إليه عينيه فادهشه . كان له ملامح إنسان . عينان تشتعلان ذكاء وحكمة . وانف صغير انيق في صورة منقار صغير ، ووجنتان شاحبتان اجهدهما السفر . ملامح أليفة وحميمة لا يعرف أين عرفها ومتى التقى بها . ظلَّ يرمي بنظرة توهجت يائماً صامت ، بلغة غامضة .

كأنه أراد أن يخبره بأمر جسيم . بل كاد ينطق بتحذير . التحذير هو الأمر الوحيد الذي لا يحتاج إلى نطق ، إلى بلبلة ، إلى ضجيج . استهواه الطائر ، فانقاد له ، وتابعه . وفي ومضة كالثشر انطلق الطائر يغتني . رفع إلى شعاع الجلاد منقاره الأفطس ، انهق الأفطس الصغير وانفرجت صلفتاه القانيتان فسمع المهاجر لحنًا لم تجد به حناجر المغنيات الصحراويات . ولم تهمهم به أفواه الكهوف ، ولم تتباه به شاعرات الجن ، سمع لحنًا أذهلت حلاوته الصحراء ، وحيّرت نبرته أهل الخفاء ، وشدّ إيقاعه انتباه الجلاد فسحب سياطه ، وتوارى خلف الغيم . لحن خطفه من الصحراء وطاف به سماوات أخرى تبدي اسفلها صحراء أخرى . لحن انساء أنه يقف على باب البوابة الأخيرة التي قايسها بالحياة نفسها ، وكان عليه أن يبذل جهداً بطولياً كي يستعيد قلبه من سلطان الأغنية ، ليجد أن واو (التي وقف على بابها منذ قليل) قد اختفت من الصحراء ، والرحلة كلها ، اللعبة كلها ، انتهت إلى باطل . وجذ المسافة خالية ، قاسية ، فاجعة . فوقها يتدفق السائل اللعوب ، يطلع له لساناً ساخراً ، ويقهقح بلا صوت .

رفع رأسه إلى أعلى . بحث عن الرسول ، فاكتشف أن الطائر المذهل قد اختفى . لسعه الجlad بلسان النار في العينين ، فأشاح بوجهه وطأطاً أرضاً . انتهى الوحي ، وضاعت النبوة ، وتبدّد الحلم كما تشتت الأمل . تساؤل عن هوية الرسول : أهو «مولًا - مولا»؟ أهو «سخرك

ايبراظن»؟ .. أهو .. لا . أيعقل أن يكون عصفوره السجين في القفص؟ ولكن من أين للعصفور الخفي هذه الأغنية ، هذه الاعجوبة؟ أم أن وانتهيط هو الذي دسها في فمه كي يرمي به في ارض أخرى ، وسماء أخرى ، ليجعل من سفر الاسفار باطل الباطل .

قال المعمّر المهيـب أنه سقط على الارض ، وترّغ في التراب ، وناح بأعلى صوت . ولم يتم روايته حتى استعاد نفس السيرة . وقع على ركبتيه في الجمـع ، تلوّى على الارض ، ورفع عقيرته بناوح فاجـع .

فـزّ كبير السـحرـة من زاويةـ الخبرـاء ، لـوـحـ بمـديـتـهـ السـحـرـيـةـ المـوسـومـةـ بالـتمـائـمـ ، وـصـرـخـ : «الـغنـاءـ !ـ الغـنـاءـ !ـ السـرـ فيـ الغـنـاءـ .ـ لنـ تـعـرـفـواـ خـلاـصـاـ ،ـ وـلنـ تـدـخـلـواـ «ـاوـاـ»ـ ماـ ظـلـلـتـمـ تـعـبـدوـنـ الـاحـانـ وـتـسـجـدـونـ لـإـلـهـ الغـنـاءـ»ـ .ـ

جادـهـ كـبـيرـهـ لـاقـنـاعـ الجـلـسـ ،ـ وـلمـ يـنـفـضـ الـاجـتـمـاعـ حـتـىـ نـجـحـ فـيـ سنـ الشـرـائـعـ الـتـيـ تـحرـمـ الـفـرـحـ الـبـلـيدـ ،ـ وـتـجـرمـ اللـهـوـ ،ـ وـتـجـعلـ مـنـ الـاشـعـارـ وـالـلـحـونـ وـالـأـغـانـيـ لـغـةـ تـعـرـضـ كـلـ مـنـ جـرـؤـ عـلـىـ تعـاطـيـهاـ لـقـصـاصـ الـكـهـنةـ .ـ تـجـهمـ الرـجـالـ أـكـتـابـ النـسـاءـ ،ـ قـطـبـ الصـبـيـانـ ،ـ اـخـتـفـتـ الـبـسـمـاتـ .ـ تـوارـتـ اـسـنـانـ الصـبـيـاـيـاـ ،ـ اـخـتـنـقـتـ اـصـوـاتـ الشـاعـرـاتـ .ـ سـكـتـ اوـتـارـ «ـإـمـزادـ»ـ .ـ اـصـبـيـتـ الطـبـولـ بـالـخـرـسـ .ـ وـلمـ يـجـدـ مـنـ غـلـبـتـهـ ضـحـكةـ ،ـ اوـ تـفـجـرـ فـيـ صـدـرـهـ يـنـبـوـعـ الـفـرـحـ ،ـ مـفـرـأـ مـنـ الـفـرـارـ وـالـاتـجـاءـ إـلـىـ الـخـلـاءـ

(٥) سـخـرـكـ ايـبرـاظـنـ :ـ «ـحـرـفـاـ»ـ رـسـوـلـ الضـيـاعـ إـلـىـ الصـفـارـ ،ـ وـهـوـ طـاـئـرـ مـلـوـنـ ،ـ صـغـيرـ تـقـولـ اـسـاطـيرـ الطـوارـقـ اـنـهـ لـاـ يـظـهـرـ فـيـ مـتـجـعـ حـتـىـ يـخـطـفـ طـفـلـاـ وـيـقـودـهـ إـلـىـ الـيـهـ .ـ

البعيد ليدفنه هناك كما يفعل عندما يتوجل ليقضي حاجته، أو ليطلق رائحة .

تحولت الحياة في الصحراء إلى ضرب من الحداد .

د - الاغاني

خلال الزمان الرهيب الذي خضع فيه أهل الصحراء لشرايع السّحرة ، وتوقفوا عن الغناء ، فقدوا من الخلق أكثر من مما فقدوه في ظل إرهاب الجنّ ، وأكثر مما فقدوه زمن طغيان الأسقام والأوبئة ، وأكثر مما فقدوه في صدّ الغزوات عن الصحراء ، أو في زمن شنّ الحملات على قبائل الادغال لاستجلاب العبيد والسبايا . كانوا يتلقون في ليالي يتجلّى فيها الطوق الوديع ، معبودهم القديم ، يلتحمون في الميعاد الذي يكتمل فيه الإله الفضيّ ، ويستوي بدرأ . يتشبه به الفرسان فيتحلّقون في دائرة ليصنعوا باجسادهم طوقاً بهيا . تأتي العذارى بخطوات نبيلة ليتشبهن به أيضاً . يتحلّقون بجوار الأبطال . يصنعن من اجسادهن الشهية طوقاً آخر أكثر بهاء . فيغزو انوف الفرسان شذى ازاهير الرّتم المنبعث من اجسادهن . يسود السكون طويلاً ، يتمدد السكون . يتولّد . يصير حرماً أقدس من كلّ الحرمات . يختلس العشاق النظر الى المعشوقات . تختلس المعشوقات النظر الى العشاق . يرفعون ابصارهم الى أعلى ، نحو المعشوق الذي علّمهم العشق ، فيقوم لهم الإله بدور الترجمان . تتأجّج الصدور بالوهج ، وتتضيق بالحنين . وإذا تأجّج الصدر بالوهج

وضاق القفص بالحنين فلا حيلة تجدي ، ولا سبيل يفيد ، ولا لغة تجئ بالخلاص . يصير اللحن وحده الحرم . والاشعار لا تستقيم إلا إذا سارت في النغم ، في الموّال ، في الایقاع ، في الصوت المرتل . ولكن ماذا يفعل العشاق إذا كان الصوت المرتل قد صودر بشرائع السهرة ، ووضع عليه أبغض تحريم ؟ لم يكن الصحراويون ليستسلموا بسهولة ، ويلتزموا بالشرائع لو لم يكن القصاص الذي وضعه السهرة أكثر قساوة من الحكم نفسه . ولأن الدهاء يعلمون أن البطش بالبدن ، وحرق الوعاء بألسنة النار الوان من العذاب لن تردع العاشق الصحراوي ، فابتدعوا العقاب بغول «العار» . كانوا يلقون القبض على كل من تجاسر ورفع عقيرته بالغناء ويجردونه من لباسه . يضعون القيد في يديه . ويشلّونه إلى ذيل جمل ، ليطوفوا به بين المضارب عاريا تماماً . وكان العشاق لا يتحملون العار ساعة واحدة . فيذهبون إلى بيوتهم ، يرتدون أبهى ثيابهم ، يهجعون في جلال عند الركائز ، ويستلّون من أكمامهم المدى الرهيبة ليغرسوها في صدورهم ، أو يجرّونها على الرقاب لينحرروا أنفسهم .

لم يخالف أحد هذا الناموس أبداً .

استمر الناموس زمانا رأى فيه الزعماء والأكابر شبح الفنان يحوم حول قبائلهم مثل سعلاة من سعالي الجن . تnadوا من كل القبائل كما تعوّدوا أن يفعلوا عندما يتهدّد الوطن خطر ، وتحوم جحافل الغزاة على

تخوم الصحراء لتخطط للأنقضاض . تشاوروا طويلاً ، تجادلوا طويلاً ، نحروا الذبائح طويلاً ، قرأوا في عظامها النبوات زمناً أطول . استعادوا الجبلة ، وتدالوا في طبع الخلق المجبول على النغم . قالوا أن الركون الى التراب ، والاختفاء من الصحراء الى الابد ، أهون على هذا الخلق من التخلّي عن الاغنية يوماً واحداً . تدخل العقلاة الذين سخروا الحياة لوضع حجر الأساس في الحياة ، تدخل العقلاة الذين آلوا على انفسهم أن ينيروا سيل الأجيال بوضع النّاموس ، بوضع آنهي . قالوا بلغة استعاروها من النّاموس نفسه ، أن الحياة نفسها أغنية . الحياة لعب ولهم وتفاخر بالأموال والأولاد . وعندما نرتضي أن ينفرد السحرّة بالزمام ويضعوا للقاقة شرائع تحرم على العاشق أن يرتل لهفته الى المعشوق بلغة السماء فإننا لا نخالف ناموس الارض «آنهي» فحسب ، ولكننا نخالف ناموس السماء التي جعلت من الحياة نفسها لهم ولعباً وغناء . وانتهوا إلى أن التحرّم مكيدة من مكائد السحرّة ، دبروها مع الاعداء لإفشاء القاقة بحجّة أن الافراح تلهي عن البلّغة والوصول الى سدة واو ، وتجلب على القبائل البلاء .

بعد عراك استمر اياماً ، وفي رواية أخرى ، اسابيع كاملة ، توصلوا الى اتفاق يقوم بموجبه الزعيم يصبحه نفر من الأكابر ، لمحاورة السحرّة ، والتصدي للمكيدة بلغة السيف ، إذا فشلت الحاججة بلغة العقل .

المشادة الأولى لم تنته إلى اتفاق .

في المشادة الثانية تبدى اللبان في موقف السحرة .

المشادة الثالثة هي التي انتهت إلى العهد الذي كان منعطفاً في تاريخ القبائل ، وشهد التحول في لغة أهل الصحراء الغنائية ، وأخرج الالحان من دائرة الفرح البليد ، إذ خطف اشعار الارض ، اشعار الصحراء الكبرى ، وطاف بها سماوات أخرى ، وصغار أخرى ، ليعود من هذه المالك لغة غنائية أخرى شجية ، حزينة ، شجنية ، لأنها ارتوت من ينابيع «هرو»*، وتحمّمت بانفاس «امناي»**، وعرفت معنى العشق في وطن «تانيت»***. فنزلت في حناجر العذارى ، وسكتت اصوات الشاعرات ، ترنيمة الهيبة ، وابتهاأ سماوياً ، وتلاوة لاوجاع المنفى الارضي .

هذا هو الشرط الذي وضعه السحرة في نصوص ذلك العهد .

يستطيع العشاق أن يتغنوّا بالمعشوقات ، و تستطيع الشاعرات أن تترنم باللحون والفرسان والاقمار ، ولكن الآلهة لا بد أن يدخلوا الى المحراب . الآلهة لا بد أن يذوقوا حلاوة اللقمة ، ويكون لهم من الوليمة نصيب . والاغنية ، في النهاية ، لا بد أن تكون قرباناً للآلهة ، قبل أن

(*) هرو : إله المطر .

(**) امناي : إله الربيع (القبلي) .

(***) تانيت : إلهة الجمال والعشق والإخصاب .

تكون لهواً يتلهى به «إير كايتادم»*. الاغنية لا بد أن تطوف السماوات الأخرى كي تعرف معنى العشق في «تانيت» ، ولا بد أن تولد في حبة المطر لتحبل ببدأ الحياة ، ولا بد أن تستحم بالقبلـي لتقف على السر ، على الضد ، على النقيض القديم الذي أقسم أن يمتص النداوة من حبة المطر ، ويستبدل مبدأ الحياة بمصير الزوال ويعتـرض كل بداية ليجعل منها نهاية . ولكن الفرح الابله لا مكان له في هذا الحرم .

الاقتراح ارضى الطرفين . ولكن كيف السبيل إلى تحـمـيل الأغانـي التي تسـكـنـ الاـصـوـاتـ كـالـأـطـيـافـ بـأـسـرـارـ الـآـلـهـةـ ،ـ وإـلـهـاـنـ الـخـفـاءـ ،ـ وـوزـرـ ضـاقـتـ بـهـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ ؟

ذ - القران ب

انـكـبـتـ الشـاعـرـاتـ عـلـىـ الاـشـعـارـ .ـ حـاوـلـنـ ،ـ بـحـمـاسـ ،ـ أـنـ يـرسـمـ مـرـاسـمـ الزـفـافـ بـيـنـ الصـدـيـنـ الـحـمـيمـينـ .ـ اـجـتـهـدـنـ فـيـ تـدـبـيرـ حـيـلـةـ تـزاـوـجـ بـيـنـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ ،ـ حـيـلـةـ تـوـقـقـ بـيـنـ الـمـلـكـتـيـنـ فـيـ عـلـامـةـ القرـانـ ،ـ تـسـتـدـرـجـ المسـافـةـ الـصـارـمـةـ ،ـ تـلـغـيـ البرـزـخـ ،ـ تـطـوـعـ الـحـدـ المستـحـيلـ ،ـ وـتـجـعـلـ منـ الـوـطـنـينـ الـوـاقـعـينـ عـلـىـ نـقـيـضـ ،ـ وـطـنـاـ وـاحـدـاـ يـسـتـقـرـ مـجـيدـاـ فـيـ الـاحـانـ .ـ

عن المسافة ثار جدل شغل كل القبيلـةـ .

فـيـ حـينـ سـهـرـتـ الشـاعـرـاتـ وـابـصـارـهـنـ مشـدـودـةـ لـلـإـلـهـ الـفـضـيـ

* إير كايتادم : الأغرار ، البلهاء ، الغشم .

طلبًا للإلهام ، واستجداء للنبوءة التي تجعل من دقة الشوق وميضاً من قبس ، وتصنع من زفة الفجيعة ، زفة الأرض ، نذراً للآلهة ، موآلاً تتغنى به السماء . حين تعلقت اهدايب عيونهن المزبورة بالكحل بضياء الإله الليلي الوديع ، كان الشعراء القدامى يتحلقون حول نساء من طراز خاص ، ابتدعت اناملهن يوماً كل زخرف وزينة وعلامة ونمنمة ، لأصابعهن المحبولة بالوحى يرجع الفضل في رسم كل ختم أو إيماءة أو إشارة اختطت على رقعة أو خيطت على وسادة ، أو انطبعت على لباس ، وجلبت للصحراوي متعة لا تختلف عن تلك المتعة التي نالها من الغناء . كان الشعراء القدامى يحاولون أن يستثمروا خبرتهم الطويلة في معاندة الأشعار ، ويستفيدوا من مهارة الجنينات في التطريز واستعمال الخيوط المتعددة الألوان في النمنمة ، لإنجاز الزفاف ، لدحر المسافة ، وإيجاد اللغة التي تجمع بين السماء والارض في اغنية .

في ذلك الوقت عكف الصبيان الذين توجوا رؤوسهم بالعمamas قريباً (فحق لهم أن يتسبوا إلى الحرم ، ويعبدوا أنفسهم من أهل اللثام) ففتشوا عن النغم الخفيّ ، عن الاشارة السرية الغامضة التي لم تكن الطفولة التي هجروها إلا ارجوحة لها ، والحان المهد لم تكن إلا صدى لها ، واغاني الصبا والبراءة لن تكون لها إلا وطنًا ، ولا بد أن يسترجعوا هذا التراث ، لا بد أن يدسوا رؤوسهم في الزمن الذي مضى ، كما يدس الباحث عن الترفاس رأسه في التراب ، إذا أرادوا أن يعبروا

الظلمات ، ويصلوا الى الخيط السري الذي سيخرجهم من المتابة ويفودهم الى الكنز ، الى التميمة التي ستبتلع تميمة السحرة ، وتبطل مكيدتهم .

ويُروى أن الشيوخ انفسهم لم يختلفوا ، فاسهموا بآراء مجيدة ساعدت في انجاز اللغة الفنائية الجديدة ، ولكن الناموس المفقود اعترف أن المعتزلة الباحثين عن واو هم من وضع حجر الزاوية في بناء الأغنية الصحراوية عندما بثوا في اللحون التزعة الوجدية التي صارت ، فيما بعد ، سمة ميّزت الحان الصحراء . وأول ما فعله الواويون هو تطوير المسافة . احتكم أهل السر إلى السر ، وعادوا من الوطن الذي يدو للدهماء أبعد من سرندليب في حين يراه أهل السر أقرب من حل الوريد، وعادوا من هناك بالنّبأ ، بالنبوءة ، بالبشرارة . لأن السفر ، البحث الابدي عن الواحة الضائعة ، علّمهم أن المسافة الى السماء الاخرى والارض الأخرى كموقع عصفور النور من قفصه ، يمكن أن تقاس بأي مقاييس إلا مقاييس المسافة . وبلغ الاوطان الأخرى ، في الازمان الاخرى ، يستوجب تعليم الاحان باصوات لا تدين بميلادها لناموس الزمان ، ولكن لسلطان الإلهام . الإلهام هو زاد مهاجر خرج في طلب واو . الإلهام هو عزاء عاشق سافر للالتقاء بالمشوق ، الإلهام هو قبس الصبح في ليل من اطبق عليه الهم ، وعاني من كابوس السويداء .

جاء دور المختارات اللاحئي كتبن الاشعار باناملهن على الالبسة

والمفروشات وسروج الفرسان . جاء دور شاعرات يتكلمن بأصابعهن ، ولا يعرفن من الخطاب إلاّ رسّمه المجسم . جاء دور ساحرات كنّ كاهنات في رسم النبوآت كما كنّ بارعات في ختم كل ما يقع بين أيديهن بطابع البهاء . انكببن على قصائد الأشعار . وانهمكـت اناملـهن الرقيقة في نـمة نـسيج غـنائي فـريد حلـ في عـصفور السـماء الأـخـرى ، وقـربـينه المستـعار من الـأـرـضـ الأـخـرى ، ورـفـعنـ الصـحـراءـ ، وسـماءـ الصـحـراءـ ، إـلـىـ وـطـنـ الرـؤـىـ ، لـتـعـرـفـ العـشـقـ فـيـ حـرمـ «ـتـانـيـتـ» ، وـتـطـوـفـ مـتـاهـاتـ لاـ تـقـاسـ بـحـسـابـ الزـمـانـ أوـ المـكـانـ لـتـحـمـمـ بـاـنـفـاسـ (ـأـمـنـايـ) ، تـعـبـرـ بـرـازـخـ ، وـتـجـتـازـ حدـودـاـ ، لـتـولـدـ فـيـ رـحـمـ «ـهـرـوـ» نـطـفةـ يـتـشـرـبـ شـذـاـهاـ زـهـرـ الرـتـمـ ، وـيـسـتـعـيرـ التـرـفـاسـ مـنـهـاـ الأـرـيـجـ ، وـيـنـسـجـ مـنـهـاـ الـقـرـانـ وـشـاحـ الـحـيـاـةـ .

هرع الجميع إلى حرم الميلاد ، رسمت القبيلة أخيراً مسيرة الفنان في ثلاثة الحان كبرى صارت قالباً حوى كل ترنيمة ، وناموساً أحضر كل زفير شاء أن يستقيم في لحن : فإذا زفوا عروسأً غنوّ لها على إيقاع «تهيجالت» * الحان الحداد ، وصاحبوا رحلتها إلى مخدع القرىن بالأغاني المشبعة بروح الجنائز كأنهم يزفونها إلى إله من آلهة السماوات الأخرى . وإذا اجتمعـتـ الصـبـاياـ لـتـرـوـيـ عـاشـقاـ غـلـبـهـ الـوـجـدـ مـنـ نـبعـ الـاحـانـ رـدـدـنـ لـهـ اـنـغـامـ الـاشـجـانـ ، وـزاـجـنـ الشـجـنـ بـرـوحـ الـفـقـدانـ ، لأنـ

(*) تهيجالت : طبل لا يقرع إلا في الأفراح . وهو قصعة من الخشب ، تحوي ثلاث قطع من جلّ الإبل ، مغطاة بإحكام برقة من جلد البعير .

العاشق إذا هاج في قلبه الوهج ، وعرف العشق ، فلا بد أن يعرف الفقد
إليه طريقاً . أما نزعة الضياع الحالد ، والتوق إلى الحزن ، فلم تتجلى إلا
في أغاني «اساهغ» * التي جعلها الواويون حكراً على المهاجرين وعشاق
الاسفار ، فصارت لهم أنشودة إلى اليوم .

(٥)

بورو بدأ الرحلة من نهايتها ، وروض الانشودة في الموال . راود
اللحن طويلاً قبل أن يستقيم «اساهغ» . اطلق انيناً أليماً ، مكتوماً ، يخنقه
شجن مجهول ، ثم انطلق يعلو ويعلو في ترنيمة كأنها نحيب . ردّ
جبارين وراءه النشيد . ارتفع في الفضاء نواح المنفى ، واستمعت رؤوس
الجبال ، تخللت القمم عن لامباتها القاسية ، وانحنت نحو الاسافل في
ذهول . تململ العصفور في جوف جبارين فتكلّم في صوته اغتراب
الواويين ، ونطق اللحن في فمه بلسان الاجيال . رفع النغمة بمهارة
مسافر قديم ، لتلتقي في تخوم المالك الآخرى مع حنين بورو ، فتعانقا
في معراج لا يخضع لقيد المكان ، ولا لسلطان الزمان ، ذاب الصوت
في الصوت ، والتحم العصفور بالعصفور ، في البرزخ الذي لا يعترف
بالبدن ، وعرفا الطريق إلى قران آخر . نزلا ضيفين في حرم «تانية»
فتعلما لغة العشق ، وحمّهما «هرو» بناء الحياة ، واعتراضهما «امناني»
وذكرهما بأمر الاصداد ، وقال أن الخلوق إذا صعد نزل ، وإذا نزل

* اساهغ : الموال .

صعد، والقبلي يتولى الامر في النهاية فيغسل الشقاء بتریاق النسيان .
الشجن غلب كل الكائنات في «اللون» فناحت الجنية في الكهف
المجاور، وازدادت رؤوس الجبال انحناء ، وتناثلت المخلوقات الاغنية ،
تلقفتها مولا - مولا اولاً . صدحت بها في الأعلى كنبوءة . منها تلقتها
الجنية التي تسكن الكهف المجاور . فرددتها وهي تنوح . سمعتها الحياة
في وطنها السفلي فتمايلت مع النغم المعمور بالهام الآلهة . تمايلت حتى
استعادت تفاصيل النفي الاول ، وفجيعة الرحلة فغلبتها العبرة ، وفزت
من عينها الذهبية دمعة كبيرة . ثم واصلت الأغنية طريقها عبر الوادي .
من الحياة خطفها القنفذ ، من فم القنفذ تلقاها «موحٌّ» من انياب
«موحٌّ» انتزعتها «تيرزازت» وهربت بها إلى «آغرم نودادن» .

بلغ اللحن الذروة فانتقل ليصب في النهر المجاور . في الوادي العميق الذي يجري فيه السيل ليل نهار . في الضفة وقفا كعاشقين فصل بينهما السيل المارد . عصفور بورو يرفرف في جانب ، فيلبي عصفور جبارين النداء فيرد على القرین بغناء أهل العشق . سقطا في الوجد معاً . تمايلا وتمايلا وتمايلا ، حتى اقتلعا الجنية من المغارة . نزلت إلى الوادي تولول وتمزق وجهها بأظافر السعلاة . وما أن تبدّت حتى تبدل الإيقاع . وجد القرینان الآن عروساً يزفونها ، وجد المجنوّبان قرباناً يغذى الهم ، ويستعطف الآلهة . وكان على الجنية ، السعلاة التي اندست في الكهف ، ودبرت المكيدة لبورو ، فألقت عليه شبح السويداء ، أن تدفع

ثمن مكيدتها . ظلت الجنّية تتحبّب وتولول وترقص وجهها بأظافرها الكريهة ، ولكن اللحن لم يرحمها ، مضى بها ، أنزل على وجهها مسوح الحداد ، وبدأت مراسيم الجنائزه . لا بد أن ينحر القربان بحدّ التميمة ، بنصل اللحن المسخر للآلهة .

زفّ القرینان جنتهما ، احترق وشاح السويداء ، فعقت الرعد ، لمعت البروق . مادت الأرض . تزلزلت الجبال . ووجد القرینان انهمما يقفان على بوابة واحة مجھولة .

(٦)

لا يذکران متى حدث الفراق ، ولا كيف .

بوروا نطلق إلى الشرق .

وجبارين سار إلى الغرب .

بوروا توغل في أعلى الوادي ، ووْجَد ، عندما عاد إلى الصحراء ، أنه يهُجُّ في بقعة تكاففت فيها أشجار الطلع ، حوله ترتع نوقة الثلاث ، وحواره المشاكس يداعب وجهه بشفتيه الخشتين . في رأسه صفاء السماء ، وجوفه تحرّر من الظلمة ، وعرف قلبه ضياء الطفولة ، حتى أنه لم يصدق أنه عانى من بطش السويداء .

جبارين أيضاً هام في عمق الوادي غرباً ، سار في السبيل المعاكس ، نحو الأسفل ، هناك لسعته سياط الجلاد فصحا . وجد نفسه

يرقد في عراء مكشوف ، امامه تمدد سهل فسيح . تابع امتداد السهل فرأى في نهايته قممأً مستقيمة ، جليلة ، هائلة ، تعبر الفراغ بكرياء ، وتطاول في الأعلى كأنها تفتّش عن وطن مجهول في مساحة الفضاء . خيل له أنه تاه ، ورمي به «سخرك إيراظن» في خلاء بعيد ، ولكنه فوجيء بشبح صارم يقتعد بجواره القرفباء ، ويحدّق فيه بوعيده . يمسك في يده اليمنى سوطاً شرساً من النوع المخصص لتأديب الجمال الcrique . فوجيء بوشاح العتمة ما زال يلف الصحراء والجلاد ما زال يتململ ويتمطى وراء الأفق . اكتشف أن السوط الذي لسعه لم يكن سوط الجلاد ، ولكنه سوط الشبح الصارم . أحسّ بألم في منكبه الأيسر فخمن أنها لسعة الثعبان المفترول من السنة النار . فهل هو شبح من اشباح الإرهاب أم مارد من قبائل الجن؟ جلس . اعتدل . تبادل مع الغريب نظرة طويلة . عبث الشبح بخاتم في بنصره الأيمن . يديره في البنصر بأصابع اليد اليسرى في يومض يريق غامض رغم العتمة ، ظلاًً يتبدلان النظر طويلاً . أخيراً تكلّم الشبح ، تلّكم بلغة مجهولة لم يسمع لها مثيلاً . رطانة مسلية توّلى فيها حرف الـ «خ» دور الزعامة حتى بدا له أنها تخلو من بقية الحروف . لم يستجب للرطانة فتكلّم الشبح بـ «تماهق» أخيراً :

– هل تنتمي لقبائل الطين أم لقبائل النار؟

هزَ عمamته سلباً ، ولكنه خشي أن ينتقل المخلوق العجيب إلى لغة

أخرى أكثر غموضاً ، فنطق :

- لم أفهم .

- هل انت جان ؟

هز عمامته نفيا . ادار الشبح خاتمه المبهم في بنصره بعصبية .
تلفظ بالوعيد ، ولكن بلهجته لم يفقد الوقار :

- ما الذي جاء بك إلى هذه الرقعة ؟

كاد جبارين أن ينطلي بالاعتراف . كاد يقول أنه غني ، وناح ،
فطّوحه الغناء إلى اوطان أخرى ، فهل هذا وطن من الاوطان الأخرى
التي قيل في «آنهي» أنها تناه على صحراء أخرى ، وتحبني فوقها سماء
أخرى ؟ . ولكن الشبح سأله :

- ألم تدر أن هذه ارض حُرمت على اجناس الإنس كما منعت
على ملل الجن ؟

- وكيف لي أن ادري ؟

تخلّى عن العبث بالخاتم . عاد إلى السوط . أمسك بطرفه العلوي
بيده اليمنى ، وتحسّس اللسان الشره براحة قبضته اليسرى . قال بهدوء
يخفي وعيداً جديداً :

- جئت رسولأكي أخرجك من الرقعة . لا اخفى عليك .

في المشرق تمرد الجلاد على قيد الظلمات . تململ في أسره وبدأ يرفع رأسه المستدير . سبقته إلى الصحراء الاشارة ، وتولّد في ابدان الكائنات القبس . القبس الخفي هو الذي سطع على فص الخاتم ليريه الشارة . كانت محفورة بصفوف من الاحجار الملونة التي لم ير لها مثيلاً قبل اليوم . كل خط من خطوط العلامات يتجسد بصفين مزدوجين من الذرات الحجرية ، كل ذرة لها لون يختلف عن لون الذرة التي سبقتها ، وتليها ذرة لها لون ثالث يختلف عن اللوين السابقين ، وعلى هذا التنسيق تمضي النمنمة البديعة حتى تكتمل في جسد الرسم :



اطلق الشبح الأمر الصارم :

- إخرج !

ولكن جبارين لم يسمعه . استغرق في تأمل العلامات ، وغاب عن الرقعة أعاد الشبح :

- إخرج !

وفزواقاً . نهض جبارين أيضاً . قال الشبح كالمعتذر :

- ما أنا إلا رسول !

لوج بالسوط في الفضاء فرسم دائرة نارية . أو ما له يده اليمنى مشيراً إلى سبيل الخروج ، فلمعت العلامة المدهشة في فصّ الخاتم بوضوح .

(٧)

تقابلاً عند الملسمود كأنهما كان على ميعاد .

تبدي بورو في افق الشرق ، في نفس الوقت الذي افلت فيه جبارين من قبضة المنعطف ، وتولّد من التواهة الوادي في نقطة انكسار المجرى نحو الغرب . تقدما بخطوات بطيئة ، واثقة ، مكابرة كأنهما مهاجران وقوران من ملة المهاجرين الواوين . التقىا عند الموقع . توقف بورو على مسافة خطوات . توقف جبارين أيضاً . تبادلا نظرة طويلة . تحرك بورو نحو الجلمود المقدس ، تحرك جبارين صوب الطلحة الطيبة . طاف بورو حول الجلمود . دار جبارين حول الطلحة . تقدم بورو من القرین . تقدم جبارين نحو القرین . حدق بورو في وجه القرین . حدق جبارين في عيني القرین . صمتا طويلاً . تكلّم بورو أولاً :

- الجنية نحرت نفسها بالمدية ! الغناء ردّ مكيدتها الى نحرها !
وابتسم . رأى جبارين ابتسامته في مقلتيه ، فابتسم له أيضاً . علق
على النّبأ :

- اعرف . لقد دفتها بمنفسي .

- أخذت معها الداء .. أنا الآن بورو الذي تعرفه .

- اعرف . رأيت ذلك في عينيك !

فتح بورو ذراعيه ليعلن القرین ، ولكن جبارین حذر بسبابته :

- احترس ! الفرح سيردنا إلى دهليز لم نخرج منه إلاّ توآ .

تناول بورو طرف لثامه المتذلّي ، سدّ به فمه . غمغم بكلام مبهم ، ولكن عينيه استمرتا تضحكان . فتح جبارین ذراعيه ، تلقى القرین في حضنه . تعانقا طويلاً ، ثم قررا أن يلهوا . شیع جبارین بدن قرينه إلى أعلى ، القى به في الفضاء ، ولكن بورو لم يسقط ، بل هبط إلى الأرض واقفاً . اطلق صيحة حماس ، وعاد ليلتجم بالقرین . حاول أن يصرعه أرضاً بمساعدة ساقه اليمنى ، ولكن جبارین تخطى الفخ بقفزة في الهواء . اطلق صيحة بطولية أيضاً .

استمرا يتصارعان حتى استوت الظلمة ، واستولت على الوادي .

Twitter: @alqareah

١٩ - الكنز

« قال له نيقو ديموس : كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ ،
أعلمه يقدر أن يدخل بطن أمّه ثانيةً ويولد ؟ أجاب يسوع : الحق ، الحق
أقول لك : إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل
ملكوت الله ». .

انجيل يوحنا

(٣، ٤، ٥)

* * *

« كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق ليعرفوني »

حديث قدسي

* * *

« وقال الله لتفص المياه زحافات ذات نفس حية »

التكوين

(٢: ١)

(١)

بعد العشاء هجعاً . تمدّداً على ظهريهما ، وراقباً الانواء . كانت تومض باللحاظ في غياب القمر . «طالمت»^(*) تبرك في المركز كركيزه . و «إيدي»^(**) يحملق في الأرض كأنه يتوقّب للخروج من مداره والفار إلى منازل أخرى . «أشئت أهظ»^(***) تتنادى ، تتكلّل ، تلتجم في عنقود من البريق ، تتهامس في سرب دائري ، تصنع بابداتها الفتانة طوقاً منيراً ، تتلاصق أكثر ، تتمتم بسر الطوق ، بسر الدائرة ، بلغة الوميض ، تجمّع عن لغة الكائنات تأففاً وترفعاً . لأن دقة من فيض الضوء تفوق في قدرتها على التعبير الف لسان من السنة الكائنات . «أشئت أهظ» ، سرب الصبايا السماويات يعرفن ذلك ، فيكابرلن كثيراً ، ويتفاخرن كثيراً ، ليس بلغتهن السرية فحسب ، ولكن بجمال فيضهن أيضاً .

تأخر الإله ، فتابعاً مسيرة الانواء . قال بورو :

— في عيون «أشئت أهظ» قرأت بشارة !

تمتم جبارين :

— في عيون الفاتنات دائمًا بشارة !

(*) طالمت : الناقة .

(**) إيدي : الكلب .

(***) أشئت اهظ : بنات الليل .

- غداً سفرح كثيراً . سنضحك كثيراً !

سحب نفساً عميقاً . استدرك :

- سفرح بقلوبنا . سنضحك بقلوبنا .

ضرب صدره بقبيضته واضاف :

- إذا جمعع الضحك هنا فلن يسمعه أشرار الانس ولا أشرار

الجبن .

وافقه جبارين :

- الفرح كالاسم لابد أن يُخفى عن الأذن كما يُخفى الوجه عن العين خوفاً عليها من شر العين .

- هل تظن أن الصحراويين اختلقوا اللثام لهذا السبب ؟

- أنا على يقين . الاوائل كانوا حكماء كثيراً . الاوائل لم يغفلوا شيئاً أبداً ، ولم يفعلوا شيئاً بلا سبب .

- هنئاً لهم . ليتني ولدت مع الاوائل . كنت سأكون سعيداً لو حظيت برفقتهم .

تابع جبارين نجماً يهوي . فرح بالكنز الذي ستفوز به الأرض .

قرأ تعويذة قربان ليسهل أمر النبع . صمت . عاد الى محاورة القرین :

- وماذا ستفيده رفقتهم إذا كان لا ذكر لا للأولين ولا للآخرين

الذين سيكونون بعدهم؟ آنهي يقول : «سينسى الابناء أباً نسى أباه» .

أجاب بورو بعد صمت :

- ظنت دائمًا أن حظهم من السعادة كان أكبر . ولو خيرت لاخترت زمانهم . ولكن جبارين خيب ظنه :

- هذه أمنية الأجيال . هذا حال كل الأجيال . أنا أيضًا راودتني الامنية أغمض عيني لأجد نفسي في الزمان القديم . أهل واو أيضًا ينفقون حياتهم بحثًا عن هذا الزمان .

- هل تقول حقاً؟ أهل واو أيضًا؟

- أين يمكن أن يجدوا «واوا» إذا لم يجدوها في الزمان الأول؟

- لم يخطر في بالي هذا أبدًا . انت حكيم . أنا فخور لأن قريني جبارين رجل حكيم .

- في الحكمة هم كثيرون . هم الحكمة أكبر من كل هم .

- هل تظن ذلك؟ لماذا ترى هذا الرأي؟

هبت نسمة شمالية ودية . استنشقها جبارين فملأت صدره بنداوة الشمال . النداوة ايقظت الحنين للشمال ، للوطن ، للحمادة . تأوه بشقاء . تلوى على التراب . ثم عاد فهدا . تعلق بالأنواء . قطع حوار الأرض . غاب في حوار العجوم .

للاستطلاع خرج «إيدي». تنقل في منازل السماء. طاف الفراغ الأعلى . تفقد الصحراء البهية من مداره السماوي ، فبدا العراء الحالد ، من هناك ، أكثر عراء وعزلة وبهاء . تأمل بدنها الممدود ، المكشوف ، فرأى أن القارة الكبرى ، الوطن الوحيد الذي اعتاد الحرمان ، ففاز في الرهان مرة أخرى . استحق أن ينال مكافأة السماء من دون الاوطان جميعاً . عاد «إيدي» بالنباً واحبر قبيلة الكواكب . التحتمت ابدان «أشيت أهظ» . تهامسن بلغة الوميض . ابتهجن . اطلقن زغاريد الفرح باللسنة الوميض . أبصر «آمنار» إشارة العذاري فقرأ النبوة . هبَّ من منزله ورقص بسيل من الضياء . تلقت «طالمت» البشرة ففرزت من مقلتها دمعة ابتهاج كبيرة ، ولكنها لم ترقص مثل «آمنار» ، ولم تزغرد بلسان الضياء مثل «أشيت أهظ» ، لأن سلطان الزمان وضع في سيقانها قيوداً لن تجد منهم خلاصاً إلى الأبد ، وكتب عليها أن تجثم على اربع ، وتتضغط لقمة العليق المسحور ، لا تتبعها حتى تعود إلى فمها من جديد . الخلوق الصحراوي يتوجّع توجّعاً إلى «واو» ، يقطع المسيرة وبصره معلق بالأنواء ، في صدره يتململ عصفور الشوق ، في حين تتململ الناقة لقطع المسافة في الاتجاه المضاد . تتحرق للإفلات من اغلال المسد ، تتوثب للعودة إلى النعيم ، إلى العراء الفسيح . إلى العليق الأرضي المعطر بشذى التراب ورائحة الطين . تابع جبارين «طالمت» وهي تقلب

في سجنها السماوي ، ورأى دمعة الابتهاج في مقلتها اليمنى ، فتقبل
البشرى بامتنان . فزّت من عينه اليمنى أيضاً دمعة كبيرة ، ليس تلبية
للنداء ، ولكن لأنّ يأساً ألم به في أن يفك القيد ويتبادل مع الناقة المكان.

(٣)

كما تومض الانواء بالاشارة التي تهدي القوافل إلى السبيل ،
كذلك يقدح مجمع الأعلى زند القدرة ، ويعث بالرّسل إلى الهاوية
السفلى لا للكشف عن الكنز ، ولكن للإيماء إلى الموقع الخفي ، بعدها
يجيء دور الظّمآن . يقبل القبلي رسولاً لإله الجنوب . يأتي محملاً بانفاس
الضد ، بانفاس الغناء ، يسبقه عجاج ينزع به من يد المسافر زاد المبدأ ،
زاد الضد الأول ، زاد الحياة ، ينزع به الماء ! يضيّع المسافر الطريق .
يتبدّد العجاج ، ولكن غيماً أشدّ عتمة من ظلمة العجاج يتنزل ،
ويستولي على المدى . لا يعود المسافر يحتمل الاستواء فوق الدّابة .
يترجّل عن السرج ، لا يترجّل حقاً لأنّه لم يعد قادراً على الصمود ،
ولكن لأنّ روح المكابرة تفقد سحرها ومعناها عندما يقبل الظّمآن ، وتدنو
ساعة فرار العصفور من قصصه الأرضي . الظّمآن لا يهزم الفروسيّة
والادعاء والمكابرة والترفع عن صدر الأم الأولى فقط ، ولا يقتل الحياة
الكافر وحده ، ولكنه يصحّح الاوضاع كلها ، ويعيد للأشياء ذلك
المجوهر المفقود الذي زيفته اللعبة ، ونفته الاكذوبة عن وطنه الاصلي ،
وانسنته الحياة لغتها الاولى . يبدأ المسافر في نزع الاوزار التي لم يحملها

إلا لأنه وجد الآخرين أمامه يحملونها . يبدأ في التخلص من اثقال قيده بها الحباء الكاذب . يتحرر من العمامة أولاً ، يبدأ رحلة الخلاص من أولها فيطبح بشارة الكبراء أولاً . تنزح الصخرة التي تسد فم المغارة الظلماء ويتبدى للعصفور بصيص ضياء . تستمر الرحلة . تمضي المسافة بالهاجر . تصير هي المهاجر ويصير المهاجر هو المسافة . يتبدلان الأدوار ، لأن الميعاد الذي يستبدل فيه المسافر دوراً مع المسافة قد أُزف . تسير المسافة بالمسافر . يقطع شوطاً في الأبد ، فيقترب (ويا لغرابة الحال) الأزل . يتبدل الزمان في الأبد الأبدى فيتولد الأزل من المنفى ، ويعلم الكائن البائس (الذى احتجب فيه العقل بالنسيان ولم يعد يستطيع أن يعلم شيئاً بعد) أن الزمان إذا تمدد في الأبد استدار في قوس الخلود ليتحم بالازل . الاستداره هي السر . الدائرة هي الحلقة المفقودة . حلقة الخلود . ولكن المسافر الذي تخلى الآن عن كل شيء ، عن اللباس ، ورسن البعير ، والصحراء ، والعقل ، وسلم الزمام للصحراء التي قرأت السر منذ أول الدهر ، منذ تعرّت وصارت صحراء ، هذا المسافر يقف الآن في الحد ، يقترب من بزخ السر . فمنذ تخلى ، ومنذ تحرر ، ومنذ تزلزل وعاء الظلمات ، ورفف العصفور تأهباً للسفر ، وهو يسمع الغناء يتردد ، غناء غامض ، حزين ، بالكاد يسمع من فرط البعد ، يسميه الواويون : «لحن الإلهام» ، في تلك الساعة يسجد المسافر على ركبتيه . في تلك الساعة يحل الصفاء ، ويقترب اللحن ، وينزل الوحي .

الوحى يسري في اعضاء لم يعد يحس بوجودها . يبدأ الحفر . لا يعي ، لا يعقل ، وإنما حفر ، ولكنها يستمر في الحفر . لا يختار الموقع ، ولكن الموقع هو الذي اختاره . وكلما ازداد تدفق الفيض ، المسمى إلهاماً في لغة الواوين ، كلما اقترب العصفور من فوهه الدهليز . وكلما اقترب العصفور من فوهه الدهليز ، توغل البدن في بطن الأرض . في حضن الأم . في جوف العجنة الاولى . في مأوى يسميه أهل الباطل قبراً ، ويسميه المهاجرون بثراً ، ينبوعاً ، كنزاً . تقترب الرحلة من النهاية خطوة أخرى ، أو تقترب النهاية من الرحلة خطوة أخرى ، فيقترب البدن من الكنز شبراً آخر . وحتى عندما يفلت عصفور النور ليتحقق بالفيض ويصير نوراً قبل الأوان ، ويكتمل الإلهام ، ويقف السر على سر السر ، ويحل في البدن السلام ، فإن مسافرين آخرين سوف يأتون قريباً ليسروا على هدي السيرة ، ويستخرجوها من جوف الاسفل سلسلياً مخلوطاً بالطين ، وبهياكل من عظام لم يسعفها الزمان لتصير طيناً ، ولم يكفها الأمد لتتبدل وتعود تراباً كما كانت يوماً .

(٤)

زحف بورو على ركبتيه . غاب داخل الشقّ . سمع جبارين همهمته وهو يتهجّي النبوءة . سافر . حل في القوس المشدود . دار مع دورة الدائرة . تواصل الزمان في الزمان . وانتقل المكان من المكان . التأم الابد بالأزل ، ودار في مدار انتهى في مملكة لا تعرف بحدود

الزمان ولا المكان . هناك تسلّم الرقعة ، وعاد بالوحى المبثوث في عبارة
الاسلاف :

- أَجْ أَسَاهْتْ تِيكَالْ إِيوْ يِسَدْ جَمَضِدْ تِفُوكْ ، تِقلَدْ آفَلَا
كراحت . إِتْجَرُودْ آنُو داجِ اسْلَسْ مَلَنْ * .
كَرَرْهَا بُورُو ثَلَاثْ مَرَاتْ .

لم يتضرر جبارين خروج القرىن من الغار . لم يتضرر عودة القرىن
من ملكوت الأرض الأخرى ، المظلمة بسماء أخرى . تلقى السر .
تلقف الكنز المدفون في الاشارة ، وانطلق . انطلق ، لأن من تلقف رقعة
الكنز لا يتضرر رفياً ، ولا يعترف بأخ ، ولا بأب ، ولا بأم . من اختطف
رقعة الكنز لا يملك إلا أن ينطلق ، أن يفر ، أن يختفي ، فلا مكان
لإنتظار ، ولا لصلة رحم ، ولا لعلاقة قران ، في ناموس الكنوز .

وقف في مواجهة الجلاد الذي اطل فوق قمم ضفة الوادي
الأخرى ، تباطأ الجلاد . حدق في جبارين بعين الشعاع ، قرر أن يتمهل
قليلًا طمعاً في مشاهدة ميلاد الضد ، الخصم ، العدو الذي سيسلبه
السلطان . جبارين أيضًا حدق في عين النار بجسارة الأبطال ، وتحدى
من استنصر بالسلاح الوحيد الذي يستطيع أن يقهر سلطان الجلاد ،
وينهي سيادة النار على الخلاء . حدق في القرص حتى دمعت مقلاته ،

* «قطع مسافة سبع خطوات إلى حيث تشرق الشمس ، أصعد إلى أعلى ثلات خطوات آخرى، ستجد به أخت لوح أيضًا». (قامق).

ثم بدأ يخطو ، يخطو خطوات واسعة ، ويعد بصوت عال ، منتظم ، ملحون ، كأنه غناء ، كأنه نداء : «لين . أسين . كراض . أكوز ، سموس . سضيس ، أسا». توقف . حدق في عين الجلاد مرة أخرى . حدق في الشعلة بصرامة الكهان ، فترجح الجلاد من موقعه في القمة . زحف شبراً إلى أعلى ، فغمر الكاهن المكابر بحزمة من نار . ولكن الكاهن تجنب الفخ في آخر ومضة . استدار يميناً ، وواجه قمم الضفة الأخرى ، فأصابت الحزمة منه العمامة ، وانزلقت ألسنة النار على منكبيه . الكاهن لم يعبأ ، غاب في معابد بعيدة ، متماماً بتمائم مهممه . من الشق خرج القرین . تقدم نحو القرین . مشى باحتراس الرعاة عندما يرمي الحظ في طريقهم ببهمة غزال ، فيحبسون الانفاس ، ويخطوون على رؤوس الاصابع لياغتوها نائمة . بلغ المكان الجليل فتوقف بجوار القرین . تعبد في الحرم أيضاً ، تتم بالتمائم . واحتلست نظرة وعيد إلى سلطان السماء ، فرماه الجلاد بحزمة مماثلة من خيوط النار . تلقاها بمنكبيه ، وعرض عنها في جسارة مماثلة أيضاً تضامناً مع القرین . انتهى الكاهن من مراسم القربان . تحرر الكنز من أسر الازل . زال عنه خطر الزوال . شبح التحول ، لعنة التفسخ التي تلاحق كل الكنوز الارضية ، تراجعت سعالى المجهول . ارخت قبضتها عن اللقيا ، فافلت الأثر من دائرة الوهم ، من دائرة الظلمة ، من دائرة الرماد ، من دائرة الخيال ، وصار ميراثاً يحق للأحفاد أن يتلقوه من يد الاجداد .

تَحْرُكُ الْكَاهِنْ . قَطْعُ الْمَسَافَةْ . اجْتِازَ الْبَرْزَخَ الْأَوَّلْ . عَبْرَ الدَّهْرَ
الْأَوَّلَ فِي الْخُطْوَةِ الْأُولَى ، زَغَرَتِ الصَّبَايَا . رَقَصَتِ الْمَهَارِيْ . غَنَّتِ
الشَّاعِرَاتِ مَوَاوِيلَ الْبَحْثِ عَنْ «وَوَوْ» تَوقَفَ ، انْصَتَ لِلْفَنَاءِ الْجَيْدِ ، فَاضَّ
الْصَّدَرَ بِالْأَشْجَانِ ، رَفَرَفَ الْعَصْفُورُ فِي الْقَفْصِ . فَزَّتِ مِنْ الْعَيْنِ دَمْعَةُ
الْحَنِينِ . وَلَكِنَّهُ تَجَلَّدُ . تَصْبِرُ ، ارْتَجَفَ ، وَلَكِنَّهُ صَمْدٌ صَمْودًا بَطْوَلِيَا . لَمْ
يَسْتَسْلِمْ لِلْأَغْوَاءِ . لَمْ يَجْذُبْ . لَمْ يَقْعُدْ فِي سُلْطَانِ الْوَجْدِ .
فَخَرَجَ مِنْ امْتِحَانِ الْخُطْوَةِ الْأُولَى بِطَلَّاً . تَمْسَكَ بِحُكْمَةِ الْكَهْنَةِ ،
وَاسْتَمدَ الشَّجَاعَةَ مِنْ صَلَابَةِ السَّحْرَةِ ، وَ .. تَقدَّمَ . قَطْعُ الْمَسَافَةِ الثَّانِيَةِ .
اجْتِازَ بِرْزَخَاً آخَرَ . عَبْرَ الدَّهْرِ الثَّانِي فِي الْخُطْوَةِ الثَّانِيَةِ . انتَظَرَ عَاصِفَةً
أَقْوَى مِنْ الزَّغَارِيدِ . انتَظَرَ حَشِيداً أَكْبَرَ مِنْ الْمَهَارِيْ . انتَظَرَ أَنْ تَغْنَى
الشَّاعِرَاتِ بِمَوَاوِيلِ شَجَنِيَّةِ أَشْجَى وَأَشَهَى . وَلَكِنَّ مَا حَدَثَ لَمْ يَجْرِ لَهُ
فِي حَسَابٍ . فَادْرَكَ أَنَّ التَّزَوُّدَ بِحُكْمَةِ الْكَاهَانِ لَا يَكْفِي لِاستِخْرَاجِ
الْكُنُوزِ . ادْرَكَ أَيْضًا أَنَّ شَجَاعَةَ السَّحْرَةِ لَا تَكْفِي لِاستِعَادَةِ مِيرَاثِ
اسْتِعَادَتِهِ الْأَرْضِ ، وَوَقَعَ فِي قَبْضَتِهِ سَلاطِينُ الْأَسَافِلِ دَهْوَرًا . ادْرَكَ أَنَّ
جِبْرِوتَ السَّحْرَةِ الَّذِينَ يَنَازِلُونَ مَرْدَةَ الْجِنِّ فَيَغْلِبُونَهُنَّ لَيْسُ مُسْتَعِرًا مِنْ
إِقْدَامِ الْفَرَسَانِ ، وَلَكِنَّ مِنْ مَوْهَبَةِ تَلْقَوْهَا مِنَ السَّمَاءِ . وَادْرَكَ أَخْيَرًا أَنَّ
كُلَّ مَا لَمْ تَعْطِهِ السَّمَاءُ هُوَ هَبَاءٌ وَبَاطِلٌ ، بَاطِلٌ ، بَاطِلٌ ...

تَزَلَّلَتِ الْجَبَالُ كُلَّهَا ، مَادَتِ الْأَرْضُ وَانْتَفَضَتْ كَأَنَّهَا تَنْوِي أَنَّ
تَلْفُظَ احْشَاءِهَا . هَبَّتِ عَاصِفَةً . اظْلَمَتِ السَّمَاءُ فِي وَمْضَةً . قَعَقَتْ

برعود لم يسمع بمثلها . تمزق غيمها البهيم ببروق كسياط النار . سمع دمدة خفية ، الدمدمة تحولت إلى بليل ، البليل تحول ضجيجاً عاتياً . وقبل أن يستولي الضجيج على كل صوت آخر خيل له أنه سمع صوتاً ، نداء ، تحذيراً ، يقول : «با هو آواغ إيمدا با هو»^{*} . فهل كان النداء هتاف القرین ، أم انه إلهام غامض ؟ . بعدها ابتلعت البلبلة كل الاصوات . أحس بيدين من حديد تمسكان بمنكبيه ، أغمض عينيه . تذكر النداء الغامض ، فداس على قلبه ، وسحق كوز الطين ، وتعلق بالعصفور وحده . لا يعرف كم مضى من الزمن ، ولكن العاصفة بدأت تتلاشى عندما فتح عينيه ، والبلبلة الجنونية مضت تبتعد مع العجاج . صمت السماء . توقفت الارض عن الدمدمة . تبين القرین بالجوار . سمعه يتمتم : «هنيئاً لك . الرهان كان اصعب مما ظنت» . ولكن الكاهن كان يفكر في المسافة التالية . في البرزخ الأخير . في احوال السفر الاخير . وكم كانت دهشته كبيرة عندما استجتمع آخر ما في الارادة من تصميم وتقدم . ساعتها هبت عليه عاصفة الزغاريد التي تمناها في المسافة الثانية ، واحتشدت جيوش الفرسان ، وهرجلت راقصة ، غنت الشاعرات اشعاراً لم يسمعها من قبل ، واقبل إليه رسل كل زعماء الصحراء ، لأنه استطاع أن يستعيد كنز الاسلاف من قبضة الاعداء . ساعتها عرف أن الفرح الحزين ، فرح البرزخ الأخير ، ليس إغواء المسافة الاولى .

* با هو آواغ إيمدا با هو : باطل . كل ما تراه باطل (تماهق) .

(٥)

الفوهة طوق من الصلد المصقول .

هنا ، في الاسافل ، يقع السر الذي وقع عليه خيار السماء . إليه أشارت الانواء . حوله حام الرسول «إيدي» . نحوه سعى التائه عندما رفرف طائر السر ، وفز العصفور من القفص ، وخرج كائن الضوء من المعقل ، تحرر من العقال ، من طوق الطين ليتقلط الطوق الى الصلد ، بأظافره حفر العلامة الاولى . ووضع حجر الزاوية دون أن يدرى ، حتى أنه لم يدخل على أهل السبيل بالطوق ، فترك لهم عظامه قرباناً ، ومضى الى وطن لن يحتاج فيه إلى هيكل العظام .

بعدها تناوب أهل السبيل على الحفر .

تأتي القوافل . تتوقف في الحضيض ، يصعد المسافرون إلى الحرم ، يقرأون التمائم السرية ، ينحر الكهنة أنعاماً على الضريح . يحفرون نصيهم بمعاول الحجارة ، يقطعون شوطاً أبعد . يتحلقون حول الطوق عندما يحل الليل ، ويهل الإله . تحت ضياء الإله يبللون بالتعويذة الجماعية التي اجمع السحرة على فعاليتها ، وصارت تقليداً تولول به القبائل في الامسيات . ينوحون على الموقع كما ينوحون على القبر . ينوحون ليطردوا الشر ويفسدوها على «وانتهيط» مكيدته . ثم يحملون القافلة انقالهم وينطلقون ليترکوا أمر الشوط التالي للمسافرين الذين

سيأتون بعدهم . يضلون بعيون دامعة ، يتحسرون ، لأنهم يعلمون أنهم لن يشهدوا ذلك اليوم المجيد الذي سيضرب فيه أحد المسافرين ضربة واحدة فيفجر الحظّ في وجهه بنوعاً طلبه الاجيال ، ويئست من الوصول إليه قبائل ، وحلم بنيله مهاجرون لا يحصى لهم عدد ، ولا يعرف لماضيهم تاريخ . الحظّ معتوه ، الحظّ مثل القدر ، غريب الأطوار ، يروق له أن يسخر من أهل الخزم . وكثيراً ما وهب هذه الضربة النبيلة لأوغاد بعد ما يكونون عن النبل والقداسة ، وأقرب ما يكونون إلى الدنس والنجاسة . ويقال أن الضربة القدرية التي فجرت نبع «عين الفرس» * كانت من نصيب مغامر شرير جاء من جهة بحر الاوقيانوس بحثاً عن كنوز التبر . ويروى أن الحظّ لم يخن المغامر على كل حال ، فوهبه ثلاثة جرار رمادية مليئة بالمعدن اللعين ، وجدتها المغامر الكريه بعد أن تفجر السلسلي في زاوية الحفرة ، تحت حجر من الصوان الصقيل . كما تروي روايات أخرى عن آثار كثيرة منعت نفسها عن أجيال وأجيال ، ومنحت نفسها لغامرين أو عابدين ، أو انذال ، أو حتى مجانيين .

يستمر الحفر اشواطاً . وقد يستغرق اجيالاً . وما أن تحيط الساعة ، ويستوي الأمر ، وتهوي الضربة القدرية على الصلد ، حتى تجود الاعماق بفيض احتجب في جوفها طويلاً ، وطلبه الاجيال طويلاً ،

* عين الفرس : نبع بواحة غدامس . (الصحراء الليبية) .

وانتظرته القبائل طويلاً . ينتشر الخبر . تعم البشارة . تحملهما «مولا - مولا» إلى كل الصحراء . تُبتهج القبائل ، تزغرد العذاري ، تتغنى الشاعرات بموايل الطلب وفجيعة الوصول . ترقص المهاري في العراء . تعزف المغنيات الحان الاستجان ، وتقرع العجائز الطبول . يلشم الحكماء في خيمة الاجتماع ، ويتحلق الفرسان حول الزعيم . يأمر السحرة بجلب الانعام ، ويغمدون المدى النحاسية في النحور ليغسلوا أيديهم بدماء القرابين .

يحج الخلق إلى الموقع . تغير القوافل السائرة إلى الجنوب خطّ السير . ويبدل تجّار الشمال الطرق المؤدية إلى ممالك الشمال . تتحول مسالك العبور ، وتنقلب كلّ السبل . لأن اكتشاف حلمة جديدة للأرض هو الحدث الوحيد الذي يستطيع أن يحرّف السير ، ويشق الطرق الجديدة ، ويبدل حياة العابرين .

أثر الحبال ما زال محفوراً على الطوق . لمسات المسد الشرس ما زالت مطبوعة على عنق الفوهة . اخاديد الحال المعتمة ، الصقيلة ، الغامضة ، لم تكن لتجاسر على نهر الصوان ، ونهش الصندل لو لم يقف لها الزمان سندًا . لم يكن حتى المسد النهم يجرؤ أن يتشبّث نابةً ويجرح الحجر الخالد لو لم يعتمد على تشجيع الثعبان الخفي الذي يحيل كل شيء إلى هباء ورماد .

ولكن هذا الثعبان ، المسمى في لسان الصحراء زماناً ، لا يمهل

إلى الأبد لأنَّه وجد أصلًا كي لا يُعترف بالأبد ، كي يزيل خصماً اختلقه
الخلق وسموه الأبد . فالزمان الذي وهب لا بد أن يجيء يوم يسترجع
فيه كل ما وهب . وهذا اليوم ليس بعيداً أبداً مهما طال بحساب أهل
الصحراء ، لأنَّ قياس الزمان لا يقارن بقياس الدَّمَى التي تنقل كاهل
الارض .

الزمان ينهي الامر على طريقته . على طريقتين : فاما أن يستعيد
الكنز ، ويسحب الماء من القيعان ، أو يزيل القبيلة كلها ، ويحوّلها هباء
لا وزن له ولا جسم ، فتعود الدائرة إلى البقعة التي انطلقت منها يوماً ،
ويعود التراب ترابةً كما كان ، وكأنَّ الدَّمَى التي قطعت الصحراء شمَاً
وجنوباً ، شرقاً وغرباً بحثاً عن التَّبر ، أو غزواً للادغال ، واثقلت الأرض
كيفما راق لها أن تثقل ، تصير الآن كأنها لم توجد ، لم تكن . وقتها
يتنفس «آمناي» ، في انفاسه يهب القبلي حاملاً ذيول الغبار . يذر الغبار
في افواه الآبار . فتحتجب الافواه . تهاجر المياه ، تمدد في عروق
الاسفل . تعود لتسكن الخفاء . إذ من يدرِّي من أين يأتي الماء ؟ أو إلى
أين يذهب الماء ؟

(٦)

بورو ركع عند الحافة ، وانهمك يزيل التراب بحماس ، وجبارين
ركن إلى الطوق . تحسس العنق الرشيق ، الاملس ، الذي ينافس جيد
الحسناء في البهاء ، والاغواء . تابع القوس وهو يتقوس ، وينكسر بكبرياء

الأكابر ، ينطعطف بدهاء السحرة ، ينكسر في نقطة لا وجود لها في المسافة ، ينطعطف في مساحة خارج المكان ، ويستدير في بربخ لا يعترف به الناموس ، ولا تقره إلا شرائع مستعارة من الأرض الأخرى ، من الصحراء الأخرى . فهو ، في مسلكه الحكيم ، لا يتشبه إلا بالأفق الصحراوي الحكيم ، ولا يحاكي إلا الزمان الذي غلت حكمته كل الكائنات . الزمان وحده يملك هذه المزية . الزمان وحده ينحرف في حدّ خارج الرؤية ، فلا تراه عين ، ولا يخطر على بال مخلوق ، ليخطّ زاوية الدائرة ، ينحدر من الذروة ، وينساب ، خلسة ، إلى الوراء ، ليوصل حدّه بما انقطع من أمره ، يلمّ ماضيه في مستقبله ، ويلحم مستقبله بحاضره ، يتحلق بصرامة ، ويحكم إغلاق حدّ لا اركان له . لأن الدائرة إذا التأمت ، وانكفت على نفسها ، حوت كل الاركان ، واحتوت كل اطراف الزمان .

انحنى فوق الهاوية . كانت موحشة ، مظلمة ، مغربية ، تنطلق إلى الأسفل بلا قاع . تهوي إلى المجهول . ولكن غموضها يوحى بسر لا طاقة لها لا بالتكلّم عليه ، ولا قدرة لها على البوج به . غموضها يوحى بهذه المشادة بين الامرين . بين الضدين . بين حمل لا يتحمل ، وتوقع معاناة الحال الأسوأ إذا تجاسر وتنصل منه . والمعاندة في هذا الحال ليس حالاً ابتدعه الهاوية ولكنه حال عرفه كل وعاء احتوى في جوفه كنزاً مخفياً .

تناول حجراً . القى به في الهاوية . تصنّت . جبس الانفاس . اشار لقرينه أن يتوقف عن معاندة اكواه التراب ، فচنّت بورو أيضاً . تصنّت الصحراء ، تصنّت الكائنات . القبائل بفرسانها وسحرتها وزعماها وصباياها . تصنّت قبائل الجن أيضاً . تصنّت كل الانعام ، تصنّت الزمان بجلالته . حتى إله النار والضياء تصنّت . تصنّت وغضّ الطرف في خشوع حتى خُيل للقرينين أنه سيتوارى إجلالاً وربما خوفاً... بلغ الحجر الوطن أخيراً، ارتدت الاشارة . هاجرت لقطع نفس المسافة . لتعجّاز نفس الحدود ، وتعاند نفس الاحوال التي عاندها الحجر واجتازها في سفر الهبوط . قطعت الاشارة المشوار ، انهت سفر الخروج ، فسمعت الخلوقات ، سمعت الارض والسماء ، الثرثرة . التميمة ، التمية ، حوار العاشقين الشقيقين . الكل سمع شكوى الحجر إلى الماء ، وشكوى الماء إلى الحجر . ثم حلّ سكون ، ففهم الكل أيضاً أن الصديقين القرينين ، المعشوقين ، قد غابا في عنان طويل .

هنا قالت السماء للأرض : «أسمعت؟» ردّت الأرض : «بلى . سمعت» قال الجن للجن : «أسمعت؟» فرد الجن على الجن : «بلى . سمعت» . قال الساحر يخاطب الزعيم : «أسمعت» . اجاب الزعيم : «بلى . سمعت» . قال آمغار للساحرة تيرزازت : «أسمعت؟» فردّت الشقيقة باكية : «بلى . سمعت» . قال الودآن يخاطب بوشا : «أسمعت؟» ردّ بوشا : «بلى . سمعت» قال الزمان يخاطب إله النهار :

«أسمعت؟» . رد الإله باكيا أيضاً : «بلى . سمعت» . هنا قال جبارين يخاطب القرین :

— أسمعت؟

— رد بورو بخشوع :

— سمعت!

تبادلَا نظرة طويلة . في مقلة بورو تلألأَتْ ضحكة ، ولكن القرین حذرَه بِيَمِائَةٍ صارمة . كمْ بورو فمه بلثامه . انتصب . استمر يخاطب القرین بعينيه . نهض القرین . التحما في عناق آخر . ثم صاحا بأعلى صوت . واشتكى يتصارعان .

(٧)

في القيلولة هجعت الكائنات .

هجعا تحت الطلحة أيضاً .

قال بورو :

— رأيتك ترتجف عندما هب العجاج ، فكدت أیأساً !

سحب جبارين لثامه على عينيه . انصت لهرجة الذباب . تكلّم :

— أحسست بيدين من حديد تقبضان علي . الاولى من هنا (أشار

بيده اليمنى إلى منكب الأيسر) ، والأخرى من هنا (وربت باليد اليسرى

على منكب الأيمن) ، فكدت أیأس مثلث . انتظرت أن اطير في الهواء ،

واختفى مع أهل الخفاء ، ولكن صوتاً تكلّم في أذني . لا أنسى أن

الصوت هو الذي ثبّتني . كان صوتاً ... هل كان ذلك صوتك ؟

بورو لم يجحب . طرد ذبابة لجوحة ، وعاد يقول :

– قلت لك أني لم اندم عندما اخترتك قريناً .

صمت . قاوم الذبابة . أكمل :

– اليوم ازدلت يقيناً . انت تعرف ما معنى ان يفوز بقرين من لا
قرين له . من لا أخ له ، ولا أب ، ولا أم .

انتظمت انفاس جبارين . ولكن بورو لم ييأس :

– عندما كنت صغيراً سمعتهم يتحدثون همساً عن أخ لي لم
اعرفه !

تململ القرین . سأله :

– لم تعرفه ؟

ولكن بورو تجاهل السؤال . قال بلسان الامهات عندما يسردن
البطولات لاولادهن في ليالي الشتاء :

– قالوا أنه حاول قطلي ا

– حاول قتلك ؟

– لم يحدهني أحد بالحق . ولكنني لم اقدر أن أنسى ما يدور
حولي وانا صبيّ .

- ألم يردعه أبوك ؟ أين الأب ؟

حامت حوله الذبابة . نهشت ساعديه العاربين . لم يقاومها . قال :
- لا ادري . كنت صغيراً . لا استطيع أن اتذكر شيئاً . سمعتهم يقولون أنا كنا وحدين في المرعى . شج رأسي هناك بالحجر ، وهرب .
دفنتي في التراب . وعندما أخرجنوني نسيت كل شيء ، ولم أعد
استطيع أن اتذكر ..
سكت . سكت جبارين أيضاً .

غفا بورو ، ولكن جبارين استمر يتململ . ارتفع شخير القررين .
زحف جبارين حتى انحنى فوق رأسه . كان يحجب عينيه بطرف اللثام
العلوي . اللثام التفت حول الرأس ، فبقيت الذروة حاسرة ، يشطرها
الاخذود القديم الى نصفين . كان الشدّخ مفتوحاً ، قبيحاً ، له هيئة
كعب الاثني ، يومئ بإغواء غامض . تشبّثت بجانبيه حبات الرمل ،
وحلزوّنات الشعر المفلفل . حدق فيه طويلاً . رأى الحجر يهوي على
قمة الرأس . يهوي ، ويهوي ، ويهوي . في البدء تناشرت قطرات كثيفة ،
لزجة ، مقززة . ولم ينزف الموضع إلا بعد أن تهشم الصلد . سال المجرى
بالسائل المتاخر ، اللزج ، الذي يفوح برائحة غريبة . عليه نزلت أسراب
الذباب ، وبدأت تلعق بشراهة .

انتقلت الذبابة من ساعد النائم ، وحطت على الاخذود .
كشفت عن لسان مدّبب ، وبدأت تلعق بشراهة .

Twitter: @alqareah

٢٠ - المخرج أ

«وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنْ قَاتِلَ قَاتِلَ أَخِيهِ وَقُتْلَهُ .
فَقَالَ الرَّبُّ لِقَاتِلِهِ : أَيْنَ أَخُوكَ هَايِيلُ ؟ فَقَالَ : لَا أَعْلَمُ . أَحَارَسُ أَنَا
لِأَخِي ؟ . فَقَالَ : مَاذَا فَعَلْتَ ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارَخَ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ »

التكوين

(٤: ٨، ١٠)

* * * *

« .. وَكَانَ قُتْلَهُ شَدَخًا بِحَجْرٍ »

السعودي

«مروج الذهب»

(١)

في السنوات الأولى احتمل كثيراً . فما أن سمع زعيق ، ودخل ليجد ضيفاً في الخباء حتى بدأت التنازلات . زحزحه من مقعده منذ اليوم الأول ، ومضى يهشه في خلاء بارد ، موحش ، مثل معزة شقية . هرعت إليه جارتهم العجوز وهمست له بالبشارة . قالت له بلغة العجائز أن من حقه أن يتنهج لأن «أَيْل - بِيل» * آثره على بقية القرآن وجاء له من الأوطان البعيدة بدمية صغيرة ستكون له لعبه وفخرًا ورفقاً سوف يساعدته في ترويض الجداء في المراعي . دخل إلى الخباء راكضاً . سمع زعيق الدمية في الزاوية ففز قلبه تلهفاً وشوقاً . كانت الأم مسجاة عند الركizza . مغمضة العينين . وجهها تغضن وامتنع وهرم حتى تخيل أنه يرى شبحاً لإمراة أخرى . حولها تخلقت نساء متسلحات بالاردية السوداء . وعندما تبدّى لهن أشارت له العجوز أن يقترب . تقدم خطوة ، وتوقف عند الركizza في الجانب الموالي للموقد . تناولت صرة صغيرة ، خرق ملفوفة في لفافة ، هدّهتها بين يديها ، داعبتها وبصبيصت لها بشفتيها ، ثم قدمتها له . ظنها تمازحه . ابتسם . تعم في حياء : «ولكن أين الدمية؟» . قطبت العجوز . عقدت حاجبيها ، حدّجته بصرامة فزعق الوليد في القماط . في تلك الظرفة رأى كائناً بلا

* آيل - بيل : الغرانق .

جسم ، بلا ملامح ، بلا وجه ، بلا اسم ، ولا يمتلك من علامات الوجود إلا صوته .

في الليلة التالية بدأت التنازلات ، واستولت الدمية على مقعده بين الوالدين .

(٢)

كان الموضع مريحاً خاصة في ليالي الشتاء . يتوسط بدن الوالد من جهة وبدن الأم من الجهة الأخرى . محشور بين دفء الموقد من جانب المدخل ، وظهيره يحتسي بدبء الركبة في عمق الخباء . كان مقعداً ادفاً من عش الطير . ولم يعرف هذه المزية إلا بعد أن زحزحة الخصم ، وقعد في الجانب المقابل حيث يواجه الموقد في الطرف الآخر ، فاقداً دباء الاب والأم معاً ، عارياً من حماية الركبة ، يتلقى غزوات الصقيع بظاهره ، يرتجف ، ويستعين بانفاسه ليدفعه يديه كما اعتاد أن يفعل في الخلاء عندما تفاجئه أمطار الشتاء .

في نفس الليلة أيضاً تنازل اشباراً أخرى وتخلى عن المرقد بين الآبوين ليحتله الضيف الغريب الذي لا جسم له ، ولا ملامح ، ولا اسم . الأم ربتت على رأسه وقالت له أن الأمر لن يدوم طويلاً . ولكن الأب الصارم الذي لم يعرف الدعاية ولم يتعلم المداراة أخبره أن الخروج سيدوم إلى الأبد . وقال له أن عليه أن يتعلم ناموس الحياة من مملكة الطير

: «هل رأيت فرخاً عاد إلى العشَّ واندُسَّ تحت ريش الأمَّ بعد أن طارَ ، ونزل في العشِّ جيل الفراخِ الجديد؟» . كان بالامكان أن تستثير فيه العبارة القاسية ذلك الاحساس الغامض الذي جعله يدرك أن عليه أن يودع الرّحاء والدفء ولذة الاتحام بيدن الأبوين ، ولكن العبارة أرهبته وأشعرته في البداية بخوف مبهم من غول مجهول . ثم .. أحسنَ أنه يقف في الخلاء المديد وحيداً .

تملكه يأس ، وببدأ يرتجف ، ويتحبب بلا دموع .

(٣)

المكيدة أرهبته فكره الدمية ، والأم ، والأب والقبيلة . كره الجميع وكره معهم نفسه . احتفلوا . صرخوا في اذن الدمية بالإسم ، فاحتفلوا . اغرقوا اللقيط الذي جاء إلى البيت معلقاً على جناح «آبيل - بيل» ببيخور كريه الرائحة زغردوا ، امسكوا به ليلقنوه الإسم البليد . قالت له العجائز الذميمات أن إسم أخيه الآن «دودو» ، وعليه أن يحفظ الإسم جيداً . افلت من ايديهن ، رمى في وجوههن حفنة من التراب . جرى إلى العراء ، وببدأ يتقيأ .

احتمل العراء . احتمل الحرمان من البدنين الحميمين . احتمل فقدان الدفء ، ولكن صراخ الليالي حرمه النوم واصابه بالصداع . لم يتوقف عن الزعيق منذ اقتحم الصحراء ، كأن افعى لدغته ، أو نال مسا

من جن . لم يرضه أن يفوز بالمقعد الذي يتوسط الوالدين ، ولم يعجبه المرقد المريع بينهما في الليل الصقيع ، ولم يرق له الغطاء الوثير المحسو بوبير الإبل الذي انتزعه منه ، ولم يكفه أنه زحزحه من كل البيت ، وطرده إلى العراء ، ليتركه هناك وحيداً ، مهجوراً ، يلسعه برد الشتاء ، وتعوي حوله الذئاب .

ايقظه في إحدى الليالي فزحف نحوه . ازاح عنه الغطاء وانحنى فوقه . حاول أن يتبيّنه في الظلمة ، حاول أن يقف على سر الخلوق الذي لا ملامح له تحسّس جسمه اللزج ، المبتل ، المقزّز ، دون أن يعرف ما الذي يريد أن يفعله . أحسّ الخلوق بالخطر فازداد زعيقه حدة . فرت الأم من النوم فوجده شبحاً يجثم فوق جسم الوليد . تمنت بالتعاويذ .

غممت :

— من ؟ من ؟ بوبو ؟ ماذا تفعل هنا ؟ لقد افزعوني !

غمم بـ «لا شيء . لا شيء» وزحف نحو المدخل . عاد إلى فراشه الذي لا يهناً بدفعه الخباء إلا نصفه ، أما النصف الباقى فيستلقي في العراء .

في إحدى الامسيات سأل الأم :

— ماذا يريد ؟ ما الذي يجعله ييكي بهذا الصوت القبيح ؟

قالت وهي تنهك في رتق ثوب مكددس في حضنها :

- يشكو !

اتسعت عيناه . سأل بدهشة :

- يشكو ؟ ألم يعجبه كل ما ناله ؟

- لا ادري ، ربما يشكو من ألم ، وربما لم يعجبه المكان !

- لم يعجبه المكان ؟ إذا لم يعجبه المكان فلماذا لا يهجرنا ويعود من حيث أتى ؟

ابتسمت . رمقته خلسة . عادت الى الثوب . اختفت البسمة الحزينة . اختفت البسمة وبقى الحزن . قالت :

- ليته يستطيع . الوليد إذا أتى فلا يقدر أن يعود من حيث أتى أبداً . فالمكان الذي خرج منه يشبه «واو» ، إذا خرجم منها اختفت الى الأبد .

نهدت بياس ، غمغمت : «هيهاه . هيهاه ...» .

بعد زمن ذكرّها بالوعد . قال لها أنها وعدته بأن خروجه من المكان لن يدوم طويلاً ، فمتي يمكنه أن يعود ؟ دارت ارتباكاً بسمة الحزن . داعبت شعره الذي يشطر رأسه كعرف الديك ، فاشتكتى قبل أن يسمع جواباً :

- أبي قال أني خرجمت إلى الأبد .

- ألا تريد أن تصير بطلاً؟
- قال أيضاً أن فرخ الطير لا يرجع إلى العش إذا خرج .
- لا يصير الصبيان رجالاً إلا إذا صاروا أبطالاً ، ولا يصير الرجال
أبطالاً إلا إذا خرجو إلى الصحراء !
- قال أيضاً أن من حق الجيل الذي نزل أن يزيف الجيل الذي سبق
ويطرده من العش .
- لا يتتجنب الخروج إلى الصحراء إلا الجبناء . فهل أنت جبان ؟
لم يتفاهموا في ذلك اليوم . تحدثا بلسانين مختلفين لأول مرة ،
وخشيا معاً أن يكون الانقطاع في اللغة علامه الفراق ، والاختلاف في
اللسان هو إشارة الخروج .

(٤)

يومها ادرك انه فقدها ، فقد كل شيء . فقد الأب في زمان لا
يعرف ، وفقد الانقطاع حبّ الاقران ، وازاحه «دودو» من الموضع
الحميم ، فقد أخيراً أقرب مخلوق فلم يتبق إلا أن يتغول في العراء ،
ويسلم نفسه لقبضة الغول . في الخلاء تسلّى بمخاطبة الجديان . وفي
الليالي طوقة النجوم وحاورته بألف الف لسان . وكما كانت السماء
سخية في السلوى ، وجد في الصحراء الف عزاء . حدثته الاشباح
المنحوتة على صدور الصخور بسير الاولئ ، وخبرته المدافن

المستدير بناموس الزمان وحكمة الدوائر . ووعده قوس الافق بـ «واو» الخفية التي حيرت الاجيال . ولا يدرى متى يتقضى النهار ويأتيه الليل بجيش النجوم . يدخل المملكة البهيجية ليتفقد احوال الخلصاء . يستيق موكب الملك الحميم فيستفهم عن أمره سلطان الاستطلاع «إيدي» . تختجب كوكبة الصبايا فيسأل «طالمت» عن سبب الغم . يرى حزناً في ومض «آمنار» فيتلقى الخبر من فم القمر . واذا طلع موكب الملك فإن الحوار سيطيب والسهر سوف يطول والأنباء سوف تأتيه من أبعد فرج .

في الليالي تأخذه القبة العليا ، وفي النهار تستعيده الصحراء ، وينعم بحنان الشق الأسفل . سلم أمره للقطب المستدير فوجد انه خرج من البيت حقاً . لم يندم . لم يأبه . لم يتبه للمدى الذي وصل إليه في سلسلة التنازل . لم يأته حتى عندما وجد أن «دودو» استولى على نصيه من الطعام فلا يتلقى إلا ما يتبقى من وعاء «دودو» ، ولا ينال إلا ما يفيض عن حاجة ذلك المخلوق النهم . هذا المسلك من قبل الآبوين شجعه في تدبير مكيدة يسلم بها الدمية الكريهة لملوك الجن !

غاب الأب في سفر ، وخرجت الأم لقضاء حاجات عند الجارات ، فتركته في عهده . انظر الأم حتى اختفت في اول خباء وهجم على التمام . انتزع من معصمه صرة الشيش . فك رباط الخيط بعنابة . افرغ المسحوق في حفرة وملأ الصرة بحفنة تراب . ربطها بعنابة وأعادها الى المعصم . ثم فرّك يديه واطلق ضحكة غريبة لن ينساها

ابداً . ضحكة كريهة استغرب أنها خرجت من حنجرته لأنه كان على يقين أن الصوت لم يكن صوته . فرك يديه وحام حول الدمية . حول عنق الدمية . هناك تنانلاً تميمة بهية ، محفوظة في مثلث فاتن من معدن الفضة ، تلقاها دودو من الأم عندما ملأ كمام اللباس الذي يحيط بيده ، وتمرد على الحصن المنبع ، وهب واقفاً بمساعدة الركiza . يومها فرحت كثيراً . قبلته ، داعبته . لوحت به في الفراغ . ضحكت في وجهه ، ثم اختفت في الزاوية وعادت من الصندوق بتلك العطية النفيسة . ثبتها في خيط جلدي ، وعلقتها في رقبته لإرهاب الجن . ساعتها زفر انفاساً كفحيح الحياة ، واشتعل في صدره حريق كحريق القيلولة ، وفز من عينه وميض لو رأته الأم لأنغمى عليها فزعاً . ولكن فرحتها بخطوة «دودو» الأولى في طريق الخروج اعمتها عن كل شيء .

طاف حوله ثلاثة مرات . تفقده من كل جانب . هرش عرف الديك فوق رأسه . في تلك الظرفة توقف الشقيق عن اللعب . حبس حتى النفس . طفق يتابع بوبو بفضول لم يعرفه في الأطفال . ابتسم له ، ولكن الطفل تجهم ، تبدل في وجهه اللون ، ثم انطلق باكيا ، اسكته بحبة تمر . وداعب وجهه حتى بلغ التميمة . قلبها في راحته . اهتدى إلى سرّها . داس يابهاه على الضلع السفلي في المثلث ، تزحرغ الغطاء ، وتبدى الكنز . تناول اللفافة وأغلق الغطاء ياحكم ، فتح اللفافة فغزت أنفه رائحة خفية . كانت رقعة جلد مشدبة إلى حد صارت فيه

في رقة اوراق الحلفاء . ارتسمت عليها علامات وخطوط ورموز . وضعها في فمه . مضغها فوجد لها طعماً خفياً مثل رائحتها . مرت ومضة ، ومضستان ، وأقبل الجند . سمع الدمدمة اوّلاً . هدير غامض يشبه ضجيج اقدام قطعان الاغنام في سكون المغيب . اقتربت الدمدمة . أقبل الهدير . تصبحه مهمة مبهمة . وصلوا . يركبون عجاجة ماردة رأسها في السماء وذيلها ينساب على الارض . اقتحموا المضارب المجاورة . تباكي الصغار ، تصاير الرجال . حجبوا المضارب المجاورة تماماً . اقتحموا الخباء . طار الخبراء . استغاث «دودو» . زعن بفرز ومدد إليه كلتا يديه طلباً للنجدة ، ولكنّه قبع في الزاوية ولم يهرع لنجاته فاستبدلوه . سلطوا عليه ذرات الرمل ، ولكنّه رأى كيف خطفه مارد ملثم . ووضع وليداً آخر مكانه . توعده المارد بسبابة هائلة الحجم ، وأشار له بالسكت . فامثل . وسكت .

(٥)

ولكن من غير الأم يستطيع أن يكتشف سر الإبن ؟

في البداية أرجعت التبدل في مسلكه إلى الحمى ، وخلالت اطواره وتقلب مزاجه إلى وباء السويداء . ولكنها بدأت تشک بعد انقضاء اسابيع . لاحظت أن التوبة إذا ألمت به فإن الصحراء كلها لا تسعه . يرتجف ، يلفظ زبداً . يغيب السواد من مقلتيه ، ويبدأ يشن بصوت ليس له . إذا اعطته حلمة الثدي عضها حتى يفز منها الدم ، وإذا غنت له

اغانيه المفضلة زعق ورماها بحجارة أو تراب . وإذا حاولت أن تتناوله في حضنها لتصنع له من ذراعيها أرجوحة عض يديها باسنان لها مفعول مسموم كأنياب الحية ، فيصيب الألم الداء ، وتستدعي الجارات ليعالجنه العض بالمراهم وعقاقير الأدغال . حدث ذلك مرتين ، وفي المرة الثالثة بدأت تترنح وتردد : «آواغ كلا وجّع دودو»* . ترنحت كثيراً . ورددت النبوءة طويلاً ، ثم قفرت إليه كأنها تلقت إلهاماً . هجمت على معصمه وانتزعت الصرة . قطعت رباطها باستانها فانهال منها الغبار . القت بالصرّة في فزع . كأنها اكتشفت أنها صرة مليئة بأظافر السحر وليس صرة تحمل تعويذة . ولت إلى الوراء خطوة . ولكن الإلهام دفعها إلى الإمام مرة أخرى . احتوت رقبة الوليد بين يديها كأنها تنوي أن تقتله خنقاً . جرّدته من التميمة الفضية بحركة خبيثة . ولو ل بالصوت المجهول فلم تلتفت إليه . ضغطت على الضلع السري فانفرج المثلث عن الفراغ . القت بالمثلث الاجوف أرضاً . وصرخت بأعلى

صوت :

- دودو يمسكل ! **

ركضت نحو خباء الساحر برأس عار كأن أهل الخفاء الذين استبدلوا «دودو» قد استولوا عليها .

(٤٠) هذا لا يمكن أن يكون دودو .

(٤١) دودو أستبدل .

عندما تأهب الساحر للعراء ، وبدأ التحدّي ، لم يتوقع أن تكون المشادة بتلك القساوة . في اليوم الأول اعتكف في العراء وتحصّن بالتعاويذ . في مساء اليوم التالي استبدل السلاح ، واحتدم بمديتين ، وبدأ الطواف حول خبائثهم . كانت الظلمة وحدها كافية لبعث الوحشة ، واستفزاز الجنّ . وقد زاد غياب الأب خارج النجع البيت اعتزلاً ، فصاروا يتخوفون ويتوقعون من أشرار الخفاء عدواناً في كل حين . وما أن بدأ الساحر يهروء حول الخبراء حتى تضاعف الخوف ، وازداد الاحساس بالوحشة . كان يعنّ انيناً موجعاً . يغمغم بتمائم مجهرولة بلغة مجهرولة أيضاً . يطعن الفراغ بإحدى المديتين . ويختفي المدية الأخرى في كم جلبابه . ولا يعرف متى توقف الساحر عن الطواف ، لأنّه استيقظ مبكراً ، وتأهب للخروج بالجداء إلى المرعلى ، فلم يجد سوى آثار قدميه التي حرّثت دائرة مثيرة حول الخبراء .

عقب الغيب قبل مرّة أخرى . استنفر القبيلة ، واستمعان ببطال مسلحين بالسيوف . وقف قبالتهم . قرأ تميمة بتلك اللغة المجهرولة ، أعقّبها بموال حزين ، ثم طعن الهواء بنصل المدية ، واعطى الاشارة . بدأ الغزو . هرول . التزم درب البارحة . هرول خلفه الفرسان . طعنوا اعداء الخفاء بالسيوف . ازداد رسم الدائرة عمقاً . اطلق الساحر صيحة جنونية وصرع محارباً مارداً . الفرسان التحوموا بالمردة أيضاً . تصايرعوا . اشتد

العراق . غابت الانصاف الفظيعة في الابدان الخفية . سقط الجرحى . ارتفعت السيف الى الاعالي ، قدحت شرراً في الظلمات . قبلت ومض الانوار الغامض . ذاقت طعم الالهام ، فعادت الانصاف مسلحة بعطاية السماء ، بالرؤى ، بالنبوات ، ونزلت إلى اسفل ، اقتحمت استار العتمة . اقتحمت الخفاء ، اصابت الأعدى المتخفين بالخفاء . فسقط قتلى . أصيب بعض ابطال القبيلة بجراح ، ولكن الغزو انتهى بالفوز .
لم يبق من العراق إلا المعلم الأخير .

في الليل ، بعد الغيب ، اقتحم الساحر الحباء . لم ينس الدائرة الدامية قبل الدخول فمشى في المسلح حافيا ، وردد التمائيم حتى أكمل الطوق . وما أن تبدى في ضوء النار بعينيه الحمرتين ، ولثامه المزق الملوث بغبار الطين ، حتى ندت عن ابن الجن صرخة اقلقت المنتجع ، وازعجت كل الكائنات في الصحراء . لم يكتف الجني بالصرارخ الجنوبي ، ولكنه رفس النار بقدميه ، واستلقى بيده إلى الوراء ، وتقبأ أكوااماً من زبد اصفر مشبوه اللون ، وطفق يتلوى . اما الساحر فأخرج من الكم أحدى المديتين ودسّ نصلها في جمر النار . شمرّ عن ساعديه ، خاطب المجهول بعينين مجنونتين :

— إبكِ يا شقيّ ! إبكِ ، فلن تجد من ينجدك من النار يا ابن النار ، لأن قبيلتك أصحابها الغلب ، واهلك نحرروا ، ولم يبق في نجعكم إلا الشكالي يملأ الصحراء بالنواح ! إبكِ لأن أمك الجنية تنتظرك هناك .

نعم . أني أراها جاثية على ركبتيها في مدخل الكهف ، تغفر وجهها وشعرها بالتراب ، لأنها تعرف أن الاوان قد حان ، وعليها أن تستعيد ولديها الأبله ، وتردّ الوليد الذي خطفه أبوك إلى أمّه !

تناول المقبض . أخرج المدينة من النار وقد ارتوت من سرّ النار .
من المقبض المرسوم بالرموز السحرية تدلّى لسان ناري بلون سلطان النار ، سلطان النهار . تقدم من وليد الجن الذي استعر بنواح مستعار من مملكة الخفاء . توقع ساعتها أن تهرع إليه الأمّ ، وتحميه من لسان النار ، ولكنها وقفت في الزاوية ، تنتظر ما سيحل بابن الغراب ، وتلهف متى سيغلب الساحر ، ويعيد لها ابنها الضائع من قبضة الأشرار .

توقف الساحر فوق رأس المخلوق الشقيّ ، حدق في الفراغ .
غاب في الفراغ . في البعد . في المكان الأبعد من المكان . في ظلمات أبعد من الظلمات . في مجهول أبعد من المجهول . وحتى عندما انزل لسان النار على ظهر الوليد الشقيّ لم يعبر الى الوراء ، ولم يعد من المتأهة .

(٧)

عاد الوالد من السفر بعد عودة «دودو» من الأسر بيومين . عاد وجاء معه ذلك المخلوق الذي سبّ القطيعة ، وساعد في أن يبلغ الخصم نهايته . جاء بهمزة غزال تنافس الرؤى في الرشاقة والنعومة والبهاء .

أخرجها من «تسوفرا» ، مقيدة السيقان بحبيل مفتول من شعر الماعز . فكّ لها القيد ، وصنع من الحبل وهقاً في رقبتها . وشدّ طرفه الآخر إلى الركبة . اقترب من الطيف الوديع ، بهرت العينان الكبيرتان . بهره الكحل في عينيها . لا . ليس الكحل هو ما شدّه إلى هاتين العينين . ففيهما ومض الألق . ألق خفي في نداء مجهول . ألق فيه إغواء ينافس إغواء الانواء ، يفوق إغواء الحسناء ، فأخذت العين المدهشة من الغيد كحلاً ، ومن العذارى البراءة ، ومن الليل غموضه ، ومن النجوم الأغواء ، ومن الخلاء حزناً ، ومن رؤوس الجبال الكبراء ، ومن قوس الأفق صرامـة ، ومن الحياة ذكاء ، ومن الرّتم سره . والبدن .. البدن أيضاً نال من كل شيء . البدن بألوانه الثلاثة (البياض الشاحب ، والرملي الأصفر ، والسوداد الفاحم) استعار المرونة من سيف الرملة ، والأنسياب من جسد الحياة ورشاقة القد من صبايا الصحراء ، وعفاف القوم من عذاراها أيضاً . وفي العدو حاكى سهام الصيادين ، ولم يكف عن المحاولة حتى تفوق على الصيادين ، وغلب سهامهم ، ونافس مطايلا الجن ، وطار في الفراغ بلا جناحين . فلم يتمن شيئاً في الصحراء كما تمنى أن يمتلك بهما ، ويمسك غزالاً بين ذراعيه . ولا يستطيع أن ينسى كيف باغت بهما نائماً تحت رقمة في أول عهده بالرعى . رقدت تحت كوز رمل اعتلته الشجرة . انحنى فوقها الشجرة ، وداعبتها بخصلات شعرها السبط حتى كادت تخفيها عن البصر في تحالفها الخفي مع عتمة

(٤) تسوفرا : جراب من الجلد .

الفجر . انحنى فوقها يومها أيضاً . حدق في الخطوط الغامضة التي رسمتها الالوان الثلاثة فوق بدنها حول عينيها المغمضتين . كانت انفاسها تتلاحم . جسدها الوديع يعلو ويهبط بإيقاع متواصل . كأنها تلهث . كان حراب الصيادين تتلاحمها في الاحلام . الصيادون النهمون يطاردون القطيع . القطيع يتراکض . يسابق الحراب ، يغلب السهام . يتفوق على مطاييا الجن ، على الريح ، يطير . يقفز في الفراغ . يتطاول في الأعلى ، في الحرم ، ولكن الوليد لا يحتمل الايقاع . سيقان الوليد أكثر رخاؤة من أن يحتمل مطاردة تطول أكثر مما يسمح الناموس . ناموس السماء الذي جبل الخلق ، وناموس الارض الذي سن شرائع الولادة . قامة الأم تتحول الى برق . القطيع كله حزمة من البروق . لا تلامس التراب إلا كي تلتسم في الفراغ . ولا تلتسم حتى تتفرق وتتنافر من جديد . وهو ، الوليد ، لم يعد يقوى . والصيادون لا يتعبون ، يستعينون بظهور الدواب ، ولا يتعبون ، لأنهم تركوا وراءهم اولاداً ، الاولاد ينتظرون الطرائد . ينتظرون البهم الصغار ليقبلوا في عيونها الكحل ، ويعانقوها طلباً لسر البهاء ، وبحثاً عن كنز الألق . يأتي الكبار ليضعوا في جيدها لسان المدية . يتدفق النحر ، ويسيل الكحل من العينين مع الدموع .

اقرب بشفتيه من اذن الطيف المنكك ، وهمس له : «لا تخف . انت في أمان من الصيادين» ، أراد أن ينقذ الطيف من الاحلام . من

كابوس الرؤيا . من قبضة الصيادين ، فرأى أن يربت على رقبته ليوقظه ، ولكن الطيف فز قبل أن تلامس الكف الشعر الرملي الناعم ، وذاب في الأفق في طرفة عين .

وكما ذابت تلك البهمة في ذلك اليوم ، جاءت الأم اليوم أيضاً وخطفت الطيف الجديد من بين يديه . ازاحته بحركة خشنة ، فرأى الكحل يسيل مع الدموع في عيني الطيف اليوم . فاضت من عينيه الدموع أيضاً . مسحهما وكم في زاوية الخبراء . راقب الأم وهي تحمل وثاق الطيف ، وتأخذه بين يديها . لم تداعبه . لم تربت على بدنها المرن ، لم تكحل عينيها من كحل عينيه . ولكنها ذهبت به إلى الزاوية الأخرى من الخبراء . وانزلته في حجر «دودو» . قالت أنها تهبه الغزال مكافأة . لأن حبه لأمه جعله يفر من قبضة الجن ويعود إلى الأم .

جف دمع العين ، ولكن دمعاً أقسى فاض في صدره . لم يتعلمه الاحساس الأول بأنه وحيد (لأن ذلك الاحساس لم يفارقه منذ ذلك اليوم) ، ولكنه كرهها . كره الأم ، وكره الأخ ، وكره الأب . كرههم جميعاً حتى استولى عليه الغثيان .

التفت وراءه وبدأ يتقيأ بصوت عالٍ .

(٨)

آه ، لو قدر لهما أن يعرفاكم أحبهما !

آه ، لو استطاع أن يمتلك لسان الشاعرات لقال لهما ما ادهشهما
وجعلهما يوفقان الشجار إكراماً له ، ويحب بعضهما بعضاً تصديقاً
لرؤيا رأها لهما ، وإكثاراً لفيض نبيل تنبأ لهما بمصير منزه عن رذيلة
الخ GAM.

آه ، لو قام من فراشه الموحش ووجد أن في فمه تتحرك عضلة
بمرونة تلك العضلات التي تتحرك في افواه العقلاء ، لخدثهما بلغة هؤلاء
الحكماء عن سرّ يعاني في كل ساعة كي يكشف لهما عنه ، ولكن
العضلة لا تنطلق ، واللسان لا يطيع . فسار السر إلى أبعد . توغل الكنز
إلى الأسفل ، لأن السحرة يقولون أن الكنز يزداد سيراً في الخفاء كلما
طال مكوئه في الأرض ، وهو عجز عن الحيلة التي يكشف بها عن
كنزه لهما ، فابتعدا في اتجاه ، وابتعد هو في الاتجاه الآخر . سافرا إلى
صحراء أخرى وسافر هو إلى صحراء مضادة . افترقا في مسافة قاسية
قبل أن يأتي «آبيل - بيل» بالدمية التي تحولت ، فيما بعد ، سعلاة بشعة
زادتهما عماء على عماء ، وخطفتهمَا إلى حيث لم يعد يراهما ، رمتهمَا
إلى مملكة من ممالك الجن فاحتذبوا ، ووقعوا خارج مجال الرؤية . ولم
يعرفا أيضاً أن توقه لأن يكشف لهما عن كنزه لم يبرد ، وشوقه في أن
يبيح لهما بسره لم يفتر . بل حدث العكس . المسافة ضاعفت الشوق ،
وأشعلت التوق ، فصار لا أمل له إلا أن تطيعه العضلة ، ويستقيم في فمه
اللسان لينبئ الخفاء بسلطان القول ، ويخرج لهما بكنز يفسد مكيدة

من كاد لهما ، وسلطهما على بعضها بقدرة السحر . كنـزه وحـده يستطـيع أن يـبطل السـحر ، ويعـيد لهـما الطـير المـفقود الـذـي فـرـ ما أـقـرـنا ، وعـرفـا بـعـضـهـما ، فـصـارـ لـهـما الـخـاصـام لـغـةـ مـنـذـ عـرـفـهـما . ولـمـ يـدـرـ كـا ، كـما لـمـ يـدـرـ كـهـ هو أـيـضاـ وـقـتها ، أـنـ الـخـاصـام يـنـجـبـ خـصـاماـ ، وـبـذـرـةـ الـكـراـهـيـةـ إـذـا زـرـعـتـ فـي زـاوـيـةـ خـبـاءـ ، فـلـا بـدـ أـنـ تـزـدـهـرـ كـلـ زـوـاـيـاـ الـخـبـاءـ بـالـكـراـهـيـةـ .

ولـكـنـ لا سـبـيلـ لـافـهـامـ الـآـبـاءـ بـمـاـ يـتـخـبـأـ فـيـ صـدـورـ الـابـنـاءـ . لـا سـبـيلـ لـتـبـيـهـ الـكـبـارـ لـسـرـ ذـلـكـ السـرـ ، ذـلـكـ النـداءـ الـذـيـ يـجـوسـ فـيـ قـلـوبـ الصـغارـ . ولـوـ تـحـاـمـلـواـ قـلـيلـاـ ، وـفـتـشـواـ قـلـيلـاـ ، وـاخـتـلـواـ إـلـىـ عـصـفـورـهـمـ لـإـلـىـ رـؤـوسـهـمـ الـمـكـابـرـةـ ، الـفـارـغـةـ ، لـاتـقـطـعواـ النـداءـ الـفـاجـعـ قـبـلـ أـنـ تـقـعـ الـفـجـيـعـةـ ، وـتـلـقـواـ الـوـصـيـةـ قـبـلـ أـنـ يـفـرـ الطـائـرـ وـيـضـيـعـ إـلـىـ الـأـبـدـ .

ولـكـنـ الـمـكـيـدـةـ نـجـحـتـ ، وـالـسـحـرـ تـمـكـنـ ، وـالـكـراـهـيـةـ اـيـنـعـتـ ، وـالـطـائـرـ فـرـ وـضـاعـ ، فـضـاعـاـ هـمـاـ فـيـ خـلـاءـ ، وـوـجـدـ نـفـسـهـ هـوـ فـيـ خـلـاءـ آـخـرـ .

(٩)

يـقالـ فـيـ الـقـبـيـلـةـ أـنـ سـبـبـ الـخـسـارـةـ هـوـ نـزـوـعـهـ إـلـىـ الـاعـزـالـ . ولـوـ رـأـتـ فـيـ هـذـاـ الجـبـنـ مـنـ أـوـلـ يـوـمـ لـاـرـتـضـتـ أـنـ تـدـخـلـ عـلـيـهـ الـخـبـاءـ . ولـكـنـ النـبـلـ هـوـ مـاـ أـغـوـاهـاـ فـيـهـ ، كـمـاـ أـغـوـاهـاـ فـيـهـ الـحـسـنـ سـوـاءـ بـسـوـاءـ . لـاـ . لـيـسـ الـنـبـلـ وـحـدهـ مـاـ غـرـهـاـ ، لـأـنـ الـمـرـأـةـ لـاـ تـخـتـرـ مـخـلـوقـاـ كـمـاـ تـخـتـرـ الرـجـلـ

النَّبِيلُ ، وَلَكِنْهَا عَشَقَتْ فِيهِ صَيْتًا ذَاعَ عَقْبَ بَطْوَلَاتِهِ فِي حَمْلَاتِ الْقَبِيلَةِ عَلَى قَبَائِلِ الْأَدْغَالِ . لَأَنَّ مَا يَفْسِدُهُ النَّبِيلُ ، فِي رَأْيِ الْمَرْأَةِ ، يَصْلِحُهُ الصَّيْتُ . وَلَمْ تَفْهُمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَعْشَقُ الْعَزْلَةَ ، وَحْنَ لِلنِّقْطَاعِ ، هَانَ عَلَيْهِ الْبَطْوَلَةُ ، وَتَخْلَى عَنِ اسْتِعْمَالِ السَّيْفِ ، وَزَهَدَ فِي الْإِلَهِ الَّذِي لَمْ تَعْبُدِ الْمَرْأَةُ سَوَاهُ : الصَّيْتُ !

نَشَبَ الْخَلَافُ . وَعَلَا فِي الْبَيْتِ صَوْتُ الشَّجَارِ . أَرَادَ أَنْ يَعْتَزِلَ بِهَا فِي أَبْعَدِ بَقْعَةِ عَنِ الْخَلْقِ ، وَأَقْرَبَ نَقْطَةً إِلَى «وَاو» ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَلْتَحِقَ بِرَكْبِ الْقَبِيلَةِ ، لَأَنَّهَا لَا تَنْوِي أَنْ تَخْلَى عَنِ الْمَخَالَطَةِ ، وَلَا تَتَنَازِلَ عَنِ مَعَاشِرِهِ صَدِيقَاتٍ تَمْتَعَتْ مَعَهُنَّ بِالْمَشْوَارِ مِنْذَ فَتَحَتْ عَيْنِيهَا عَلَى الصَّحْرَاءِ ، وَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ حَقِّ الْقَرِينِ أَنْ يَجْعَلُهَا تَقْتَنِعَ بِالْتَّوقُفِ عَنِ الْحَيَاةِ فِي بَدَائِيْةِ الْحَيَاةِ بَلْ مُجَرَّدَ أَنْ مَرْضُ الْبَحْثِ عَنْ «وَاو» قَدْ أَلَمَّ . أَجَلُ . لَقَدْ رَأَتْ كَمَا رَأَتْ لَهَا الْقَرِينَاتِ وَالصَّدِيقَاتِ ، أَنَّ عَلَى الرَّجُلِ إِذَا ادْرَكَهُ الْحَنِينُ ، وَاشْتَاقَ إِلَى الْخَلْوَةِ ، أَنْ يَتَحَلَّ بِالشَّجَاعَةِ ، وَيَسْلُكْ طَرِيقَهُ لَوْحَدهِ ، لَأَنَّ نَامُوسَ الْطَّلْبِ يَقُولُ أَنَّ «وَاو» هِيَ الْمَكَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْخَلْوَقُ وَحْيَدًا . فَهِيَ لَا تَعْرِفُ بِرَفِيقٍ سَوَاهُ أَكَانَ أَبَاً أَوْ أَمَاً أَوْ أَخَاً أَوْ قَرِينَةً . فَلَيْتَرَكُهَا ، إِذْنَ ، وَلِيَنْطَلِقْ ، فَهِيَ لَا تَرِيدُ أَنْ تَرَاقِفَهُ حَتَّى إِلَى «وَاو» .

وَلَكِنَّ الْفَاجِعَةَ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَاذَا يَرِيدُ بِرَغْمِ عَلَّةِ الْحَنِينِ . وَالدِّنْيَا

تعرف أن الرجل إذا عرف ماذا يريد فلن يوجد مخلوق يمكن أن يفوقه في العناد . وإذا اصطدم عناد رجل يهدده في قلبه اعتزلاً ، بعناد إمرأة لم تر في القرآن إلا طقوسه الجليلة ، وظلت أن العرس قرين للقرآن ، فلا بد أن ينشب الخلاف ، ولا بد أن يعلو في البيت صوت الشّجار . وإذا علا صوت الشّجار ، وبلغ آذان أهل الحقد والحسد والكرابية ، فلا بد أن تتحرك الابدان ، وتركتض الألسن ، وتهreu جموع السوء إلى الحباء . تتظاهر بإطفاء الحرائق ، في حين تجاهد ، في الخفاء ، بمدّه بالخطب ، لتفادي نار الكرايبة .

والأب أول من خسر الرهان عندما ظنَّ أنه يستطيع أن يجمع بين «واو» وإمرأة ، فخسرهما معاً . فقد الطريق إليهما معاً . ضيعبهما بضربة واحدة . وعاد من اللعبة بالشّجار وحده . في المرحلة الأولى لم يسلم بالهزيمة . فواصل الحلم وتعلق بالسكون ، وببحث عن العزاء في الخلاء . يسافر إلى بعد صحراء متظاهراً بمطاردة إبله الشاردية . ولا يعود إلا بعد أن يتغسل بسلسيل الحياة . نعم . بالحياة . بذلك المبدأ النبيل الذي يتلبّس المعزلة وحدهم . يشعّل في وجوههم وهجاً ووقاراً وبهجة ، يلقي على مسلكهم روح الطفولة ، ويجعلهم من الخلق في خوف ، فلا يطيقون البقاء في النجوع ليلة واحدة . ولا يسكنون حتى إلى أكثر القرى نيات سكينة . هذا الحياة جعله في عراك مع نفسه قبل أن يعارض مخلوقه وعدته بالطائر الغامض عندما رضيت به قريناً ، ففوجيء بأن الطائر طار

قبل أن يتلذذ بطعمن القرآن ، ولم يبق له إلا أن يتحمل العجز ويخفي الدمع المتحفز كلما عاد من رحلة الاعتزال في الخلاء .

(10)

إذا تسمم بدن الزمان بالكراهية تخامل ، وثاقل ، وتقاعد ، وأبى
أن يتزحزح .

حجل الغيم بامطار وفيرة ، وجرت الوديان بسيول سخية ، وحبك الريح على سيف الرمل أكثر الغضون غموضاً ، ولكن أيامه لم تهرج ، وزمنه لم يعرف الشيخوخة ، والميلاد استرخي وتکاسل وتشبث بحرم التكوين ، ولم تلتقط الرقعة البيضاء من الدبّيب الخفي إلا ثغاء الجديان ، ونهم «دودو» ، وغياب الأب ، ووحشة لم يقدر أن يقهرها أولئك الغرباء الذين تابعوا على الخبراء ، وقالت الأم أنهم أقارب شستهم حياة الصحراء . في المراتع يترك الجديان تتطاول في قامات «أشك مقرن» ، ويستلقي على قفاه . يعيده على نفسه السؤال الذي ولد مع ميلاد أهل الصحراء ، وصار لهم هاجساً يلاحقهم من صرخة الميلاد إلى ساعة الممات : «نكا نيض واغ مينفلد»* . «دودو» جاء محمولاً على جناحي «آبيل - بيل» من ارض الادغال ، وقرنه «همماً» دخل بيت ابويه مشيناً على قرني ودان . وهو ؟ هل اتت به قوافل الاغراب كما تدعى الساحرة العميماء التي قالت أن الابن لن يدخل للأبوين بيته ما لم

*) من أين جئنا؟

يأت به الاغراب ؟ فمن هم الاغراب ؟ وإلى أي ملة يتسمون ؟ ومن أين يأتون ؟ وإلى أين يذهبون ؟ ولماذا لا يتوقفون عن السفر ؟ وما منفعة أن يحملوا على أكتافهم الصغار ليوزعوها على البيوت ؟ . يستغرقه الفراغ . يسلبه صفاء الفضاء . يغيب في مسافة لا تحد بمقاييس المسافة . يتبه في المتأهة . تنكسر صramaة المتأهة . تتحني في قوس اشد صramaة ، يتبدى في الاسفل قوس آخر . يتقدم القوس من القوس ، ينجذب شطر الحلقة الى الشطر الثاني . ينشد النصف الى النصف . يتقاربان ، يتلامسان . يلتحمان . يصيران كلاً واحداً . يلتمسان في دائرة . يرى نفسه حبة تراب في قلب الدائرة . وكلما اقتربت القبة العليا لتلتصق بالقبة السفلی ازداد إحساسه بالضآل . ولا يتوقف التضاؤل عند حدود حبة التراب . إنه يزداد ويتضاعف حتى يفقد الاحساس ، ويحل فيه يقين غامض بأنه هو القبة العليا ، وهو القبة السفلی ، هو القبة إذا اجتمعت بالقبة . هو .. الدائرة . من هناك التقاطه الاغراب . من الالتحام الحميم خرج ليتولأه الرسول العابر . الرسول يسير على هدي القدماء ، يطوف ، يعبر ، يدخل به البيوت . لا يدخل أي بيت ولا يعطي مولوداً لأية امرأة ، ولكنه يتمهل ، ويحوم ، وينتفي . يحوم حول الأخيبة ليلاً كأنه مبعوث من أهل الخفاء . يتلخص في ضوء القمر ، ويحترس كثيراً حتى لا يخطيء الغار فيضع الكنز في كف الجنية . يمضي في التشبه بالاسلاف الحكماء . ينتفي . ينتفي رب البيت التي سيسلمها كنزاً . ينتفي الحسناء التي ستلتقي

السر في الخلوة . يترى ث حتى تتحرر من العسس . يتضرر حتى تفرغ من القرین ، يخرج القرین . يغيب خلف الرایة . هناك يتولى أمره السراب . يخلو السبيل . يخرج من وراء الأکمة . يقبل على الخبراء بمظهر العابرين الحالدين . ينطاهر بالتعب ، وربما بالزهد ، تستعر عيناه بوميض الواوين . ولكنه لا يكشف للریبة عن كنزه الخفی ، ولا يقرأ على رأسها النبوة إلا في آخر اللیل .

(١١)

في المدخل يغرس سيفاً أو رمحاً أو مدية . يرتفع لسان النار . يتمايل كبدن الحياة . يتطلع إلى السلاح في فضول النساء . يميل صوب المدخل . يمد لساناً عنيداً ، نهماً ، يريد أن يلعق النصل ، أن يداعب حدة السلاح . كي يستدرجه للقول ، كي يفوز منه بسر الزائر . ولكن السلاح لا يعبأ . يتتصب في كبرباء المهاجرين . يتشبه بـ «إيسكني»* ، يقف علامة في باب الحرم ، يحاكي الحياة ، فيقف عساساً على الكنز .

في الأرة يشتد بالنار التوق إلى السر . تبرطم في العيدان ، تتلون ، يحتقن فيها اللسان باللون الأزرق ، تنفس عن الغيفظ بحشرجة الجنبيات الغاضبات . تفتشي الغل في الاطراف اليابسة ، تفتثك باليابس ، وتدمي الأخضر ، تنتحب الأعضاء الحية . تمهل الأعضاء الحية ، ولكنها تدميها

* إيسكني : نصب حجري يومي إلى الطريق ، أو يدل على موقع الآبار .

وتجعلها تنزف دماً ، تلسعها باللسان بخفة الوميض ، ثم تتحجم وتتراجع كأنها حية . يترتفع نحيب الكائن الحي وينزف في عروقه مزيداً من دم . يستغيث . يتشكى . يجاهد كي يفهم الجلاد بأنه لا يستطيع أن يخبره بالأمر لا لأنه لا يدرى شيئاً عن السر ، ولكن لأن الناموس شاء شيئاً آخر إذ خلق له لساناً آخر يختلف عن لسان الجناد . يتمادي الجناد . يزداد جنوناً ، شراسة ، نهماً ، يتحول حية لثيمة تنفس الفحيح مع لسانها الأزرق . يسلط على البدن البائس سماً مبثوثاً في طرف اللسان الأزرق . فيند عن الضحية نداء عالٍ . يسمع النداء من مخبائه في زاوية الخباء . ويتخيل الدم الرمادي المزوج الذي يلفظه العود الندي مع زفراة النداء . يستشرس لسان السم الأزرق ، فيتدقن التزييف ، ويعلو النداء ، يتداخل مع صوت الزائر الوقور المتربيع قدام النار . يتطلع صوت الغريب . وينطق بلسان الساحرة : «في الصحراء لا يعرف الوليد أباه إلا ميتاً» . تستفهم النار عن النبوءة . لا تدرك النار الاشارة . تخترق النار بنار الفضول . تتजسس على الجليسين . تتخبط . تمد لساناً إلى أعلى ، ولساناً إلى العراء ، ولساناً صوب الخباء ، ولساناً صوب الأم ، ولساناً صوب الشبح الوقور . ولكن الشبح يطعمها حطباً بدل السر . فيتمادي فيها الفضول واليأس والجنون . يتلفظ أحد الجليسين بالصوت . يهيم الصوت طويلاً . يتداخل مع نداء الزوال في صوت العضو الحي ، يمتزج بشهوة النار ، يحوم حول نبوءة الساحرة . ثم يولد في العبارة ، في

الإيماءة . في الرسالة . يحل الصمت . المجلس يتصنّت . العراء يتصنّت . النار فرغت من العضو العنيد ورأى أن تصنّت . العضو الحيّ تصنّت أيضاً لأنّه باد وزال ولم يعد يستطيع إلا أن يتصنّت . هو أيضاً تصنّت . رأى وجه الساحرة الممزق بالتجاعيد ، وسمعها تعيد النبوءة : «في الصحراء لن يعرف الوليد أباه إلا إذا مات» . ولكن الجواب يتحقق صوت الساحرة . يتمطّى الجواب ، يتثنّب ، يتخالّ ، يعبر المسافة إلى المجلس أخيراً . في الأسفل تبدأ النار في الاحتضار ، فتغفل عن اللقاء . لا تلحظ سفر الجسد نحو الجسد . لا تلحظ اقتراب المسافر الظاميّ من فوهة البئر . ولا تستيقظ من غفلتها إلا عندما تستفزّها اللهفة في الانفاس . انفاس نهمة كفحىح الحياة ، مندفعه كغزوة القبلي . معاندة كالماء . حارّة كلسان النار . ولو لا النهم والاندفاع والمعاندة والحرارة لما استطاعت أن توقف لسان النار من ركام الرماد .

تمادت الانفاس .

قاوم اللسان . لم يجد عود الحطب . تثبّت بقطع الجمر . لعقت فيها السّواد . استحال السواد أيضاً إلى وهج . تمسّك بالوهج . التحّمّت النار بالنار ، تغدّت النار بالنار . ولكن الخصم انكسر ، وتبدّى السرّ مثل الالهام عندما تصاعدت الانفاس ، والّثم الفريقيان في قران محموم . اختنقت النار ، ولفظت انفاسها الأخيرة .

يُكْنِي - كَنْتِي . يَكْنِي - كَنْتِي . يَكْنِي - كَنْتِي *.

في الأيام الأولى قصد المقابر السفلية ، فوجد أن يد طلاب الكثوز قد سبقته وامتدّت إليهم . بناء المدافن من الأسافل بقى مرصوصاً بحجارة مختلفة الأحجام . الحجارة الكبيرة تلاصق الأحجار الكبيرة . والحجارة الأصغر حجماً تجاور الأحجار الأصغر حجماً . حجارة أخرى أصغر حجماً ، تماثل حبات الحصى في الضآلة ، تستقر في الثغرات بعناية مدبرة من يد خبيرة بالبيان . نفس اليد لم تكتف باختيار أحجام الحجارة ، ولكنها اختارت للحجارة ألوانها أيضاً . رتبت الألوان ترتيباً يختلف من قبر إلى آخر . في المجموعة السفلية ابتدأت اليد البيان بحجارة بلون العتمة ، وساقت الصنوف الرمادية السفلية لتلتقي حول عنق المدفن كله . في حين اقامت الدرجة الثانية بألوان حجرية نحاسية اللون ، كأنها استعانت لونها من الجسد . من الرفات الذي ينام في جوف الدائرة . أما الطابق الثالث فتتعدد فيه الألوان ، كما تتعدد فيه أنواع الحجارة ، وأحجامها أيضاً . وهكذا يمضي البيان . يتحلق حول نفسه . ولكنه لا ينكمي على نفسه إلا بعد أن يطوف الصحراء . ينفتح على الدائرة الكبرى . يعبر البرازخ . يجتاز الحدود . ويعود إلى نفسه ، يكتمل في الحرم ، ينكمي في دائرة مهيبة ، ويكتفي بنفسه مرة أخيرة

(٤) تَسْكُنْ . تَسْكُنْ . تَسْكُنْ .

والى الابد .

حول المدافن تتناثر الاسلحة الحجرية ، ولوازم البيوت : سكاكين .
ألواح طحن الحبوب ، فوس . اسنان حجرية لرماح . حبات مثقوبة زينت صدور الحسان قبل أن يرقدن ويندثرن في التراب . تمائم حجرية زبرت عليها «تفتست» آلهة وغيلانا .

بعض اللوازم وجد مكاناً في البنيان ، فتشبّث بموقع بين الحجارة ، ليشهد زوال إله ، ويرى كيف تنهش الديدان لحمه ، وتفقاً عينيه ، وتلعلق دمه ، فتدھش كيف استطاع هذا المخلوق البائس أن يتغوق يوماً على الجبال ، ويستقطع منها حجارة ، من الحجارة يتندع لنفسه لوازם وأدوات فطيعه . تدھش كيف طوع الحجر ، ونصب نفسه إلهاً على الأرض ، ثم يعجز عن تدبير حيلة صغيرة تنجهيه من بطش الديدان ! ولكن أغلب اللوازم اطاح بها اللصوص ، وطرحت أرضاً . نهبوها بعضها ، وتركوا البعض الآخر . أما أعلى المدافن فطالها التخرّب حتى أن بعض المقابر صار مجرد أكوم من الحجارة . أخذ طلاب الكنوز والمغامرون قلل التبر ومصوّغات المعدن الأصفر ، وتركوا الهياكل المقدسة مطروحة في القيعان . تحت معاول الحفر تهشمّت الجماجم ، وتفتت الأعضاء العظيمة ، وعبث اللصوص بأطراف صانها التراب ، ونالت إجلال الأرض . عند حضيض «إدبيان» تبعثرت شظايا الهياكل ، وبقايا عظمية مفتة ، اخرجها المغامرون مع ما استخرجوه من الثروات ،

وترکوها في العراء لتجلد بسياط الإله الجلاد حتى وهي عظاماً رميمه .
ولكنه لم يجرّب أن يعرف أباها في بقايا الهياكل وشظايا العظام .
بحث عن الاطراف السوية ، عن القطع الملساء التي نوّهت بها الوصبة .
عن العصعص ، أو الساق ، أو الججمة ، أو أي طرف لم تستطعه
الارض ، واستطاع أن ينجو من شرامة ذرات التراب . في المدافن
السفلى عشر على الكنز الذي لم يجد له مثيلاً في كل المقابر الأخرى .
هناك ، في سفح المرتفع المطل على قاع الوادي ، قام النصب البيل
المشيد بحجارة الصوان . كان مبنياً بقطع ملساء ذات حجم متفاوت ،
ذات لون واحد ، معتم ، ولكن سلالة الحجارة من طينة جبلية أخرى لا
تنتمي إلى الانواع المستجلبة من جبال الحمادة . الساحرة اخبرته فيما
بعد بأن القطع الرمادية الملساء جاءت من الجبال الزرق . وعندما استفهم
كيف استطاع الاسلاف أن يحملوا هذه الربوة ، وينقلوها من السلسلة
الزرقاء النائية إلى قلب الحمادة ، حملقت في الفراغ بعينين يستولى
عليهما البياض ، وقالت باستنكار : «الجن . الجن . ماذا يفعل جبابرة الجن
في الصحراء إذا لم يهروا العون اقرانهم ، ويحملوا لهم أي جبل شاءوا
إلى أي مكان شاءوا ؟ أم أنك تشکك في قدرة الجن على زححة
الجبال يا شقي ؟». لم يعجبها على السؤال . بل تجاسر وردَّ على السؤال
بسؤال : « ولماذا يأتون بالحجارة من الجبل الازرق ؟ ألا تكفي حجارة
الحمادة لبناء مقابر تكفي لدفن كل أهل الصحراء ؟». ناحت الجنية

تمايلت الساحرة القديمة . تلأّلت عينها بوميض برغم العماء . قالت : «إيه - يه - يه - يه .. ماذا تعرفون انتم عن الحجارة؟ ماذا ترون في الحجر غير سلاح تقتلون به ، أو رحى ترحون بها ، أو ماعوناً تأكلون فيه ، أو قطعة تمسحون بها مؤخراتكم؟ ولكن اعلموا أن ما جهلتمنوه ، يا بلهاء ، عن الحجارة لم يفت آباءكم . ما لم تدركوه في الحجارة ادركه اسلافكم . والنار التي وجدوها في حجارة الجبل الازرق هي سر واحد من الف سر يتخبأ في الصلد ». هتف ببرة لا تليق بحرم الساحرة : «النار؟» لم تتبه . راقت القوافل العائدة بالمتاع من الرحلة البعيدة . راقت جبابة الجن وهم يتقدمون القافلة ويسيرون خلفها أيضا . رأتهم بالعينين الفارغتين . لأن العين العميماء اصييت بالعماء بسبب طلب النبوءة، وطول التحديق في المالك التي لا يلغها البصر . قالت : «حجارة النار وقف على الزعماء وكبار الكهان . الزعماء وكبار السحرة لا يرقدون إلا تحت حجارة تخبيء في جوفها النار». ارتجف ، استولى عليه فيض كشجن الاشعار ، فارتजف . رأى القوافل أيضاً تعبر العراء ، عائدة من غزوة الجبل البعيد ، يقودها جبابة الجن الخياتون تحت أكواخ الحجارة السوداء ليقيموا بها نصباً للزعيم ، للساحر ، للكبير الكهان . هتف مرة أخرى : «وهل كان أبي زعيم؟ أم أنه ساحر كبير؟». عادت الساحرة من رحلتها . التفتت . امسكت بعصمه . نطقت بأمر قاطع : «تكلم ! هل تقبل العظم دمك ؟ هل شرب العظم

الراقد في بيت الحجر الازرق من دمك؟ هل تظنن ، يا شقي ، أنك تقدر
أن تخذعني لأنني عمياء؟». حاول أن يفتش عن برهان ، ولكنها لم
تمهله ، ألقى بأمرها الصارم : «اعطني الدليل . هات العظم ». فتحت
راحة يدها الأخرى دون أن تتخلى عن معصمه . بل ازدادت قبضتها
توترأً وصلابة حول المعصم المزق بالخدوش والجراح . تسلل باليد
الطليفة إلى رقبته . تحسّس صدره ، التقط رأس الخيط . تعلق بطرفه . سار
وراءه إلى الأسفل . بلغ السرة ، هناك اختبات صرّة ملفوفة في خرق
الكتان . تناول طرف الصرّة في قبضته . ازدادت الرجفة توترأً . جرّ
التميمة إلى أعلى . جرّها باحتراس ظمآن ذهب بعقله الظماً ، فوجد
نفسه معلقاً على فوهة بئر ، يقبض على حبل يتذلّى منه دلو ، في الدلو
يرق ماء حقيقي . فكيف لا ترتعش اليد التي تمسك بهذه الثروة ،
وستخرج من الأسفل كنزًا بهذا الجلال؟ . حاول أن يفك اللفافة بيد
واحدة ، ولكن الرجفة غلت . رأته الساحرة بعين النبوءة فحررت
معصمه من الأسر . استعان باليد الأخرى . ازال لحافاً اجتمع في
خصائص القماط بخصال الكفن ، مزايا الميلاد بعمل الميعاد ، نداء الازل
بوجوم الزوال . ينتصر ناموس الدائرة في لمحه بصر ، فيعيد رسم طريق
الأشياء ، وينقلب في مسيرة شرع الصيرورة . يقبل الابناء في فناء الآباء ،
ويولد الآباء اطفالاً في احضان الابناء . يعود الاسلاف ، الاجداد ،
احفاداً في احضان الاحفاد . وها هي الدائرة تأتى له بالسلف ملفوفاً في

قماط . ها هي الدائرة تعيد رسم الاشياء ، وتبعد خرافه المستحيل ، تحبى العظم الرميم ، وتبعث بين يديه أباً يتقبل جرعة الدم ، ويعلن ، بذلك ، أمام الانس والجَنْ ، أنه سيقف له حارساً وحامياً ومولى . تدور الدائرة مرة أخرى . تحاول أن تخفي الأثر . تعيد الإبن وليداً ، والأب والدأ . تحيل الحي عاجزاً ، وتعطي سلطان الحياة للكائن الذي زال . تبعث الزائل حيَا ، وتوقفه حارساً لحماية من ورث الحياة وتولى من بعده الأمر . تنصب من تخلّ عن كل أمر ولِيَاً ، وتجعله يتولى أمر من رضى بأن يتولى عنه الأمر .

انتهى من إزالة اللحاف ، تبدّت الوصية . لمعت قطعة الكنز في حجره . عادت بعد أن دخلت سُمّ الإبرة ، وعبرت بربخ التّراب . ظلّت ناصعة برغم التّراب . ظلّت صقيقة برغم التّراب . ظلت مكابرة برغم التّراب . وبرغم التّراب أيضاً ظلّت على قيد الحياة . ولو لم تبق على قيد الحياة لما فتحت فمّا ظاماً ، وتجربت قطرة الدم . وجدها في ركن الضريح الأزرق بعد بحث استمر طويلاً . وجدها بعد أن فتش دوائر المقابر السفلی كلهاً وكاد ييأس . أحس بالخواء ، وأيقن كم هو شقيّ . أحس بحرارة ، وعرف أن ذلك لا بد أن يكون مصير كل إنسان وحيد . فقد العلامة الداللة على السبيل ، فأدرك سرّ التيه . استعاد لوعة المهاجرين الواوين وهم يتفحّجون : «نَكَّا نِيْض وَاغْ ما نَامُوس» * . ولم يبق له ، بعد أن رفض كل الاولين دمه ، إلا أن يتفحّج على طريقة

(*) من نحن ؟

الواوين ، دون أن يطمع في بلقة تفتح له أبواب الأرض المفقودة . ولكن اليأس يتعدد بقبس الإلهام دائمًا . فـ «وانتهيطة» الذي صبّ في جوفه هذا السمّ لا يملك إلا أن يمضي بحثاً عن ضحية أخرى ، فيعقبه الوحي . تذكر انه طاف حول الضريح المهيّب مراراً ، وهم بأن يتسلق الجدار كثيراً ، ولكن أمراً كان يحدث في كل مرّة حتى ظن أنه فتشه ، وانتزع منه عظماً بائداً ، سقاه قطرات ما لبث أن رفضها ففاضت وسقطت على الأرض . عندما اقترب من البناء في المرة الأولى افزعته حيّة . توقف عند الجدار ، تحسّس الصوّان الأزرق ، الاملس الصقيل ، قبل أن يتثبت بنتوء ويحاول الصعود . في تلك الظرفة صمّ أذنيه النداء الخيف . فالفحيم هو الصوت الوحيد الذي لا يُعرف مصدره إذا علا ، كما أنه الصوت الوحيد الذي يلفّه بالقشميرة ، ويربكه إلى حدّ يرمي فيه أرضاً كل ما ملكت يداه . سقط يومها أرضاً أيضاً ، ولكنه لم ير الحية ، ولم يجد لها أثراً أيضاً . في المرة الثانية وجد كُناً وديعاً محبوكاً بالريش والقش . في داخله ثلاث بيضات مرقطة بيقع رمادية ، ولكنه لم يعش على الطائر . تابع الحفر في مرقد آخر ، وغفل عن البناء الذي يخفي الكنز . ولا يشك الآن أن تلك الغفلة كانت مكيدة من مكاييد «وانتهيطة» . والعش أيضاً كان فخاً من افخاخه ، أما الحية المجهولة فقد كانت رسولاً من رسليه منذ زمن لا يعلم له أحد بداية . ويومها ، عندما وقع في اليأس ، وظنّ اللثيم أنه قضى عليه عندما تبدأ له بمصير الواوين ،

فانصرف ، وتخلى ، يومها ، فقط ، نزل القبس ، واستعاد الذاكرة . عاد إلى البنيان . استخرج اللقيا . حجر مستطيل ، ناصع ، مصقول ، أملس . يطابق معصميه في العرض ، ويقل عن عظمة الذراع طولاً . قلبه بين يديه . تحرّد من الغبار ، تخلص من كابوس كتم انفاسه اجيالاً . خرج من دهليز الظلمة . تألق بكرياء ، فوجد أنه برهان يتسمى إلى عشيرة الأسلاف ، وليس حجراً يثقل كاهل الأرض . حلّ في جوفه فيض مبهم يعرف كل من التقى كائناً سيصير له معه شأن . الفيض المبهم الذي ينعته السحرة في لغتهم بـ «النبيوعة» . التقط السكين الحجري بيد راجفة . جرّ السكين على راحة اليد . تركت في اللحم وسماً غامضاً . تمدد الوسم . كبر الأثر . تدفق الرمز بالحياة . اتسعت رقعة الفيض . اهتدت إلى المسارب الخفية التي تمرّق الكفّ . سلكت المحاري . لزمت الاحداد كما تفعل السيول ، نزلت إلى الأسفل . انطوت على الرسالة ، ونزلت . هوت . سقطت في الهاوية ، بلغت البرهان . التقم السلف الرسالة بلهفة الرضيع . التقط الحلمة بشوق الظمآن . بدأ يرضع بهم . توقع الخيبة . ظن أن رسول الأجيال سيرفض الرسالة ، ويدفع العطية كما فعلت كل الرّم الآخرى ، ولكن الفيض المبهم لم يخيب له ظناً . النبيوعة الخفية لم تتململ في جوفه إرضاء للصدفة . رأى كيف امتص العظم الدّم كلّه . لم يدع قطرة واحدة تفلت . في البداية سرت الحياة في البدن القديم في خط واحد مستقيم . ولا يعرف كيف ولا متى توقف الخطّ عن الامتداد .

وعاد ينتشر في الجسم في كل اتجاه . ولا يعرف أيضاً كيف استقرَّ كل هذا النشاط في بقعة غامضة ، كبيرة ، مستديرة الاطراف . لم يدر شيئاً لا عن النبوة ، ولا عن الدائرة ، في ذلك الزمان . ولو لم تحدثه الساحرة عن الرموز عندما قرأت الرسالة ، لما ادرك من أمر البقعة شيئاً .

ولكنه إن نسى الدائرة ، فإنه لن ينسى إحساس ذلك اليوم ، حتى أنه لا يستطيع أن يستعيد تلك الذكرى دون أن يختنق ، ويشعر برغبة في البكاء . لقد رأى كائناً مارداً رجلاه تلامسان الأرض ، ورأسه يغيب في السماء . لم يخاطبه . لم يوماً له . لم يعادله كلمة واحدة . ففاض فيه الاطمئنان . الاطمئنان الذي فقده عندما صدَّه من أحبّ ، وزحزحه الكراهة من موقعه الآمن ، ليجد نفسه وحيداً في العراء . الآن لم يعد وحيداً . هذا ما أتى به الشبح . هذا ما يذكره ، ولن ينساه إلى الأبد . تتم بصوت لم يعرفه : «أبي !» . فزَّت من عينه اليمنى دمعة حارة كالنار . رفع يده الملوثة بالدم ليمسحها . مسح الدم ولكن راحة اليدين غسلت الوجه بالدم .

عندما فتح عينيه ، كان مارد البشارة قد اختفى .

(١٣)

لم تخلَّ الساحرة عن معصمه إلا بعد أن نالت الوصية . لاحظ أن يدها ارتجفت أيضاً . احتوت الرسول بين يديها ، وتطلعت إلى الأفق بعينيها الفارغتين . تمنت لنفسها : «أصابع الجباررة . أصابع الأولين . ما

أطول قامات الاولين . كانوا أطول قامة من مردة الجن . ها هو البرهان !». ثم تحسست البقعة . لامست الدائرة باصابع مرتجفة . تحدثت عن الدائرة . قالت كلاماً كثيراً لم يفهمه . تحدثت عن النبوءة أيضاً ، ولم يفهم أيضاً ، لأنه انشغل بقامات الاولين ، القامات التي تلامس الارض ، وتغيب في السماء . وجد نفسه يسأل : «هل يعقل أن يكون هذا إصبع مخلوق ؟» لم تجبه . قالت بصوت مخنوق : «لن تكون وحيداً بعد اليوم يا ولدي الشقي !». رأى في عينيها ومضياً . تبللت العينان الفارغتان بنداءة فأدرك أنها تبكي .

ظنَّ قبل اليوم أن السَّحْرَةَ لا يَكُونُ أبداً .

(١٤)

تنعم بزيارة العملاق مرتين بعد المرة الأولى .

خرج له المرة الثانية في المرعى ، بعد الغروب . انتهى من تجميع القطبي الشقي ، وتأهب للعودة إلى المضارب ، ولكن الأفق احتجب بالقامة الماردة فجأة ، وبدأت تعلو ، وتعلو ، وتعلو ، حتى غابت في السماء . تحركت إلى الأمام ، فتحرّك خلفها . انقاد خلفها ، ابتعدت عن القطبي ، اشرفت على النجع . نسي القطبي ، وشرف على النجع أيضاً . مشت القامة في العتمة دون أن يستطيع اللحاق بها أو الاقتراب منها . كأنها تراعي المسافة ، وتحرجز أن يجتاز الخط الذي يفصلهما . تخطّت أخيبة كثيرة ، وقادته إلى البيت ، طافت حول البيت فطاف

وراءها . وعندما اختفت وجد أن سلطان الظلمة قد استولى على الصحراء . أحس بالخواء . ركض إلى البيت وهو يصبح : «أبي ، أين أنت؟ أبي ، أين أنت؟» . ولم يكف عن النداء حتى عندما دخل الخباء ، وأبصر أبوه قد عاد من السفر . كان يجلس قرب المدخل ، في الزاوية ، بعيداً عن النار ، كأنه راع غريب . في عينيه لاح الخجل النبيل الذي يترأى في عيون الباحثين عن «واو» ، وكل من عشق الوحدة ، فاعتزل طويلاً . وقف بجوار الركبة . تطلع إلى الأب . حدق في عينيه . عاد يهتف : «أبي ، أين أنت؟» . انتهت الأم . لم يسمعها . كركر «دودو» بضحكة . لم يسمعه . تساءلت الأم عن مصير الجديان . لم يجبها ، لأنه لم يسمعها أيضاً . ولم يعلم أن الذئاب فتكت بالقطيع الشقّي إلا في اليوم التالي . قيد الأب يديه ورجليه بحبل متوجّش محبوّك من مسد فظيع . مزق الثوب على جسده ، وانزل عليه سياط الجزاء . فلم يعرف هل استحقّ القصاص لأنّه ترك القطيع للذئاب ، أم لأنّه تشبه بأهل الوجود فتطاول على الحرم ، واعتدى على الأب .

(١٥)

في المرة الثانية زاره اثناء غياب الأب .

فرغ من المدافن السفلية ، فصعد المرتفعات الشمالية ، وتسكّع بين مقابر الواقع العليا . نجا من الاحساس بالضياع ، وعرف الأمان منذ عرف الجد ، ومنذ صنع من الاصبع العملاق تميمة تلتصق بجسمه .

ولكنه لم يتوقف عن البحث . لم يتوقف عن البحث لا لطمع في نيل سلف آخر ، ولكن لإرضاء لشهوة الاكتشاف ، وسعيا في طلب المجهول. ادرك أن الباحثين عن الكنوز لا يطلبون الذهب طلباً للثراء وحده ، ولكنهم يطلبون سراً آخر لا يكمن في الهباء ، ولكنه يتخذا في الطلب نفسه . والدليل على ذلك أنهم يستمرون في البحث حتى لو وجدوا منه اثقالاً ، ولا يتوقفون عن السعي إلا عندما توقف بهم الحياة . نفس الحال يصيب الواوين . فيقال أن كثيرين عثروا على الواحة الضائعة ، ولكنهم خرجوا منها طوعاً ليعاودوا البحث عنها من جديد . بلهاء القبيلة ، الذين يسمون أنفسهم «عقلاء القبيلة» ، قالوا أن هذا المسلك الغريب هو خصلة جنونية من خصال صارت تميّز الواوين عن غيرهم من الخلق . ولكن السحرة والعرافين وحدهم ادرکوا أن الواوين يعتمدون أن يخرجوا من البقعة السماوية لا دفعاً للسكينة ، أو رفضاً للسلم ، أو خوفاً من الفاجعة ، ولكن لأنهم ادرکوا أن السر ليس خارج الطلب ، والوطن المفقود نفسه يقع في مسيرة البحث ، في مكان ما في المسير ، وليس في مكان آخر خارج هذا المجال . وينهي السحرة نبوتهم : « .. الواوين أول من عرف أن الطلب إذا توقف ، توقفت اللعبة ، وإذا توقفت اللعبة توقفت الحياة ». يسخر العقلاء من النبوة ، ويسخر منها أقرانه أيضاً . لا لشرّ في نفوسهم أو حماساً ل موقف الحكماء ، ولكن لأن الوقت لم يأتي ، وقوس الزمان لم ينعط في دورته ليبلغ بهم الحرم

الذى سيجعلهم يفهمون الایماء الغامض الذى يسكن لغة السحرة دائمًا .
هذه اللغة التى سحرته واستهوته ، وايقظت فيه التوق دون أن يجد
للاوغاء تفسيراً . وعندما بدأ بحثه ونبش القبور ، وشارك الاولئ حياتهم
الاولى ، ذاق حلاوة الطلب ، رغم فساوة السبيل ، وعرف سرّ
الواوين .

احسّ انه ينتمي الى عشيرتهم ، لأنهم أقرب الخلق إليه . وصمم
أن يضمّ إلى فريقهم ، ويسلك سبيلهم عندما ينكسر خط الأفق ،
ويستدير قوس الزمان ، فيجيء الاولان ليستقرّ في ارض الميعاد .

والاليوم عندما خرج له العملاق في الارض الجديدة ، ادرك أن
العمالقة القدماء لا يعودون من المجهول ، ولا يتبدّون للاحفاد بلا سبب .
فبأي رسالة خرج المارد من القمم؟ . ولكن المارد لا يتكلّم . لا يومىء ،
لا يتلاعب بالإشارة . شق الفراغ بقامة الجبارية فتواري الأفق الملفوف
في غلالة الغسق . قاده كما فعل المرة الماضية . نزل المرتفع وعبر به
الاخيبة . طاف به حول البيت ثلاث مرات ثم تبدّد . فقد الامان ،
استبدّت به حمىّ . زفر مع الانفاس زبداً ، وغزا المقلتين بياض شامل .
ركض حول الخبراء . غمغم بكلام مبهم . هدد بقبضته اعداء مجهولين .
دخل الخبراء . لم ير الأم المكوّنة عند الركيزة . لم ير «دودو» الذي

تشبّث بها في فزع . وقف في المدخل . صرخ بأعلى صوت : «أين أبي؟ أين أبي؟ أين؟ أين؟ أين» . حدقَت فيه الأم طويلاً . تمنّت : «لِيمْسِكْل . لِيمْسِكْل !» * . سمعها . تقدّم منها خطوتين . انحنى فوق رأسها . أُسقط رذاذ الزبد على وجهها . قال بصوت غريب : «أنت السبب! أنت! ألم تستبدلني؟ ها - ها .. ألم تستبدلني؟ ها .. ألم تستبدلني؟» . انطلق يقهقه بضحكٍ كريه .

في نفس الليلة زاره الساحر . سمع دمدمة الأقدام حول البيت ، فعرف أن الساحر قد بدأ غزوته ، وجاء إلى الخباء بحملة من الفرسان . نهض ، أعد الوقود ، اشعل النار . اطعّمها حطباً سخياً . زحف إلى زاوية الخباء الأخرى . كان البيت مهجوراً . الأم أخذت «دودو» وتركت البيت . ها - ها . توقف عن الضحك . بحث عن المدية . عثر على المدية . تأمل لسانها الشّرّه على ضوء النار ، لمع لسان النار في لسان المدية . ما اشبه لسان المدية بلسان النار ، ما اشبه لسان المدية بلسان .. الحياة! ها - ها .. ما اشبه لسان المدية بلسان .. الإنسان! ها - ها . الألسن كلها متشابهة . الألسن كلها مسمومة . نعم . السّم فيها هو ما يغري . هو ما يغوي . لسان الحياة . لسان المدية . لسان النار . لسان الإنسان! ها - ها - ها ..

عندما جاء الساحر ، وانزل لسان المدية المتوجّج على ظهره

(*) استبدل . أستبدل . أستبدل .

ليحرق الجن، غزت انفه رائحة الاحتراق ، ولكنه لم يحس الوجع أبداً .

(١٥)

«دودو إيجمض . دودو إيجمض . دودو إيجمض » .

غنت له أغنية الخروج . هدهدته بيد عرفت ديسب الدهر ، وجرّبت غدر الزمان ، وتوقعـت الفراق دائمـاً . فـزـت من عينـها دمـعة وهي تعدـلـه زـادـ الخـروـجـ الأولـ إلىـ المـرعـىـ ، إلىـ الصـحـراءـ ، إلىـ الوـطـنـ ، لأنـهاـ تـدرـكـ أنـ الـولـيدـ إـذـاـ خـرـجـ مـنـ الـبـيـتـ ، فـإـنـ هـجـرـتـهـ سـطـوـلـ ، والـوـطـنـ إـذـاـ أـخـذـهـ مـرـةـ ، فـلـنـ يـعـيـدـهـ لـهـ إـلـىـ الـأـبـدـ . فـلـيـسـ فـيـ الصـحـراءـ مـنـ يـعـرـفـ مـسـلـكـ الصـحـراءـ مـثـلـ الـأـمـهـاتـ . بـيـنـهـاـ وـبـيـنـهـنـ ، دائمـاًـ ، نـزـاعـ حـوـلـ الـابـنـ ، يـصـلـ حـدـ الـعـدـاءـ ، فـهـنـ مـنـ يـتـعبـ فـيـ الـحـصـولـ عـلـىـ الـكـنـزـ . يـحـصـلـ عـلـيـهـ مـنـ الـغـرـانـقـ ، أوـ مـنـ الـوـدـانـ الـمـبـجـلـ ، أوـ يـأـخـذـهـ مـنـ الـمـسـافـرـينـ الـأـغـرـابـ ، وـيـخـبـثـهـ فـيـ أـبـعـدـ مـكـانـ خـوـفـاًـ عـلـيـهـ مـنـ غـولـ الصـحـراءـ ، يـخـبـثـهـ فـيـ الـجـوـفـ ، فـيـ الـبـطـونـ ، حتـىـ إـذـاـ اـسـتـوـىـ الـأـمـرـ ، وـحـانـ مـيـعادـ الـخـروـجـ ، انـكـفـأـ عـلـيـهـ ، خـبـأـنـهـ ، صـنـعـنـ لـهـ مـنـ الـاحـضـانـ جـوـفـاًـ ، حتـىـ لـاـ تـقـعـ عـلـيـهـ عـيـنـ الصـحـراءـ فـتـخـطـفـهـ مـنـهـنـ . فـيـ الـحـضـنـ يـغـدقـنـ عـلـيـهـ بـالـخـنـانـ ، وـالـهـدـهـدـةـ ، وـيـصـنـعـنـ لـهـ مـنـ الـحـجـرـ اـرـجـوـحـةـ ، وـيـترـنـمـ بـالـمـوـاـيـلـ الشـجـيـةـ . كلـ ذـلـكـ لـإـبعـادـ شـبـحـ الصـحـراءـ ، وـإـغـرـائـهـ بـالـبـقـاءـ .

ولـكـنـ الـوـطـنـ الـعـارـيـ الـذـيـ اـعـطـىـ الـولـيدـ سـرـاـ يـحـمـلـهـ الطـيرـ ،

• دودو خرج . دودو خرج . دودو خرج . (تماهق) .

ونبوة يوحى بها الودان ، وشوقاً في قلب المسافر ، أقسم أن يأخذ ما أعطى . ولا يفعل في سبيل هذا الفعل إلا أن يصمت وينتظر . لأنه يعرف سر الزمن ، ويدرك أن شرع الدائرة لا بد أن يزحزحه من البيت ، ويذحرجه في العراء ، ويأتي به إليه أخيراً . اليوم يخرج إلى المرعى ليرى ويكتشف ويعرف ، وغداً يعرف إمرأة فيخرج وراءها مرة أخرى ، يهجر بيت الوالدين ليلتتصق بها * . وإذا التصق بإمراته فإن الوطن يتنفس الصعداء . لأن الولد جرى على ناموس أبيه ووقع في الفخ . من هذا الفخ يبدأ سفر العودة إلى الجانب الآخر من الدائرة . «دودو» أيضاً خرج . تزحزح من الموضع الآمن بجوار الركizza ، وحمل كسرة الخبز في الخلابة ، ورافقه أول مرة إلى المرعى . شيعته بنظرة فجيعة ، ومشت وراءه مسافة طويلة وهي تغنى موآل الوداع .

ابتهج «دودو» بالخروج ، وانطلق في العراء بحماس مهاجر واويّ، شيد له السائل اللطوب في الأفق «واوا» من خيوط السراب ، ولم يدر أن الوطن لم يمهله يوماً واحداً ، فنصب له شركاً في يوم الخروج الأول .

(١٦)

في المرعى جاء «دودو» مبكراً . أخرج قطعة الخبز في الساعات الأولى . كان يسير وراءه . يعني بلحون المهد ، يحشو رأسه في

* جاء في سفر التكرين : «يترك الرجل أباه وأمه ليلتتصق بإمرأته ، ويكونان جسداً واحداً» (٢: ٢٤) .

التراب . يتباهى بنعله الجديد المستقطع من جلد الجمل . تستوقفه الألسنة
الرمليّة المفاجئة التي تشرط المسارب الجبلية ، تعرّض بنات الأرض ،
وتحاور سيف الوديان . ترتفع فوق رأسها غلالات من غبار عندما تنفسها
انفاس القبلي ، ينحني فوق ابدانها اللوعبة . يلامس الهباء . يتلذذ بنعومة
الهباء . يربت على التجاعيد الخفية . تستوقفه تجاعيد أخرى . يلاحقه
بالنداء : « تعال ! انظر ! ». يعود الى الوراء . يتقدّم اللقى . يجد الآخر .
البطن المستنّ ، المقزّز ، اللثيم ، مرّ من هنا حديثاً . فقطع على الوليد
الطريق في يوم الخروج . هرع إليه ليأخذنه بعيداً . ليس لك به سبيل التيه .
طبع له الاشارة على بساط الاغواء . ترك له الرسالة على مسحوق
الذهب المزيف .

وعده حارس الكنوز الخالد ، منذ أول خطوة ، بأن يقوده الى
موقع الكنوز . جاء ليغريه بالكنوز . جاء رسولاً من الوطن أم من
«وانتهيطة» ليريه درب المخلوقات التي سبقته . درب المخلوقات التي
انقادت الى الكنوز فقبضت الهباء والريح .

حدّره بسبابته :

ـ إحترس ! إنها الحياة !

ـ الحياة ؟

ـ تدس جسمها في الرمل هكذا (غرس عصاته في التراب حتى
توارت) تخرج رأسها وتنتظر هناك .

- ماذا تنتظر؟

قهقهه بوبو عالياً . عاد يحدّر :

- تنتظر الاشقياء امثالك الذين لا يعرفون أين يضعون أقدامهم .

تنظر لهم لتلدغهم !

- تلدغهم؟

- إذا لدغت الحياة ولداً عاد إلى بطن أمّه .

- .. إلى بطن أمّه؟

- ولن يعود إلى الصحراء أبداً ، فاحتدرس !

سبقه مرّة أخرى . ركض إلى الجناح الأيسر .

انحرفت ثلاثة جداء في وادي يهوي إلى المنحدرات السفلية . أعاد الجداء إلى القطبيع ، فسمع النداء : « تعال ! انظر ! ». هرول إلى الوراء . وجده ينحني فوق كُنْ مشيد بالمحصى . يحتدمي بحجر متتصب إلى أعلى كأنصاب الأولين . في الكُنْ بيستان ملونتان يقع رمادية غامضة . عندما اقترب اكتشف المحار فعرف أن الشقي كسر البيضة . فوق رأسيهما حلق الطائر على ارتفاع منخفض يرفف بجناحيه بقلق ويصوّصو بشكوى موجعة . التفت إليه :

- لماذا كسرت البيضة؟

ابتسم بخبث . في عينيه لمع ألق غامض . قال :

- اردت أن اعرف لماذا هي مستديرة .

- لماذا هي مستديرة ؟

- اردت أن أرى ماذا يتخبأ في الكرة المستديرة .

- وماذا يمكن أن يتخبأ في البيضة يا شقي ؟

اصابه شحوب مفاجيء . امتعت فيه الوجتتان . ازداد الورميض
في العينين شراسة . عرض على شفته السفلية . غمم :

- لا اطيق شيئاً مستديراً . لا أطيق .

هجم على البيضة الثانية . هرسها بين اصابعه . فر منها الحار .
سال بين اصابعه ممزوجاً بشظايا القشرة المبرقعة بالعلامات المعتمة ،
الغامضة .

فوق رأسهما جن الطائر . نزل نزولاً عمودياً حتى ظن بوبو أنه
سيهوي على رأسهما بالمنقار . أخفى رأسه بيديه . عاد وارتفع . ارتفع
نحيبه . ابتعد عن النصب . هرول . لحقه دودو . هدد به بسبابته :

- ابتعد عنّي يا شقي .

- ها - ها ..

- هل جئت لترعى الجديان أم لتخرب الاعشاش ، وتكسر بيض
الطيير يا شقي ؟

- ها - ها - ها ..

- ستثال عقاباً . سوف ترى . الطير سيشكونك إلى الجن !
- الجنّ !
- وسيأخذك الجن إلى مملكتهم مرة أخرى .
- على صدرِي تميمة ستحميَّني من الجن !
- لا تنفع التمائم إذا أغضبت الطير !
- حقاً ؟
- هل جئت لتساعدني في الرعي . أم جئت لارعاك مع الماشية
يا شقي ؟

حدجه بغضب ، وركض خلف القطبيع .

(١٧)

في القيلولة استفزه مرة أخرى .
أكل زاده في الطريق ، وعندما حان الغداء ، بكى وقال انه جائع .
ولم يتوقف عن البكاء إلا عندما استولى على زاده .

كان يرمقه من بين الدموع . يمسك الخبز بكلتا يديه . يحفر
حافتها باسنانه في شراهة المعر : راقبه بفضول . تفحصه بأمعان ،
بدهشة ، ثم بخوف . شجّعه :

- كلّ . كلّ . لماذا يزعجك أن تأكل زاد أخيك إذا كنت قد
أكلت زاده من زمن بعيد ؟ لماذا يضايرك أن تأكل خبزه إذا كنت قد

أكلت عنه الغزال؟ هل تذكر الغزال؟ ها - ها .. كُلْ . كُلْ .

زحف نحوه . من فمه تدلّت خيوط اللعب . في عينيه شهوة لا يدركها إلا من عرف الحرمان طويلاً . حسرج :

- كُلْ . كُلْ . ماذا يعني أن تأكل خبزه إذا كنت قد أكلت أمّه . ثم أكلت أباًه . أكلت الأم والأب قبل أن تستولي على الغزال . هل تذكر الغزال؟ ها - ها .. أنا لن أنسى الغزال !

ازداد البريق في عينيه ومضيأ . ومضت خيوط اللعب أيضاً . بلغت الأرض . امتصها الرمل الظاميء . غاب السواد من الحدقتين . اختفت في حلقة العبارة :

- لم يشبعك الغزال . لم تشبعك الأم . لم يشبعك الأب . والآن جاء دوري . تريد أن تأكل لحمي . نعم . نعم . تريد أن تأكلني . ولكن هل يشبعك لحمي إذا لم يشبعك الغزال؟ هل اشبعك إذا لم يشبعك الغزال؟ ها - ها ..

عض على شفته السفلية . عض بقسوة . فرَّ الدَّم . خبط صغير في حجم رأس المدية . لم يتوقف دودو عن المضغ . لم يتوقف بوبو عن الكلام :

- انت أكلته لأنك لم تر الدموع في عينيه . انت أكلته لأنك لم تر الكحل في رموشه . انت أكلته ، لأنك لم ترقده . انت أكلته ، لأنك

لم تعرف سرّه . انت أكلته ، لأنك تعلم أن أبانا جاء به لي . شدّه إلى الركيزة فجاءت أمك واعطته لك . اعطاوه لك فأكلته . فلماذا أكلته ؟
انجست من عينه اليمنى دمعة . لم تفزّ كما يفز الدّم ، ولكن بلا
أصاب المقلة في البداية ، ثم اتسع مجال النداوة حول المقلة المغمورة
بالبياض . العروق المتورّة ، المشحونة بالدم ، شاركت العين فجيعة
الجفاف ، فمدّتها بتصيب النّدى كأنها تداري عنها لعنة الجدب ،
وتساندها في حملة . لم تسقط الدمعة . ظلت تتعلق بالرموش بعناد
بطولي . تهتز شجرة الرّتم مع انفاس القبلي ، فتومض ، كجوهرة ،
تحت سهام شمس القيلولة .

دسّ يده في الخلاة . أخرج الحجر . نفس الحجر الذي استخدمه
في تزييق يديه لإرواء الأسلاف بالدم . جرّ المدية الحجرية على ساعده .
نزّ الدم . ابتهج . ابتهج كما ابتهج دائمًا عندما يجرح نفسه ليتقاسم دمه
مع الآباء . مع الأوائل . سقطت الدمعة على الأرض فتمت بصوت
مجهول :

- كُلْ . كُلْ . كُلْ لحمي . أشرب من دمي . لماذا لا تشرب من
دمي كما شربت دم الغزال ؟

توقف «دودو» عن المضغ . ابتسمت عيناه . على شفتيه أيضًا
نبتت ابتسامة . ابتسامة غامضة ، ولكنها شريرة .

عرف الحقيقة فليس التّراب .

حفر حراً ، واندسَّ . جرَبَ كل حيلة لينجو من شرّ الخلق ففَرَّ . فر إلى الخلاء وانقطع هناك . ولكنهم لا حقوقه وارادوا أن يشربوا دمه . اعتلى حجراً ورفع رأسه إلى السماء ، توسلَ الحيلة ، وطلب النجاة . سقطت من عينه دمعة تسليم . وما أن ابصرت السماء دمع التسليم حتى كافأته بالإلهام . نزلت الدمعة وامتصها التّراب . نزل وراءها . لم يجدوها . حفر بحثاً عنها . حفر دون أن يعلم أنه يؤدي مشيئته بالإلهام . حفر طويلاً ، أقام لنفسه حمراً دون أن يعلم أنه شيد لنفسه وطن النجاة . صار له الحجر متزلاً . والحجر المرفوع على الجُحر ، المرداة المشيئية على الوطن ، المفتوحة على الفضاء ، حرماً يتبعده فوقه في مواسم الدفء ، ويوجه منه تتمات الامتنان إلى السماء . اقبل المطاردون ، فوجدوا العلامة . قالوا هذا قبر ، وهذا الحجر شاهده . سمعهم يتشاورون . لم يظنوا أن مخلوقاً يتغاضر على النزول إلى الأسفل ، إلى الظلمة ، قبل ما ينفصم حبل الفضة ، أو ينسحق كوز الذهب ، أو تكسر الجرة على العين ، أو تنقصف البكرة عند البشر ، فيرجع التّراب إلى الأرض كما كان * ، لم يظنوا أن يجرؤ المخلوق البائد على النزول إلى جوف الأرض قبل أن يبيد . لم يدر الاشرار أن دمعة التسليم

شفاعة. لم يدر الاشرار أن دمعة التسليم تقيم الموتى من القبور ، وتبعث الحياة في العظام وهي زميم . جاء الحكماء . استشاروا الحكماء . ولكن أي مكان للحكمة مع التسليم ؟

تحدّث الحكماء . قالوا أن العقلاء سيبيدون إذا لم يرتووا من دمه . القبيلة ستبقى بدون سحرة ، وبدون زعماء ، وبدون عقلاء ، إذا لم ينالوا الضّب ويسربوا دمه . أمروا أن تفتش الصحراء شبراً شبراً ، ولكن لم يخطر ببالهم أن يكون القبر ملجأً لكاين حيّ . فانصرفوا ، وبحثوا في مكان آخر اعتقاداً أن يرتاده الاحياء .

بعد أن سنّ شريعة الجحور ، حاكاه خلق كثير . جاءت الحياة ، ونزلت إلى الأرض ، ثم تبعتها «تيرزازت» ، ثم الفأر ، ثم «موحامّد» ثم .. اهتدت أجيال الواوين إلى الحيلة . فهربوا إلى الكهوف ، واعزلوا في الدواميس والظلمات . فافتخر بعزلته . تباهى بأنه أول من دخل بطن الصحراء ، وشيد من التّراب وطناً .

صار كنزاً مخفياً يسعى في طلبه الطامعون في الخلود منذ اختار الظلمات وطناً . ولكنه لم يتوقف عن الصلاة . يخرج في مواسم الدفء ، ليرفع إلى السماء بصر الرجاء ، ويدرف دمع التسليم .

(١٩)

يستغرقه الخشوع . تتوغل به المسافة ، يغيب في الفضاء ، يغيب فيه الفضاء ، يخرج . يختفي الصنم . تتلاشى المرداة ، يتنزل السلام .

يجتاز برزخاً . يبدأ التخلّي . يعبر حدّاً آخر . يتخلّص من الاوزار .
يتعدّ . يقترب من التسلّيم . وكلما ابتعدّ وتخلى ، كلما اقترب من مملكة
التسلّيم . يتخلى عن نفسه ، ولكن الطامعين في الخلود لا يكفون عن
الطلب ، ولا يتخلفون عن ملاحقته . يستغله أهل الطلب في ميعاد
العبادة ، فيصير له ناموس التخلّي فخّاً . تسترجعه يد الطمع قبل أن يهنا
بدخول المملكة .

عرف أن الشّرّه سيصل إليه حتى لو غاب في سبع ارض ،
وتوارى في سبع ظلمة ، ما حمل في بدنـه دمـاً . قرّ أن يتخلّص من
الدمـ، فقطع شريان الدـمـ . لم يقطعه بحجر ، ولم يستفزه بالشوك كما
يفعل البـلـهـاءـ ، ولكـنهـ اـمـاتـهـ بالـجـمـوعـ . تـوقـفـ عنـ مضـغـ الـأـزـهـارـ ، وـصـامـ عنـ
الـعـشـبـ إـلـىـ الأـبـدـ . ولـكـنـ الـخـلـوـقـ الـطـمـاعـ لـمـ يـصـدـقـ ، لأنـ الطـمـعـ فيـ
الـخـلـوـدـ وـبـاءـ إـذـاـ أـصـابـ الـخـلـوـقـاتـ فـلـنـ يـقـفـ فيـ طـرـيقـهاـ شـيءـ ماـ ظـنـتـ أنـ
فيـهـ تـكـمـنـ النـعـمـةـ . نـعـمـةـ الـبـقـاءـ ، نـعـمـةـ الأـبـدـ . فـشـقـواـ الـأـرـضـ بـأـظـافـرـهـمـ ،
وـنـزـلـواـ وـرـاءـهـ إـلـىـ مـلـكـةـ الـظـلـمـاتـ ، وـنـالـوهـ . نـالـوهـ شـبـحـاـ كـهـيـاـ ، هـرـمـاـ ،
حـوـلـهـ الصـومـ خـيـالـاـ ، وـبـسـتـهـ الـظـلـمـةـ بـدـنـاـ مـنـ السـوـادـ . ولـكـنـ الـخـلـقـ لـمـ
يـالـ .

قرّ أن يتبدل ، ويجرّب القّوةـ .

تـدـرـبـ دـهـراـ . تـدـرـبـ عـلـىـ التـشـبـثـ بـالـحـجـارـةـ . وـالـاتـحـامـ
بـالـأـلـوـاحـ ، حتـىـ توـصـلـ إـلـىـ أـنـ يـصـيرـ معـ الحـجـرـ كـلـاـ وـاحـدـاـ . بـعـدـهاـ أـعـتـلـىـ

المردأة ، رفع بصره الى أعلى ، ثم الى أسفل ، ثم صنع بجسده دائرة كاملة. انتصب بغور . واطلق صيحة الأكابر : « آسكفيف إيفين إيسلي ، وهيديكس ولا إعلى » * . انطلقت الصيحة . انتقلت بلسان العراء الى رؤوس الجبال الزرق . ردتها الجبال الزرق بفزع . سمعها الطير . طار بها الى الاعالي . ترددت في السماوات . سألت السماوات الدائرة الخفية : « أسمعت؟ ». تكلم التسليم في المملكة الخفية : « لا هو مني ، ولا أنا منه ». نقل الطير الخبر . تلقاء أهل الطلب كبشرارة أو نبوعة . خاطبوا النصب المشيّع فوق رأس المكابر : « أسمعت؟ ». أجبت المردأة بخجل العذاري : « تبرأت منه . أمره ، بعد اليوم . مباح ». بطل الحصن ، وفسدت التميّمة في الحال . مد طلاب الخلود يداً أعياماً الطلب ، فوجد الضّب نفسه في الشرك .

(٢٠)

في البداية انتفع ، واستدار ، حتى صار مثل « آجيويرو » ** . وعندما يش من جدوى الحيلة ، تصلب ، وتكلّم كل عرق فيه بالنداء المنكر الذي كان سبباً في إبعاده من دائرة التسليم : « آسكفيف إيفين إيسلي ، وهيديكس ولا إعلى » . ولا يعرف بوبو كيف تملص من بين يديه وبلغ النصب برأسه . فما أن قبض عليه بين يديه حتى ابتعد به عن المردأة ، عن فوهـةـ الحـفـرـةـ ، عن فـمـ الـهـاوـيـةـ ، عن مـعـقـلـ النـجـاهـ . ابتعد به

* إذا أعطيت رأسى للحجر ، فلن يخرجنى حتى الموى . (تمامق) .

** آجيويرو : شكرة صغيرة الحجم تستخدم لخض الحليب .

لحيرة في مسلك الضباب ، ومعرفة بحيلهم في الوصول إلى الأنصاب . ولكن المكابر استطاع أن يلغى الحرم ، ويلتصق بيده النصب برغم الاحتراز . تمدد مع امتداد الضلفة السفلية للحجر . التحم بها ، غاب فيها . أصبحا بذنا واحداً . كلاً واحداً . وكلما شدّ بوبو الذنب الخشن ، وحاول أن يوقف زحف المخلوق المكابر في الحجر ، في صلب الحجر ، كلما ازدادت الطريدة ابتعاداً وغياباً ، لأنّ الحجر هو الذي يكيد له ، ويمد لساناً خفياً ليجذب نحوه المخلوق الذي استنجد به ، كلما تشبّث هو بذنبه ، وجاهد في شدة إلى الجانب المضاد . ثبت قدميه على صدر النصب نفسه ، وجذب بكل ما أوتي من قوّة . سمع كيف طقطقت فقرات العمود في ظهره ، وفزّ منه عرق غزير ، وسمع أيضاً كيف ققع الحجر ، فظنّ أنه سيتصدّع ، وسيفتت الآن إلى شظايا . ولكن الكائن المكابر لم يتراجع إلى الوراء شعرة . بل انتهز فرصة الاسترخاء التي اعقبت الجهد الذي بذله في الجذب ، فتقدم إلى الإمام ، وقطع مسافة أخرى في طريقه للدخول في صلب النصب . توقف عن الجذب ، وادرك أن العنف في الجذب سوف يؤدي إلى انقطاع الذنب من أصله دون أن يزحزح الضّبّ من موقعه في الحصن . هذا حدث معه مراراً . إذا استعمل القوّة بقى المكابر في معقله ، وعاد هو إلى البيت بالذيل . أحد الرعاة أخبره مرة : «لو كان العهد الذي بين المكابر وبين الحجر هيناً هل تراه يجرؤ على أن يطلق ذلك القسم؟» أجل . من عاند الضّبّ

وحله يستطيع أن يدرك أن العهد بينهما أقوى من كل شيء . ولم يطلق القسم المنكر إلا بعد أن أيقن أن الحجر أقدر على حمايته من كل كيد . ولكن الحكمة خانته ، والتکابر خذله إذ ظن أن لکيد المخلوق ، لکيد الإنسان ، حدّاً .

کف عن الشدّ . زفر لهاٹاً متتابعاً ، ولكنه حاذر أن يسترخي . ظلّ يشدّ متمايلاً إلى الوراء . شد بيمناه ، واخرج ورق المسد بيسراه . أخرجه من مخلاته المعلقة على منكب الأيمن . لم يلجم لمساعدة «دودو» الذي وقف فوق رأسه . لا زهداً في تلقي العون ، ولا رفضاً للاستعانة بذوي القربي ، ولا تباھياً بالاعتماد على النفس ، ولكن لأن الخروج علّمه أن يستغنى عن كل شيء خارج البدن . علّمه أن يحول جسمه بيتاً متقللاً . العصا في اليد اليمنى . وجرعة الماء معلقة على المنكب الأيسر ، والمخلة على المنكب الأيمن . في المخلة ملقاط الشوك ، وشطر الحجر (قبل أن يكبر ويتوسّد بمديّة نحاسية) ، وحبل المسد أو الحبل المفتول من شعر الماعز ، و .. كسرة الخبز . فهل يحتاج الرعاه لخیر أكثر من هذا؟ وهل يحتاج الإنسان في الصحراء كلها ، لخیر أكثر من هذا؟ . إذا خرج الذئب ردعه بالصيحات البطولية . ولوّح له بالعصا . وإذا اعترضته حية حاربها بالعصا . وإذا عضت الاشواك عقبه انتزعها بالملقاط . وإذا جفَّ فيه الحلق بلّه بجرعة السلسيل . وإذا عثر على كنز من كنوز القدماء شدّخ يديه ، وروى الرّمس من دمه .

وإذا جاء التقم كسرأً من الخبز ، وإذا ساقت إليه الصحراء ضبّاً صنع له فخاً بالحبل . لم يحمل هذه الكنوز ليفارقها عندما يبيت . لو فعل ذلك لفقدت التعويذة معناها ، ولفسدة التميمة كلها . ولكنه إذا قعد ، فقد وهي فوق ظهره ، وإذا نام ، نام وهي ملتصقة بلحمه ، وإذا تحرك ، تحركت معه . لأن الاعتزال علّمه أيضاً أن «وانتهيـط» آلى على نفسه أن يفسد أي أمر عرفت إليه الغفلة طريقاً ، فإذا سها ، وخرج إلى العراء لقضاء حاجته دون أن يأخذ معه العصا ، تدخل «وانتهيـط» في الحال ، وبعث إليه الحياة . وإذا ترك شكوة الماء معلقة في رأس الطلحة ، وركض ليردّ الجدي الشقي إلى حشد القطيع ، تدخل «وانتهيـط» مرة أخرى ، وبعث له بـ«سخرك إبيراظن» ، فيذهب وراء الطائر إلى الخلاء ، فيعطش ، ويعجز ، ويضيع . تعلم أن على المعتزل أن يراعي ناموس الاعتزال . فإن تيقظ وتعلم الاستئثار ، وجعل من نفسه قافلة متنقلة ، نزع الغفلة ، وفاق «وانتهيـط» سلطاناً وقوّة.

أحكم القيد في أصل الذنب . كان الوهن مهياً أيضاً تحسباً لمثل هذا اليوم ، فلم يبذل جهداً في إحكام الرباط ، فرغ من الفخ . تهياً لانجاز الكيد .

أمسك بطرف الحبل . ترحرح بجسمه إلى الوراء . رفع دودو صوت الفزع : «ماذا تفعل ؟ سوف يغيب في الجُحر». لم يردّ . أرخي الحبل قليلاً . توغل الجسم المكابر في الهاوية . توقف عن الزحف . كأنه

لا يصدق ما يحدث . كأنه ادرك المكيدة . زحف خطوة أخرى . كاد يغيب . لم يقِ مرتئياً منه إلا الذنب . استرخي الجسم المكابر . بدأ يستعد للقفز النهائي ، للغياب الأبدى في غياب الظلمة . بدأ ينفصل عن الحصن . عن البدن الأعلى . بدأ يتخلّى ، يخون العهد . ضمر الجسد . تجرّد من الانفاس الكريهة التي حولته من ضبّ رشيق إلى قرية متفوّفة . لم يسترخ حالاً ، ولم يتخلّص من الأنفاس مرّة واحدة ، وإلا عرض نفسه للخطر ، ولكنه فعل ذلك بشك ، وتجسّ ، وتدرّيج . كان يدرك أنه تورّط في مبارزة ، وكان يدرك أيضاً أنه لن يخرج منها بطلاً إذا لم يحترس . إذا لم يترصد مسلك الخصم . استعد للوثبة الأخيرة . استعد للدور الخامس . استعد الخصم أيضاً . ففي هذه الخطوة سيمني أحد الطرفين بهزيمة . و .. في أقل من طرفة العين . فرّ الجسم ، وابتلعه الدهليز ، ولكن ، في نفس الوصلة أيضاً ، كانت اليد قد شدت الحبل بحركة عنيفة ، فوجد الضبّ نفسه في العراء . جرجره «بوبو» في العراء وهو يقفز في الهواء ، ويطلق صيحات البطولة .

ألا يحق للإنسان أن يتهم إذا برهن أن كيد الخلق أقوى من كل

كيد؟

(٢١)

تباهي ببوبو طويلاً.

يقفز في الهواء ، يمزّق حرم السكون بصيحات الفرسان . يقهقه .

يدور حول طريده . يداعبها . يتصب الخصم . يرفع رأسه إلى أعلى . يملأ جوفه بالهواء . ولكن الرأس لا يدرك النصب ، والبدن لا يلتحم بالجحر . تنفس ولم يقرأ حساب الاسترخاء . أجل . السر في الاسترخاء كان منذ الأزل . الاسترخاء أزال المالك . الاسترخاء أفنى الام . الاسترخاء أباد كل ذي سلطان . الاسترخاء داء أقوى من كل وباء . الاسترخاء غرّبه ، وسلّمه للمراء . والآن يستطيع أن يتنفس ما شاء . الآن فليمتلىء هواء أو سماً ، غيطاً أو حلماً ، فالآوان قد فات ، ونبوة : «آسكفيف إيففين إيسلي ، وهيد يكس ولا إيملي» بطلت بالاسترخاء ، وها هو يتلبّس الفراغ بعدما كان يلبّس حجراً . ها هو يتلوى في أشراف الكيد ، بعد ما تحدى مملكة التسليم بالنبوءة المنكرة . وها هو الخصم ينفح في وجهه انفاس الشماتة ، ويتكلّم بالاستفزاز : «ها - ها .. لقد غلبتك . ها - ها .. غلبتك ..». فلمن يتوجّه باللّوم ؟ من يتوجّه المعذل بالإدانة إذا كبا وقع ؟ من يسائل من توحّد وانقطع وخرج وتعمد أن يعتمد على النفس ؟ من أين يستمد العزاء إذا لم يستمدّه من نفسه ؟ ولكن هل يفيد العزاء إذا وقعت الواقعه ، وغدر الزمان ، وطاف المنادي بنداء الميعاد ؟

تألقت المقلة بدموع فاجع . ولكن بوبو مضى يتقافز . يصبح . يردد اشعار الملاحم والحملات . يتغنى بمواويل البطولات . فلم يلحظ الدموع المريئ . لأن شرع الاشياء قضى ألا يلحظ الجلاد دمع الضحية .

«دودو» وحده اكتشف العلامة .

لم يقفز في الهواء . لم يستفز حرم السكون بصيحات الهرج ، ولا باشعار البطولات . تابع الكنز بعينين غائتين منذ خرج من بطنه الحجر . لم يرف له جفن . لم يطرف . لم يرفع البصر عن الوميض . ظل يلاحق الضحية طوال المراسم . وكلما توقف بوبو عن الجذب ، اقترب من الكنز ، وانحنى فوقه ليراقب العرقوب عن قرب .

كان ظهر الضبّ موشّى بالذهب ، مشطورةً بوسام من نثرات التّبر ، يمتد من اول فقرة في عمود الظهر ، إلى آخر فقرة تلاصق الذنب ، حيث استقر طوق المسد .

هتف دودو أخيراً :

- انظر ! ألا ترى ..

لم يكمل . مد إصبعاً مرتعشاً نحو الأسير . ركع بوبو على ركبتيه . تعمت :

- آ-آ.. لم أر هذا من قبل . آ-آ-آ...

مسد بسبابته على الوسم . انتفض الأسير . هدد به فحيح أقبح من فحيح الحياة . انتفض بوبو أيضاً . ابتعد . قال دودو بنبرة غائبة :

- هذا الوسم هو الذي دلّني عليه .

- ذلك عليه ؟

-رأيته عندما سقط فوقه سيف الشمس فظنته سكيناً .

رفع إليه عينين مخيفتين . تكلم بصوت غريب :

- انت لن تنكر أني أول من رأه . لقد سمعتني عندما صرخت

: «انظر !» .

مسح بوبو عرقاً فز من الجبين . في عينيه لمع بريق . تنقل ببصره بين الأسير وبين دودو . ثم التفت شمالاً ، وراقب الفراغ بعينين فارغتين .
تكلم بنبرة غريبة أيضاً :

- هل تظن أن «انظر» تمسك ضباباً ؟

- الضبّ ضبي . أنا أول من رأه !

رفع بوبو رأسه إلى أعلى . هتف :

- انظر ! هناك في السماء ، يحلق الطير . هل تستطيع أن تأتيني

به ؟

- الضبّ مخطط بالذهب . الضبّ المخطط بخيط التبر ضبي !

عضّ بوبو على شفته السفلی . غمم : .

- هل تريدين أن تأخذ الضبّ كما أخذت الغزال ؟

حاول دودو أن يقبض على الأسير ، ولكن الضبّ توعّده

بالفحىح فابتعد . قال :

- أنا أول من رأه . هذا الضَّب مخطط بالذهب . هذا الضَّب ..
- لقد أخذت الغزال . أبي ربته إلى الرَّكِيزة . فجاءت ، وفكت
رباطه واعطته لك . اعطيتك الغزال .
- سأنحر بالمدية ، وسأشتب من دمه .

- ها .. لن تنحره . سآخذه الى أبي . سأقول له أن ينحره
ويشرب الدّم . وسوف يعمر مثل السّحرة ، أو الزّعيم ، أو «وانتهيـ» ..
سيعيش طويلاً ، طويلاً .

لم يلحظ بوبو الزبد الذي نزَّ من فم دودو . ولم يلحظ أيضاً
الوميض الغامض الذي تألق في حدقته . بدأ يرتجف . ثم قفز وخطف
الحبل من يد بوبو . ركض في العراء . فرَّ بالكتنز . جرجر الأسير وراءه
وهو يركض . تحت سياط الجلاد الحالد لمع الوسم الذهبي ببريق خفيّ .
بوبو لم يصدق . لم يفق . عاوده الاحساس الموجع بأنه وحيد . وحيد .
وحيد . نفس الاحساس الذي فاض في جوفه عندما تزحزح أول يوم من
موقعه الدافئ قرب الركبة ، ووجد نفسه في مدخل يتنفس برداً
ووحشة وفراغاً . أحسَّ أن الأب تخلَّى عنه ، والأم تخلى عنه ،
وهاجروا مع القبيلة طلباً للكلأ ، وتركوه وحيداً ، يائساً ، مهجوراً .
تنفس في وجهه برد الشمال ، ومدَّت لهظلمة لساناً موحشاً ، وقهقهة

فوق رأسه جبارة الجنّ . بدأ يختنق ، شهق كأنه يلفظ انفاساً الأخيرة . مدد عنقه . جاهد لالتقاط الهواء . تتمم بياس : «أبي ا» . لم يظهر الأب في الأفق . لم يتنزل العملاق من صلب السماء . ولكن القبس المبهم كلامه بالإلهام . وثب . هب كالعجاج . جره كالريح . ادرك دودو قبل أن يدرك القطيع . اعترضه . قال بصوت ليس صوته :

– هات الحبل !

شدّد دودو قبضته على الحبل . أخفى يده وراء ظهره . اشتعلت عيناه بالنار . اشتعل بوبو بنار أخرى . تقدم بوبو خطوة . تراجع دودو خطوة . تقدم بوبو خطوتين . تراجع دودو خطوتين . في الجوار انتصب الأسير . توقف عن الفحیج . راقب المواجهة بعين واحدة . في العين الأخرى تخفي سرّ آخر .

ردد بوبو :

– هات الحبل أحسن لك !

ردد دودو وهو يتراجع :

– لا .

– لقد أخذت الغزال .

– سأخذ الضّب أيضاً . أنا أول من رآه !

– أخذت كل شيء . أنت أخذت ..

اختنق بالكلام . انحنى على الارض . التقط حجراً . تقدم . تقدم . لم يستمر الاشتباك طويلاً . هوى على الرأس بضربات عنيفة ، وحشية ، متالية . ترتعش دودو ، وسقط . تخلى عن الجبل ، ولكنه لم يتوقف عن الضرب . مضى يهوي بالحجر ، ويهوي ، ويهوي . في القلب نار ، وفي العينين ظلمة ، وفي الجوف حقد أشد سواداً من كل الظلمات . لم ير لسان الحجر الذي يشبه لسان المدية ، لم ير الاخدود المحفور في الرأس ، لم ير الدم وهو ينبع من الاخدود . لم ير شظايا اللحم وهي تتناثر فتلوث وجهه ، ويده ، وثيابه . لم ير شيئاً غير الظلمة .

الظلمة . الظلمة .

(٢٢)

.. الجان طارده طويلاً . لا يذكر متى بدأت المطاردة . يقيناً أنها بدأت منذ زمن بعيد ، بعيد ، لأنه قطع الحمادة راكضاً ، تقطعت انفاسه كما تقطع نعله . نهشته حجارة الحمادة الجنوية ذات الانيات ، ففرّ الدم من قدميه . لعقت الحجارة الشرّه الدّم ، ولكنه لم يتوقف عن الركض . استيقظ فيه غضب ما لبث أن صار حقداً . كره الحمادة ، وسبّ العراء ، وبصق في وجه كل مسافة خالية . لأول مرة يتحول في عينيه الحرم الى مساحة كثيبة ، بليدة ، قاسية ، لا طلحة ، لا وادٍ ، لا مرتفع ، لا حضيض ، لا سفح يعد بكهف أو مخبأ . عراء عار ، مكسو بحجارة كأنيات الذئاب ، تمتد بلا حدّ ، وتتوالد الى الأبد . في جوفه تململ نداء

غامض يدعوه للمواجهة . ولكنه تجاهل الالهام طوال الطريق ، وسائل نفسه كيف سيواجه ذلك الوجه البشع . فالجان كان نادراً بالقياس إلى ما عهده في إبناء هذه القبيلة الخفية من خصال . لم يكن مارد القامة ، ولم يتمتع بروح الدعاية كحقيقة الأقران . كان في قامة مخلوق من مخلوقات أهل الخلاء . يميل إلى البدانة . حاسر الرأس . لم يكن رأساً تماماً ، ولكنه جمجمة قبيحة عارية من اللحم والشعر والأذان ، ولكنها لم تكن فارغة من العينين . بل العكس . ففي مقدمة هذه الدائرة الكريهة المثيرة للإشمئزاز ، استقرت جمرتان من نار ، كانتا في لون الجمر ، وصرامة اللهب ، وجنوبي لا يليق إلا بجن . لا يذكر كيف بدأ الأمر بوضوح ، ولكن المجهول دبر لهما اللقاء الأول في زمن بعيد ، بعيد ، بعيد . قبل أن يتمرد على ملوكوت النسيان ، ويقع أسيراً شقياً مكبلاً بأغلال الذكرة . قبل أن يحتل مكاناً عند الركبة بجوار موقد النار . قبل أن يتعم بدفعه الآبوين ، وقبل أن يتمتع بجمال الصحراء . اقبلًا معًا من الوطن الأول ، ونزلًا ، معًا ، ضيفين في القماط . حل معه في الحضن ، ورضعا ثدياً واحداً ، ورقداً في فراش واحد ، وتراءت لهما رؤى سماوية واحدة . كان له نفس البدن المائل إلى البدانة ، ونفس الجمجمة الكريهة ، ونفس النظرة النارية ، ينطفئ النهار فيطلع له في الظلمة . يخاطبه بلغة مجهولة لم يفهمها يوماً ، ويكلّمه بإشارات غامضة . ولم ينس أن يتوعده بعينيه الناريتين في كل زيارة قبل أن يتبدّد ويختفي . وما أن دب على قدميه ،

وتعلّم رطانة الخلق ، حتى خان العهد ، ووشى به إلى الأم . أصاب الأم فزع ، وهرعت به إلى الساحر ، غنى الساحر مawaiله ، وناح طويلاً ، وغاب مع قبائل الجن في الحمى . وعندما عاد ، عاد يحمل للأم النبوءة . قال بعينين غائتين : «لا يولد الإنسان ، إِذَا لم يولد معه الجنان . من مَنْ لا يسكن في صدره جان ؟ من مَنْ لا يحمل القرین الخفي ؟» .

بعدها نشب بينهما الخصم .

في أول ليلة بعد الخيانة رجمه بالحجارة ، ولوث وجهه بالعفن وفضلات العراء . وفي ليلة أخرى جاء بحبل فظيع وحاول أن يخنقه وهو نائم ، ولو لم يتدخل الأب ، ويخرج له المديه النحاسية ، لقضى عليه في تلك الجولة . ثم بدأت المطاردات ، واستمرّت منذ ذلك الوقت . يحدث له أن يتغيب . يتغيب طويلاً حتى يظن أنه رحل والتحق بقبيلته الشقية ، ولكنه لا يلبث أن يعود ، ويهاجم عليه بروح أكثر شراسة من أي ليلة مضت .

وفي ليلة من الليالي ، عقب مطاردة حامية ، خرجت له الحياة . انتصبت في وجهه ، وقالت له : «اعطني كرائي أخبرك بسرّ» . فرأ التمايم ، وهرب . لم يعرف شيئاً عن العهد بين وانتهيط والحياة ، وبرغم ذلك فرّ من وجهها بفضل الإلهام . في مرّة أخرى خرجت له وأعادت نفس النبوءة : «اعطني الكراء ، أخبرك بسرّ» . ففرّ من وجهها مرّة أخرى . ولكنها لم تخرج له في الملاحقات التالية .

انتظرت طويلاً لخروج في المرة الثالثة .

في هذه الليلة خرجت . خرجت بعد أن تعب ومل وأصابه اليأس . انتصبت بجواره . هرولت إلى جواره . تلوّت بقدمها الفتان .
قالت ياغراء :

- ما أعجب الانسان ! يشقى كثيراً من حيث يستطيع ألا يشقى أبداً .

- الساحر قال أن الانسان لم يولد إلا ليشقى .

- الساحر أبله آخر . فاعطني الكراء ، اخبرك بالسر .

استغاث فيه نداء ، وحزنه الوحي أن يحترس ، ولكن اليأس
تكلم أخيراً :

- ماذا تريدين كراء ؟

- إذا اعطيتني الكراءنجحت من شر الجن .

- ماذا تريدين ؟

- ظلّك !

- ظلّي ؟

- لا أريد أكثر من ظلّي بائس . فهل هذا كثير ؟

لم يتفكر . لم ينصت للنداء ، لم يلتفت لصوت الوحي . اليأس

غلب . نطق بالموافقة :

- الظلّ ظلّك منذ اليوم .

قعقت السماء . تزلزل العراء . هبت عاصفة . السماء حلّت في الأرض ، والارض ارتفعت الى السماء . أختفى الليل . اختفى النهار . و.. اختفى الجان . اختفى الجنان . اختفى الجنان .

توقف عن الركض أخيراً . انهار في ركن انتهى إلى مملكة خارج المالك . خاطب نفسه بالبشرة : « لقد اختفى الجنان » . فسمع صوت الوحي يقول : « الجنان اختفى ، لأنك اختفيت قبله . أنت الآن كائن لا إسم له ، لا إسم له ، لا إسم له ». .

(٢٣)

أحس بالتراب أولاً . تلوى . شدّ قبضته على الحصى . لا مس بدن الوطن بكل طرف . بكل حس . تمتع باللمس . تلذذ بحبسات الرمل ، تعشق الحجارة التي ظن دائماً أنها قاسية ، موجعة ، وحشية . هذه الجلاميد الجامدة أعادت له الاحساس بالحياة . أيقن أنه لم يذهب . لم يضع . لم يختف مع جلاده في مملكة المجهول . فتح عينه بحذر . فتحها ببطء شديد فرأى ، في الافق ، الإله الفضي شاحباً ، وحيداً ، حزيناً . فتح العين الأخرى فوقعت على جسم تکوم بالخوار . تتم بتعويذة . تذكر الجلاد الذي اختفى . فرّ بفزع ، قهرته الأوجاع . ناح .

تحامل . زحف الى البدن المجهول . تحسّس الجسم . تفقد الرأس . غمر السائل اللزج أصابعه . رفع الرأس الى الضوء . لم ير جمجمة الجان . لم يجد نظرته النارية . ولكن دودو هو الذي حدق فيه بهذه النظرة الفارغة . فهل ... استولت عليه رجفة . عادت الحمى من جديد . إذن المطاردة لم تكن إلا هروباً من كابوس أكبر . هرب من غول النهار ليقع في يد غول الليل . والآن ها هو ينجو من غول الظلمة ليقع في نفس الفخ الذي فرّ منه . بدأ يشن . ويئن ، وين . نهض . شيعه من يديه . وضعه على ظهره كما تشيع الضياع حيران الإبل . رأسه يرقد على عنقه من الوراء . يداه تتدليان حول منكبيه بمرونة غريبة . قطرات الدم اللزج تغمر رقبته ، وتسلل على منكبيه ، وتسقط على ساعديه قبل أن تهوى الى الارض .

بلغ النصب .

ارتفع الإله الغامض ، فرش له العراء بفيض فضي كثيب . تفقد الحجر . وجد الأثر . انتصر السر . وكتب الغلبة للخصم . انتصر من هُزم ، وهُزم من قهر . انتصر الناموس الأول . تكلم في الصحراء شرع النقائض الميت . لا تظنن أن من غالب قد غالب ، ولا تظنن أن من هُزم قد هُزم . ففي الغلبة هزيمة ، وفي الهزيمة غلبة . ها هو المغلوب ينجو من الفخ ، ويصير غالباً . وها هو الغالب يصير شقياً ، خائباً ، يحمل شارة الهزيمة على منكبيه .

حفر تحت النصب . حفر طوال الليل . انتهى قبيل القبس . كان خندقاً مستديراً ، عميقاً . يقف على رأسه نصب الضَّب علامه ، وتحيط به أكواخ الحجارة كقبور الاولين . حمل البدن إلى جوف البدن . أعاد البدن إلى البدن الذي خرج منه . اودعه في الجوف بحذر . ثنى الساقين إلى الفخذين ، وثنى الفخذين إلى الفخذين . ثم حشر النصف الاسفل إلى النصف الاعلى . تکور البدن ، واستدار ، وصار إلى الوضع القديم . احتواه الخندق ، وضربت حوله الدائرة حصاراً . غطاء بالحصى والحجارة وأكواخ الغبار . تحت الضوء الشاحب رمتة عين البدن بنظرة خفية ، فارغة ، ولكنها مخيفة .

توقف عن ردم الحفرة . تراجع إلى الوراء ، تحرك نحو الشمال ، في الاتجاه المضاد للمتاجع . لم يفكر في اهوال السفر . لم يشغله غول العطش . لم يحيره التيه . ولكنه فكر في سبيل ينال به الاسم الجديد . في الأفق ، تبدى القبس ، وبشر ببلاد يوم جديد .

٢١ - المفروج بـ

«وجَلَ الْرَّبُّ إِلَهُ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَّاتِ الْبَرِّيَّةِ ، وَكُلَّ طَيْورِ السَّمَاءِ ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا . وَكُلَّ مَا دَعَا بِهِ آدَمَ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ إِسْمُهَا . فَدَعَا آدَمَ بِأَسْمَاءِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَطَيْورِ السَّمَاءِ وَجَمِيعِ حَيَّاتِ الْبَرِّيَّةِ . وَإِنَّمَا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مَعِينًا نَظِيرًا» .

التكوين

(٢٠ ، ١٩ : ٢)

* * *

«اختلفوا الإسم ، كما ييدو ، سلفاً . ومختلفوه انطلقوا من المبدأ الذي يقول انه ما دام الاسم موجوداً ، فلا بد أن يوجد الشيء أيضاً» .

هنريك سينكيفتش

«في سبيل الخبر»

(١)

في النهار الاول تنفس الشمال بالبحري ، فانشرح الصدر ، وقطع المسافة مهرولاً .

في النهار الثاني أكتأب الصحراء ، ومات فيها الهواء . أكتأب أيضاً ، وماتت في صدره بهجة الامس . دبّ السراب ، وبدأ لعبة اللعب . تباهي ، أمامه ، بتفوّقه . أبدع المالك ، وخطّ ، في الافق ، واحات أبهى من «واو» . زرع في الخلاء الفاجع زرعاً ونخلاً ، وفجر في الارض الياب ، المرت ، سيلولاً وينابيع . رفع عشبة بائسة تستجير من نار الجلاد برمضاء العراء ، وصنع منها شجرة اطول قامة من الطلح ، واشدّ كبرباء من نخل الواحات . انزل طلحة حقيقة من أعلىها ، شطّرها إلى نصفين ، واطاح بها أرضاً . يحيى الصحراء كلها إلى بستان يفوق بساتين الواحة المفقودة في الأغواء والبهاء ، ثم تنتابه السoidاء ، فيمحو ما بنى ، ويُخسف الأرض . يزيل البساتين ، ويبدد السيول . يهلك ما دبر بحيلة ساحر ، ويحيى النعيم إلى فناء بقدرة إله .

سأله حكماء الجنّ : «لم تفني ما تبني ؟ لم تبدّ ما تقيم ؟» فأجاب : «وهل يمهد الفناء ببنياناً ؟ وهل يستقيم شيء ما لم يتبدّ ؟ ثم هل تظنّون أنني ابدعت شيئاً إذا ابدعت ؟ لا . أنا لم اتقن عملاً ، ولم أبدع

أعجوبة . كل ما فعلته هو أني حاولت أن أحاكى الصحراء ، واتعلم اللّعب» . سأل حكماء الجن: «عجبًا ! هل تريد أن تقول أن الصحراء هي التي علمتك لعنة اللّعب؟» . أجاب : «وهل في الصحراء ساحر يستطيع أن يغلب الصحراء في اللّعب؟» . قال الجن : «ولكن لماذا تقدّر ضحاياك دائمًا إلى التّيه ، إلى الهاك؟» . أجاب : «ناموس اللّعب هو الذي قضى أن تبدأ اللعبة في المكان الذي ينتهي فيه اللّعب» تمايل المسافر . هرب من امامه السيل ، ذات سيقان النّخل ، وتبدّلت البساتين، زال النعيم ، وتبدّلت في مكان آخر واحة أخرى لم ينلها إلاّ من وجد الشجاعة كي يتخلّى عن كل الواحات . ابتسم حكماء الجن . قال كبيرهم : «أني أرى البنيان قد زال ، والبستان تبدّل ، والينبوع جفّ ، واللّعب كله قد أكتمل» . قال آخر : «أرى شبحًا يغالب الافق . فهل ما أرى هو باطل من أباطيل السّراب ، أم هو أثان الداهية؟» .

(٢)

في البرزخ انحنى فوقه الشّبح . لامس جبينه بعصاة الاطواف النحاسية ، وسقط طرف ثامنه الازرق على وجهه . غالب الظّمآن . غالب الظلمة . غالب الغياب . حرّك شفتيه . ولكن لم يسمع السؤال أحد سواه . ابتسم الشّبح . تكلّم :

— إذا أعطيتني كرائي أعدت لك الحياة .

بذل جهداً بطولياً . تنتهي :

– ماذا تريده ؟

– أريدك أنت . أريد إسمك !

– إسمي ؟

– كنت سأطلب شيئاً آخر ، لو لم يسبقني إليه أحد آخر .

بذل جهداً بطولياً آخر . غمغم :

– تذكرت . الحبّة . الحبّة اخذت ظلي !

– ها قد عدت . أني أراك تدخل وطن اللعب .

– من أنت ؟

– أنا من يصير شرة خيراً إذا فعل شرّاً ، ولكن لا يفعل الخير أبداً حتى لا يصير شرّاً .

– لم أفهم ...

– تجاري التجوال في الصحراء ، وتجمّع الظلال .

– الظلال ؟

– وإذا لم أفر في طريقي بظل ، اكتفيت بالإسم . اقتناه الأسماء أيضاً تجاري .

جاهد الظلمة . غمغم :

- الماء . أنا لا أريد إلا جرعة الماء !

- ستأل الماء إذا جدت بالكراء .

غالب اشباحاً أخرى ، في ارض أخرى ، عاد الى وطن اللعبة

أخيراً :

- وماذا تفيد الاسماء ؟ ماذا تفيد .. الظلال ؟

انتصب الشبح . ها ها أولاً ، ثم قهقه بضحك منكر . انحنى إليه

مرة أخرى :

- وهل يفيد في ساحة اللعب شيء آخر غير الظلال والاسماء ؟

ناموس الساحة هو الذي تكلّم فيه عندما قال :

- الكنوز !

- لا أرى كنزاً أنفس من ظلل أو إسم .

- ألا تطلب الثّبر ؟

- الثّبر كنز لكم ، وليس كنز السحرة !

- ولكن كنز الظمان ماء ، اعطني الماء !

- الكراء أولاً .

- وهل يهون كراء امام كنز الماء ؟

(٣)

حمله على دابته حتى بلغ به حضيض واحة شمالية معلقة في الجبل . ودّعه قائلاً : «طريقانا سيفرقان في هذا المكان . سأمضي شرقاً ، وستحل انت ضيقاً على أكابر يملكون من الماشية جوشأً» . اخفى ابتسامة بطرف اللثام قبل أن يسلم امره للخلاء .
لم يتأخر الأكابر .

ارسلوا له الرسّل قبل أن يبلغ اول بيان . حملوا له الماء . انتظروا حتى ارتوى . ثم تخلّقوا . ضربوا حوله حصاراً . هرولوا . تتمموا بتمائم لم يفهمها . حفروا باقدامهم حول قامته دائرة . شعر بالدوار . ولكنهم لم يتوقفوا . من افواه الكهوف العليا نزل شيخ وقرر . طاعن . مقوس . توقف الرسّل عن الهرولة . انتظروا الشيخ بخشوع العباد . طأطأوا الرؤوس . وصل الشيخ . وقف خارج الدائرة . سأّل :

- الإسم ؟

غالب ظلمة اشد من ظلمة الظمآن . سكت طويلاً . كرر الشيخ السؤال . أخيراً قال :

- إيجمض إيففين * .

- هل فقدت إسمك ؟

(*) حرفاً «خرج من رأسي» .

هزّ رأسه علامة الإيجاب . هزّ الشّيخ رأسه علامة الفهم . التفت
إلى الرّسل . هتف :

- الكهف ! الكهف !

هجم عليه الرّسل . قاومهم . كانوا في قوّة الجنّ . غلبوا . حملوه
إلى كهف كيّب . قيّدوه . أقفلوا مدخل الكهف بالحجارة . نزلت
ظلمة أخرى . ظلمة في الصدر . ظلمة في الرأس ، ظلمة في البصر .
ظلمة ، ظلمة ، مملكة من الظلمات . سمعهم يتعدّون . رفع صوته
بالنداء . لم يجيئوه . لعنهم بأعلى صوت . اختنق . أحس بأنه وحيد
فاختنق . وحيد ، وحيد . لا يستولي على المخلوق شر الانقطاع
عندما يكون وحيداً في الخلاء ، ولكن البلاء لا يعتمد إلا عندما تطيق
الجدران على انفاس الإنسان .

الجدران هي الانقطاع الذي لا يتحمل .

من كوم الحجارة الذي سدوا به الفوهه انطلق سهم نحيل من
الضوء . يتسلل من زاوية الغار كقبس الفجر ، فيفسد على الظلمة لونها ،
ويحدّ من استبداد السّواد . ولكن السهم لا يخترق الجدران الفاجعة إلّا
في النهار ، أما في الليل ف تستعيد الظلمات السلطان على مملكتها ،
فيستنجد باليه الليل . ولكن الإله الليلي اعتكف في منازله ، ولم يخرج
إلى الصحراء طوال ثلاثة أيام . وطوال هذه الأيام الثلاثة حاول أن يفك

القيد . أدمى المسد فمه ، وأكل يديه ورجليه دون أن يفلح في فك القيد. يش وانتظر أن تقطع إليه الظلمة مسافة أخرى ، انتظر أن تتمدد ، وتتمدد ، وتسطو على العصفور . ولكنهم جاءوا في صباح اليوم الرابع ، وأخرجوه .

غمروا وجهه وبدنـه بالماء . ولم يسمحوا له بالارتفاع إلا بعد أن تبـلـلـ قطرـتـ من ثيابـهـ خـيوـطـ المـاءـ . اـقـبـلـ رسـلـ آخـرـونـ يـدقـونـ دـفـوفـاـ ، ويرفعـونـ اـصـواتـهـمـ بـغـنـاءـ . ضـربـواـ حـولـهـ طـوقـاـ ، رـقصـواـ وـهـمـ يـدقـونـ الـأـرـضـ باـقـدـامـهـ . غـنـواـ . بـدـلـواـ الـأـلـاحـانـ ، وـتـبـدـلـ الـإـيقـاعـ وـرـاءـ الـأـلـاحـانـ . زـعـقـ بعضـهـمـ باـصـوـاتـ كـزـغـارـيـدـ النـسـاءـ . تـرـنـحـواـ ، تـمـايـلـواـ ، وـلـكـنـهـ لمـ يـترـنـحـ . وـلـمـ يـتـمـايـلـ ، وـلـمـ يـرـدـدـ الـأـلـاحـانـ . ظـلـ يـتـابـعـهـمـ ، يـدـورـونـ حـولـهـ ، وـيـدـورـ هوـ حـولـ نـفـسـهـ . أـحـسـ بـالـدـوـارـ . تـعـرـ فـتـلـقـهـ أـحـدـ جـابـرـتـهـمـ بـيـنـ يـدـيهـ . تـقـدـمـ نـحـوـ عـجـوزـ قـصـيرـ الـقـامـةـ ، نـحـاسـيـ الـبـشـرـةـ ، يـمـسـكـ فـيـ يـمـنـاهـ بـمـدـيـةـ شـرـيرـةـ . رـسـمـ عـلـىـ صـدـرـهـ تـقـاطـعـاـ بـالـمـدـيـةـ فـتـوـقـفـ الـمـغـنـونـ عـنـ الغـنـاءـ . سـكـتـ الطـبـولـ . رـسـمـ السـاحـرـ إـشـارـةـ «ـتـانـيـتـ»ـ مـرـأـةـ أـخـرىـ . لـمـ يـطـبـعـهاـ عـلـىـ صـدـرـهـ ، وـلـكـنـ لـسـانـ المـدـيـةـ زـيـرـهـاـ فـيـ شـعـاعـ الشـمـسـ عـلـىـ صـدـرـ الفـرـاغـ . التـفـ السـاحـرـ إـلـىـ الـحـشـدـ . أـوـمـأـ بـرـأسـهـ . تـقـدـمـ مـنـ ثـلـاثـةـ أـشـدـاءـ . أـطـبـقـ اـطـلـوـلـهـمـ قـامـةـ عـلـىـ صـدـرـهـ بـذـرـاعـيـهـ . وـتـشـبـثـ ثـانـيـهـمـ بـيـدـهـ الـيمـنـيـ . وـأـمـسـكـ ثـالـثـهـمـ بـيـدـهـ الـيـسـرـىـ . حـاـوـلـ أـنـ يـفـلـتـ مـنـ أـيـدـيـ الـمـرـدـةـ ، وـلـكـنـ هـيـهـاتـ . أـيـدـيـهـمـ اـصـلـبـ مـنـ مـعـدـنـ الـحـدـيدـ ، وـقـبـضـاتـهـمـ أـقـوىـ مـنـ قـبـضـاتـ

الجَنْ . تَقْدَمَ مِنْهُ الْعَجُوزْ . فَتَحَ فَمَهُ فَرَآهُ خَالِيَا مِنَ الْأَسْنَانِ مُثْلِ افْوَاهِ كُلِّ
السُّحْرَةِ . انتَظَرَ امْرَأًا جَسِيمًا . اسْتِيقْظَ فِيهِ هَاجِسْ خَفِيًّا . اسْتَبَدَّ بِهِ
رَجْفَةٌ . رَأَى كَيْفَ غَابَ السُّوَادُ مِنْ عَيْنِي السَّاحِرِ . تَهِيَّاً لِتَلْقَى اللِّسَانِ
الشَّرِيرِ . اشْتَمَّ رَائِحةَ الشَّيَاطِينِ . شَيَاطِينَ الْبَدْنِ عِنْدَمَا يَلْسُعُهُ لِسَانُ الْمَدِيَةِ
الْمَصْقُولُ بِلِسَانِ النَّارِ . اغْمَضَ عَيْنِيهِ . كَزَّ عَلَى اسْنَانِهِ . وَلَكِنَ السَّاحِرُ
تَلْقَفَ اذْنَهُ الْيَمِنِيَّ ، وَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتٍ : « كَر - ر - ر .. كِيونَانْ
جَبارِينْ » * . تَلْقَفَ الْأَذْنَ الْيَسِيرِ ، وَصَرَخَ فِيهَا بِنَفْسِ الصَّوْتِ ، وَبِنَفْسِ
الْإِسْمِ . ثُمَّ تَرَكَهُ وَمَضَى .

بَعْدَهَا حَمَلَوهُ إِلَى كَهْفِ الزَّعِيمِ .

وَجَدَهُ يَتَرَبَّعُ عَلَى نَطْعِ نَاصِعِ ، يَهْشَ أَسْرَابَ الذَّبَابِ بِذِيلِ كَيْفِ
مِنْ شَعْرِ نَاصِعِ أَيْضًا ، مَثَبَّتَ عَلَى يَدِهِ مِنَ السَّدَرِ . جَاءَ أَحَدُ الْخَدَمِ يَحْمِلُ
وَعَاءً . وَضَعَ الْوَعَاءَ ، فَفَاحَتْ رَائِحةُ شَهِيَّةٍ . ثُمَّ تَقْدَمَ مِنَ الْمَوْقِدِ . نَشَرَ
فَوْقَ الْجَمْرِ مَسْحُوقًا ، فَاسْتَعْرَتْ النَّارُ بِلِسَانِ نَهْمِ ، فَاحَتْ فِي الْمَكَانِ
رَائِحةً كَرِيهَةً .

رَفَعَ الشَّيْخُ الْطَّرْفَ السَّفْلِيَّ مِنْ لَثَامِهِ وَانْزَلَهُ عَلَى الْعَمَامَةِ فَوْقَ
الرَّأْسِ . كَشَفَ عَنْ لَحْيَةِ جَلِيلَةِ مَرْصُوعَةِ بِالْبَيَاضِ ، تَتَدَلَّى عَلَى الصَّدَرِ
بِغَزَارةِ الْوَبِرِ . أَغَارَ عَلَيْهَا الذَّبَابُ فَحَارَبَهُ بِالْذِيلِ النَّاصِعِ . دَاعِبَ حَافَةَ
الْقُصْبَةِ بِسَبَابِتِهِ وَأَوْمَأَ لَهُ أَنْ يَقْتَرَبُ . لَمْ يَجِدْ مَا يَدَارِيَ بِهِ

* انت تُدعى جبارين .

الحياة ففرَّك يديه . تنتهي :

– ظننت أنني لن أخرج !

أبتسם الزعيم . راق له الاعتراف ، ولكنَّه لم يرفع رأسه عن زخارف القصعة . مضى يتابع التمائم المحفورة على الحواف . استبيَّد السكون . انتهكه أنين الذباب . أخيراً تكلَّم الزعيم :

– نحن لا نحبس الخلق بلا سبب .

اختلس إليه نظرة خفية . ضبطها الشيخ ، وقرأ فيها السؤال . قال :

– فعلنا ذلك كي نغسلك من الوباء .

– الوباء ؟

–رأيناه عندما ألقى بك إلينا ، فادركتنا ما حادث .

اختلس إليه نظرة أخرى . ولكنَّ الشيخ ترصدَها فالتفت العيون .

قرأ الاستفهام مرة أخرى . أوضح :

– هل تظنَّ أنَّك الوحيد الذي غرَّ به ونزع إسمه ؟

رسم بالسبابة والأوسط تقاطعاً مزدوجاً على التراب . أحاط العلامة بطوق . أجاب على السؤال :

– لقد ألقى لنا خلقاً كثيراً في الماضي . وكانوا كلَّهم بلا أسماء .

ضاقت عيناه . كفَّ عن المحرث . سأله دون أن يرفع رأسه :

- ولكن هل تذكر شيئاً؟ خبرني : هل قال لك شيئاً عن الخير والشر؟

ثم أقبل إليه بعينيه الصغيرتين مشجعاً . عاد جبارين يعصر يده اليسرى بيده اليمنى ، ويعصر اليمنى باليسرى . طأ طأ . حاول أن يتقهقر . أن يعبر ظلمة الكهف ، وأن يدرك الرحلة . قال :

- اظنه قال أشياء كثيرة . اظنه تحدث عن الخير والشر أيضاً .

ولكن هل هو شرير يا مولاي؟

اسدل الزعيم ستار على وجهه . اختفت اللحية الثرية ، ولم يبق من الوجه سوى العينين والوجنتين . رفع ركبتيه حتى وازتا وجهه المستور باللثام . أحاطهما بذراعيه ، فبدا ، في هذا الوضع ، شبيهاً بطفل شقي . تعلق بالأفق المغمور بفيض السراب . قال :

- من يجرؤ أن يرمي مخلوقاً بالشر كمن يتبااهي أمام الخلق بوفاء الخل . فكلا الامرین ، يا ولدي ، حماقة . حماقة لأن الخير قد ينقلب إلى شر حقاً ، ومن الشر قد يولد الخير ، بنفس الناموس الذي يحول الخل الوقى عدواً ، والعدو النبيل إلى خل .

اشتعل جبارين بالحماس :

- نعم . نعم . اظنّ أني تذكريت شيئاً . لقد ذكرني مولاي . قال أنه يفعل الشر لأنه على يقين أنه سينقلب إلى خير ، ولكنه لا يفعل الخير أبداً خوفاً من أن يتحول إلى شر .

- الـدـاهـيـةـ اـ

- هل هو داهية؟

- ما أقوى حـجـتـهـ اـ

- ماذا يقول مولاي؟

- قلت أن حـجـتـهـ أقوى حـجـةـ . ولو لا قـوـةـ المـحـجـةـ لما استولى على الصحراء . ولكن هـيـهـاتـ أن تـفـهـمـ يا صـغـيرـيـ . ولكن دـعـنا من الدـاهـيـةـ . وـحدـثـني عن تـجـارـتكـ .

- الرـعـيـ . الرـعـيـ يا مـوـلـايـ . لا أـعـرـفـ تـجـارـةـ غـيـرـ مـعـاـشـرـةـ القـطـعـانـ .

- حـسـنـاـ . لا يـحـسـنـ أن يـتـحـدـثـ صـاحـبـ القـطـعـانـ مع رـاعـيـ القـطـعـانـ عن الرـعـيـ قبل أن يـسـقـيـهـ مـاءـ ، وـيـطـعـمـهـ خـبـزاـ .

دـعـاهـ إـلـىـ تـنـاـولـ الـطـعـامـ . بـعـدـهـاـ قـالـ لـهـ أـنـهـ لـاـ يـسـتـحـيـ منـ أـنـ يـعـرـفـ بـأـنـهـ اوـدـعـ قـلـبـهـ فـيـ قـطـعـانـهـ مـنـذـ غـدـرـ بـهـ الزـمـانـ ، وـوـجـدـ نـفـسـهـ شـيـخـاـ ، فـأـقـامـ فـيـ الجـبـلـ ، وـرـكـنـ إـلـىـ التـسـلـيمـ . قـالـ أـنـهـ رـفـضـ عـرـضاـ مـغـرـيـاـ مـنـ أـحـدـ التـجـارـ لـرـافـقـتـهـ إـلـىـ الـادـغـالـ لـاستـجـلـابـ التـبـرـ . رـفـضـ لـاـ زـهـداـ فـيـ المـالـ ، وـلـاـ تـعـفـفـاـ مـنـ نـيلـ الثـرـوـةـ ، وـلـكـنـ بـسـبـبـ التـعـبـ ، وـخـوـفـاـ مـنـ اـهـواـلـ الـطـلـبـ . اـعـرـفـ اـيـضـاـ أـنـ النـبـوـةـ حـذـرـتـهـ مـنـ الرـحـلـةـ ، وـاـوـحـتـ لـهـ بـأـنـ يـقـنـتـيـ الـاغـنـامـ ، لـأـنـ تـرـبـيـةـ القـطـعـانـ هـيـ التـجـارـةـ الـوـحـيـدـةـ التـيـ تـلـيقـ بـالـشـيـوخـ الشـرـفاءـ .

فـيـ النـهاـيـةـ فـزـتـ مـنـ عـيـنـهـ دـمـعـةـ وـهـوـ يـقـولـ : «أـعـلـمـ أـنـيـ لـاـ اـكـتـرـكـ رـاعـيـاـ إـذـ أـوـكـلـ إـلـيـكـ أـمـرـ غـنـامـيـ ، وـلـكـنـيـ أـنـصـبـكـ وـصـيـاـ عـلـىـ قـلـبـيـ»ـ .

٢٢ - الخروج ج

«جلس في يمين العظمة في الأعلى ، صائراً أعظم من الملائكة بقدر ما ورث إسماً أفضل منهم» .

بولس الرّسول
«الرسالة إلى العبرانيين»

* * *

«يزول الإنسان ، ويقى إسمه» .

إ...أو إ

(١)

ليس غريباً أن تكون «مولا - مولا» أول من يأتي بالنّبأ . فالصحراء نفسها اختارت لها ملاداً عندما أرادت أن تفر من كيد الخلق . في المرة الأولى تخفّت في برمي الرّتم . في الحبة المستطيلة التي تقل حجماً عن حبة الشعير فلا تكاد تُرى استعارت ألوان قوس قزح في لون واحد فجعلتها تعدد الألوان تتشبه بقطرة المطر فتخرج من فردوس الألوان بلا لون . ولكن ما أن يحين الميعاد ، وتسنوي الفصول ، وتستقر الانواء في منازلها ، حتى تتفتح الحبة ، تتّسم البرعمـة الخفية ، وتكتشف عن ثغر ناصع . تتفقّ عن جديـلة خماسية الاطراف ، تولد من فمـها البـشارـة ، وتنـشر في وجهـ الحياة طـيبـ الـوـعـد . تستـشـقـ الكـائـنـاتـ شـذـىـ الـاعـجـوبـةـ الذي لم تسمع به أذن ، ولم يتـشمـمـهـ انـفـ ، ولم تـذـقـهـ رـئـةـ ، ولم يـخـطـرـ بيـالـ مـخلـوقـ . ولكنـ أـهـلـ الشـرـ جـدـواـ فيـ الـطـلـبـ . وإذا جـدـ الخـلـقـ فيـ طـلـبـ شـيءـ فـلاـ بدـ أـنـ يـجـدـوهـ مـهـماـ أـمـهـلـ الزـمـانـ ، وـمـهـماـ اـخـفـيـ المـكـانـ . عـرـفـ أـهـلـ الـكـيدـ الطـرـيقـ ، وـادـرـكـواـ سـرـ الزـهـرـةـ . بدـأـواـ الـحـمـلةـ حـالـاـ . اـجـتـثـواـ الشـجـرـةـ مـنـ الجـذـورـ ، وـازـالـواـ الرـتـمـ مـنـ الـوـجـودـ ، سـعـياـ وـراءـ الصـحـراءـ . ولـولـتـ عـذـارـىـ وـاوـغـمـاـ ، نـاحـتـ صـبـاـيـاـ الجنـ مـنـ فـرـطـ الـهـوـلـ ، تـنـحـتـ الجـبـالـ الزـرـقـ مـنـ مـوـقـعـهاـ وـزـحـفـتـ جـنـوـبـاـ ، فـزـعـتـ قـطـعـانـ الغـلـانـ وـفـرـ الـكـحـلـ مـنـ عـيـونـهاـ . ولكنـ الصـحـراءـ نـجـتـ مـنـ الـمـكـيـدةـ . تـسـلـلـتـ مـنـ

ملكة السر في ليل أحتمى بفيض الإله الفضي ، ودخلت في بطنه أujeوبة أتعجب شائناً من زهرة الوعد ، وأشدّ منها سخاء ، وأكثر قدرة على الاختفاء : جوف الترvas .

هناك ، في وطن الاسافل ، في وادي الظلمات ، تنقلت الصحراء في الألوان ، عبرت البرازخ ، طافت المالك ، واجتازت كل حد . توغلت في بحر السر ، وعرفت المجهول ، ووقفت على أمر كل أمر خفي . عادت بالحكمة ونالت مواهب السحر والكهانة ، وتحلت من الزهد بمزيد ، ولكنها لم تحتمل أن تبقى أسيرة ابدية للظلال ، فطلبت الكشف . جاء الميعاد . تراكتضت الانواء . بحثت الافلاك عن مستقر لها . بلغت النجوم منازلها . رسمت الاقدار إشارتها بطلسم الشهب . تململ في الاعماق الكنز الخفي . تكون . تكون . بحث عن الوطن . تعقعت السماوات . مزقتها البروق . تزلزلت الارض بالخاض . تشقت وخرج من جوفها الوليد . كان مجبولاً من طينة أخرى ، لأنه جاء من وطن آخر ، من نعيم آخر . ربما من «واو» . وربما أبعد من واو . هذا الوطن المجهول هو الذي ميّزه عن كل شيء في الارض ، له لون ، ولكن لا يدرك لطعمه سر ، له بدن مدور ، ولكن لم يعرف لعيشه قرين أو شبيه . هو كائن حي ، ينمو ، ويتكون ، ويستدير ، ولكنه الكائن الوحيد الذي لم تعرف بينته شجرة واحدة في الارض كلها . فاحتار الدهاء . قالوا أنه لو لم يأتي من المجهول ، لو لم يلد نفسه من نفسه ، لهان أمر

التخريب . ولكن كيف السبيل لقطع أصل ما لا أصل له ؟ . فكروا طويلاً . تسكعوا طويلاً . تمسحوا بالانصاب طلباً للوحى . ولكن أساطينهم لم يهتدوا إلى الحيلة إلا بعد أجيال . فقد جربوا أن الشرة الخفية لا تظهر إلا في البقاع البكر التي لم تمسها اليد . فإن عثت الخلوقات بأرض ، وخدشت حياءها بمعاولها أو محاربها أو أظافرها الكريهة ، هرب منها الترvas ، وأصيب ترابها بالعقم . فقال أساطين الشر : « تعالوا نحرث الأرض ، ونفرّق التراب ، ونقلب عاليها سافلها ، علّنا ندرك سر الصحراء » . بقرروا بطن الأرض ، وانتهكوا فيها الجوف ، ففرّت الصحراء من الصحراء وبحثت عن ملاد آخر . بحثت طويلاً . بحثت أمداً أطول من المرتين السابقتين . تريشت كثيراً قبل أن يقع اختيارها على مولا - مولا وطنناأخيراً .

يقول «أنهي» أن العهد تم بخصال في «مولا - مولا» . فهو أيضاً طائر غامض ينتهي إلى وطن الخفاء . لم يسبق لأحد أن عثر له على عش ، أو على بيض ، أو على فراخ ، كما لم يعثر عليه أحد ميتاً أيضاً . مولا - مولا كالترvas لم تعرف أباً ، ولم تولد من أم . ولكنها انفردت بخصال آخر : اولها قدرتها على التخفّي ، واستحالة نيلها بوسائل الصيد . فقد جرب أهل الكيد أن يرموها بالحجارة ، أو يصييروها بالسهام ، أو يوقعوها في أفخاخ ، ولكنهم فشلوا فيمسوا . تم العهد ، ولم تجد الصحراء مستقرأ لها إلا في الوطن المتنقل ، فطاب لها المقام ،

وجعلت من مولا - مولا رسولاً أيضاً . إذا تجمعت جحافل الاعداء ،
وشيّعت رايات الغزو ، اقبلت مولا - مولا الى الزعماء بنبوات التحذير .
ولذا حلَّ على الخلاء الوباء أوحت للسحرة بالتعاونية ، وإذا ادبر الحظ ،
وتجهمَّ الزمان ، ولاح في الأفق غول الجدب ، هرعت مولا - مولا
بالرسالة الى مجمع الحكماء وقرأتها على رؤوس العرافين والسحرة .
ولذا جاء الطلاق إمرأة ، واشتدت بها آلام المخاض ، جلبت مولا - مولا
لها العزاء ، وقالت لها أن آلام الولادة بلسم لمن ينجذب بطلاً ستفخر به
القبيلة ، وتبااهي به الصحراء .

أما إذا سقط مهاجر سافر إلى بلاد الأدغال ، أو وقع تائه نال منه
الظلماء ، فإن مولا - مولا أول من يعود للقبيلة بالبُشْرَى . وأول من ينوح في
مداخل الأخبية فيقرأ العرافون ، في المناحة ، النبأ اليقين .

(٢)

استلقت في زاوية الخباء ، وراقبت مسلك الرسول . رفف في
المدخل يالحاد . ظلَّ معلقاً في الفراغ كأنه يتأنَّب للإغارة على دودة .
ولكن رأسه لم يكن مشدوداً إلى أسفل ، إلى التراب ، وإنما إلى ركبة
البيت . يتلامع تاجه الناصع تحت شعاع الصبح ، منقاره المنفرج يرتجف ،
وعينه الظلماء لا تتنحى عن التفتيش في ظلمة الخباء . استعانت برفقها .
مدَّت رقبتها إلى الإمام . حدَّقت في الجسم المعلق . سمعت رفرفة
الجنابين وهما يعandان الفراغ ، ويقاومان إغواء الهاوية ، رأت رجفة

البدن كله . لم يكتفي سلطان الرجفة بالاستيلاء على المنقار ، ولكنه استبد بالرّيش ، بالساقين ، بالمقلتين الخفيتين ، القلقتين . حدقت في المقلتين فانتفضت . ندت عنها شهقة مخنوقة ، ارتدت إلى الوراء . احست بوهن . استبدت بها رعشة ، ارتعاش الرسول انقل إليها . بدأ ت الأوجاع . الصداع . آلام الجوف . الغثيان . المخاض . المخاض !

ولكن الرسول لم يمهلها ، فاطلق النداء . نداء ملحوظ ، شجي ، يفيض بالاحزان والاشجان ككل نداء في الصحراء . في الطرف الاولى غابت في ظلمة أشد سواداً من ظلمة الكهوف . تخبطت في الجوف طويلاً ، لم تعجز عن الرؤية فحسب ، ولكنها عجزت عن المشي أيضاً . عن الزحف ، عن الحركة . أرادت أن تصرخ . أن تطلب النجدة . ولكن اللسان مات في حلقها . فقدت الاحساس بالانتماء إلى البدن ، يئست . وما أن يئست حتى انشق الافق عن القبس . القبس اضاء النصب الوحيد . فوق النصب انتصب الضب . في الاسفل تکوم «إدبني» في دائرة حديثة العهد . تفقدت الحجارة فتبينت في النداء نداءاً موجعاً ، بعيداً ، كأنه أنين الاموات الذين يروي «آنهم» أنهم يتاهبون للعودة إلى حياة القبيلة . أنصتت . ماذا ؟ همدت . توقفت عن الحياة . حولت نفسها إلى أذن لا تسمع فقط ، ولكن تبصر أيضاً . تواصل النداء في النداء . علا أنين من توارى في نبوءة الرسول . لم تصدق . حاولت أن تنهض . استولى عليها خور الكوايس . انهارت . تشبتت

بالركيزة . افتلت من يدها الركبيزة . مادت الصحراء . اختفى الرسول . حلّت ظلمة أشدّ ظلاماً من ظلمة الكهف . استعانت باللسان . اللسان كان العضو الوحيد الذي لم يخذلكها . استجابت للنداء بنداء أشدّ : «آ - آ - آ - آ ...» . اقتحم النداء النجع كلّه . اجتاز القبيلة . طاف الوطن . بلغ الاموات في المقابر . هرعت الى الخبراء الجارات .

(٣)

قبل أن تأتي مولا - مولا بالبأدب الرجال في كل صوب . في اليوم الأول خرج الأب لوحده . ظنَّ أن الشقيقين تأخرَا بسبب طيش الجداء وشقاوat التيوس . تفقد العراء المجاور . نزلت العتمة فنزل اودية أبعد . هناك رکع على الأرض ، وتوسد الحصى . تصنّت طويلاً ، فلم يسمع سوى أنين السكون الحالد . قطع الوادي . أعتلى الراية . تأخر الإله الليلي النبيل . غاب بدن الصحراء في لفافات العتمة . رفع رأسه . أوّمت له النجوم يأشارات مبهمة . تمنى لو كان ساحراً أو عرافاً فيقرأ الإشارة . يئس من انباء الانواء . استنجد بالخلاء . بالظلمة . اسفل الراية تلاحت اطیاف الجنّ . كانوا يتلاحمون ويتفرقون . يتلاصقون ويتلحقون ، يتذفرون في افواج لا تنتهي . فأين يذهبون ؟ أم أنهم ينتظرون ويحشدون صفوفهم انخراطاً في حملة ؟ تمنى مرة أخرى . تمنى لو كان مخلوقاً من أهل الخفاء . لو انتهى لقبيلة الخفاء لما خفى عليه أمر ، ولما احتاج لأن يشقى بحثاً عن الشقيقين الشقيقين .

نزل المرتفع . اخترق أهل الخفاء . عادوا إلى مملكة الخفاء . فما اسعدهم . يتبدّون متى شاعوا ، ويختفون متى طاب لهم الاختفاء . قضى الليل كله في البحث . ظهر القمر متأخراً . بعد طلوع الإله عشر على بقايا القطبيع . الذئاب أهلكت أكثر من نصف القطبيع . عاد بالمعز . بلغ النجع مع طلوع القبس . وجدها في الانتظار . حمل قربة ماء . عاد إلى الخلاء . خلفه انطلق طابور طويل من الرجال . بدأ البحث الكبير . استمر البحث ثلاثة أيام . أثناء غياب الفرسان نزلت مولا - مولا النجع . حامت حول الأخيبة . رفرفت في مدخل البيت ، تحمل فوق الرأس تاجاً ، وفي المنقار النبوة .

(٤)

تحلّقت حول رأسها العجائز والنساء . تبادلن نظرات لئيمة تقول أنهن عرفن الحبل الكاذب ، وجرّبن معاندة نساء جاءهن المخاص ، وانجبن ابناء لم يولدوا ، لأن التوق إلى الولد أكثر مما ينبغي مخاطرة مخالفة للناموس الذي يحذّر من الرغبة في أي شيء أكثر مما ينبغي ، فيأتي جند الجن ، ويختطفون الأولاد قبل أن يفتحوا أفواههم بصرحة الاستهلال عقاباً لهن على الاشتقاء .

ولكن الأم التي فقدت ولدين ، وتلقت الوحي في نداء مولا - مولا ، تلقت النظرة اللئيمة فتلوت على الأرض ، وارتفع صوتها بعويل منكر ، وبدأت تتوسل أن يرسلن في طلب الساحر . لم تبعث العجائز

٦٠

في طلب الساحر . ظنَّ أنها تتوجه ، ورغبتها ما هي إلا مزاج ميَّز
الحالى دائمًا ، ولكنها استماتت والتحمَّت معهن في عراك بالايدى ،
وقالت أنها ستفضُّل عن جسدها جميعًا ، وتذهب إليه بنفسها إذا لم
يأتِنَّ به إليها . غزا البياض مقلتيها . تفاصد على جبينها العرق . لفظت
ربما ، فظنَّ أنها تحضر ، وترى أن تسر للساحر بوصيتها الأخيرة .

جاء الساحر .

هدأت . عرفت السكينة . تبدلت . ابتسمت للساحر . طلبت
منهن أن يتركن الخبراء ، لأنها ترى أن تحدث إليه على انفراد .

(٥)

لم تعرف القبيلة ما دار بينهما . ولكن تدابير الساحر لم تفت أهل
الفضول . انطلق إلى خباءه ما أن تلقى الوصية . أخرج من استعنه قلادة
مهيبة من التمام . كانت مدسوسَة في مثلثات ومربعات من جلد الغزال .
على الجلد استقرَّت أوسمة قديمة طبعتها ألسنة المدى ، وألسنة النار .
علقت القطع في خيط جلدي أيضًا . مجدول بمهارة ، شذب الزمان فيه
اللون ، وحوله الاستعمال إلى خيط باهت ، صقيل ، غامض . استبدل
لثame الشاحب بلثام جديد ناصع البياض . استبدل «الرفيفت» * أيضًا .
ارتدى سروالًا ناصعاً أيضًا . ثم علق الأحجحة الجلدية في رقبته . أخرج
من الحراب مدية محفوظة في غمدٍ موسم بحروف «تيفيناغ». ثبت

(*) الرفيفت : جلباب فضفاض من الكتان الایض .

المدية في الذراع ، فأخفاها الْكُمَّ الفضفاض .

خرج .

انطلق إلى تجمع الماشية . اختار جدياً أسود اللون . قيده جيداً . وضعه على منكبـه . انطلق صوب وادي الجنـ . خلفه سار الصبيان . من مداخل الأخيبة تابعـه النسوـة . عندما أشرفـ على الوادي توقفـ . التفتـ هـدـد الصبيان بنظرةـ صارمةـ فانقضـوا وتشتـوا . نزل الواديـ . قطعـ الواديـ . صعدـ سفحـ المرتفـعـ . توقفـ قبلـ أنـ يـلـغـ الشـعـفةـ . انـزلـ الجـديـ . جـلسـ عـلـىـ جـلـمـودـ . تـفـقـدـ الـخـلـاءـ . تـصـنـتـ . أـنـصـتـ لـخـاـورـاتـ الجنـ فـيـ الوـادـيـ . اـطـلـقـ الجـديـ شـكـوـيـ حـادـةـ . قـامـ . وـضـعـ الجـديـ عـلـىـ منـكـبـهـ الأـيمـنـ . صـعـدـ . بـلـغـ الشـعـفةـ . دـخـلـ عـرـاءـ مـكـشـوفـاـ يـعـدـ بـيـادـيـ فـاجـعـةـ . قـطـعـ مـسـافـةـ . فـيـ طـرـيقـهـ نـبـتـ ثـلـاثـةـ قـبـورـ مـسـتـدـيرـةـ . الـقـبـورـ بـدـتـ فـيـ الـعـرـاءـ الـعـارـيـ كـشـيـةـ مـعـتـزـلـةـ ، مـنـسـيـةـ . تـنـتمـ بـتـعـيـمةـ . انـحرـفـ يـسـارـاـ . قـطـعـ مـسـافـةـ قـصـيـةـ . تـبـدـيـ النـصـبـ . لـعـ وـمـيـضـ . اـقـرـبـ . شـاهـدـ الـحـكـيمـ الـقـدـيمـ يـنـتـصـبـ عـلـىـ الـمـرـادـهـ . يـتـبعـدـ . يـرـاقـبـ الـأـفـقـ الـمـغـمـورـ بـغـلـالـاتـ الـلـعـوبـ . تـعلـقـ بـالـأـفـقـ . غـابـ فـيـ الـأـفـقـ . عـاـشـ فـيـ الـأـفـقـ . مـاـ أـنـبـلـ الـأـفـقـ . مـاـ أـبـدـعـ الـأـفـقـ . فـمـاـ سـرـ الـأـفـقـ ؟ مـاـ الـذـيـ يـغـوـيـ فـيـ دـنـيـاهـ ؟ أـهـوـ الـوـعـدـ ؟ أـمـ الـأـبـدـ ؟ أـمـ الـمـسـافـةـ ؟ أـمـ وـاـوـ الـفـقـيـدـ ؟

اقـرـبـ . دـحـرـ حـجـراـ بـنـعـلـهـ فـانـتـبـهـ الـكـاهـنـ . لـعـ وـسـامـهـ الـذـهـبـيـ مـرـةـ أـخـرىـ . التـقـتـ عـيـنـاهـماـ . تـبـادـلـ نـظـرـةـ . حـدـقـ الـكـاهـنـ فـيـ عـيـنـ

الكاهن . وقرأ الكاهن نوايا الكاهن . تحدثا بلا صوت . وما حاجة الكاهن إلى صوت عندما يلتقي بالكافر ؟ انقطع اللقاء . قفز الضب . غاب في الفم الأرضي المظلم ، يجرجر وراءه حبل المسد . ما زال الحبل الشرس يلتف حول الذنب .

انزل الساحر حمله . ثغا الجدي بصوت أليم . تقدم من الكوم المستدير المستلقي في حضيض النصب . رأى عيناً فارغة من خصاص الحصى ، وسمع أنيناً لأول مرة . أيننا نائياً يشبه شوكوى السكون عندما يتشكى من وحشة السكون . تصنّت . تفقد نبرة الأنين بحاسة الأذن . سمع أنيناً نائياً آخر . أين الحبلى عندما يستند بها المخاض . طاف حول الدائرة . قرأ التمائم . توقف . أخرج المدية . جردها من الغمد . لع النصل . أومأ اللسان بإشارة خفية ، شرهة . تقدم من الضحية . جر اللسان الشره على النحر . حشرج القربان . فر من نحره دم أسود . سال على حجارة القبر . امتصته الأرض المفروشة بسجاد من حبيبات الحصى . لوّث الساحر يديه . رش النصب بقطرات سخية . رشق المدية الدامية فوق رأس القبر ، بجوار النصب . تعلق بقوس الافق . غاب هناك زماناً . عاد . بدأ يزيف الحجارة . ارتفع الأنين . أزاح اكواه الحصى . اقترب الأنين . أخرج تراباً مخلوطاً بحجارة . موضع يده على الكنز . تحسّس البدن . أحاط البدن بكلنا ذراعيه . أخرجها بحذر . ولكن الجريح اطلق صرخة موجعة ، طويلة ، كأنها نداء مجهول ، كأنها فجيعة

الوليد في بكائية الاستهلال.

في ذلك الوقت كانت الحُلْبى تخلص من حملها الخفي في الخباء وتطلق صرخة الخلاص ، لأنها انجبت ولداً لم يأت به «آيل - بيل» محمولاً على جناحين ، فلم يره أحد سواها . كما لم ير أحد ذلك الشبح المريب الذي جاء متستراً بغيوب المساء ، يحمل بين ذراعيه بدناً ملوثاً بالدم والغبار .

(٦)

«واسفون ، واهيدين إيجمصن سيات تيكال» * .

الاغنية ملحونة على نسق «أساهع» . تغتّ بها الأم وهي تضع ولیدها في حجرها . تنكفيء عليه ، تتمايل مع الموّال الشجني . كما تتمايل مع بدن الشكوة عندما تخض الحليب . غفت على رأسه طوال الشهور التي غالب فيها الآلام ، فلم يعد اللحن له ترياقاً للسقّم ، أو بلسماً ضد الوجع ، ولكنه به عرف الشفاء ، وفيه ذاق العافية ، ومن خلاله ادرك شيئاً إسمه الحياة . بعد الشفاء راق لها أن تداعبه بالسؤال المكرر : «ميسمنك؟» ** فيتذكر . يقطب حاجبيه كمن يحاول أن يتذكّر . يكتسب فجأة . يخفى وجهه بيديه ويردد باكياً : «لا اذكر . لا ادرى . لا اسم لي . لا اسم» . في العراء بدأ الصبيان يعيرونها . قالوا أنه

(*) أحجمهم إلى ، من خرج مني مرّتين .

(**) ما إمسك؟

فقد إسمه الأول عندما فقد نفسه . فقد إسمه عندما دفعه شقيق مزعوم في هاوية الظلمة . فكان يكفي ويهرع إلى الأمّ . تهددهه . تسند رأسه على ركبتها . تتحسّس الاخدود في رأسه . تخنقها عبرة وهي تقول : «لا تصدق الصبيان . انت لم تذهب إلى الظلمة . والأخ الذي يتحدثون عنه لا وجود له».

يهدأ ، يعود إلى اللعب مع الأقران . يعود الأقران إلى تعيره بفقدان الإسم ، فيعود إليها . يقول لها أن القراء كلهم نالوا أسماء ، فمتى تأتي له ياسم . تبتسم له . تتحسّس الاخدود المدوس تحت الشعر ، تنطق بالعزاء : «قريباً ستأتي مولا - مولا ، تحمل لك إسماً» . يسألها : «ما هو الإسم؟» . تجيب : «الاسم هو انت . من أنت بلا إسم؟» . يقتنع . يخرج إلى العراء . يتبع اللعب مع الصبية . ولم تدعه يخرج إلى أبعد . قالت أن الميعاد لم يحن بعد للخروج إلى المراعي ، لأنّه أصغر من أن يعاند شقاوات الجداء . ولكن ميعاد الإسم لم يتأخر . أقبلت مولا - مولا بالإسم . كما أقبلت قبلها بنبوءة الميلاد ، فتأهبت القبيلة لتأدية المراسم .

(٧)

قبل أن تأتي مولا - مولا بنباً الميلاد ، أنت «تيرزازت» بنباً «إيبا» * . خرجت إلى العراء بعد خروجهما إلى الرعى بقليل . ذهبت لترمي

(*) إيبا : العدم ، الوفاة ، التحول إلى روح .

الفضلات فاعترضتها . وقفت في وجهها كأبشع سعلاة من سعال الجن .
نبت من الأرض ككل ساحرة كريهة . طلعت من الظلمة السفلية تحمل
كل شوم الأرض السفلية . وقفت على رجليها الخلفيتين . انتصبت
بقامتها إلى أعلى . تتدثر بوبر نحاسي اللون . ولكن وسماً ناصعاً مدهشاً
اخترق بدنها ، فامتدّ من جانبي الوجه ، ونزل على الصدر ، واتسع عند
البطن ، وتمدد حتى شمل الساقين الخلفيتين . رمقتها في تحدّ ، وإصرار ،
وشرّ . فوجشت هي بالمواجهة ولكن الملعونة لم تفاجأ . ترخرج قلبها ،
وسقط في مكان مجهول ، ولكن الساحرة ابسمت كأنها رأت القلب
الذي انخلع ، ورأت أين سقط . حاولت أن تحرك لسانها بالتعويذة ،
ولكن اللسان أيضاً انخلع ومات . تراجعت إلى الوراء خطوة ، فرأت
المشومة تنزل ساقيها الإماميتين ، وتقفز نحوها دون أن تتخلى عن
ابتسامة الحقد والشماتة . سقط طبق الفضلات من يدها دون أن تدري .
وهزّتها رجفة عنيفة دون أن تحس ، وانحنى على الأرض دون أن
تدري أيضاً . تناولت حجراً شرساً . القت بالحجر في وجهها ، دون أن
تعلم من أين أتتها الشجاعة للقيام بهذه البطولة . أصابها الحجر الشرس
في رأسها . شجَّ رأسها . شرخ معتم تبدى على شعفة الرأس . فزَّ الدّم
ورسم علاقة معتمة . تفتحَ الجرح . تبسم بغموض الجراح الميتة . رأت
بياض الجمجمة ، فعرفت أن الجرح كان عميقاً ، عميقاً . ولكن
الساحرة لم تترنّح . لم تفقد الوعي . لم تسقط كما سقط قلبها . بل

ازدادت ابتسامتها إتساعاً ، وشماتة وحدقاً . اختفى الجرح المميت في غمضة . تبدد الدم وتبخّر . استندت بدنها كله على ساق واحدة . استدارت . دارت حول نفسها ، رقصت . اطلقت قهقهة منكرة . قهقهة كريهة تنبيء بأمر كريه . لم تحتمل النبوءة ، فسقطت أرضاً . تقىأت بصوت عالي . زحفت . استعانت بيديها . ظلت تزحف نحو الخباء وتتقىأ طوال الطريق . حاولت أن تستغيث ولكن الصوت لم يسعفها . بلغت الخباء . تشبّثت بالركبة . اغمضت عينيها . تحركت الشفتان بحثثاً عن التميّة . انتظرت أن تستعيد القلب الذي تحول حجراً وسقط بعيداً . وكان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تسترد القلب والدم والانفاس . لم تيأس . غمرت يديها في جوف التراب بمجرد أن استعادت سلطانها على أعضائها . انطلق اللسان يقرأ رموزاً توارثتها الأجيال عن الأسلاف . ومضت اليد تدفن الشر في بطن التراب . تتحصن بالأرض . تستجير بالأم ، حتى تقطع النبوءة قبل أن يقع المكروه . هي تعلم أن «تيرزازت» إذا أتت فلا بد أن تأتي بالنهاية المهول . وتعلم أيضاً أن الأرض نفسها تعجز عن إيقاف أمر قرره الخفاء ، ونادت به الساحرة الملعونة . ولكن الأرض تشفع . الأرض تلطف البلاء ، وتخفف الواقع ، فأجيري يا أرض ، أجيري يا أرض ، أجيري يا أرض ، أجيري يا ...

كانت شاحبة ، ممتدة ، شقية ، حتى أن جارتها ، عندما دخلت لزيارتها ، اطلقت صرخة فزع .

(٨)

ضفرت له تُميّمة من النقيضين . أخذت من رسول الزوال نصيباً ، وأخذت من طير البشارة نصيماً ، وصنعت له من الضديين إسماً . اختارت من نغم المحبة حرفاً ، ونالت من وطن «تيرزازت» حرفأ ثم حرفأ ، وابدعت من النصفين ترميّمة منمنمة بمنمية خفيّة . انتهت من الاختيار . جاء دور الاغيّار . استنفر الزعيم اركان القبيلة . تستّر الفرسان بالاقنعة الزرقاء . تسابقوا الى المهاري . ثبّتوا السروج . تباروا في اخفاء ابدان المهاري بما ابدعته حسان القبيلة من منمنمات ومقنّيات وزينة . تزلّلت الصحراe بالزغاريد . انتشر الفرسان في السهل كأنهم يتّشوّدون للإنطلاق في حملة . خضّبت الحسان شفاههن وخدودهن بـ «تفتست». أرقن على اجسادهن رحائق من زهر الرّتم . تلحفن بأردية الأرجوان المستجلبة من اوطان المجهول . خرجن إلى العراء بوجوم نبيل . يحملن ضفائر في سواد الفحم على صدور مكابرة ، يخفين تحت الشياطين الفضفاضة الة ذات وتر يتيم كأنه يتّشبّه بمعزلة الصحراء ، ولكنه يتكلّم لغة تقهّر كبرىاء السحرّة . وتسقط الزعماء في الغيوبة ، وتجعل الجنّ أنفسهم يرقصون ويتّحبون .

من طرف العراء الآخر تجتمع الصبيان . تسأّلوا بفضول الصبيان : «من يزفون ؟ من هو العريس ؟ من هي العروس ؟» فرفرت مولا - مولا على رؤوسهم . تفّلت بايات مختارة من سفر النبوة . قالت الاشعار

الخفية أن الاسم دائمًا عريس ، والحياة هي العروس . فليس من اقرن بأنثى من يستحق الزفاف ، ولكن الأولى أن ينال الزفاف ذاك الذي ولد مررتين .

اختلت به الأم في زاوية الخباء . عرّته من لباسه كأنه طفل رضيع . جاءت بقربة الماء . دلقت عليه السلسيل . لسعه السائل النفيس فاطلق صيحة وجمع . علقت في رقبته تيمة جديدة . اجلسه على عرش من التراب في صدر الخباء . غرست إلى جواره مدities . الاولى عن يمينه ، والاخرى عن شماله . اقبل الساحر . وقف بجوار الركبة . في السهل نطق الوتر الوحيد بلغة الاشجان والأنين . غابت الصحراء من الصحراء . ناح الجن في الجبال الزرق . ترَّنَّح الزعيم في الوادي . فاض الحنين بالفرسان . لكزوا رقاب المهاري ، فانطلقت تحجل برشاقة الغزلان ، ومرونة الريح . انتقلت العدوى إلى الساحر . بدأ يرتجف . اقترب من العرش . ركع عند قدمى المخلوق الوحيد الذي خرج من الوطن ، ثم عاد إليه من جديد . مال على الاذن اليمنى . زعق بأعلى صوت : «كر - ر - ر كيونان بورو» * .
(نهاية الجزء الأول)

موسكو - باتايا (تايلاند) - وادي الآجال (الصحراء الليبية) -
تون (الألب السويسري) .

. ١٩٩٣-١٩٩٢ م.

(*) كر - ر - ر أنت بورو .

فهرس الجزء الأول

الصفحة

	القسم الأول
٣	١ - بورو
٥	٢ - الطير
٨١	٣ - الحُصْن
١١٣	٤ - الوطن
١٤١	٥ - الكمين
١٥٣	٦ - الحَيَاةُ أ
٢١٩	٧ - الدائرة أ
٢٥٥	٨ - الحجر أ
٢٦٧	٩ - الظِّلْمَة
٣٠١	أ - الريّح
٣٠٨	ب - الرُّبْد
٣٣٧	ج - الحسناء
٣٤٢	القسم الثاني .
٣٥١	١٠ - الحَيَاةُ ب
٣٥٣	١١ - العابرون
٣٧٣	

الصفحة

٤٠١	١٢ - الدائرة ب
٤١٧	١٣ - القرآن
٤٣١	١٤ - الظل
٤٥٣	١٥ - النبوة
٤٦٧	١٦ - القمر
٤٨٩	١٧ - الحجر ب
٥٠٣	١٨ - البكاء
٥١٦	١٩ - النار
٥٢٠	٢٠ - المدينة
٥٢٤	٢١ - الحزن
٥٢٨	٢٢ - الأغاني
٥٣٢	٢٣ - القرآن ب
٥٤٥	٢٤ - الكنز
٥٦٧	٢٥ - الخروج أ
٦٣٥	٢٦ - الخروج ب
٦٤٧	٢٧ - الخروج ج

مؤلفات ابراهيم الكوني الابداعية

- ١ - الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤ م
- ٢ - جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ م
- ٣ - شجرة الرّتم (قصص) ١٩٨٦ م
- ٤ - رباعية الحسوف : (الطبعة الأولى) ١٩٨٩ م
- ٥ - البغر (رواية)
- ب - إخبار الطوفان الثاني (رواية)
- ج - الواحة (رواية)
- د - نداء الوقواق (رواية)
- ه - التّعبر (رواية) ١٩٩٠ م
- ٦ - القفص (قصص) ١٩٩٠ م
- ٧ - نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠ م
- ٨ - المهووس (رواية في جزئين) ١٩٩١ م
- ٩ - ديوان النثر البري (قصص) ١٩٩١ م
- ١٠ - الواقع المفقودة من سيرة المهووس (قصص) ١٩٩٢ م
- ١١ - خريف الدرويش (رواية - قصص - أسطير) ١٩٩٤
- ١٢ - السّحرة (رواية في جزئين) ١٩٩٤ م

* * *

Twitter: @alqareah

السَّهْرَةُ

ظنَّ أنَّ رَسُولَ الْأَجْيَالِ سِيرَفْضُ الرِّسَالَةِ، وَيَدْفَعُ الْعَطْيَةَ كَمَا فَعَلَتْ كُلُّ الرَّمَمِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّ الفَيْضَ الْبَهِمَ لَمْ يَخِبِّ لَهُ ظَنًاً. النَّبُوَّةُ الْخَفِيَّةُ لَمْ تَتَمَلَّمْ فِي جَوْفِهِ إِرْضَاءً لِلصِّدَفَةِ. رَأَى كِيفَ امْتَصَّ الْعَظَمُ الدَّمَ كُلَّهُ. لَمْ يَدْعُ قَطْرَةً وَاحِدَةً نَفَلتْ. فِي الْبَدِيَّةِ سَرَّتِ الْحَيَاةُ فِي الْبَدِنِ الْقَدِيمِ فِي خَطٍّ وَاحِدٍ مُسْتَقِيمٍ. وَلَا يَعْرُفُ كِيفَ وَلَا مَتَى تَوَقَّفُ الْخَطُّ عَنِ الْامْتَدَادِ، وَعَادَ يَنْتَشِرُ فِي الْجَسْمِ فِي كُلِّ اِتِّجَاهٍ. وَلَا يَعْرُفُ أَيْضًا كِيفَ اسْتَقَرَّ كُلُّ هَذَا النَّشَاطُ فِي بَقْعَةٍ غَامِضَةٍ، كَبِيرَةٍ، مُسْتَدِيرَةٍ الْأَطْرَافِ. لَمْ يَدْرِ شَيْئًا لَّا عَنِ النَّبُوَّةِ، وَلَا عَنِ الدَّائِرَةِ، فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ. وَلَوْ لَمْ تَحَدَّثِهِ السَّاحِرَةُ عَنِ الرَّمُوزِ عِنْدَمَا قَرَأَتِ الرِّسَالَةِ، لَمَا أَدْرَكَ مِنْ أَمْرٍ الْبَقْعَةَ شَيْئًا.

رسوم الغلاف
للفنانى ما قبل التاريخ نفذها حسني رضوان
تصميم الغلاف حسني رضوان

